

أول

دورية عربية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية
متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩هـ
صدر العدد الأول سبتمبر ٢٠٠٨م

السنة الحادية عشرة
العدد التاسع والثلاثين

مارس ٢٠١٨ - جماد ثاني ١٤٣٩

ISSN: 2090 - 0449
Universal Impact Factor UIF
Global Serials Directory UlrichsWeb
Impact Factor for Arabic Scientific Journals AIF
Arabic Index of Measuring the Quality of Scientiffic Journals AIMSJQ
www.kanhistorique.org

ناشري

kanhistorique

ISSN 0209-004X
9 770209 004499

رقمية الموطن عربية الهوية عالمية الأداء

دورية كان التاريخية.- س١١، ع٣٩ (مارس ٢٠١٨/ جماد ثاني ١٤٣٩)
Dawriyyaẗ Kān al-Tārīḫiyyaẗ
Iliktrūniyyaẗ, muḥakkamaẗ , rub' sanawiyyaẗ
Vol. 10, no. 38 [December 2017]
Cairo – Arab Republic of Egypt.
http://www.kanhistorique.org
Information on this issue: www.kanhistorique.org/Archive/2017/Issue38

تصنيف ديوي العشري – مقالات ودراسات ع٣٩ مارس ٢٠١٨

٩٤٠,٢	تاريخ أوربا الحديث
٩٥٣	التاريخ العام للعرب والمسلمين
٩٥٣,٠٩	الدولة العثمانية في أقطار العالم العربي
٩٥٣,٠٧٣	الدول الإسلامية في الشام ومصر
٩٦١,١٠٩	تاريخ تونس الحديث
٩٦٢	تاريخ مصر الحديث
٩٦٤,٠٩	تاريخ المغرب الحديث
٩٦٥	تاريخ الجزائر – الاحتلال والاستقلال

دورية كان التاريخية

إصدار مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر.- س١، ع١ (سبتمبر ٢٠٠٨).- القاهرة: المؤسسة، ٢٠٠٨ – ٢٠١٧.

دورية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

ردمد ٠٤٤٩ – ٢٠٩٠

١- تاريخ	٢- الآثار
٣- التراجم	٤ - التراث

ديوي ٩٠٥

Historical Kan Periodical
Published by Historical Kan Organization.- Vol.1, no.1 [September 2008].- Cairo: Organization, 2008 – 2018.
Peer-reviewed, open-access journal.
Indexed and abstracted in several international databases.
ISSN: 2090 – 0449 (Online)
Keywords: History, Heritage, Archaeology, Biographies.

أول دورية عربية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية
متخصصة في الدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩هـ
صدر العدد الأول منها في سبتمبر ٢٠٠٨م



ISSN: 2090 – 0449 Online

مسجلة ومفهرسة في قواعد البيانات الببليوجرافية العالمية

- Academic Journals Database
- Access to Mideast and Islamic Resources, AMIR
- CORE: Open Access repositories
- Directory of Abstract Indexing for Journals, DAIJ
- Directory of Open Access Scholarly Resources, ROAD
- Directory of Research Journals Indexing, DRJI
- Eurasian Scientific Journal Index
- Google Scholar
- Host Online Research Databases, EBSCO
- Journal Database – Zurich Open Repository and Archive
- JOURNAL FACTOR – forum for promoting research work
- Journal Guide- Research Square
- ROOT INDEXING – Journal abstracting and indexing
- The researchBib Journal database
- Ulrichsweb
- WorldCat

مدرجة في الأدلة الرقمية لمكتبات الجامعات والمراكز البحثية العالمية

- Birmingham Public Library
- Max Planck Institute for the Physics of Complex Systems
- National Cheng Kung University Library
- National Taiwan Normal University Library
- NYPL (New York Public Library)
- OALib - Open Access Library
- OREGON Health & Science University
- San Francisco Public Library
- SAN JOSÉ STATE UNIVERSITY
- Stanford University Libraries & Academic Information Resources
- State Library of New South Wales
- State Library of Queensland (Australia)
- The J. Paul Getty Trust
- The University of Texas at El Paso Library
- Toronto Public Library
- UCDAVIS University Library
- University of California
- University of Michigan
- University of Rochester
- University of South Australia
- Villanova University

دراسات ومقالات الدورية مفهرسة وذات خلاصات

www.kanhistorique.org



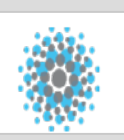
أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
دار ناشري للنشر الإلكتروني
أول دار نشر إلكترونية عربية مجانية تأسست يوليو ٢٠٠٣ – الكويت
www.nashiri.net



أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية – سان فرانسيسكو – الولايات المتحدة
www.archive.org



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة معلومات اللغة والأدب والعلوم الإنسانية
دار المنظومة "الرواد في قواعد المعلومات العربية" – السعودية
www.mandumah.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة بيانات المنهل
أول قاعدة بيانات عربية تأسست ٢٠١٠ – الإمارات
www.almanhal.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة البيانات العربية الرقمية "معرفة"
شركة عالم المعرفة للمحتوى الرقمي تأسست ٢٠٠٤ - الأردن
www.e-marefa.net



دورية كان التاريخية مدرجة في:
دليل الدوريات العربية المجانية
الدوريات العلمية المُحكّمة الصادرة في الوطن العربي والمتاحة على شبكة الإنترنت مجاناً
www.dfaj.net

موقع دورية كان التاريخية مسجل لدى:
هيئة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة
الآيكان منظمة غير ربحية تأسست ١٩٩٨ – كاليفورنيا
www.icann.org

كُتّاب الدورية	421
الدول العربية والأجنبية	25
الجامعات والمؤسسات الأكاديمية والعلمية	133
المقالات والدراسات المنشورة في الدورية	746

تعتبر الدوريات شريانًا رئيسًا من شرايين المعلومات في المكتبات ومراكز المعلومات وخاصةً المكتبات الأكاديمية التي تولي اهتمامًا خاصًا للدوريات العلمية في مختلف مجالات المعرفة. ولقد ظلت الدوريات المطبوعة هي السائدة في مقتنيات المكتبات الأكاديمية حتى قبيل نهايات القرن العشرين وقبل التحول الجذري في وسائل نقل المعلومات إلى الوسيط الرقمي الذي يزداد يومًا بعد يوم.

تحددت مهام أعضاء الهيئة الاستشارية وفق مذكرة تأسيس دورية كان التاريخية في غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، حيث تتكون الهيئة الاستشارية من خبراء ومتخصصين بهدف التعاون مع طاقم عمل الدورية لخدمة البحث العلمي، وتقديم الدعم الفني من خلال تبادل الآراء والمقترحات. والتواصل مع المؤسسات الأكاديمية العربية والأساتذة والباحثين بما يعزز مكانة الدورية في الأوساط العلمية. وتقديم المشورة والنصح في الموضوعات المطروحة من قبل هيئة التحرير. والتعريف بأهداف الدورية، وتشجيع الباحثين على النشر العلمي الرقمي. وتولي مهمة التوصية فيما يتعلق بتطوير الدورية من حيث الشكل والمضمون.

عملت هيئة التحرير ومنذ اليوم الأول على بناء الأرضية الثقافية الرقمية من أجل المساعدة في استحداث وعي ثقافي تاريخي عند الجيل العربي الشاب، وخصوصًا فيما يتعلق بأهمية التاريخ والتراث وارتباطهما المباشر بالهوية العربية والإنتاج الإبداعي الثقافي المستدام



"كان التاريخية" أول مبادرة عربية مستقلة متخصصة، تدعم مبدأ "المعبر المفتوح" في تداول المعرفة على شبكة الإنترنت بتشجيع النشر الرقمي للدراسات التاريخية. "كان التاريخية" غير هادفة للربح وتتيح نصوصها كاملة على شبكة الإنترنت، وتسعى إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي.



حاصلة على "**معامل التأثير العالمي**" (UIF) للمجلات العالمية والعلمية

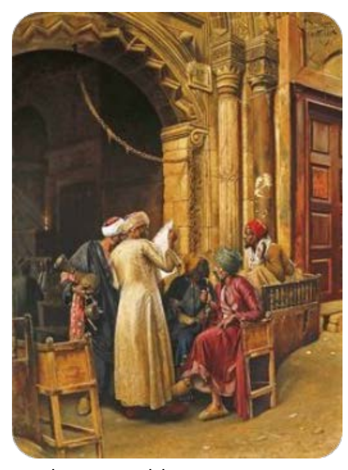
حاصلة على "**معامل التأثير العربي**" (AIF) للدوريات العلمية العربية المَحَكّمة

رئيس التحرير

د. أشرف صالح محمد

أستاذ مساعد تاريخ وتراث العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن رشد

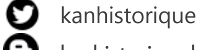


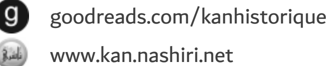
A gathering around the morning news, Cairo
Painted in 1885.
Ludwig Deutsch (Austrian, 1855-1935)

المراسلات

توجه المراسلات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com



historicalkan
groups/kanhistorique
kanhistorique
kanhistorique.blogspot.com
goodreads.com/kanhistorique
www.kan.nashiri.net

الإشعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي، إنما هي منبر علمي ثقافي مستقل يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المقالات والدراسات العلمية والأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العربية، وأصحاب الدراسات العليا، والباحثين في الدراسات التاريخية، والمهتمين بالقراءات التاريخية، وتعبر الموضوعات المنشورة في الدورية عن وجهة نظر كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

حقوق الطبع والنشر والترجمة

رخصة التشارك الإبداعي

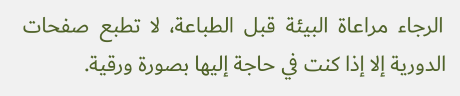
إدارة المعرفة

كَان التَّارِيْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.





الرجاء مراعاة البيئة قبل الطباعة، لا تطبع صفحات الدورية إلا إذا كنت في حاجة إليها بصورة ورقية.



دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

السياسات والقواعد والإجراءات

ترحب دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة الْتَّارِيْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكُتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقًا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسبًا للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمًا سريًا بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوئها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهاج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتازت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

قَوَاعِدُ النَّشْرِ

إرشادات المؤلفين [الاشتراطات الشكلية والمنهجية]

ينبغي ألّا يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال/ الجداول)، الهوامش، المراجع.

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.

تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات/ منتديات/ مواقع/ مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.

يجب أن يتسم البحث العلمي بالجَوْدة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

- **عنوان البحث:**

يجب ألا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيس.

- **نبذة عن المؤلف (المؤلفين):**

يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم/ الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفة الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون- الموبايل/ الجوال- الفاكس).

- **صورة شخصية:**

ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.

- **ملخص البحث:**

يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (٢٥٠ - ٣٠٠) كلمة.

البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.

- **الكلمات المفتاحية:**

الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجها في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.

- **مجال البحث:**

الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".

- **المقدمة:**

تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة، وحدود البحث الزمانية والمكانية.

- **موضوع البحث:**

يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سلمية واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).

- **الجداول والأشكال:**

ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

- **الصور التوضيحية:**

في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في <ملف منفصل> على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution)

- **خاتمة (خلاصة):**

تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.

- **الهوامش:**

يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وبإمكان الباحث استخدام نمط American Psychological Association " APA" الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.

- **المراجع:**

يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقًا للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية، ...الخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

قَوَاعِدُ النَّشَرْ

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفى الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأى كاتبها وعلى مسئوليته هو وحده ولا تعبر عن رأى أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسئولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

قواعد عامة

تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.

المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).

ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصًا وافيًا لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف/ المحقق/ المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر/ ورشة عمل/ سيمنار) مركزًا على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دَورِيةُ كَان التَّارِيْخِية أربع مرات في السنة:
- (مارس– يونيو – سبتمبر – ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسَل الأعداد الجديدة إلى كُتَّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، وشبكات التواصل الاجتماعي.

المراسلات

- تُرسَل الاستفسارات والاقتراحات للبريد الإلكتروني:

info@kanhistorique.org

- تُرسَل الأعمال المطلوبة للنشر إلى رئيس التحرير:

mr.ashraf.salih@gmail.com

مُحْتَوَياتُ العَدَدِ

١٠ – ١٧	الأمّة الحداثية الفرنسية من منظور ميشلِه
١٨ – ٣٠	المواجهة بين العثمانيين والبرتغاليين في المياه العمانية (١٥٥١-١٥٨١م): صور من العلاقات العمانية – العثمانية
٣١ – ٤١	جهود الصحابة الطبية على عهد النبي "صلى الله عليه وسلم"
٤٢ – ٥١	معركة الرملة (٥٧٣ هـ/ ١١٧٨ م) حسب رواية عماد الدين الأصفهاني (ت. ٥٩٧ هـ/ ١٢٠١م) من خلال كتابه البرق الشامي: دراسة تحليلية
٥٢ – ٦٣	الوركاء: دراسة أثرية – تاريخية
٦٤ – ٧٢	التواجد الفينيقي على ضفتي البحر الأبيض المتوسط الشرقية والغربية
٧٣ – ٨٠	التراث الثقافي المادي لمدينة مولاي إدريس زرهون: أول مدينة إسلامية شمال إفريقيا
٨١ – ٩٠	مصر والقضية الجزائرية (١٩٥٤-١٩٦٢): دراسة في الدعم الدبلوماسي
٩١ – ١٠٢	الظاهرة الكولونيالية ومناهضتها في فكر البشير الإبراهيمي من خلال مآثره الادبية والصحفية
١٠٣ – ١٠٨	قادة الثورة الجزائرية السياسيين: هل كان بن خدة ضحية التحاقه المتأخر بالثورة؟
١٠٩ – ١١٤	موقف النخبة المثقفة الفرنسية من الثورة الجزائرية (١٩٥٤/١٩٦٢): فرانز فانون وجون بول سارتر أنموذجًا
١١٥ – ١٢٢	حول تاريخ السودان الغربي للمؤرخ "السعدي": علامات منهجية وتقاطعات
١٢٣ – ١٣٤	علاقات المغرب بالأتراك العثمانيين من خلال الوثائق الإسبانية بمجوعة المصادر الدفينة لتاريخ المغرب
١٣٥ – ١٤٢	ظاهرة الهجرة في تاريخ المغرب المعاصر: الهجرة المغربية نحو فرنسا ما بين ١٩١٢-١٩٦٠ نموذجًا
١٤٣ – ١٤٨	الحركة الريسونية شمال المغرب نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين
١٤٩ – ١٥٥	عرض كتاب: الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس
١٥٦ – ١٦٦	عرض أطروحة: الحركة الفقهية في المغرب الأوسط بين القرن السابع والتاسع الهجري
١٦٧ – ١٧٠	عرض أطروحة: الأمراض والأوبئة وآثارها على المجتمع المصري (١٧٩٨ – ١٨١٣م)
١٧١ – ١٧٤	تقارير: المدن التاريخية الأثرية ودورها الثقافي والسياحي في الجزائر: حالة واحة تيتيمون، مازونة، بجاية
١٧٥ – ١٩٨	ملف العدد: النخب السياسيّة العربية والتاريخ، تأمّلات في علاقة السياسيّين بالتاريخ وأشكال الكتابة التاريخيّة

كُتَّابُ العَدَدِ

إبراهيم الهلالي	جامعة تلمسان	الجزائر
إسماعيل شيخي أوسي	الجامعة اللبنانية	لبنان
إمام الشافعي محمد	جامعة الأزهر	مصر
حياة سيدي صالح	جامعة "الجيلالي بونعامة"	الجزائر
خالد بويقران	المندوبية السامية لقدماء المقاومين	المغرب
سعيد بن محمد الهاشمي	جامعة السلطان قابوس	سلطنة عمان
سيبان حسن علي	جامعة دهوك -كردستان	العراق
شريف قوعيش	جامعة عبد الحميد بن باديس	الجزائر
صهيب الحجلي	جامعة الحسن الثاني	المغرب
عادل بن يوسف	جامعة صفاقس	تونس
عبد السلام انويكة	المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين	المغرب
عبد القادر عزام عوادي	جامعة الشهيد حمة لخضر	الجزائر
عزيز خيثر	جامعة محند آكلي أولحاج	الجزائر
عمار سماعلي	جامعة ٢٠ أوت ١٩٥٥	الجزائر
قاسم محمد غنيمات	جامعة البلقاء التطبيقية	الأردن
كرفان محمد أحمد	جامعة دهوك -كردستان	العراق
ليلى السيد عبد العزيز	جامعة طنطا	مصر
نبيل الطويهري	باحث في التاريخ المعاصر	المغرب
هشام البقالي	أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي	المغرب
وفـاء بوحدود	جامعة ابن طفيل	المغرب
ياسين زينون	جامعة الحسن الثاني	المغرب
يوسف محمد عيدان	جامعة كركوك	العراق

* حسب الترتيب الأبجدي

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

الأمّة الحداثية الفرنسية
من منظور ميشلِه (Jules Michelet)



د. ياسين زينون
أستاذ متعاقد تاريخ معاصر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الحسن الثاني – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

تُشكِّل الأسرة بامتياز نواة أيّ تنظيم اجتماعي، وعَبْر رابطة الزواج بين الأقارب تغدو الأسرة عشيرة أو قبيلة، أمّا عندما تكون الروابط الجامعة بين أفراد المجتمع هي غير الانتماء الأسري فإننا ننتقل إلى وضع آخر أكثر تطوّرا تُمَثِّلُهُ المدن، فالتنظيم الاجتماعي الإنساني ما هو إلاّ تطوّر للقبيلة إلى المدينة ثم إلى الدّولة. أعطت الثورة الفرنسية للدّولة شخصية معنوية وصبغة قانونية مستقلة عن شخصيات الحُكّام سواء كانوا ملوكًا أو أمراء أو رؤساء. واعتبرت الحُكّامَ جهازا من أجهزة الحكم، يَتَبَدَّلون ويتغيَّرون تَبَعًا للحاجات والظروف، أما الدّولة فباقية، لأنها ظاهرة اجتماعية أي وليدة للتعامل بين أفراد المجتمع. لقد اختلف مفكرو القرن التاسع عشر بشأن الدّولة، وإذا ما كان لها شخصية اعتبارية أما لا، فرأى Nietzsche Friedrich فريديريك نيتشِه (١٨٤٤ – ١٩٠٠) أن "الدّولة قد قامت في الأصل على أساس غير أخلاقي"، وجزم فريديريك هيجل (١٨٣١ – ١٧٧٠) Friedrich Hegel "بأهمية الدّولة إلى حَدِّ التَّأليه". وخلصت الآراء آنذاك، إلى أن الدّولة هي "التعبير القانوني عن الدّولة والوطن، وأنّ أي اعتداء على الدّولة إنما هو اعتداء على الأمّة والوطن، مادام تأسيس الدّولة مستمد من إرادة جماعية". خلال ذات الفترة انتشرت الأفكار القومية الأوربية بصورة ألهبت المشاعر وأعطت قدسية وربّما ألوهية لفكرة "الوطن" و"الأمّة" و"القوم"، وذلك بفضل تنظيرات عدد من المفكرين الشوفينيين، في طليعتهم جول ميشلِه Jules Michelet الذي تَمَثَّلَ دولة قومية أو أمَّة حداثية فرنسية، مرجعيتها الأساس مبادئ ومكتسبات الثورة الفرنسية، وهو ما سنقوم بتحليله في هذا المقال. وقد اتبعتُ في هذه الدّراسة المنهج التاريخي معتمدًا على أهم المصادر والمراجع في الموضوع.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٦ يناير ٢٠١٨
تاريخ قبـول النشـر: ٢٠ فبراير ٢٠١٨

كلمات مفتاحية:
تاريخ فرنسا الحديث، البورجوازية، الثورة الفرنسية، المجتمع الفرنسي

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0051239

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
ياسين زينون. "الأمّة الحداثية الفرنسية من منظور ميشله".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد التاسع والثلاثين؛ مارس ٢٠١٨. ص١٠ – ١٧.

مُقَدِّمَةُ

نـادى إعـلان حقــوق الإنسـان والمـواطن الصّـادر في ٢٦ غشت١٧٨٩ بمبدأ سلطة الشعب وتساوي الفرص واعتبر "الأمّة مصدر كل سلطة. وأن كل سلطةٍ للأفراد والجمهور مـن النـاس لا تكون صادرة عنها تكون سـلطة فاسـدة". مـدافعًا عـن مكتسـب الأمّة كمكتسب جوهري للثورة الفرنسية، كَـرَّسَ جـول ميشـلِه[١] مساره كمؤرخ وأستاذ بكوليج دوفرانس Collège de France[٢] للتنظير لقيام أمَّة حداثية فرنسية تتخـذ مـن مبـادئ وتوصيات ثورة ١٧٨٩ مرجعية لها[٣]، وسَطَّرَ لفرنسا في هذا الإطار مشروعًا حداثيًا متكاملاً وشموليًا اعتمد في بنائه على قناعاته وتكوينه، أناط فيه بكل فرنسي أدوارا مُحَدَّدَةً لإنجاحه[٤]. فما هـو مفهـوم الأمّة الحداثية الفرنسية عند هذا المؤرخ؟

أولاً: أُمَّة حداثية فرنسية مرجعيتها ثورة ١٧٨٩

لا يختلف اثنان في أن ميشلِه يظل أحد الأبنـاء الـبَرَرَة للثورة الفرنسـية. توضـح هـذا المُعطـى (Hermoine Azaki) هِرمـوان أزاكي[٥] وهـي تتحـدّث عـن إيـدكّار كينـي Edgar Quinet[٦] وميشلِه بقولها: "كانا مَعًا أبناءً للثورة الفرنسـية : إيـدكّاركينـي بأفكاره العميقة حول التجديد السـياسي والاجتماعـي لـدفاتر ٨٩

وميشلِه الثّمِل باحتفالات الاتحادات."[٧] لذا يرى ميشلِه أن ثورة ١٧٨٩ تُشكِّل بامتياز هُوِيَّةَ فرنسا وخصوصيتها المميِّزة بين الأمم، وهو ما يفصح عنه بالقول: "أيُّها الفرنسيون المنتمون إلى جميع الأوساط والطّبقات والأحزاب... عَلَيكُم أن تَعرِفُوا أن فرنسا ليس لها إلاّ اسمًا واحدًا يظل اسمها الحقيقي والخالد، هو: الثورة"[٨]، ويدعو مرجعيته الثابتة في ذلك- الثورة الفرنسية - إلى إرساء أسس السّلام والعدل والتطور في العالم، وسيادة روح التآخي بين الأمم،و مصالحة المواطنين في حُضنِ الوطن، يقول گابرييل مونود[٩] Gabriel Monod في هذا السياق: "كانت قضاياه (أي ميشلِه) نبيلة ومقدّسة، وتتلخص في كلمات السّلام والعدالة والتقدم. لقد أراد التوفيق بين الأمم في إطار التآخي العالمي، ومصالحة الأحزاب والطّبقات في حُضْنِ الوطن... فهذا ما أوصت به الثورة من منظوره."[١٠]

ما فتئ ميشلِه يُؤَكِّدُ على أن الأمّة الفرنسية تبقى مُكَلَّفَةً بقيادة التوجه الحداثي داخل العالم ونَشْرِ قيم المساواة والحرية والتآخي به[١١]، فَبَدِيهيٌّ إذن أن تَنظرَ فرنسا إلى غيرها من الأمم بِعَينِ الودِّ والتعاطف، و تُلَقِّنُ مواطنيها حُبَّ البلدان الأخرى، ما يجعل زوال الأمّة الفرنسية من الوجود امحاء لما تُمَثِّلُهُ من تعاطف وتآخي بين الأمم، كما يشير إلى ذلك هذا المؤرخ نفسه حين عبَّرَ: "إنَّنَا نشكر الله الذي أعطانا هذا الوطن الكبير... الذي نَجِدُ فيه مُمَثِّل حرِّيات العالم، وأكثر الدول تَعَاطُفًا والتعليم على الحُبِّ العالميّ... افترضوا لو اختفت فرنسا وانتهت، فإن رابط تَعَاطُفِ العالَم سَيُدَمَّر."[١٢]

ثانيًا: "الوطن" و"المدينة" كإطارين للأمّة الحداثية الفرنسية

١/٢- وَطَنٌ بِطعم الصّداقة:

يرى ميشلِه أن عيش الإنسان في وَطَنٍ هو أمر لا يتناقض مع الطبيعة الإنسانية بل ينسجم معها، كما تشهد على ذلك الحضارة الإغريقية التي كان ازدهارها دليلاً على انسجام الوطن مع الطبيعة الإنسانية وتماهيه معها، فاقتطاع الفرد لنفسه مجالاً للاستقرار به، لهُوَ أحد عناصر قوة الفرد، لأن ثبات الروح الإنسانية في مكان ما يُقَوِّيهَا ويجعلها تُحِبُّ الفضاء الذي تقيم به، لذا يَهِنُ ويضيع الإنسان غير المرتبط بوطن، وحول هذه النقطة كتب هذا المؤرخ يقول: "إنها لقُوَّةٌ لكل حياة أن تُحَدِّدَ وتقتطع شيئا ما لنفسها في المجال والزمن، وأن تَعُضَّ قطعة تكون لها في إطار الطبيعة اللاّمبالية والمُذِيبة التي تريد دائما أن تمزج، فهذا يعني أن توجد وتعيش (أي الحياة)، مادام الفكر الثّابت في نقطة ما يتقوّى، والفكر الطّافي في المجال يتشتَّتُ ويزول، أنظروا إلى الرجل الذي يعطي حُبَّهُ لجميع النساء فهو يقضي حياته دون أن يعرف معنى الحب، فلو أَحَبَّ لمرة واحدة ولمدة طويلة لَوَجَدَ في عاطفة واحدة لانهاية الطبيعة وكل تَقَدُّمِ العَالَمِ، فَعِوَضَ أن يكون الوطن والمدينة معارضين للطبيعة، فعلى العكس من ذلك، فهما يُمَثِّلانِ لروح الشعب الوسيلة الأكثر قوة لتحقيق طبيعتها، ويعطيانها نقطة الانطلاق الحيوية وحرية التقدم، تَخَيَّلُوا العبقرية الأثينية دون مدينة أثينا، لقد كانت (أي العبقرية الأثينية) ستطفو وستهذي وستتيه وستموت مجهولة، تلك العبقرية التي حَقَّقَت في قرنين أو ثلاثة وهي محصورة في هذا الإطار الضَيِّقِ و السعيد لهذه الأرض اللّذيذة، حيث تقتطف النَّحلة عسل سوفوكل Sophocle[١٣] وأفلاطونPlaton ما أنجزه اثنا عشر شعبًا وسيطيًا في ألف سنة."[١٤]

يرى ميشلِه أن الأمّة الحداثية الفرنسية تقوم في وطن مواطنوه أصدقاء لبعضهم البعض، وهو المعطى الذي يوضحه بقوله: "إنه لمجد كبير للجماعات القديمة لفرنسا، أنها كانت أول من أعطى الوطن اسمه الحقيقي، الذي أسمته ببساطتها الغنية بالمعنى والعمق: "الصّداقة، نعم، فالوطن في نهاية المطاف هو الصّداقة الكبيرة التي تضم كل الصّداقات الأخرى، إنني أحب فرنسا لأنها فرنسا، ولأنها بلد أولئك الذين أُحِبُّهُم وأحببتهم"[١٥]. سَتُخلَقُ بالرغم من التفاوتات الطبيعية القائمة داخل الوطن بين القوي والضعيف "مساواة مناقضة للطبيعة" كتلك القائمة داخل الأسرة بين أقويائها: الأب وأبنائه من جهة، وضِعافها: الأم والطفل الرّضيع من جهة أخرى، "مساواة" تجعل رَبَّ الأسرة وأبناءه في خدمة الأم والطفل الرّضيع، بالتالي يبقى المَثَلُ الأعلى للأمّة الحداثية الفرنسية هو تَبَنِّي الضعفاء من طرف الأقوياء حتى تكون "لا مساواة الطبيعة" في صالح الضعفاء، فالوطن الفرنسي وإن كان مواطنوه مختلفون، فإن حُبَّهُم لبعضهم البعض سَيَبُثُّ روح الانسجام بينهم، مما سيضفي تناسقًا على الأمّة الحداثية الفرنسية، ويتضح لنا هذا من خلال الإشارات الواردة عند هذا المؤرخ ومنها عبارته: "لا يَعِدُ الحُبُّ، ولا يَعرِفُ كيف يَقِيسُ، ولا يَهْتَمُّ أبدًا بحساب مساواة رياضية ودقيقة لا يمكن بلوغها، إنه يريد بالأحرى أن يتجاوزها وأن يخلق عادة ضِدَّ "لا مساواة الطبيعة" "لا مساواة" بمعنى آخر، فعلى سبيل المثال فهو (أي الحُبُّ) يجعل بين الرجل والمرأة الأكثر قوة خادما للأكثر ضعفا، إذ تعطي لا مساواة الطبيعة الأفضلية للقوي الذي هو الأب، أما اللاّمساواة التي يُغَيِّرُهَا الحُبُّ فتمنح الأفضلية للضعيف وللأكثر ضعفا وتجعله في الصدارة (أي المرأة)، لذا تكون للطفل الرّضيع الأفضلية داخل الأسرة، فالمَثَلُ الأعلى للمدينة الذي يتعين عليها أن تَتَّبِعَهُ، هو تبني الضعفاء من طرف الأقوياء، حتى تَكُونَ اللاّمساواة في صالح الضعفاء"[١٦]

ثَمَّةَ ركيزتان رئيستان تقوم عليهما الأمّة الحداثية الفرنسية، تشكّلان العروة الوثقى التي تربط المواطنين الفرنسيين "الأصدقاء" هما: أولاً: اهتمام المواطنين بأحوال بعضهم البعض، عبر اهتمام الغني بالفقير ورغبته في اقتسام ثرائه مع الفقير، ومساعدة الفقير للغني بأن يسعى إلى التقليل لديه من إحساس التعاسة الذي يُسَبِّبُهُ الغِنى، وحول هذه النقطة كتب هذا المؤرخ: "سَيُعَانِي الغني من الحياة واللاّمساواة، وَسَيَئِنُّ، وسيتمثل كل مجهوده في أن يتقاسم رَغَدَهُ، أما الفقير فَسَيَتَّسِعُ قَلْبُهُ وَسَيُوَاسِي الغني."[١٧] ثانيًا: تضحيتهم في سبيل بعضهم البعض، طالما أن التضحية لا تَتِمُّ إلاّ في وطن يدوم إلى الأبد، ولأن الناس

لا يُضَحُّونَ ولا يتحمّسون للتعارف فيما بينهم إلاّ في إطار وطن "إله" و"مذبح"، هذان العنصران اللّذان افتقدتهما الإنسانية خلال العصر الوسيط، مما أجّج حروبها آنذاك، وَاقِعٌ وضعت الثورة الفرنسية حَدًّا له بعد أن مَنَحَتِ الفرنسيين وطنًا كان لهم "إلهًا" و"مذبحًا" ومجالاً للتضحية وفضاءً للتعارف والاتحاد، فاستحقت فرنسا بالتالي أن تكون عَرَّابَةَ التوجه الحداثي بالعالم، وهو المعطى الذي يوضحه ميشلِه بقوله: "توجد هنا مشكلة حقيقية، إننا لا نضحي إلاّ من أجل ما نعتقد أنه لانهائي، فللتضحية يجب تَوَفُّرُ إله ومذبح... يتعارف فيه الناس ويَتَحَابُّونَ (أي الوطن)... لا، لقد وَعَدَ العصر الوسيط بالاتحاد، ولم يُعطِ سوى الحرب، لِذَا كان لِزاماً أن يعيش هذا الإله (أي الوطن) عُمْرًا ثانيًا، وأن يظهر على الأرض في تجسده سنة ٨٩... إنَّ فرنسا الأُمُّ المجيدة للجميع هي من تُوَلِّدُ كُلَّ أُمَّة نحو الحرية".[١٨]

بِوَعيِ المواطن الفرنسي بهُوِيَّتِهِ الوطنية، فهو يُحِبُّ شعوب الأرض، ويدرك أنه ينتمي إلى وطن عالمي يضم جميع أوطان العالم، ويعي قيمة وطنه فرنسا بين الأمم، ويشارك من خلال تنميته لوطنه في ازدهار المعمور وتقدم الإنسانية، يقول كابرييل مونود في هذا السياق: "كان الوطن في نَظَرِ ميشلِه: "التّلقين الضروري للوطن العالمي"، فَكُلَّمَا دخل الإنسان على حد قول ميشلِه في عبقرية وطنه، كُلَّمَا ساهم في تناسق الأرض (أي العَالَم)، فهو يَتَعَلَّمُ التصرف في هذا الوطن، ويشارك من خلاله، ويُحِبُّ العَالَمَ"[١٩]. وَطَنٌ يفتح لمواطِنه مجالا أرحب للقيام بأنشطة متعددة، ويُخضِعُهُ من خلال الفنون والصناعة والثقافة الوطنية لتربية متميزة، فَتَعُمُّ الروح المعنوية جميع المواطنين، ويتم استبطانها من طرفهم بشكل غير محسوس، عبر اللّغة والحوار والعادات والمتاحف،[٢٠] مما يَكُونُ له عظيم الأَثَرِ على جميع الفرنسيين بما في ذلك المنتمين منهم إلى عامّة الشعب.[٢١]

٢/٢- مدينة الجميع:

تَمَثَّلَ ميشلِه أمّة حداثية فرنسية عبارة عن "مدينة"[٢٢]"Cité" يشترك جميع المواطنين في تنميتها، لا تُعَبِّرُ فقط عن الفئة "البورجوازية"، وإنما تضم أيضا "عامّة الشعب" وتُمَتِّعها بجميع حقوقها، وهو المعطى الذي يوضحه بقوله:"من لن يُشفِقَ على هذا الشعب الكبير الذي يَتَطَلَّعُ ويَصعَدُ من المناطق الحقيرة والمظلمة دون ضوء يَهتَدِي به، والذي لا يملك في ذلك حتى صوتا لِيَئِنَّ به؟... لكن صمته يتكلم... يُقال: أن يوليوس قيصرJules César وهو يُبْحِرُ بمحاذاة سواحل إفريقيا، نام، فرأى في منامه جيشا كبيرا يبكي ويَمُدُّ ذراعيه له، فَلَمَّا استيقظ، كتب على ألواحه: كورينث Corinthe[٢٣] وقرطاج Carthage، وأعاد تشييد هاتين المدينتين، فأنا لَسْتُ يوليوس قيصر، ولكن كم من مَرَّةٍ رأيت حُلمه، فلقد رأيتُهم (أي عامّة الشعب الفرنسي) يَبْكُونَ، ففَهِمْتُ سبب بكائهم...إنهم يريدون المدينة ! ويطالبونها بأن تستقبلهم وتحميهم... فَلْيَكُنْ هذا أول دخول لهم إلى مدينة القانون المقصِيّين منها حتى الآن"[٢٤]. ويضيف: "انتقد أرسطو أفلاطون Platon، قائلاً: "تَتَشَكَّلُ المدينة ليس من ناس متشابهين بل مختلفين"، وسأضيف إلى ذلك: "مختلفين ومتناسقين بالحُبِّ الذي يجعلهم متشابهين أكثر فأكثر"[٢٥].

لقد رفض ميشلِه بعنادٍ دخول هذه المدينة إن لم تضم شقي الأمّة الفرنسية هذين، أو أقصت أيَّ فرنسي- بعدم ضمانها لحقوقه السياسية والاجتماعية، وهو ما يفصح عنه بقوله:"فلو يكون بمقدوري أن أُوَسِّعَ المدينة حتى تكون قَوِيَّةً! فهي تَهتَزُّ وَتَتَهَدَّمُ، مادامت غير تامَّة، وحصرية، وغير عادلة، فعدالتها تَكمُنُ في قُوَّتِهَا، فَإِن أرادت أن تكون عادلة فحسب، فلن تكون كذلك، بل يجب لها أن تكون مقدّسَة وإلهية...ستكون إلهية، إذا ضَمَّت جميع أطفال الله الموجودين، وحتى أكثرهم تواضعا (تَعِيسٌ ذلك الذي يَخجَل من أخيه) ...ضعفاء أو أقوياء، بسطاء أو حكماء، فليجلبوا إلى المدينة، حِكمتهم أو عفويتهم، فبإمكان غير القادرين هؤلاء والعاجزين والأشخاص البؤساء أن يفعلوا الشيء الكثير من أجلنا (أي للطبقة البورجوازية)، ما داموا يمتلكون سِرًّا لقوة وخصوبة مجهولتين، ومنابع حيّة في عمق طبيعتهم، فالمدينة و هي تستدعيهم، إنما تستدعي الحياة التي تبقى قادرة لوحدها (أي الحياة) على تجديد المدينة. إذن، بعد هذا الطّلاق للرجُل مع الرجُل، وللرجُل مع الطبيعة: فَلْيَحْصُلْ هنا "التّصالح السعيد"... ولتذهب المدينة العَامِّيَةُ من السماء (أي من البورجوازية) إلى الهُوّة (أي الشعب)، ولتَكُن شاسعة كحضن الله...فإن بقي أحد في الخلف، فلن أدخل أبدًا، وسأبقى على العتبة."[٢٦]

ثالثًا: أُمّة حداثية فرنسية متحدة

بِفِعلِ تغلغل المكننة داخل فرنسا، انقسم المجتمع الفرنسي- خلال القرن التاسع عشر– إلى فريقين غير متجانسين هما:"البورجوازية" و"عامّة الشعب"، مما استَرَقَّ الفرنسيين وأرسى انعزالاً وَحْشِيًّا بينهم ساهم في حقدهم على بعضهم البعض وجعل المعاشرة بينهم في منتهى الصعوبة[٢٧]، لِذَا بنى ميشلِه قيام الأمّة الحداثية الفرنسية على أساس الاتحاد بين شقيها هذين، اتحاد لم يكن ليتحقق إلاّ إذا أدركت "البورجوازية" و"عامّة الشعب" حاجتهما إلى بعضهما، وفهمتا العلاقة التي تربطهما، وأَحَبَّ كل منهما الآخر، يقول ميشلِه: يجب أن يَتَغَيَّرَ القلب، وأن تَفْهَمَ الطبقات المتعارضة العلاقة التي تربطها"[٢٨]، ويضيف :"سيصبح كل هذا سهلاً، إذا فَهِمَ كل طرف أن انعتاقه رهين بانفتاحه على الطَّرَفِ الآخر"[٢٩].

"فعامّة الشعب" المتميزة بحيويتها وقُوَّتِهَا، نتيجة افتقادها "للحكمة الفلسفية" المُسْتَمَدَّةِ من العِلم والثقافة تبقى غير قادرة على التعبير عن أفكارها ومعاناتها، أما "البورجوازية" فتظل فاترة الهِمَّةِ وهي مفتقدة" للحكمة العفوية" المتمثلة في قيم الشجاعة والبطولة والتضحية والإيثار[٣٠]، وحول هذه النقطة كتب هذا المؤرخ يقول: "مشهد غريب! فمن جهة، هناك مخلوقات (أي عامّة الشعب الفرنسي-) تملؤها الحياة الشّابة والقوية... غير أن هذه الكائنات لازالت مغبوطة، فهي تظل عاجزة عن تبليغ أفكارها وآلامها، وهاهم آخرون (أي

البورجوازية الفرنسية) من جهة أخرى، وقد جمعوا كل ما صنعته الإنسانية من أدوات للتعبير، ولغات وتصنيفات ومنطق وبلاغة، لكن الحياة تبقى ضعيفة فيهم... فَهُم في حاجة لأن يعطيهم قَطْرَةً هؤلاء (أي عامّة الشعب الفرنسي) الصّامتون الذين سَكَبَ فيهم الله مَائِيَتَهُ حتى امتلأوا.[٣١]

إن انفتاح البورجوازي والفقير على بعضهما البعض، لَيُلزِمُهُمَا بالتحلي بِسُمُوِّ النفس والبطولة؛ بأن يضحي الفقير بالحسد، ويتعالى على فقره، ولا يحاول الاستعلام عن السُّبُلِ التي راكم بها الغني ثروته، وبأن يعترف الرجل الغني بحق الفقير في الحياة، و يقتنع بضرورة الانفتاح عليه، وهو ما أشار إليه ميشلِه بقوله: "تَفرِضُ على الطرفين مَعًا سُمُوَّ نفس حقيقي هذه المساعدة وهذه الثقافة المتبادلة القوية والجِدِّيَةِ التي يَجِدُهَا كل منهما في الآخر...، فنحن ندعوهما مَعًا إلى البطولة ... فبطولة الفقير، تتمثل في أن يُضحي بالحسد، وأن يَسمُوَ بنفسه فوق فقره، وأن لا يستعلم عن ما إذا كان الغني قد راكم ثروته بِسُبُلٍ مشروعة أم محظورة، أما بطولة الغني، فتتمثل في الاعتراف بحق الفقير وحُبِّهِ والذهاب عنده".[٣٢]

الرجل البورجوازي[٣٣]

"لن يستعيد رجل العِلم والثقافة حُرِّيته، هو الذي يبقى اليوم عَبْدًا للتجريد والمعادلات إلاّ عَبرَ اتصاله برجل العفوية، فشبابه وحياته اللذين يعتقد أنه يُجَدِّدُهُمَا من خلال أسفاره البعيدة يظلان هنا بالقرب منه لدى الشعب"[٣٤]، إنّها دعوة صريحة من ميشلِه للبورجوازي الفرنسي- مالك "الحكمة الفلسفية" لِأَنْ يَعِيَ أَنَّ تكوينه النظري قد أنساه واقع الحياة، ويُدرِكَ أن "الحكمة العفوية" التي يمتلكها الجندي والبحّار والمسافر والفلاح تمكنهم من رؤية الأمور بشكل مختلف عن ذلك الذي يراها به هو، ويقتنع بأنّ المعنى الحي للحياة الذي يمتلكونه سيساعده على الخروج من عَالَمِ الاصطناع والتجريد وعِلمِ الكلام الذي يَظَلُّ حبيسه، وهو المعطى الذي يوضحه هذا المؤرخ بقوله: "ما ذا يجب أن يقول العَالِمُ في حضرة رجل الشعب ورجل الحركة والعمل؟ لقد نَسِيتُ العَالَمَ كثيرا أنا الذي تَرَبَّيتُ في عَالَمِ الورق، وتَأَثَّرتُ بالتجريد، حتى أصبحتُ مجرَّد كتاب... فها هو رجل لحسن الحظ، جندي؟ بَحّار؟ رَحّالة؟ وقد طَوَّرَتْ فيه التجربة العَقْلَ الرّاشد، والمعنى العملي الذي ينقص العلماء... القروي؟ لقد تماهى مع الطبيعة، واحتفظ بشيء من الغرائز الطبيعية... العامل؟ يجب أن نَأمَلَ نفس الشيء في هذه الطّبقة من العمّال التي لا تعيقها المهنة عن التفكير... إذن، إنه رجل أيضًا، لقد عاش وعانى، فالإحساس اليومي لحقيقة شاقة يفرض ملاحظة الأشياء بشكل مختلف عن ذلك الذي نراها به نحن من خلال الكتب؛ فهذا الرجل (أي الرجل المنتمي إلى عامّة الشعب) يظل مُهتَمًّا وملتزما في هذا العالم بشكل آخر؛ فأنا ملتزم فيه بأنظمتي، أمّا هو فمن أجل حياة أو موت زوجته أو أبنائه... فَلْنَتَقَارَب، فالمشهد الوحيد لحياته الأكثر إيجابية سيساعدني على الخروج من الاصطناع والتجريد وعلم الكلام... فهذا الرجل يبقى ضروريا بالنسبة لي"[٣٥]، ويضيف قائلا:"لا يَهُمُّ؟ لماذا تُطالبون رجال العِلم بما أَلْفُوه؟ فالإنتاجات الحقيقية للعبقرية الشعبية، لا تتمثل في المؤلّفات، بل في أعمال بطولية وكلمات معنوية وعبارات حماسية، كتلك التي تتناهى إلى مَسَامِعِي كل يوم من فَمِ عَامِّي يبدو غير مُؤَهَّلٍ للإبداع... إنَّ الطّبقات التي نسميها دونية، تبقى بغريزتها جاهزة للتصرف... فهي لا تتحدث كثيرًا وتبَحُّ من الصراخ كما يفعل العلماء والعجزة، بل تَسْتَغِلُّ الفرصة لتتصرف بقوة، فالاقتصاد في الكلام يفيد طاقة الأعمال"[٣٦].

لِذَا على الرجل البورجوازي المثقف القيام بخطوتين رئيستين، أولاهما: الانفتاح على العامل الأُمِّيِّ ومشاركته حياته، بأن يتجه إليه ويعاني معه، مادام العِلمُ الذي يَمْلِكُهُ البورجوازي لا يُمَكِّنُهُ من فهم المعنى الحقيقي للحياة بحقائقه القوية والعميقة، لذلك فهو دائم الإخفاق، ووجوده عابر وخارجي ومصطنع، وهي المعطيات التي يشرحها ميشلِه بقوله: "كيف يعيش المرء دون أن يَعرِفَ الحياة؟ إذن، فنحن أي (البورجوازيون الفرنسيون) لا نعرفها (أي الحياة) إلاّ بثمن واحد: هو المعاناة والمعاناة... وأن يشترك المرء بإرادته في العمل والمعاناة، فماذا تريدون أن يَعْلَمَ غني حتى إن أُوتِيَ من العلم مالا مزيد عنه؟ فحياته تبقى بسيطة مادام يجهل الحقائق القوية والعميقة، فهولا يُمْعِنُ النظر، ولا يستند، و يجري، وينزلق، وكأنه يمشي على جليد، فلا يدخل إلى أي مجال ويبقى دائما في الخارج، ليصل غَدًا إلى نهايته في وجوده السريع والخارجي والمصطنع هذا، ليرحل جاهلاً كما أتى، فما نقصه هي: نقطة قوية، يُمْكِنُ لروحه أن تستند إليها وتُمْعِنَ فيها النظر"،[٣٧] ثانيهما: أن يُعرِّفَ رَجُلَ عامّة الشعب على العَالَمِ دون أن يغيِّر شخصية هذا الأخير، وأن يخلِّصه من العائق الذي يَحُولُ دون انفتاحه على محيطه، وحول هذه النقطة كتب هذا المؤرخ:" يتعيَّن على رجل وقت الفراغ (أي البورجوازي الفرنسي) المثقَّف والرّزين، أن يضع هذه الروح الأسيرة في علاقتها مع العَالَمِ، أن يغيِّرها ؟ لا، بل أن يساعدها على أن تبقى ذاتها، ويُزيل العائق الذي يمنعها من أن تستعمل جناحيها".[٣٨]

رجل العامّة

"على العكس من ذلك، لا يرى الفقير وهو مُثَبَّتٌ في نقطة مظلمة لا سماء ولا أرض، فما ينقصه هو القدرة على النهوض والتنفس ورؤية السماء، إذ يجب عليه وهو مُدَسَّر في هذا المكان بِحُكْمِ القَدَرِأن يَمْتَدَّ ويُعَمِّمَ وجوده ومعاناته أيضا، و يعيش خارج هذه النقطة التي يعاني فيها، ولِأَنَّ له روحا لا نهاية لها، فَعَلَيْهِ أن يفتحها بشكل لانهائي... فهو يحتاج إلى الصّداقة، (أي الصّداقة مع الرجل البورجوازي)...."[٣٩] ويضيف ميشلِه قائلاً: "أما هذا الأخير (أي رجل العامّة) الذي يظل سجين الجهل والعزلة، فَسَيُمَدِّدُ أُفُقَهُ، وسيجد ريح الحرِّية، إن هو قَبِلَ لغة العِلمِ واحتَرَمَ فيها تراكم الأعمال الإنسانية "[٤٠]. إنها دعوة صريحة من هذا المؤرخ" للرجل المنتمي إلى عامّة الشعب الفرنسي-"، إلى إدراك الفائدة التي سيجنيها من انفتاحه على "الرجل الفرنسي- البورجوازي" المثقف ذي التجربة، وهو المعطى الذي يوضحه بقوله:"ماذا يجب أن يقول رجل الشعب في حضرة العَالِمِ؟ " ها هو رجل يُمَثِّلُ بتربيته الرَّاقية وتَرَكُّزِ

المعارف الذي تعطيه المطالعة والدراسة، حياة خمسين رجل، فهو يراكم جزءًا معتبرًا من التجربة الإنسانية، إن كلمة منه يُمكنها أن تُعَلِّمَنِي أن البحث الذي سأستنزف فيه طاقتي، قد تم إنجازه منذ مُدَّةٍ، هذا الرجل ضروري بالنسبة لي."[٤١]

رابعًا: قانون نتاج اتحاد

تقوم المدينة الحداثية الفرنسية على إقرار "البورجوازية" و"عامّة الشعب"بأن الحكمة التي يملكها كل منهما لا تُمَثِّلُ الحكمة في شموليتها وليست إلاّ جزءا منها، وعلى التزام كِلاَ الطرفين بعدم فرض حكمتهما على بعضهما البعض، لأن الحكمة تنتج عن اتحاد بين "الحكمة الفلسفية أو الرَّزينة" و"الحكمة العفوية". لِذا وجب أن يشترك طرفا الحكمة الشمولية هذين في صياغة قانون يضمن حقوق جميع المواطنين داخل المدينة الحداثية الفرنسية، وهو ما عبر عنه هذا المؤرخ بقوله: "يتعيَّن...أن لا يَتَصَوَّرَ كل منهما (أي البورجوازية وعامّة الشعب الفرنسيين) أنه وحده يمتلك الحكمة التي يجب أن يفرضها على الآخر، فالثقافة الرَّاقية للأوائل (أي البورجوازية الفرنسية) لا تُمَثِّلُ كل الحكمة، وليس لها الحق في أن تحكم، والعفوية وطاقة الآخرين (أي عامّة الشعب الفرنسي) حتى إن كُنَّا نُدرِكُ من خلالها الإبداع السعيد الطبيعي، لا تُجسِّد بدورها كل الحكمة، ولا تملك الحق في الحكم، إن الحكمة تنتج عن اتحاد قوتين (أي "الحكمة الفلسفية" و"الحكمة العفوية")، إذن فلتكن المَلَكَةَ ولتُؤَسِّس القانون"[٤٢]. ويضيف قائلاً: "إذا أردنا أن يكون الهدف هو: الخلاص، فنحن نؤكد على أن "الحكمة الفلسفية" لن تَضمَنَهُ لوحدها؛ فيجب لذلك تَوَفُّرُ الحِسِّ الجيد للشعب، طالما أن العِلْمَ لا يملك الحكمة كُلَّهَا، فهناك "الحكمة العفوية" واستقامة الغريزة الطبيعية، والإلهام الشعبي، والتجربة العملية لأولئك (أي بسطاء الشعب الفرنسي) الذين يفعلون ويعانون ويَحْمِلُونَ أثقل وزن للحياة. كانت الإنسانية ستموت بالتأكيد مائة مرة وهي تنتظر ولادة نظريات تخلق نظاما اجتماعيا يَضْمَنُ الخلاص للأمّة، فَمِنَ العبقرية الشعبية أزهرت بشكل عفوي الديانات والمؤسسات والقصائد... إن "الحكمة العفوية" تبدأ كل شيء، فهي رَحِمُ الجنس البشري، ونقطة انطلاقة "الحكمة الفلسفية" مُنَافِسَتِهَا... ففيها (أي في الحكمة العفوية) يَكمُنُ حق الشعب (أي حقه في الحكم والتسيير)... لكن تبقى "الحكمة الرَّزينة" أو "الفلسفية" حكمة الأقلية، فكيف تَستَمِدُّ منها هذه النخبة (أي البورجوازية الفرنسية) الحق في حُكْمِ الجميع؟".[٤٣]

يتنافى قانون "المدينة" مع القانون الجائر الذي ساد أوربا قبل الثورة الفرنسية، فهو قانون يتغيّى تحقيق العدالة بالمدينة الحداثية الفرنسية، ويُعَبِّرُ عن صوت المواطنين الفرنسيين ويترجم أفكارهم ويقودهم إلى نَبذِ اختلافاتهم الظاهرة، ويُوَعِّيهِم بوحدتهم العاجزين عن إدراكها، وحول هذه النقطة كتب ميشلِه يقول: "لا، ليس القانون سيِّدًا وطاغية وجلاَّدًا، بل هو مُتَرجِمُ فكر الشعوب، والعضو الذّكي والعطوف للجميع .... فهو يَحُثُّ الناس على ترك اختلافاتهم الظّاهرة التي يعتقدون من خلالها أنهم معارضون لبعضهم البعض، ويقودهم إلى الاتحاد،..."[٤٤]. لصياغة هذا القانون، يَتَعَيَّنُ على كُلٍّ من "البورجوازية" و"عامة الشعب" الفرنسيَيْن التّعالي عن النزوات واستشارة عفوية الضعفاء العاجزين عن التعبير عن ذاتهم، حتى يكون القانون المُصاغ شبيها "بالنظام التربوي" الذي يُعَلِّمُ الإنسان ما يجول في خاطره ويَشْرَحُهُ له، ويبيِّن له ما هو كامن في أعماق نفسه.

سَيُقَنِّنُ هذا القانون من جهة حياة الإنسان الفرنسي، وسَيُعَبِّرُ عن رغباته المُضمَرَةِ وعن تطلعاته التي لا تمس بحقوق الغير، وسيحميه من طيشه في لحظات وَهَنِهِ المعنوي، حتى يكون مواطنا نزيها ومثالا يُحْتَذى، وهو المعطى الذي يوضحه ميشلِه بقوله: "يَنتُجُ القانون عن الاتحاد، وعن زواج المدينة، فهو يَفرِضُ على هؤلاء وأولئك (أي "البورجوازية" و"عامة الشعب" الفَرَنسِيَين) ما أرادوه، إنه صوت الاتحاد، إذ يتعرف فيه كل فرد على حَدسِهِ وفكره ... فالقانون هو الابن العفوي للروح البشرية، لأن سِرَّهُ يظل شبيها بِسِرِّ التربية التي تُعَلِّمُ الإنسان وتفسِّر له وتنير له ما هو كامن فيه، إذن! نفس الشيء ينطبق على القانون الذي يفرض على الإنسان ما كان كامنا فيه، وما أراده وهو مُتَّفِقٌ مع الجميع... فَرُبَّمَا رَغِبَ من خلال إرادة ضعيفة وعابرة غيَّرت ميله، فهو (أي المواطن الفرنسي) يَمنَعُ نفسه من هذا التغيير، ويضع إرادته المثلى في القانون، ويقول له: "احمني من نفسي واجعلني مؤمنا، وكن قاعدتي، آه ! يا أفضل أيّامي."[٤٥]

وسيستجيب من جهة أخرى لِمُيولاَتِ جميع الفرنسيين، وسَيُعَبِّرُ عَن ما هو كامن في عاداتهم، وما ينوون القيام به، وما يريدونه، وسَيَضْمَنُ حق الجموع العريضة من الشعب التي تعارض عن جَهْلٍ أحيانا التوجه العام للأمّة، والتي لا يجب سحقها بل تربيتها وتمدينها عبر طرائق تعليمية يَسْهُلُ استيعابها تُيَسِّرُ اندماج عامّة الشعب في الأمّة الحداثية الفرنسية، وهو ما عَبَّرَ عنه هذا المؤرخ بقوله:" تظل هذه المبادرة النّبيلة، إرْثَ الجميع والمِلْك الشرعي للإنسانية! يجب أن يخرج القانون من حركة نبيلة لِلْكُلِّ، ومن تضحية الجميع، وفي سبيل ذلك تتعين التضحية بالرغبة والمصلحة... فَمَن يَمْلِكُ الحق في منع أبسط الناس من المشاركة في هذه التضحية السّامية؟ يجب أن يساهم كل فرد وِفْقًا لمستوى فكره وإرادته، العفويون بعفويتهم، والرَّزينون والمجرَّدون بِرَدِّ فعلهم المجرد، حتى يُعَبِّرَ القانون عنهم جميعا، ويأمرهم بشكل عام بما هم بصدد القيام به، وبما هو كامن في عاداتهم وميولاتهم، وبما يريدون القيام به، وأحيانا بما يريدون إرادته، فبعد أن عَبَّرَ القانون عن الفكر الأكيد (أي "الحكمة الفلسفية")، فعليه الآن وحتى يَغْتَرِفَ من إلهام التقدم أن يَسْتَشْعِرَ الفكر المجهول، ويستشير العفوية (أي "الحكمة العفوية") التي لم تُعَبِّرْ عن نفسها، فهنا يَتَمَوقَعُ ...حق الأغلبيات اللاّمتحركة التي تجهل حقها، وتنخدع في أسباب معارضتها للتوجه العام، فلا يتعلق الأمر بسحقها بشكل مريع، ولكن باحتوائها من الجميع، عبر وسائل التربية والحضارة ودعاية

حادقة شفوية ومكتوبة، حتى تَعِيَ أنها تنتمي إلى الأغلبية (أي الأمّة الحداثية الفرنسية)".[٤٦]

خامسًا: التعليم المتبادل "كَلُحمَةٍ" للأمة الحداثية الفرنسية

بتعليم "البورجوازية" و"عامّة الشعب" لبعضهما، سيتدعّم مكتسب الوحدة أكثر داخل الأمّة الفرنسية، لِذَا ناشد ميشلِه شقي الأمّة الفرنسية هذين أن ينخرطا معا في حركة اجتماعية، يقومان خلالها بتبادل أدوارهما، بحيث يصعد "الشعب الأُمِّيُّ" لأخذ "الحكمة الفلسفية" من "الفئة المثقفة البورجوازية" التي يتعين عليها بدورها أن تنزل إلى عامة الشعب لِتَنهَلَ من "حكمتها العفوية". يُشَبِّهُ ميشلِه هذه الدينامية التعليمية التي ستميِّز المدينة الحداثية الفرنسية مستقبلاً، بِتَدَفُّقِ الدم في شرايين وأوردة الجسم البشري، ويرى فيها الصورة الحقيقية لمدينة فرنسية ومتحضّرة لازالت لا تجسدها الأمّة الفرنسية خلال القرن التاسع عشر، وهو ما يفصح عنه بقوله: "... يجب عليهما (أي "البورجوازية" و"عامّة الشعب" الفرنسِيَّيْنِ) أن ينخرطا في الحركة الاجتماعية، بل أكثر من ذلك، يتعيَّن عليهما أن يتناوبا ويتبادلا أدوارهما، وأن يَصعَدَ الشعب إلى العِلم، ويصبح رجل العِلمِ جزءًا من الشعب، ويتعافى وينتعش من منابع العفوية والحياة. إن دورة الدم المزدوجة: دم العروق والأوردة وتحوُّلها المتبادل، لَهِيَ الصورة الصّادقة لمدينة حقيقية إنسانية ومتحضّرة، لازالت فرنسا حتى الآن في حالتها البدائية"[٤٧]، ويضيف قائلاً: "تُشَكِّلُ الحكمتان "العفوية" و"الفلسفية" والتعليم الدّائم للروح الصورة العميقة لحركة المدينة التي يجب أن تكون حياتها تعليمًا متبادلاً من الطبقات العفوية والمثقفة لبعضها البعض"[٤٨].

ويضيف: "يَتَعَيَّنُ على الرجال العفويين والمُلهَمِينَ في المدينة أن يتحولوا على الدوام إلى رجال مثقَّفين، على أن يَعُودُوا بعد أن يصبحوا مِثلَهُم (أي مثل الرجال المثقفين) لأخذ الدفء في أحضان الطبقات العفوية، لأن المدينة ليست قانونًا ثابتًا وميِّتًا من البرونز، بل هي تربية متبادلة للأُمِّيِّ من طرف العَالِمِ، وللعَالِمِ من لَدُنِ الأُمِّيِّ".[٤٩]

بَيدَ أن هذا التعليم ذي الوقع الإيجابي على المُتَلَقِّي، لا يقتصر على تعليم المثقف للأُمِّيِّ وتربية هذا الأخير للبورجوازي على شيم البطولة والشجاعة والتضحية، بل ينبني بالأساس على تلقين كل من "البورجوازية" و"عامّة الشعب" الفرنسيين بعضهما حُبَّ الوطن والإنسانية، مُهِمَّةٌ سيضطلع فيها بدور محوري كل من: "الشاب الفرنسي البورجوازي المثقف" "le prud'homme"[٥٠] الذي يملؤه الحماس والحيوية ويجد متعة في تعليم البسطاء حُبَّ الوطن والإنسانية، و"الرجل الفرنسي الكهل المنتمي إلى عامّة الشعب" الذي يحكي بانشراح تجاربه الإيجابية للشباب البورجوازي، وحول هذه النقطة كتب ميشلِه يقول: "يجب أن يكون التعليم في مجتمع متقدم مهنة الجميع... فَثَمَّةَ عمران صالحان للتعليم الوطني، يَتَعَيَّنُ أن يزرعا في القلب: حُبَّ الوطن والإنسانية، سيتكلف بذلك، كل من الرجل الشاب المتحمِّس، الذي يجد سعادة في تبليغ أفكاره، وهو في قوته الكاملة لِعُمرٍ لم يبدأ في الحياة بعد ومليء بالرغبات، والرجل الناضج الذي عَمِلَ وعانى... والذي سيجد متعة حقيقية وهو ينقل إلى الشباب ثمار تجربته وآلاف المبادئ الإيجابية التي يُؤمن بها... سيكون التعليم المتقطِّع في مجتمع راقٍ كمجتمعنا، وأنا لا أَشُكُّ في ذلك، وسيلة قوية للتأثير؛ لذا علينا أنْ نستفيد من هذه القوى المتعددة، من اندفاع الرجل الشاب، ومن تجارب العجوز، من شعلة أحد، ومن نور آخر".[٥١]

في هذا الإطار اقترح ميشلِه الذي أَكَّدَ غير ما مرة على أن الأسرة تظل قاعدة المدينة الحداثية بامتياز[٥٢]، أن يتبنَّى مؤقتا الفرنسيون أبناء بعضهم البعض، بأن تتبنّى مؤقتا الأسر "البورجوازية" أبناء أسر "عامّة الشعب" التي يتعيَّن عليها من جهتها أن تتبنّى مؤقتا أبناء الأسر "البورجوازية"، على أن تُعَلِّمَ كل أسرة العناصر الجديدة الوافدة عليها كتعليمها لأبنائها الحقيقيين، حتى يَسهُلَ على الأبناء المُتَبَنِّينَ استيعاب الأفكار، مما سيتدعم معه التآخي والوحدة داخل الأمّة الفرنسية، وهو ما يفصح عنه هذا المؤرخ بقوله:"لا تحتقروا التعليم والمشاركة، كما فَعَلنَا، فَسَيُشَكِّلاَنِ مستقبلاً عنصرًا فعّالاً للتأثير؛ إذا نحن أَزَلنَا اللاّمساواة، واتخذناهما كرعاية متبادلة بين ناس متساوين وتبادل للأطفال والفنون، على سبيل المثال: سَأُودِعُ ابني عند موسيقي كبير، وسأقول للموسيقي: "عَلِّمه فَنَّكَ: الذّوبان والتزامن والسِّر-اللاّنهاية"، "لا يبدأ التآخي دون أُبُوَّةٍ"، أُكَرِّرُ ذلك: يُمكِنُ أن تتشكّل حول أُبُوَّةِ التَّبني العادات القَوِيَّةُ والاستيعاب التدريجي للأفكار التي تقود إلى الوحدة"[٥٣].

خَاتِمَةُ

قصارى القول؛ لقد نَظَّرَ ميشلِه لأمّة حداثية فرنسية مرجعيتها مبادئ ومكتسبات ثورة ١٧٨٩، تَكُونُ ذلك "الشخص المعنوي الحر، الجَامِعِ غَيرِ المُفَرِّقِ الذي له قدسيته في نفوس أبنائه، والذي يعطيهم شعورًا بالفخر، ويجعلهم وكأنهم على قلب رجل واحد". ويبدو أن هذا المؤرخ قد تمَثَّل إطارين لهذه الأمّة: "وطن" تربط أواصر الصداقة بين مواطنيه، و"مدينة" يتمتع فيها جميع الفرنسيين بحقوقهم السياسية والاجتماعية، ويَتَّحِدُ بها على أساس التعليم المتبادل شِقَّا المجتمع الفرنسي: "البورجوازية" مالكة "الحكمة الفلسفية" و"عامّة الشعب" مالكة "الحكمة العفوية"، حتى يتسنّى للفرنسيين صياغة قانون تَلتَفُّ حوله الأمّة الحداثية الفرنسية.

الهَوامِشُ:

(١) جـول ميشلِه: (١٧٩٨ – ١٨٧٤)، مؤرخ فرنسي، من بين أهم مؤلفـاته: "تاريـخ فرنسـا" "Histoire de France"الـذي أصدره في سبعة عشر جزءا خلال الفترة الممتدة بين سنتي ١٨٣٣ و١٨٦٧. انظر: أطروحتنا لنيل الدكتوراه في التاريخ برسم الموسم الجامعي: ٢٠١٣-٢٠١٤: "**منطق الكتابة التاريخية عند المؤرخ جـول ميشـلِه** "Jules Michelet، جامعة محمد الخامس أكْـدال، كليـة الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط.

(٢) **كوليج دو فرانس**: في سنة ١٥٣٠ أنشأ فرانسوا الأول François 1er (١٤٩٤-١٥٤٧) هذه المؤسسة التي ضمت على امتداد القرن التاسع عشر حوالي خمسين منبرًا في مختلف فروع المعرفة.

(٣) ينعت ميشلِه الثورة الفرنسية "بالمؤسسة" لأنها أحدثت بمبادئها وتوصياتها قطيعة مع النظام القديم.- للمزيد حول هذا الموضوع، راجع:

-Paul Viallaneix, *Cours au Collège de France par Jules Michelet*, Paris, Gallimard,1995, tome.II ,pp.17-47.

(4) للمزيد حول المشروع الحداثي لميشلِه، راجع:

-Jules Michelet, *Cours professé au Collège de France par Jules Michelet 1847 -1848,* Paris, Chamerot, 1848, pp.1-303.

- Jules Michelet, *Le Peuple,* Paris, Marcel Didier, 1946, pp. 203-272.

- P. Viallaneix *Cours au Collège de France…, op.cit.,* tome. II, cours de 1849, L'Amour comme éducation, pp.439-522, cours de 1850, Éducation de la femme et par la femme, pp.523-626, cours de 1851, Mon droit et mon principe, pp.627-709.

- يـزينون: "**منطق الكتابة التاريخية عند المؤرخ جول ميشلِه...**" مرجع سابق: ص 346-426.

(٥) **هرموان أزاكي**: (١٨٢١-١٩٠٠)، هي أرملة المؤرخ إيدگار كيني Edgar Quinet (١٨٠٣-١٨٧٥)، ومن بين مـؤلـفـاتـها: خمسـون سنة من الصداقة: ميشلِه وكيـني (١٨٢٥-١٨٧٥) *Cinquante ans d'amitié Michelet-Quinet (1825-1875)* الذي نشرته سـنة ١٨٧٥. (سنعرف بالأعلام التي نرى أنها تحتاج إلى تعريف).

(٦) **إيدگار كيني**: (١٨٠٣-١٨٧٥)، مؤرخ فرنسي، ومن بين مؤلفاته: "عبقرية الأديان" *Le Génie des religions*" الذي أصدره سنة ١٨٤٢.

(7) Mme Quinet, *Cinquante ans d'amitié Michelet-Quinet (1825-1875),* Paris, Armand Colin et C(ie), 1899, p. 187.

(8) - J. Michelet, *Le Peuple, op.cit.,* p. 29.

(٩) **گابرييل مونود**: (١٨٤٤-١٩١٢)، مؤرخ فرنسي، ومن بين مؤلفاته: "حـيـاة وفـكـر جول ميشلِه (١٧٩٨-١٨٥٢)"" *La Vie et La Pensée de Jules Michelet (1798-1852)* الذي صدر سنة ١٩٢٣.

(10)- Gabriel Monod, *Les Maîtres de l'histoire, Renan, Taine, Michelet,* Paris, Calmann Lévy, 1894, p. 207.

(١١) حول مُقَوِّمَاتِ الريادة الحداثية لدى فرنسا، راجع: يـ زينون:"**منطق الكتابة التاريخية عند المؤرخ جول ميشلِه...**"، مرجع سابق، ص:١٦٢-١٦٥.

(12) G. Monod, *Les Maîtres de l'histoire,….op.cit.,* p. 236.

(١٣) **سوفوكل**: (٤٩٦ أو ٤٩٥ قبل الميلاد – ٤٠٦ أو ٤٠٥ قبل الميلاد)، مسرحي إغريقي، ومن بين مسرحياته: "إيليكترا"*Electra*" التي ألفها بين سنتي ٤٣٠ و٤٢٠ قبل الميلاد.

(14) J.Michelet, *Le Peuple, op.cit.,* pp.232-233.

(15) *Ibid.,*pp. 203-204.

(16) *Ibid.,* pp.206-207.

(17) *Ibid.,* p. 209.

(18) *Ibid.,* p. 229.

(19) G. Monod, *Les Maîtres de l'histoire, …, op.cit.,* p.231.

(20) J. Michelet, *Le Peuple., op.cit.,* pp.233-234.

(٢١) انقسم المجتمع الفرنسي خلال القرن التاسع عشر إلى فريقين غير متجانسين هما: بورجوازية مثقفة وشعب أمي، للمزيد حول هذا الموضوع، راجع:

J.Michelet, *Le Peuple*, *op.cit*., pp : 220-229.

J Michelet, *Cours professé au Collège de France …,* première leçon, (16 décembre 1847),pp.9-31,et, deuxième leçon, (23 décembre 1847), pp. 35-64.

(٢٢) بخصوص مشروع "المدينة" "la cité" لدى ميشلِه، راجع: - **يـ زينون**، "**منطق الكتابة التاريخية عند المؤرخ جول ميشلِه...**"، م. س، ص -ص:٣٦٦-٤٤٦.

J. Michelet, *Cours professé au Collège de France…, op.cit.,* huitième leçon, 3février 1848, (Leçon non professée.), pp.219-226.

J.Michelet, *Le Peuple*, *op.cit*., pp.197-212.

(٢٣) **كورينث**: مدينة إغريقية قديمة كان يوجد بها ضريح إلهة الحب والجمال عند الإغريق: "أفروديت" "Aphrodite"، وتقع حاليا في محافظة البيلوبونيز Péloponnèse بالجنوب الشرقي لليونان.

(24) J. Michelet, *Le Peuple, op.cit.,* pp.200 – 201.

(25) *Ibid.,* pp.206-207.

(26) *Ibid.,* pp.201- 202.

(27) Paul Viallaneix, *Michelet, les travaux et les jours 1798 – 1874,* Paris, Gallimard, 1998, p.289.

(28) J. Michelet, *Cours professé au Collège de France…, op.cit.,*huitième leçon, 3 février 1848, (Leçon non professée), p.221.

(29) J.Michelet, *Le Peuple, op. cit.*, p.210.

(٣٠) للمزيد حول الحكمتين العفوية والفلسفية، راجع:

- J.Michelet, *Le Peuple*, *op.cit*., pp209 - 211 et 146 - 150.

- J. Michelet, *Cours professé au Collège de France…, op.cit.,*huitième leçon, 5 février1848, (Leçon non professée), pp.211-237.

- يـ زينون :"**منطق الكتابة التاريخية عند المؤرخ جول ميشلِه** ..."، م.س، ص:٣٥٢- ٣٦٤.

(31) J.Michelet, *Le Peuple, op. cit.,* p.200.

(32) *Ibid.*

(٣٣) نقصد بالرجل البورجوازي المثقف، الفرنسي البورجوازي المُتَعَلِّمُ.

(34) J.Michelet, *Le Peuple, op. cit.*, p.210.

(35) *Ibid.,* pp.222 - 223.

(36) *Ibid.,* pp.146 - 148.

(37) *Ibid.,* p.209.

(38) *Ibid.,* pp.209- 210.

(39) *Ibid.,* p.209.

(40) *Ibid.,* p.210.

(41) J. Michelet, *Cours professé au Collège de France..., op.cit.,* huitième leçon, 3 février 1848, (Leçon non professée), p .222.

(42) *Ibid.*, p.223.

(43) *Ibid.,* pp.216- 217.

(44) *Ibid.,p.* 226.

(45) *Ibid.,* pp.223- 224.

(46) *Ibid.*, pp.225- 226.

(47) *Ibid.,* p.221.

(48) *Ibid.*, p.220.

(49) *Ibid.,* p.219.

(٥٠) للمزيد حول دور الرجل الشاب البورجوازي المثقف داخل المجتمع الحداثي الفرنسي راجع:

- J. Michelet, *Cours professé au Collège de France*, *op.cit.,*quatrième leçon, 6janvier1848,
(Leçon non professée.), pp.107-١١٤.

- يـ زينون: "**منطق الكتابة التاريخية عند المؤرخ جول ميشلِه...**"، م. س، ص:٤١٢-٤١٧.

(51) Jules Michelet, *Nos fils,* Paris, Ernest Flammarion, 1895, pp.567 -568.

(52) G. Monod, *Les Maîtres de l'histoire, op.cit.,* p.229.

(53) P Viallaneix, *Cours au Collège de France par Jules Michelet*, *op.cit.,* t.II, 1845-1851, cours de 1850, Éducation de la femme et par la femme, second semestre : Pour une révolution durable, troisième leçon, jeudi 2 mai, Le ménage... la bonne Circé, foyer cuisine, médecins, p. 600.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

المواجهة بين العثمانيين والبرتغاليين في المياه العمانية ١٥٥١–١٥٨١م
صور من العلاقات العمانية – العثمانية



د. سعيد بن محمد الهاشمي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المشارك
كلية الآداب والعلوم الاجتماعية
جامعة السلطان قابوس – سلطنة عمان

مُلَخّصْ

تلقي هذه الدراسة الضوء على المواجهة العثمانية–البرتغالية في المياه العمانية، خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي. وما مدى التعاون العماني – العثماني في الصراع مع البرتغالي. تعرضت السواحل العمانية في مطلع القرن السادس عشر الميلادي لغزو برتغالي، وفرض سيطرته على هذه السواحل لأكثر من مائة وأربعين سنة. وكان حكام المدن الساحلية يدينون بالولاء للمملكة الهرمزية، بينما كان ولاء المدن الداخلية لأئمة عمان بنزوى. دخل الأسطول العثماني المياه العربية بعد أن ضم العثمانيون بلاد الشام ومصر والعراق واليمن، وإعلان حكام الأحساء والبحرين ولاؤهم للدولة العثمانية ١٥٣٤م. وأول اسطول عثماني نفذ من باب المندب نحو كجرات بالهند كان في أوائل سبتمبر ١٥٣٨م، ولكن هذا الأسطول رجع إلى مصر في نوفمبر من العام نفسه دون أن يشتبك مع البرتغاليين. وبقيت محاولات ضعيفة من قبل العثمانيين، لكن كل تلك المحاولات لم تتعد باب المندب إلا حملة بيري ريس التي خرجت من السويس ووصلت إلى البصرة عام ١٥٥٢م. مرّ الأسطول العثماني مرّ على السواحل العمانية ونجح في الوصول إلى مسقط وهزم حاميتها من البرتغاليين في ١٥٥٢م، وأسر عددًا منهم، ثم خرج منها نحو هرمز، وفشل في الوصول إلى قلعتها فسحب قوته إلى جزيرة قشم ومنها تابع سيره نحو البصرة، ثم قفل راجعًا إلى مصر حيث لقى قائد الأسطول مصيره الإعدام بتهمة التقصير. وثمّة محاولة أخرى كانت عام ١٥٨١م للقائد العثماني علي بك الذي نجح في الاستيلاء على مسقط بمساعدة الأهالي. ولكن بعد أن أخذ غنائمه، ترك مسقط عائدًا إلى عدن ومنها إلى شرق إفريقيا. وبين هاتين المحاولتين شهدت السواحل العمانية صراعًا مريرًا بين البرتغاليين والعثمانيين، دون أن يكون للعمانيين فيه أي دور يذكر. تهدف هذه الدراسة إلى إبراز دور العثمانيين العسكري في مواجهة البرتغاليين في مسقط خلال الفترة: ١٥٥١ – ١٥٨١م، وذلك من خلال البحث في محاولات العثمانيين العسكرية للاستيلاء على مسقط، والسيطرة على المياه العمانية والعربية. وذلك من أجل إلقاء الضوء على أهداف تلك المحاولات ومكاسبها العسكرية والسياسية في المنطقة.

بيانات الدراسة:
تاريخ استلام البحث: ٠٨ فبراير ٢٠١٦
تاريخ قبـول النشـر: ١٦ مايو ٢٠١٦

كلمات مفتاحية:
عمان، مسقط، العثمانيين، البرتغاليين، المحيط الهندي

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0051242

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
سعيد بن محمد الهاشمي. "المواجهة بين العثمانيين والبرتغاليين في المياه العمانية (١٥٥١-١٥٨١م): صور من العلاقات العمانية – العثمانية".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة - العدد التاسع والثلاثين؛ مارس ٢٠١٨. ص١٨ – ٣٠.

مُقَدِّمَةُ

دخل الأسطول العثماني المياه العربية بعد أن ضم العثمانيون بـلاد الشـام ومصرـ والعـراق والـيمن، وإعـلان حكـام الأحسـاء والبحرين ولاؤهم للدولـة العثمانيـة عـام ١٥٣٤م. وأول أسـطول عثماني نفذ من باب المندب نحـو كجـرات بالهنـد كـان في أوائـل سبتمبر ١٥٣٨م، وبقيت محاولات ضـعيفة مـن قبـل العثمانيـن، لكن كل تلك المحاولات لم تتعد باب المندب إلا حملة بيري ريس

التي خرجت من السويس ووصلت إلى البصرة عام ١٥٥٢م. مرّ الأسطول العثماني على السواحل العمانية ونجح في الوصول إلى مسقط وهزم حاميتها من البرتغاليين في ١٥٥٢م، وأسر عددًا منهم، ثم خرج منها نحو هرمز، وفشل في الوصول إلى قلعتها فسحب قواته إلى جزيرة قشم ومنها تابع سيره نحو البصرة، ثم قفل راجعًا إلى مصر. وثمّة محاولة أخرى كانت عام ١٥٨١م للقائد العثماني علي بك الذي نجح في الاستيلاء على مسقط بمساعدة الأهالي. ولكن بعد أن أخذ غنائمه، ترك مسقط عائدًا إلى عدن ومنها إلى شرق إفريقيا. وبين هاتين المحاولتين شهدت السواحل العمانية صراعا مريرا بين البرتغاليين والعثمانيين، دون أن يكون للعمانيين فيه أي دور يذكر.

أهمية البحث: يلقي هذا البحث الضوء على المواجهة العثمانية- البرتغالية في المياه العمانية، خلال النصف الثاني من القرن ١٦م. وأهمية التعاون العماني - العثماني في الصراع مع البرتغاليين. حيث أن تعرضت السواحل العمانية في مطلع ال قرن١٦م لغزو برتغالي، وفرض سيطرته على هذه السواحل لأكثر من مائة وأربعين سنة. وكان حكام المدن الساحلية يدينون بالولاء للمملكة الهرمزية، بينما كان ولاء المدن الداخلية لأئمة عمان بنزوى.

أهداف البحث: يهدف هذا البحث إلى إبراز دور العثمانيين العسكري في مواجهة البرتغاليين في مسقط خلال الفترة: ١٥٥١م - ١٥٨١م، وذلك من خلال البحث في محاولات العثمانيين العسكرية للاستيلاء على مسقط، والسيطرة على المياه العمانية والعربية. وذلك من أجل إلقاء الضوء على أهداف تلك المحاولات ومكاسبها العسكرية والسياسية في المنطقة.

منهجية البحث: اتخذ البحث المنهج الوصفي التحليلي التاريخي لتحقيق أهداف البحث. ولذلك فإن هذا البحث قسم إلى مبحثين؛ أولهما تتناول الأحوال السياسية في عمان وماحولها في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي، وثانيهما: تعالج بالدراسة والتحليل الحملات العثمانية ضد البرتغاليين على السواحل العمانية، وطبيعة التعاون بين قادة هذه الحملات العثمانية، والعمانيين.

نتائج البحث: توصل البحث إلى نتائج هامة منها أن أهداف المواجهة بين العثمانيين والبرتغاليين كان اقتصاديا في المقام الأول وليس مطلبا سياسيًا أو دينيًا حسب ما وضحته الدراسة من سلوك قادة الحملات. كما أوضح البحث أن احتلال مسقط عام ١٥٥٢ و١٥٨١م من قبل العثمانيين لم يكن له أهداف سياسية محدودة، بل مغامرات من دون توجيه معين، ولهذا السبب جعل الكثيرون من الباحثين يلمزونها بالطمع والجشع وعدم المسئولية وهذا ما أكدته الوثائق الدولة العثمانية التي عمدت إلى معاقبة قادتها الذين تجاوزوا حدود المسئولية.

١-الأوضاع السياسية في عمان في القرن السادس عشر الميلادي

انتهت دولة بني نبهان الأولي عام (٩٠٦هـ/١٥٠٠م)، وعلى أثرها تم انتخاب محمد بن إسماعيل الحاضري القضاعي إماما في نزوى، وقد استمر حكم هذا الإمام حوالي ٣٦ سنة[١]، ثم خلفه ابنه بركات بن محمد الذي حكم حتى خروجه من نزوى عام (٩٦٤هـ/١٥٥٦م) إلى بهلاء ودخول الشيخ سلطان بن محسن بن سليمان بن سليمان النبهاني نزوى، مستغلا خروج الإمام بركات منها وإعلان دولة بني نبهان الثانية (٩٦٤هـ/١٥٥٦م - ١٠٢٦هـ/١٦١٧م)[٢]. إن فترة الإمام محمد بن إسماعيل (٩٠٦هـ/١٥٠٠م - ٩٤٢هـ/١٥٣٥م) كانت مضطربة، حيث لم يفرض سلطته على عمان كلها، فالسواحل العمانية ظل تحت نفوذ الإمبراطورية الهرمزية منذ عام (٦٦٠هـ/١٢٦١م)، حينما استولى عليها محمود بن أحمد الكوشي القلهاتي أثناء حكم السلطان النبهاني أبا المعالي كهلان بن نبهان بن ذهل. كما أن مدينة الرستاق يحكمها اليعاربة[٣] وهم في نصر بن زهران من الأزد،[٤] وقد توارث حكمها منذ معركة بوه بولاية نخل عام (٥٧٩هـ/١١٨٣م) بين الإمام موسى بن أبي المعالي كهلان بن موسى بن نجاد وحاكم الرستاق محمد بن مالك بن شاذان، حيث يصل نسب اليعاربة.[٥]

ثم أن عددًا من مناطق عمان لم تكن خاضعة لهذا الإمام مثل منطقة الباطنة والشرقية والظاهرة، وفي عهد هذا الإمام محمد بن إسماعيل استولى البرتغاليون على السواحل العمانية عام (٩١٣هـ/١٥٠٧م)، بصفتها تابعة للمملكة الهرمزية التي سيطروا عليها مع بقاء الملك شكليًا، وفي نفس الوقت تابعًا للملك البرتغالي. وكانت مملكة هرمز تعتبر في ذلك الوقت أكبر تنظيم سياسي واقتصادي عرفته المنطقة[٦]. واشتعل الخلاف بين الإمام بركات بن محمد بن إسماعيل وأحمد بن مداد الناعبي حول الكثير من المسالك السياسية والاقتصادية، الأمر الذي أدى إلى خلعه من الإمامة. فاستغل الشيخ سلطان بن محسن بن سليمان النبهاني هذا النزاع، واستولى على نزوى ثم بهلاء من الإمام بركات الذي فر إلى منطقة الظاهرة، وبذلك قامت دولة النباهنة الثانية.

لهذا كله لم يجد سكان المناطق الساحلية النصير والعون المادي والمعنوي من أئمة عمان وسلاطين بني نبهان أو أسرة اليعاربة، الذين يحكمون الرستاق، للقيام بطرد البرتغاليين أو الحد من نفوذهم في مصادرة كل سفينة تدخل البحر من دون موافقتهم العسيرة. ولهذا قلّ الإنتاج الاقتصادي وانقطع التواصل البحري التجاري بين عمان والعالم الخارجي، إلا فيما ندر على الأقل في العقود الأولى من الغزو وبهذا ضعفت الإمكانيات وأصاب أهل عمان الخمول والضعف، وعدم وجود من يحمس الناس ويدعوهم إلى الجهاد والوقوف في وجه هيمنة البرتغاليين وأعوانهم من ذوات المصالح السياسية والاقتصادية.

٢- النفوذ البرتغالي في منطقة الخليج وعمان

بعد سقوط الأندلس في مطلع التسعينيات القرن الخامس عشر الميلادي، سعى الإسبان والبرتغاليون إلى الوصول إلى الهند، ونجح البرتغاليون في الوصول إلى الهند قبيل نهاية القرن وذلك بعد الالتفاف حول القارة الإفريقية، واكتسابهم مهارة الخبرة البحرية، وبفضل تشجيع الأمير (Henrique) هنري الملاح (١٣٩٤ – ١٤٦٠م)[٧] الذي اشتهر بحقده الشديد للعرب والإسلام[٨]. يُعَدّ المكتشف البرتغالي فاسكو داي جاما[٩] (Vasco De Gama) الذي وصل إلى ساحل ملبار ونزل في ميناء كاليكوت بالهند في ٢٧ مارس ١٤٩٨م[١٠]، يُعَدّ من أكبر المكتشفين البرتغاليين، وبوصوله إلى الهند فقد حقق حلما أوروبيا دأبوا على تحقيقه منذ أمد بعيد.

بعد هذا الإنجاز الذي حققه البرتغاليون، تتابعت حملاتهم العسكرية إلى الهند لفرض إرادتهم ونفوذهم، وإذا كانت الحملتين الأوليتين[١١] برتغاليتين قد فشلتا في إخضاع حاكم كاليكوت السامري، فإن الحملة الثالثة بقيادة فرانسيسكو دا الميدا (Francisco de Almeyda) عام ١٥٠٥م قد حققت نجاحًا سياسيًا وعسكريا كبيرين. وفي العام التالي أرسل ملك البرتغال حملة رابعة كانت بقيادة تريستاو دي كونها (Tristao De Conha) ويرافقه افونسو دي البوكيرك (Affonso De Buqerque) والتي خطط لها أن تغزو البلاد العربية والإسلامية[١٢]، وعند وصول البرتغاليين كانت تجارة الهند والشرق الأقصى بيد المسلمين وأغلبهم من عرب الجزيرة العربية. وقد وضع البرتغاليون خططًا وأهدافًا لتواجدهم في المحيط الهندي، أهمها الهيمنة على المراكز والموانئ العربية والإسلامية، وكذلك موانئ سواحل شرق إفريقيا، والهيمنة على مملكة هرمز وتوابعها لأكونها تتحكم في مدخل الخليج العربي، والاستحواذ على طرق التجارة من الهند إلى غرب أوروبا عن طريق رأس الرجاء الصالح[١٣].

وذكرت المصادر أن مهمة البوكيرك كانت موجهة نحو السفن العربية والإسلامية. بعد استيلاء تريستان والبوكيرك على سوقطرة[١٤] وقتل حاكمها الشيخ إبراهيم بن قشن[١٥]، افترق القائدان، فاتجه تريستان إلى الهند في أغسطس ١٥٠٦م بينما توجه البوكيرك قبله إلى عدن وباب المندب، ترافقه سبع سفن عليها ٤٦٠ جنديًا، ففشل في اقتحام عدن ولم يشأ أن يدخل مياه البحر الأحمر. وبذلك فضل الصعود شمالاً مكتشفا الموانئ اليمنية والعمانية، فوصل إلى جزيرة مصيرة في أواخر شهر أغسطس. ومنها انتقل إلى رأس الحد ثم قلهات، وفي طريقه صادف وجود عدد من السفن العمانية فتمكن من حرق ٤٣ سفينة كانت على مدخل خور جراما بالقرب من رأس الحد وعند وصول البوكيرك قلهات هادنه صاحبها خوفًا من تدمير المدينة[١٦]، ودفع له المال والمؤن، وأخبره أنه تابع للإمبراطور الهرمزي سيف الدين ووزيره خوجا عطار. فغادرها في ٢٢ أغسطس إلى قريات التي قاومته بشدة وعنف، ولكن مدافع البوكيرك وعنفه أدى إلى حرق المدينة و٨٣ سفينة كانت تدافع، ثم انتقل إلى مسقط وفرض حصاره عليها. وبعد مقاومة عسكرية سقطت المدينة في أيدي جنده[١٧]. ووقع ملك هرمز سيف الدين اتفاقية التبعية والولاء لملك البرتغال في نهاية شهر جمادى الأولى ٩١٣هـ/ سبتمبر ١٥٠٧م[١٨]، تنص الاتفاقية على إعفاء السلع البرتغالية من الضرائب[١٩]، وألا تتحرك أية سفينة في الخليج إلاّ بإذن من السلطات البرتغالية. ثم تابع البرتغاليون انتصاراتهم فقضوا على دولة بني جبر في منطقة البحرين والأحساء عام (٩٢٧هـ/١٥٢١م)، وقتلوا حاكمها الشيخ مقرن بن زامل الجبري شنقًا[٢٠]. وكان بنو جبر من أقوى الإمارات في المنطقة حينئذ. ولهذا لم تتضح لنا أسباب عدم خروج هذه الإمارة عن مجالها الإقليمي في مساندة العمانيين أو الهرمزيين على الرغم أن البوكيرك أشار في مذكراته أن بنو جابر كان لهم نفوذ على السواحل العمانية[٢١].

وكان الصفيون حكام بلاد فارس مشغولين مع جيرانهم العثمانيين في حروب سجاليه بينهم[٢٢]، على الرغم من وجود أعظم حكامهم الشاه إسماعيل (١٤٩٩ – ١٥٢٤م) وكانت عاصمة الدولة مدينة تبريز. ولم ير الصفيون مصلحتهم أن يحتكوا بالبرتغاليين نكاية بالهرمزيين والعرب. بل في الحقيقة أن الصفويين كانوا يعولون على كسب صداقة البرتغاليين وتبادل الوفود بينهما[٢٣]. وعلى وجه الخصوص بعد هزيمتهم في موقعة شالديران عام ١٥١٤م[٢٤]، وسقوط تبريز والعراق في أيدي العثمانيين. وقيل أن البوكيرك بعث برسالة إلى الشاه إسماعيل يقدم فيها مساندته فتقول الرسالة: "إني أقدر لك احترامك للمسيحيين في بلادك، وأعرض عليك الأسطول والجند والأسلحة لاستخدامها ضد قلاع الترك في الهند، وإذا أردت أن تنقض على بلاد العرب أو أن تهاجم مكة، فستجدني بجانبك في البحر الأحمر أمام جدة أو في عدن أو في البحرين أو القطيف أو البصرة، وسيجدني الشاة بجانبه على امتداد الساحل الفارسي وسأنفذ له ما يريد"[٢٥]، وهناك رسائل أخرى يعرض فيها البوكيرك أن يكون بينه والشاه حلفًا عسكريًا لمواجهة أعدائهما.[٢٦]

وبهذا سيطر البرتغاليون على منطقة الخليج وعمان، وفرضوا نفوذهم وهيمنتهم القوية على السكان الذين أصابهم الضعف والهوان والتفكك فضلاً عن الصراع الداخلي بين المدن.[٢٧] وبذلك تملك البرتغاليون زمام الريادة في المحيط الهندي ومنعوا السفن التجارية من الوصول إلى الهند[٢٨] إلا بتصريح[٢٩] موقع من ملك البرتغال يعرضوه على كل سفينة برتغالية تصادفهم، وكان ذلك التصريح نادر الوجود وغير فعال -في كثير من الأحيان-، حيث كانت بعض السفن البرتغالية تعترض السفن العربية وينهب محتوياتها ويُقتل بحارتها سواء كان لدى هؤلاء تصريح بدخول البحر أم لا. كما أن نظام القوافل البحرية الذي فرضوه على أهل بحر ساعد على تكرر هذه الممارسة، ومعاملة البرتغاليين لكل ما هو مسلم بالوحشية[٣٠] على خلاف الأقوام والديانات الأخرى.[٣١] وبهذا انقطعت التجارة بين الهنود والعرب وانعدمت التجارة بين الجزيرة العربية وبلاد أوروبا الشرقية، بعد أن كانت للسفن العمانية والعربية في المحيط الهندي والخليج العربي أدوارًا رئيسة في ازدهار الاقتصاد العالمي.[٣٢] وانتقل الثقل التجاري بعد ذلك

إلى لشبونة عاصمة البرتغال. وأصبحت أسواق لشبونة تختص في تجارة البهارات والسلع الشرقية، يغدون إليها تجار أوروبا.

٣- المواجهة المصرية - البرتغالية

وبناءً على ذلك التدهور الاقتصادي في البلاد العربية والإسلامية[٣٣] تحمس قانصوه الغوري سلطان مصر (٩٠٦هـ/١٥٠٠م - ٩٢٢هـ/١٥١٦م) لهذا الوضع، واستجاب لدعوة سلطان كجرات[٣٤] محمود بيكر في مواجهة البرتغاليين[٣٥] وقرر مصادمة البرتغاليين في المحيط الهندي فأرسل حملات عديدة آخرها الحملة التي قادها حسين الكردي المكونة من خمسين سفينة، والذي تصادم مع البرتغاليين في السواحل الغربية للهند، وكانت أبرز المعارك التي التقى فيها الكردي مع البرتغاليين هي معركة "شول chaul" عام ١٥٠٨م التي انتصر فيها، وقتل فيها ابن نائب الملك لورنزو دي الميدا lorenze de Almeyda . واللقاء الآخر كان في الثالث من فبراير ١٥٠٩م، حيث انهزم الكردي في معركة "ديو البحرية" بالقرب من جزيرة ديو الهندية[٣٦] التابعة لسلطنة كجرات الإسلامية[٣٧] التي استنجدت بالغوري سلطان مصر[٣٨]. وقيل أن القائد حسين الكردي لم يسمع لنصائح مالك آياس حاكم ديو وتحذيراته[٣٩]. وقيل بأنه كان مندفعًا بحماس كبير، ولا يستبعد صاحب كتاب "تحفة المجاهدين" وقوع خيانة.

وبعد ذلك انحسرت القوات المصرية في حماية مدخل البحر الأحمر، ومنع السفن البرتغالية من دخولها البحر الحمر، وحماية المقدسات الإسلامية. وتحصين جدة خوفا من مباغتة القوات البرتغالية للمدينة، وتسيير حملات عسكرية، منها حملة بقيادة سليمان الرومي عام ١٥١٥م[٤٠]، الذي اتخذ جزيرة[٤١] كمران[٤٢] مركزًا وقاعدة للسفن الحربية المصرية. وفوق ذلك الاستعداد فإن السفن المصرية لم تخرج من باب المندب، واشتغلت هذه القوة في تحصين مدينة جدة، وتعقب السفن البرتغالية التي جالت في البحر الأحمر وذلك لضعف التفاهم بينهم وحكام اليمن. ووجهت سلاحها على اليمنيين وتناست أهدافها الأساسية، وبذلك غضب الغوري من تصرفها، فأوقف إمداد الحملة[٤٣]. هذه القوات بقت في اليمن دون حراك، غير أن الذي زاد الطين بله أن حاكم عدن الأمير مرجان الظافري (ت. ٩٢٧هـ)[٤٤] عقد معاهدة صلح عام (٩٢٣هـ/١٥١٧م) مع نائب الملك البرتغالي في الهند لوبو سوريز دي الباكاريا Lopo Soares de AlBergaria، حتى يؤمن إمارته من هجوم برتغالي بحري بعد أن وقع بينهم وبين القوات المصرية في البرّ.[٤٥]

٤- العثمانيون في مواجهة البرتغاليين

ركزت الدولة العثمانية عملياتها العسكرية الجهادية في مواجهة القوى الأوروبية في البحر المتوسط خلال القرن ١٥م وما بعده، وكان ثمة قادة حملوا لواء الجهاد مثل خير الدين بربروسا وأخيه وغيرهما. ولما جاء الخطر من الشرق وانقطعت التجارة عبر البلاد العربية، وفشلت المماليك المصريين في معركة ديو البحرية عام (٩١٥هـ/١٥٠٩م)، وانشغالهم عن متابعة جهودهم العسكرية كما أشرنا، اتجهت الدولة العثمانية إلى المناطق العربية.

وقد أشرنا أن العثمانيين قد انتصروا على الشاه إسماعيل في معركة جالد إيران عام (٩٢٠هـ/١٥١٤م)، وأشرفوا على حدود بلاد الشام الشمالية واحتلوا بغداد[٤٦]، وتشير المراسلات بين السلطان الغوري والشاه إسماعيل إلى الرغبة في تكوين حلف بينهما ضد النفوذ العثماني، وعندما وصل خطر العثمانيين على مشارف حدود المماليك في بلاد الشام، وشعر السلطان الغوري بالخطر المحدق، قاد جيشه نحو الشام لصد العثمانيين، ولكنه سقط في معركة مرق دابق ميتا في ٢٣ رجب ٩٢٢هـ/٢٤ أغسطس ١٥١٦م[٤٧]. وبذلك احتل السلطان العثماني سليم الأول بن بايزيد (٩١٨هـ/١٥١٢م - ٩٢٧هـ/١٥٢٠م) بلاد الشام، ثم تلتها مصر بعد معركة الريدانية عام (٩٢٣هـ/١٥١٧م)[٤٨]. وأعلن أشراف الحجاز خضوعهم للخلافة العثمانية[٤٩]. ثم اخضع العثمانيون الموصل وبغداد عام ٩٤١هـ/١٥٣٤م، وبذلك أصبح العثمانيون على مشارف سواحل الخليج العربي.

أشرف العثمانيون على خليج السويس بعد استيلائهم على مصر في (٩٢٣هـ/١٥١٧م) وأصبح البحر الأحمر مفتوحا لعملياتهم العسكرية بعد أن وصلوا اليمن واحتلوا أجزاء منها، وتمركزوا في عدن[٥٠]. ثم بدأت حملة سليمان باشا المعروف بسليمان الخادم على جزيرة ديو لمساندة مملكة كجرات الإسلامية، وحاصر قلعتها ولم يتمكن منها فعاد إلى عدن في يوم الاثنين ١٢ جمادى الثانية ٩٤٥هـ/ ٥ نوفمبر ١٥٣٨م[٥١]، ويعلق جورج ستربلنج G. Stripling على هذه الحملة بقوله "أن عدم نجاح هذه الحملة الضخمة لم يحدث بسبب أن العثمانيين كانوا أدنى من البرتغاليين في السفن والسلاح بل لأن قيادة الحملة كان سيئة وجبانة وغير كفأة"[٥٢]. وفي عام (٩٥٣هـ/١٥٤٦م) قام علي بن سليمان البدوي الطوالقي أمير خنفر[٥٣] بثورة على الوجود العثماني واستولى على عدن عام (٩٥٣هـ/١٥٤٧م)[٥٤]، وأرسل خطابًا إلى حاكم هرمز البرتغالي يطلب منه معاونته ضد الأتراك[٥٥]، ولكن مساندة البرتغاليين للطولقي جاءت متأخرة حيث وصلت عام (٩٥٧هـ/١٥٥٠م)، فوجدت الطوالقي قد انتهى أمره وقضى عليه من قبل فرهاد باشا حاكم اليمن العثماني الجديد في محرم من عام (٩٥٥هـ/١٥٤٨م).[٥٦]

بدأت العمليات العسكرية للعثمانيين في منطقة الخليج العربية، حينما استنجد أهل الأحساء والقطيف بسلطان البصرة الشيخ راشد بن مغامس بن صقر آل شبيب الفضلي[٥٧]، وذلك على أثر سقوط دولة الجبور بها، ففرض الشيخ راشد سيطرته عليها عام أوائل ٩٣١هـ/ أواخر١٥٢٤م[٥٨]. ثم ضم القطيف إلى حكمه عام (٩٤٥هـ/١٥٣٨م)، بعدها وعلى أثر تحرش والي بغداد بحدود البصرة، سارع الشيخ راشد وأرسل بعثه دبلوماسية إلى السلطان العثماني سليمان القانوني (ت. ٩٧٤هـ/١٥٦٦م) برئاسة ابنه مانع ووزيره محمد وقاضي عسكره لتهنئة السلطان سليمان على فتحه بغداد، وتسليم مفاتيح البصرة وهدايا قيمة. انتهت هذه البعثة باعتراف السلطان العثماني براشد بن مغامس آل عليان حاكمًا على البصرة والأحساء مدى الحياة[٥٩]، على أن يذكر

اسمه في الخطبة والنقود، وأن يدفع مبلغًا من المال للخزينة العثمانية، وأن يعمل بما يأمره ولاة البصرة[٦٠]. وبهذا أضحى الشيخ راشد أحد ولاة العثمانيين في منطقة الخليج،[٦١] غير أن أوضاع البصرة اضطربت بعد وفاة راشد (ت. حوالي ١٥٣٩م)، حيث اختار أهل البصرة الشيخ عثمان بن محمد بن مغامس الفضلي بدلا من الشيخ مانع بن راشد بن غامس الذي اكتفى بحكم الأحساء والقطيف موقتًا. ولكنه عاد إلى البصرة بعد وفاة ابن عمه عثمان أمير البصرة حوالي عام ١٥٤٣م، وعاد الصراع بين آل بيت مغامس من جديد ينتهي بخروج مانع إلى الأحساء والقطيف وترك البصرة لأبن عمه يحيى بن محمد بن مغامس[٦٢].

وتآمر الشيخ يحيى على الشيخ مانع بالتعاون مع حالكم البحرين، أنتهى الأمر أن رمى الشيخ مانع نفسه في احضان البرتغاليين برسالة مؤرخة في شعبان ٩٥١هـ/نوفمبر ١٥٤٤م إلى لويس فلكاو بربرا قبطان هرمز (١٥٤٤م – ١٥٤٧م) طلب فيها صداقتهم، وأنه على استعداد تسليم القطيف لهم مقابل مساندته في استرجاع البصرة[٦٣]، ويبدو أن شروط البرتغاليين على الشيخ مانع كانت قاسية، لم يرد أن يغامر في المجهول، وعلى العموم استعاد البرتغاليون القطيف في رجب ٩٥٢هـ/سبتمبر١٥٤٥م، دون أن يقاوم الشيخ مانع بل انسحب من القطيف، ثم مات في الأحساء. واستبد الشيخ يحيى في البصرة، ورفض الانصياع لمطالب والي بغداد[٦٤]، ولهذا قرر السلطان سليمان القانوني أن يثبت وجود سلطته في منطقة الخليج، وذلك لمواجهة البرتغاليين مباشرة. لهذا بدا العثمانيون بالاستيلاء على البصرة، فقد سار إليها والي بغداد أياس باشا على رأس حملة كبيرة، فاستولى عليها في ٢١ شوال ٩٥٣هـ/٢٦ ديسمبر ١٥٤٦م[٦٥]. وطرد الشيخ يحيى منها، ثم سيطروا على القطيف. وبذلك أصبحت البصرة وما حولها من الأراضي بكلربكلك، وعين بلال محمد محافظا عليها. فسارع الشيخ يحيى شيخ البصرة المطرود بطلب النجدة من البرتغاليين[٦٦]، فأنجدوه بألف ومائتي جندي عام ١٥٤٧م تحت قيادة انطاو دي نورونها (Antao De Noronha)، ولكن عادت الحملة دون تحقيق مكاسب سياسية، وأعلن أهل القطيف تبعيتهم للدولة العثمانية وذلك لحمايتهم من البرتغاليين[٦٧].

ونخلص إلى ما أشرنا إليه؛ من أن الأسطول العثماني لم يواجه البرتغاليين في موانئ الخليج العربي ولا مياه عمان قبل عام ١٥٥٠م، باستثناء حملة سليمان الخادم التي وصلت إلى جزيرة ديو واشتبكت مع البرتغاليين، ثم انسحب من المعركة وعاد إلى اليمن في ربيع الأول ٩٤٥هـ/أغسطس ١٥٣٨م، وبعد هذا التاريخ أي عام ١٥٥٢م بدأ الاحتكاك العثمانيين بالبرتغاليين في الخليج العربي.

٥-الحملة العثمانية على مسقط عام ١٥٥٢م

إن الحملة العثمانية التي خرجت من السويس بقيادة بيري علي ريس (Pirri Ali Reis) كان هدفها الأساسي الاستيلاء على هرمز ثم البحرين[٦٨]، وحماية البصرة وموانئ الخليج العربي الخاضعة للدولة العثماني[٦٩]. إن هذه الحملة التي خرجت من السويس في جمادى الأولى ٩٥٩هـ/إبريل ١٥٥٢م كانت مكونة من ثلاثين سفينة[٧٠] من نوع الغراب والشانية، وتحمل أكثر من ستة عشر ألف جندي[٧١]، كانوا تحت أمرة بيري محيي الدين على ريس أشهر أدميرالات العثمانيين في مصر.[٧٢]

فخرج الأسطول الحربي العثماني من السويس في جمادى الأولى ٩٥٩هـ/إبريل ١٥٥٢م، فوصل عدن، ومنها انطلق نحو الشمال محاذيا السواحل اليمنية، حتى مر على سواحل ظفار دون أن يتوقف، حتى وصلت سفنه أمام مسقط، فحاصرها. ولا نستبعد من مشاركة العمانيين في تسهيل رجال الحملة بالنزول في مرفأ سداب الواقعة جنوبي مسقط، وتحدث محمد بن بيري مع شيوخها وأعيانها طالبًا منهم مساندة الحملة بعد أن عرّفوا بهويتهم وغايتهم. بعد تداول الموضوع سهلوا لهم الطريق البري مع توفير الأدلاء، وشاركهم المجاهدون من أهل سداب والقرى المحيطة بمسقط، وشرحوا لهم الموقف والغاية من قدوم العثمانيين إلى مسقط للتخلص من البرتغاليين.

وقبل وصول حملة بيري ذكر لوبيز لوباتو (Lopez Lobato) المعتمد البرتغالي في هرمز في رسالة إلى حاكم الهند والمؤرخة في ٣١ أكتوبر ١٥٤٦م، أنه في نفس العام وصلت أربع سفن عثمانية المياه العمانية، وأنها ذهبت مباشرة إلى مدينة قلهات العمانية وهاجمتها بعد أن طلب قائد السفن الأربع من حاكمها بتسليم المدينة، ولكنه رفض. ثم انسحب عنها واتجهت هذه السفن إلى مسقط وأضرموا النار فيها ثم انصرفوا[٧٣]. وفي الحقيقة أن الوثائق العثمانية لم تشر إلى هذه الحملة ولم يكن في استطاعة السفن العثمانية الخروج من البصرة إلى المواني العمانية، ومن المحتمل أنها خرجت من عدن وكان عليها مغامرون يستكشفون السواحل العمانية لمعرفة قوة العدو.

ومن خلال استقراء رسالة دون مانو ثيل دي ليما حاكم هرمز إلى جوا ودي كاسترو حاكم الهند والمؤرخة في ٢٣ يونيو ١٥٤٧م، نستشف مجموعة من الحوادث والاستعدادات لمواجهة السفن العثمانية، فيذكر أنه أمر بإعداد تسع سفن حربية موجودة في الخدمة للتهئ للحركة نحو مسقط في نهاية شهر يونيو ١٥٤٧م، لترسو هناك في انتظار وصول السفن التركية المتوقعة قدومها من اليمن، وذلك بناء على ورود معلومات من عدن تفيد أن العثمانيين يستعدون للقدوم إلى المنطقة بعد مدة لا تزيد عن شهرين ونصف. وتعتبر الرسالة أن بقاء السفن في مسقط، كان لخدمة مصالح الملك البرتغالي، وتضيف أنه قرر إرسال سفينتين حربيتين إلى رأس الحد في عمان لرصد تحركات الأسطول العثماني.[٧٤]

ومهما كانت الصعوبات، فإن محمد بك ابن بيري علي ريس وصل شواطئ مسقط، ومعه خمس سفن كبيرة، قبل أن يلحقه

والده بستة أيام، ويبدو أن سبب تأخر بيري عن ولده هذه المدة، يعود إلى أنه قد ألتقى عند رأس الحد بقوة برتغالية بقيادة سايمو دا كوستا (Simao da Costa) الذي كلفه حاكم هرمز الفارو دي نورونها (Alvaro de Noronha) بأن يخرج بأسطوله للبحث عن الأسطول العثماني وصده عن الموانئ الهرمزية، وقد وردت إليه أخبار من اليمن تفيد بأن العثمانيين قد جهزوا حملة عسكرية لتتوجه إلى البصرة. وتصادف بيري مع القوة البرتغالية وتمكن من تحطيمها[٧٥]. ويعتبر هذا الانتصار أول نصر حققه بيري على السواحل العمانية، وبذلك ارتفعت معنويات جنده، وأصبح الطريق مفتوحًا أمامه إلى مسقط[٧٦]. غير أن أسطوله تعرض لعاصفة كبيره فُقدت بعض سفنه، والنجأ بإحدى خلجان السواحل العمانية لعدة أيام ثم أبحر نحو مسقط. وعند وصوله شدد من محاصرة مسقط بحرًا، وساعده العمانيون بتضييق الخناق برًا. وكان عدد الحامية البرتغالية بمسقط لا تتجاوز ٦٠ جنديًا برتغاليا تحت أمرة جواو دي لزبوا (Joâo de Lisboa). وكان هذا القائد قد أرسله حاكم عام الهند الفونسو ذي نورونها (Affonso De Noronha) إلى مسقط لأجل تشييد حصنها وتقوية مداخلها وحمايتها من تحركات العثمانيين في المياه العربية الشرقية.

وبعد ثمانية عشر يومًا من الحصار استسلمت حامية مسقط البرتغالية[٧٧]، وفق شروط تعهد بها بيري في أول الأمر، وأهمها أن يخرج القائد جواو من قلعة مسقط وبرفقته بقية جنوده الأحياء إلى هرمز بكافة أسلحتهم، ولكن بيري لم يشأ أن يلزم نفسه بهذا الشرط، وفور نزولهم القلعة جردهم من أسلحتهم، وأخذهم رهائن في سفنه.[٧٨] ولعل استسلام مسقط يعود إلى ضعف الحامية البرتغالية، ونفاذ المعدات الحربية والمعيشية على المحاصرين، والتعاون العماني في بداية الأمر مع قادة الحملة العثمانية. ويعود الفضل إلى ابن بيري علي المدعو محمد الذي وصل مسقط بستة أيام قبل أن تكتمل الحملة، فقام بترتيب هذا التعاون مع أهالي مدينة سداب ومسقط، والذين أقنعوا حاكم مسقط وهو ممثل أمير هرمز.[٧٩]

لقد قيل أن بيري علي ريس احتل مسقط "دون صعوبة تذكر"[٨٠]، والحقيقة خلاف ذلك. فقد حاصر مسقط لمدة ثمانية عشر يومًا حتى استسلمت الحامية وفق شروط قائدها، ولعلّ بيري كان يُرك أن الحصار قد يطول شهورًا، لذا على ما يبدو قبل شروط قائد الحامية تفاديًا لإطالة الحصار والتسبب في هلاك العشرات من جنوده. وكان لمسقط تحصينات قوية لا يمكن أن تسقط بهذه السهولة، ولذلك نستبعد الرأي القائل بأن مسقط سقطت في يد بيري ريس بسهولة.

ليس لدينا تاريخًا محددًا لوصول العثمانيين إلى مسقط، ولكن ثمة بعض المراجع تذكر أن احتلال مسقط كان في شهر أغسطس ١٥٥٢م، وأن وصول بيري إلى هرمز كان يوم الأثنين٣٠ رمضان ٩٥٩هـ/ ١٩ سبتمبر ١٥٥٢م وكان تاريخ الخروج من مسقط يحتمل في يوم الأحد ٢٩ رمضان ٩٥٩هـ/ ١٨ سبتمبر ووصوله هرمز بعد يوم واحد من مغادرته مسقط أي في يوم الأثنين٣٠ رمضان/ ١٩ سبتمبر، وعلى ذلك تكون فترة السيطرة العثمانية على مسقط قد دامت شهري أغسطس وسبتمبر من عام ١٥٥٢م. ومن المحتمل أن يكون بيري علي قد مكث مدة بعد استسلام حاميتها، ونستبعد ما ذكرته بعض المصادر من أنه غادر المدينة بعد ليلة واحدة.

غادر بيري علي ريس مسقط، وبرفقته أسراه وغنائمه، دون أن يترك أحدا لقيادة القلعة لا من أتباعه ولا من الأهالي وزعماء عمان[٨١]. وسحب كل وسائل الدفاع التي من الممكن أن يستفيد منها أهل مسقط؛ لأجل الدفاع عن أنفسهم. إن الغنائم التي حصل عليها بيري من البرتغاليين أو أثرياء مسقط كثيرة. لقد ترك بيري علي كثير من الاستفسارات التي لم نجد لها إجابات مقنعه عن خروجه هكذا بدون علم الأهالي. فهنالك من قال: أنه سمع أن البرتغاليين يعدون في الهند حملة كبيرة لاسترجاع مسقط بعد وصول الأخبار إليهم بسقوطها، وهنالك من رأى أن احتلال مسقط لم يكن الهدف الأساسي الذي جاء من أجله بيري على، إنما هي المصادفة والقدر الذي ساقه إلى مسقط والانتصار على الأسطول البرتغالي هناك. ويمكن أن نضيف رأيًا آخرًا لخروج بيري علي من مسقط بصورة مفاجأة، وهو عدم تعاون العمانيين بصورة جدية مع بيري علي. بعد تحقيق انتصاره واستيلائه على مسقط، لم يعر لهم بالا، ولهذا اعتبروه مثله مثل غيره من القادة البرتغاليين لا فرق بينه وبين الطامعين الآخرين، لهذا أهملوه وانصرفوا عنه غير مبالين به.

وفي الحقيقة أن كل الاحتمالات وارده فإن حاكم الهند الفونسو ذي نورونها أعدّ حملة بلغ عدد سفنها ثمانين سفينة، وكان ينوي أن يقودها بنفسه وعندما وصل إلى جوا علم بأن بيري علي غادر مسقط وهرمز في نهاية شهر أكتوبر، بل أنه وصل البصرة في شهر فبراير ١٥٥٢م.[٨٢]

٦- المواجهة العثمانية – البرتغالية بين عامي ١٥٥٣ و١٥٨١م

لقد مكث بيري علي ريس في البصرة حتى نهاية العام، وعلم من هناك أن قباد باشا (Pasha Qubad) بيلربي البصرة أرسل تقريرا عن بيري على شرح فيها كمية الغنائم التي كانت لدى بيري، وكيف حصل عليها من التجار المسلمين سواء في مسقط أو هرمز أو قشم، وعدد السفن التي كانت معه والسفن التي تحطمت، والأسرى الذين ينوي بيري أن يطلب فدية مقابل إطلاق سراحهم. فعرف بيري أن هذا التقرير كان في غير صالحه؛ لأن التقرير فيه تحامل كبير على بيري الذي تعرض لأموال المسلمين في مسقط وهرمز وقشم، وأنه قد أساء إلى سمعة الدولة العثمانية بسلب أموال التجار المسلمين. لهذا قرر ترك البصرة والعودة إلى السويس، فأخذ من سفنه ثلاث سفن حمل عليها الغنائم والأسرى، فغرقت إحدى سفنه قبالة السواحل البحرينية، ووصل مصر بسفينتين في أكتوبر ١٥٥٣م. وعند وصوله، وجد الأوامر السلطانية تنتظره، فقبض عليه وأخذ إلى إسطنبول، حيث أُعدم بتهمة الإهمال[٨٣] ومخالفة الأوامر

والتعليمات التي كلف بها، مما أدى إلى فشل الحملة وتدني سمعة البحرية العثمانية.(٨٤)

ولهذا قرر السلطان سليمان أن يكلف أحد قادته لنقل السفن الباقية في البصرة إلى السويس، وقد عين في بادئ الأمر مراد بك ريس والي سنجق القطيف قائدًا للأسطول العثماني في البصرة، وصدرت الأوامر السلطانية إليه بأن يقود هذا الأسطول إلى مصر- وفي أغسطس ١٥٥٣م خرج مراد بك من البصرة وبمعيته ستة عشر سفينة نحو السويس، وحينما كان يعبر مضيق هرمز باغتته السفن البرتغالية بقيادة ديبجو دي نورونها (Diego De Noronha)، الذي علم بهذا التحرك، فاستعد لاعتراضه بين جزيرة هنجام في مدخل المضيق ورأس مسندم. وخسر مراد بك بعض سفنه وقتل من معاونيه سليمان ريس ورجب ريس وعدد كثير من جنده، ثم هرب بحارته ليلا إلى البصرة، وفي النهاية قرر العودة إلى البصرة.(٨٥)

بعد فشل مراد بك عين السلطان العثماني سليمان القانوني سيدي علي ريس (Seydi Ali Reis) ويسمى علي بن حسين كما يعرف بسيدي علي شلبي، وهو من قادة البحرية العثمانية(٨٦). كان يشغل منصب قائد أسطول منطقة إسطنبول(٨٧)، ثم نقله السلطان وعينه أميرًا على الأسطول العثماني في مصر. فصدرت له الأوامر السلطانية بأن يُرجع الأسطول العثماني من البصرة إلى السويس، ونصت التعليمات أن يذهب إلى البصرة عن طريق البر، وأن يقود الأسطول العثماني الذي تركه بيري علي ريس والعودة به إلى مصر. فاستجاب لهذا التكليف ووصل إلى البصرة في شهر ربيع الأول ٩٦١هـ/فبراير ١٥٥٤م، فاستقبله والي البصرة مصطفى باشا(٨٨) الذي كان يعاني من ثورات القبائل العربية (آل مشعشع وآل عليان)، فحاول سيدي علي مساعدته في استتباب الأمن وإخضاع القبائل، كما اهتم بصيانة الأسطول.

في شهر يوليو١٥٥٤م أبحر سيدي علي من البصرة إلى مصر- عبر الخليج العربي ومعه خمسة عشر- سفينة. كان قد عمل سيدي علي على تجنب الاصطدام بالسفن البرتغالية، وتجاوز مضيق هرمز بسلام، وكان سيره بمحاذات الشواطئ العمانية في طوابير منظمة، وعند وصوله سواحل خور فكان ألتقى بالأسطول البرتغالي بقيادة فرناندو دي نورونها (Fernando de Noronha) العائد من ظفار حيث ذهب إلى هناك لإخضاع الأهالي الثائرين على البرتغاليين، وكان ذلك في ٩ رمضان ٩٦١/ ١٠ أغسطس ١٥٥٤م. كان عدد السفن البرتغالية ٢٥ سفينة، وأجبرت السفن البرتغالية على التراجع إلى خليج(٨٩) ليما(٩٠)، ومنها فرت إلى مسقط من أجمل حمايتها وتحذير أهلها من احتمالية هجوم العثمانيين عليها، ويذكر سيدي علي في كتابه "مرآة الزمان"(٩١) أن "هذا اللقاء كان لقاء ناجحًا. وتزود الأسطول العثماني بالماء من خور فكان، ثم تابع سيره.

وكان الأسطول البرتغالي قد سبقه إلى مسقط لتقوية حاميتها، ومن ثم وزع القائد البرتغالي فرناندو دي نورونها سفنه لمراقبة قافلة الأسطول العثماني، وكان الاصطدام لابد منه، فحدثت المواجهة الثانية، عندما التقى الخصمان قبالة شاطئ العذيبة(٩٢) في صباح يوم ١٥ أغسطس(٩٣)، وكانت الهزيمة للعثمانيين، حيث تفاجأ أسطولهم بالأسطول البرتغالي بسبب إطلاق المدافع الكثيفة. ودفعت الرياح المعاكسة أسطولهم نحو سواحل بلوشيستان فحاول الإفلات من المعركة، وتحطمت من أسطوله ست سفن. وقد وصف سيدي علي هذه الحادثة في كتابه أيضًا أنها من "أسوى المعارك". وبعد أن تزود بالمؤن من ميناء شهبار(٩٤)، عاد بعد أن تجمعت سفنه الباقية. وعندما كان قبالة رأس الحد(٩٥)، تعرضت سفنه لعواصف شديدة جذبته نحو ساحل الهند، وتجمعت سفنه في سورات إحدى الموانئ المهمة لمملكة كجرات الإسلامية، وبعد ذلك اشتبك مع البرتغاليين هناك، وفقد معظم سفنه، ثم لجأ إلى ملك كجرات ومعه من بحارته (٥٠) بحارًا عادوا إلى إسطنبول برًا، وذلك بعد ثلاث سنوات من خروجهم من البصرة، فوصلوا إسطنبول عام ١٥٥٧م(٩٦)، وبعدها اختفت المواجهات العثمانيين للبرتغاليين في المحيط الهندي حتى عام ١٥٨١م.

٧- الحملة العثمانية الثانية على مسقط عام ١٥٨١م

لم تشر المصادر إلى أن العثمانيين عادوا إلى السواحل العمانية بعد عام ١٥٥٤م، ويبدو أن سبب ذلك يعود إلى عجزهم من فرض قوتهم على السواحل العمانية، وأكتفوا بحماية البحر الأحمر من دخول البرتغاليين فيه والذين كانوا يهددون جدة، وربمّا الأماكن المقدسة. غير أنه وردت إشارة في كتاب "كوتو Couto المعنون " دا آسيا Da Asia" تفيد أن البرتغاليين اعترضوا في عام ١٥٦٥م أسطولاً عثمانيًا في السواحل اليمنية وعليه أكثر من ٤٠٠ محاربا، وفي السنتين التاليتين ١٥٦٦ و ١٥٦٧م اعترض الأسطول البرتغالي بعض السفن العثمانية المتجهة إلى البحر الأحمر(٩٧)، ويبدو أنها كانت قادمة من الموانئ الهندية، ونستبعد أن هذه السفن قدمت من الخليج العربي.

وقد تأثرت البحرية العثمانية بوفاة السلطان سليمان القانوني عام ١٥٦٦م، وأن خليفته سليم الثاني (١٥٦٦م – ١٥٧٤م) لم يكن مؤهلاً لمواصلة سياسة والده التوسعية ولا المحافظة على مكتسباته أمام تعقد الأوضاع الداخلية، وضغط الأحداث الخارجية وذلك لصغر سنه(٩٨). كما أن الدولة العثمانية دخلت في حروب كثيرة مع الدولة الصفوية، عندما اعتلى قيادة بلاد فارس الشاه عباس الكبير (١٥٧٨م – ١٦٢٩م). أضف إلى ذلك أنها ركزت حروبها في أوروبا والبحر الأبيض المتوسط، ولهذا فإن اهتمام العثمانيين بالمشرق العربي قد ضعف في مقابل اهتمام السلاطين بشؤون أوروبا. كما أن التجارة بين الهند والبحر الأحمر، وبين الهند والخليج العربي ازدهرت خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي، ويذكر الرحالة الإنجليزي ج. الدريد الذي زار البصرة في الربع الأخير من القرن السادس عشر- أن "سفنا مختلفة تصل شهريا إلى ميناء البصرة قادمة من هرمز وهي محملة بجميع أنواع البضائع الهندية"(٩٩). وفي الحقيقة، يعود ذلك الازدهار إلى التفاهم الذي تم بين بيليري بك البصرة وحالكم هرمز الذين رأوا أن الكساد الاقتصادي وسلبية قادة

البرتغاليين لم تفيد التجارة في شيء، فكثر التهريب بين السفن والموانئ المحظورة، حيث كان التجار يوهمون البرتغاليين أن وجهاتهم تختلف عما طلبوا التصريح له، فمثلاً تسمح للسفن التجارية أن تتجه إلى بلاد فارس والبحرين وموانئ الحبشة وغيرها ويمنع من اتجاهها إلى البصرة والموانئ العثمانية في البحر الأحمر.

ومن الحملات العثمانية التي أشار إليها بافقيه أنه في رجب ٩٨٤هـ/سبتمبر ١٥٧٦م أن أسطولاً عثمانيًا خرج من اليمن وهاجم السواحل العمانية وتمكن من حصوله على غنائم، فيقول في أحداث عام ٩٨٤هـ "أنه في يوم الأثنين الأول من شهر رجب [٢٤ سبتمبر ١٥٧٦م] وصل إلى بندر الشحر غرابان تركيان قبطانهما اسمه سنان فيما نحو ٢٠٠ من الجنود ومثلهم من البحارة والهنود قاصدين رأس الحد للإفرنج وأخذوا سفينة من نوع برشة مشحونة بالأموال كانت تقصد هرمز، وأخذوا سفينة أخرى من نوع غليون من البندر، وساعدهم الهنود ، ورجعوا غانمين سالمين. وكان وصولهم إلى الشحر يوم ثلاثة وعشرين من شهر شعبان [١٦ نوفمبر ١٥٧٦م] وساروا إلى المكلا، واقتسموا الغنائم ومكثوا أيامًا ثم ساروا إلى عدن".(١٠٠)

وقد ارجع الباحث حسن صالح شهاب هذه الغزوة إلى حملة علي بك شلبي الذي خرج من اليمن إلى مسقط وأحتلها، والحقيقة إن هذه المحاولة كانت عبارة عن جهود ذاتية من المجاهدين قصد بها أرباك البرتغاليين. ومثل هذه الغزوات كثيرة سواء من العثمانيين أو غيرهم من القوى الوطنية العربية(١٠١)، حيث ذكرت بعض الرسائل البرتغالية تفيد أن البرتغاليين استولوا على عدد من مراكب القاهرة، وكانت هذه السفن تقوم بتهريب السلع من السواحل الهندية(١٠٢)، ولكن هذا الادعاء غير صائب، فإن هذه المراكب مسلحة بالرجال والعتاد لحماية سفنهم ولمواجهة البرتغاليين.

في فبراير ١٥٨٠م مات ملك البرتغال الكاردينال هنري، وأوصى أن يؤول عرش البرتغال بعد موته إلى الملك فيليب الثاني (ت.١٦٠٠م) ملك إسبانيا، فاعترضت عائلته على تلك الوصية، وتزعم ذلك دون أنطونيو. لهذا سارع ملك إسبانيا بأرسال جيشٍ كبيرٍ تمكن من دخول العاصمة لشبونة في ١٦ إبريل ١٥٨١م، وبذلك سقطت الإمبراطورية البرتغالية وأصبحت مستعمرة إسبانية. هذا الأمر تناقلته الأخبار وأثر على مستعمراتها في خارج أوروبا. استغل العثمانيون هذا الوضع، وكلفوا قائد الأسطول العثماني في اليمن علي بك شلبي بتحرير مسقط، وأن يحررها من البرتغاليين، معتقدين أن معنويات قادة الأسطول البرتغالي في الهند وهرمز قد انهارت، وضعفت إرادتهم. وكان علي بك شلبي قد وجه مغامراته إلى شرق إفريقيا، وكسب هنالك مكاسب سياسية وعسكرية للدولة العثمانية، كما أسس قواعد عديدة في الموانئ اليمنية أهمها مدينة "مخا" الواقعة على باب المندب.

وذكرت المصادر البرتغالية حملة علي بك شلبي من دون تفاصيل، وكانت عام ١٥٨١م، ويذكر مايلز أن علي بك شلبي خرج من عدن(١٠٣) في أوائل شهر شعبان ٩٨٩هـ/ أواخر شهر أغسطس ١٥٨١م وأن وصوله مسقط كان في يوم الجمعة ٢٣ شعبان ٩٨٩هـ/ ٢٢ سبتمبر ١٥٨١م وبمعيته أربع سفن(١٠٤). وقد تفاجأ البرتغاليون بهذه الحملة، وكانوا يعرفون تحركات علي بك شلبي الذي كان موجهًا إلى السواحل الإفريقية الشرقية، ولهذا لم يكونوا يتوقعون هجومهم، خاصة أن آخر هجوم للعثمانيين على مسقط كان قبل ثلاثين سنة.

تلقى حاكم اليمن العثماني(١٠٥)، دعوة من القبائل العمانية المحيطة بمسقط مفيدة أن المدينة تكاد تخلو من وسائل الدفاع، مغرية إياه بالغنائم الكثيرة. فأعد وجهز عسكرية لاقتحام مسقط(١٠٦). وكان قادة البرتغال في المنطقة يعرفون ذلك الضعف، وإمكانية تعرض مسقط للهجوم المباغت من قبل العثمانيين، لهذا تقدم هؤلاء القادة بخطة إلى الملك فيليب الثاني ملك إسبانيا والبرتغال لبناء قلعتين في مسقط، غير أن موافقة الملك الإسباني جاءت متأخرة كثيرة. ولم تبنى القلعتان إلا بسنوات بعد ذلك، الجلالي في الجهة الشرقية عام ١٥٨٧ والميراني في الجهة الغربية من مدخل ميناء مسق وذلك في عام ١٥٨٨م.

نجح علي بك شلبي في الوصول إلى مسقط في يوم ٢٣ شعبان/٢٢ سبتمبر بسلام وبدون حوادث تذكر غير أن سفينة من سفنه غرقت بسبب عاصفة مفاجئة. وقد أرسى سفنه في خليج سداب، ونزل وبمعيته (١٥٠) من رجاله. كانت خطته أن تتحرك قوته البحرية إلى مسقط وأوصاهم بأن لا يظهروا في ميناء مسقط قبل الفجر، وأن يبدؤوا بإطلاق النار على المدينة، وأن يتظاهروا بإنزال الجنود في مكان ما من شواطئ مسقط حتى يوهموا البرتغاليين بذلك الإنزال. أما هو فقد تسلل بمن معه ومن العمانيين إلى مسقط، وقسم أتباعه إلى ثلاثة مجموعات، كل مجموعة ترابط أمام بوابة من بوابات(١٠٧). مسقط(١٠٨). تحرك علي بك شلبي من سداب إلى مسقط وفاجأ الحامية العسكرية في قلعة مسقط بالهجوم، فاستسلمت المدينة له. أما حاميتها التي لم يزد عددها عن (٥٠٠) فرد، منهم (٧٠) فردًا ممَنْ يستطيعون حمل السلاح، فقد هربوا منها، واتخذوا طريق البر والبحر إلى مدينة بركاء،(١٠٩) واستعصموا عند حاكمها الشيخ قطن(١١٠). وقد ذكر دميجو دو كوتر أن العثمانيين احرقوا كنيسة بمسقط، وتخلصوا من الكلاب والقطط والخنازير التي كانت بمسقط في منازل الأثرياء(١١١)، وقد ساعدهم دهماء المدينة وعمالها على ذلك.

ولم يمكث علي بك شلبي في مسقط طويلا فقد حزم غنائمه، بعد أن نهب ممتلكات البرتغاليين، واستولى على ثلاث سفن عمانية من مدينة مطرح ليحمل عليها ما غنمه من المال والأشياء الثمينة(١١٢)، ورحل عائدا إلى مخا من دون أن ينوب أحدًا عنه من العمانيين – كما فعل بيري علي ريس - أو يترك عليها حامية من قبله. خرج علي بك فجأة من مسقط كما دخلها. ويمكن أن نعلل ذلك بأنه كان على علم بأن البرتغاليين لن يتركوه يستقر بمسقط دون محاولة استردادها، أو أنه وردت إليه معلومات تفيد أن حاكم هرمز دون جونزالا دي منزيس Dom Gonzala De menezes المسئول عن الحامية العسكرية في مسقط، قد سير على عجل حملة بقيادة لويس دي الميدا إلى مسقط لاعتراض سفن علي بك شلبي وتدميرها، وفي طريق الحملة البرتغالية إلى

مسقط، عُلم بأن علي بك قد ترك مسقط، وأنها خالية من العثمانيين[١١٣]، ولم يشأ لويس أن يتعقب علي بك جنوبا، فقرر أن يتجه نحو ساحل بلوشستان ظنًا منه أن علي بك سيتجه نحوها، ولهذا عند وصوله علم بخلاف ظنه، فأكتفى بسلب ونهب السكان.[١١٤]

وهكذا، تعتبر حملة بير علي بك على مسقط من المحاولات الأخيرة على مسقط خلال القرن السادس عشر الميلادي. وظل علي بك شلبي يقوم بمغامرات عديدة في شرق إفريقيا حتى قبض عليه بعد تسع سنوات من استيلائه على مسقط، وأخذ إلى لشبونه، واجبر على التنصر للبقاء على قيد الحياة حتى مات هناك.

خَاتِمَةُ

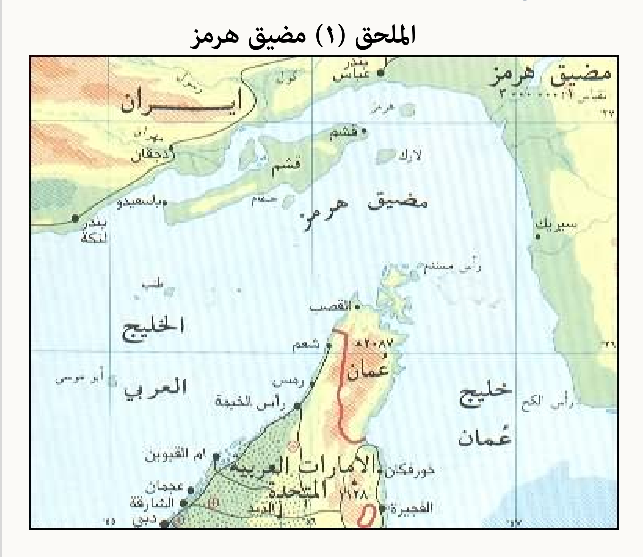
إن المواجهات العثمانية البرتغالية على السواحل العمانية التي أبرزتها هذه الدراسة توصلت إلى نتائج مرضية وفق الوثائق المتاحة، وذلك بأن هذه الوثائق إما أن تكون باللغة العثمانية أو باللغة البرتغالية، وهذه الوثائق تحتاج إلى مصادر محايدة محلية بعمان أو اليمن أو غيرها من المصادر مثل مصادر فارسية أو هندية، ولكن للأسف فإن كل هذه المصادر شحيحة، ولا تتيح للباحث أن ينقد مصداقية هذا المصدر أو ذك.

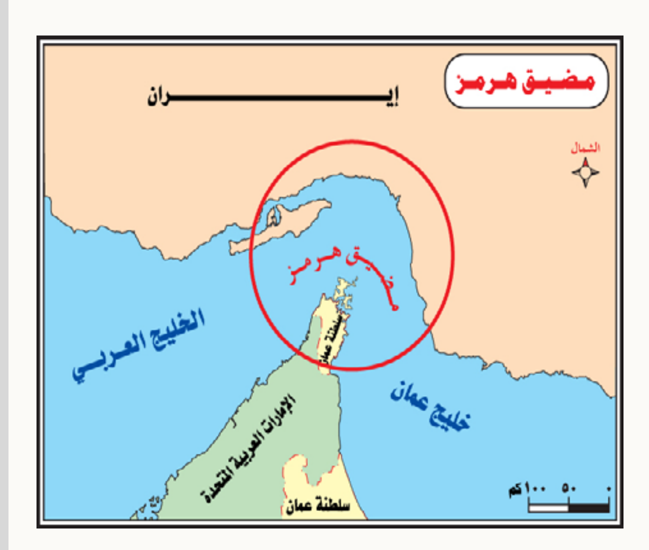
نتائج الدراسة

- كشفت هذه الدراسة أن أهداف المواجهة بين العثمانيين والبرتغاليين كان اقتصاديا في المقام الأول وليس مطلبًا سياسيًا أو دينيًا حسب ما وضحته الدراسة من سلوك قادة الحملات.
- أوضحت هذه الدراسة أن احتلال مسقط عام ١٥٥٢ و١٥٨١م من قبل العثمانيين لم يكن له أهداف سياسية محدودة، بل مغامرات من دون توجيه معين، ولهذا السبب جعل الكثيرون من الباحثين يلمزونها بالطمع والجشع وعدم المسئولية وهذا ما أكدته الوثائق الدولة العثمانية التي عمدت إلى معاقبة قادتها الذين تجاوزوا حدود المسئولية.
- توصلت هذه الدراسة إلى أن قادة العثمانيين لم يهتموا بسكان مسقط، بل أن معاملتهم لم تكن حميدة، ولأنهم لم يشاركونهم في الغنائم ولا يسندوا عليهم مهمة إدارية في مسقط أثناء وجودهم وبعد مغادرتهم.
- بينت هذه الدراسة أن العثمانيين كانوا يعانون من ضعف في قوتهم البحرية، ولم ينشؤوا قواعد عسكرية في مسقط الأمر الذي من المؤكد أن يقوي من قوتهم ومكانهم السياسية.
- بينت هذه الدراسة أن البرتغاليين كانوا نشطين وأن كثير من القوى المحلية متعاونة معها وذلك لأجل تصدير انتاجهم الزراعي واستزاد السلع الغذائية والنسيجية، مما سهل انسياب التجارة بين الهند ومسقط، وإن كانت على نطاق محدود.
- كشفت هذه الدراسة أن العثمانيين لم يكن لهم دراية بالأجواء المناخية ومواعيد الرياح والطرق البحرية التي تحميهم من مخاطر العواصف.
- على الرغم من أن الحملات البرتغالية لم تحقق نتائج ملموسة، غير أن هذه الدراسة أكدت أن حملات العثمانيين اضعفت النفوذ البرتغالي وشغلته في جبهات مختلفة في الخليج واليمن والسواحل الهندية وشرق أفريقيا وأصاب السفن البرتغالي الارتباك بأن يقاتل في جبهات متعددة، وإذا كان هذه الأسطول مهيمن في النصف الأول من القرن السادس عشر، فإن النصف الثاني من القرن كان البرتغاليون في محل دفاع عن ذاته.

الملاحق

الملحق (١) مضيق هرمز



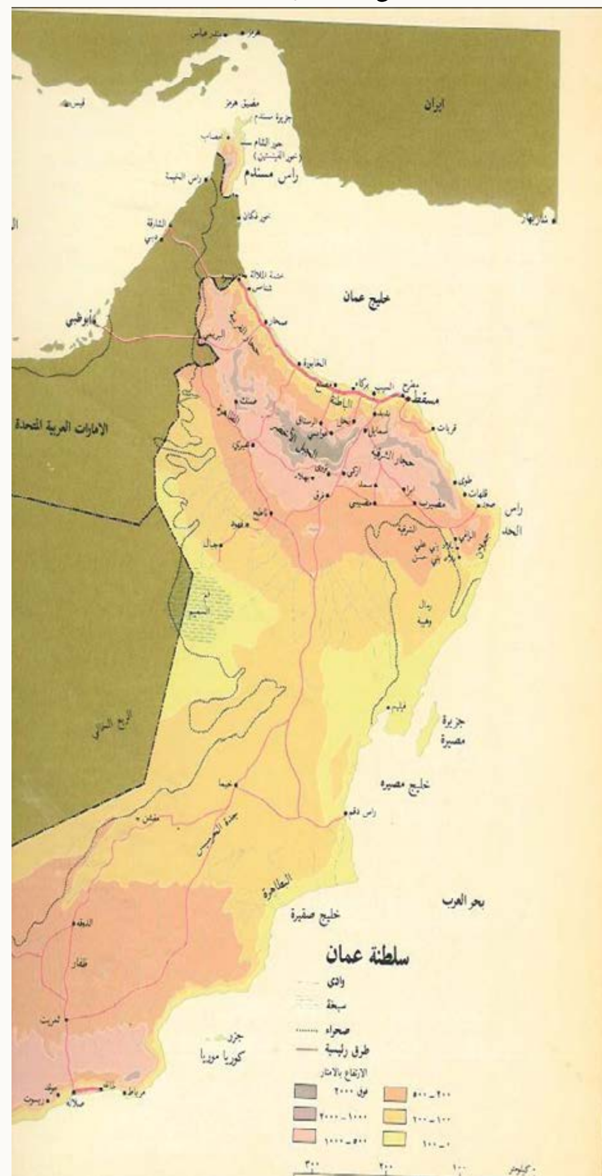


الملحق (٢) مضيق باب المندب واليمن





الملحق (٣) خارطة سلطنة عمان



الهَوامِشُ:

(١) السالمي، عبد الله بن حميد. **تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان**. مكتبة الإمام نور الدين السالمي، السيب" ٢٠٠٠م، ج١، ص: ٣٨٦.

(٢) الهاشمي، سعيد بن محمد. **دراسات في التاريخ العماني**. النادي الثقافي، مسقط: ٢٠١١م، ص٢١٠ وما بعدها.

(٣) نسب اليعاربة خطاءً إلى النباهنة، وإلى يعرب بن عمر بن محمد بن عمر بن نبهان بالذات، والحقيقة أن هذا الرأي للشيخ سالم بن حمود السيابي في كتابه إسعاف الأعيان، وقد عنونه بقوله "نسب آل يعرب في نصر بن زهران" وهذا العنوان هو نفسه مع الشيخ نور الدين السالمي في كتابه **تحفة الأعيان**، ج٢، ص:٣ وقد سبقهما الشاعر ابن شوال في ديوانه "الكيذاوي" وذكر أن نسب اليعاربة في نصر بن زهران. وأن نسب النباهنة في العتك، والعتك ونصر يلتقين في الأزد بن الغوث حيث أن العتيك في مازن بن الأزد، ونصر بن زهران في نصر بن الأزد فكيف يقال أن اليعاربة ينتمون إلى ملوك اليعاربة، وحيث أن نصر بن زهران هو أخ لعبرة بن زهران الذي ينتمي إليه العبريون.

(٤) السيابي، سالم بن حمود. **إسعاف الأعيان في أنساب أهل عمان**. مشورات المكتب الإسلامي، دمشق: ١٩٦٥م، ص: ١١٩.

(٥) نسب ابن هاشم راشد بن خلف بن محمد في قصيدته اللامية وشرحها عام (٩٣٤هـ/١٥٢٧م) اليعاربة، حيث قال: "أعني بالسلطان من آل يعرب: هو محمد بن بلعرب بن سلطان بن أبي حمير بن مزاحم بن يعرب بن محمد بن يعرب بن مالك بن محمد بن يعرب بن مالك، انظر: البطاشي، سيف بن حمود. **إتحاف الأعيان**. ج٢، ط١، مسقط: ١٩٩٤م، ص: ١٥٨.

(٦) قاسم، جمال زكريا. **الأوضاع السياسية في الخليج العربي إبان الغزو البرتغالي**. ج١، أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية، رأس الخيمة: ١٩٨٧م، ص: ٢٧.

(٧) حنظل، فالح. **العرب والبرتغال في التاريخ**. ط١، المجمع الثقافي أبو ظبي: ١٩٩٧م، ص: ٩١.

(٨) عوض، عبد العزيز. **دراسات في تاريخ الخليج الحديث**. ط١، دار الجيل، بيروت:١٩٩١م، ص: ١١.

(٩) حنظل، المرجع السابق، ص: ١١١.

(١٠) حنظل، المرجع السابق، ص:١٢٥.

(١١) الحملة الأوليتين كانتا بقادة فاسكو داجاما الأولى (١٤٩٨م – ١٤٩٩م)، والثانية (١٥٠٢م – ١٥٠٣م)، انظر: الشيخ، رأفت غنيمي. "**البرتغاليون بين رأس الخيمة والهند أوائل القرن السادس عشر**". مجلة الوثيقة البحرينية، العدد ٢٣ (يوليو ١٩٩٣م)، ص: ١٤٢ – ١٤٣.

(١٢) الثقفي، يوسف بن علي. "**موقف المماليك ودول الخليج من الاستعمار البرتغالي**". ج١، أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية، رأس الخيمة: ١٩٨٧م، ص:١٤٧.

(١٣) لمزيد من المعلومات عن الأهداف الأساسية للكشوف والبرتغالية، انظر: كاظم، بشير حمود. "**حركة الكشوف البرتغالية وأهدافها**". ندوة رأس الخيمة التاريخية، رأس الخيمة: ١٩٨٧م، ج١، ص: ١٢١ -١٢.

(١٤) الثقفي، المرجع السابق، ص: ١٤٨.

(١٥) التكريتي، سليم طه. **المقاومة العربية في الخليج العربي**. وزارة الثقافة والأعلم العراقية، بغداد: ١٩٨٢م، ص: ٤١.

(١٦) ويلسن، أرنولد. **تاريخ الخليج**. ترجمة محمد أمين عبدالله، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط: ١٩٨١م، ص: ٢٠٥.

(١٧) هرمز جزيرة صغيرة بيضاوية الشكل تقع في مدخل الخليج العربي ويسمى المدخل بمضيق هرمز نسبة لهذه الجزيرة، طولها حوالي ٩كم وعرضها حوالي ٥، ٨ كم وتبعد عن الساحل الفارسي بحوالي ١٨ كم.

(١٨) الخصوصي، بدر الدين. **دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر**.ج١، ط٢، ذات السلاسل، الكويت: ١٩٨٤م، ص:١٦ – ١٧.

(١٩) ويلسن، المرجع السابق، ص: ٢٠٨.

(٢٠) والذي قال عنه أبن إياس "كان أميرًا جليل القدر معظمًا مبجلاً في سعة من المال مالكي المذهب سيد عربان المشرق على الإطلاق، انظر: **بدائع الزهور في وقائع الدهور**. تحقيق محمد مصطفى، ج٥، ط٢، فرائز شتاينر فيسبادن، القاهرة: ١٩٦١م ص: ٤٣١.

(٢١) نعتقد أن بني جابر وهي قبيلة عمانية يقطنون في أودية قلهات وأودية سمائل، ومنهم في فلج القبائل بصحار، ليس لهذه القبيلة علاقة بني جبر في منطقة الأحساء، ولا نظن أن البوكيرك يعني بني جبر.

(٢٢) لمزيد من المعلومات حول التوسع الصفوي في العراق، انظر: الجواهري، عماد أحمد. "**العراق والتوسع الصفوي: ١٥٠٢م – ١٥٣٠م**". مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد (٢٠)، (أكتوبر ١٩٧٩م)، ص:٦٥ -٨٣.

(٢٣) **السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك**، ترجمة عبد الرحمن الشيخ، ط ١، المجمع الثقفي، أبوظبي:٢٠٠٠م، ج٢، ص:٦٣٩ – ٦٤٢ ؛ قاسم، تاريخ الخليج. ج١، ص: ٦٧.

(٢٤) العقاد، صلاح. **التيارات السياسية في الخليج العربي**. مكتبة الأجلو المصرية، القاهرة: ١٩٨٣م، ص: ١١.

(٢٥) العقاد، المرجع السابق، ص: ١٧.

(٢٦) حنظل، المرجع السابق، ص:٢٣٩ – ٢٤٠.

(٢٧) عن أهمية التجارة البحرية بين المحيط الهندي والبحر الأحمر والخليج العربي، انظر: زيادة، نقولا. "**تطور الطرق البرية والتجارة بين البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي**". مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد (٤)، (أكتوبر ١٩٧٥م)، ص: ٦٩ – ٩٤.

(٢٨) الكيالي، محمد عارف. "**الأسس الاقتصادية للاستعمار البرتغالي في الخليج في القرنين ١٦ و١٧ الميلاديين**". مجلة الوثيقة البحرينية، العدد ١٤ (يناير ١٩٨٦م، ص ١٠٦ وما بعدها.

(٢٩) عرف هذا التصريح بنظام الرخصة الملاحية (Cartaz)، انظر: آل خليفة. خالد. "**التأثير البرتغالي على اقتصاد منطقة الخليج العربي في القرن السادس عسر**". مجلة الوثيقة البحرينية، العدد (١٩)، (يوليو ١٩٩١م)، ص: ١٠٤.

(٣٠) الملباري، أحمد زين الدين المعبري. **تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين**. تحقيق: محمد سعيد الطريحي، ج١، مؤسسة الوفاء، بيروت: ١٩٨٥م، ص: ٢٤٧.

(٣١) بانيكار. **آسيا والسيطرة الغربية**. ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة: ١٩٦٢، ص: ٥٢.

(٣٢) قاسم، **تاريخ الخليج**، ج١، ص: ٤٣.

(٣٣) لمزيد من المعلومات عن التأثير البرتغالي على اقتصاد منطقة الخليج العربي، انظر: الخليفة، علي. "**التأثير البرتغالي على اقتصاد منطقة الخليج العربي في القرن السادس عشر**". مجلة الوثيقة البحرينية، العدد ١٩، (يوليو ١٩٩١م)، ص٩٤ – ١١٠.

(٣٤) تُعَدّ مملكة كجرات من أهم الممالك الإسلامية على الساحل الهندي الغربي، وهي تحتل أقصى شمال هذا الساحل. ومن أهم موانى هذه المملكة كمبايا وديو وسورات، وتعتبر أحمد أباد عاصمة هذه المملكة. وتحده هذه السلطنة سلطات بلاد ملبار والتي تعرف في وقتنا الحاضر كيرلا.

(٣٥) الساداتي، أحمد محمود. **تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم**. القاهرة: ١٩٥٧م، ج١، ص: ١٨٢ – ١٨٣.

(٣٦) الملباري المصدر السابق، ص: ٢٥٠

(٣٧) عن أهمية التجارة بين مملكة كجرات والبلاد العربية، انظر: مهنتا، ماكراند وشيرين. "**تجار كجرات والتجار العرب بعض الملاحظات المبنية على المصادر المعاصرة (٩٤٢م - ١٥٠٠م)**". مجلة الوثيقة البحرينية، العدد ٢٣ (يوليو ١٩٩٣م)، ص١٨٠ – ١٩٣؛ الندوي، أبو ظفر. **أسطول كجرات ١، ٢ و٣**. مجلة ثقافة الهند، المجلد ١٦ و ١٧ العدد الرابع (أكتوبر ١٩٦٥م؛ والعددين الأول والثالث (يناير ويوليو ١٩٦٦م).

(٣٨) قاسم، **تاريخ الخليج**، ص: ٤٧.

(٣٩) الملباري، المصدر السابق، ص: ٢٥٣.

(٤٠) حنظل، المرجع السابق، ص١٤٧-٢٤٨.

(٤١) احتل البرتغاليون هذه الجزيرة عام (٩١٩هـ/ ١٥١٣م) انظر: الثقفي، المرجع السابق، ١٥٩، الهامش رقم (٢٧).

(٤٢) كمران جزيرة كبيرة مشهورة في البحر الأحمر مقابلة للساحل اليمني، تبعد عن الساحل بسبعة كيلومترات تقريبًا، انظر: لقمان، حمزة علي. **تاريخ الجزر اليمنية**. بيروت: ١٩٧٢م.

(٤٣) يبدو أن قانصوه اشتغل بحماية حدوده الشامية من العثمانيين الذين كانوا يهددون مملكته، وسقط قتيلاً من حصانه بالسكة القلبية في (رجب ٩٢٢هـ/ أغسطس ١٥١٦م) في معركة مع العثمانيين في وادي "مرج دابق" شمالي حلب، انظر: حنظل، المرجع السابق، ص: ٢٦١.

(٤٤) كان الأمير مرجان حاكمًا لعدن من قبل السلطان عامر بن عبد الوهاب بن داوود الطاهري (ت. ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م)، واستمر في إمارته حتى وفاته عام (٩٢٧هـ/١٥٢١م)، انظر: سالم، السيد مصطفى. **الفتح العثماني الأول لليمن: (١٥٣٨- ١٦٣٥)**. ط٢، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة: ١٩٢٧م، ص٢١.

(٤٥) حنظل، المرجع السابق، ص٢٦٣.

(٤٦) احتل الصفويون بغداد أواخر عام ١٥٠٨م بد هزيمة مملكة الآق قويونلي انظر: لونكريك، هيمسلي. **أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث**. ترجمة جعفر الخياط، ط ٦، مكتبة اليقظة الحديثة، بغداد:،١٩٨٥م، ص:٣٠ – ٣١.

(٤٧) لمعرفة المزيد عن الخلاف المملوكي – العثماني، انظر: الخوري، إبراهيم. "**توسع الدولة العثماني في الخليج العربي ونتائجها السياسية في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي**". ندوة رأس الخيمة التاريخية الثانية، رأس الخيمة: ١٩٨٨م، ص:٢٠٤ – ٢٠٦.

(٤٨) أثناء وجود السلطان سليم الأول في مصر أمر ببناء ترسانة بحرية في ميناء السويس، انظر: قاسم، **تاريخ الخليج**، ج١، ص: ٧٧.

(٤٩) ايفانوف، نقولاي. **الفتح العثماني للأقطار العربية: ١٥١٦ – ١٥٧٤م**. ترجمة يوسف عطاء الله، دار الفارابي، بيروت: ١٩٨٨م، ص٦٠ وما بعدها.

(٥٠) احتل العثمانيون عدن بعد أن شنقوا سلطانها عامر بن داؤود بن طاهر الطاهري في ربيع الأول ٩٤٥هـ/ أغسطس ١٥٣٨م، انظر: بافقيه. محمد بن عمر الطيب. **تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر**. تحقيق: عبد الله محمد الحبشي، ط ١، عالم الكتب، بيروت: ١٩٩٩، ص: ٢٥٤؛ صالحية، محمد عيسى. "**التدخل العثماني في اليمن: ٩٤٥هـ/١٥٣٩م – ٩٦٢هـ/١٥٥٥م**". مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد ٢٤ (أكتوبر ١٩٨٠م)، ص:٩٧.

(٥١) ريان، محمد رجائي. "**موقف الدولة العثمانية من النفوذ البرتغالي في الخليج العربي**". بحث ضمن ندوة مكانة الخليج العربي في التاريخ الإسلامي: ١٢٥٨ – ١٦٥٠م، جامعة الإمارات العربية المتحدة، العين:١٩٩٠م، ص: ٥٥٣ – ٥٥٦.

(52) Stripling, G.W. The Ottoman Turks and the Arabs, Urbana:1942, p. 93.

(٥٣) الشيخ علي بن سليمان هو أحد شيوخ القبائل المجاورة لعدن، استولى على عدن عام ٩٥٤هـ/١٥٤٧م، ونجح بيري علي في حملته الأولى إلى اليمن في استرجاع عدن وقتل الطوالفي، انظر: شهاب، المرجع السابق، ص: ١٠٨.

(٥٤) صالحية، المرجع السابق، ص:١٠٨ – ١٠٩.

Serjeant, R. B. The Portuguese of the South Arabian Coast. Beirut:1974, P.20.

(٥٥) ابن مظهر، عيسى بن لطف الله (ت. ١٠٤٨هـ/١٦٣٨م). روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح. مخطوط بمعهد المخطوطات العربية القاهرة تحت رقم ٢٦٢/ ت تاريخ، ورقة ٣٤؛ حنظل، المرجع السابق، ص: ٣٦٦.

(٥٦) صالحية، المرجع السابق، ص: ١١٣.

(٥٧) هو الشيخ راشد بن مغامس بن صقر بن يحيى بن محمد بن مانع بن يحيى بن مانع الكبير بن شبيب بن فضل وعرفوا بآل شبيب أو بالفضلي، انظر: شجرة النسب في الحميدان، عبد اللطيف الناصر. **إمارة آل شبيب في شرقي جزيرة العرب**. الرياض: ١٩٩٧م، ص:١٢٧.

(٥٨) الحميدان، عبد اللطيف الناصر. **إمارة آل شبيب في شرقي جزيرة العرب**. الرياض: ١٩٩٧م، ص: ٤٦ – ٤٧.

(٥٩) الحميدان، المرجع السابق، ص: ٦٥ -٦٦.

(٦٠) علي، علي شاكر. "**التنظيمات الإدارية العثمانية في أيالة البصرة خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر**". مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد ٣٥ (يوليو ١٩٨٣م)، ص: ١٢٦.

(٦١) جاء في كتاب صالح أوزبران أن فرمان تقليد الشيخ راشد بن مغامس لهذه المهمة في كتاب تاريخ باشوي. ج٥، اسطنبول: ١٨٦٦م، ص: ٢٠٧، انظر: اوزبران، المرجع السابق، ص: ٣٠.

(٦٢) الحميدان، المرجع السابق، ص: ٨٣ – ٨٥.

(٦٣) الحمدان، المرجع السابق، ص: ٩٣.

(٦٤) علي، التنظيمات، ص: ١٢٧.

(٦٥) الجواهري، عماد أحمد. "**الدور التاريخي للبصرة علي الخليج العربي: ١٥٠٠م – ١٦٠٠**". مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية. العدد ١٣، (يناير ١٩٧٨م)، ص: ٨٧.

(٦٦) أوزبران، أوزبران، صالح. "**الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي: ١٥٣٤ – ١٥٨١م**". ترجمة: عبد الجبار ناجي، ط١، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، البصرة: ١٩٧٩م، ص: ٣٠ – ٣١.

(٦٧) كوتو، المصدر السابق، مجلد ٦، العدد ٩، ص: ٢٤٣، نقلاً عن: أوزبران، المرجع السابق، ص: ٤١.

(٦٨) لقد حدد السلطان العثماني سليمان القانوني مهمة بيري علي في رسالة مؤرخة في ١٨ ذي الحجة/٢٥ نوفمبر ١٥٥٢ موجهة إلى بيلربي البصرة قباد باشا، انظر: أوزبران، المرج السابق، ص:٤٤.

(٦٩) أوزبران، المرجع السابق، ص:٤٤.

(٧٠) أوزبران، المرجع السابق، ص:٤٣.

(٧١) الصيرفي، نوال حمزة يوسف. "**النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي**". دارة الملك عبد العزيز، الرياض: ١٩٨٣م، ص:١٤٦.

(٧٢) هو بيري محيي الدين رئيس، ملاح عثماني ورسام للخرائط، قام برحلات عديدة تحت إشراف عمه كمال رئيس (ت.١٥١١م) والذي برز ذلك تحت أمرة خير الدين بربروسيا، ونصب بيري علي رئيس قابودان (قبطان) لمصر، انظر: **دائرة المعارف الإسلامية**، دار الفكر، بيروت: د.ت، ص: ٤٠٥ مادة: بيري محيي الدين رئيس.

(٧٣) بافقيه، محمد بن عمر الطيب الشحري. **تاريخ حوادث السنين ووفيات العلماء العاملين والسادة المربين والأولياء الصالحين.** مخطوط، ص: ٨٨ ب، نقلاً عن: حسن صالح شهاب، "**البحرية العثمانية ومهمة التصدي للمخطط البرتغالي في البحر الأحمر والخليج العربي**". ندوة رأس الخيمة التاريخية الثانية، رأس الخيمة: ١٩٨٨م، ص: ١٠٨.

(٧٤) أوزبران، المرجع السابق، الملحق رقم (١)، ص: ٦١-٧٥.

(٧٥) طهبوب، فائق حمدي. "**الصراع العثماني – البرتغالي في منطقة الخليج العربي خلال فترتي حكم السلطانين سليم الأول وسليمان القانون**". بحث نشر ضمن ندوة مكانة الخليج في التاريخ الإسلامي، جامعة الإمارات العربية المتحدة، العين: ١٩٩٠م، ص: ٦٠٧.

(٧٦) حنظل، المرجع السابق، ص: ٣٨٩.

(٧٧) طهبوب، المرجع السابق، ص: ٦٠٧.

(٧٨) أوزبران، المرجع السابق، ص: ٧٨.

(٧٩) الغرايبة. عبد الكريم. **مقدمة في تاريخ العرب الحديث:١٥٠٠ – ١٩١٨م**. دمشق: ١٩٦٠م، ص: ١٢ – ١٣.

(٨٠) القيسي، عبد الوهاب عباس. "**المجابهة البرتغالية – العثمانية في المياه العربية**". بحث نشر ضمن ندوة رأس الخيمة، ١٩٨٧م، ج١، ص: ١٧٠.

(٨١) ذكر حاكم هرمز الفار ودي نورونها في رسالته إلى حاكم جوا فيرناو فارتو والمؤرخة في ٣٠ أكتوبر ١٥٥٢م أن بيري بك ترك في مسقط رجلين من أتباع المسيح أحدهما روسي والآخر إيطالي، وكان هذين الرجلين مصدر المعلومات في أحداث مسقط، انظر: أوزبران المرجع السابق، الملحق رقم ٢، ص: ٧٨.

(٨٢) أوزبران، المرجع السابق، ص: ٤٦.

(٨٣) ماهر، سعاد. **البحرية في مصر الإسلامية**. ص: ١٤٠.

(٨٤) القيسي، المرجع السابق، ص:١٧١.

(٨٥) أوزبران، المرجع السابق، ص: ٤٨.

(٨٦) علي شلبي كان من ضباط القائد خير الدين بار بروسا في البحر الأبيض المتوسط.

(٨٧) مايلز، س. ي. **الخليج بلدانه وقبائله**. ترجمة محمد أمين عبد الله، ط٤، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط: ١٩٩٠م، ص: ١٩٨.

(٨٨) يشكك لونكريك في كتابه. "**أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث**" في شخصية مصطفى باشا، وذلك لعدم وجود أسمه على قائمة ولاة البصرة، ولكنه يستثني بقوله، أن القائمة غير كاملة في ما يبدو له، انظر: الكتاب المذكور، ترجمة جعفر الخياط، مكتبة اليقظة العربية، ط٦ بغداد: ١٩٨٥م، ص: ٤٨.

(٨٩) أوزبران، المرجع السابق، ٤٩.

(٩٠) تقع ليما شمالي خور فكان في منطقة مسندم صالح للاحتماء من سفن الأعداء لا يعرفه إلا الخبير.

(٩١) طبع كتاب مرآة الزمان في إسطنبول عام ١٣١٣هـ

(٩٢) يقع شاطئ العذيبة بين السيب والقرم بسلطنة عمان.

(٩٣) مايلز المصدر السابق، ص: ٢٠٠ – ٢٠١.

(٩٤) الصيرفي، المرجع السابق، ص: ١٥٠.

(٩٥) لقد ذكرنا أن العواصف تفاجأ السفن عند رأس الحد، وربما يفهم القارئ أن تلك المعلومات عبارة عن ذرائع يتعلل بها المهزومين، ولكن الحقائق تؤكد ذلك، وقد سبق لأحمد بن ماجد أنه حذر في كتابه "الفوائد في أصول علم البحر والقواد والفصول" السفن والنواخذا من ذلك لأنه ذكر أن عند رأس الحد ملتقى الأرياح والعواصف.

(٩٦) العزاوي، المرجع السابق، ج٤، ص: ٨٠ – ٨١؛ حنظل، المرجع السابق، ص: ٣٩٢.

(٩٧) اوزبران، المرجع السابق، ص:٥٦.

(٩٨) طقوش، محمد سهيل. **العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة**. ط١، دار بيروت المحروسة، بيروت:١٩٩٥م، ص: ٢٢٥.

(٩٩) القيسي، المرجع السابق، ص: ١٧٤.

(١٠٠) بافقيه، المصدر السابق، ص: ١٠٠ ب، نقلاً عن: حسن صالح شهاب، المرجع السابق، ص: ١١٠.

(١٠١) أبا حسين، علي. "**الجهاد البحري العربي الإسلامي ضد غزو البرتغاليين**". مجلة الوثيقة البحرينية، العدد ٣٣، (يناير ١٩٩٨م)، ص: ٣١ -٤٤.

(١٠٢) بوشرب، أحمد. "**مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الأحمر والخليج العربي**". مجلة الوثيقة البحرينية، العدد العاشر، (يناير ١٩٨٧م)، ص: ١٦٨

(١٠٣) ذكر حسن صالح شهاب في بحثه "البحرية العثمانية" أن الحملة خرجت من المخا.

(١٠٤) مايلز المصدر السابق، ص: ٢٠٢

(١٠٥) اختلف مَنْ هو الحاكم الذي أعد الحملة، فيذهب بافقيه بأنه سنان باشا الذي عين واليًا على اليمن عام ١٥٦٨م، وخلفه في الولاية بهرام باشا عام ١٥٧٠م الذي ظل في ولايته حتى عام ١٥٧٥م، حينما عينت الدولة العثمانية مراد باشا، وقامت الحملة عام ١٥٨١م وكان الوالي على اليمن حسن باشا الذي عين واليًا عام ١٥٨٠م واستمر في ولايته حتى عام ١٦٠٥م، ولهذا فإن الإعداد يحتاج فترة من الوقت، ولكنه لم يكن طويلاً، ونرجح أن الإعداد كان في عهد مراد باشا (١٥٧٥م – ١٥٨٠م) والتنفيذ على يد حسن باشا، انظر: عمر، عمر عبد العزيز. **دراسات في تاريخ العرب الحديث**. ج١، دار النهضة العربية، بيروت: د.ت، ص: ٢٠٧ – ٢٠٨.

(١٠٦) مايلز، المصدر السابق، ص: ٢٠٢

(١٠٧) مايلز، المصدر السابق، ص: ٢٠٣

(١٠٨) توجد لمسقط ثلاثة أبواب على سور مسقط، وهي: الباب الكبير والباب الصغير وباب المثعاب.

(١٠٩) تقع ولاية بركاء شمال مسقط على ساحل الباطنة، وتبعد عن مسقط بحوالي مائة كيلو متر.

(١١٠) لعله الهلالي الجبري وهم من أمراء الجبور الذين نزحوا إلى عمان بعد سقوط دولتهم عام ١٥٢١م ومقتل أميرهم مقرن بن أجود بن زامل

(١١١) فيلبس، وندل. **تاريخ عمان**. ترجمة محمد أمين عبد الله، ط١، وزارة التراث القومي والثقافي، مسقط:١٩٨١ ص: ٥٥.

(١١٢) شهاب، المرجع السابق، ص: ١١٠.

(١١٣) حنظل، المرجع السابق، ص: ٤٨٣.

(١١٤) مايلز، المصدر السابق، ص: ٢٠٤.

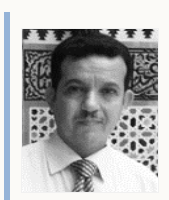
ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

دراسات

جهود الصحابة الطبية
على عهد النبي "صلي الله عليه وسلم"



د. قاسم محمد غنيمات
أستاذ مشارك تاريخ إسلامي
جامعة البلقاء التطبيقية
السلط – المملكة الأردنية الهاشمية



أ. د. إمام الشافعي محمد حمودي
رئيس قسم التاريخ وأستاذ الحضارة الإسلامية
كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر
أسيوط – جمهورية مصر العربية

مُلَخّصْ

لم تكن النقلة الكبرى التي أحدثها الإسلام في جزيرة العرب نقلة دينية فقط، بل كانت نقلة علمية في شتى العلوم الشرعية والعملية التطبيقية، ومنها علم الطب. تتناول هذه الدراسة جهود الصحابة الطبية على عهد النبي "صلى الله عليه وسلم"، من حيث مفهوم الطب ومشروعيته في الإسلام، والأحاديث النبوية الدالة على فضل الطب ووجوب تعلمه، وأشهر الأطباء من الصحابة "رضي الله عنهم" من الرجال والنساء، وأشهر مَنْ عُرف بالتمريض من صحابيات النبي. أضف إلى ذلك؛ تعلم الصحابة "رضي الله عنهم" لعلم الطب في داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها، ودور الأحاديث النبوية في فتح أذهان الأطباء العرب للتقدم في علم الطب، وهو ما عرف بعد ذلك بـ "الطب النبوي". وأول مستشفى في الإسلام، فضلاً عن الأدوية والعقاقير وظروف الحصول عليها في العهد النبوي، مع عدم إغفال الأدوية المستوردة من خارج شبه الجزيرة العربية، وتسليط الضوء على أفكار الصحابة الطبية وطرائق تعاملهم مع الأمراض المختلفة، وأجر الأطباء المادي والعيني على عهد النبي.

بيانات الدراسة:
تاريخ استلام البحث: ٠١ نوفمبر ٢٠١٧
تاريخ قبول النشر: ٠٧ يناير ٢٠١٨

كلمات مفتاحية:
الأطباء الصحابة، الطبيبات، الممرضات، فنون الطب، صناعة الأدوية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0051246

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
إمام الشافعي محمد حمودي، قاسم محمد غنيمات. "جهود الصحابة الطبية على عهد النبي -صلى الله عليه وسلم-".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة - العدد التاسع والثلاثين؛ مارس ٢٠١٨. ص٣١ – ٤١.

مُقَدِّمَةُ

إن الصحة من أعظم نعم الله على الإنسان، وبدونها تخور قواه، وتفسد عليه دنياه، ومن أجل الحفاظ على هذه النعمة، يهتم البشر منذ الأزل وحتى قيام الساعة بالمحافظة على ما تبقى منها، أو استرجاع ما ذهب منها، خاصة مع تقدم العمر، وهذا الأمر لا يتأتى إلا من خلال جهود الأطباء. ومن الأمم التي اهتمت بعلم الطب، أمة العرب، والتي لم تعتن بشيء في الجاهلية وصدر الإسلام أكثر من اعتناءها بلغتها وبصناعة الطب، خاصة مع وجود الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة التي تحث على تعلم الطب، وتأمر بالتداوي من الأمراض، ومن الخطأ أن نعتقد بأن النقلة الكبرى التي أحدثها الإسلام في جزيرة العرب نقلة دينية فقط، ولكن كانت نقلة علمية في شتى العلوم الشرعية والعملية التطبيقية، ومنها علم الطب، فقد نبغ في علم الطب العديد من صحابة النبي (ﷺ) فكان منهم الرجال والنساء، وكان للجميع جهود طبية عظيمة، قياسا مع ظروف العصر الذي عاشوا فيه.

لكل هذا فقد خصصنا هذا البحث للحديث عن (جهود الصحابة الطبية على عهد النبي (ﷺ). وقد تحدثنا فيه عن مفهوم الطب ومشروعيته في الإسلام، والأحاديث النبوية الدالة على فضل الطب ووجوب تعلمه، كما تناولنا الحديث عن أشهر الأطباء من الصحابة رضي الله عنهم من الرجال والنساء، بل وأشهر من عرف بالتمريض من صحابيات النبي (ﷺ). وذكر فيه أيضًا تعلم الصحابة رضي الله عنهم لعلم الطب في داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها، ولم نغفل الحديث عن دور الأحاديث

النبوية في فتح أذهان الأطباء العرب للتقدم في علم الطب، وهو ما عرف بعد ذلك بـ (الطب النبوي). وتحدثنا أيضًا عن أول مستشفى في الإسلام، فضلًا عن الأدوية والعقاقير وظروف الحصول عليها في العهد النبوي، مع عدم إغفال الأدوية المستوردة من خارج شبه الجزيرة العربية، وبينا فيه أيضًا أفكار الصحابة الطبية، وطرائق تعاملهم مع الأمراض المختلفة، وأجر الأطباء المادي والعيني على عهد النبي (ﷺ).

أولاً: مفهوم الطب ومشروعيته في الإسلام

الطب في لغة العرب يقال على معان منها: الإصلاح، ويقال: طبيته إذا أصلحته، ويقال: له طب بالأمور، أي: لطف وسياسة، ومنها: الحذق، فكل حاذق طبيب عند العرب.[١] أما عن مفهوم الطب في الاصطلاح، فهو صناعة تنظر في بدن الإنسان من حيث يمرض ويصح، فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالأدوية والأغذية، بعد أن يتبين المرض الذي يخص كل عضو من أعضاء البدن، وأسباب تلك الأمراض التي تنشأ عنها، وما لكل مرض من الأدوية، مستدلين على ذلك بأمزجة الأدوية وقواها، ويسمى العلم الجامع لهذا كله علم الطب[٢]، والمتطبب هو الذي يتعاطى علم الطب[٣]، وهو الذي يجلب الصحة المفقودة، أو يحفظها بالشكل والشبه.[٤]

إن الصحة من أجل نعم الله على عبده، وأجزل عطاياه، وأوفر منحه، بل إن العافية المطلقة أجل النعم على الإطلاق[٥]، يقول المؤرخ ابن خلدون عن أهمية صناعة الطب:[٦] "فصل في صناعة الطب وأنه محتاج إليها في الحواضر والأمصار دون البادية، لأن أمزجتهم أصلح وأبعد من الأمراض، فتقل حاجتهم إلى الطب، ولهذا لا يوجد الطبيب في البادية بوجه، وما ذاك إلا للاستغناء عنه إذ لو احتيج إليه لوجد". كانت العرب في صدر الإسلام لا تعن بشيء من العلم إلا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها، حاشا صناعة الطب، فإنها كانت موجودة عند أفراد من العرب غير منكرة عند جماهيرهم لحاجة الناس طرًا إليها، ولما كان عندهم من الأثر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) في الحث عليها [٧]، كما أن الوصايا الطبية للأطباء العرب قبل الإسلام والتي أيدها محمد (ﷺ) سننًا يعملون بها بإيمان وعقيدة.[٨]

هناك العديد من الأحاديث الصحيحة التي تأمر بالتداوي، وأنه لا ينافي التوكل، كما لا ينافيه دفع داء الجوع والعطش والحر والبرد بأضدادها، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدرًا وشرعًا.[٩] عن جابر بن عبد الله، أن النبي (ﷺ) بعث إلى أبي بن كعب طبيبًا، فقطع له عرقًا وكواه عليه.[١٠] عن زيد بن أسلم أن رجلًا في زمان رسول الله (ﷺ) أصابه جرح، فاحتقن الجرح الدم، وأن الرجل دعا رجلين من بني أنمار، فنظر إليه، فزعما أن رسول الله (ﷺ) قال لهما: أيكما أطب ؟ فقالا: أوفي الطب خير يا رسول الله؟ فزعم زيد أن رسول الله (ﷺ) قال: أنزل الدواء الذي أنزل الداء" [١١]، ففي قوله (ﷺ) هذا، تقوية لنفس المريض والطبيب، وحث على طلب ذلك الدواء والتفتيش عليه، فإن المريض إذا استشعرت نفسه أن لدائه دواء يزيله قويت روحه، فقهرت المرض ودفعته، وكذلك الطبيب إذا علم أن لهذا الداء دواء، أمكنه طلبه والتفتيش عليه.[١٢]

ومن الأحاديث الدالة أيضًا على مشروعية الطب في الإسلام، عن عوف ابن مالك رضي الله عنه قال: كنا نرقى في الجاهلية، فقلنا يا رسول الله كيف ترى في ذلك؟ فقال: اعرضوا عليّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك [١٣] فقد كان الأطباء في أول الأمر من الكهنة [١٤] أو الكهان.[١٥] لاشك أن هذه الأحاديث السالفة الذكر وغيرها قد تضمنت إثبات الأسباب والمسببات، وإبطال قول من أنكرها[١٦]، وأنها تحث على طلب تعلم الطب للمحافظة على أغنى ممتلكات الإنسان التي وهبها الله له وهي "الصحة".

ثانيًا: أشهر الأطباء من الصحابة "رضي الله عنهم"

لقد نبغ العديد من صحابة النبي (ﷺ) في علم الطب باختصاصاته المختلفة وهم حسب الأهمية على النحو الآتي:

١. الحارث بن كلدة[١٧]:

هو الحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج بن أبي سلمة بن عبد العزى بن غيرة بن عوف بن ثقيف [١٨] أصله من ثقيف من أهل الطائف [١٩] لما ظهر الإسلام قربه الرسول (ﷺ) إليه، وظل محل ثقة العرب حتى مات في سنة ٣٣هـ[٢٠]، وذكر ابن أبي أصيبعة بأن الحارث بن كلدة بقى أيام رسول الله (ﷺ) وأيام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب ومعاوية رضي الله عنهم[٢١] فقد اختلف أكثر المؤرخون في تاريخ وفاته، ولم يشر أكثرهم إلى إسلامه، وقسم منهم أنكره.[٢٢]

ذكر ابن عبد البر، بأنه مات في أول الإسلام، ولم يصح إسلامه[٢٣]، وشاركه في هذا الرأي أيضًا القفطي[٢٤]، في حين ذكرت إحدى المراجع الحديثة الهامة، بأنه أسلم ومات مسلمًا في خلافة "عمر" وخرج مع النساء حينما حاصر المسلمون الطائف سنة ٩هـ[٢٥]، وكان خروجه هذا بالطبع لمداواة الجرحى.

هذا وتميل الدراسة إلى أن الحارث بن كلدة قد اعتنق الإسلام، ولم يمت على وثنيته وذلك للأسباب الآتية:

- أن ابن أبي أصيبعة هو أشهر من صنف كتابًا للطب والأطباء، لم يذكر أي ديانة للحارث بن كلدة مطلقًا، لا من قريب أو من بعيد.[٢٦]
- أن الروايات التي ذكرها القفطي عن الحارث بن كلدة تكاد تكون متضاربة، فقد ذكر بأنه مات في أول الإسلام ولم يصح إسلامه، في حين يذكر في موضع آخر من كتابه، أنه بقى إلى زمن معاوية، فقاله له معاوية: ما الطب يا حارث: فقال: الأزم يا معاوية، يعني الجوع.[٢٧]
- أنه ورد في سنن أبي داود أن سعد بن أبي وقاص قال: مرضت مرضًا فأتاني رسول الله (ﷺ) يعودني، فوضع يده بين ثديي حتى وجدت بردها على فؤادي، فقال: إنك رجل مفؤود، ائت الحارث بن كلدة أخا ثقيف، فإنه رجل يتطبب،[٢٨]

فقد اعتبر النبي (ﷺ) الحارث بن كلدة في هذا الحديث أخًا له، ولو كان على وثنيته ما كان لمحمد (ﷺ) وهو نبي الإسلام أن يجمع بينه وبين مشرك في الأخوة.

- أن ابن حجر العسقلاني يقول في ترجمة (أزدة) [٢٩] بنت الحارث بن كلدة الثقفية) [٣٠]: "لم يبق في حجة الوداع أحد من قريش وثقيف إلا أسلم وشهدها"، وبما أن الحارث بن كلدة والد (أزدة) هذه كان من أهل ثقيف وتوفي حسن اختلاف الروايات. على أقل تقدير في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه أي ما بين ١١هـ ـ ١٣هـ بينما كانت حجة الوداع في سنة ٩هـ فهذا يدل دلالة قطعية على أنه اعتنق الإسلام سنة ٩هـ على أقل تقدير أيضًا.

وقد ذكر ابن حجر العسقلاني أيضًا ما يفيد إسلام الحارث بن كلدة، من خلال ترجمته أيضًا لشخصية أخرى لها علاقة بالحارث بن كلدة نفسه، وهي سمية مولاة الحارث بن كلدة، يقول بن حجر عن ذلك[٣١]: "لم يرد ما يدل على أنها رأت النبي (ﷺ) في حال إسلامها، لكن يمكن أن تدخل في عموم قولهم: إنه لم يبق في حجة الوداع أحد من قريش وثقيف إلا أسلم وشهدها"، فإذا كانت ابنة الحارث بن كلدة ومولاته قد شهدتا حجة الوداع وأسلمتا، فمن باب أولى أن يكون الحارث بن كلدة قد شهدها وأسلم، خاصة وأنه كان من المقربين إلى النبي (ﷺ).

هذا وإذا كان كل من رأي رسول الله (ﷺ) وقد أدرك الحُلم فأسلم، فهو ممن صحب رسول الله (ﷺ) ولو ساعة من النهار،[٣٢] فيمكن القول بأن الحارث بن كلدة الثقفي كان من أعظم صحابة النبي (ﷺ) وأكثرهم شهرة بين العرب والفرس.

أما عن جهود الحارث بن كلدة الطبية، فقد كان لتجربته الواسعة في الطب وآرائه الحكيمة يلقب بـ "طبيب العرب" [٣٣] فقد أدرك الإسلام، وكان رسول الله (ﷺ) يأمر مَنْ كانت به علة أن يأتيه فيستوصفه، فقد كان طبيبًا من أفاضل أطباء العرب[٣٤]، وللحارث بن كلدة الثقفي من الكتب كتاب " المحاورة " في الطب، بينه وبين كسرى أنو شروان،[٣٥] لكن لم يشيروا إلى مضمونه ومحتوياته وحجمه ولم يصل إلينا أيضًا.[٣٦]

وقد شهد أهل بلد فارس ممن رآه بعلمه[٣٧] وأصبح طبيب كسرى فارس، وقد تخصص الحارث في علم الصحة، وأوصى بعدم الإفراط في الطعام، وعدم الاستحمام بعد تناوله، كما أوصى بالحجامة[٣٨] والحقن،[٣٩] كما كانت له معرفة بما كانت العرب تعتاده وتحتاج إليه من المداواة، وله كلام مستحسن فيما يتعلق بالطب[٤٠]

٢. أبو رمثة التيمي:

هو أبو رمثة رفاعة بن يثربي التيمي، من تيم الرباب، أتى النبي (ﷺ) ومعه ابنه، وقيل: إن اسم أبي رمثة، حبيب بن حسان، ويقال: إن أبا رمثة هو الخشخاش العنبري[٤١]، عن أبي رمثة رضي الله عنه أنه قال للنبي (ﷺ): إني رجل طبيب فقال له النبي: لا طبيب لنا إلا الله بل أنت رفيق"[٤٢] كان أبو رمثة التيمي طبيبًا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومزاولًا لأعمال اليد وصناعة الجراح،[٤٣] وكان من أشهر جراحي الجاهلية، فقد كان بعضهم يخصص نفسه للأعمال الجراحية، فيغلب عليه لقب الجرّاح[٤٤]ولم تذكر له كتب التاريخ أي مؤلفات في علم الطب.

٣. ضماد الأزدي:

هو ضماد بن ثعلبة الأزدي، من أزد شنوءه، أسلم ضماد وبايع عن قومه، وكان ضماد صديقًا للنبي (ﷺ)، وكان يتطبب[٤٥]، ويرقى، ويطلب العلم، وأسلم في أول الإسلام، وكان يرقى ويداوي من الريح[٤٦]، ولم تمدنا المصادر التاريخية بأكثر من هذا عن ضماد الأزدي.

٤. شمردل النجراني:

هو شمردل بن قباث الكعبي النجراني، كان في وفد نجران بني الحارث بن كعب، فنزل الشمردل بين يدي النبي (ﷺ)، فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، إني كنت كاهن قومي في الجاهلية، وإني كنت أتطبب، فما يحل لي ؟ قال: فصد العرق ـ أي قطع العروق ـ ومجسمة الطعنة إن اضطررت ـ أي قطع العرق ثم كويه ـ ولا تجعل في دوائك شُبرمًا ـ أن نبات يشبه الحمص يشرب ماؤه للتداوي ـ وعليك بالسنا - وهو نبت يتداوي به مسهل للبلغم ـ ولا تداوي أحدًا حتى تعرف داءه "، فقبّل ركبته، فقال: والذي بعثك بالحق لأنت أعلم بالطب مني".[٤٧]

هذا ولم تقتصر الجهود الطبية على هؤلاء الأربعة من الصحابة رضوان الله عليهم، بل كان هناك الكثير منهم، ممن لم تذكر المصادر التاريخية أسماؤهم، فقد ذكر آنفًا خبر طبيبي أنمار، وخبر الطبيب الذي أرسله النبي (ﷺ)، لعلاج أبي بن كعب وغيرهم، وهو ما يدل على مدى اهتمام أصحاب النبي (ﷺ) بعلم الطب.

ثالثًا: أشهر الطبيبات والممرضات من الصحابة "رضي الله عنهم"

كما نبغ الكثير من الرجل من صحابة النبي (ﷺ)، نبغ أيضًا العديد من صحابيات النبي (ﷺ) في مجال الطب وفي مجال التمريض، الذي يقوم في الأساس على مداواة الجرحى في ميدان القتال وتقذاك.

٣/١- أشهر الطبيبات من الصحابة

أما عن أشهر الطبيبات من الصحابة، فهن على النحو الآتي:

١. عائشة أم المؤمنين:

وهي عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، زوج رسول الله وأم المؤمنين، المبرأة من فوق سبع سموات، ماتت سنة ٥٧هـ في خلافة معاوية.[٤٨] أما عن معرفتها بعلم الطب، فقد

كان عروة بن الزبير بن العوام يقول لعائشة رضي الله عنها: أعجب من علمك بالطب، قالت: أي عريه إن رسول الله (ﷺ) كان يسقم عند آخر عمره فكانت تقدم عليه وفود العرب من كل وجه، فتنعت له الأنعات – الوصفات الطبية -، فكنت أعالجها، فمن ثمّ[٤٩]، فكان عروة يقول: ما رأيت أحدًا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة.[٥٠]

٢. الشفاء بنت عبد الله:

الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس القرشية العدوية، أسلمت قبل الهجرة فهي من المهاجرات الأول، كانت من عقلاء النساء وفضلائهن[٥١]، وكان عمر رضي الله عنه يقدمها في الرأي، واسمها ليلى، وغلب عليها الشفاء.[٥٢] أما عن خبرتها الطبية، فقد كانت متخصصة في نوع معين من الأمراض وهو مرض النملة، قال لها رسول الله (ﷺ): علمي حفصة رقية النملة كما علمتها الكتابة "، وكانت ترقى في الجاهلية، فقدمت على النبي (ﷺ)، فقالت: يا رسول الله، أني كنت أرقى برقى من الجاهلية فقد أردت أن أعرضها عليك قال: فاعرضيها، فعرضتها عليها، وكانت ترقى من النملة، فقال: أرقى بها وعلميها حفصة.[٥٣] أما النملة فهي: بثُور صغار مع ورم قليل وحكة وحُرقه وحرارة في اللمس، تسرع إلى التقرح،[٥٤] وهي تخرج في الجنبين، ويقال: إنها تخرج أيضًا في غير الجنب، ترقى فتذهب بإذن الله عز وجل،[٥٥] أي أن الشفاء بنت عبد الله كانت بمثابة أخصائية في الأمراض الجلدية بلغة هذا العصر.

٣. أم عمارة الأنصارية:

اسمها نسيبة بنت كعب بن عمرو المازنية، شهدت بيعة العقبة، وشهدت أحدًا مع زوجها زيد ابن عاصم،[٥٦] وولديها عبد الله وحبيب ابن زيد بن عاصم،[٥٧] كان الناس يأتونها بمرضاهم، لتستشفى لهم، فتمسح بيدها الشلاء على العليل، وتدعو له، فقلّ ما مسحت بيدها ذا عاهة إلا برئ، فليس من أسباب الشفاء أن تمسح امرأة بيدها جسم الإنسان، ولكن من أسبابه الدعاء، وما أحل الله من دواء يصفه الطبيب.[٥٨]

٤. سلمى مولاة رسول الله صلي الله عليه وسلم

كانت سلمى امرأة أبي رافع مولى رسول الله (ﷺ)، وأم أولاده، وهي التي كانت تقبل خديجة بنت خويلد بن أسد في ولادتها إذا ولدت من رسول الله، وتعد قبل ذلك ما تحتاج إليه، وهي قبلت أم إبراهيم بإبراهيم ابن رسول الله صلي الله عليه وسلم، وشهدت سلمى خيبر مع رسول الله صلي الله عليه وسلم،[٥٩] وكانت سلمي تخدم النبي صلي الله عليه وسلم، قالت: ما كان يكون برسول الله صلي الله عليه وسلم قرحة أو نكبة ـ أي الإصابة أو الجرح ـ إلا أمرني أن أضع عليها الحناء،[٦٠]

أي أن سلمى مولاة رسول الله(ﷺ) كانت صاحبة تخصصات متنوعة، ما بين علم النساء والتوليد، وتقديم الإسعافات الأولية للجرحى، كما يفهم من حضورها غزوة خيبر في الرواية السابقة، فضلًا عن تقديم الخدمات الطبية للنبي صلي الله عليه وسلم إذا ما أصابه جرح أو قرحة.

٢/٣- أشهر الممرضات من الصحابة:

كان النساء يشهدن مع النبي صلي الله عليه وسلم المشاهد، ويسقين المقاتلة، ويداوين الجرحى وفي هذا جواز معالجة المرأة الأجنبية الرجل الأجنبي للضرورة،[٦١] فإنهن كن يهيئن الأدوية للجراح ويصلحنها، ولا يلمسن من الرجل مالا يحل.[٦٢] لا شك أن مداواة النساء للجرحى في القتال، لم يكن لمطلق النساء، بل كان ذلك للنساء المدربات على ذلك ممن لهن خبرة في هذا المجال وذلك لسببين:

- أن بعض هذه الجراح كان غائرًا وخطيرًا، ومن المعروف عن النساء الضعف وعدم القدرة على مشاهدة ذلك، فلو لم تكن هذه المرأة مدربة ولها خبرة في ذلك، ما استطاعت حتى النظر إلى مثل هذه الجراح الخطرة، فضلًا عن التعامل معها ومعالجتها.
- أن هؤلاء النساء لو لم تكن مدربات على ذلك، لكان بالإمكان أن تقوم إحداهن بفعل خاطئ ربما يؤدي إلى إزهاق روح هذا الجريح أو ذاك.

أما عن أشهر هؤلاء الممرضات من الصحابة فهن كالآتي:

١. أم أيمن مولاة رسول الله صلي الله عليه وسلم:

أم أيمن واسمها بركة مولاة رسول الله صلي الله عليه وسلم، تزوجت عبيد بن زيد فولدت له أيمن، وبه قد سُميت. توفيت أم أيمن في أول خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه[٦٣]، كانت من الحبشة[٦٤] وحضرت أم أيمن أحدًا وكانت تسقي الماء وتداوي الجرحى وشهدت غزوة خيبر.[٦٥]

٢. بحينة بنت الحارث:

اسمها عبدة بنت الحارث بن المطلب بن عبد مناف، أسلمت بحينة وبايعت (ﷺ)،[٦٦] وشهدت بحينة خيبر مع رسول الله صلي الله عليه وسلم.[٦٧]

٣. أم الحارث الأنصارية:

أم الحارث بنت الحارث بن عروة الأنصارية، أسلمت أم الحارث وبايعت رسول الله (ﷺ)،[٦٨] شهدت أم الحارث حنينًا مع رسول الله (ﷺ).[٦٩]

٤. حمنة بنت جحش:

حمنة بنت جحش بن رباب الأسدية، أخت زينب بنت جحش أم المؤمنين [٧٠]، كانت من المبايعات، وشهدت أحدًا، فكانت تسقي العطشى، وتحمل الجرحى وتداويهم، وشهدت خيبرًا.[٧١]

٥. الربيع بنت معوذ:

الربيع بنت معوذ بن الحارث بن رفاعة، أسلمت الربيع وبايعت رسول الله (ﷺ)[٧٢] عن الربيع بنت معوذ قالت: كنا مع النبي (ﷺ)، نسقي ونداوي الجرحى، ونرد القتلى إلى المدينة.[٧٣]

٦. رفيدة الأسلمية:

هي رفيدة أو كعيبة بنت سعد الأسلمية، بايعت بعد الهجرة، وهي التي كانت تكون في المسجد لها خيمة تداوي المرضى والجرحى، وكان سعد بن معاذ حين رمي يوم الخندق عندها تداوى جراحه حتى مات، وشهدت رفيدة ـ أو كعيبة ـ يوم خيبر مع رسول الله (ﷺ).[٧٤]

٧. أم رمثة الهاشمية:

ويقال أم رميثة بنت عمرو بن هاشم بن عبد المطلب، أسلمت وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر، وأطعمها رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين وسقًا تمرًا وخمسة أوسق شعير.[٧٥]

٨. أم زياد الأشجعية:

خرجت أم زياد الأشجعية مع المصطفى (ﷺ) في غزوة خيبر سادسة ست نسوة، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم، فبعث إليهن قال: بإذن من خرجتن؟ ورأينا في وجهه الغضب، فقلن: خرجنا ومعنا دواء نداوي به الجرحى، فقسم لهن من التمر.[٧٦]

٩. أم سليط النجارية:

هي أم قيس بنت عبيد بن زياد، تزوجها عمرو بن قيس بن مالك، فولدت له سليطًا وفاطمة، أسلمت أم سليط وبايعت وشهدت خيبر وحنينًا،[٧٧] وحضرت مع رسول الله يوم أحد.[٧٨]

١٠. أم سليم النجارية:

هي أم سليم بنت ملحان بن خالد النجارية، اختلف في اسمها فقيل: سهيلة، وقيل: رميلة، وقيل: رميثة، كانت من عقلاء النساء،[٧٩] تزوجت مالك بن النضر في الجاهلية، وأسلمت مع السابقين إلى الإسلام من الأنصار[٨٠] شهدت يوم حنين، وشهدت قبل ذلك يوم أحد، فكانت تسقي العطشى وتداوي الجرحى.[٨١]

١١. أم سنان الأسلمية:

أم سنان الأسلمية، أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبايعته على الإسلام،[٨٢] قالت أم سنان أتيت رسول الله (ﷺ) في نسوة من بني غفار، فقلنا: يا رسول الله، قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا، وهو يسير إلى خيبر، فنداوي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا، فقال: على بركة الله،[٨٣] فإن لك صواحب قد كلمني وأذنت لهن من قومك ومن غيرهم، فإن شئت فمع قومك وإن شئت فمعنا قلت: معك، قال: فكوني مع أم سلمة زوجتي، قالت: فكنت معها.[٨٤]

١٢. أم عطية الأنصارية:

اسمها نسيبة بنت الحارث، وقيل نسيبة بنت كعب كانت تغزو كثيرًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، تمرض المرضى، وتداوي الجرحى، ولها عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث،[٨٥] عن أم عطية قالت: غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، سبع غزوات، فكنت أصنع لهم طعامهم وأخلفهم في رحالهم، وأداوي الجرحى، وأقوم على المريض.[٨٦]

١٣. معاذة الغفارية:

قالت معاذة الغفارية: كنت أنيسًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أخرج معه في الأسفار أقوم على المرضى، وأداوي الجرحى.[٨٧]

١٤. أم منيع:

هي أم منيع بنت عمرو بن عدي بن سنان، أسلمت وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشهدت أيضًا خيبر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.[٨٨]

١٥. أم ورقة الحارثية:

هي أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث، أسلمت وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وروت عنه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يزورها ويسميها الشهيدة، وكانت قد جمعت القرآن الكريم.[٨٩] حين غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرًا، قالت له: أيأذن لي أن أخرج معك، أداوي جرحاكم، لعل الله يهدي إلَيّ الشهادة،[٩٠] قال: إن الله مهد لك شهادة، فكان يسميها الشهيدة،[٩١] هذا إلى جانب غيرهن من الممرضات من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم ممن يضيق المقام عن ذكرهن.

رابعًا: تعلم الصحابة رضي الله عنهم فنون الطب

لم تكن جهود الصحابة رضي الله عنهم الطبية على عهد النبي (ﷺ)، وليدة اللحظة، ولكنهم استقوا معرفتهم الطبية من أكثر من مصدر، مثل تعلم الطب من الأمم الأكثر حضارة من العرب وقتذاك، أو من خلال التجربة الذاتية والموروث العربي في علم الطب، أو من خلال ما أخذوه عن النبي (ﷺ) فيما عرف بعد ذلك بالطب النبوي.

لا يستبعد تعلم هؤلاء الأطباء – خاصة ممن عاصر الجاهلية والإسلام – في (جند يسابور) مركز الطب والعلوم في الإمبراطورية (الساسانية) أو في أماكن من بلاد الشام، فقد كان الطبيب الحاذق محتاجا في هذا اليوم إلى تعلم هذا العلم في أماكن متعددة للاستفادة من تجارب الأطباء. وقد كان السفر متصلا غير منقطع، فلا يستبعد قدوم الأطباء وطلاب الطب من جزيرة العرب إلى هذه الأماكن للتعلم فيها [٩٢] لقد رحل الحارث بن كلدة إلى أرض فارس وأخذ الطب من أهل تلك الديار من أهل (جند يسابور) وغيرها في الجاهلية وجاد في هذه الصناعة [٩٣] وتمرن هناك، وعرف الداء والدواء.[٩٤]

إلى جانب ذهاب الأطباء من الصحابة رضي الله عنهم إلى المراكز الطبية الشهيرة خارج الجزيرة العربية، منهم أيضا من تعلم فنون الطب من خلال أطباء العرب والعجم، عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن رسول الله (ﷺ) كثرت أسقامه -في آخر

عمره – وكان يقدم عليه أطباء العرب والعجم، فيصفون له، فنعالجه.[٩٥] فقد كانت من أعلم الناس بالطب.

أما عن تعلم الصحابة فنون الطب عن النبي (ﷺ)، فهناك من المؤرخين من أنكر ذلك، وهو المؤرخ الشهير ابن خلدون الذي يقول عن هذا: " لا ينبغي أن يحمل شيء من الطب الذي وقع في الأحاديث الصحيحة المنقولة علي أنه مشروع، فليس هناك ما يدل عليه، اللهم إذا استعمل علي جهة التبرك وصدق العقد الإيماني، فيكون له أثر عظيم في النفع وليس ذلك في الطب المزاجي، وإنما هو من آثار الكلمة الإيمانية كما وقع في مداواة المبطون بالعسل، فالطب المنقول في الشرعيات من هذا القبيل – أي طب مبني علي التجارب الموروثة – وليس من الوحي في شيء ، وإنما هو أمر كان العرب عاديا للعرب، فإنه (صلى الله عليه وسلم) إنما بعث ليعلمنا الشرائع ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات".[٩٦]

هذا ولا تتفق الدراسة مع ما ذهب إليه ابن خلدون، لأنه ذكر بأن أقوال النبي (صلى الله عليه وسلم) في الطب ليس من الوحي في شيء، وهذا الرأي لا يتفق مع ما اتفق عليه أهل السنة والجماعة بأن السنة النبوية من الوحي، كما أن طب الجسد – كما يقول ابن حجر العسقلاني – منه ما جاء في المنقول عنه صلى الله عليه وسلم ومنه ما جاء عن غيره، وغالبه راجع إلى التجربة[٩٧]، فالطب من السنن القائمة، لأنه صلى الله عليه وسلم فعله وأمر به، وأظهر الرسول الكريم في أقواله فضل الصحة والعافية.[٩٨]

ليس طبه (ﷺ) كطب الأطباء، فإن طب النبي (صلى الله عليه وسلم) متيقن قطعي إلهي، صادر من الوحي، وطب غيره أكثره حدس وظنون وتجارب، ولا ينكر عدم انتفاع كثير من المرضي بطب النبوة، فإنه إنما ينتفع به من تلقاه بالقبول، واعتقاد الشفاء به، وكمال التلقي له بالإيمان والإذعان.[٩٩]

وأما شهادة أطباء زمانه بطبه (صلى الله عليه وسلم) فنستخلصها من قول (الشمردل) الذي كان في وفد نجران: "والذي بعثك بالحق أنت أعلم بالطب مني".[١٠٠]. ففي فجر الإسلام وبداية دعوة محمد (صلى الله عليه وسلم) حدث شيء في غاية الأهمية بالنسبة للطب، ذلك أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) جاء أكبر داعية لصناعة الطب والأطباء، فقد تحدث الرسول الكريم في الطب، والصحة والمرض، والوقاية من العدوى، وفي فضائل الأطباء، حتى تجمعت للرواة عنه ثلاثمائة من أحاديثه الشريفة بهذا الموضوع سميت بعدئذ (بالطب النبوي).[١٠١] ولا شك أن هذه الأحاديث الشريفة كانت محط اهتمام الصحابة رضي الله عنهم علي عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) سواء من كان من الأطباء في الأصل، أو ممن استهوته هذه الأحاديث لتعلم فن الطب.

خامسًا: أول مؤسسة طبية في الإسلام

كان رسول الله (ﷺ) قد جعل سعد بن معاذ رضي الله عنه، في خيمة رفيدة الأسلمية التي نصبها لها في مسجده ليعوده من قريب، وكانت امرأة تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين[١٠٢]. إذ لما أصابه السهم في غزوة الخندق قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): اجعلوه في خيمة رفيدة التي في المسجد حتى أعوده من قريب"[١٠٣]، فكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يزوره في خيمتها في الصباح والمساء[١٠٤]. يمكن اعتبار خيمة رفيدة، بالرغم من البدائية التي فيها، أول مستشفى في الإسلام[١٠٥]. وقد بقي سعد بن معاذ رضي الله عنه في خيمتها، حتى حكّمه رسول الله (ﷺ) في بني قريظة، فأتاه قومه فحملوه على حمار، وقد وطئوا له بوسادة من أدم[١٠٦]. ولما انقضى شأن قريظة انفجر بسعد بن معاذ "رضي الله عنه" جرحه، فمات منه شهيدًا.[١٠٧]

لاشك أن هذه الخيمة أو المستشفى الصغير رغم بدائيتها، كانت متقدمة طبيا جدا بالقياس مع ظروف هذا العصر، ذلك أن الحالة الصحية للصحابي الجليل سعد بن معاذ رضي الله عنه – رغم خطورة جرحه – كانت مستقرة في داخل هذه الخيمة، وهذا بدوره يدل علي مهارة رفيدة الأسلمية في علاج مثل هذه الجراح الخطرة، وأنها كانت تمتلك من الأدوات الطبية والعقاقير ما مكنها من المحافظة على استقرار الحالة الصحية لسعد بن معاذ رضي الله لمدة طويلة نسبا، على الرغم من خطورة جرحه، ولو أنه بقي بهذه المستشفى مدة أطول، لكان بالإمكان أن يشفي من جرحه، ولكن الحركة إلى بني قريظة هي التي تسببت في انفجار جرحه مما عجل بوفاته "رضي الله عنه".

سادسًا: جهود الصحابة رضي الله عنهم في صناعة الأدوية في العهد النبوي

كان من المتوقع جدا أن يهتم الأعراب بمعرفة طبيعة ما ينبت في صحرائهم من الشجر والأعشاب، بعد أن أفادوا منها عن طريق الصدفة والتجربة[١٠٨]. وعندما ظهر الإسلام لم يكن من هديه (صلى الله عليه وسلم) ولا هدي أصحابه استعمال الأدوية المركبة، بل كان غالب أدويتهم بالمفردات، وربما أضافوا إلى المفرد ما يعاونه، وهذا غالب طب الأمم على اختلاف أجناسهم[١٠٩]. وهذا يتماشى مع القاعدة التي مازالت متبعة حتى الآن، وهي العدول عن الدواء المركب، إذا كان الحصول علي الشفاء ممكنا بالدواء المفرد.[١١٠]

الأدوية المفردة إما أن تكون نباتية، وهي ثمر أو بذور أو زهر أو ورق، إما معدنية وهي حجرية، وإما حيوانية كأعضاء الحيوانات وأحشائها[١١١]. كانت صناعة الأدوية علي عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) يقوم بها بعض الأطباء من صحابته رضي الله عنهم، عن عبد الرحمن بن عثمان: أن طبيبا سأل النبي (صلى الله عليه وسلم) عن ضفدع يجعلها في دواء، فنهاه النبي (صلى الله عليه وسلم) عن قتلها.[١١٢] ويستفاد من هذا الحديث أن صناعة الأدوية كانت موجودة علي عهده (صلى الله عليه وسلم)، وأنه كان يراعي فيها الحلال والحرام فيما يدخل في مشتقاتها.

كانت هذه الأدوية متوفرة إلى حد كبير خاصة فيما يتعلق بأدوية تضميد الجراح، تقول أم زياد الأشجعية: "خرجت مع النبي (ﷺ) في غزوة خيبر سادس ست نسوة، فبلغ النبي (صلى الله عليه وسلم) فبعث إليهن، فقال: بإذن من خرجتن؟ ورأينا في وجهه الغضب، فقلنا: خرجنا ومعنا دواء نداوي الجرحى".[١١٣] أي أن الدواء كان متوفرا مع ست من النساء وليس مع صحابية واحدة، وهذا في حد ذاته خير دليل علي توفره. إذا كانت بعض العقاقير أو الأدوية تصنَع على أيدي الصحابة "رضي الله عنهم" في العهد النبوي، وأن هذه الأدوية كانت متوفرة إلى حد كبير، فكان من الطبيعي أن يكون هناك من يبيعها، فقد كان الصحابي الجليل أبو موسي الأشعري[١١٤] يبيع العقاقير.[١١٥] لكن المصادر التاريخية لم تمدنا بأي معلومات عن كيفية حصوله رضي الله عنه على هذه العقاقير، وعن أسعارها، أو طبيعة المكان الذي كانت تحفظ فيه هذه العقاقير.

إذا كانت هذه الأدوية يتم صناعتها بفكر ويد بعض الأطباء من الصحابة رضي الله عنهم في العهد النبوي، فقد وجدت بعض الأدوية التي كانت تصنَع في المدينة المنورة، وإن كانت فكرة تركيبها ومشتقاتها يتم استيرادهما من خارج حدود الجزيرة العربية، وهو ما يمكن أن نتعرف عليه من خلال ما ورد في قصة وفاته (صلى الله عليه وسلم).

عندما أغمي علي رسول الله (ﷺ) في مرضه الذي توفي فيه، قالت أسماء بنت عميس:[١١٦] ما وجعه هذا إلا من ذات الجنب،[١١٧] فلدَوه، فلددناه، فلما أفاق، قال: من فعل بي هذا؟ قالوا: لدَتك أسماء بنت عميس، ظنت أن بك ذات الجنب، قال: أعوذ بالله أن يبتليني بذات الجنب، أنا أكرم علي الله من ذلك.[١١٨] إذ لما أفاق النبي (صلى الله عليه وسلم) وجد خشونة اللُد فقال:" ما صنعتم بي؟ قالوا: لددناك. قال: بماذا؟ قلنا: بالعود الهندي وشيء من ورس وقطرات زيت، فقال: من أمركم بهذا؟ قالوا: أسماء بنت عميس، قال: هذا طب أصابته بأرض الحبشة، وكانت أم سلمه وأسماء بنت عميس هما لدَتاه.[١١٩] فقد أتي به بعض مهاجري الحبشة إلي الحجاز.[١٢٠] وهي أسماء بنت عميس رضي الله عنها، كما صرح بذلك رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، كما يستفاد من ذلك أيضا جواز استيراد الدواء من خارج دولة الإسلام، طالما أن فيه فائدة لصحة الإنسان.

أما اللدود فهو دواء يصنع كالعجين كريه الطعم يحشي به جانب الفم في الشدق، ويتركه ليبتلعه المريض شيئا فشيئا، ولا شك في أن كراهة طعمه وطول بقاء هذا الطعم في الفم هو الذي أعطاه هذا الاسم، لأن اللدود هو الغريم الذي لا يفارقك، ومن هنا يقال عدو لدود.[١٢١] أما عن مكونات دواء اللدود – والذي نقلت فكرة مكوناته وفائدته الصحية الصحابية أسماء بنت عميس رضي الله عنها – فهو كما ورد آنفا يتكون من شيئن أولهما: العود الهندي وهو نوعان أحدهما: يستعمل في الأدوية وهو الكست، ويقال له: القسط، والثاني: يستعمل في الطيب، ويقال له: الألوَة، والقسط نوعان: أحدهما البيض الذي يقال له: البحري، والآخر: الهندي وهو أشدهما حرًا، والأبيض ألينهما، ومنافعهما كثيرة جدًا[١٢٢] والعود الهندي عمومًا غني بمشتقات الحامض البنزويكي (AC. Benzoique) الذي يذيب البلغم، ويقتل الجراثيم ولا زالت مشتقاته تدخل في كثير من الشرابات المضادة للسُعال.[١٢٣] أما ثاني مشتقات اللدود وهو الورس فإنه يجلب من اليمن، وهو أحمر قان يوجد على قشور شجر ينحت منها ويجمع، وهو شبيه بالزعفران المسحوق [١٢٤]، وأجوده الأحمر اللين في اليد، القليل النُخالة.[١٢٥]

سابعًا: أفكار الصحابة الطبية علي عهد النبي (صلى الله عليه وسلم)

عالج الأطباء – في ذلك العصر – الجروح بوضع الخرق بعضها فوق بعض على الجراح وأي بتضميده بها، ولقطع نزيف الدم المنبعث من الجروح، استعملوا الرماد والزيوت المغلية لتسَكب على الجرح لقطع نزيف الدم.[١٢٦] وهذه الفكرة الطبية التي من شأنها أن تحافظ على حياة الإنسان فعلها الصحابة رضي الله عنهم مع النبي (ﷺ)في غزوة أحد، عندما كثرت جراحه (صلى الله عليه وسلم) وكانت حياته الشريفة معرضة لخطر الموت.

لما كان يوم أحد وانصرف المشركون، خرج النساء إلي الصحابة يعينونهم و فكانت فاطمة[١٢٧] فيمن خرج[١٢٨]. وخلص العدو إلي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقذف بالحجارة حتى وقع لشقه، وأصيبت رباعيته، وشُج في وجنتيه، وكُلمت شفتاه،[١٢٩] فجعل الدم يسيل على وجهه، وجعل يمسح الدم عن وجهه، ويقول: كيف يفُلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم ؟[١٣٠].

سألوا سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: بأي شيء دووي جرح رسول الله (ﷺ)؟ فقال: ما بقي أحد من الناس اعلم به مني، كان علي يجيء بالماء في ترسه، وكانت فاطمة تغسل الدم عن وجهه (ﷺ)[١٣١]، فلما رأت فاطمة الدم لا يزيد إلا كثرة، أخذت قطعة حصير فأحرقتها، حتى إذا صارت رمادا، ألصقته بالجرح، فأستمسك الدم برماد الحصير المعمول من البردي، وله فعل قوي في حبس الدم، لأن فيه تجفيفًا قويًا، وقلَة لذع، فإن الأدوية القوية التجفيف، إذا كان فيها لذع هيجت الدم وجلبته.[١٣٢] وزعم أهل الطب أن الحُصر كلها إذا أحرقت تبطل زيادة الدم، بل الرماد كله كذلك، لأن الرماد من شأنه القبض.[١٣٣]

هذا ويمكن القول بأن ما فعلته السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها، من وقف لنزيف الدم السائل من جسد النبي (صلي الله عليه وسلم) لم يكن من قبيل الصدفة، وإنما كان نابعا من معلومات طبية أصيلة، وذلك لسببين:

١ – أنها لو لم تكن متأكدة بأن رماد الحصير المصنوع من البردي، سيفيد في وقف نزيف الدم، ما كانت أن تغامر بحياة أبيها رسول الله (ﷺ)، فربما كان في ذلك أذاه (ﷺ).

٢ – أنها عمدت إلى حرق الحصير المصنوع من البردي، ولم تقم بحرق بعض أغصان الشجر أو حتى الأعشاب المتواجدة بالتأكيد في المكان، أو بعض خرق الثياب المستخدمة في تضميد الجراح،

لتحصل على الرماد، وهذا بالتأكيد لتيقنها بأن حصير البردي له نتائج ايجابية وفعالة لمنع نزيف مثل هذه الجراح.

أما عن فكرة علاج مرض النملة الآنف الذكر، فإن الصحابية الشفاء بنت عبد الله رضي الله عنها كانت تعالجها عن طريق الرُّقية، فكانت ترقي بها على عود (كركم) سبع مرات، وتضعه مكانا نظيفا، ثم تدلّكه على حجر بخلَ ثقيف – أي مصنوع في ثقيف – وتطليه على النملة.[١٣٤] أما عن أفكار وخبرة طبيب العرب الأول في العهد النبوي، الصحابي الحارث بن كلدة رضي الله عنه فكان أول طبيب عربي اطلع على الطب اليوناني ودرسه على أطبائه، وأول من مارسه منهم على القواعد العلمية، لا التقليدية.[١٣٥] ومن الأمثلة على خبرته العملية في مجال الطب، أن معيقب بن أبي فاطمة الأزدي كان خازنا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وكاتبا له، فأصابه الجذام فدعا له عمر، الحارث بن كلدة الثقفي وقال له: عالجه. قال: يا أمير المؤمنين أما أن يبرأ فلا، ولكني أداويه حتى يقف مرضه فلا يزيد. قال عمر فذاك. فكان يأمر بالحنظل الرطب فيدلّك به قدميه ولا يزيده على ذلك فوقف مرضه حتى مات.[١٣٦]

وعلى الجملة فإن طب العرب في فجر الإسلام، صار أساس المعارف في الطب العربي على مدى القرن الذي تلاه وحتى اطلاع العرب على الطب اليوناني – بشكل واسع - في زمن الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور (١٣٦ – ١٥٨ هجرية/ ٧٥٤-٧٧٥م).[١٣٧]

ثامنًا: أجور الأطباء على عهد النبي (صلى الله عليه وسلم)

اختلفت أجور الأطباء من الصحابة رضي الله عنهم، على عهد النبي (ﷺ)، ما بين الحصول على الأجر المادي نقدا، أو عينا، وما بين العمل في مجال الطب حسبة لوجه الله وابتغاء الأجر والثواب منه سبحانه وتعالي. عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي (ﷺ) احتجم، وأعطي الحَجام أجره[١٣٨] فأمر له بصاعين من طعام.[١٣٩] وطبَ الحارث بن كلدة بأرض فارس وحصل له بذلك مال كثير [١٤٠].ويستفاد من ذلك أن العمل في مجال الطب بأجر مالي أو عيني لا بأس به في الإسلام، وذلك على أساس أن الطبيب يبذل في عمله هذا مجهودًا كبيرًا، كما أنها مهنة هامة وضرورية جدا للناس، ولو كان الأجر فيها محرما، لزهد فيها الأطباء، وترتب على ذلك انتشار الأمراض والأوبئة، ولفسدت أحوال الناس، بفساد صحتهم، وزوال عافيتهم.

إلى جانب العمل بأجر في مجال الطب، فقد وجد من الأطباء الصحابة رضي الله عنهم من عمل في مجال الطب ولو لبعض الوقت تطوعا وحسبة لله تعالى. فقد كانت رفيدة الأسلمية تداوى الجرحى في مسجد النبي (ﷺ) في غزوة الخندق وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين.[١٤١] وفي الوقت نفسه شهدت رفيدة خيبر مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأسهم لها سهم رجل.[١٤٢]

كانت خيبر مما أفاء الله عز وجل على رسول الله (ﷺ) خمَسها رسول الله (ﷺ) وقسَمها بين المسلمين،[١٤٣] قمح وشعير وتمر ونوى – أي نوى لعلف الحيوانات – وغير ذلك، قسَمه (ﷺ) على قدر حاجتهم.[١٤٤] وشهد خيبر مع رسول الله (ﷺ) نساء من المسلمين، فرضخ[١٤٥] لهن رسول الله (ﷺ) من الفيء، ولم يضرب لهن بسهم[١٤٦] وكان هؤلاء النساء ممن حضرن خيبر لعلاج الجرحى كما ذكر آنفا.

قسَم رسول الله (ﷺ) لأم رمثة خمسة أوسق من قمح خيبر،[١٤٧] وأطعم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حمنة بنت جحش في خيبر أيضا، ثلاثين وسقا[١٤٨] وأقطع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بُحينة بنت الحارث، من خيبر ثلاثين وسقا أيضًا[١٤٩]، وأم الضحاك بنت سعد الأنصارية شهدت خيبر مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأسهم لها سهم رجل.[١٥٠]

هذا ولم يكن أجر الطبيبات والممرضات اللاتي حضرن خيبر مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، كله من القمح والشعير والتمر ونحو ذلك، بل كان أجر بعضهن من الحُلي وما تتزين به النساء، فعن امرأة من غفار قالت: لما فتح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خيبر رضخ لنا من الفيء، وأخذ هذه القلادة التي في عنقي فأعطانيها، وعلقها بيده في عنقي، فو الله لا تفارقني أبدا، فكانت في عنقها حتى ماتت، ثم أوصت أن تدفن معها.[١٥١]

على الرغم من أن المصادر التاريخية قد أفاضت في الحديث عن عطايا النبي (ﷺ) للطبيبات والممرضات من الصحابيات اللاتي حضرن خيبر، إلا إن هذه العطايا لم تكن قاصرة على غزوة خيبر فقط، فقد ورد في مصادر تاريخ السيرة النبوية ما يؤكد على أن هذا الأمر كان في كل غزوة تشارك فيها الطبيبات والممرضات مع رسول الله (ﷺ)، قالت أم عطية: كنا نغزو مع النبي (ﷺ) فنداوي الجرحى، ونمرض المرضي، ويرضخ لنا من المغنم. والرضخ العطية القليلة، وأكثر الفقهاء لا يرون للنساء مع الرجال قسما في المغازى.[١٥٢]

خَاتِمَةٌ

من خلال ما تم ذكره عن (جهود الصحابة الطبية على عهد النبي (ﷺ) يمكن أن نخلص بالنتائج الآتية:

- ظهر من خلال البحث بأن هناك العديد من الأحاديث النبوية الشريفة التي تحث على تعلم الطب، والعمل بالأسباب، وأنه لا يتنافى مع التوكل على الله تعالى.

- تبين من خلال الدراسة بأن طبيب العرب الأول في الجاهلية وصدر الإسلام، وهو الحارث بن كلدة الثقفي، كان مسلما، ولم يمت على الكفر كما هو شائع عنه في الكثير من المصادر التاريخية، كما كانت له صحبة مع النبي (صلى الله عليه وسلم)، وأن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يأمر من كانت به علّة أن يذهب للعلاج عنده.

- وضح من البحث بأن عدد النساء الصحابيات المتخصصات في الطب والتمريض في العهد النبوي قد فاق عدد الصحابة الرجال من الأطباء، وأنهن كن يعالجن في الغالب الجرحى من الرجال في الغزوات الإسلامية المختلفة، وهذا الأمر له مدلول آخر غير تفوقهن في هذا العلم، وهو أن الإسلام لم يأت للتضييق على المرأة والحد من حريتها كما يدعى أعداء الإسلام، ولكنها شريك حيوي وفعال في المجتمع الإسلامي.

- أبانت الدراسة بأن معرفة الصحابة رضي الله عنهم بعلم الطب، كانت نتاج التعلم في المراكز الطبية الشهيرة في بلاد فارس وبلاد الشام، هذا فضلاً عن الموروث العربي في علم الطب، كما كان لأحاديث النبي (صلى الله عليه وسلم) الدور الأكبر في تقدم الصحابة رضي الله عنهم في علم الطب، هذا مع عدم إغفال دور التجربة الشخصية والممارسة في ذلك.

- كشفت الدراسة بأن صناعة الأدوية كانت متوفرة في العهد النبوي، وأن الصحابة الأطباء كانوا يقومون بتركيبها، بل ووجد منهم من تخصص في بيعها، كما كانت هناك بعض العقاقير المستوردة من خارج شبه الجزيرة العربية، سواء كان هذا الاستيراد لفكرة تركيب هذا الدواء، أو للمواد الطبية المستخدمة فيه.

- أظهر البحث بأن أفكار الصحابة الطبية كانت عملية وقابلة للتطبيق، ولم تكن نظرية وحبيسة العقول، خاصة في التعامل مع الجروح، وأن جهودهم الطبية كانت بمثابة النواة التي بنيت عليها الصيحة الطبية الكبرى في العصور الإسلامية اللاحقة.

الهَوامِشُ:

(١) **ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية:** الطب النبوي، **تحقيق: عبد الغني عبد الخالق، بيروت: دار إحياء التراث العربي،** (د-ت)، ص١٠٧.

(٢) **ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون:** المقدمة، **تحقيق: على عبد الواحد، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦م، جـ٣ ص١٠٢٦.**

(٣) **التلمساني، على بن محمد المعروف بالتلمساني:** تخريج الدلالات السمعية على ما كان على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، **تحقيق: أحمد محمد سلامه، مصر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - وزارة الأوقاف المصرية، ١٩٩٥م، ص٦٧٨.**

(٤) الطب النبوي، **ص٥.**

(٥) الطب النبوي، **ص١٦٧ ـ ١٦٨.**

(٦) المقدمة، **جـ٢ ص٨٧٥ ـ ٨٧٨.**

(٧) **ابن صاعد الأندلسي، القاضي أحمد بن صاعد الأندلسي:** طبقات الأمم، **تحقيق: لويس شيخو، بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩١٢م، ص٤٩.**

(٨) **السامرائي، كمال السامرائي:** مختصر تاريخ الطب العربي، **بغداد: دار النضال، (د-ت). جـ١، ص٢٢٥**

(٩) **ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية:** زاد المعاد في هدي خير العباد، **تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط٢٥، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩١م، جـ٤ ص١٥.**

(١٠) زاد المعاد في هدي خير العباد، **جـ٤ ص٦٣.**

(١١) تخريج الدلالات السمعية، **ص٦٧٨.**

(١٢) زاد المعاد، **جـ٤، ص١٧.**

(١٣) تخريج الدلالات السمعية، **ص٦٧٥.**

(١٤) **زيدان، جرجي زيدان:** تاريخ التمدّن الإسلامي، **القاهرة: دار الهلال، (د-ت)، جـ٣، ص٢٣**

(١٥) **الكهانة: ادعاء علم الغيب، كالإخبار بما سيقع في الأرض، مع الاستناد إلى سبب، والأصل فيه استراق الجني السمع من كلام الملائكة، فيلقيه في أذان الكاهن، والكاهن لفظ يطلق على العرّاف، يُنظر: العسقلاني، أحمد بن على بن حجر العسقلاني:** فتح الباري بشرح صحيح البخاري، **ط١، القاهرة: دار الريان للتراث، ١٩٨٦م. جـ١٠ ص٢٢٧.**

(١٦) الطب النبوي، **ص٩.**

(١٧) **الكلدة: القطعة الغليظة من الأرض، وبها سمى والد الحارث بن كلدة طبيب العرب المشهور. يُنظر: المقدمة، جـ٣ ص١٠٢٧. حاشية رقم (١٥٧٠).**

(١٨) تخريج الدلالات السمعية، **ص٦٨٠.**

(١٩) **القفطي، على بن القاضي الأشرف يوسف القفطي:** إخبار العلماء بأخبار الحكماء، **القاهرة: مكتبة المتنبي، (د-ت)، ص١١١.**

(٢٠) **حسن، حسن إبراهيم حسن:** تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، **ط١٤، بيروت: دار الجيل، ١٩٩٦ م، جـ١ ص٤١٧.**

(٢١) **ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم السعدي المعروف بابن أبي أصيبعة:** عيون الأنباء في طبقات الأطباء، **تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨. ص١٤٥.**

(٢٢) مختصر تاريخ الطب العربي، **جـ١ ص٢٢٩.**

(٢٣) **ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر:** الاستيعاب في معرفة الأصحاب، **تحقيق: على محمد البجاوي، ط١، بيروت: دار**

الجيل، ١٩٩٢م، جـ١ ص٢٨٣.
(٢٤) إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص١١٢.
(٢٥) على، جواد على: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط٣، بغداد: جامعة بغداد، ١٩٩٣م، جـ٨ ص٣٨٣.
(٢٦) راجع: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص١٤٥ ـ ١٤٦.
(٢٧) إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص١١٣.
(٢٨) أبو داود، أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي: سنن أبي داود، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط١، دمشق: دار الرسالة العالمية، ٢٠٠٩ م، جـ٦ ص٢٥.
(٢٩) أزدة أو أردة بنت الحارث بن كلدة الثقفي، زوج عتبة بن غزوان، كانت مع عتبة بالبصرة، وهو أول أمير عليها. يُنظر: العسقلاني، أحمد بن على بن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة. تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١، القاهرة: مركز هجر للبحوث، ٢٠٠٨م، جـ١٣ ص١١٨
(٣٠) الإصابة في تمييز الصحابة، جـ١٣ ص١٢٤ ـ ١٢٥.
(٣١) الإصابة في تمييز الصحابة، جـ١٣ ص٥١١ ـ ٥١٢.
(٣٢) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن الجوزي: تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير، القاهرة: مكتبة الآداب، ١٩٧٥م، ص١٠١.
(٣٣) مختصر تاريخ الطب العربي، جـ١ ص٢٢٨.
(٣٤) الكتاني، محمد بن عبد الحي الكتاني: نظام الحكومة النبوية المسمي التراتيب الإدارية، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١ م، ص٤٧٧.
(٣٥) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص١٤٩.
(٣٦) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٨ ص٣٨٢.
(٣٧) إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص١١٢.
(٣٨) الحجامة: وضع كأس على الجلد وبالكأس قطعة قطن أو قرطاس مشتعلة، فحين يلصق الكأس بالجلد يفرغ منه بعض هوائه المحترق ويمتص الجلد، فيأتي الدم المحتقن بداخل العضو إلى سطح الجلد، ويستريح العضو، يُنظر: كشريد، صلاح الدين: "الطب النبوي"، مجلة المؤرخ العربي، بغداد: اتحاد المؤرخين العرب، العدد ١٦، ١٩٨١م، ص٢٧٠.
(٣٩) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، جـ١ ص٤١٧.
(٤٠) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص١٤٥.
(٤١) ابن حبان، محمد بن حبان البستي: تاريخ الصحابة الذين روى عنهم الأخبار، تحقيق: بوران الضناوي، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨م، ص٩٩.
(٤٢) تخريج الدلالات السمعية، ص٦٧٧ ـ ٦٧٨.
(٤٣) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص١٥٣.
(٤٤) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، جـ٣ ص٢٥.
(٤٥) الإصابة في تمييز الصحابة، جـ٥ ص٣٤٧ ـ ٣٤٨.
(٤٦) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، جـ٢ ص٧٥١.
(٤٧) الإصابة في تمييز الصحابة، جـ٥ ص١٣٩ ـ ١٤٠، حاشية (٤، ٥، ٦، ٧) نفس الجزء والصفحة.
(٤٨) تاريخ الصحابة الذين روى عنهم الأخبار، ص٢٠١.
(٤٩) تخريج الدلالات السمعية، ص٦٧٧.
(٥٠) الإصابة في تمييز الصحابة، جـ١٤ ص٣٠.
(٥١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، جـ٤ ص١٨٦٨ ـ ١٨٦٩.
(٥٢) سنن أبي داود، جـ٦ ص٣٥.
(٥٣) الإصابة في تمييز الصحابة، جـ١٣ ص٥١٧ ـ ٥١٩.
(٥٤) الخوارزمي، محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي: مفاتيح العلوم، تحقيق: فان فلوتن، القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٤ م، ص١٥٨.
(٥٥) سنن أبي داود، جـ٦ ص٣٥.
(٥٦) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، جـ٤ ص١٩٤٨.
(٥٧) الإصابة في تمييز الصحابة، جـ١٤ ص٤٥٨.
(٥٨) السهيلي: عبد الرحمن السهيلي: الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، ط١، القاهرة: دار الكتب الإسلامية، ١٩٦٧م، جـ٤ ص١١٨
(٥٩) ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الزهري: الطبقات الكبير، تحقيق: على محمد عمر، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢ م، جـ١٠ ص٢١٦.
(٦٠) الإصابة في تمييز الصحابة، جـ١٣ ص٤٨٨ ـ ٤٨٩.
(٦١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، جـ٦ ص٩٢ ـ ٩٤.
(٦٢) التراتيب الإدارية، ص٦٠١.
(٦٣) الطبقات الكبير، جـ١٠ ص٢١٢ ـ ٢١٥.
(٦٤) الإصابة في تمييز الصحابة، جـ١٤ ص٢٩٣.
(٦٥) التراتيب الإدارية، ص٥٩٩.
(٦٦) الطبقات الكبير، جـ١٠ ص٢١٧.
(٦٧) الإصابة في تمييز الصحابة، جـ١٣ ص١٩٦.
(٦٨) الطبقات الكبير، جـ١٠ ص٣٢٢.
(٦٩) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، جـ٤ ص١٩٢٨.
(٧٠) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، جـ٤ ص١٨١٣.
(٧١) الإصابة في تمييز الصحابة، جـ١٣ ص٢٩٢.
(٧٢) الطبقات الكبير، جـ١٠ ص٤١٥ ـ ٤١٦.
(٧٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، جـ٦ ص٩٤.
(٧٤) الطبقات الكبير، جـ١٠ ص٢٧٦.
(٧٥) الطبقات الكبير، جـ١٠ ص٢١٦.
(٧٦) التراتيب الإدارية، ص٥٩٩.
(٧٧) الطبقات الكبير، جـ١٠ ص٣٨٩ ـ ٣٩٠.
(٧٨) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، جـ٤ ص١٩٤٠.
(٧٩) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، جـ٤ ص١٩٤٠.
(٨٠) الإصابة في تمييز الصحابة، جـ١٤ ص٣٩٠.
(٨١) الطبقات الكبير، جـ١٠ ص٣٩٥.
(٨٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، جـ٤ ص١٩٤١.
(٨٣) ابن إسحاق، محمد بن إسحاق: السيرة النبوية، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤م،جـ٢ ص٤٨٢.
(٨٤) الطبقات الكبير، جـ١٠ ص٢٧٦.
(٨٥) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، جـ٤ ص١٩٤٧.
(٨٦) الطبقات الكبير، جـ١٠ ص٤٢٢.
(٨٧) الإصابة في تمييز الصحابة، جـ١٤ ص١٨٨.
(٨٨) الطبقات الكبير، جـ١٠ ص٣٧٩ -٣٨٠.
(٨٩) الطبقات الكبير، جـ١٠ ص٤٢٤.
(٩٠) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، جـ٤ ص١٩٦٥.
(٩١) الطبقات الكبير، جـ١٠ ص٤٢٤
(٩٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ ٨ ص ٣٨٧.
(٩٣) إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١١١.
(٩٤) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ١٤٥.
(٩٥) التراتيب الإدارية، ص ٤٧٦.
(٩٦) المقدمة، جـ ٣ ص ١٠٢٧.
(٩٧) فتح الباري بشرح صحيح البخاري جـ ١٠ ص١٤٠.
(٩٨) الخطيب، موسي الخطيب: من دلائل الأعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية، ط١، القاهرة: مؤسسة الخليج العربي، ١٩٩٤

م، ص ٢٣.
(٩٩) زاد المعاد في هدي خير العباد، جـ ٤ ص ٣٥- ٣٦.
(١٠٠) من دلائل الأعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية، ص ٢٤.
(١٠١) **كمال السامرائي : مختصر تاريخ الطب العربي .جـ ١ ص ٢٢٥.**
(١٠٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، جـ ٤ ص ١٨٣٨.
(١٠٣) الإصابة في تمييز الصحابة، جـ ١٣ ص ٣٨٣.
(١٠٤) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ ٨ ص ٣٨٧.
(١٠٥) مختصر تاريخ الطب العربي، جـ ٢ ص٤١٥.
(١٠٦) الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، جـ ٦ ص ٢٨٩.
(١٠٧) السيرة النبوية، جـ ٢ ص ٤٢٢.
(١٠٨) مختصر تاريخ الطب العربي، جـ ٢ ص ٣٤٤.
(١٠٩) زاد المعاد في هدي خير العباد، جـ ٤ ص ١٠.
(١١٠) من دلائل الأعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية، ص ٢٤.
(١١١) مفاتيح العلوم، ص ١٦٩.
(١١٢) سنن أبي داود، جـ ٦ ص ٢٠.
(١١٣) الإصابة في تمييز الصحابة، جـ ١٤ ص ٣٧٠.
(١١٤) **هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن الجماهر بن الأشعر، أسلم بمكة وهاجر إلي الحبشة، مات أبو موسي الأشعري رضي الله عنه سنة ٥٢ هجرية في خلافة معاوية بن أبي سفيان، يُنظر: الطبقات، جـ ٤ ص ٩٨- ١٠٩.**
(١١٥) التراتيب الإدارية، ص ٥٣٥.
(١١٦) **هي أسماء بنت عميس بن معد، أسلمت بمكة قديمًا، وبايعت، وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب، ينظر: عيون التاريخ والسير، ص ٣٢٢.**
(١١٧) **ذات الجنب: ربما هي الزائدة الدودية ، وما يعقبها من انفجار الزائدة والالتهاب البريتوني. مؤنس، حسين مؤنس:** التاريخ الصحي للرسول (ص)، **مصر: دار المعارف**، ٢٠٠٠ م، ص ٥٧.
(١١٨) **الطبري، محمد بن جرير الطبري:** تاريخ الرسل والملوك، **تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٦، مصر: دار المعارف، ١٩٩٠ م، جـ ٣ ص ١٩٦.**
(١١٩) الطبقات الكبير، جـ ٢ ص ٢٠٨- ٢٠٩.
(١٢٠) التاريخ الصحي للرسول (ص)، ص٦٤.
(١٢١) التاريخ الصحي للرسول (ص)، ص٦٥.
(١٢٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، جـ ٤ ص ٣٤٣، ٣٥٣.
(١٢٣) **كشريد، صلاح الدين: "الطب النبوي"، مجلة** المؤرخ العربي، **بغداد: اتحاد المؤرخين العرب، العدد ١٦، ١٩٨١م، ص ٢٧٢.**
(١٢٤) مفاتيح العلوم، ص ١٧٠.
(١٢٥) زاد المعاد في هدي خير العباد، جـ ٤ ص ٤٠٣.
(١٢٦) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ ٨ ص ٣٨٨ – ٣٩٩.
(١٢٧) **فاطمة بنت رسول الله (صلي الله عليه وسلم) وأمها خديجة بنت خويلد، ولدتها وقريش تبني البيت الحرام، وذلك قبل النبوة بخمس سنين. ابن سعد: الطبقات الكبرى. جـ ١٠ ص ٢٠.**
(١٢٨) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، جـ ٧ ص ٤٣١.
(١٢٩) السيرة النبوية، جـ ١ ص ٣٣٦.
(١٣٠) تاريخ الرسل والملوك جـ ٢ ص ٥١٥.
(١٣١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، جـ ٦ ص ١٨٧.
(١٣٢) الطب النبوي، ص٣٨.
(١٣٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، جـ ١٠ ص ١٨٤.
(١٣٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، جـ ٤ ص ١٨٦٩.
(١٣٥) مختصر تاريخ الطب العربي، جـ ١ ص ٢٣٨.
(١٣٦) تخريج الدلالات السمعية، ص ٦٨١.
(١٣٧) مختصر تاريخ الطب العربي، جـ ١ ص ٢٢٧.
(١٣٨) الطب النبوي، ص ٣٩.
(١٣٩) زاد المعاد في هدي خير العباد، جـ ٤ ص ٥٣.
(١٤٠) التراتيب الإدارية، ص ٤٧٧.
(١٤١) تخريج الدلالات السمعية، ص٦٧٣.
(١٤٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، جـ ٤ ص ١٩٠٧.
(١٤٣) السيرة النبوية، جـ ٢ ص ٤٩٢.
(١٤٤) الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، جـ ٦ ص ٥٢٧.
(١٤٥) **أصل الرضخ أن تكسر من الشيء الرطب كسرة فتعطيها – أي أنه (صلي الله عليه وسلم) كان يأخذ لهن من السهم فيعطيهن، يُنظر:** الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، جـ ٦ ص ٥٧٢.
(١٤٦) السيرة النبوية، جـ ٢ ص ٤٨٢.
(١٤٧) الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، جـ ٦ ص ٥٢٨.
(١٤٨) الطبقات الكبير، جـ ١٠، ص٢٢٩- ٢٣٠.
(١٤٩) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، جـ٤، ص ١٧٩٣.
(١٥٠) الإصابة في تمييز الصحابة، جـ١٤، ص ٤٢٢.
(١٥١) السيرة النبوية، ج٢، ص٤٨٢.
(١٥٢) الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، جـ ٦ ص ٥٨٥.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

معركة الرملة (٥٧٣هـ/١١٧٨م)
حسب رواية عماد الدين الأصفهاني (ت. ٥٩٧هـ/١٢٠١م)
من خلال كتابه البرق الشامي – دراسة تحليلية

د. سيبان حسن علي
كلية العلوم الإنسانية
جامعة دهوك
كردستان – جمهورية العراق

أ. د. كرفان محمد أحمد
أستاذ تاريخ الكرد في العصور الوسطى
كلية العلوم الإنسانية - جامعة دهوك
كردستان – جمهورية العراق

مُلَخّصْ

يهدف البحث إلى الوقوف بموضوعية على الرواية التاريخية المتعلقة بمعركة الرملة (سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٨م)، من خلال منظور ورؤية المؤرخ عماد الدين الأصفهاني، والتعريف بسير الاستعدادات التي اتخذها السلطان صلاح الدين للقيام بتلك الحملة، وما هي الاجراءات التي اتخذها للتوغل في أراضي الصليبيين داخل بلاد الشام، ومن ثَّم بيان الاستراتيجية التي اعتمدها أثناء تواجده مع الجيش الأيوبي في المناطق الصليبية، والعوامل التي تسببت في النهاية بهزيمة السلطان صلاح الدين في تلك المعركة. قسم البحث إلى مبحثين اثنين فضلاً عن المقدمة وتمهيد للموضوع مع الخاتمة، كرس التمهيد للحديث عن سيرة المؤرخ عماد الدين الأصفهاني، وحياته الاجتماعية، وعلاقته بالدولة الزنكية والأيوبية، مع الإشارة إلى أبرز مصنفاته التاريخية. أما المبحث الأول فقد خُصص للحديث عن تدوين العماد الأصفهاني للمعركة وركز فيها على استعدادات السلطان صلاح الدين الأيوبي لها، والاجراءات التي اتخذها لتجهيز الحملة، والتعليمات التي نشرها على العسكر قبل التوجه إلى بلاد الشام لمقارعة الصليبيين هناك. ركّز المبحث الثاني، على رواية العماد الأصفهاني للمعركة، حيث تم التأكيد فيها على خط سير السلطان صلاح الدين، ومهاجمته لعسقلان، ومن ثَّم الدوافع التي حملت جنده على التوغل إلى أرض العدو، كما تم الوقوف على أحداث معركة الرملة، والاشتباكات العسكرية التي حدثت بين الجانب الأيوبي والصليبي، وهزيمة السلطان في المعركة، وكيفية تمكنه من النجاة بنفسه مع مَنْ بقي معه من أفراد جيشه.

بيانات الدراسة:
تاريخ استلام البحث: ٢٦ ديسمبر ٢٠١٧
تاريخ قبـول النشـر: ٠٤ فبـرايـر ٢٠١٨

كلمات مفتاحية:
معركة الرملة، عماد الدين الأصفهاني، السلطان صلاح الدين، التاريخ الوسيط

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0051248

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
كرفان محمد أحمد، سيبان حسن علي. "معركة الرملة (٥٧٣ هـ/ ١١٧٨ م) حسب رواية عماد الدين الأصفهاني (ت. ٥٩٧ هـ/ ١٢٠١م) من خلال كتابه البرق الشامي: دراسة تحليلية".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة - العدد التاسع والثلاثين؛ مارس ٢٠١٨. ص٤٢ – ٥١.

مُقَدِّمَةُ

تُعَدّ معركة الرملة[1] واحدة من أشهر المعارك العسكرية في تاريخ الدولة الأيوبية وخلال حقبة الحروب الصليبية كونها الهزيمة الرسمية الأولى للسلطان صلاح الدين الايوبي على يد الصليبيين بصورة مباشرة في اشتباك عسكري، تلك الهزيمة التي غيرت بعد ذلك التفكير الاستراتيجي والحربي عند السلطان نحو مدايات وآفاق أكثر تطورًا، مستفيدًا من كل الظروف التي تحيط بتحركات العدو وطوبوغرافية المناطق التي حاول مهاجمتها لاحقًا، ولأهمية تلك المعركة وآثارها العسكرية والسياسية المرحلية على نفسية السلطان صلاح الدين، والعبرة الكبيرة التي استفاد منها السلطان في تحويل الهزيمة إلى نصر، وذلك وفق

رؤية أحد كُتّاب الانشاء السلطاني من الذين رافقوا السلطان في حله وترحاله خلال المراحل الأولية للتهيؤ لتلك الحملة ألا وهو (عماد الدين الأصفهاني)، لذا تم اختيار موضوع (معركة الرملة حسب رواية عماد الدين الأصفهاني (ت.٥٩٧هـ/ ١٢٠١م) من خلال كتابه البرق الشامي[٢]- دراسة تحليلية) عنوانًا لهذا البحث، معتمدًا منهجية تحليلية - نقدية، لرواية عماد الدين الأصفهاني وموازنة نصوصه بنصوص المؤرخين المسلمين الآخرين، والسريان الذين عاصروا الأحداث أو كانوا قريبين منها، ومَنْ أدركوا أحداث معركة الرملة، وتوضيح رؤيتهم التاريخية كل حسب روايته للحدث، وتعامله النصي معها، فضلاً عن تحليل ونقد بعض الأصول التي رافقت رواية عماد الدين، ومَنْ كتب عنها من المصنفين الآخرين.

اعتمد البحث على عدد من المصادر الأصلية تأتي في مقدمتها كتاب البرق الشامي لصاحب الترجمة، وكتاب تاريخ ميخائيل السرياني الكبير (ت.٥٩٦هـ/ ١١٩٩م) وكتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري (ت.٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)، وكتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد (ت.٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م)، وتاريخ الرهاوي المجهول (ت. ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م)، وكتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية (ت. ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م). كما تم الاستفادة من وجهات نظر وآراء عدد من الباحثين الجدد من أمثال، هاملتون جب، في كتابه "صلاح الدين الأيوبي: دراسات في التاريخ الإسلامي"، ونظير حسان سعداوي، "التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي"، وكتاب "الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين" لمؤلفه محسن محمد حسين، وغيرها من المصادر والمراجع تم تثبيت عناوينها في قائمة المصادر والمراجع الملحقة بالدراسة.

تمهيد: سيرة عماد الدين الأصفهاني

ولد عماد الدين محمد بن حامد بن أله[٣] المكنى بأبي عبدالله في أصفهان سنة (٥١٩هـ/ ١١٢٥م)،[٤] لذا عُرف بـ الأصفهاني، وغلب على شهرته اسم (العماد الكاتب الأصفهاني)،[٥] عاش وتربى في اسرة ميسورة الحال فقد كان والده من رجال الادارة والسياسة المشار اليهم بالخبرة والمعرفة في أصفهان، ولذلك طلب منه الخليفة العباسي الراشد بالله (ت. ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م)، تولية الوزارة له؛ لكنه امتنع عن تلبية طلبه بحجة المرض.[٦] تلقى عماد الدين تعليمه الأولي في أصفهان، وبعد ذلك شد الرحال إلى أماكن ومناطق مختلفة بغية طلب العلم والاستفادة من علمائها وشيوخها، فسافر إلى بغداد سنة (٥٣٤هـ/ ١١٣٩ م)، ودرس في النظامية[٧]، وأبدع في فن الترسل.[٨]

حصل في بغداد على بغيته من المعرفة التي تمكنه من مجاراة كبار علماء بلده اصفهان، فعاد إليها سنة (٥٤٣هـ/ ١١٤٨م)، وهناك ناظر الكثيرين منهم في مجالات شتى فذاعت شهرته بين أقرانه وبرز صيته إلى خارج أصفهان،[٩] ويبدو أنه كان يمتلك طموحًا كبيرًا في استغلال مواهبه والارتقاء بنفسه إلى وظائف ومناصب تليق بعلمه، فتقرب من الوزير ابن هبيرة (٥٦٠هـ/ ١١٦٥م) [١٠]، فاسند إليه وظيفة النظارة في مدينة واسط، وبعدما اثبت كفاءته ورأى من أمانته وعلمه، جعله نائبًا عنه في البصرة سنة (٥٥٧هـ/ ١١٦٢م).[١١]

عندما اغتيل ابن هبيرة مسمومًا، تعرض أغلب مناصريه للسجن والتعذيب، وكان من بينهم عماد الدين الأصفهاني، إذ سُجن واسيئت معاملته، حتى أُطلق سراحه بأمر من الخليفة، بعد محاولات عدة في التماس الرحمة منه [١٢]، فأبى البقاء في بلد لم يقدره، فأثر الهجرة إلى بلاد الشام، فوصل إلى دمشق سنة (٥٦٢هـ/ ١١٦٧م)[١٣]، وقدم له القاضي كمال الدين الشهرزوري[١٤] المساعدة اللازمة، للخروج من أزمته النفسية والاقتصادية تلك، وعينه مدرسًا في المدرسة النورية[١٥]، واتصل بعد مدة قصيرة بنور الدين زنكي فجعله هذا ضمن هيئة كُتاب إنشائه، وأُعجب بكتاباته ولا سيما أنه كان بارعًا في الإنشاء باللغتين العربية والفارسية[١٦]، ولما توثقت العلاقة بين السلطان وعماد الدين ورأى من مواهبه الكثير، أرسله في سفارات عدة إلى خلاط سنة (٥٦٤هـ/ ١١٦٨م)، وبغداد سنة (٥٦٦هـ/ ١١٧٠م).[١٧] وبعد سنة واحدة أسند إليه نور الدين زنكي التدريس في المدرسة النورية التي اشتهرت فيما بعد باسمه (العمادية)، وفي سنة (٥٦٨هـ/ ١١٧٢م)، جعله المشرف العام على ديوان الإنشاء في الدولة.[١٨]

عندما توفي نور الدين محمود أهمل الملك الصالح إسماعيل (ت. ٥٧٧هـ/ ١١٨١م) كل علاقة به وعزله عن وظيفته[١٩]، فاضطر إلى ترك دمشق والعودة إلى الموصل وبقي فيها حتى سنة (٥٧٠هـ/ ١١٧٣م)،[٢٠] حيث سمع بوجود صلاح الدين الأيوبي في بلاد الشام، وكانت بينهما معرفة سابقة، فاتصل به والتقاه عند حمص التي فتحها في السنة المذكورة، فاعجب ببلاغته وبتوصية من القاضي الفاضل (ت. ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م)[٢١] الحقه بهيئة كتابه[٢٢]، وبدعم من القاضي الفاضل أصبح من كُتّاب إنشاء السلطان الأساسيين، وشارك معه في معظم غزواته إلا (الرملة)[٢٣]- موضوع الدراسة - فتح عسقلان ومحاصرة القدس[٢٤])، لكنه تمكن من اللحاق بالسلطان عند فتح بيت المقدس سنة (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م).[٢٥]

بعد وفاة السلطان صلاح الدين تناقلت به الأحوال بين السلب والإيجاب بفعل التناحر الأسري بين أبناء البيت الأيوبي، وتنقل لأكثر من مرة بين دمشق والقاهرة حتى استقر به الحال في دمشق سنة (٥٩٦هـ/ ١١٩٩م) [٢٦]، وبعد حياة حافلة بالترحال وطلب العلم ومواكبة كل من السلطانين نور الدين وصلاح الدين في كتابة رسائلهما وتدوين انتصاراتهما على الصليبيين، وافاه الأجل في دمشق سنة (٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) [٢٧] بعد أن ترك العديد من المصنفات ومن أشهرها في التاريخ (البرق الشامي، نصرة الفطرة وعصرة القطرة، الفتح القسي في الفتح القدسي).[٢٨]

المبحث الأول: تدوين العماد الأصفهاني لمعركة الرملة

يُعَدّ عماد الدين الأصفهاني المصدر التاريخي الوحيد الذي سجل وبدقة تفاصيل استعدادات السلطان صلاح الدين الايوبي لغزوه لبلاد الشام في سنة (٥٧٣هـ/ ١١٧٥م)، لأنه كان ملازمًا ولا

سيما في المرحلة الأولى لتأهب السلطان للذهاب إلى بلاد الشام وشاهدًا عيانًا مباشرًا على تلك الأحداث [٢٩]؛ لكن الشيء الذي يدفعنا للتساؤل هنا هو أن العماد أورد فقط الدافع العام الذي حمل صلاح الدين على التوجه حينئذ لقتال صليبيي الشام دون الإشارة إلى خصوصية الحملة، حتى ابن الاثير الجزري (ت. ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) اكتفى بالقول "سار صلاح الدين بن أيوب من مصر إلى ساحل بلاد الشام لقصد غزاة بلاد الفرنج"،[٣٠] في حين أننا نستطيع أن نؤسس رأيًا حول تحديد ذلك الدافع من خلال مؤرخ مسيحي معاصر لتلك الأحداث ألا وهو، وليم الصوري (ت. ٥٨٢هـ/ ١١٨٦ م)، فقد أشار بأن صليبيي الشام في تلك الآونة كانوا قد برزوا للاستيلاء على قلعة حارم[٣١]، التي تركها صلاح الدين للملك الصالح إسماعيل (ت. ٥٧٧هـ/ ١١٧٩م)، وفي الوقت نفسه كانت مسقط رأس ومنشأ خاله شهاب الدين الحارمي، فضلاً عن أن الصليبيين كانوا قد توغلوا داخل حدود أنطاكية وحاولوا الاستيلاء على بعض القلاع والحصون التي كانت قد استعادها السلطان خلال المدة (٥٧٠ – ٥٧٢هـ/ ١١٧٥ – ١١٧٧م) [٣٢]، وتلك الأخبار لما وصلت إلى صلاح الدين في مصر، أيقن بأن الصليبيين قد تركوا مدنًا ومساحات واسعة دون حماية كافية مما حدا به الأمر إلى الاستعداد بسرعة للاستفادة من غياب الحاميات الصليبية عن مواقعها وتحقيق بعض الانتصارات واستعادة بعض المواقع الاستراتيجية التي طالما كان الصليبيون يثيرون المشاكل من خلالها حول القلاع والحصون الإسلامية في بلاد الشام.

على أية حال؛ نستشعر من خلال نص للعماد بأن السلطان قد عزم الأمر لتلك الغزوة واتخذ قراره فقال: "وعاد السلطان إلى القاهرة، وأقام بها ظاهر السلطان باهر البرهان ثم تقاضته عزمته واهتمت بالغزاة همته وجد بالجهاد وجده وجهده... وعرضت عساكره وأعلنت شعائره."[٣٣] الصورة التي ينقلها لنا عماد الدين في تلك المرحلة تنم عن الكثير من الموضوعية والسرد الواقعي لحركة الأحداث التي تتسلسل بتراتبية متدرجة، فهو ينقل يوميات كل تنقلات السلطان بشيء من الاختصار الذي أملاه عليه الظرف الذي كان يسجل فيه العماد تلك اليوميات العسكرية، وعلى حد قول هاملتون جب، كان العماد في كتاباته عن تحركات السلطان العسكرية وتدوين ملاحظاته لا يختلف كثيرًا عن المراسل الحربي في نقل أخبار المعارك وتفاصيلها،[٣٤] وهو في الوقت نفسه يُعَدّ المرجع الأساسي لكل مَنْ أتى بعده من المؤرخين عند الإشارة إلى معركة الرملة، وحتى بعض المعاصرين له من أمثال ابن الأثير الجزري الذي تصرف في بعض نصوص العماد لتوافق أسلوبه وتوجهاته.[٣٥]

يذكر العماد بان السلطان قد خرج من القاهرة يوم (الجمعة ثالث جمادي الاولى)، سنة (٥٧٣ هـ/ ١١٧٨ م) [٣٦]، ثم وصل الى بلبيس[٣٧] حيث أقام هناك لمدة قصيرة ثم تحول منها الى وادي السدير[٣٨] فعسكر فيه، لينهي كل الاستعدادات اللازمة، في سبيل انجاح تلك المهمة، وكان قد خطط على إنهاء تلك الغزوة في عشرة أيام حسب ما نقله العماد بالقول: "وقد أزف الرحيل وفرض التعجيل واستصحب في الخيم الخفيف ورد الثقيل، ثم نودي: خذوا زاد عشرة أيام زيادة للاستظهار ولا عواز ذلك عند توسط ديار الكفار".[٣٩]

استقراء للنص السابق، نقف على ما يأتي:

- إن السلطان صلاح الدين أراد الاستفادة من الوقت فأصدر اوامره للعسكر بتسريع وانهاء الاستعدادات اللازمة للحملة.
- منع اصطحاب كل الآلات والادوات الثقيلة حتى لا يعيق نقلها سير الجيش من مصر إلى الشام.
- قدر مسألة التموين التي سيحتاجها الجندي في تلك الحملة حيث طلب من الجميع أن يحسبوا الاحتياج الشخصي لعشرة أيام على أكثر تقدير، حتى يصلوا بسلام إلى الوجهة التي حددها من بلاد الصليبيين.

بالتالي كان قد جعل في استراتيجيته أنه سيضمن الحصول على كل النقص البشري والاقتصادي من بلاد الشام عندما يسترد القلاع والحصون الاسلامية هناك، وكان يعقد الآمال على أن تسير خطته تلك بسهولة، وأن يستفيد من الموارد البشرية في بلاد الشام. المشكلة الأخرى التي يواجها الباحث في مسألة الحملة الصلاحية إلى بلاد الشام ومن ثَمَّ معركة الرملة، هي أن العماد، لا يهتم بإيراد عدد الجند الذين استصحبوا السلطان في تلك الحملة ويكتفي بالإشارة قائلاً: "وسار في جيش مجر لسبل الحياة هجر من سواد القتام في ليل..."،[٤٠] في حين يذكر ابن الاثير أيضًا نصًا لا يقل غموضًا عن نص العماد: "وجمع معه عساكره كثيرة وجنودًا غزيرة".[٤١] بينما يأتي وليم الصوري برواية أخرى نستشف منها المعاني الموجودة في نصي كل من العماد وابن الاثير، فقال ما نصه: "قام بحشد الحشود الكثيفة من العسكر من كل ناحية، وأمر بتجهيزهم أحسن جهاز جرت به العادة".[٤٢]

مما يلاحظ في النصوص السابقة؛ أنها متفقة كُليًا على أن السلطان قد أعد جيشًا كبيرًا ولكننا نجهل رقمه، عدا أننا نقف على رواية نادرة لمؤرخ مسلم وهو المؤلف المجهول أشار فيها بصورة تقريبية أو تخمينية إلى رقم الجند الذين كانوا مع السلطان في وقعة الرملة حيث قال ما نصه: "وكانوا زيادة على العشرين ألفًا"؛[٤٣] لكن مما يؤخذ على رواية الصوري، وبعيدًا عن كونه مسيحيًا ويمثل وجهة نظر الصليبيين، فإنه بالغ في تقدير عدد جيش صلاح الدين ووصفها بالكثافة، فضلاً عن أنه جانب الصواب عندما ذكر أن السلطان قد جمع الجند من كل المناطق التي كانت حكمه لحين تلك الفترة (٥٧٣هـ/ ١١٧٨م)، لأن الوقائع تؤكد أنه لم يجمع سوى ما كان متوفرًا من جيشه في مصر فقط، وحتى عن التجهيز الذي أشار إليه لم يكن دقيقًا، كون أن ذلك الجيش قد جهز على عجالة كبيرة، باعتبار أن السلطان حاول أن يستغل كل فرصة ممكنة لبلوغ أهدافه قبل عودة الجيوش الصليبية أو حامياتها إلى مدنهم التي انسحبوا منها جراء المشاركة في حصار حارم وغيرها من المدن والقلاع.

لكن من جانب آخر هناك روايتان سريانيتان تسلطان الضوء على عدد المقاتلين الذين جمعهم السلطان صلاح الدين لحملة الرملة، بشيء من التفصيل، فهذا ميخائيل السرياني (ت. ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م)، قال ما نصه: "في تشرين الثاني ١٤٨٩ (٥٧٣هـ) خرج صلاح الدين من مصر على رأس ٣٣ ألف من مرتدي الدروع إضافة إلى المشاة وسواهم، ومعه ٥٢ ألف جمل تحمل الذخيرة والارزاق"،[٤٤] في حين أشار الرهاوي المجهول، إلى أن صلاح الدين قد خرج من مصر "بباس عظيم، وافتخار مع قوات كثيرة قوامها ٣٣ ألف فارس مسلح، وأكثر من اثني عشر ألف راجل، مع جمال تحمل السلاح والمؤونة"،[٤٥] ونظرة تحليلية للأرقام التي اوردها كل من السرياني والرهاوي، تظهر مسالة المبالغة فيها واردة جدًا، بحكم أن العماد أشار ومن ثَمَّ ابن الاثير إلى أن السلطان قد جمع عسكرًا كبيرًا لكن الملاحظ في الأمر، الرواية المسيحية قد اعتادت أن تبالغ في الأمر لتظهر أي انكسار أو انتصار للصليبيين مدفوعًا بعد ذلك بقلة أو كثرة الجند الذين اعتمد السلطان عليهم في حملته ضدهم، فضلاً عن أن العماد قد بيَّن أن صلاح الدين رفض أن يصطحب الجيش معه أية مؤن أو أعتدة ثقيلة،[٤٦] ونحن نثق بتلك الرواية كونه كان شاهد عيان على استعدادات الجيش، وهو يناقض ما أعلنه السرياني في احصاءاته التي تفتقد إلى أي مصدر موثوق، وذكر بأن صلاح الدين قد جهز اثنين وخمسين ألف جمل لحمل المؤن والأرزاق.[٤٧]

وإذا كان الأمر كذلك، كيف كان سيصل بتلك السرعة إلى بلاد الشام والركب كله تقريبًا مؤلف من الجمال، في حين أننا نستشعر بأن ميخائيل السرياني على أغلب الظن قد نقل روايته المبالغة فيها من وليم الصوري وتصرف فيها حسب رغبته بدليل أن الصوري، كان قد أشار في نص له بأن صلاح الدين بسبب طول الطريق وتعقيداته تخلى عن الكثير من أسلحته وأغراضه المتنوعة، فقد ذكر قائلاً: "وتسنى له بعد اجتيازه التيه الكبير في مشقة أن يبلغ العريش القديمة التي أصبحت الآن مهجورة من الناس فترك بها بعض امتعته الثقيلة وطائفة من العسكر"،[٤٨] وكل تلك الإشارات من قبل المؤرخين الصليبيين على كبر حجم قوة السلطان لم يأت بشيء سوى لإبراز قوة الصليبيين بعد أن هزم السلطان لاحقًا، مع الملاحظة أنه لم يخطط للاستقرار في المناطق التي يغير عليها، بل كان الأمر كله أن يثبت للصليبيين بأنه على علم بتحركاتهم العسكرية هناك، وأنه لن يترك بلاد الشام دون اسناد،[٤٩] ولن يفسح المجال للصليبيين بالتحرك في أراض المسلمين دون أن يكون هناك مَنْ يردعهم، ويوصل رسالة لهم بأن مصر هي التي ستدافع عن بلاد الشام، ولن يمنح أية فرصة لهم للتفكير بغزوها آنيًا أو مستقبلاً وفي الوقت نفسه، إذا حقق تقدمه داخل الأراضي الصليبية نجاحًا؛ فلن يكون من المستبعد أن يفكر في مهاجمة بيت المقدس واستعادتها في حال لم يتمكن الصليبيون من العودة إليها من أنطاكية وحلب.

مهما يكن من أمر؛ فإن الصورة التي نقلها العماد هي الأقرب لسير الأحداث، ويؤكد على أن الحرب تؤثر في تبديل الأحوال الاقتصادية بدليل، أنه تم وضع سوق متنقل للعسكر لشراء احتياجاتهم الضرورية للحملة فذكر قائلاً: "فركبت إلى سوق العسكر للابتياع وقد أخذ السعر في الارتفاع والمطلوب غال والمعسكر منه خال،[٥٠] وهذا ما دفعه للتفكير جديًا في عدم المشاركة بتلك الحملة لعدم تمكنه من شراء ما يلزمه من المؤن والسلاح، بل على العكس من ذلك طلب من خادمه أن يبيع كل ما لديه من ممتلكات تخص القتال وبأسعار أتت عليه بالربح، فضلاً عن أنه احتج بأنه لم يكن من رجال السيف بل هو من أصحاب القلم[٥١]، وليس عليه نائبة إن لم يشترك في جيش السلطان، وعرض أمره على القاضي الفاضل، فأخبر الأخير السلطان برغبة العماد في عدم المشاركة، فوافق رأيه، مؤكدًا على أنه لم يغب عن حملات السلطان صلاح الدين سواها بصورة مباشرة.[٥٢]

بعد أن أكمل الجيش استعداداته تحرك نحو بلاد الشام لتحقيق الهدف الذي خرج من أجله، والشيء الذي ينبغي الوقوف عليه هنا، هو موارد العماد عن تلك الحملة ومعركة الرملة تحديدًا، فتنوعت تلك الموارد بين مصدرين اثنين على أغلب الظن، آلا وهما، مشاهداته العيانية، وهذه تشمل الرؤية والحضور الشخصي المباشر له مع السلطان في القاهرة وبلبيس وغيرها من المدن التي أشار إليها في روايته عن مرحلة تجهيز الجيش، حتى انفصاله عنه من بلبيس بعد أن يأس في تجهيز نفسه، واقتناعه بعدم تمكنه من مجاراة الجيش في حملة عسكرية تستوجب القتال المباشر مع العدو وهو في الأساس رجل قلم وكتابة.[٥٣] أما المصدر الثاني الذي اعتمده في تدوين أخباره عن معركة الرملة والتطورات التي سبقتها، فهي الروايات الشفوية، والوثائق الرسمية بصفة كتب السلطان إلى بعض القادة في كل من دمشق وغيرها بعد أن تم انقاذه من قبل القاضي الفاضل ورجوعه سالمًا إلى مصر.[٥٤]

المبحث الثاني: معركة الرملة وفق رواية العماد الأصفهاني

١/٢- مقدمات معركة الرملة:

النص الذي يقدمه لنا العماد الأصفهاني حول خط سير السلطان صلاح الدين الى بلاد الشام والتوغل داخل الأراضي الصليبية يختلف نوعًا ما عن الحبكة الدرامية للرواية التاريخية من التي نسجها أقلام المؤرخين الصليبيين، فالعماد تختفي رواياته المعتمدة على مشاهداته العيانية منذ تركه للسلطان في وادي السدير، ليبدأ بالاعتماد على الروايات الشفوية التي استقاها بعد ذلك من المشاركين في المعركة أو الرسل الذين التقى بهم في القاهرة على أثر نقلهم لأخبار نجاة السلطان من الوقوع في أسر الصليبيين[٥٥]، فيذكر العماد بأن السلطان وصل بجيشه إلى عسقلان ومن هناك بدأ يخطط للهجوم على المعاقل الصليبية[٥٦]، وهي الرواية التي نقلها عنه معظم المؤرخين المسلمين الآخرين مثل ابن الأثير[٥٧]، ابن شداد[٥٨]، أبو شامة[٥٩]، ابن واصل [٦٠]، في حين تختلف الرواية الصليبية عنها فيذكر وليم الصوري، بأن السلطان وجيشه هاجموا الداروم،[٦١] وغزة[٦٢] قبل التفكير في

دراسات

مهاجمة عسقلان وغيرها من المناطق،[٦٣] بينما أغفل العماد أية إشارة إلى مرور السلطان بتلك المناطق.[٦٤]

الرواية الأكثر جذبًا للتحليل هي التي سجلها ميخائيل السرياني، وتُعَدّ غريبة في محتواها النصي- عندما قال حرفيًا: "ودخل القدس مدفوعًا بغيرة عمياء وقتل أول افرنجي قبض عليه ولطخ ثيابه بدمه فتطهر، وفي الوقت الذي فقد الجميع الأمل أشفق الرب على المسيحيين"،[٦٥] استنباطًا لرؤية السرياني في النص المذكور نقف على ما يأتي:

- حاول ميخائيل السرياني أن يظهر السلطان بمظهر المسلم المتعصب الذي لم يقصر في بذل الجهد من أجل الانتقام.
- أراد استعطاف بقية المسيحيين والحذر من السلطان الأيوبي وعدم الالتفات إلى مبادراته السلمية كونه شخص دموي في التعامل مع الصليبيين بدليل إراقته لدماء أحد الجند المأسورين.
- الرواية السابقة موضوعة بدقة كبيرة من قبل السرياني لتحقيق أهدافه الكنسية، وهي لا تمت للواقع المعاش آنذاك بأية صلة، فالقدس لم تكن على مسار خط السلطان، وإنما كانت ضمن مخططاته اللاحقة بعد الانتهاء من عسقلان وبعض المدن والقلاع الأخرى.

رجوعًا إلى رواية العماد، نلاحظ أن السلطان صلاح الدين قد أرسل جيشه لمهاجمة بعض القرى والبلدات الموزعة في محيط عسقلان، هذا في وقت كان الملك بلدوين الرابع، يراقب تحركات السلطان بحذر شديد[٦٦]، فذكر العماد: "فسبى وسلب وغنم وغلب وأسر وفسر، وكسب وكسر وجمع هناك مَنْ كان معه من الأسارى، فضرب منهم الأعناق... وتفرق الفرق في الأعمال مغيرين ومبيدين".[٦٧]

بعدها تقدم السلطان لمحاصرة عسقلان يوم (التاسع والعشرين من جمادي الأولى) سنة (٥٧٣ هـ/ ١١٧٨)، في وقت كان الملك بلدوين قد تمكن من النزوح إليها وهذا ما ساعد حاميتها إلى تشديد المقاومة ضد المحاصرين[٦٨]، وبسبب تأخر الاستيلاء على عسقلان ترك السلطان صلاح الدين قوة عسكرية صغيرة بالقرب من عسقلان تقوم بمهمة منع دخول أو خروج أية قوة منها أو إليها، لكن تلك القوة لم تكن على مستوى المسؤولية، فقد تمكن الملك بلدوين الرابع من الإفلات بجيشه إلى خارج المدينة، ومن ثمَّ حاول الاتصال بقوات صليبية أخرى ولا سيما جيش الأمير أرناط (رينالد دي شاتيون)[٦٩]، حيث ذكر ابن شداد بأن مقدم الصليبيين يوم الرملة كان (الأمير أرناط)[٧٠]، بينما أكد المؤلف المجهول على ذلك قائلاً: "وكان مقدم الفرنج أرناط وكان من أكبر ملوك الفرنج وكان نور الدين قد أسره في وقعة حارم"،[٧١] وحامية غزة، من أجل التجمع وتوحيد جهودهما لصد هجوم السلطان صلاح الدين، كل ذلك أتى بعد أن شردت قوات السلطان يمينًا ويسارًا في مهاجمة قرى وبلدات الصليبيين الموزعة في تلك المنطقة أملاً في الحصول على بعض الغنائم.[٧٢] وكان الصليبيون قد استخدموا استراتيجية الانسحاب الهادئ للمسيحيين من تلك المناطق، حتى تشير بعض الروايات أن سكان القدس أيضًا تجمعوا في أحد أبراج قلعتها تفاديًا لأية هجمة محتملة من قبل قوات السلطان صلاح الدين عليهم.[٧٣]

٢/٢- أحداث معركة الرملة:

يؤرخ العماد الأصفهاني، لبدايات معركة الرملة في أول يوم من شهر جمادي الاخرة قائلاً: "واستقبل يوم الجمعة مستهل جمادي الاخرة بالرملة، راحلا، ليقصد بعض المعاقل منازلا"،[٧٤] وكعادته فان صاحب الترجمة لا يهتم بذكر التفاصيل المتعلقة بمن كان يقود الصليبيين من القادة والامراء، بل يهتم فقط بذكر ما اطلع عليه من الاخبار بشان تحركات السلطان صلاح الدين و جيشه ويتفنن في ترتيب الكلمات كعادة كاتب الانشاء ويترسل في تنظيم السجع المعقد للمعاني التي حاول أن يوصل مفهومه من خلاله لقرائه،[٧٥] لذا لم نر بدًا من الاعتماد على نص سرياني لوليم الصوري قد اثبت فيه أسماء الأمراء الصليبيين الذين رافقوا الملك بلدوين في التصدي لحملة السلطان صلاح الدين، فأشار إلى ذلك قائلاً: "وكان مع الملك بلدوين الرابع كل من ايود رئيس الفرسان الداوية وثمانون من إخوانه والأمير رينو(يقصد ارناط) وبلدوين صاحب الرملة وأخيه بليان وريو الصيداوي وكونت جوسلين خال الملك ... وكان مجموعهم بما فيهم أصحاب الرتب الحربية ثلاثمائة وخمسًا وسبعين"،[٧٦] ويسترشد الجميع بالصليب الذي كان يحمله الأسقف البرت بطريرك بيت لحم، ومما يلاحظ على رواية الصوري المبالغة المفرطة في تضخيم شجاعة الصليبيين المستندة إلى عدد قليل من الجند والأمراء وأصحاب الرتب، بحيث ستتمكن تلك القوة الصغيرة من هزيمة أكثر من عشرين ألفا من الجيش الأيوبي المدربين على أفضل صنوف القتال[٧٧]. ولكنه يؤطر روايته بالعناية الالهية التي كانت تحمي المسيحيين، بفضل الصليب الذي كان يتقدم جندهم المتوجه لقتال السلطان وجيشه، حسب رؤيته.[٧٨]

أشار العماد إلى أن السلطان عندما وصل الرملة، كانت معظم قوات السلطان قد توزعت في الأرجاء، وأن الجند الذين جمعهم السلطان كانت محملة بأثقال الغنائم الكثيرة[٧٩]، لذا فمسألة التحرك السريع لم يكن واردًا آنذاك بسبب تلك الأحمال التي حاول الجند نقلها مع سيرهم في الرتل العسكري، والشيء الذي لم يكن في حسبان السلطان صلاح الدين أنه قد تحدث له مفاجآت غير متوقعة، لكن حدث ما لم يتوقعه كما قال العماد: "فاعترضه نهر عليه تل الصافية فازدحمت على العبور أثقال العسكر المتوافية"،[٨٠] وكعادته لا يفصل العماد كثيرًا في تصوير سير أحداث المعركة كمؤرخ، بل ينقل الحدث من خلال رؤية كاتب الانشاء بتزويق الحدث لفظيًا، مع تضخيم أمور المعركة وإحاطتها بهالة من الحركة اللفظية، وعلى الأكثر هذا راجع إلى أنه عندما ينقل الحدث شفويًا من شهود آخرين، فلا نجد الرؤية التاريخية عنده واضحة كما هو الحال عندما كان هو الشاهد العياني للحدث، وعلى الرغم من كل ذلك فهو يؤكد بأن الصليبيين كانوا يترقبون تنقلات السلطان العسكرية والوضع الحرج الذي وضع نفسه به من خلال محاولته دفع الجند لعبور نهر الصافية، وهي النقطة الأكثر انحدارًا ومساحة السير ضيقة

جدًا، مما أربك عملية التغيير الموضعي بالسرعة الكافية، فاستغل الصليبيون هذا الأمر، وهجموا على قوات السلطان الذي لم يكن قد استعد جيدًا لتلك المفاجأة.[٨١] لا يشير العماد إلى أي اسم من أسماء القادة الصليبيين الذين قاتلوا السلطان في تلك المعركة، وإن كانت أغلب المصادر الإسلامية الأخرى تؤكد على أن مقدم عسكرهم كان أرناط (رينالد دي شاتيون)[٨٢]، في حين أن المصادر المسيحية تتفق على أن ملك بيت المقدس بلدوين الرابع ابن الملك املريك (عموري) هو الذي كان يقود المعركة[٨٣]، ومن الواضح أن الرؤية المسيحية تحاول أن تسند أي انتصار إلى الشخص الأول في المملكة كونه هو الراعي الأول للدولة والكنيسة.

على أية حال، وفق رواية العماد فإن جيش السلطان صلاح الدين قد دافع وبقوة، وحاولت كتائبه منازلة الصليبيين دون ملل حتى أنه أثنى على جهود الملك المظفر تقي الدين عمر[٨٤] ابن اخ السلطان، في القتال بصورة ملفتة للنظر، ولا سيما أنه كان قد أشرك معه في المعركة أحد أبنائه وهو الشاب أحمد، فيقول العماد عن دورهما في المعركة ويصف استشهاد أبنه أيضًا قائلاً: "فوقف الملك المظفر تقي الدين وتلقاهم بصدره وباشرهم بيصه وسمره وباشر الراجل بنيران سيوفه وصدهم عن الحملات بنيران وقوفه ثم حمل على الخيالة بخيله، فاستشهد من اصحابه عدة من الكرام... وكان لتقي الدين ولد يقال له أحمد، شاب أول ما طر شاربه ومضت مضاربه... فقال يا ولدي قد جاءت نوبتك فأين سطوتك؟... فحمل وبلغ الطعان، وراع تلك الرعان، وأردى فارسًا بردنيته وفرسه، وصد العدو وحبسه، وخرج سالمًا إلى أبيه... فقال له عد يا أحمد فالعود احمد ... فاذنت تلك الحملة الثانية، بكسوف شمسه".[٨٥] وبسبب شجاعة تقي الدين في تلك المعركة واستشهاد ولده، نظم عماد الدين الأصفهاني قصيدة عن بسالته ودوره في تلك المعركة تثمينًا لجهوده غير الاعتيادية التي أظهرها في نوبة الرملة.[٨٦]

يستطرد العماد في نقل احداث المعركة مشيرا الى ان السلطان كان في وضع لا يحسد عليه من الضعف، وعدم الثقة من استطاعته ان ينجو ببقية قواته من تلك المعركة التي دخل فيها الصليبيون بكل قوة، وفي نيتهم ابادة الجيش الايوبي، والقضاء على السلطان نفسه، لكنه معتمدًا على رواية شفوية من الدرجة الاولى كان قد سمعها مباشرة من السلطان أكد على أن بعض الفرسان ممَنْ تميزوا بالشجاعة والاقدام قد أحاطوا بالسلطان وبدوا يدافعون عنه بكل بسالة مانعين الصليبيين من الوصول إليه الذين جعلوا كل هدفهم الأساسي قتل السلطان فنقل لنا نصا على لسان السلطان صلاح الدين قائلاً: "رأيت فارسًا يحث نحوي حصانه، وصوب الى نحري سنانه، وكاد يبلغني طعانه، ومعه اخران قد جعلا شأنهم شأنه، فرأيت ثلاثة من أصحابي، خرج كل واحد منهم إلى كل واحد منهم، بادروه وطعنوه، وقد تمكن من قربي فما مكنوه، وهم إبراهيم بن قنابر، ... وفضل الفيضي ... وسويد بن غشم المصري، فهؤلاء كانوا فرسان العسكر، وشجعان المعشر ... رافقوه وما فارقوه وقارعوا العدو دونه وضايقوه".[٨٧]

على الرغم من الشجاعة والقتال من غير ملل من قبل ما تبقى مع السلطان من جند، إلا أن الهزيمة حلت بالجيش الأيوبي، ويفهم من رواية العماد، أن تفرق الجيش قبل المعركة في المناطق الصليبية للاستحواذ على الغنائم أولاً، ومن ثَمَّ رجوع بعض الجند إلى السلطان وهم محملين بأثقال الغنائم، كل ذلك منعهم من القتال والحركة كما ينبغي في مثل تلك الأحوال، فحلت الهزيمة بهم، وإن كانت الرواية الصليبية ترجع هزيمة السلطان إلى ما يأتي:

- الوحدة التي ظهرت بين الصليبيين، حيث أيقنوا أن هذه فرصتهم للتخلص بصورة نهائية من صلاح الدين وجنده، فنبذوا كل خلاف ووحدوا جهودهم لأجل تلك الغاية: "وتقدمت جموعهم هذه كلها في صفوف حربية تتحرق شوقًا لمصادمة العدو".[٨٨]
- تأثير الظروف الطبيعية على سير المعركة، مثل تغير الأحوال المناخية أو الطقس في ذلك اليوم، عندما تغيرت الأجواء من مشمسة إلى غائمة مع هبوب رياح قوية منعت جيش السلطان من الحركة في ذلك الممر الضيق على النهر، وقد ألبسوا تلك الظروف وتغيرها ثوبًا دينيًا، فقيل: "هيج الله عاصفة هوجاء حملت التراب من جانب الإفرنج وقذفت به على الأتراك فتحقق الإفرنج من أن الله قبل توبتهم، ففرحوا وتشجعوا وولى الأتراك الأدبار فطاردهم الإفرنج وهم يفتكون بهم طيلة النهار".[٨٩]
- أما ابن شداد وهو المعاصر للعماد، فينقل بدوره شفاهًا عن السلطان جزءًا من حقيقة السبب الذي كان قد أدى إلى الهزيمة في الرملة، فقال ما نصه: "ولقد حكى السلطان صورة الكسرة في ذلك اليوم، وذلك أن المسلمين، كانوا قد تعبوا تعبئة الحرب، ولما قرب العدو رأى بعض الجماعة أن تعبر الميمنة إلى جهة الميسرة، والميسرة إلى جهة القلب، ليكونوا حالة اللقاء وراء ظهورهم، تل معروف بأرض الرملة، فبينما اشتغلوا بهذه التعبية، هجمهم الإفرنج، وقدر الله كسرتهم، فانكسروا كسرة عظيمة".[٩٠]
- ينفرد المقريزي، في الإشارة إلى أن بعض الجند الكرد كانوا هم السبب في تلك الهزيمة، فاكتفى بالقول: "وقطع أخباز جماعة من الأكراد، من أجل أنهم كانوا السبب في هذه الكسرة"،[٩١] ودون أن يبين ما هو الخطأ الذي ارتكبوه لتحل الهزيمة بالجيش كله، هل أنهم مَنْ حاولوا تغيير أماكنهم، أم أنهم احتجوا بنقل أحمال الخيول إلى الضفة الأخرى للنهر، أم أنهم لم يلتزموا بأوامر السلطان صلاح الدين.

جدير بالقول؛ أن تلك الهزيمة دفعت ميخائيل السرياني، إلى السخرية من السلطان وجنده، فذكر بأنه عاد إلى مصر متأثرًا بتلك الهزيمة ولبس الجميع الأسود كتعبير عن الحزن والحداد[٩٢]، ولم يشذ عنه وليم الصوري في التعبير عنها بالمذبحة الفظيعة؛[٩٣] كون أن معظم مَنْ كان مع السلطان إما قتلوا أو أسروا، وفي الوقت نفسه ذكر بأنه أحصى عدد مَنْ كان مع السلطان صلاح

الدين، من الجند ويأتي بأرقام تنم على الكثير من المبالغة، فقال: "إن الذين اقتحموا أرضنا كانوا ستة وعشرين ألف فارس من حملة السلاح الخفيف بالإضافة إلى راكبي الإبل ودواب الحمل، وكان من هؤلاء ثمانية آلاف من الجند العظام الذين يسمونهم في لغتهم بالطواشية.[٩٤] أما الثماني عشرة آلاف الأخرون فكانوا من الفرسان العاديين المعروفين بالقراغلامية،[٩٥] وكان هناك ألف من أبسل الفرسان يعملون حرسًا خاصًا لصلاح الدين ويلبسون الحرير الأصفر ويضعون الزرديات على صدورهم من نفس اللون الذي يلبسه صلاح الدين"،[٩٦] من جانب آخر، لا نجد مثل تلك الرواية عند العماد الذي اِكتفى بعد هزيمة الجيش الأيوبي، إلى وصف حالة السلطان، فيذكر بأنه تمكن من النجاة بنفسه من أرض المعركة ومعه قلة قليلة من الجند وكان بين كل مرحلة وأخرى يتوقف عسى أن يلحق به مَنْ تمكن من الفرار من قبضة العدو، وهو في حالة يُرثى لها بعد أن فقد ما كان معه من الطعام والماء، وتمكن من الاختباء عن أنظار العدو بعد أن دخل الليل عليه،[٩٧] وتجدر الإشارة إلى؛ أن القاضي الفاضل كان قد خرج مع بعض العرب من الكنانية[٩٨] والأدلاء للبحث عن السلطان وتمكن من العثور عليه وعلى أصحابه، فقدم لهم ما كانوا يحتاجون إليه من الملبس والمأكل، وانقذوا.[٩٩]

أما حال بقية الجند ممَنْ كان مع السلطان، فذكر العماد، بأن البعض منهم من أمثال الفقيه عيسى الهكاري[١٠٠]، وأخيه ظهير الدين الهكاري، مع عدد آخر من الجند كانوا قد أضاعوا الطريق وحاولوا الاختباء في بعض الكهوف، لكن بعض أهالي المنطقة قد دل عليهم الصليبيين فأسروا "وما خلص الفقيه عيسى وأخوه إلا بعد سنتين بستين أو سبعين ألف دينار وفكاك جماعة من الكفار عنده من اسار"،[١٠١] وممَنْ أسر أيضًا ابن أخ لتقي الدين عمر كان يسمى "شاهنشاه"، بقي في أسر الصليبيين حوالي ستة أعوام.[١٠٢]

ويذكر العماد بأن أول ما فعله السلطان بعد الانقاذ، أنه أرسل خبر سلامته إلى القاهرة مع بعض النجابين[١٠٣] "وإذا هم يقولون، أبشروا فإن السلطان وأهله سالمون وأنهم واصلون غانمون، فقلت لرفيقي: ما بشر بسلامة السلطان إلا وقد تمت كسرة وما ثم سلامته نصرة، وكان كما حررته"،[١٠٤] ثم عاد السلطان مع بقية العسكر ممَنْ تمكن من النجاة بنفسه من الصليبيين في معركة الرملة إلى القاهرة، يوم الخميس منتصف الشهر، سنة (٥٧٣ هـ/ ١١٧٨م). وأكد العماد بأنه بعد عودته أرسل العديد من الكتب والمناشير إلى الأمراء والقادة المسلمين في المدن الأخرى تطمينًا لهم على حالته ومفسرًا كيفية الهزيمة، وحثهم على الصمود، وأن تلك الهزيمة لن تؤدي إلا إلى زيادة حماسه وحماس الجند الآخرين في قتال الصليبيين في قوادم الأيام "والغزوات تتصل ولا تنقطع والطلبات للعدو بإذن الله تسهل ولا تمتنع راية هذا الدين ترتفع ولا تنخفض".[١٠٥]

وعلى حد قول نيوباي فإن جيش صلاح الدين هزم في تلك المعركة لكنه لم يتحطم، وذلك في إشارة إلى أن السلطان صلاح الدين عاد أقوى بعد تلك الهزيمة.[١٠٦] بل إن بعض الشعراء قد نظموا قصائد شعر تمجد توغله المنتصر في عسقلان في محاولة لتهوين أمر هزيمة الرملة، مثلما فعل "ابن سعدان الحلبي".[١٠٧]

ولكي يجبر السلطان كسر الخواطر، بعدما أصيب الجند بالانكسار، وخوفًا من دب اليأس في صفوفهم، وأن يفقدوا معنوياتهم، وزع عليهم الأموال، وأوصلهم بالهدايا، وعوضهم عما فقدوا من دوابهم وأسلحتهم في أرض المعركة، وطيب قلوبهم كما ينبغي.[١٠٨]

خَاتِمَةُ

في خاتمة هذه الدراسة تم تثبيت النتائج التالية:

- اتبع عماد الدين الأصفهاني طريقة كتاب الانشاء في تدوين الروايات المتعلقة بمعركة الرملة من خلال الاِهتمام بجمال اللفظ وتنسيق الحرف دون الاِهتمام كثيرًا برواية الحدث مثل بقية المؤرخين.
- لاحظنا بأن العماد قد ضبط توريخ الحدث رقميًا من خلال التأكيد على تثبيت تواريخ حركات السلطان وخطوات عملياته العسكرية بإيراد التاريخ الهجري مفصلاً في أغلب الأحيان.
- اثبتت الدراسة بأن العماد حاول قدر المستطاع أن يوصل النص التاريخي المتعلق بمعركة الرملة بشيء من الموضوعية، والابتعاد عن المبالغات التاريخية، وما لم يتمكن التعرف عليه من إحصاءات الأرقام، لم يحاول أن يخلق أرقامًا خيالية، لا تتطابق مع الواقع كما فعل البعض من المؤرخين المسيحيين.
- من خلال روايات العماد لوحظ بأن من أسباب هزيمة السلطان صلاح الدين في معركة الرملة، هي عدم معرفة السلطان بجغرافية المنطقة بصورة كبيرة، فضلاً عن أنه لم يعتمد في تلك الحملة على مَنْ لهم الخبرة الجغرافية في معرفة المعالم الأساسية هناك.
- ظهر من خلال الدراسة، أن الثقة الزائدة التي منحها السلطان لجيشه، وعدم تمكنه من ضبط الجند كما يجب، دفعتهم إلى الاِنسياح بأنفسهم إلى الداخل الصليبي، سعيًا وراء جمع أكبر كمية من الغنائم، مما سبب ذلك انقطاعًا كبيرًا بين مركز القيادة، وبقية العسكر فحتى عندما اِحتاج إليهم السلطان لم يتمكن سوى جزء من الجيش اللحاق بهم وهم في حالة من الفوضى.
- الشيء الملفت للنظر أن معظم مَنْ حددوا أسباب هزيمة السلطان تناسوا، بأن مسألة التعب والارهاق الذي لحق بجند السلطان، خلال مسيرهم الطويل من مصر إلى فلسطين، قد أثر كثيرًا على حركة الجيش، فضلاً عن أن توغلهم غير المدروس في الأراضي الصليبية زاد من ذلك الإرهاق أضعافًا كثيرة، فعندما واجهوا الصليبيين، وبعيدا عما كانوا يحملونه من أثقال، فإن حركتهم وحركة خيولهم كانت من البطء بحيث لم يستطيعوا الإفلات من هجمات الصليبيين المباغتة.

- كما تبين أيضًا من رواية العماد وبقية المؤرخين ممَنْ تصدوا لمعركة الرملة، بأن الصليبيين كانوا قد أخذوا احتياطاتهم قبل دخول السلطان لأراضيهم، بل أنهم قد دفعوا الناس إلى ترك مناطقهم التي كانت على خط سير السلطان وجنده، فضلاً عن أن القوات الصليبية كانت في وضع نفسي ومعنوي أفضل، ناهيك عن أن قواتهم لم تكن تقل عن القوات الأيوبية عددًا وإن كانت المصادر المسيحية تحاول أن تنشر أرقامًا بعيدة عن الواقع التاريخي لأعداد جيشهم الذي قاده أكثر من عشرة من الأمراء والقادة المشهورين، عدا وجود الملك بلدوين الرابع على رأسهم، لأنه من غير المنطقي أن يشارك عدد من القادة على رأس حامية صغيرة أو فرقة لا تتجاوز الثلاثمائة جندي، لقتال أكثر من عشرين ألف مقاتل أيوبي.
- عدم اِلتزام الجند بأوامر السلطان خلال الاشتباك العسكري كان من أهم العوامل التي أدت إلى هزيمة الجيش الصلاحي، ووقوع عدد كبير من أمرائه وجنده أسرى في يد العدو، مما اِضطر إلى تحمل أعباء مالية كثيرة لفكاك الأسرى لاحقًا.

الهَوامِشُ:

(١) **الرملة:** مدينة كبيرة تقع في الداخل من أرض فلسطين، وكانت من المدن الاستراتيجية في حقبة الحروب الصليبية، تبعد بمسافة خمسة وعشرين ميلاً (١٥٠ كم) عن الشمال الشرقي من القدس، وهي مشهورة بمياهها ومواردها الزراعية ولا سيما (التين) الذي كان يصدر منها إلى بقية المدن والأقاليم، استعادها السلطان صلاح الدين من الصليبيين سنة (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م)، ثم هدمها سنة (٥٨٧ هـ/ ١١٩١م)، تحسبًا لأي استيلاء عليها من قبلهم. للمزيد يُنظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، (بيروت: ١٩٩٧م)، ٤٢١/٤ – ٤٢٢؛ ابن شداد، **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، تحقيق جمال الدين الشيال، (القاهرة: ١٩٦٤م)، ص٨٠؛ هونيكمان، مادة الرملة، **دائرة المعارف الإسلامية**، ترجمة أحمد الشنتناوي وآخرون، (بيروت: د/ م)، ١٩٣/١٠ – ١٩٦.

(٢) عن سيرة حياة ومنهج عماد الدين الأصفهاني وأسلوبه الكتابي ومصادره في البرق الشامي، يُنظر: حكيم أحمد مام بكر، **عماد الدين الكاتب الأصفهاني ومنهجه التاريخي من خلال كتابه البرق الشامي**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة صلاح الدين – اربيل، (اربيل: ١٩٩٦ م)، ص ١٨ – ٤٩، ٥١ – ٨٠.

(٣) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، (بيروت: ١٩٨٠)، ١٩ / ١١.

(٤) الصفدي، **الوافي بالوفيات**، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، (بيروت: ٢٠٠٠)، ١١٩/١.

(٥) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ١٩ / ١١؛ عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**، (بيروت:١٩٩٣م)، ٥٨/٣.

(٦) عماد الدين الأصفهاني الكاتب، **خريدة العصر وجريدة القصر**، تحقيق: محمد بهجت الأثري، قسم العراق، (بغداد :١٩٥٥ م)، ٣ / ٣٣ – ٣٤.

(٧) عن المدرسة النظامية يُنظر: مريزن سعيد مريزن العسيري، **الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي**، (مكة المكرمة: ١٩٨٧م)، ص ٢٦٣-٢٨٥؛ مصطفى جواد، "**المدرسة النظامية ببغداد**"، مجلة سومر، (بغداد:١٩٥٣م)، مج٩-ج٢، ص٣١٧-٣٢٤.

(٨) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق بشار عواد معروف ومحيي هلال السرحان، (بيروت: ١٩٩٢ م)، ٢١ / ٣٤٥؛ كحالة، معجم المؤلفين، ٥٨/٣.

(٩) عماد الدين الأصفهاني، **ديوان عماد الدين الأصفهاني**، تحقيق ناظم رشيد، (الموصل: ١٩٨٣م)، مقدمة التحقيق، ص ٥ – ٦.

(١٠) حول ترجمة ابن هبيرة يُنظر: سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، (حيدر أباد:١٩٥١م)، ج٨ – ق٢، ص ٢٥٥-٢٦١؛ ابن خلكان، **وفيات الأعيان في إنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، (بيروت :١٩٦٨ م)، ٢٣٠/٦-٢٤٤

(١١) الأصفهاني، **خريدة القصر**، ٣/ ٣٦.

(١٢) المصدر نفسه، ٣/ ٥٦.

(١٣) ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، ١٩/ ١٢؛ كارل بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، نقله إلى العربية عبد الحليم النجار، (بيروت: ١٩٥٩م)، ٥/٦.

(١٤) **كمال الدين الشهرزوري**: هو أبو الفضل محمد بن عبد الله موصلي المولد والنشأة (٤٩٢-٥٧٢هـ / ١٠٩٨-١١٧٧م)، خدم عماد الدين زنكي حتى مقتله، بعدها قدم الشام فقربه نورالدين محمود وولاه منصب قاضي القضاة في دولته، وشغل المنصب ذاته في عهد السلطان صلاح الدين الايوبي حتى وفاته (٥٧٢هـ/١١٧٢م). للمزيد عنه يُنظر: العماد الأصفهاني، **خريدة القصر(قسم شعراء الشام)**، تحقيق شكري فيصل، (دمشق:١٩٥٩م)، ٣٢٣/٢؛ الذهبي، **العبر في خبر مَنْ غبر**، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن زغلول، (بيروت:١٩٨٥م)، ٦٣/٣.

(١٥) حول المدرسة النورية يُنظر: النعيمي، **الدارس في تاريخ المدارس**، أعد فهارسه إبراهيم شمس الدين، (بيروت: ١٩٩٠ م)، ١/ ٤٦٦-٤٩٨.

(١٦) ابن خلكان، المصدر السابق، ٥/ ١٤٨-١٤٩؛ نظير حسان سعداوي، **المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي**، (القاهرة: ١٩٦٢م)، ص٢٠.

(١٧) أبو شامة، **عيون الروضتين في أخبار الدولتين**، تحقيق أحمد البيومي، (دمشق: ١٩٩١م)، ص١٢٥.

(١٨) البنداري، **سنا البرق الشامي**، تحقيق رمضان ششن، (بيروت: د/ت)، ١٣١/١.

(١٩) أبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، تحقيق إبراهيم الزيبق، (بيروت: ١٩٩٧ م)، ٣ / ٢٢٤؛ بروكلمان، **تاريخ الأدب**، ٥/٦-٦.

(٢٠) ابن خلكان، المصدر السابق، ١٤٩/٥؛ يوسف درويش غوانمة، **إمارة الكرك الأيوبية**، (الكرك: ١٩٨٠ م)، ص٢٠.

(٢١) عن سيرة القاضي الفاضل يُنظر: أبو شامة، **الذيل على الروضتين**، تحقيق محمد زاهد بن الحسن الكوثراني، (بيروت: ١٩٧٤م)، ص١٧؛ هادية الدجاني شكيل، **القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني دوره التخطيطي في دولة صلاح الدين وفتوحاته**، (فلسطين:١٩٩٩م)، ص٢٤-٣٩،٨٢-١٨٥،١١٣-٢٠٣، ٢٥٥-٣١٨.

(٢٢) البنداري، المصدر السابق، ١٨٥/١.

(٢٣) عماد الدين الأصفهاني، **البرق الشامي**، تحقيق مصطفى الحياري، (عمان: ١٩٨٧م)، ٣ / ٣٣.

(٢٤) سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، ج٨ – ق٢، ص ٣٩٨.

(٢٥) عماد الدين الكاتب الأصفهاني، **الفتح القسي في الفتح القدسي**، تحقيق محمد محمود صبح، (القاهرة:١٩٦٥م)، ص١٠٦؛ سبط ابن الجوزي، المصدر السابق والجزء نفسه، ص٤٧٧؛ محسن محمد حسين، **الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين**، (اربيل:٢٠٠٣)، ص١٤؛ بينما توهم بروكلمان عندما ذكر بأنه رافق السلطان في كل حملاته، يُنظر: تاريخ الأدب، ٦/٦.

(٢٦) ابن الساعي الخازن، **الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير**، تحقيق مصطفى جواد، (بغداد :١٩٢٤م)، ٦٤/٩؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ٣٤٩/٢١.

(٢٧) ابن خلكان، المصدر السابق، ٥ /١٥٠؛ الذهبي، المصدر السابق،٣٤٩/٢١.

(٢٨) البرق الشامي، تحقيق مصطفى الحياري، (عمان :١٩٨٧م)، ص٣١ - ٣٦؛ دريد عبدالقادر نوري، **سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة**، (بغداد: ١٩٧٦م)، ص١٧.

(٢٩) **الكامل في التاريخ**، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، (بيروت :٢٠١٢م)، ٤٢٨/٩.

(٣٠) **حارم**: مدينة وقلعة منيعة، تقع أمام أنطاكية، وهي مشهورة بمواردها، وكانت من أعمال حلب، للمزيد يُنظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، ٢٠٥/٢.

(٣١) **الحروب الصليبية**، ترجمة حسن حبشي، (القاهرة :١٩٩٥م)، ٤ /٢١٢ – ٢١٣.

(٣٢) البرق الشامي، ٣١/٣.

(٣٣) المصدر نفسه، ٣١،٣٢،٣٣،٣٤،٣٥/٣.

(٣٤) **صلاح الدين الأيوبي: دراسات في التاريخ الإسلامي**، حررها يوسف ايبش، (بيروت :١٩٧٣م)، ١٢٦-١٢٧.

(٣٥) يُنظر: **الكامل في التاريخ**، ٩ / ٤٢٨. ويوازن مع نصوص العماد في البرق، ٣/ ٣١-٤١.

(٣٦) البرق الشامي، ٣/ ٣٢.

(٣٧) **بلبيس**: العامة تسميها بلبَيس، بينها وبين الفسطاط عشرة فراسخ (٦٠) كم، على الطريق الموجه إلى بلاد الشام، يُنظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ٣٧٧/١.

(٣٨) **وادي السدير**: مستنقع للماء تفرغ فيه فضلات نهر النيل، يُنظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، ٣٢/٣.

(٣٩) **البرق الشامي**، ٣٢/٣.

(٤٠) المصدر نفسه، ٣٦/٣.

(٤١) **الكامل في التاريخ**، ٤٢٨/٩.

(٤٢) **تاريخ الحروب الصليبية**، ٤ / ٢١٣.

(٤٣) **تاريخ دولة الأكراد والأتراك** (تاريخ دولة الأكراد)، تحقيق: موسى مصطفى الهسنياني، (دهوك: ٢٠١٠)، ص١٠٣.

(٤٤) **تاريخ مارميخائيل السرياني الكبير**، عربه عن السريانية، مارغريغوريوس صليبا شمعون، (دمشق:١٩٩٦م)، ٣/ ٣٣٩.

(٤٥) **تاريخ الرهاوي المجهول**، عربه عن السريانية البير أبونا، (بغداد: ١٩٨٦م)، ٢١٧/٢.

(٤٦) البرق الشامي، ٣/ ٣٢.

(٤٧) تاريخ مار ميخائيل، ٣/ ٣٢٩.

(٤٨) تاريخ الحروب الصليبية، ٤/ ٢١٣.

(٤٩) محمد سهيل طقوش، **تاريخ الحروب الصليبية**، (بيروت:٢٠١١م)، ص٤٥١-٤٥٢؛ عرب دعكور، **قيام الدولة الأيوبية**، (بيروت:٢٠١١م)، ص ١٦٦-١٦٧.

(٥٠) البرق الشامي، ٣٢/٣.

(٥١) المصدر نفسه، ٣/ ٣٢.

(٥٢) المصدر نفسه، ٣٣/٣.

(٥٣) المصدر نفسه، ٣/ ٣١-٣٦.

(٥٤) المصدر نفسه، ٣/ ٤٢-٤٥.

(٥٥) المصدر نفسه، ٣/ ٤٢.

(٥٦) هناك اختلاف بين رواية العماد والمؤرخين الاخرين، حول توقيت مهاجمة السلطان صلاح الدين لعسقلان فذكرانه، نزل عليها يوم (الأربعاء التاسع والعشرين من جمادي الأولى) المصدر نفسه، ٣٧/٣؛ في حين ذكر ابن الأثير بأنه هاجمها يوم (الرابع والعشرين منه)، الكامل، ٤٢٨/٩؛ بينما أشار ابن كثير، إلى تثبيت الحدث في شهر جمادي الأولى مع إغفال الإشارة إلى اليوم والتاريخ، يُنظر، **البداية والنهاية**، (بيروت :١٩٩١م)، ١٣/ ٢٩٧؛ أما المقريزي، فقال بأنه هاجم عسقلان في شهر جمادي الأولى ولم يحدد التوقيت أو التاريخ أيضًا، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق محمد عبد القادر عطا، (بيروت: ١٩٩٧م)، ويتفق النويري مع العماد حول تاريخ الهجوم بقوله (فوصل إلى عسقلان في يوم الاربعاء لليلة بقيت من الشهر)، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق نجيب مصطفى فواز وحكمت كشلي فواز، (بيروت :٢٠٠٤م)، ٢٩/ ٢٦؛ لكن المرجح هي رواية العماد الأصفهاني كونه هو الأقرب للحدث.

(٥٧) **الكامل في التاريخ**، ٩/ ٤٢٨.

(٥٨) **النوادر السلطانية**، ص٥٣.

(٥٩) أبو شامة، **الروضتين**، ٢/ ٤٦٢.

(٦٠) **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق جمال الدين الشيال، (القاهرة: ١٩٦٠)، ٥٩/٢.

(٦١) **الداروم**: ويسميها ابن شداد الدارون، وقد اتبعها بالرملة عند الفتح الصلاحي، **النوادر السلطانية**، ص٨٠.

(٦٢) **غزة**: مدينة تقع في أعلي الشام من ناحية مصر بينها وبين عسقلان فرسخان (١٢) كم، ياقوت الحموي، المصدر السابق، ٣٨٨/٣.

(٦٣) **تاريخ الحروب الصليبية**، ٤/.

(٦٤) **البرق الشامي**، ٣/ ٣٧.

(٦٥) **تاريخ مار ميخائيل**، ٣/ ٣٢٩.

(٦٦) وليم الصوري، المصدر السابق، ٢١٧/٤؛ دعكور، المرجع السابق، ص١٦٧.

(٦٧) **البرق الشامي**، ٣٧/٣.

(٦٨) وليم الصوري، المصدر السابق، ٢١٧/٤؛ سالم محمد الحميدة، **الحروب الصليبية**، (بغداد:١٩٩٣م)، ٢٣٧/٣.

(٦٩) حول سيرة أرناط وموقفه من المسلمين، يُنظر: طقوش، المرجع السابق، ص٣٤١-٣٧٠،٣٤٤-٤٦٧،٣٧١-٤٧،٤٦٩.

(٧٠) **النوادر السلطانية**، ص٥٣.
(٧١) **تاريخ دولة الأكراد**، ص١٠٣.
(٧٢) عماد الدين الأصفهاني، **البرق الشامي**، ٣/ ٣٧-٣٨؛ قاسم عبدة قاسم وعلي السيد علي، **الأيوبيون والمماليك**، (القاهرة: د/ت)، ص٤٣-٤٤.
(٧٣) وليم الصوري، **تاريخ الحروب الصليبية**، ٢١٦/٤.
(٧٤) البرق الشامي، ٣/ ٣٧.
(٧٥) المصدر نفسه، ٣٨/٣.
(٧٦) **تاريخ الحركة الصليبية**، ٤/ ٢١٨.
(٧٧) المصدر نفسه، ٤م ٢١٣-٢١٤، ٢١٩.
(٧٨) المصدرنفسه،٤/ ٢١٨.
(٧٩) البرق الشامي، ٣/ ٣٨.
(٨٠) المصدر نفسه، ٣٨/٣.
(٨١) المصدر نفسه، ٣٨/٣-٤٠.
(٨٢) ابن شداد، المصدر السابق، ص٩٧؛ مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص١٠٣؛ ابن واصل، المصدر السابق، ٥٩/٢؛ في حين يهمل ستيفن رنسيمان أية إشارة إلى دور أرناط كقيادي للجيوش الصليبية في معركة الرملة. يُنظر: **تاريخ الحروب الصليبية**، ترجمة السيد الباز العريني، (بيروت: ١٩٦٩م)، ٦٧٣/٢؛ وافقه في ذلك حميدة أيضًا، يُنظر: الحروب الصليبية، ٢٣٧/٣.
(٨٣) الرهاوي المجهول، **تاريخ الرهاوي المجهول**، ٢١٧/٢؛ وهذا ما أكد عليه حميدة بدوره، يُنظر: المرجع السابق، ٢٣٧/٣.
(٨٤) حول سيرة تقي الدين عمر، يُنظر: المنذري، **التكملة لوفيات النقلة**، (النجف:١٩٦٨م)، ٢٩٢/١؛ منذر الحايك، **العصر الأيوبي قرن من الصراعات الداخلية**، (دمشق:٢٠١١)، ص٩٧-١٠٣؛ سازان حسن إبراهيم، **الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي: دراسة في سيرته وعصره**.-رسالة ماجستير غير منشورة جامعة صلاح الدين – اربيل (اربيل: ١٩٩٤م)، ص ٣٨-٩٥.
(٨٥) **البرق الشامي**، ٣/ ٣٩.
(٨٦) المصدر نفسه، ٤٦/٣.
(٨٧) المصدر نفسه، ٣/ ٤٠.
(٨٨) وليم الصوري، المصدر السابق، ٢١٨/٤.
(٨٩) ميخائيل السرياني، المصدر السابق، ٣/ ٣٣٩؛ وقد وصف أحد الباحثين التوجه الديني للمؤرخين السريان بقوله :"أنهم جميعًا رجال دين غالبًا ما يميلون إلى تفسير الأحداث دينيًا انطلاقًا من قناعات دينية وفق مبدأ الثواب الإلهي وعقابه". يُنظر: مهدي صالح السليفاني، **الأيوبيون في كتابات المؤرخين السريان**، (أربيل:٢٠١٢)، ص٩٧.
(٩٠) **النوادر السلطانية**، ص٥٣.
(٩١) **السلوك**، ١/.
(٩٢) **تاريخ مارميخائيل**، ٣٤٠/٣.
(٩٣) **تاريخ الحروب الصليبية**، ٤/ ٢١٨.
(٩٤) **الطواشية**: على حد قول لينبول أن الكلمة مأخوذة من طاووس وتعبر عن الشخص الجميل، وهو الخصي، وهم المختارون من فئات راقية وأصبح بعضهم قادة كبار في جيش صلاح الدين. يُنظر سعداوي، المرجع السابق، هامش (٤)، ص١١٣؛ مجموعة من المؤلفين، **المعجم الوسيط**، (بيروت :٢٠٠٤م)، ص٥٧٠.
(٩٥) **القراغلامية**: وهم الصبيان أو الشبان من السودان، سعداوي، المرجع السابق، ص١١٣.
(٩٦) **تاريخ الحروب الصليبية**، ٤/ ٢١٩.
(٩٧) **البرق الشامي**، ٤٠/٣.
(٩٨) **الكنانية**: نسبة الى بني كنانة بن خزيمة، وتعود أصولهم إلى اليمن، وهم منتشرون في مناطق مختلفة، ومن أشهر أسرهم في مصر بنو جماعة قضاة القضاة، ويروى أنهم هاجروا إلى مصر بحدود (٥٤٥هـ/ ١١٥٠م)، يُنظر: ابن فضل الله العمري، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق كامل سلمان الجبوري، (بيروت :٢٠١٠)، ١٨٦/٤؛ القلقشندي، **قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان**، تحقيق إبراهيم الحياري، (القاهرة: ١٩٨٢م)، ص١٣٤-١٣٦؛ عمر رضا كحالة، **معجم قبائل العرب القديمة والحديثة**، (بيروت:١٩٩٧م)، ٩٩٦/٣.
(٩٩) **البرق الشامي**، ٣/ ٤١.
(١٠٠) حول ترجمة عيسى الهكاري، يُنظر: ابن شداد، المصدر السابق، ص ١١٦-١١٧؛ ابن كثير، **طبقات الشافعية**، تحقيق عبدالحفيظ منصور، (بنغازي: ٢٠٠٤م)، ٦٦٦/١.
(١٠١) **البرق الشامي**، ٤١/٣.
(١٠٢) المصدر نفسه، ٣٩/٣.
(١٠٣) **النجابين**: ومفردها (نجاب) وهو الشخص الذي يقوم بجمع لحاء الشجر لأن نجب تدل في اللغة على قشر الشجر وإزالة لحائها، للمزيد يُنظر: جوزيف نسيم يوسف، **العداون الصليبي على مصر**، (بيروت: ١٩٨١)، هامش (٢)، ص١٨٨.
(١٠٤) **البرق الشامي**، ٤٢/٣.
(١٠٥) المصدر نفسه، ٤٣/٣.
(١٠٦) **صلاح الدين وعصره**، ترجمة ممدوح عدوان، (دمشق: ١٩٩٣م)، ص٩٧ – ٩٨.
(١٠٧) لم نعثر له في المصادر على ترجمة، غير أن ياقوت أشار إلى بعض أبيات من شعره ويصفه بشاعر عصري أو معاصر، سبيل المثال، دابق ٢٧١/٢، فامية، ٤١٣/٣.
(١٠٨) **البرق الشامي**، ٥٠/٣.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

الوركاء
دراسة أثرية – تاريخية



إسماعيل شيخي أوسي
مدرس مساعد – قسم الفنون والآثار
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الجامعة اللبنانية–الجمهورية اللبنانية

مُلَخّصْ

برز في بلاد الرافدين العديد من المدن التاريخية التي كان لها دور بارز في إثراء حضارة الشرق العربي القديم بالمنجزات التاريخية ومنها مدينة الوركاء الخالدة وهي إحدى مدن بلاد سومر في جنوب بلاد الرافدين وكانت أول من أنار شعلة المعرفة من خلال اختراع الكتابة على أرضها والتي عثر عليها في الطبقة الرابعة (ب)، وكانت كذلك أرض المقدسات والمعابد في المنطقة حسب العقيدة التي كانت سائدة، فقد أظهرت التنقيبات أنها كانت تتألف من تجمعين سكانيين، مزدوجين، هما: تجمع أنا Eanna في الشرق، وتجمع كولابا Kullaba في الغرب. وعلى أرضها وجدت أبرز الفنون من عمارة وبناء ونحت وأدب وغيرها، حيث تم الكشف عن سور المدينة التي تعد من أقدم الاسوار في العالم، والذي بلغ طوله نحو ٩,٥ كم. كذلك ظهر نوع جديد من الأختام في الطبقة الخامسة من الوركاء هي الأختام الأسطوانية (Cylinder Seals). كما كانت الوركاء من أوائل المدن التي وجدت فيها الزراعة والصناعة ونظام الحكم وإقامة العلاقات السياسية مع جيرانها من دويلات المدن السومرية الأخرى. وكانت المدينة آنذاك والمنطقة عموما تسيطر عليها سلطة دينية، يمثلها كاهن المعبد الأكبر في المدينة، وكانت هذه السلطة مسؤولة عن كل نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية. وقد وجدت فيها العديد من المباني وأغلبها المعابد المتوضعة فوق بعضها بعضا، والتي تعود أصول الزقورة اليها، التي هي برج مدرج تعلوه حجرة الإله المعبود، وتُعَدّ الزقورة البناء المميز للحضارة الرافدية في العصور التاريخية. وقد بُنيت هذه المعابد بالآجر المفخور العادي والملون أثناء التنقيبات التي جرت خلال فترة طويلة ولكن ما يزال هناك المزيد مما تخبأه أرض هذه المدينة من أسرار نتيجة عدم استكمال التنقيبات الأثرية رغم كثرة البعثات التي عملت فيها.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٢ ديسمبر ٢٠١٧
تاريخ قبـول النشـر: ١٣ فبـراير ٢٠١٨

كلمات مفتاحية:

الملوك السومريون، سلالة الوركاء، العمارة الدينية، الحضارة المكتوبة، العمارة الدنيوية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0051251

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

إسماعيل شيخي أوسي، "الوركاء: دراسة أثرية – تاريخية".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة - العدد التاسع والثلاثين؛ مارس ٢٠١٨. ص٥٢ – ٦٣.

مُقَدِّمَةُ

الوركاء من المدن السومرية الضاربة في القدم والتي تقع بقايا أبنيتها في محافظة المثنى على بعد ٦٠ كم شرق مدينة السماوة، ويرجع تاريخ بناء هذه المدينة أول مرة إلى الألف الخامس قبل الميلاد. وقد أطلق عليها عدة تسميات منها التسمية السومرية (أوروك) وتعني المستوطن واونوك والورقاء وكذلك أطلقت عليها التوراة اسم (أيريخ) وكانت ذات مركز ديني مرموق. تتألف بقاياها اليوم من تلول أثرية تم تنقيبها وأخرى لم يتم تنقيبها وكانت هذه المدينة العريقة تقع على نهر الفرات ولكنها تبعد اليوم عنه كثيرًا بسبب ظاهرة تغير الأنهار لمجاريها. أما مساكنها الأولى ومعابدها فقد كانت مشيدة من الطين والحصران والقصب ووجدت بقاياها في أعمق طبقات المدينة (الشكلان ١ و ٢).

تعاقبت على هذه المدينة الكثير من الحضارات فسكنها السومريون فالأكديون فالبابليون فالكيشيون ثم حكمها الآشوريون فالكلدانيون ومن بعدهم الفرس الاخمينيون، ثم أنشأ فيها الإغريق والسلوقيون والفرثيون بنايات ما زالت بقاياها إلى اليوم. لقد تطرقت مباحث هذا البحث لعدة جوانب منها موقع وتسمية مدينة الوركاء وأدوارها الحضارية وبداية نشوء السلالات فيها واثبات الملوك السومريين حيث عرف من خلاله أهم ملوك سلالة الوركاء ومنهم لوكال زاكيزي وكلكامش ودموزي واتوحيكال.

كما تطرق البحث إلى اختراع السومريين للكتابة المسمارية في هذه المدينة وتُعَدّ هذه الكتابة من صميم حضارة وادي الرافدين ويعود تأريخ اختراعها إلى ٣٥٠٠ ق.م. حيث عثر في (أوروك) على رموز تصويرية وأرقام كتبت على ألواح طينية يطلق عليها اليوم الرقم الطينية وكان القصب البردي النبات الذي أستخدم لعمل الأقلام منه وذلك للضغط به على الطين الطري. وتحولت فيما بعد الرموز التصويرية إلى رموز مسمارية وقد انتشرت هذه الكتابة لاحقًا في بلاد عيلام وسوريا واستعملت في كتابة اللغة والمراسلات الحيثية والحورية وغيرها. أما أهم بنايات هذه المدينة فهي المعابد والزقورات والقصور حيث وجدت آثار ومبان على مستوى عالٍ من الرُقي ومنها أول نموذج للزقورة الذي صار السومريون وغيرهم فيما بعد يقيمون على قمتها أقدس شعائرهم الدينية. كما عُثِر في مدينة الوركاء القديمة أثناء التنقيب على العديد من اللقى الأثرية التي تدل على تقدم هذه المدينة في مضمار الفنون والأدب فقد نقش سكانها الألواح الحجرية والمسلات والأختام والآنية وأبدعوا في بناء واجهات المعابد بالفسيفساء ودونوا الحوادث التاريخية المختلفة.

أولاً: أصل التسمية

ورد اسم "مدينة الوركاء" في المصادر المسمارية بصيغة ($UNUG^{ki}$)[١] وهذا من خلال العصر السومري ألقديم كما جاءت التسمية في اللغة الأكادية بصيغة (unu^{ki}).[٢] أما في الكتابات البابلية فقد ورد بصيغة (uruk)[٣]، كما ورد اسم المدينة في جداول إثبات الملوك السومرية بأنها كانت تسمى (E-ANNA) نسبة إلى الحارة المقدسة ضمن مدينة الوركاء.[٤]

سُميت المدينة في ملحمة جلجامش باسم (أوروك ربيتم) وتعني أوروك العظيمة، و(أوروك سبوري) التي تعني مدينة الوركاء ذات الأسوار[٥]. لقد ورد اسم المدينة في العهد القديم باسم (أرك)[٦] أو (أرخ) (Erech)[٧]. وعرفت المدينة في المصادر الإغريقية باسم (Orugeia)، وفي المصادر اللاتينية عرفت باسم (Orchoi)[٨]. هناك من يعتقد بأن اسم المدينة يعني المستوطن، وأن اسم العراق قد جاء من تسمية uruk[٩] أو unuk التي تعني أيضًا المستقر، وهذه التسمية أطلق على منطقة محدودة من بلاد سومر وليس على بلاد الرافدين أجمعها[١٠]. لقد عرف اسم المدينة أيضًا بإسم الوركاء، الاسم الحالي للمدينة لدى المصادر والكتابات العربية ومنها عند ابن منظور[١١] وياقوت الحموي[١٢]، فضلاً عن المصادر الأجنبية والآثارية التي تسمى المدينة باسمها الحالي وهو اسم الوركاء من قبل المتحدثين بها.[١٣]

ثانيًا: الموقع

تقع أطلال (أوروك) وهي بقايا المدينة التاريخية المسماة حاليًا (الوركاء) في منطقة صحراوية حوالي منتصف الطريق بين بغداد والبصرة[١٤]، وعلى مسافة (٦٠ كم) شرقي مدينة السماوة وعلى بعد (١٢ كم) شمال شرقي مدينة الخضر ولم تزل بقاياها شامخة للعيان (الشكل ٣). وهي من أكبر المدن الأثرية جنوب بلاد الرافدين وأقدمها، وكانت تقع على الضفة الغربية من نهر الفرات ثم ابتعد عنها غربًا بسبب تغير الأنهار لمجاريها فهجرت فيما بعد،[١٥] ففي الجزء الجنوبي من بلاد الرافدين وهي المنطقة التي عرفت ببلاد سومر حدث تغير جذري ثوري حينها، وهو نشأة المدن حيث أصبح تجمع السكان في المدن ضرورة أملاها وجود الأنهار وكانت السيطرة على الأنهار والإفادة منها بشكل فاعل يستوجب التعاون على نطاق واسع من تعاون سكان القرى البدائية التي كانت سائدة أولاً.[١٦]

تتألف بقايا الموقع من تلول ومرتفعات وأعظمها ثلاث روابي كبيرة وروابي أخرى أصغر حجم[١٧]، ويظهر بقايا تلول متفرقة حول المدينة كالدائرة وتتركز في الجزء الجنوبي الشرقي للمدينة إذ جاء شكل المدينة أقرب إلى الدائرة الغير منتظمة يحيط بها سور دفاعي محصن يبلغ طوله ٩،٥ كم تقريبًا[١٨]، أما عدد سكان المدينة فهو يتراوح ما بين ٤٠ - ٥٠ ألف نسمة تقريبًا.[١٩] (الشكل٤)

تقع المدينة عند أطراف السهل الرسوبي في بيئة تسودها مياه المستنقعات التي تحد المدينة من الجهة الجنوبية الشرقية، الأمر الذي سبب الانحراف في مجرى نهر الفرات، بينما تتألف الأراضي في غربي المدينة من أرض ملحية تتكون من الرمال والحصى والصخور الرسوبية[٢٠]، لذلك يسود المدينة مناخ صحراوي تتفاوت درجات حرارته ما بين الليل والنهار بشكل متباين مع قلة الأمطار بسبب وقوعها على أطراف الصحراء الغربية[٢١]، أما في الجهة الشمالية فيحد المدينة نهر الفرات القديم إذ لا يزال مجراه القديم ظاهرًا على سطح الأرض ويُعرف حاليًا باسم شط النيل المندثر.[٢٢]

يُعتقد بأن مدينة الوركاء في أطوارها الأولى وحتى العصر السومري القديم كانت في الأصل تتألف من مستوطنين أو حارتين منفصلتين كما وردت في ملحمة كلكامش[٢٣]، أولهما وهي حارة كولاب التي ورد اسمها في كثير من النصوص المسمارية ومنها في أحد الملاحم المدونة على الرقم الطينية إذ يتحدث فيها (انميركار) ملك أوروك إلى الآلهة (إنانا) عندما استدعته أخته الطاهرة إلى مصنع طابوق في كولاب (حي من أحياء اوروك)[٢٤] الواقعة عند الجهة الغربية من مدينة الوركاء وفيه يقع معبد الإله آنو وزيقورته. أما في الجهة الشرقية من المدينة تقع حارة (آي-أنا) منطقة المعابد المقدسة الذي يقع فيه معبد الإلهة (إنانا-عشتار).[٢٥] (الشكل ٥)

تذكر المصادر المسمارية القديمة بأن مدينة أوروك كانت تقع على نهر (الأيتورونكال) أو يمر بالقرب منها، فهناك نص مسماري يؤرخ باسم حاكم مدينة أوروك (An-Am) الذي يذكر فيه بأنه سيد معبد للإله (Ganisurra) سيدة (Nun) أو (Ga-i-sur-ra) سيدة (الأيتورونكال)، وبعد هجر (An-Am) لهذا المعبد، لذلك أغلق وتحول إلى مدينة أوروك، وفي هذا النص أيضا يحدد مكان نهر (الأيتورونكال) بأقرب من مدينة أوروك. وهناك نص آخر يروي العلاقة الوثيقة بين القناة والمدينة كما ورد (على الحقول الرائعة لأوروك، خرافك ستأكل شعيري، وصغارك ستشرب الماء من (i_7-ud-nun)[٣٦].

ثالثًا: الأدوار الحضارية للوركاء

سُمي الدور الحضاري الذي تلا الطور الأخير من دور العُبيد بالوركاء نسبةً إلى موقع الوركاء المعروف[٣٧]، وهو الدور الخامس من أدوار العصر الحجري المعدني[٣٨]، حيث يتجه البحث الحديث في عصور ما قبل التاريخ في حضارة وادي الرافدين إلى تقسيم دور الوركاء إلى ثلاثة أطوار هي:

١- طور الوركاء القديم.
٢- طور الوركاء الوسيط.
٣- طور الوركاء الأخير.[٢٩]

لقد ارتأى جماعة من الباحثين حديثًا أن يطلقوا مصطلح العصر الشبيه بالكتابي (Proto-Literate) أو الشبيه بالتاريخي (Proto-Historic) على طور الوركاء الأخير[٣٠].

أخذ البشر يقطنون مدينة الوركاء منذ الألف الخامس قبل الميلاد وكانت حينذاك مدينة صغيرة تقع على هور كبير وكانت مساكنها بسيطة مشيدة بالطين والحصران والقصب وجدت بقاياها في أعمق طبقات المدينة وهي الطبقة الثامنة عشرة ثم طفقت الحياة تتقدم في هذه المدينة وتعاقبت فيها العصور والحضارات واستطاع المنقبون من تمييز نحو سبعة أدوار تاريخية رئيسية قسموها إلى طبقات ثانوية بلغ مجموعها معًا نحوًا من اثنتي عشر طبقة، ثم ميزوا تحت تلك الطبقات ثماني عشر طبقة أخرى وكلها ما قبل التاريخ، أعلاها عصر فجر السلالات أو ما يسمى بعصر (لجش) وفي آخرها وهي الثامنة عشر انقطعت آثار السكنى وبانت الأرض الغرينية البكر[٣١]، وكانت الوركاء في الأطوار الأولى من عصر فجر السلالات مؤلفة من قسمين يسمى أحدهما (أي-انا) نسبةً إلى حارة المعابد المقدسة ولاسيما معبد الآلهة (انانا-عشتار) والإله (آنو) والقسم الآخر يدعى (كلاب).[٣٢] (الشكلان ٦ – ٧)

رابعًا: أثبات الملوك السومريون

إن أهم ما يميز عصر (دويلات المدن السومرية) من الناحية السياسية إن بلاد الرافدين كان مجزئا إلى عدة دول - مدن (City-States) مستقلة ومنفصلة الواحدة عن الأخرى وكانت غالبًا في حالة نزاع وحروب من أجل الاستحواذ على الأراضي ومصادر مياه الري، وقد وجدت وثيقة تاريخية مسماة بـ (اثبات الملوك السومرية) تكشف لنا عن أسماء الملوك الذين ينتسبون إلى هذه السلالات[٣٣]، وأول ما يلفت النظر في (اثبات الملوك) أنها تبدأ بالقول أن "الملوكية هبطت من السماء" وحلت في خمس مدن بصورة متعاقبة وحكم فيها ثمانية ملوك خصصت لعهود حكم كل منهم رقمًا خياليًا، يذكرنا بالأعمار الطويلة المخصصة للنبي آدم (ع) وأحفاده والأنبياء القدامى في التوراة. والطوفان حدث بلغ من الأثر والجسامة عند سكان وادي الرافدين بحيث إن جامعي اثبات السلالات جعلوه حدًا فاصلاً بين عهدين متميزين في تأريخ البلاد[٣٤]. ويذكر الإثبات أن الملوكية حلت في (اريدو) أولاً قبل الطوفان واقترنت بأسماء ملوك حكموا حكمًا أعتبر اسطوريًا نتيجة لطول فترة حكم كل ملك فأحد الملوك حكم ٢٨,٠٠٠ سنة وآخر ٣٦,٠٠٠ سنة وهكذا. وكان المجموع ٢٤١,٠٠٠ سنة ثم جاء الطوفان وأغرق البلاد[٣٥]. وبعد الطوفان هبطت الملوكية من السماء وحلت في سلالتين هما (كيش) في شمال بلاد بابل و(أوروك) في الجنوب. وتوضح الأدلة الآثارية التغيير من (اريدو) أقدم مدينة إلى الوركاء كأحد مراكز الحضارة الأساسية في الجنوب[٣٦]، حيث تضم كيش اثنان وعشرون ملكًا، أما سلالة الوركاء الأولى فتضم إحدى عشر ملكًا أشهرهم (اينمركار) و(لوكالبندا) و(كلكامش). وعبر متابعة (قائمة الملوك السومرية) نلاحظ انتقال السلطة من الطبيعة الأسطورية في بدايتها إلى الطبيعة التاريخية بعد الطوفان[٣٧].

خامسًا: أهم ملوك سلالات الوركاء

شكلت في مدينة الوركاء أول سلالة حاكمة بحسب ما ورد في أثبات الملوك السومريين واتخذ ملوك هذه السلالة من المدينة كمركز سياسي لها وهذا خلال الألف الثالث ق.م[٣٨] وهي كما يلي:

١/٥- سلالة الوركاء الأولى:

التي حكم فيها اثنا عشر ملكا ولمدة (٢٣١٠سنة) كما وردت العبارة في أثبات الملوك السومريين (كيش ضربت بالأسلحة ونقلت ملوكيتها إلى (إي-انا)، والملوك هم:

(١/٥) ١- ميسكياجاشر (Mes Kiggasher):

تذكر المصادر التاريخية بأن مدينة الوركاء منذ تأسيسها برزت وهي تتحدى سيادة مدينة كيش لأنه بعد انتهاء حكم (ايتانا) ملك كيش بمدة وجيزة برز ملك جديد كان أسمه الذي وصفته أثبات الملوك السومريين بأنه لأبن الالهة آتو (شمش) وقد أسس سلالة قوية وطموحة في منطقة (اي-انا) من مدينة الوركاء أي (بيت ان) التي كانت تسمى بهذا الاسم في أيامه[٣٩]، وجاءت الإشارة بأن هذا الملك ابن اللإله، وما هذا إلا دلالة على تقديسه كونه ابن الثور الساطع الذي يحرص على نشر العدل والنظام والاستقرار، كلها عوامل ساعدته على تأسيس سلالة حاكمة في المدينة[٤٠] حاكمها يحمل لقب (EN) أو(EN-Eanna) وتعني سيد (اي-انا) ودام حكمه لمدة (٣٢٤ سنة) بحسب ما ذكرته أثبات الملوك السومريين وهذا رقم مبالغ فيه كما وصفته الإثبات بأنه وصل حتى البحر وتسلق الجبال، وربما يقصد بهذا البحر هو الخليج العربي أو البحر المتوسط أما الجبال[٤١] فهي في

شمال بلاد الرافدين وجميعها مؤشرات طموحة تدل على توسع نفوذ المدينة وتأمين امتداد حدودها[٤٢] وهذا يطابق الإشارات التي كشفتها أعمال التنقيب في المدينة التي أظهرت مواد نادرة عن البيئة الرافدية التي استعمله في بناء مرافق المدينة التي تدل على العلاقات التجارية الواسعة فضلاً عن الثروات الهائلة التي جنتها من الغزوات في وقت مبكر من تاريخ المدينة.[٤٣]

(١/٥) ٢- اميركار (En-mea-kar):

جاء بعد أبيه بحسب ما جاء في أثبات الملوك السومرية التي ادعت إليه بناء مدينة الوركاء خلال حكمه الذي بلغ (٤٢٠ سنة)[٤٤] كما وصفته إثبات الملوك بأنه الابن البكر للإله آتو (شمش) وسيد لأنانا المقدسة الإلهة العظيمة لمدينة الوركاء، كما جاء أسمه في عدة أدبيات سومرية حول ملوك الوركاء الأوائل، وجاء منها نصوص تصفه بما يحظى من أهمية خاصة في العلاقات مع الآلهة انانا التي ساعدته ليكون حاكم ديني، لذلك أله نفسه وجعل من نفسه ملك أسطوري[٤٥]، وقد ذكرت القصص الملحمية بأنه قاد حملة ضد حاكم مدينة اراتا التي دخلت في صراع مع مدينة الوركاء خلال حكمه إلا أنه تمكن من أخضعها والانتصار عليها[٤٦]. وتفيد الأخبار بأنه خلال حكمه قد قام البدو الساميين بغزو مدينة الوركاء[٤٧]، لذلك قد ورد أسمه أول الملوك الأبطال الثلاثة في مدينة الوركاء، إذ وصفت ست ملاحم لأحياء ذكرى الأعياد والمآثر البطولية لهؤلاء الأبطال العظام[٤٨] في الأدب السومري القديم وهو الملك اميركار والثاني لوكال باندا الذي جاء بعده لحكم مدينة الوركاء[٤٩].

(١/٥) ٣- لوكال باندا:

وهو أحد رسل اميركار الابطال ورفاقه في السلاح. كما يذكرون في الأدب السومري القديم بوصفهم آلهة أو انصاف آلهة خلال حياتهم وحتى بعد مماتهم[٥٠]، وقد ورد اسم لوكال في أثبات الملوك السومرية باسم الراعي وحكم لمدة (١٢٠٠ سنة)[٥١] وربما كانت هذه بالأصل مهنته في بداية حياته كما وردت بعض القصص السومرية بأنه كان والد الملك كلكامش[٥٢]، وليس كما يرى بعض الباحثين بأنه زوج أم الملك كلكامش إذ كان يكنى باسم (ليلو) التي تعني كاهنا أعلى كما لقب بكاهن كولاب[٥٣]، إلا إن أثبات الملوك لا تذكر بأن هذا الملك ينحدر من العائلة المالكية أو الكهنوتية ولا تشير إلى صلة القرابة التي تربطه بالملك اميركار[٥٤] إذ رافق اسمه سوية في ملحمتين من الملاحم الأسطورية السومرية فمن المؤكد بأنه كان حاكم محترمًا مثيرًا للإعجاب وقد أُله من قبلا رجل الدين السومريين وأعطيه مكانه في مجمع الآلهة السومرية لكن لم ترد أي معلومات حول منجزاته السياسية والعسكرية سوى مرافقته للملك السابق في حملة الى اراتا[٥٥] كما أشارت المصادر بأن اللقب لوكال (Lugal) دخل ولأول مرة مع اسمه في تاريخ مدينة الوركاء التي تعني من الناحية اللغوية الرجل العظيم أو الرجل الكبير[٥٦].

(١/٥) ٤- دموزي:

وحكم بعد لوكال باندا وهو الملك الرابع في سلالة الوركاء الأولى، واسمه باللغة السومرية (Dumu-zi) وفي اللغة الاكدية (Tummuz) الذي يعني اسمه الابن البار أو الابن الصالح[٥٧].

وقد وصفته إثبات الملوك السومرية بأنه كان صائد سمك واصله من (كوا) وحكم لمدة (١٠٠سنة)[٥٨] ومن ألقابه الأكثر انتشارًا هو دموزي الراعي الذي ورد في أكثر القصص الأسطورية[٥٩]، إله الخصب والنسل في الحيوانات والنباتات ذات صلة بغذاء الإنسان في بلاد الرافدين[٦٠]، فضلاً عن ألقاب عدة خلال النصوص الأدبية السومرية التي خلدت شخصية الملك دموزي، ويرى فلكشتاين إن تطور الخرافة إلى أسطورة ملحمية في المدن السومرية في بلاد الرافدين تضيفها إشارة عقائدية مما طورت هذه الشخصية الى إله أو نصف إله أي جعلته بمنزلة الإله المحلية المتعددة لهذا نسبت إليه صفات مناسبة له إذ أصبح شخصية هامة في شعائر الزواج المقدس السومري وأسطورة الإله المتوفي التي تركت أثر عميق في مجتمع بلاد الرافدين ومن المؤثرات الحضارية نسب اسمه إلى أحد أشهر السنة (شهر تموز)[٦١] وعلى الرغم من إلوهيته إلا أنه مات وهو الشاب الجميل عند السومريين التي أحبته الآلهة (أنانا) وتزوجته.[٦٢]

(١/٥) ٥- كلكامش (Gilgamesh):

جاء بعد دوموزي وهو الملك الخامس لسلالة الوركاء الأولى[٦٣]، والذي ينضوي معنى اسمه على القوة والبطولة والشجاعة ومنها (المحارب الذي في المقدمة)[٦٤]. أصبح كلكامش بطلاً أسطوريًا في عدد كثير من التأليف الأدبية السومرية[٦٥] في العالم القديم دون منازع من خلال ما أكسبته أعماله وشهرته الواسعة حتى أصبح البطل السومري الأسمى الذي تغنى به الشعراء عبر الأجيال وهذا من خلال ما ورد في الآداب السومري والأكدي[٦٦] وأشهرها ملحمة كلكامش إذ أدرك الملك كلكامش بعد رحلته بالبحث عن الخلود بأن الخلود يكمن بالإنجازات التي تخدم الانسانية لذلك شرع بعد هذه الرحلة بأعمار مدينة الوركاء ومن ضمنها بناء السور الذي يحيط بالمدينة سور الوركاء الشهير[٦٧] لذلك ارتبط اسم مدينة الوركاء باسم الملك كلكامش[٦٨]. وقد ذكرته أثبات الملوك السومرية بأنه أبن لولا (lulla) البدوي وحكم لمدة (١٢٦سنة)[٦٩] وأنه كاهن (كلاب) حارة في مدينة الوركاء[٧٠]. وفي زمنه حاول الملك أكا أن يخضع مدينة الوركاء تحت سيطرة كيش لذلك نشبت حرب بين الطرفين[٧١] وتوجه بجيشه باتجاه مدينة الوركاء وحاصرها لتبدأ الحرب من أجل السيادة على بلاد سومر[٧٢] وعرض الملك كلكامش هذا الأمر على مجلس المدينة إذ أشار إليه مجلس (رجال المدينة المحاربين) بأن مدينة الوركاء من صنع يد الآلهة وانتهت الحرب بالمصالحة ما بين كلكامش وأكا[٧٣].

جاءت الاشارات التاريخية المهمة الى أن الملك كلكامش الى جانب أبيه (لوكال بندا) بأنهما كانوا أبطالا مؤلهين ضمن نص للألواح (الأركائية) بحدود (٢٦٠٠ ق.م)[٧٤] التي تعود الى العصر السومري القديم[٧٥] من ضمن أسماء ملوك سلالة الوركاء الذين ألهوا أنفسهم، المكتشفة في مدينة شروباك (تل فارة) كما ورد اسمه ضمن الملوك الذين قاموا بتجديد بناء معبد انليل في مدينة نفر (نيبور) وهذا حسبما جاء في نص تمثال الذي ورد فيه اسمه الى جانب اسم ابنه الملك أور ننكال (Ur-nungal) والذي يعني رجل الإله ننكال.[٧٦]

(١/٥) ٦- أور ننكال (Ur-nungal):

كـان الملـك السـادس مـن ملـوك سـلالة الوركـاء الأولى إذ خصصت له إثبات الملوك السومرية لسنين حكمه التي بلغت (٣٠ سنة)[٧٧] كما ورد اسمه بصيغة (أور لوكال) ملك كيش[٧٨] إلا أن لم يعـرف عنـه الكثـير سـوى اسـمه الـذي درج ضـمن أسـماء الملوك مدينة الوركاء التـي وردت في نـص تمـال[٧٩]، ومنهـا عملـه الذي ذكرته النصوص المسمارية بأنـه قـد قـدم الـرمح الكبـير إلى الإله ننكرسو في مدينة لكش[٨٠].

وقد خلف هذا الملك من بعده ملوك ضعاف لا يعرف عنهم سوى أسمائهم التي وردت ضمن أثبات الملوك السومرية ومنهم الملك (أوتل كلاما utul-kalamma) ويعنـي اسـمه راعـي البـلاد وهـو الملـك السـابع لسـلالة الوركـاء الأولى وحكـم لمـدة (١٥ سنة)[٨١]. وجاء بعده الملك لاباخ (Laba-se) وهو الملك الثامن لسلالة الوركاء الاولى فقد حكم لمدة (٩ سنة)[٨٢] ثـم جـاء بعـده الملك التاسع هو الملـك (ايـن-ننـدار-انـا En-nun-dera-anna) والذي يعني اسمه الإلـه ننـدار سـيد السـماء إذ حكـم لمـدة (٨ سنة)[٨٣] وبعده حكم الملك مشيـدي (Meshede) الملـك العـاشر الذي حكـم لمـدة (٣٦ سـنة)[٨٤]. أما الملـك (مـيلام-انـا--Melan anna) ويعنـي اسمه ضـوء السـماء[٨٥] وهـو الملـك الحـادي عشرـ لسلالة الوركاء الأولى الذي حكم لمدة (٦ سنة)[٨٦]. وأخـيرًا؛ حكـم الملك (لوكال-كيـدو Lugal-Kidu) ويعنـي اسـمه ملـك الكتابـة وهو الملك الثاني عشر والأخير لحكـم سـلالة الوركـاء الأولى ودام حكمه لمدة (٣٦ سـنة) وبنهايـة حكـم هـذا الملـك انتهـى حكـم سلالة الوركاء الأولى.

٢/٥- سلالة الوركاء الثانية:

انتقلت الملوكية من الوركاء إلى مدينة أور بحكـم سـلالة أور الأولى لتنتقل الملوكيـة بـين المـدن القديمـة لتعـود مـرة ثانيـة إلى مدينة الوركاء لتأسيس سلالة حاكمة جديدة وهي سلالة الوركـاء الثانية التي حكم فيها ثلاثة ملوك[٨٧] ولا يعرف عنهم شيء سـوى ما ذكرته أثبات الملوك السومرية عن أسمائهم فقـط وعـن سـنين حكمهم. كان الملك الأول قد سقط أسمه مـن أثبـات الملـوك ولم يعرف سوى سنين حكمه التي دامت لمدة (٦٠ سنة)، وجاء بعده الملك الثـاني في سـلالة الوركـاء الثانيـة وهـو الملـك (لوكـال-اوري lugal-ure) ودام حكمه لمدة (١٢٠ سنة) ثـم جـاء بعـده الملـك الثالث وهو الأخير لسلالة الوركاء الثانية وكان أسمه (اركندا Ar-gandea) وحكـم (٧ سنوات فقـط) وبعـدها انتهـى حكـم هـذه السلالة لتنتقل الملوكية مرة أخرى الى مدينة أور[٨٨].

لكن هناك إشارة تاريخية أخرى تفيد بأسـماء لملـوك آخـرين لسلالة الوركاء الاولى وكان أولهـم هـو الملـك (ايـن-شـاكش-انـا En-sakus-anna)[٨٩] وكـان حكمـه بحـدود نهايـة القـرن (الخامس والعشرين ق.م) وقد أتخذ لنفسه لقب (اين En) كـما لقب نفسه بحاكم بلاد سومر[٩٠]. وجاء بعده الملك الثاني في حكم سلالة الوركاء الثانيـة وهـو الملـك لوكـال كينيشـدودو (Ki-nes-dudu) وهو من الملـوك العصرـ السـومري القـديم الـذي حكـم مدينة الوركاء وكان معاصرا لانتيمنا حاكم مدينـة لكـش إذ عقـد معه معاهدة كما أشارت الكتابات السومرية والمخلفـات الأثريـة بسيادة هذا الملك على مدينة اوما وأور وكيـش[٩١] وجـاء بعـده ابنه الملككيسالسي (Ki-sa-al-si) في حكم مدينة الوركاء[٩٢].

٣/٥- سلالة الوركاء الثالثة:

بعد سيطرة الملك لوكال زاكيزي ملك اوما عـلى بـلاد سـومر وضم معظم مدن السلالات السومرية الحاكمة وتوحيدها تحـت حكمه وكانت مدينة الوركاء من ضمنها[٩٣] التي أسس فيها سلالة حاكمة جديدة وهـي سـلالة الوركـاء الثالثـة (٢٤٠٠-٢٣٧٠ ق.م) ومنها اتخذ لقب ملك الوركاء إذ وصفته أثبات الملوك السـومرية بأنه مؤسس السلالـة الثالثـة في مدينـة الوركـاء[٩٤] وخلـف الملـك لوكال زاكيزي نصا مهـما منقـوش عـلى كسرـ إنـاء يصـف نفسـه مفـاخرًا بأنـه ملـك الوركـاء[٩٥] التـي أصـبحت الوركـاء عاصـمة لحكمه[٩٦]. وبعد تغلب الملك سرجون الأكدي عـلى الملـك لوكـال زاكيزي وأنتزع منه الزعامة والسلطة ومنها مدينـة الوركـاء التـي أصبحت تحت سيطرة الدولة الأكدية واتخذها الملـك سرجـون في بداية حكمه عاصمة له ولفترة[٩٧]. لكن اسـتمرت مدينـة الوركـاء بما تحظى من موضع احترام كبير لأنها مقر عبـادة الإلـه (انـو) والآلهة (انانا) المرتبطتان في معبد (اي-خرسـاك – كلامـا) بمدينـة كيش[٩٨] واستمرت كيبدو إن المدينة قد أصابها الضعف عـلى مـر العصور التي تلت العصر الاكدي وربما بسبب ابتعاد نهر الفـرات عـن المدينـة بمسـافة (١٨) كـم، مـما أدى إلى تـدهور الأراضي الزراعية بسبب زيادة نسبة الملوحة في التربة وتدهور نظام الري إلا إن المصادر الآثارية تشير إلى استمرار السكن في المدينة حتـى العصور الإسلامية إذ غدت آنذاك قرية صغيرة[٩٩].

وملوك الوركاء حسب ترجمة إثبات الملوك السومريين نصت على: هبطت الملوكية من السماء فكانت (اريدو) مركـز الملوكيـة ثم جاء الطوفان وجرف البلاد. وبعـد الطوفـان هبطـت الملوكيـة مرة ثانية وحلت في (كيش) ثم دحرت (كيش) في الحرب ونقلـت ملوكيتها إلى [(إي-انا) وهـي حـارة المعابـد المقدسـة في الوركـاء] وحكم في (أي-انا) كل من:

١- ميسكيكاشر (Meskiggasher)
٢- اينمركار
٣- لوكال بندا
٤- دموزي (Dimuzi)
٥- كلكامش
٦- أور- ننكال (Ur - Nungal)
٧- اودل كلاما (Udul kalamma)
٨- لباشر (Labasher)
٩- اين - ننداز - أنا (Ennundaranna)
١٠- مشيدي (Meshede)
١١- ميلام - أنا (Melam anna)
١٢- لوكال - كيدو (Lugal kidu)

ودحرت (أوروك) في الحرب فانتقلت ملوكيتها إلى (أور) وبعدها دحرت (أور) ونقلت ملوكيتها إلى (اوان) ثم دحرت (اوان) ونقلت ملوكيتها إلى (كيش) وبعدها دحرت (كيش) ونقلت ملوكيتها إلى (حمازي) بعدها دحرت (حمازي) ونقلت ملوكيتها إلى (أوروك) وفي (أوروك) حكم:

- لوكال اوري (Lugal ure)
- أركنديا (Argndea)

ثم دحرت (أوروك) ونقلت ملوكيتها إلى (أور) ودحرت (أور) ونقلت ملوكيتها إلى (أدب) . بعدها دحرت (أدب) ونقلت ملوكيتها إلى (ماري) وبعدها دحرت (ماري) ونقلت ملوكيتها إلى (كيش) ثم دحرت (كيش) ونقلت ملوكيتها إلى (أكشك) وبعدها دحرت (أكشك) وعادت السلطة إلى (كيش) وبعد ان دحرت (كيش) نقلت ملوكيتها إلى (أوروك) التي حكم فيها:

- لوكال زاكيزي (Lugal zagaesi)

ثم دحرت (أوروك) ونقلت ملوكيتها إلى (أكد) بعدها دحرت (أكد) وعادت السلطة إلى (أوروك) وفيها حكم:

١- أور - نكن (Ur nigin)
٢- أور - كيكر (Ur gigir)
٣- كُدا (Kudda)
٤- بوزر - ايلي (Puzur - ili)
٥- أور - اوتو (Ur - utu)

ثم دحرت (أوروك) ونقلت ملوكيتها إلى جموع الكوتيين. بعدها دحر الكوتيون ونقلت ملوكيتهم إلى (أوروك) وفيها حكم:

- اوتو - حيكال (Utu - Khegal)

ودحرت (أوروك) ونقلت ملوكيتها إلى (أور) ويبدأ حكم سلالة أور الثالثة ويعقبها سلالة (ايسن) حيث تنتهي اثبات الملوك بنهاية ملوك هذه السلالة.(١٠٠)

سادسًا: أهم المكتشفات في مدينة الوركاء

١/٦- الكتابة:

نظام الكتابة المسمارية هو من صميم حضارة بلاد الرافدين ويمثل أهم تأثير في العالم المحيط بها ويمكن تتبع أصوله إلى حوالي ٣١٠٠ ق.م. حيث عُثر في (أوروك) على رموز تصويرية وأعداد من ألواح طينية(١٠١) وكان أصل الكتابة متواضعًا ولم تظهر لنقل الدين ولا لنقل الأحداث التاريخية ولا لكتابة الأدب أو الأفكار الإنسانية في البداية بل لتدوين واردات وحسابات المعابد.(١٠٢)

(١/٦) ١- مراحل الكتابة:

كانت مرحلتها الأولى تصويرية أي أن أشكالها مشتقة من أشياء تراها العين في الحياة اليومية مثل: إنسان ومسكنه، حيوانات مدجنة، حيوانات الصيد، نباتات وخضروات مزروعة، أسلحة ومعدات منزلية وأدوات زراعية وفيما بعد أصبحت الكتابة بشكل علامات تحفر بأسلوب معين حيث تخط على رُقم الطين الناعم بخطوط مستقيمة يستدق طرفها بشكل مسامير ومن هنا جاء اسمها (الكتابة المسمارية) (١٠٣). وكانت اللغة السومرية هي اللغة الأولى التي دونت بها هذه الكتابة(١٠٤). أما اتجاه الكتابة فأنها كانت بالأصل تكتب من الأعلى إلى الأسفل ثم أصبحت تكتب من اليسار إلى اليمين.(١٠٥) (الشكلان ٨-٩)

(١/٦) ٢- مواد الكتابة:

مادة الطين كانت تمثل أجود مادة كتابية خصوصًا حينما يشوى وهو عبارة عن مادة رخيصة تدوم مدة طويلة. كما كان البردي النبات الذي أستخدم لعمل الأقلام للكتابة على قطع الطين الطري. وتربة العراق تضم أعدادًا هائلة من هذه القطع الطينية المكتوبة والمعروفة بـ(الرُقم الطينية) التي تغطي بتأريخها الفترة من قبل الألف الثالث ق.م. وحتى نهاية استخدام هذا النوع من الكتابة.(١٠٦)

(١/٦) ٣- أشكال وحجوم الرقم:

شكل وحجم هذه الرُقم الطينية فيختلف كثيرًا ففي حين كانت الأشكال الأولى على شكل بيضوي ودائري فقد كانت الرقم المتأخرة مستطيلة الشكل بصورة عامة أما الحجم فأن أكثر الرُقم ذات حجم صغير يمكن مسكها باليد.(١٠٧)

٢/٦- البناء وعمارة المعابد والزقورات:

لقد بدأت الوركاء قرية في العصر الحجري الحديث وأوجد انهدامها وإعادة بنائها بنفس المكان عبر تتابع العصور تلاً أرتفع ببطء فوق مستوى الهور. والأمتار العشرون الأولى [العد من الأسفل إلى الأعلى] من هذا التل الاصطناعي كانت تتألف كليًا من خرائب أكواخ البردي وأطلال بيوت الطين(١٠٨) فقد اختار الفلاحون في عصور ما قبل التاريخ في الشرق الأدنى مواد البناء حسب بيئتهم الجغرافية حيث استخدم سكان الوديان وأراضي الدلتا القصب المكسو بالطين أو قطع الطين التي تترك لتتصلب في الشمس، أما في الأراضي التي تكثر فيها الصخور فقد كان ميسورًا جمع الحجارة لبناء الجدران وبعد العصر الحجري الحديث أخذ الآجر المشوي يحل محل اللبن عند البنائين في بناء المعابد والزقورات لما لها من قدسية عند أهل البلاد(١٠٩).

إن افتقار أرض بلاد الرافدين بصورة عامة إلى الأحجار والمعادن وندرتها ولا سيما في القسم الجنوبي من بلاد الرافدين قد دفع العراقيين القدماء إلى استخدام الطين كمادة أساسية للبناء نظرًا لتوفرها في جميع أنحاء العراق وقلة أو انعدام كلفتها. فمنذ أن بدأ الاستقرار وبناء البيوت استخدمت كتل الطين لبناء الجدران واستخدمت أغصان وجذوع الأشجار والنخيل والباريات للتسقيف(١١٠). أما الآثار التي وجدت في الوركاء فوق أنقاض القرية هي أسس المباني الضخمة لمجموعة من المعابد وبالقرب منها الزقورة(١١١) أو (الصرح المدرج) وهي بناء صلد مؤلف من ثلاث إلى سبع طبقات مربعة أو مستطيلة الشكل مدرجة في السعة وتتناقص من حيث المساحة كلما ارتفعنا إلى الأعلى ويرقى إليها بواسطة سلالم خارجية وكان يشيد فوق الطبقة العليا من الزقورة معبد صغير هو (المعبد العلوي) ويعتقد ان بناء الزقورة قد تطور عن أسلوب بناء المعابد الأولى على مصاطب اصطناعية من اللبن وكانت جدران الزقورة الخارجية تؤطر بالآجر من حيث استخدام اللبن المجفف بالشمس.

شاع استخدام الزقورة في أنحاء بلاد الرافدين وقلما تخلوا مدينة مهمة من بناءها(١١٢) وأن أبرز ما يميز دور الوركاء الأخير هو وجود عدد من المعابد المهمة حيث كشف عن عدد منها في

منطقة معبد (أي-انا) وهو المعبد المخصص للآلهة (أنانا Inanna) كما شيدت معابد أخرى للإله (آنو)[١١٣] ففي المنطقة الأولى وجد ما لا يقل عن ستة معابد موزعة بين الطبقتين الخامسة والرابعة وقد شيدت على هيئة أزواج يتجاور كل معبدين لعبادة اله وقرينته وقد سمي أحد المعابد من الطبقة الخامسة بـ (المعبد الكلسي) لأنه أقيم على مصطبة من حجر الكلس وبرزت خلف معبد (انانا) زقورة متصلة بمعبد عرف في العصور التاريخية بمعبد الإله (آنو) وقد أطلق على هذا المعبد أسم (المعبد الأبيض)[١١٤] لوجود طلاء من الجص الأبيض في ظاهره وقد شيد هذا المعبد للإله (آنو) سيد السماء حسب عقيدتهم ولا يختلف مخططه كثيراً عن معبد (اي-انا) وتتجه زواياه نحو الجهات الأربعة.

لقد أعاد السلوقيون مجد الإله (آنو) بإقامة معبد جديد له حيث شيدوا بناية ضخمة من الآجر شمالي شرقي معبد (آنو) القديم عرفت ببناية (بيت ريش) خصص لعبادة الإله (آنو) وزوجته (انتم). كما شيد السلوقيون في جنوب (بيت ريش) بناية كبيرة من الآجر وكان بعضه مزججًا ذا لون أزرق وذات قاعات كبيرة وساحات واسعة كما عثر على أنقاض معبد كبير ازدانت جدرانه بالفسيفساء[١١٥] وهو أسلوب جديد في تزيين جدران المعابد ولاسيما واجهاتها، قوامه تغليف تلك الواجهات بصفوف من المخاريط أو المسامير الفخارية التي كانت رؤوسها تلون بألوان مختلفة وكانت هذه المسامير تثبت على واجهة المعبد بمادة لاصقة هي الطين بحيث تظهر رؤوسها ذات الشكل الدائري أو السداسي وتثبت بشكل هندسي جميل لتكون مربعات ومثلثات منتظمة.[١١٦]

في ساحة عند الزاوية الشمالية من أنقاض معبد الموزائيك شيدت في حفرة بناية باللبن المعروف عند الآثاريين باسم (ريمشن Riemchen)[١١٧] وهو لبن مستطيل الشكل مربع المقطع تقريبًا يرجع أول استعمال له في الطبقة السادسة من الوركاء واستمرت في الاستعمال إلى أطوار الوركاء التالية،[١١٨] كما تميزت جدران المعابد الخارجية بطراز عرف بنظام الطلعات والدخلات.[١١٩] وهناك بناية واسعة جدًا تقع في شمال شرقي الوركاء خارج سورها بعيدًا عن منطقة الأبنية على المرتفع المسمى (حمد ألوركي) شيدت بناية (بيت آكيتو) باللبن التي اتخذت لإقامة حفلات دينية خاصة لاسيما رأس السنة ولهذا سميت بالبابلية (بيت آكيتو) أي بيت الحفلات والولائم[١٢٠] وكان من الابتكارات الجديدة في عصر الوركاء القبو والعقادة وهما من العناصر المعمارية التي كان يظن بأنها من ابتكار المعمار الروماني إلى أن أثبتت المكتشفات الأثرية في بلاد الرافدين استخدامها منذ عصر فجر السلالات.[١٢١]

٣/٦- فن النحت:

بدأت أولى محاولات الإنسان في بلاد الرافدين في التعبير عن ذوقه الفني بشكل واضح منذ العصر الحجري المعدني وربما قبل ذلك بقليل عندما بدأ بتزويق الأواني الفخارية بالألوان والأشكال والأطرزة الفنية المختلفة، وفي هذا العصر طرق الإنسان أبوابًا أخرى للتعبير من خلالها عن ذوقه الفني وكان في مقدمتها فن البناء خصوصًا (المعابد) وكذلك النحت والنقش على الحجر وصناعة الفخار وغيرها[١٢٢]، فقد وجد في أطلال (أوروك) مجموعة من الأواني الحجرية ويظهر أنها من بقايا المعابد وقد بلغ قسم من هذه الأواني الذروة في دقة صنعها فبعضها على هيئة حيوانات صغيرة وبعضها مزين بتماثيل صغيرة والبعض منها مطعم بالصدف والفسيفساء، والواقع أن هذه المخلفات فريدة من نوعها بين آثار الفن القديم[١٢٣] كما عُثر على نوع من الفخار أوانيه مطلية وغير ملونة ولها طينة حمراء أو رمادية اللون وأبرز أشكالها الأقداح ذوات الحافات المائلة والأباريق ذوات الصنابير المعوجة والجرار ذوات الصنابير الطويلة والقدور ذوات العرى الأربع.[١٢٤] كما عُثر على قطع جميلة من المنحوتات أشهرها (مسلة صيد الأسود) الحجرية لأنها تمثل مشهد صيد الأسود بالنحت البارز (الشكل ١٠) وعثر أيضًا على رأس المرأة الأبيض الرخامي الجميل النحت (الشكل ١١) والإناء النذري المنحوت بمشاهد دينية كالكهنة والحيوانات (Votive Vase) مع رمز الآلهة (انانا/ عشتار)[١٢٥] وهذا الإناء مصنوع من الرخام وطوله أكثر من ثلاثة أقدام ونحت عليه نحتًا بارزًا بأربعة أفاريز أفقية تتناقص بالحجم من الأعلى إلى الأسفل وقد فسرت هذه الأفاريز على أنها ذات علاقة بالزواج المقدس في عيد رأس السنة في بلاد وادي الرافدين (الآكيتو) الذي اعتمدت عليه خصوبة البلاد.[١٢٦](الشكل ١٢).

٤/٦- الأختام:

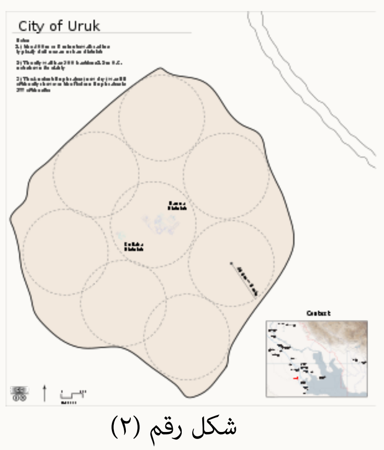
أما الأختام الأسطوانية (Cylinder Seals) فقد ظهر هذا النوع الجديد من الأختام في الطبقة الخامسة من الوركاء وكثر استعمالها بدل الختم المنبسط (Stamp Seals) المعروف منذ أطوار قديمة في الطبقة الرابعة.[١٢٧] وكان الختم الأسطواني على شكل أسطوانة صغيرة من الحجر لا يتجاوز حجمه غالبًا إبهام اليد وتختلف أقطاره ينقش بالحفر عليه بأشكال يمكن أن تطبع بشكل معكوس على الطين الطري عند دحرجته عليه وقد صنع لعدة أغراض حيث يعتقد ان الغرض الأصلي منه هو للمحافظة على الممتلكات فكانت المواد توضع في إناء وتغطى فوهته بالقماش أو الجلد وتشد بالحبل الذي يغطى بقطعة من الطين ثم تدحرج عليه نقوش الختم وذلك جعل من المستحيل العبث بالإناء بدون معرفة المالك،[١٢٨] (الشكل ١٣) كما كان الختم من المقتنيات الشخصية الملازمة لمعظم الأفراد ويُعَدّ من الناحية الفنية من أجمل ما أنتجه فن النقش والنحت حيث كان يحفر وينقش على الحجر صور مختلفة المواضيع والطرز وهو بمثابة التوقيع أو الختم لتوثيق العقود والمعاملات المختلفة وصار الكثير منها في العصور التاريخية التالية ينقش بكتابة جميلة موجزة قد تذكر اسم صاحب الختم وهويته.[١٢٩] (الشكل ١٤)

دراسات

خَاتِمَةٌ

يتضح مما تقدم؛ أن مدينة الوركاء كانت من المدن الأوائل في بلاد الرافدين التي شهدت المدينة خلال (الألف الرابع ق.م) وغدت مدينة عامرة بأبنيتها التي بلغت من الأنظمة العمارية المتطورة من حيث العمارة الدينية (عمارة معبد الكلسي، ومعبد آنو، وعبد أنانا..)، والعمارة الدنيوية ومنها العمارة العسكرية التي شهدتها المدينة في (الألف الثالث ق.م) التي جسدت بعمارة التحصينات الدفاعية لمدينة الوركاء فضلاً عن تشكيل ثلاث سلالات حاكمة قوية في المدينة خلال العصر السومري القديم حكموا خلالها من أعظم الملوك في بلاد الرافدين. إضافة إلى ذلك؛ تمثل حضارة أوروك عصر فجر الحضارة السومرية في بلاد الرافدين في نهاية الألف الرابع ق.م، وقد شهد هذا العصر ابتكار الكتابة التصويرية وتطورها إلى الخط المسماري.

يطلق على هذا العصر أيضًا اسم عام هو عصر "الحضارة المكتوبة"، وارتبطت به إنجازات مهمة على الصعيد التقني والحضاري، تمثلت في التدوين الموثق بمجموعة من العلامات والرموز من الطين، ورافق ذلك اختراع الختم الأسطواني لتوثيق الملكية. وعلى الصعيد التقني هيمن استخدام القرص السريع الدوار والعجلة في صناعة الفخار. وفي مجال الفنون عرف هذا العصر تطورًا مهمًا في نحت التماثيل واللوحات، وشهد المجتمع نوعًا من التخصص في الصناعات والحرف بعد أن توسعت المدن جغرافيًا وسكانيًا. وقد نشأت في هذا العصر سلسلة من المحطات البشرية التجارية صغيرة وكبيرة قامت على أطراف الطرق التجارية انطلاقًا من جنوبي بلاد الرافدين الفقير إلى المواد الأولية باتجاه الشمال الغربي على امتداد نهر الفرات وصولاً إلى هضبة الأناضول.



شكل رقم (٢)
تل الوركاء



شكل رقم (٣)
موقع أوروك

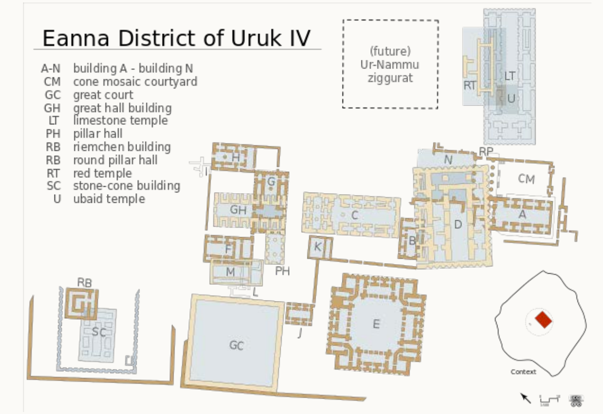
الملاحق



الشكل رقم (١)
مدينة أوروك



شكل (٤)
مخطط مدينة أوروك



شكل رقم (٥)

قطاع اي-انا



شكل رقم (٦)

تنقيبات أوروك



شكل رقم (٧)

حفريات أوروك



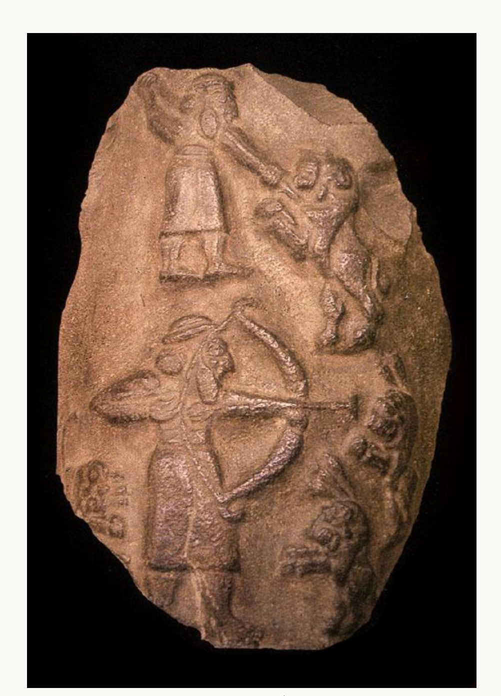
شكل رقم (٨)

ألواح أوروك



شكل رقم (٩)

الرقم الطينية في أوروك



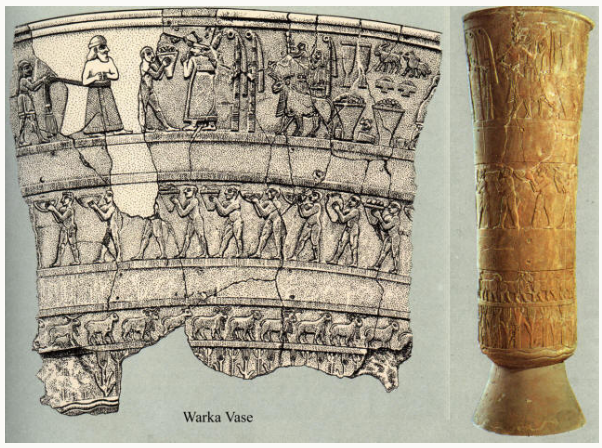
شكل رقم (١٠)

مسلة صيد الأسود



شكل رقم (١١)

رأس امرأة من المرمر



شكل رقم (١٢)
كأس الوركاء النذري


شكل رقم (١٣)
الأختام الأسطوانية


شكل رقم (١٤)
أحد المشاهد على الأختام الأسطوانية مع الكتابة

الهَوامِشُ:

(1) Kramer,S.N.,"Cuneiform studies and history of literature: The Sumerian sacred marriage texts", *proceedings of the American philosophical society*, voI.107, (1963) No.6.19, p.486

(2) Edzard, D.O, Dieorts and gewassr hames der par sargonischen und sargonischen Zeit, R,G,T,C,B. und I , Wiesbaden, 1977, p.171-173.

(٣) عبد الرازق، ريا محسن، **فجر الحضارة السومرية في ضوء أختام عصري الوركاء وجمدة نصر**، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد- قسم الآثار، ١٩٩٨، ص ٧٧-٧٨.

(٤) أوتس، ديفيد وجون، **نشوء الحضارة**، ترجمة لطفي الخوري، (بغداد، ١٩٨٨)، ص٢٩٩.

(٥) الأحمد، سامي سعيد، **كلكامش**، (بغداد، ١٩٩٠)، ص١٢.

(٦) العهد القديم، **سفر التكوين**، الاصحاح العاشر، الآية (٦).

(٧) فرانكفورد، هنري، **فجر الحضارة في الشرق الأدنى القديم**، ص٦٤.

(٨) رو، جورج، **العراق القديم**، ترجمة حسين علوان حسين، (بغداد، ١٩٨٤)، ص٥٥٨.

(٩) كيرا، ادوارد، **كتبوا على الطين**، ترجمة محمود عيسى الأمين، (بغداد، ١٩٦٤)، ص٢١-٢٦.

(١٠)سلمان، حسين أحمد، **كتابة التأريخ في وادي الرافدين في ضوء النصوص المسمارية**، (القاهرة، ٢٠٠٩)، ص٢٠.

(١١)ابن منظور، **لسان العرب**، مج١، (بيروت، ١٩٥٥)، ص٢٠٠.

(١٢)الحموي، ياقوت، **معجم البلدان**، مج٥، (بيروت، ١٩٥٧)، ص٣٧٢.

(١٣)فرنسيس، بشير وعواد كوركيس، **"نبذة تاريخية في أصول أسماء الأمكنة العراقية"**، سومر، ج١، مج٨، (١٩٥٣)، ص٢٤٠.

(١٤)رو، جورج، المرجع السابق، ص١٠٨.

(١٥)بصمة جي، فرج، **الوركاء**، مطبعة الرابطة، (بغداد، ١٩٦٠)، ص٥.

(١٦)ساكز، هاري، **عظمة بابل**، ترجمة عامر سليمان، (بغداد، ١٩٧٩)، ص٤٠.

(١٧)مكاي، **مدن العراق القديم**، ص٦٥.

(١٨)الياسري، حميد ياسر وصفاء جاسم محمد، **الوركاء-حضارتها -بيئتها- تخطيطها**، مجلة كلية الآداب، العدد (٨٠)، جامعة بغداد، (٢٠٠٧)، ص١٥٩.

(١٩)سلمان، حسين أحمد، المرجع السابق، ص٢٠.

(٢٠)إبراهيم، **الموقع الجغرافي للعراق**، ص٤٨.

(٢١)ساكز، هاري، المرجع السابق، ص٣٩.

(٢٢)الأعظمي، محمد طه، **"تخطيط المدينة العراقية القديمة-الشكل الخارجي"**، مجلة كلية الآداب، العدد ٥٦، جامعة بغداد، (٢٠٠١)، ص٣٤٥.

(٢٣)باقر، طه، **مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة**، ط١، (بغداد، ١٩٧٣)، ص٣٢١.

(٢٤)شترومنغر، ايفا وآخرون، **"بلاد ما بين النهرين القديمة"**، ترجمة قاسم مطر التميمي، مجلة دراسات تاريخية، العدد ٢٤، (بغداد، ٢٠١٠)، ص٦.

(٢٥)عبد الرزاق، ريا محسن، المرجع السابق، ص٧٧-٧٨.

(٢٦)سالم، خولة معارج خليل، **مدن على نهر الأيتورونكال في عهود السيطرة الأجنبية**، العراق من٥٣٩ ق.م حتى ٦٣٧م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد قسم الآثار، (٢٠٠٧)، ص٦٤.

(٢٧)باقر، طه، المرجع السابق، ص٢٣٣-٢٢٣.

(٢٨)باقر، طه وآخرون، تاريخ العراق القديم، ج١، (بغداد، ١٩٨٠)، ص٩٥.

(٢٩)باقر، طه، المرجع السابق، ص٢٣٣.

(٣٠)باقر، طه وآخرون، المرجع السابق، ص٩٥.
(٣١)بصمة جي، فرج، المرجع السابق، ص٥-٦.
(٣٢)باقر، طه، المرجع السابق، ص٢٩٠.
(٣٣) الطمان، عبد الرضا، **الفكر السياسي في العراق القديم**، دار الرشيد، (بغداد،١٩٨١)، ص٩٤.
(٣٤)باقر، طه، المرجع السابق، ص٢٩٨-٢٩٩.
(٣٥)الطمان، عبد الرضا، المرجع السابق، ص٣٨٩.
(٣٦)ساكز، هاري، المرجع السابق، ص٥٦.
(٣٧)الطمان، عبد الرضا، المرجع السابق، ص٣٨٩-٣٩٤.
(38) Leick, G. Who's Who in the Ancient Near East, New York, 1999, p.199.
(٣٩)كريمر، صموئيل نوح، **السومريون، تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم**، ترجمة فيصل الوائلي، ط١، (الكويت، ٢٠١٢)، ص٥٩-٦١.
(٤٠)الأحمد، سامي سعيد، المرجع السابق، ص١٢.
(٤١)باقر، طه، المرجع السابق، ص٣٢٢.
(٤٢)الأحمد، سامي سعيد، المرجع السابق، ص١٢.
(43)Ribard, A., La Prodigieuse histoire d'humanité, Paris, 1958, p.26.
(٤٤)باقر، طه، المرجع السابق، ص٣٢٢.
(45)Alster, B. An Aspect of Enmer-Kar and lord of Aratta, RIA, Vol.68, 1963, p.101-109.
(٤٦)كريمر، صموئيل نوح، المرجع السابق، ص٥٩.
(٤٧)ساكز، هاري، المرجع السابق، ص٥٤.
(٤٨)كريمر، صموئيل نوح، **الأساطير السومرية**، ترجمة يوسف داود، (بغداد، ١٩٧١)، ص.٣٧.
(49) Kraimer, S.N. op.cit. p. 486.
(٥٠)ساكز، هاري، المرجع السابق، ص١٣٣.
(٥١)باقر، طه، المرجع السابق، ص٣٢٢.
(٥٢)الأحمد، سامي سعيد، المرجع السابق، ص١٥.
(٥٣)حسن، محمد خليفة، **الأسطورة والتأريخ في التراث الشرقي القديم**، (بغداد، ١٩٨٨)، ص.٥٠.
(٥٤)القيسي، محمد فهد، **تداول السلطة في العراق القديم إبان الألف الثالث قبل الميلاد**، ط١، (دمشق،٢٠١١)، ص٢٣١.
(٥٥)كريمر، صموئيل نوح، **السومريون**، المرجع السابق، ص٥٩.
(٥٦)موسى، مريم عمران، **الفكر الديني عند السومريين في ضوء المصادر المسمارية**، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد، قسم الآثار،١٩٩٦، ص١٥٨.
(57) Felken, S.A, "Camp tel Rendu de la troisième Rencontre", RIA, Leiden 1950, p.41.
(٥٨)باقر، طه، المرجع السابق، ص ٣٢٢.
(59) Jacobsen,Th. Treasures of darkness, London, 1976, p.26.
(60) Jacobsen,Th. Toward the Image of Tammuz and other Essay on Mesopotamia history and other culture, Cambridge, 1970, p.73-74.
(٦١)كريمر، صموئيل نوح، **السومريون**، المرجع السابق، ص٦٠.
(٦٢)بارندر، جفري، **"المعتقدات الدينية لدى الشعوب"**، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، مراجعة عبد الغفار مكاوي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، (١٩٩٣)، ص٢٠.
(63) Leick, G.A. Dictionary of Ancient Near East Mythology, London, 1991, p.68-77.
(64) Foriong, J,G.R, "Encyclopedia of Religions", Vol.2, N.3, (1964) , p.142.
(65) Leick, G. op.cit, p.68-77.
(66) Diakonoff, I, M. "The City states of Sumer", in Diakonoff, I,M. Early Antiquity, Chicago and London, 1989, p.75.
(٦٧)الجناني، قيس حاتم هاني، **"فكر الموت والشعائر الجنائزية المقدسة عند السومريين"**، مجلة دراسات تاريخية، العدد (٢٢)، (بغداد، ٢٠٠٩)، ص٥٧.
(٦٨)عبد الرزاق، ريا محسن، المرجع السابق، ص٧٧.
(٦٩)باقر، طه، المرجع السابق، ص٣٢٢.
(٧٠)المرجع نفسه، ص٣٤١.
(71) Diakonoff, I, M. op.cit, p.75.
(٧٢)كريمر، صموئيل نوح، **السومريون**، المرجع السابق، ص٦١.
(٧٣)باقر، طه، المرجع السابق، ص٣٣٨.
(٧٤)مرعي، عيد، **تاريخ بلاد الرافدين منذ أقدم العصور حتى عام ٥٣٩ ق.م**، ط١، (دمشق،١٩٩١)، ص٣٤.
(٧٥)القيسي، محمد فهد، المرجع نفسه، ص٢١٥.
(٧٦)المرجع نفسه، ص١٦٧.
(٧٧)كريمر، صموئيل نوح، **السومريون**، المرجع السابق، ص٤٧٤.
(٧٨)لامبرت، موريس، **"عصر ما قبل سرجون"**، سومر، مج٩، ج١، (١٩٥٣)، ص٨٣.
(٧٩)القيسي، محمد فهد، المرجع السابق، ص١٦٧.
(٨٠)لامبرت، موريس، المرجع السابق، ص٨٣.
(٨١)باقر، طه، المرجع السابق، ص٣٢٣.
(٨٢)كريمر، صموئيل نوح، السومريون، المرجع السابق، ص٤٧٤.
(٨٣)باقر، طه، المرجع السابق، ص٣٢٣.
(84) Frogne, D. "The royal Inscription of Mesopotamia Early Periods", VoL.1, London, 1955, p.410.
(٨٥)جليل، باسمة، **"معاني بعض أسماء الملوك الواردة في جدول الملوك السومرية"**، العلوم الاجتماعية، (٢٠٠٢)، ص٣٩٩.
(٨٦)كريمر، صموئيل نوح، **السومريون**، المرجع السابق، ص٤٧٤.
(٨٧)باقر، طه، المرجع السابق، ص٣٢٣.
(٨٨)كريمر، صموئيل نوح، **السومريون**، المرجع السابق، ص٤٧٤.
(٨٩)باقر، طه، المرجع السابق، ص٣٤٢.
(٩٠)بوتيرو، جين وآخرون، **الشرق الأدنى- الحضارات المبكرة**، ترجمة عامر سليمان، (الموصل، ١٩٨٦)، ص٨٣.
(91) Salberger, E.& Kupper, S.R. "Inscription Royale sumériennes et Akkadiennes", paris, 1971, IRSA, PIE, p.20.
(92) Who's Who in the Ancient Near East, op.cit, p.98.
(٩٣)رشيد، فوزي، **الجيش والسلاح في عصر فجر السلالات**، الجيش والسلاح، ج١، (بغداد، ١٩٨٧)، ص٩٥.
(٩٤)باقر، طه، المرجع السابق، ص٣٥٨.
(٩٥)كريمر، صموئيل نوح، **السومريون**، المرجع السابق، ص٧٧.
(٩٦)ساكز، هاري، المرجع السابق، ص٦٢.
(97) Godd, C, T. "State of Babylonian under the dynasty of Agade", CAH, Vol.1, No.2, (1952), p.417
(٩٨)مكاي، المرجع السابق، ص٦٦.
(٩٩)إبراهيم، المرجع السابق، ص٤٨-٤٩.
(١٠٠) باقر، طه، المرجع السابق، ص ٢٩٠-٢٩٥.
(١٠١) بوستغيت، نيكولاس، **حضارة العراق وآثاره تاريخ مصور**، ترجمة سمير عبد الرحيم الجلبي، دار المأمون، (بغداد، ١٩٩١)، ص٢٨.
(١٠٢) ساكز، هاري، المرجع السابق، ص٤٣.
(١٠٣) بارو، اندريه، **سومر فنونها وحضارتها**، ترجمة عيسى سلمان وسليم طه التكريتي، (بغداد، ١٩٧٧)، ص١٤٣-١٤٤.

(١٠٤) حنون، نائل، **المعجم المسماري (معجم اللغات الأكدية والسومرية والعربية)**، ج١، (بغداد، ٢٠٠١)، ص٢٦-٢٧.
(١٠٥) إسماعيل، بهيجة خليل، **موسوعة حضارة العراق**، ج١، دار الحرية للطباعة، (بغداد، ١٩٨٥)، ص٢٢٨.
(١٠٦) اوبنهايم، ليو، **بلاد ما بين النهرين**، ترجمة سعدي فيضي عبد الرزاق، دار الحرية (بغداد، ١٩٨٦)، ص٢٩٢.
(١٠٧) ساكز، هاري، المرجع السابق، ص٤٣.
(١٠٨) الدباغ، تقي وآخرون، **المدينة والحياة المدنية**، ج١، دار الحرية للطباعة، (بغداد، ١٩٨٨)، ص٤٠.
(١٠٩) لويد، سيتون، المرجع السابق، ص٢٤٣.
(١١٠) سليمان، عامر، **العراق في التاريخ القديم: موجز التاريخ الحضاري**، دار الكتب، (الموصل، ١٩٩٣)، ص٣٤٢.
(١١١) الدباغ، تقي وآخرون، المرجع السابق، ص٤٠.
(١١٢) سليمان، عامر، المرجع السابق، ص ٣٤١.
(١١٣) باقر، طه، المرجع السابق، ص ٢٣٦.
(١١٤) الدباغ، تقي وآخرون، المرجع السابق، ص ٤١.
(١١٥) بصمة جي، فرج، المرجع السابق، ص ١٠-١٢.
(١١٦) سليمان، عامر، المرجع السابق، ص ٣٣٢.
(١١٧) بصمة جي، فرج، المرجع السابق، ص ١٣.
(١١٨) باقر، طه، المرجع السابق، ص ٢٣٧.
(١١٩) سليمان، عامر، **العراق في التاريخ (جوانب من حضارة العراق القديم)**، دار الحرية، (بغداد، ١٩٨٣)، ص ٢١٧.
(١٢٠) بصمة جي، فرج، المرجع السابق، ص١٤.
(١٢١) سليمان عامر، المرجع السابق، ص٣٣٢.
(١٢٢) نخبة من الباحثين العراقيين، المرجع السابق، ص٢١٦.
(١٢٣) وولي، ليونارد، **وادي الرافدين مهد الحضارة**، ترجمة أحمد عبد الباقي، (القاهرة، بلا.ت)، ص٢٧.
(١٢٤) نخبة من الباحثين العراقيين، المرجع السابق، ص٦١.
(١٢٥) باقر، طه وآخرون، المرجع السابق، ص٩٧.
(١٢٦) ساكز، هاري، المرجع السابق، ص٤٨-٤٩.
(١٢٧) باقر، طه، المرجع السابق، ص٢٣٨.
(١٢٨) ساكز، هاري، المرجع السابق، ص٤٦.
(١٢٩) باقر، طه، المرجع السابق، ص٢٣٨.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

مقالات

التواجد الفينيقي على ضفتي البحر الأبيض المتوسط الشرقية والغربية

شريف قوعيش
أستاذ وباحث في التاريخ القديم
جامعة عبد الحميد بن باديس
مستغانم – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

حسب الدراسات القديمة والحديثة يرجع بداية خروج الفينيقيين نحو البحر الأبيض المتوسط إلى نهاية الألف الثانية قبل الميلاد، من تأسيسهم لأقدم مستوطنات تجارية في اتجاهي البحر المتوسط الشرقي والغربي كمستوطنة مالطا وصقلية وقبرص في الشرق وليكسوس على الساحل المغربي الأطلسي، وأوتيكا على الساحل التونسي حاليًا، بالإضافة إلى مستوطنات أخرى منتشرة عبر سواحل البحر الأبيض المتوسط، ونجد أهم مستوطنة أسسوها في شمال إفريقيا وهي مستوطنة قرطاجة، هذه المستوطنة التي أصبح لها شأن كبير خاصةً بعد ضعف الذي ألت إليه المدن الفينيقية في الحوض الشرقي، وسمح لها أن تأخذ الريادة الاستراتيجية في البحر الأبيض المتوسط.

بيانات المقال:
تاريخ استلام المقال: ٠١ ديسمبر ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ١٦ مـارس ٢٠١٦

كلمات مفتاحية:
الفينيقيين، التوسع الفينيقي، المستوطنات، التجارة، شرق وغرب البحر الابيض المتوسط، قرطاجة، أوتيكا

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0051253

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
شريف قوعيش. "التواجد الفينيقي على ضفتي البحر الأبيض المتوسط الشرقية والغربية".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد التاسع والثلاثين؛ مارس ٢٠١٨. ص٦٤ – ٧٢.

مُقَدِّمَةُ

لقد كان لتوسع الفينيقي في البحر الأبيض المتوسط له عوامل متعددة جعلت الفينيقيين يعرفون مناطق بحرية وبريّة جديدة، من خلالها يتبين مدى وطبيعة هذه المناطق ومواقعها الجغرافية، ومـن المعـروف تاريخيًـا أن الفينيقيـين توسـعوا عـلى جبهتـين في البحر الأبيض المتوسـط، بـدايتها في شرق البحـر، ثـم غربـه، وقد تحكمت في هذا التوسع ظروف متعـددة معظمهـا كـان سـياسي، ففي البدايـة وبعـد التشـكل السـياسي للمـدن الفينيقيـة، بـرزت مدينتين قويتين على رأسها مدينة "صيدا" و"صور"، وأوّل مَنْ أخذ الرّيادة والسيادة الفينيقيـة كـان الصـيدونيين فعملـوا عـلى إنمـاء الحركة التجارية في شرقـي البحـر الأبـيض المتوسـط بعـد سـقوط البحريـة الإيجيـة[١]، وازدهــرت التجــارة في منطقــة الســاحل الفينيقي، ولكن الأمر لم يكن ايجابيًا في غاية الأهمية خاصةً بعد ســقوطهم بيــد الفراعنــة مصرــ (أمنحوتــب الأول"١٥١٧ق.م-١٤٩٦ق.م" وتحـوتمس الأول"١٤٩٦ق.م-١٤٩٢ق.م") حتـى أنهـم أصبحوا بمثابة تجار ينقلون البضائع للإمبراطوريات الكبرى حسب ما تتوفر فيه الإمكانيات المادية، ويظهـر عـلى أنّ الصـيدونيين لم يجاهروا عداوتهم لـ (تحوتمس الثالث) عند غزوه لسـوريا[٢]، وفي هـذه الظـروف قـد وصـل الفينيقيـون في عهـد سـؤدد صـيدا إلى مناطق واسعة بشرق البحر الأبيض المتوسط.

وبعد سيطرة صيدا خلال القرنين الثاني عشر، والحادي عشر ق.م، تراجعت وسقطت للأسباب متعددة وهي كالآتي:

- حدوث فوضى في القرن الخامس عشر ق.م خلال عهد سيتي الأول[٣] ومزاحمة قدماء اليونانيين السفن الفينيقية في البحر الأبيض المتوسط وغزو بعض القبائل الليبية[٤] الإفريقية بحرا ووصلوا إلى شواطئ بحيرة فرعون وتوسع سلطة الليبيين على مصر السفلى.
- افتتاح الإسرائيليين بلاد كنعان الجنوبية وطردهم "يشوع بن نون" من مواطنهم وتوطن فيها الشعب العبراني، بما غزا "يشوع بن نون" فينيقيا الجنوبية وصولاً إلى صيدا وقتل ثلاثة عشر ملكًا كانوا موالين لصيدا.

- هجوم الفلسطينيون مدينة صيدا في عام ١٢٠٠ ق.م، بعد سير أسطولهم من عسقلان وقد قاموا بفتح المدينة ودمروا كل ما فيها، وهنا ينتهي عهد صيد.[٥]

وفي هذه الظروف انتقلت الزعامة السياسية والدينية إلى مدينة "صور"، وحسب (لانرمون) تعود هذه الرّيادة إلى سنة ١٢٠٩ ق.م، وبقيت سيادة "صور" مستمرة ما يقارب خمسة قرون حتى حصار الآشوريين لها في عهد ملكهم "سرجون"، وقد أقرت مدن كبيرة كـ "بيروت" و"جبيل" و"سيميرا" بالسيادة الصورية على كل الفينيقيين[٦]، وهنا يفتح عهد جديد للبحرية الفينيقية في استكمال توسعاتهم نحو غربي البحر الأبيض المتوسط.

أولاً: مناطق توسع الفنيقيين

وعن الإطار الزمني للتوسع الفينيقي فالمصادر التاريخية تشير أنه وقع قبل القرن العاشر ق.م ذلك أن الموكينيين استمروا في سيطرتهم على الطرق في حوض البحر الأبيض المتوسط حتى عام ١٢٠٠ ق.م، وهو التاريخ الذي حدث فيه غزو شعوب البحر، وأدى إلى تراجع الموكينيين وظهور الفينيقيين على مسرح الأحداث حوالي عام ١١٠٠ ق.م أو قبل ذلك بقليل، ولم يستأنف الإغريق نشاطهم البحري إلا بعد انتهاء القرن التاسع ق.م، هذا ما ساعد الفينيقيين على ممارسة نشاطهم الاقتصادي في حوض البحر الأبيض المتوسط بحرية أكثر.[٧]

وفيما يخص المناطق التي توسع فيها الفينيقيون كانت متتابعة من الساحل الفينيقي حتى سواحل المحيط الأطلسي، ويتم حصر هذه المناطق فيما يلي:

١/١- ممفيس

(منف) وهي إحدى عواصم مصر، كان لها دور في الحضارة المصرية القديمة وحسب رواية "هيرودوت" أنه كان هناك جالية صورية في مدينة "ممفيس" عاصمة مصر الفرعونية، والحي الذي تقطن فيه هذه الجالية كان يدعى بـ "نزل الصوريين"، حيث كان هيكل الربة الغربية من أم الصورية، إضافة إلى ذلك تروي الأساطير أن أبناء المصريين ينحدرون من أم صورية وأنهم تزاوجوا مع بنات ممفيس،[٨] وكما عرفت تجارة الفينيقيين رواجًا كبيرًا بأحياء عديدة في مدن مصر السفلى والعليا، وكان كل ما يحتاج إليه المصريون خارج أرضهم يأتي إليهم الفينيقيون[٩] من بضائع مختلفة، وكذلك تعدد المراكب الفينيقية بنهر النيل وما لعبته من دور رئيس في عملية الشراء والبيع.[١٠]

٢/١-قبرص[١١]

تُعَدّ قبرص واحدة من بين أشهر الجزر التي شهدت حضورًا فينيقيًا مبكرًا حيث كانت أول محطة للفينيقيين في البحر لقربها من شواطئهم، فلقد سبق أهالي "جبيل" الصيدونيون إلى اكتشافها، لكن جبيل كانت مدينة مقدسة فيها المعابد والهياكل، لذلك كان اهتمامها بالدين أكثر منه بالتجارة، فقد أقام الجبيليون هيكلا فسيحا في "باخوس" غرب الجزيرة، وكان عمالها يخضعون لجبيل، إلى أن تبع جميعهم لسلطة صيدا، وكثر الصيدونيون في الجزيرة، حيث أصبحت بلدا فينيقيا.[١٢].

وحسب "فرديناند هوفر" (Ferdinand Hoefer) أن جزيرة قبرص كانت غنية بمعدن الحديد والنحاس، وقد افتتحها الحثيون والحماتيون من عشائر كنعان وبنوا فيها مدينة "سيتيوم" و"أماتونا" لكن بعد ذلك دخلها الصيدونيين بقيادة الملك "بيتوس" والتي نجدها في الآثار القديمة مؤكدة بأنها من مستعمرات "صيدا" القديمة[١٣]، وقد انطلق الفينيقيون في رحلاتهم البحرية نحو قبرص منذ الألف الثانية ق.م[١٤] باعتبارها تمثل مركزا حساسا، أسسوا بها العديد من المستوطنات في كل من "كيتون" و"ايدليون" (idalion) و"تماسوس" (thamassos)[١٥] و"بفوس" (paphos) و"كاربوسيا" (Karposia)، و"قيريني" (Kérynie)، و"لا بيتونت" (lapéthonte)[١٦].

ويضيف "جان مازيل" بأن التوسع الفينيقي اتجاه "قبرص"، بدأ مبكرا منذ أواخر الألف الثانية ق.م حيث أنشأ تجار "صور" و"صيدا" مراكز تجارية على ساحل الجنوبي للجزيرة ومع انطلاق التبادل التجاري المنظم، كان لزامًا على قبرص أن تعيش زمنًا طويلاً تحت كنف النفوذ الفينيقي التجاري والسياسي، ثم الثقافي خاصة بعد استغلال مناجم النحاس فيها لصنع البرونز،[١٧] وقد عرفت قبرص بوفرة ثروتها وذلك لما تمتلكه من أحجار ثمينة ومعادن والثروة النباتية التي تتشكل من أشجار الزيتون والكروم ثم الحبوب.[١٨] والآثار التي تدل على الاستيطان الفينيقي بقبرص هو ما اكتشفته البعثة الأثرية السويدية إلى الجزيرة عن أكروبول يعود للقرن الحادي عشر ق.م ويحتمل أنه بني بواسطة المستوطنين الفينيقيين الأوائل، وخاصة أن إعمار "قبرص" بسكان الساحل الآسيوي كان قبل استقلال المدن الفينيقية، وقد وجد نقش الفينيقي بقبرص يعود للنصف الثاني من القرن الثامن ق.م يحمل أسماء أحد حكام "صيدا".[١٩]

٣/١- رودس (Rhodes)

تابع الفينيقيون توسعاتهم باتجاه البحر الأبيض المتوسط، فبسطوا سيطرتهم على العديد من الجزر، فقد كانت رودس[٢٠] هي المحطة الهامة للفينيقيين بعد قبرص، فلم تكن لهم عناء كبير للوصول إليها، حيث اختلط سكان الجزيرة من "الكاريين" بالفينيقيين وتزاوجوا حتى أصبحوا شعبا واحدا ونقلوا الحضارة إليها،[٢١] وكانت رودس معروفة من قبل الإغريق بـ"الفينيقية" بسبب المنشآت والأسواق التي أقامها الصوريون فيها[٢٢]، خاصةً في مدينتين رئيسيتين "كامروس" (cameros) و"ايااليسوس" (Ialsos)، اللتين تم انشاؤهما من قبل شخص اسمه "فلاس" (phalas) قبل اندلاع حرب طروادة[٢٣] سنة ١١٩٠ ق.م وأن الإغريق قد طردوا الفينيقيين منها.[٢٤]

٤/١-تاسوس (Thasose)

وبعد "رودس" استوطن الفينيقيون جزيرة "تاسوس"، ويذكر "هيرودوت" "عندما ذهبت إلى تاسوس رأيت معبد هرقل الذي بناه الفينيقيون"[٢٥] ويضيف "أن سكان جزيرة تاسوس هم

الفينيقيون جاءوا من مدينة صور مع تاسوس ابن آجينور، ونصبوا معبد هرقل من أجل عبادته."[٢٦] وحول ثرواتها يشير هيرودوت "لقد رأيت بعيني مناجم الذهب فيها، وكانت قد اكتشفت من طرف الفينيقيون"[٢٧]، ومن خلال هذا الوصف يمكننا أن نعرف أن التنقلات التي عرفها الشعب الفينيقي كانت في غاية الأهمية من حيث الاكتشاف ومعرفة مصادر المعادن والمواد الأولية.

٥/١-مالطا (MALTE)[٢٨]

تُعَدّ مالطا من أهم جزر البحر الأبيض المتوسط التي عرفت وجود فينيقي قوي وهذا على غرار الجزر المجاورة لها، وتقع جزيرة "مالطا" جنوب صقلية تتكون من ثلاث جزر رئيسة وهي "مالطة" و"ڤوزو" (GOZO) و"كمينو" (CAMINO)[٢٩]، وكان اهتمام الكبير للفينيقيين بهذه الجزيرة لكونها محطة أمنية تطلق منها الملاحة الصورية إلى بلاد الغرب البعيدة، ووسعوا تجارتهم باتجاه المحيط الغربي، ووجدوا على سواحل البحر مراسي جيدة لسفنهم، ويرجع استيطان الصوريين لهذه الجزيرة إلى القرن ٨ ق.م، على الأقل[٣٠]، وحسب قول "ديودور الصقلي" أن سكان جزيرة مالطا كانوا من أصول فينيقية[٣١] وقد ساهمت الحفريات التي قام بها علماء الآثار من إيطاليا وبريطانيا في إثراء حول الحضور الفينيقي في هذه الجزيرة، وعلى ضوء المخلفات الأثرية التي تم جمعها يتضح أن الإلهة "تانيت"[٣٢](TANIT) كانت تعبد بمالطا بشكل واسع، وأن "هرقل" مالطا لم يكن سوى هرقل "صور"، كما تدل إحدى الكتابات التي عثر عليها قرب "سان لورنزو" في مالطا ورد ضمنها: "لسيدنا ملقرت بعل صور" على نصب مقدم من بعض التجار الصوريين هناك.[٣٣]

٦/١- صقلية (SICILE)

تعتبر جزيرة صقلية من بين المناطق الهامة التي عرفت حضورًا فينيقيًا واسعًا ومتميزًا، وحسب توكيديدس (Thucydides) ذاكرا أسباب قدوم الفينيقيين إلى هذه الجزيرة فيقول "لقد أحاط الفينيقيون بسواحل صقلية محتلين أجزاء من الجزيرة، وكانوا يتاجرون مع الصقليين، وبعدما تجمعوا في كل من سولوييس (سولويت) (Soloeis)، وبانرموس "بالارم" (Panormos).[٣٤]

وتشير الدلائل الأثرية المتوفرة حول بداية الحضور الفينيقي لصقلية منذ القرن ٨ ق.م أين عثر على شواهد فخارية في موقع "موتيي"(Motyé) بأقصى- غرب صقلية،[٣٥] وكما عرفت هذه الجزيرة حركة تجارية ملاحية كبرى تمر عليها السفن ولهذا نجد شيشرون[٣٦] يشهد بالحركة التجارية القوية التي كانت تعج بها شواطئ الجزيرة بقوله: "السفن من آسيا ومن سوريا ومن صور والإسكندرية محملة بالأرجوان الصوري".[٣٧]

وقد تناولت الدراسات التاريخية الحضور الفينيقي بصقلية من خلال تقسيم الجزيرة إلى قسمين أساسيين:

١- شرقي ومعظم بقاياه الأثرية العائدة إلى الفترة الباكرة ذات طابع إغريقي.

٢- غربي ومعظم بقاياه الأثرية يسود فيها الطابع الفينيقي[٣٨].

وكان غرض الفينيقيين من الاستيطان في جزيرة صقلية استراتيجيا أكثر منه تجاريًا[٣٩]، بسبب الموقع الممتاز للجزيرة وكذلك ما تكتسبه من الإمكانيات مادية معتبرة، مما إلى تصادم إغريقي- فينيقي بالجزيرة[٤٠]، ذلك أن الإغريق كانت لهم أهداف استغلالية للأرض مكونين مستعمرات زراعية، أما الفينيقيين سلكوا سياسة التحالف مع السكان الأصليين على أساس المصالح المتبادلة[٤١]، وفي ظل ندرة البقايا الأثرية بالجزيرة الأمر الذي دفع ببعض الباحثين إلى إخضاع شهادات الكتاب القدامى إلى نقد متشدد، انتهى بالبعض منهم إلى حد اعتبارها شهادات غير موثوق في صحتها[٤٢]، ومهما تضاربت الآراء حول الحضور الفينيقي في صقلية، يبقى البحر الأبيض المتوسط هو شاهد قوي على رواج التجارة الفينيقية في الجزيرة.

٧/١- سردينيا (Sardaigne)

ثبت في الدراسات الأثرية التي أجريت في جزيرة سردينيا بأن المستوطنات الفينيقية في هذه الجزيرة كانت قد انتشرت في الركن الجنوبي منها، وكانت أهم مدنها الفينيقية هي (نورا)[٤٣] (Nora) التي بنيت على شبه الجزيرة، وتتمتع بأهم ميناء في الجزيرة، وقد عثر على بقايا أثرية تتمثل في نصب تذكاري وجدت عليه كتابة فينيقية ثبت بعد فك رموز كتابتها بأنها تعود إلى نهاية القرن ٩ ق.م[٤٤] وإضافة إلى هذه المدينة توجد مدينة أخرى وهي "كراليس" «Caralis» و"كاقلياري" «Cagliari» التي تبقى عاصمة جزيرة سردينيا، وقد كانت الجزيرة غنية بخامات المعدن الفضة والرصاص والحديد، بالإضافة إلى موقعها الاستراتيجي باعتبارها طريق تجاري كبير بالنسبة للفينيقيين[٤٥] كما كانت أرضها مثالية لزراعة الحبوب، وكان خط الملاحة من شواطئ البحر الأبيض المتوسط الشرقية إلى إسبانيا والمحيط يسير على محاذاة شواطئ سردينيا الجنوبية، ولو سيطر على هذه الشواطئ شعب معادي للصوريين أو مزاحم لهم، لهدد مصالح الفينيقيين وكل مستعمراتهم الغربية[٤٦] خاصةً الإغريق الذين حملوهم في البحر الأبيض المتوسط.

أما عن تاريخ الوجود الفينيقي في سردينيا، فيرجع ذلك حسب بعض الروايات التاريخية إلى حوالي نهاية الألف الثانية ق.م، وذلك عندما أرغمت زوابع بحرية التجار الفينيقيين على النزول على شواطئ سردينيا الجنوبية الغربية[٤٧]، لكن لا توجد أدلة أثرية توثق هذا التاريخ، غير أن الفينيقيين كانوا قد ربطوا علاقاتهم التجارية مع شعوب إيطاليا منذ القرن ٨ ق.م.[٤٨]

٨/١- شبه جزيرة ايبيريا

وهي عبارة عن شبه جزيرة كبيرة في البحر الأبيض المتوسط، عرفت حضورًا فينيقيًا قويًا، وهذا حسب توجهات الفينيقيين المستمرة والمتواصلة في غربي البحر الأبيض المتوسط بل امتد نشاطهم إلى ما وراء أعمدة هرقل، ومن المعروف تاريخيا أن

الفينيقيين كانوا مشهورين بحبهم للبحث والاستكشاف عن المعادن الثمينة حتى ولو شقوا البحار والمحيطات، وقد كانت منطقة "قادس" «Cades»[٤٩] من بين المستوطنات الفينيقية الباكرة في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، وكان الغرض من تأسيسها هو اقتصادي بدرجة أولى بغية الحصول على خامات المعادن كالفضة والقصدير ثم النحاس واستبدالها بالمواد المصنعة التي كانت تجلب من شرق البحر الأبيض المتوسط.[٥٠]

وتقع جزيرة قادس في غربي اسبانيا طولها اثنا عشر ميلا قريبة من البر، بينها وبين البر الأعظم خليج صغير قد حازها إلى البحر عن البرّ[٥١]، وهي بالقرب من نهر "واد الكبير"[٥٢] «Guadalquivir»، ومن الناحية الطبوغرافية يلاحظ أن جزيرة قادس كانت منفصلة عن اليابسة بذراع بحري صغير يشبه النهر، وأن ضفتها المواجهة لمياه المحيط قد ارتفعت في وسطها انحناء ينتهي برأسين بنيت على أحدهما مدينة اسم نفس الجزيرة، أما الرأس الثاني فقد وجد عليه معبد للإله هرقل المصري.[٥٣]

أما عن تاريخ تأسيس مستوطنة قادس، فإن المؤرخ فيليوس باتركلوس (veleuis- paterculus) يعيد تأسيس قادس إلى زمن عودة الهرقليين (Heaclides) إلى البيلوبونيز والذي يؤرخ له بثمانون سنة بعد تحطيم طروادة،[٥٤] أما ما أورده "بلين الأكبر" في كتابه "التاريخ الطبيعي" عن تأسيس مدينة قادس يقول "إن الفينيقيين أسسوا مدينة قادس بعد ثمانين عامًا من سقوط طراودة"،[٥٥] وقد ذهبت بعض المصادر الكلاسيكية إلى أن الصوريين هم الذي بنوا قادس[٥٦] في حوالي ١١١٠ ق.م[٥٧]، وقد وردت رواية أخرى عند "ديودورالصقلي" في قوله "نجح الفينيقيون في مشاريعهم وجمعوا ثروات طائلة، فعقدوا العزم على عبور البحر الذي يمتد فيما وراء أعمدة "هيرقليس" ويسمى "أوقيانوس" وبادروا بتأسيس مدينة قرب ممر العمودين وسموها "بجديرة".[٥٨]

وواصل الفينيقيون توسعاتهم في شبه جزيرة ايبيريا حسب متطلبات اقتصادهم وتجارتهم وهنا يصف سترابون هذه التوسعات فيقول "إنهم استولوا قبل عصر- "هوميروس" على أفضل قسم من إيبيريا وأن الفينيقيين القادمين من صور إلى شبه جزيرة ايبيريا قد أخضعوها كلها لسيطرتهم"[٥٩]، وحسب ما تذكره المصادر التاريخية أن الفينيقيين عرفوا منطقة جديدة بعد قادس تدعى بترشيش[٦٠] (Tertessus) مع أن هناك اختلافات حول تسمية "ترشيش"، فمنهم من يعطي لها نفس الدور والمكان الذي أقيمت فيه مدينة قادس، وقد ورد اسم "ترشيش" في العهد القديم فيقول: "...لأن الملك كانت له في البحر سفن ترشيش مع سفن حيرام، فكانت سفن ترشيش تأتي مرة في كل ثلاث سنوات حاملة ذهبًا وفضة وعاجًا وقرودًا وطواويس"[٦١]، واسم "ترشيش" يمكن أن ينطبق على اسم «Tartessos» الوارد ذكره في نصوص قديمة وخصوصًا على لسان "هيرودوت"، فهذا الاسم لا يدل على مدينة، بل منطقة يمكن أن تكون واقعة في وادي بايتيس (Baetis) الأسفل، ويعني غنية بالعروق(الثروات المعدنية)[٦٢].

ولقد بقي استعمال مصطلح" ترشيش" شائعًا عند الفينيقيين في الغرب فهو ذو ارتباط وثيق بتسمية مدينة "ماستيا" الإسبانية، كما يرد أحيانًا أن ترشيش كان اسمًا حقيقيًا، فالمؤرخ "و.ف. أولبرايت" يرى أن هذه الكلمة اشتقاقًا ملموسًا من فعل (Rasas) (كسر) ويترجمها بكلمة منجم أو مصهر معتبرًا أن تلك التسمية كان تطلق على أي أرض غنية بالخامات، مع الإشارة أن ذكر "ترشيش" ورد لأول مرة في النقش الفينيقي الذي عُثر عليه في أرض "نورا" القديمة في سردينيا.[٦٣]

ومن خلال دراستنا لمنطقة "ترشيش" وما لعبته من دور سياسي واقتصادي في غربي البحر الأبيض المتوسط، يتبين لنا أن المنطقة كانت تحت إشراف البحارة الفينيقيين لزمن طويل رغم الصعوبات التنقل والبعد بينها وبين الوطن الأم، كذلك كان الغرض من تأسيس الفينيقيين لمستوطنة "قادس" على الساحل الأطلسي هو اقتصادي بدرجة الأولى خاصةً بعد اكتشاف المعادن الثمينة وازدياد الحاجة الملحة لهذه المعادن من قبل الشعوب البحر الأبيض المتوسط الشرقية، وإذا ما قارنا بين شرقي وغربي البحر الأبيض المتوسط نجد هناك تفاعل حضاري قوي جسدته البحرية الفينيقية وتلك المستوطنات التي تأسست بما فيها شبه الجزيرة الإيبيرية.

وعرف الانتشار الفينيقي في إسبانيا حضورًا قويًا في العديد من المدن مثل "مالقا" (Malaga) التي كانت مخصصة لتجفيف الأسماك وتمليحها، و"أبديرا" (Abdira)[٦٤] و"سيكسي" (Sexi)[٦٥]، ثم كرتايا (جزيرة على بعد 80 كلم من جبل طارق)، وعمر الفينيقيون هناك مدنًا كثيرة أقل أهمية[٦٦] من المدن الأخرى، وواصلوا توسعاتهم عبر سواحل أوروبا للوصول إلى جزر "كاستيريد" «cassitérides» و"كورنوال"[٦٧] «cornowall».

ثانيًا: محطات المغرب القديم

١/٢- مستوطنة أوتيكا[٦٨] (utique)

تقع مستوطنة أوتيكا على الطريق الرابط بين صور (Tyr) وقادس (cades)، وعلى سهول شمال تونس، كما تقع على مرتفع من الأرض عند مصب نهر (بجرادس) أهم أنهار تونس[٦٩]، وقد شيدها الصوريون وكانت هذه المدينة من المدن التي عرفت وجود فينيقي قوي من حيث العدد والعدة، وكانت كذلك من المدن الساحل الليبي فيتذكر في هذا الشأن سترابون بقوله أن "التجار الفينيقيين أسسوا مدنًا بالقرب من وسط الساحل الليبي بعد وقت قصير من نهاية حرب طروادة"[٧٠]، وتاريخيًا أن سقوط طراودة كان حوالي ١١٩٠ ق.م، ويضيف بلينوس بقوله "إن عمر خشب الأرز في معبد أبولو (Apolo) في أوتيكا قد بلغ ١١٧٨ سنة[٧١]، وحسب الكتاب المنسوب إلى "أرسطو" يروي أن أوتيكا شيدها الصوريون قبل قرطاجة بمئتين وسبع وثمانين سنة، أي سنة ١١٠١ ق.م.[٧٢] وحسب "فورستر" أن تاريخ تأسيس "أوتيكا" هو

نفس تاريخ تأسيس "قادس"[٧٣]، وبما أن سقوط طروادة كان حوالي ١١٩٠ ق.م، يتضح أن بناء "قادس" كان حوالي ١١١٠ ق.م، و"اوتيكا" فمنهم من يرى أنها بنيت حوالي ١١٠٠ق.م، ومنها من يرى أنها بنيت سنة ١١٠١ق.م، وهذه هي إشكالية الدراسات التاريخية القديمة التي تفتقر إلى تحديد تاريخ دقيق.

وبخصوص بناء مستوطنة "أوتيكا" يذكر المؤرخ "فرانسوا دوكريه" أن في وقت الذي استعان فيه "سليمان" ملك العبرانيين بالفينيقيين، كان قد زودهم بالمواد الغذائية مقابل تزويده بالمهندسين والفنيين والأخشاب، لكن بعد انتهاءه من بناء المعبد، توقف الملك عن عملية التمويل للفينيقيين، مما أدى بهم الأمر لبحث عن سبيل أخرى ومراكز تمويلية جديدة، فوجدوا مكانًا متوفرًا في سهول شمال تونس[٧٤]، أين تقع مدينة "أوتيكا"، وبالتالي تخلصوا من الحصار الاقتصادي الذي ضرب عليهم باستكشاف مناطق جديدة بلاد المغرب القديم.[٧٥] وقد كانت "أوتيكا" من بين المستوطنات القديمة التي ساعدت الفينيقيين على التوسع في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، وأكملت دربهم في استكشاف مناطق جديدة.

٢/٢- مستوطنة ليكسوس[٧٦] (Lixus)

كانت مدينة ليكسوس من أبرز المستوطنات الفينيقية القديمة التي أسست على سواحل المحيط الأطلسي، وتشير الكتابات التاريخية إلى أن تأسيس هذه المستوطنة يعود إلى نهاية القرن الثاني عشر ق.م، وقد تم تأسيسها على يد البحارة الفينيقيين الذين قدموا من شرقي المتوسط[٧٧]، وقد أشار "بلين الأكبر" أن "مستوطنة "ليكسوس" يمكن أن تكون أقدم من "قادس" أو "أوتيكا""[٧٨] وهذا حسب الدراسات القديمة. ويذكر "غانم محمد صغير" أن مدينة "ليكسوس" هي معاصرة لمدينة "قادس" وسابقة لمدينة "اوتيكا""[٧٩]، وربما هذه الاختلافات في تاريخ التأسيس راجع إلى نقص المادة الأثرية حول هذه المدينة، وعلى الرغم من الآثار التي عثرت عليها البعثة الألمانية بقيادة "بارث" «Barth» بين سنتي ١٨٤٥م و١٩٢٥م في الموقع نفسه[٨٠] فهي غير كافية في إعطاء تاريخ دقيق لتأسيس المدينة.

تقع "ليكسوس" حاليًا على تل مرتفع ببعد بـ(٣) كلم شرق "العرائش" على يسار الطريق الرئيسة المؤدية من الرباط إلى طنجة حيث تتناثر معظم المباني فوق ربوة الشميس وعلى منحدراتها وهي الربوة التي تشرف حواشيها الجنوبية والغربية على الضفة اليمنى لواد اللكوس[٨١]، وحسب "ستيفان غزال" أن قيام مدينة "ليكسوس" من قبل الفينيقيين كانت للأغراض استراتيجية أكثر منها اقتصادية[٨٢]. وعليه أصبحت لمستوطنة "ليكسوس" لها دور فعال وقوي في البحر الأبيض المتوسط خاصةً بعد تقوية روابط التجارية بينها وبين مدينة قادس بحكم القرب الجغرافي للمدينتين.

٣/٢- مستوطنة قرطاجة[٨٣] «carthage»

إن تأسيس مستوطنة قرطاجة يُعَدّ من أبرز المراحل السياسية التي مر بها الفينيقيون في شرقي وغربي البحر الأبيض المتوسط، لا من حيث تنظيم الحكم وسيادة شمال إفريقيا، وكذلك من حيث السيادة التجارية على حساب الوطن الأم، وبالنسبة لتاريخ تأسيس قرطاجة وحسب المصادر التي أوردها "ستيفان غزال" فقد أكد "فيليستوس" أن قرطاجة تم تأسيسها على يد رجلين من صور هما "أزاروس" و"كرخدون" في سنة ١٢١٣ ق.م، وهذا ما ذهب إليه وأكده "أدوكس الكندي" حيث قال "أسس الفينيقيون قرطاجة تحت قيادة "أزاروس" و"كرخدون" ببعض الزمان قبل حرب طروادة"، ونجد هذا الرأي أيضا عند "أبيانوس" الذي يقول "أن الفينيقيون أسسوا قرطاجة في ليبيا بخمسين سنة قبل الاستيلاء على طروادة وكان المؤسسان هما زوس وكرخدون."[٨٤]

وحسب ما أورده "ستيفان غزال" أن تأسيس مدينة قرطاجة كان أواخر القرن التاسع ق.م[٨٥]، لكن هناك جدل واسع في التاريخ الزمني المضبوط في تأسيس المدينة[٨٦]، إذ تكاد تتفق المصادر الأدبية القديمة على اعتبار سنة ٨١٤ ق.م سنة تأسيس قرطاجة، وهو التاريخ المألوف في الكتابات التاريخية عن هذه المدينة، خاصةً بعد أن ذكر "تيمايوس"، حسب رواية "أدوليس الهالكر- ناسي" أن تأسيس قرطاجة كان في ثمان وثلاثين سنة قبل الألعاب الأولمبية[٨٧]، وهذا يوافق سنة ٨١٤ ق.م، أما عن الآثار التي وجدت في المقابر البونية بقرطاجة والمتمثلة في أواني فخارية إغريقية - قبرصية ترجع إلى منتصف القرن الثامن ق.م[٨٨] وهي الفترة القريبة نوعًا ما من تاريخ التأسيس.

وكما أرجعت المصادر الأدبية تأسيس مدينة قرطاجة إلى أميرة تدعى "عليسة" «Elissa» وهذا محتوى الأسطورة التي أوردها "يوستينوس" «justin» (إن الحكم قد عاد بعد وفاة الملك "ماتان" (Mattan) إلى ابنته "عليسة" و"بيغماليون" (pygmalion)، وتزوجت "عليسة" الجميلة خالها "عاشر باص" كبير كهنة "ملقارت" الذي كان غني، ويخشى على ثروته من جشع الملك، فدفنها في باطن الأرض، لكن "بيغماليون" الذي قرر الاستيلاء عليها، لم يتوان في قتل خاله وزوج أخته في الوقت نفسه، وهنا شعرت "عليسة" بالخطر الذي يهددها، فقررت الفرار واحتالت على أخيها، وأبحرت بأموال زوجها وأتباعها إلى قبرص ثم إلى إفريقيا....)،[٨٩] وقد حملت "عليسة" معها من جزيرة قبرص نحو ثمانين فتاة ليكونوا أزواجًا للشباب الذين كانوا معها، وبعدها اشترت قطعة أرض بمقدار جلد ثور، فقطعت الجلد إلى قطع صغيرة رسمت وحددت عليها مدينة قرطاجة.[٩٠]

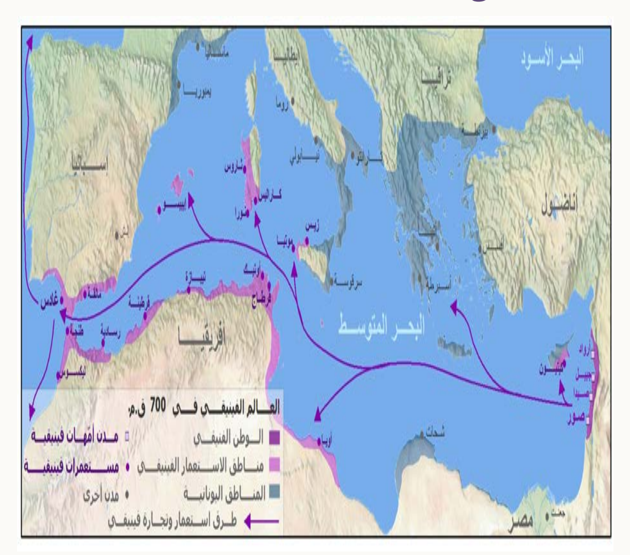
وإذا ما حللنا محتوى الأسطورة نجد أنها تمزج الخيال بالحقيقة، خاصةً بعد أن عرفنا أن الأوضاع السياسية للمدن الفينيقية خلال القرن التاسع ق.م عرفت صراعًا داخلي وخارجي ألحق الضرر بالبنية الاجتماعية للمجتمع الفينيقي، كذلك التطور الذي عرفته البحرية الفينيقية ساعد "ديدون عليسة" على مواصلة دربها نحو إفريقيا.

وعن موقع قرطاجة يذكر "فرانسوا دوكريه" أنها تقع على الساحل ومنفتح كبيرًا على الشرق باتجاه الخليج حيث تبدأ من "بيرصا"[٩١] راسمة في اتجاه الغرب قوس دائرة متصل ينتهي إلى الشمال من رأس سيدي بوسعيد الصخري[٩٢]، وهناك مَنْ يضعها في مرفأي "صلمبو" ودليل على ذلك ما عُثر عليه من بقايا الفخار القبرصي الفينيقي في أقدم الطبقات الأرض في مذبح "صلمبو"[٩٣]، وحددها "جان مازيل" في قوله " أقام الصيداويون مركزًا تجاريًا بسيطًا أطلقوا عليه مركز كامبي، وهو المكان الذي أسست فيه المدينة الجديدة قرطاجة"[٩٤]، أما "بوليب" "Polype" فيقول: "...قرطاجة تقع على شاطئ خليج مكونة شبه جزيرة محاطة بالماء من ثلاث جهات ويحدها من ناحية اليابسة برزخ بلغ عرضه خمسة وعشرون ستاد (أي حوالي ٤٤٤٠م)، يربطها بالقارة وهو صعب المسالك فيما عدا الطرق التي صنعها الإنسان...".[٩٥] وجغرافيًا نجد مدينة قرطاجة تقع بين مرتفعات تونس حاليًا، يحدها من الشمال والشرق البحر الأبيض المتوسط، أما داخليًا تونس كما هي عليه حاليًا، وبحكم الموقع الجغرافي للمدينة الشيء الذي جعلها تكتسب مكانة كبرى قديمًا في المجال التجاري والاقتصادي، خاصةً بعد أن أصبح لها دورًا في بناء السفن من خلال توفر أشجار الصنوبر والأرز[٩٦]، كذلك توفر الثروة السمكية وكثرة موانئها البحرية، هذا كله ساعد الفينيقيين على الاستقرار والاستيطان.

خَاتِمَةُ

تبين من خلال هذا المقال أن الفينيقيين كان لهم دورًا رئيسًا في تأسيس مجموعة من المستوطنات من شرق إلى غرب البحر الأبيض المتوسط، مما ساعد تلك الشعوب على معرفة المسالك والطرق البحرية وأسرار التجارة بأنواعها، فقد سكنوا شعور الإغريق والرومان وأصبحوا محل كتابات مؤرخيهم، وهذا بفضل تحركاتهم وتأثيراتهم الحضارية، كما كانت لهم أدوار تجارية واقتصادية فقد أصبحوا وسطاء في التجارة البرية والبحرية بين الشعوب القديمة خاصةً في الشرق الأدنى القديم والشرق الإفريقي (إلى جانب اليمنيون القدماء)، ومع غربي البحر الأبيض المتوسط، حيث كانوا يجلبون أنواع عديدة من البضائع ويستبدلونها بالأخرى خاصةً المعادن كالذهب والفضة والعاج وغيرها من المنتوجات محلية الصنع وأخرى مستوردة.

الملاحق



خريطة التوسع الفينيقي في شرقي وغربي البحر الأبيض المتوسط
http://explorethemed.com/PhoeniciansAr.asp

الهَوامِشُ:

(١) غانم محمد صغير، **التوسع الفينيقي في غربي البحر الأبيض المتوسط**، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ١٩٧٥، ص٦٥-٦٦.

(٢) سامي ريحانا، **شعوب الشرق الأدنى القديم**، نوبليس، ٢٠٠٦، ص١٩٢.

(٣) **سيتي الأول**: هو ابن رمسيس الأول ينتمي للأسرة "١٨" و"١٩" حوالي ١٣٠٤ ق.م، في عهده حققت مصر عدة انتصارات على الحثيين والميديين وشعوب البحر، كما أسس عدة معابد، للمزيد يُنظر: شارل شافية، **حضارة مصر الفرعونية**، ديوان المطبوعات الجامعية، ٢٠٠٩، ص٢١-٣١.

(٤) القبائل الليبية: ذكرها هيرودوت في كتابة الرابع وهي كالآتي: الآدرماخيداي (فقرة ١٦٨)، الجيليغاماي (١٦٩)، الأسبوستاي (١٧٠)، الاوسخيساي (١٧١)، الساموس (١٧٢)، السبولوي (١٧٣)، القمفزانتس (١٧٤) ، المكاي (١٧٥)، الجيندانس (١٧٦)، اللوتوفاجي (١٧٧)، المخلويس (١٧٨)، الأوسيس (١٨٠)، الأنزانتس (١٨٤)، يُنظر: هيرودتس، **كتاب التاريخ الرابع**، نصوص ليبية، ترجمة علي فهمي خشيم، منشورات دار مكتبة الفكر، طرابلس، ١٩٦٧، ص ٣٣-٤٢.

(٥) سامي ريحانا، المرجع السابق، ص١٩٣-١٩٤.

(6) Lenormand (F), Histoire des peuples orientaux, éditeur librairie A. Lévy, Paris, 1984, Pp. 193-194.

(٧) عبد الحفيظ فضيل الميار، **دراسة تحليلية للنقائش الفينيقية البونية في إقليم المدن الثلاث في ليبيا**، منشورات جامعة الفاتح، طرابلس، ليبيا، ٢٠٠٥، ص٢٣.

(٨) عرب معن، **صور حاضرة فينيقيا**، دار المشرق، بيروت، لبنان، ١٩٧٠، ص١١٩.

(٩) سامي ريحانا، المرجع السابق، ص٢٢٣.

(10) Lenormant (F); Op.Cit, P.135.

(١١) **قبرص**: ظهر اسم قبرص "chypre" في النصوص الآشورية بلفظة "يامنة" "yamna" أو "Amna" و"Awna" و"Yamna" وبلاد "yatnana" ولفظة "yâwân" ياوان هي عبرية وباليونانية "Ionien" للمزيد يُنظر:

Halévy (J); Mélanges de critique et d'histoire «relatif aux peuples Sémitiques» Maisonneuve et Cie, Libraires-éditeurs, Paris, 1883-P.35.

(١٢) سامي ريحانا، المرجع السابق، ص١٩٠.

(13) Hoefer (F. M), Carthage et le monde punique, Edition la belle lettre, Paris, 2006 - Hoefer (M.F), L'univers Chaldée, Assyrie, Médie, Babylonie, Mésopotamie, Phénicie, Polmyréne, Firmin Didot frère éditeur imprimerie librairie de l'Institut de France, Paris, 1852, P. 42.

(١٤) هنري عبودي: **معجم الحضارات السامية**، ط٢، جروس برس، طرابلس، ١٩٩١، ص٦٧٤.

(١٥) نفسه، ص٦٧٤-٦٧٥.

(16) Hoefer (F. M), op.cit, p.42.

(١٧) جان مازيل: **تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية**، ترجمة: ربا الخش، تقديم ومراجعة: عبد الله الحلو، ط١، سوريا، ١٩٩٨، ص٨١.

(١٨) جورج كونتينو، **الحضارة الفينيقية**، ترجمة: عبد الهادي شعيرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ١٩٩٧، ص١٠٥.

(١٩) أبو محاسن عصفور: **معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم "من أقدم العصور إلى مجيء الإسكندر"**، ط١، دار النهضة العربية بيروت، ١٩٨٤، ص٥٧-٥٨.

(٢٠) **رودس**: وهي جزيرة يونانية في بحر إيجة تقع بالقرب من الساحل الجنوبي الغربي لآسيا الصغرى تأثرت بالحضارة كريت (Crète) وتعرضت للغزو والدوري في نهاية الألف الثاني ق.م من أهم مدنها "لويدوس" و "إياليسوس" و"كاميروس" للمزيد يُنظر:

Michel Maure; Dictionnaire encyclopédique d'histoire, éd :Bordas, 1978, P.3873.

(٢١) سامي ريحانا، المرجع السابق، ص١٩١.

(٢٢) معن عرب، المرجع السابق، ص١٢١.

(٢٣) **طراودة**: (TROIE) مدينة قديمة في جنوب غرب آسيا، تأسست حوالي الألف قبل الميلاد، تقع حاليًا في مدينة هيكارليك تعرضت للتخريب عدة مرات نتيجة للحروب، وبحسب الأدلة التاريخية قد تعرضت المدينة لسبع حروب متتالية أخرها كانت في ١١٠٠ق.م: للمزيد يُنظر:
Grande Encyclopédie Larousse, Paris ,1971-1976, P13921, et Charles(V), La question du site de Troie, L'Antiquité classique (A .C), tome3, 1934, Pp.469-488.

(24) Moscati (S), Les Phéniciens, Editeur bel bord, Paris, 1989; P.49.

(25) Hérodote, Histoires, Tardieu par Larcher, charpentier, libraire éditeurs, Paris, 1856, II,44.

(26) Ibid, IV, 147.

(27) Hérodote, X ,47.

(٢٨) **مالطا**: اسمها سامي بمعنى ملط أي هرب، كما كذلك تعني الملجأ أو الملطى، للمزيد يُنظر: غانم محمد صغير، **التوسع الفينيقي**... المرجع السابق، ص٩٠، ويُنظر: معن عرب، المرجع السابق، ص١٢١.

(29) Michel (M), Op.Cit,P2811.

(٣٠) معن عرب، المرجع السابق، ص١٢١.

(31) Diodore de Sicile, Bibliothèque Historique, Tra: par Miot, librairie Hachette, Paris 1916,V,2-4.

(٣٢) **تانيت**: هي إلهة عبدت بالشرق وغرب البحر الأبيض المتوسط، كانت عبادتها مرتبطة بالقمر، بحيث يظهر الهلال، والقرص يعلوا رمزه في كثير من النصب النذري في المواقع الأثرية الفينيقية، للمزيد يُنظر: غانم محمد صغير، **الملامح الباكرة للفكر الديني في شمال إفريقيا**، دار الهدى، عين مليلة، ٢٠٠٥، ص٩١-٩٢.

(٣٣) معن عرب، المرجع السابق، ص١٢١-١٢٢.

(34) Thucydide; la Guerre de Péléponnèse, Traduction: Nouvelle et introduction par jean voilguin, librairie Garénier frères, paris, s. d, VI, 2,6.

ويُنظر:

Raymond (w), la Phénicie et l'Asie occidentale, libraire Armand colin, paris, 1939, P.179.

(٣٥) الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر، **قرطاج البونية تاريخ وحضارة**، مركز النشر الجامعي، تونس، ١٩٩٩، ص٧٣.

(٣٦) **شيشرون**: (M.Tullins cicero) (١٠٦م-٤٣م)، ولد في بلدة "أربينوم" "ARPINUM" في أراضي الفولكسي (حوض نهر ليريس)، عاش بروما وتعلم هناك وكان صاحب "يوليوس قيصر"، خدم في الجيش تحت قيادة بومبينيوس، تولى عدة مناصب عُليا سياسية وعلمية وأدبية، وألف عدة كتب في عدة مجالات منها خطبة المشهورة، للمزيد يُنظر: عبد اللطيف أحمد علي، **محاضرات في تاريخ الشرق الأدنى القديم**، مكتبة بريدية بيروت لبنان ١٩٧١، ص١٦-٢١.

(٣٧) معن عرب، المرجع السابق، ص١٢٢.

(٣٨) غانم محمد صغير، **التوسع الفينيقي**...المرجع السابق، ص٨٨.

(٣٩) غانم محمد صغير، المرجع نفسه، ص٨٩.
(٤٠) على الرغم من الصراعات التي كانت قائمة بين الإغريق والفينيقيين، إلا كان هناك تبادل حضاري قوي نذكر على سبيل المثال "تاليس الميلي" الذي كان أصله فينيقي فقد حمل الدراسات الفلكية التي اشتهر بها الفينيقيون على مجال البحري إلى اليونان ثم روما وهذا ما نجده عند الإغريق عندما برعوا في الملاحة وحركات الفيزيائية للسفن للمزيد، يُنظر:
A. du sain, Histoire de la marine de tous les peuples, libraire de filin didot frères, Paris, 1863.P.79.
(٤١) غانم محمد صغير، المرجع نفسه، ص٨٩.
(٤٢) بورينة الشاذلي، محمد طاهر: **قرطاج البونية**، مكتبة الإسكندرية، مصر، ١٩٩٩، ص٤٥.
(٤٣) **نورا** «NORA»: هي إحدى المدن الأثرية الهامة التي شهدت حضورًا فينيقيًا كبيرًا، وقد اشتهرت بحجر نورة، مع العلم أن المواقع البونية بسردينيا قد عرفت نشاطًا مكثفًا مكن الباحثين الايطاليين خاصةً أعمال الباحث "موسكاتي سباتينو" الذي أنشأ معهد للدراسات الفينيقية البونية بروما، وأشرف على عدة حفريات أثرية وله عدة إصدارات هامة. يُنظر: سلاطنية عبد المالك، **المستوطنات الفينيقية – البونية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط**، أطروحة دكتوراه العلوم في التاريخ القديم كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ والآثار، جامعة منتوري، قسنطينة، ٢٠١٠، ص١٤٢.
(٤٤) غانم محمد صغير، **التوسع الفينيقي**... ص٨٧.
(45) Hoefer (F.M); Op. Cit, P.44.
(٤٦) معن عرب، المرجع السابق، ص١٢٣.
(٤٧) غانم محمد صغير، التوسع الفينيقي... ص٨٧-٨٨.
(٤٨) نفسه، ص٨٨.
(٤٩) **قادس**: شبيهة بكلمة "جدار" بالعربية، وكلمة "أغادير" «AGADIR» بالبربرية تعني "جدار" أيضًا للمزيد انظر: فيليب حتى، **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**...، ص١١١، اسم قادس هو نفسه Gadir التي تعني بالفينيقية "قلعة أو حصن"، يُنظر: غانم محمد صغير، **التوسع الفينيقي**... ص١٣٢.
(٥٠) غانم محمد صغير، **التوسع الفينيقي**...، ص٨٢.
(٥١) ياقوت عبد الله الحموي، **معجم البلدان**، ج٤، ط٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠، ص٣٣٠.
(52) Raymond (W); Op.Cit, P180.
(٥٣) غانم محمد صغير، **التوسع الفينيقي**...، ص٨٣-٨٤. وكذلك يُنظر:
Gsell(S), Histoire Ancien de l'Afrique du nord, t8, libraire hachette, paris, 1927, P.405.
(54) Veleius (P), Histoire Romaine (H .R), Garnier, édition de pierre (H), (H), paris 1894, 1, 2,3.
(55) Pline l'Ancien, Histoire Naturelle, Traduire par Ajasson le grand sagne, Edition Panckoucke, Paris, 1829-1833, V, 76.
(٥٦) كان سقوط طراودة عام ١١٩٠ ق.م، وبالتالي يرجح لتأسيس قادس عام ١١١٠ ق.م، يُنظر: عبد الحفيظ فضيل الميار، المرجع السابق، ص٢٦.
(٥٧) فرانسوا دوكريه، **قرطاجة الحضارة والتاريخ**، ترجمة يوسف شلب الشام، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٩٤، ص٤٨.
(58) Diodore de Sicile, B.H , V,20.
(59) Strabon, Géographie, Tardieu, Amédée-libraire «01» Magritte et «c», Paris, 1967, XVII,3,15.

(60) **ترشيش**: إن اسم ترشيش الذي نصادفه في كتابات التوراة هو اسم فينيقي بالأغلب بمعنى المنجم أو مكان الصهر أو معمل التكرير، هذا وقد اكتسبت تسمية "ترشيش" بسبب بعد البلاد أو أبعد البلاد التي بلغتها التجارة الفينيقية، وذهب الباحثين إلى أن ترشيش هي طرسوس في فينيقيا، للمزيد يُنظر: محمد بيومي مهران، **مصر والشرق الأدنى القديم " المغرب القديم"**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٠، ص٢٧٥.
(٦١) **الكتاب المقدس**، سفر الملوك الأول ١٠: (٢٢-٢٣).
(٦٢) فرانسوا دوكريه، المرجع السابق، ص٤٩.
(٦٣) يولي برکوفیتش تسيركين، **الحضارة الفينيقية في إسبانيا**، ترجمة يوسف أبي فاضل، بيروت، لبنان، ١٩٨٧، ص٢٩.
(٦٤) **أبديرا**: حاليًا بالماريا تقع على سواحل المتوسط على بعد ٤١٠ كلم من مدينة مدريد الاسبانية. يُنظر: سامي ريحانا، المرجع السابق، ص١٩٦.
(٦٥) غانم محمد صغير، **التوسع الفينيقي**...، ص٨٥.
(٦٦) سامي ريحانا، المرجع السابق، ص١٩٦.
(٦٧) محمد الخطيب، **الحضارة الفينيقية**، ط٢، دار علاء الدين للنشر، دمشق، سوريا، ٢٠٠٧، ص٧١، ويُنظر: غانم محمد الصغير، المرجع السابق، ص٧٤.
(٦٨) **أوتيكا** UTICA أو العتيقة بمعنى القديمة، وهي لفظ فينيقي تعني كذلك بـ "المحطة" و"الرائعة" أو "المستعمرة"، للمزيد يُنظر: مهران محمد بيومي، المرجع السابق، ص١٨٤، ومعن عرب، المرجع السابق، ص١٢٧.
(٦٩) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص١٨٤.
(70) Strabon, 1, 2,3.
(71) Pline L'Ancien, H.N, V, 76.
(٧٢) معن عرب، المرجع السابق، ص١٢٧.
(73) Forster (M); Op-Cit, P.12.
(٧٤) **تونس**: حسب المعلومات التاريخية أن اسم "تونس" مأخوذ من لفظة توناتوم «Thunetum»، توناتا «Tuneta»، تونات «Tunes»، تونيزوم «Tonisum»، أما باللفظ العربي "تونة" «Tounal»، تونات «Tounet» "تونس" «Tunis»، وكما تأسست عام ٩٠٠ ق.م، للمزيد يُنظر:
Mignard (M.P); Histoire générale de la Tunisie (depuis l'an 1590 A.C), Librairie et challement Siné, Paris, 1883, p3.
(75) Decret (F), Carthage ou l'empire de la mer, éd: Du seuil, 1977, p41.
(٧٦) عرفت مدينة ليكسوس في الماضي باسم مدينة تشميش (Tchemich) أي مدينة الشمس. يُنظر: غانم محمد صغير، المرجع السابق، ص٩١، ومعن عرب، المرجع السابق، ص١٢٧.
(٧٧) غانم محمد صغير، المرجع السابق، ص٩١.
(78) Pline L'Ancien, H.N, XIX, 63.
(٧٩) غانم محمد صغير، المرجع السابق، ص٩١.
(٨٠) المرجع نفسه، ص٩٣.
(٨١) جيروم كركوبينو، **المغرب العتيق**، ترجمة: محمد التازي سعود، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ٢٠٠٨، ص٧٦-٧٧.
(82) Gsell (S) ; H.A..A..N. T 01, p361.
(٨٣) **قرطاجة**: اسم قرطاج الفينيقي مشتق من كلمتي "قرت حدشت" بمعنى المدينة أو القرية الحديثة، انظر: **المدن الفينيقية "تاريخ لبنان القديم"**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت لبنان،١٩٩٤، ص١٨١.
(84) Gsell (S); H.A.A.N.T 01, Pp.374-375

(85) Ibid, Pp.395-400.

(٨٦) فيما يخص تاريخ التأسيس هناك من يعطي إطار زمني بعيدًا عن المعروف عليه تاريخيًا، فمثلاً في بعض المراجع نجد سنة ٨٦٩ ق.م، انظر: lenormant (F), Op.Cit,p147.

(87) Gsell (S); P.397.

(88) Fantar (M,H), Carthage approche d'une civilisation, T01, Alif édition de la méditerrané Tunisie, 1993, Pp.1.

(89) Justin, Histoire Universelle, Tra, Pierrot et E.Biotard, Panckoucke, Paris, 1853, XVIII, 4.

(90) Gsell (S); H.A.A.N.T 01; P.89.

(٩١) **بيرصا** (Byrsa): كلمة يونانية تعني جلد الثور، وإطلاقها هنا يمكن أن يكون تحريفًا لكلمة (Boursa) الفينيقية التي تعني القلعة، يُنظر: غانم محمد صغير، **التوسع الفينيقي**....، ص١٣٨.

(٩٢) فرانسوا دوكريه، المرجع السابق، ص٥٠-٥١.

(٩٣) مادلين هورس ميادان، **قرطاج**، ترجمة: إبراهيم بالش، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٨١، ص٤١-٤٢.

(٩٤) جان مازيل، المرجع السابق، ص١٤١.

(95) Polybe, Histoire romaine (H .R), Tra: par Rossel, collections pléiade, Paris, 1970, I, 73,75

(٩٦) شوقي خير الله، **قرطاجة العروبة الأولى في المغرب**، مركز الدراسات العلمية، ب.ط، ١٩٩٢، ص٧٦.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

مقالات

التراث الثقافي المادي لمدينة مولاي إدريس زرهون
أول مدينة إسلامية شمال إفريقيا



وفـاء بوحدود
باحثة في سلك الدكتوراه
كلية الآداب والعلوم الإنسانية ابن طفيل
القنيطرة – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

يعتبر موضوع التراث موضوعًا شائكًا في وقتنا الحاضر، ذلك أن ظاهرة العولمة أدت إلى طمس معالمه في كثير من الأحيان، ويبقى التراث هو الوسيلة الفعالة للكشف عن تاريخ الأمم السابقة، وبالتالي معرفة هوية الشعوب وأصل العالم، كما أنه يساهم في خلق دينامية اقتصادية عبر النشاط السياحي في عدد من بقاع العالم. إن جهل أبناء الجيل الراهن لتراثهم يشكل خطرًا على هويتهم وثقافتهم المنفردة. كما أن التخلي عنه قد يكون سببًا في تشريد شعوب بأكملها تجعل منه مصدر رزق لقوت يومها. ويتجلى الهدف من خلال هذه الدراسة المتواضعة إبراز جانب من التراث الثقافي المادي لمدينة مولاي إدريس زرهون، التي تعتبر أول مدينة إسلامية شمال إفريقيا، والتي يجهلها أغلب الناس، وتتجاهلها أغلب الدراسات التي تنصب على أماكن أخرى من بقاع العالم.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٩ أغسطس ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ٢٠ نـوفمبر ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:

مولاي إدريس زرهون، إدريس الأول، التراث الثقافي المادي، الضريح الإدريسي، مدينة وليلي

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0051255

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

وفاء بوحدود. "التراث الثقافي المادي لمدينة مولاي إدريس زرهون: أول مدينة إسلامية شمال إفريقيا".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد التاسع والثلاثين؛ مارس ٢٠١٨. ص٧٣ – ٨٠.

مُقَدِّمَةٌ

إن مدينة مولاي إدريس زرهون تعتبر نموذجًا متميزًا للتراث العربي الإسلامي على وجه الخصوص، إذ أن حضارتها المرتبطة بالدولتين الإدريسية والعلوية جعلتها تتميز بمعمارها الفريد الذي يشكل جزءا لا يتجزأ من الحياة الاجتماعية، الاقتصادية والسياسية للمدينة. إضافة إلى هاتين الحقبتين، فالمدينة لها ارتباط أيضا بالحقبة الرومانية، كونها تتواجد قرب مدينة وليلي الرومانية، إلى درجة أن بعض المؤرخين أمثال مارمول، ابن الغازي والحسن الوزان، كانوا يجدون صعوبة في التفريق ما بين مولاي إدريس زرهون (التي لم تكن تحمل هذا الاسم في السابق) ووليلي. وتعتبر هذه المدينة عاصمة لمنطقة "زرهون" المتميزة هي الأخرى بتراثها الحضاري بدءا بالعصر الحجري ثم العهد الروماني إلى العهد الإسلامي، إذ أنها مشهورة بقبائلها الأمازيغية المستعربة[1] التي تركت طابعها التراثي في شتى أنحاء المنطقة.

أولاً: نبذة تاريخية حول مؤسس دولة الأدارسة "إدريس بن عبد الله"

هو إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت رسول الله (ﷺ). وقد تعددت ألقابه من إدريس الأكبر، إلى إدريس الأول ثم إدريس الفاتح. انتقل المولى إدريس من الحجاز مرورًا بمصر ثم القيروان فتلمسان ووصولاً إلى مدينة طنجة المغربية[2]، وذلك بعد أن فر من وقعة "فخ" قرب مكة الدائرة بين العلويين والعباسيين سنة (١٦٩هـ/ ٧٨٦م) مصحوبًا بمولاه الوفي راشد، وبدون أية موارد تذكر.

لم يمكث إدريس بن عبد الله طويلاً بطنجة لينتقل بعدها إلى مدينة وليلي الرومانية الأصل حالًا ضيفا على قبيلة أوربة الأمازيغية. وبعد أن علمت هذه الأخيرة بنسبه الشريف وبنيته الصادقة رحبت به بحرارة وبايعته على السمع والطاعة تحت

إمرة زعيمها إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي وذلك سنة (١٧٣هـ/ ٧٨٩م) في شهر رمضان. وقد تمت هذه المبايعة على أساس الدعوة إلى كتاب الله وإحياء سنة نبيه (ﷺ)، وإماتة البدعة والعدل في الرعية[٣]... وذلك وفق خطبة ألقاها الإمام على مسامع الأوربيين. الشيء الذي حفز باقي القبائل على إعلان الطاعة والموالاة لما تحظى به قبيلة أوربة من منزلة خاصة ضمن القبائل، إذ كانت أعظمها عددًا وقوة آنذاك. وهذه القبائل هي: زناتة، زواغة، زواوة، لماية، سدراتة، غياثة، نفزة، مكناسة وغمارة[٤].

إن هذه المبايعة شكلت حدثًا تاريخيًا هامًا يتمثل في نشأة أول نواة لدولة إسلامية شمال إفريقيا. وانطلاقًا من هذه النواة الأولية التي ضمت قبائل مختلفة التفت حول المولى إدريس الأول، انطلق هذا الأخير مدعومًا بجيش كبير من أجل فتح باقي المناطق التي ما زالت تدين بالنصرانية واليهودية والمجوسية، متجها نحو شالة، تامسنا، تادلة، تلمسان، والتي أعلنت جميعها الدخول في الإسلام والتخلي عن باقي الديانات.

وبعد هذه الغزوة المكللة بالنصر قفل الإمام راجعا إلى مدينة وليلي لإراحة الجيش الفاتح، فأقام بها شهر محرم، ثم انطلق مجددا لاستكمال فتوحاته، فتوجه إلى باقي الحصون والمعاقل التي ما زالت على غير دين الإسلام أمثال فندلاوة، مديونة، بهلولة، مقالع غياثة وبلاد فازاز. فجاهدهم حتى دخلوا في الإسلام طوعًا وكرهًا.[٥]

ثم عاد إدريس الأول مرة أخرى إلى مدينة وليلي، فأقام بها مدة شهر ليخرج غازيا للمرة الثانية مدينة تلمسان وبالضبط قبائل مغراوة وبني يفرن الزناتيين. فأقام خارجها، وجاءه أميرها محمد بن خزر بن صولات المغراوي الخزري ملتمسا منه السلام والأمان، فرحب به إدريس بن عبد الله وبايعه الأمير التلمساني صحبة رعيته على الولاء والطاعة. وبعد هذه المبايعة، شرع المولى إدريس بتشييد مسجد بالمدينة اتسم بحسن إتقانه، وذلك في شهر صفر(١٧٤هـ/ ٧٩٠م)، ثم رجع قافلاً إلى مدينة وليلي.

وفي السنة نفسها أمر بضرب الدرهم الإدريسي الفضي بتدغة من أجل تسهيل الشؤون الاقتصادية للبلاد. وبالتالي، فقد استطاع المولى إدريس، خلال سنتين فقط، من تكوين دولة إسلامية تمتد من تلمسان إلى المحيط الأطلسي، ومن طنجة إلى وادي أم الربيع. وقد اتسمت هذه الدولة الإسلامية بإرساء دعائم الإسلام تحت قيادة إمام اتصف بأخلاقه الحميدة ونسبه الشريف وحكمه العادل، مما جعل الناس يلتفون حوله من كل حدب وصوب ويعلنون له الطاعة والولاء.[٦]

هذا النصر العظيم وخاصة حدث فتح مدينة تلمسان التي تعتبر مدخل إفريقية أثار مخاوف العباسيين من ازدياد نفوذ الدولة الإدريسية، ومن ثمَّ لجأ الخليفة العباسي هارون الرشيد إلى استشارة وزيره جعفر البرمكي الذي أشار إليه بإرسال من يقوم باغتياله غدرًا ومكرًا. وبالفعل، فقد قام الخليفة العباسي ببعث رجل يتصف بمكره ودهائه يدعى سليمان بن جرير ويلقب بـ "الشماخ". فقام هذا الأخير بادعاء نيته الصادقة في نصرة الإمام، فكان يعرض على الناس الالتفاف حوله حتى حضي بثقته ليتمكن في ربيع الأول سنة (١٧٥هـ/ ٧٩١م) من قتله بواسطة قارورة طيب مشموم استنشقها ليموت من فورها[٧]. وقد ترك إدريس الفاتح زوجته البربرية كنزة حاملاً في شهرها السابع بولد حمل نفس اسم أبيه " إدريس الثاني"، والذي اتخذ مدينة فاس عاصمة له (صورة رقم١).

ثانيًا: التعريف بمدينة مولاي إدريس زرهون

تقع مدينة مولاي إدريس زرهون شمال شرق المملكة المغربية، وبالتحديد في أقصى شمال جهة مكناس-تافلالت، وذلك على بعد ٢٥ كلم من المدينة الإسماعيلية مكناس[٨]، و٣ كلم من المدينة الأثرية وليلي. وهي لا تتجاوز مساحتها ٣ كيلومترات مربعة. أما على المستوى الطبيعي، فالمدينة تتموقع ضمن سلسلة جبال مقدمة الريف وبالتحديد بكتلة "زرهون"، والتي تصل فيها الارتفاعات إلى ما بين ١٠٥٠ و١٠٦٠ متر[٩]. ويبدو أن هذه الجبال تحيط بالمدينة تقريبا من كل النواحي مما يجعلها محصنة طبيعيا من أي هجوم خارجي، تتخللها عيون مائية ساهمت في استقرار الساكنة منذ القدم.

إن نشأة المدينة مرتبط بقبر المولى إدريس الذي تزعم الروايات أنه تم العثور على جثته داخل قبره سالمة مصانة في كفنه لم تغيرها عوامل الزمان سنة (٧١٨هـ/ ١٣١٩م)، وذلك في ساحة برج للمراقبة قبالة وليلي[١٠]. هذا الحدث، دفع الناس إلى الحج إلى هذه البقعة من الأرض من كل أنحاء المغرب من أجل زيارة قبر المولى إدريس. وقد كانت أعدادهم غفيرة إلى درجة أن السلطان المريني أبو سعيد بن يعقوب أمر بإرسال جيش لتفريقهم وفرض النظام[١١].

وابتداءً من أواسط القرن السادس عشر شرعت المدينة في استقبال ساكنة فضلت الاستقرار قرب قبر حفيد الرسول (ﷺ)، وقد ضمت عروق وأجناس مختلفة (الشرفاء الأدارسة والعلويين والعلميين، الريفيون، الصفريويون، جبالة، بني يازغة، الغرباويون، شرارذة، بني احسن...). وفي أواخر نفس القرن، تم إطلاق اسم "الزاوية" على المدينة التي تزايد عدد الحجاج الوافدين إليها. فمولاي إدريس زرهون كانت تعتبر من بين خمس المدن المقدسة في العالم الإسلامي (مكة المكرمة، المدينة المنورة، القدس، القيروان ومولاي إدريس زرهون) إلى درجة أن الناس كانوا يعتقدون أن خمس حجات إلى هذه المدينة يساوي حجة واحدة إلى مكة.

وقد ضمت المدينة ثلاث أحياء رئيسة، وهي حي الحفرة الذي يقع في الوسط ويحوي قبر المولى إدريس، وحي خيبر شرقًا، ثم حي تازڭة غربًا واللذين يمثلان كتلتين مرتفعتين طبيعيًا. هذه التجمعات الصغيرة شكلت في نهاية القرن السابع عشر مدينة صغيرة توالت عليها مجموعة من المنجزات والتهييئات من طرف

مختلف الملوك العلويين حتى يومنا هذا. إذ جرت العادة على أن يضيف كل سلطان اعتلى العرش إنشاءً خاصًا به داخل أو خارج الضريح، والذي غالبًا ما يحمل اسمه[12]. كما يجب عليه مجرد اعتلاء العرش أن يقوم بزيارة خاصة للضريح الإدريسي من أجل الترحم على جده "المولى إدريس".

ولعل من أبرز الإنجازات، ما تم إنشاؤه خلال فترة السلطان مولاي إسماعيل سنة (١٠٧٠هـ/ ١٦٦٠م)، حيث أنه أمر بإحداث ولأول مرة قبة تعلو قبر إدريس الأول، كما أمر بتشييد الضريح الإدريسي، المسجد الأعظم، دار الوضوء، قبة قبر المولى راشد، عدد من المساجد والمدارس القرآنية، الحوانيت، النافورات، حمام عمومي، فندق، دار الضيافة. كما أمر بتزويد المدينة بالماء الشروب عن طريق بناء قنطرة على الواد المار بجانب المدينة وبتهيئة الطرق المؤدية إلى مدخل المدينة[13]. وهكذا توالت مجموعة من الأشغال عبر التاريخ لتشكل في الأخير مدينة تاريخية صغيرة يبلغ عدد ساكنتها ١٢ ألف نسمة.

ومما لا يجب الإغفال عن ذكره، هو أن مدينة مولاي إدريس زرهون ممنوعة من التوسع العمراني وفق ظهير ١٩ نونبر ١٩٢٠. حيث أنها تتواجد ضمن منطقة الحماية التي تفرض منع أي شكل من أشكال التوسع الذي من شأنه حجب الرؤية من وإلى مدينة وليلي الأثرية. وكما هو معلوم فإن مدينة مولاي إدريس زرهون لا تبعد عن هذه الأخيرة سوى بثلاثة كيلومترات كما سبق الذكر، وبالتالي فإنها تبقى مقيدة بهذا الظهير الذي لا زال العمل جاريا به منذ فترة الاستعمار إلى يومنا هذا. وهو الشيء الذي يعيق هذه المدينة من اللحاق بركب المدن المتقدمة عمرانيًا وحضاريًا. كما تجدر الإشارة على أن نسبة كبيرة من الأراضي والممتلكات تبقى تابعة لنظارة الأحباس. إذ تقوم هذه الأخيرة بصرف المداخيل المحصلة عن طريقها من أجل تسيير شؤون الضريح والمساجد والقائمين عليها، كما تقوم ببناء ما فيه منفعة للعامة.

والمدينة هي مشتهرة على الصعيد الوطني بوفرة أشجار الزيتون التي تحيط بها من كل مكان، بل إنها تنمو بشكل تلقائي دون تدخل بشري في بعض الأحيان، ويصل عددها إلى حوالي ٢٥٠ ألف شجرة تمتد خاصة في الشمال والجنوب[14]. إذ أن هذه المدينة الصغيرة معروفة بزيت زيتونها أو ما يصطلح عليه بالعامية "الزيت البلدية" ذو النكهة الخاصة والمتميزة. وتشير التنقيبات الأثرية لمدينة وليلي على أن هذه الأخيرة تضم العشرات من معاصر الزيتون، مما يدل على مدى أهمية هذه الشجرة منذ ذلك التاريخ.

إضافة إلى هذه الشجرة العريقة، فالمدينة مشتهرة أيضا بإنتاجها للتين، العنب، "الزبيب الزرهوني" (رغم تراجعها في السنوات الأخيرة)، الخروب، الفواكه والخضر، والتي يتم تسويقها داخل وخارج المدينة، وخاصة في السوق الأسبوعي المقام يوم السبت. ويستقبل هذا الأخير عددًا مهما من الساكنة القروية المجاورة للمدينة، حيث يقوم هؤلاء البدو بعرض منتوجاتهم الفلاحية، وكذا التزود بمختلف الحاجيات التي تلزمهم، ومنها منتوجات الصناعة التقليدية التي تشتهر بها المدينة مثل العوادة (المحاريث الخشبية، مقابض الآليات...)، الحدادة (السكك، الفؤوس، المناجل، ألجمة وصفائح البهائم...)، المنتوجات النباتية (السلل، الحصائر، السجادات، القفف...).[15]

وتعرف المدينة حدثًا سنويًا كل فصل صيف يتمثل في الاحتفال بموسم الإمام الصالح، ويصطلح عليه بالعامية "لْمُوسْمْ"، إذ يفد إلى هذه المدينة الصغيرة الآلاف من الحجاج من كل أنحاء المغرب قصد إحياء مجموعة من الطقوس والاحتفالات الروحية بدءًا بالترحم على روح الإمام ثم إقامة حلقات من الذكر والدروس والمحاضرات الدينية، وكذا استعراضات الطوائف الصوفية وإيقاعات من المديح والسماع الصوفي.

ويعتبر الموسم كذلك مناسبة لإحياء صلة الأرحام ما بين الزائرين المنتسبين لآل البيت، وكذا مع ساكنة المدينة الشرفاء. وهو أيضًا فرصة لإنعاش الاقتصاد التجاري والسياحي على العموم، إذ أن المدينة تشهد ركودًا طيلة السنة إلى حين حلول الموسم السنوي. فالزائرون يستمتعون بالجلوس في المقاهي المتناثرة هنا وهناك والاستمتاع بكؤوس الشاي الساخنة، أو "الرايب البلدي" المحلي، وخاصةً بطبق "الكفتة"[16] المتميز الذي تشتهر به المدينة. إضافة إلى ذلك، فإن الحوانيت التجارية التي تعرض مختلف أنواع المنتوجات الغذائية والتقليدية تلقى إقبالاً مهما خلال هذه الفترة.

أما على مستوى بنية الاستقبال، فإن المدينة تضم عشر دور للضيافة وفندقًا واحدًا ينتعش أربابها عبر كرائها للزائرين الذين يلجأ البعض منهم إلى اكتراء منازل الساكنة المحلية أيضًا نظرًا للخصاص الذي تشهده بنية الاستقبال.

ثالثًا: التراث الثقافي المادي في مدينة مولاي إدريس زرهون

تحتضن مدينة مولاي إدريس زرهون تراثًا ثقافيًا ماديًا يشهد على عمق تاريخها المرتبط بالدولتين الإدريسية والعلوية. كما أنها تضم منشآت ترتبط بالفترة الاستعمارية بالمغرب. وأبعد من هذا وذاك، فإن الحاضرة الإدريسية تحمل أيضًا شواهد تعود إلى الحقبة الرومانية نظرًا لقربها من مدينة وليلي الأثرية. إن أول ما يشد انتباهك وأنت داخل إلى المدينة على بعد بضعة كيلومترات هو بناياتها البيضاء الواقعة فوق كتلتين مرتفعتين يتوسطهما الضريح الإدريسي بقبابه المزينة بالقرمود الأخضر الذي يتواجد في قلب المدينة، إذ أن جل الطرق والأزقة تؤدي إليه كونه يعتبر المحرك الأساسي للحياة اليومية في المدينة (دينية، تجارية، سياحية...) (صورة رقم ٢).

مقالات

ويضم الضريح الإدريسي بداخله مجموعة من المنشآت الدينية والاجتماعية التي دأب السلاطين العلويين على تشييدها منذ عهد السلطان مولاي إسماعيل. إذ يمكن اعتباره بمثابة "مركب ديني" بامتياز.[١٧] إن الداخل إلى الضريح الإدريسي لا يفوته الانحناء أبدًا، وذلك من أجل تخطي العارضة الخشبية المثبتة عند بابه (صورة رقم ٣). وقد تعددت الروايات حول سبب وضعها، فمنهم من يزعم أن الداخل يجب عليه الانحناء كتعبير عن احترام المكان المقدس، ومنهم من يدعي أنه قد تم وضعها من أجل منع ولوج البهائم إلى داخل الضريح[١٨]، ومنهم مَنْ يقول إن العارضة هي تعبير عن تحديد "حرم"[١٩] الضريح، بينما يفترض آخرون أنها وضعت من أجل تنبيه غير المسلمين إلى عدم الدخول إلى الضريح. ولعل أقربها إلى الصحة أنها أقيمت كحاجز يمنع دخول البهائم.

ويضم الضريح قبر المولى إدريس المتواجد بحجرة مربعة الشكل تعلوها قبة مزخرفة بألوان زاهية. ويعلو القبر منصة للنعش أو ما يصطلح عليه بـ "الدربوز" مغطى بكسوة مطرزة بالذهب يتم تجديدها عند تلاشيها أو كلما اعتلى أحد السلاطين العرش[٢٠]. وقبالة القبة تتواجد ساحة أو صحن مكشوف، مربع الشكل، تتوسطه نافورة تستمد مياهها العذبة من عين طبيعية بالمدينة (صورة رقم ٤)، وبالتالي فإن جل الزائرين للضريح لا يفوتهم شرب مائها ونقعه على وجوههم وأيديهم أو الوضوء منه باعتباره "بركة" المولى إدريس.

ويضم الضريح أيضًا مسجدين هما المسجد الأعظم الذي شيده مولاي إسماعيل في القرن الحادي عشر وتبلغ مساحته ١١٨٠ متر مربع، والمسجد الحسني الذي أمر ببنائه السلطان الحسن الأول سنة (١٣٠٣هـ/١٨٨٦م)، وتبلغ مساحته ٨٢ متر مربع، إضافة إلى هذين المسجدين هناك ما يسمى بالقبة الحسنية التي شيدها الملك الحسن الثاني سنة (١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م)[٢١]، والتي يتم إقامة الصلاة فيها أيضًا. ويحوي الضريح ضمن بناياته كذلك: ساحة لاستقبال الحجاج، "مَدْرَسَة" كانت تستقبل في السابق طلبة العلم القادمين من مختلف أنحاء المغرب لتلقي الدروس الدينية وحفظ القرآن، وقد فقدت وظيفتها حاليا، دار الزاوية التي تصلح لإيواء النساء الشريفات في وضعية صعبة (أرملات، مطلقات، عوانس)، دار الوضوء، "لَمْزَارَة" وهي عبارة عن مذبحة يتم ذبح البهائم فيها قصد تفريقها على الفقراء، مقبرة الشرفاء وضريح المولى راشد.

إن الضريح الإدريسي يشكل جزءًا لا يتجزأ من التراث العمراني الذي تتميز به المدينة القديمة. هذه الأخيرة تنفرد بسكنها التقليدي الذي يعود غالبا إلى القرن الحادي عشر إبان فترة حكم السلطان العلوي مولاي إسماعيل. إن المتجول بين أزقة المدينة القديمة يجد نفسه في صعود وهبوط متكررين نتيجة طبيعة الطبغرافيا الوعرة التي يتواجد بها الموقع. ويتميز النسيج العمراني للمدينة القديمة بوجود أزقة ضيقة ومتعرجة تتفرع منها مجموعة من الممرات و"الصابات"[٢٢](صورة رقم ٥)، لتشكل في الأخير أحياءً ودروبًا تحمل في الغالب أسماء العائلات التي استوطنتها منذ القدم.

وينفرد كل حي بمنشآت عمومية لا غنى للساكنة عنها، وهي: المسجد، الفران، الحمام والنافورات (صورة رقم ٦). كما تتميز العلاقات الاجتماعية داخل الأحياء بروح التضامن وحسن الجوار رغم احتواء كل منها على باب "تقليدي" يفصلها عن مثيلاتها (صورة رقم ٧). وتنقسم الأبواب التاريخية (باب لحجر، باب القصبة، باب الرشاش...) إلى ثلاث أصناف: الباب الرئيس للمدينة والذي كان الهدف من إقامته حماية المدينة من أي هجوم خارجي وكذا وجوب دفع الداخل إليها حق الدخول أو ما يُسمى بـ "المكس"، ثم مراقبة السلع الداخلة منها وإليها، وهناك أيضًا أبواب الأحياء، ثم أبواب الدروب، والتي تهدف إلى التعبير عن التلاحم الاجتماعي ما بين ساكنة كل منها، وكذا الحفاظ على "خصوصية" كل درب وحي. غير أن هذه الأبواب قد فقدت وظيفتها في الوقت الراهن، بل وقد تم هدم البعض منها[٢٣].

وفي ثنايا المدينة القديمة، تتناثر مجموعة من المآثر العمرانية التاريخية هنا وهناك، نذكر من بينها:

- **دروج الحافة**، وهي عبارة عن أكثر من مائة درج، مشهورة لدى سكان المدينة والذين لا يترددون في إرشاد كل من أراد أن يفوز بمنظر بانورامي للمدينة ونواحيها بما في ذلك مدينة وليلي بالصعود عبرها.
- **قبور وأضرحة الأولياء**، إذ أنها تشكل تراثا روحيا لساكنة المدينة، والتي يلجأ البعض منها إلى زيارتها قصد الترحم على أرواح الصلحاء. هذه الأضرحة تتخذ تارة شكل قبة وتارة أخرى شكل منزل بين الأزقة أو حتى داخل المساجد.
- **الزاوية التيجانية**، وهي عبارة عن منزل تقليدي يتواجد بحي بني يازغة، يجتمع فيه أصحاب الطريقة التيجانية الصوفية لإحياء طريقتهم التعبدية. وهناك في المدينة عدد من الزوايا، غير أنها بدون مقر، وبالتالي فإنها تتخذ من سكن أحد مورديها مكانا للاجتماع فيه.
- **صومعة السنتيسي**، وتتواجد بجامع السنتيسي، تم بنائها من طرف الحاج إدريس السنتيسي سنة (١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م)، وتتميز بشكلها الأسطواني الفريد المزين بفسيفساء خضراء مكتوب عليها آيات قرآنية بالأبيض (صورة رقم ٨). وحسب شهادات الساكنة المحلية، فإن الشخص الذي قام بتشييدها في هذه المدينة، بنى صومعة شبيهة لها بالمملكة العربية السعودية، وبالتالي فإن هذا الشكل الهندسي المعماري يوجد منه نموذجين فقط في العالم بأسره.
- **معاصر الزيتون**، وهي عبارة عن معاصر تقليدية لعصر الزيتون المنتشر بكثرة في هذه المنطقة، وقد كانت في السابق تعمل بشكل تقليدي (اعتماد البهيمة والحجر الثقيل)، إلا أنها أصبحت حاليًا تعمل بشكل نصف-عصري (اعتماد الحجر الثقيل والآلة الميكانيكية).

- **المطاحن المائية**، وهي مطاحن تم إقامتها عند ضفاف الأودية المارة عبر المدينة بهدف طحن الحبوب اعتمادا على القوة المائية. غير أنها لم تعد تعمل حاليا، لتشكل في الأخير مجرد آثار متقادمة متناثرة هنا وهناك عند أطراف الأودية.

- **دار العجزة**، وقد كانت تعتبر بمثابة مقر لإيواء الفقراء المسنين، غير أنها فقدت وظيفتها (تم نقل العجزة إلى مدينة مكناس)، ولم تعد تشكل سوى آثار عمرانية بالمدينة.

- **معمل الخزف التقليدي**، وهو مصنع صغير يتواجد عند مدخل المدينة، ويقوم بإنتاج قطع خزفية تقليدية. وتعود ملكيته إلى إحدى العائلات بالمدينة، غير أن نشاطه على وشك التوقف حاليًا، إذ لم يعد يزاول هذه الحرفة سوى شخص واحد مسن ينتمي للعائلة السابقة الذكر.

- **محطة كهربائية**، وتتواجد بين أزقة المدينة القديمة، وهي عبارة عن محطة لتوليد الكهرباء تعود للفترة الاستعمارية.

- **قنطرتين مائيتين وقناة هارون**، وهي مشيدة على الأودية المارة عبر المدينة، وتعود للفترة الاستعمارية، بينما تعود قناة هارون للفترة الرومانية، وتتميز بشكلها الهندسي المتميز، إذ أنها ترتفع بأكثر من ٦ أمتار، وتتكون من أقواس طولية الشكل. وهي لازالت في حالة جيدة (صورة رقم ٩).

- **عين الحامة**، وتعتبر من أهم المآثر التي تعود للفترة الرومانية، وهي عبارة عن حوض للسباحة مستدير الشكل، ذو عمق لا يتجاوز المترين (صورة رقم ١٠). وتشتهر مياهها بمعالجتها للأمراض الجلدية، إذ أنها تتميز باحتوائها على نسبة مرتفعة من الكبريت إضافة إلى معادن أخرى.

خَاتِمَةُ

رغم كون مدينة مولاي إدريس زرهون تزخر بتراث ثقافي مادي مهم يشهد على عمق تاريخها المجيد، إلا أنه يمكن القول على أن هذا التراث يوجد في حالة يرثى لها في كثير من الأحيان، من هدم إلى تَخَلٍّ إلى تشويه، باستثناء الضريح الإدريسي الذي ما زال يحظى باهتمام المسؤولين نظرًا لارتباطه بالحياة المعيشية للساكنة المحلية. وعليه، فإن استمرار هذه الوضعية سيؤدي حتمًا إلى طمس معالم الهوية العربية الإسلامية بالخصوص، و كذا الإرث الروماني، وذلك كما حدث لكثير من المعالم التاريخية في المدينة، والتي فقدت وظيفتها إلى الأبد، فلم يبق منها سوى هيكلها الشاهد على تاريخها (دار العجزة، المدرسة، المطاحن المائية)، أو أنها تعرضت لإبادة علنية أدت إلى طمس كل آثار ذلك التاريخ العميق، و نذكر من بينها: هدم السوق "الدخلاني" بأبوابه التاريخية ومنشآته ("الرحبة" لبيع الحبوب، "القاعة" لبيع زيت الزيتون على الخصوص وسوق الخضر)، التخلي عن "دار الصابون" التي كانت تنتج "الصابون البلدي" المستخلص من مخلفات الزيتون، الفندق لإيواء البهائم، المذبحة، أفرنة الجير ومصانع الآجر البلدي.

الملاحق

صورة رقم (١)

نبذة تاريخية عن إدريس بن عبد الله معلقة في الضريح الإدريسي



المولى إدريس الأكبر

هو المولى إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب ومولاتنا فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم هاجر إلى المغرب بعد وقعة فخ عام 169هـ موافق 786م صحبة مولاه راشد مرورا من مصر ثم القيروان فتلمسان ثم مدينة طنجة واستقر بمدينة وليلة الرومانية حيث بايعته القبائل الأمازيغية يوم الجمعة 4 رمضان عام 172هـ موافق 6 فبراير 789م وجعلها عاصمة ملكه

كان الهدف من دعوته السير على نهج جده المصطفى صلى الله عليه وسلم في نشر الدين الإسلامي وبذلك أسس أول دولة إسلامية مغربية مستقلة وقضى على الطوائف الضالة وبنى عدة مساجد و وحد البلاد وقد وصلت فتوحاته حتى مدينة تلمسان شرقا حيث بنى فيها مسجدا ومنبره الشهير عام 174هـ موافق 792م ومن آثاره كذلك ضرب الدرهم الإدريسي بتدغة عام 174هـ موافق 792م اغتيل المولى إدريس عام 177هـ موافق 793م بأمر من الخليفة العباسي هارون الرشيد وترك زوجته كنزة حاملا من سبعة أشهر فقام راشد بتدبير شؤون الدولة حتى ميلاد المولى إدريس الثاني الذي تلقى التربية الضرورية فتمم رسالة أبيه وبنى مدينة فاس حيث دفن فيها

بني ضريح المولى إدريس الأول بأمر من السلطان مولاي إسماعيل عام 1110هـ موافق 1726م

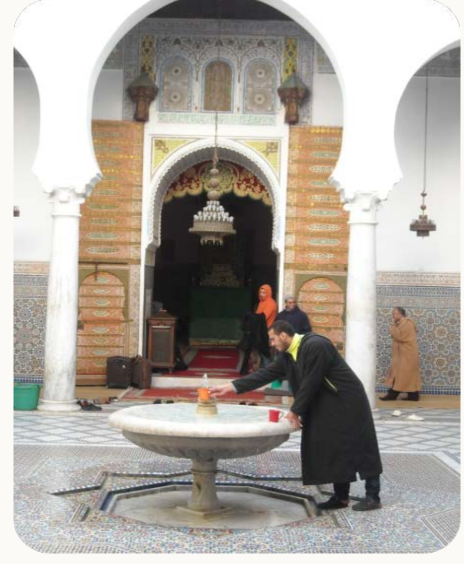
صورة رقم(٢)
الضريح الإدريسي في قلب مدينة مولاي إدريس زرهون



صورة رقم (٣)
العارضة الخشبية عند باب الضريح الإدريسي



صورة رقم (٤)
النافورة المقابلة لقبة الضريح الإدريسي



صورة رقم(٥)
جانب من المدينة القديمة



صورة رقم(٦)
نموذج لأحد الأبواب التاريخية في المدينة (باب القصبة)



صورة رقم (٧)

نموذج لإحدى النافورات في المدينة القديمة



صورة رقم (٨)

صومعة السنتيسي



صورة رقم (٩)

قناة هارون



صورة رقم (١٠)

عين الحامة



مقالات

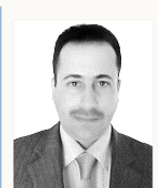
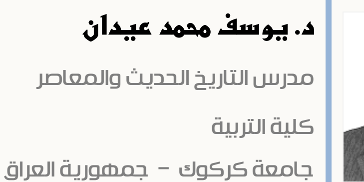
الهَوامِشُ:

(١) الشبيهي الموقت، محمد بن عبد الكريم. (٢٠٠٤)، **الإطلالة الزهية على الأسرة الشبيهية**، مؤسسة سندي للطباعة والنشر، مكناس، ص ٤٩.
(٢) ابن زيدان. (٢٠٠٨)، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، الجزء الثاني، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص ١٢.
(٣) الشبيهي الموقت، محمد بن عبد الكريم. المرجع السابق، ص٢٨.
(٤) ابن أبي زرع (١٩٧٢)، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ص ٢٠.
(٥) ابن أبي زرع، المرجع نفسه، ص ٢١.
(٦) سعدون، عباس نصر الله. (١٩٨٧)، **دولة الأدارسة في المغرب، العصر الذهبي ١٧٢ -٢٢٣هـ / ٧٨٨-٨٣٥م**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ص ٧٦.
(٧) ابن أبي زرع، المرجع السابق، ص ٢٣.
(٨) **مكناس**: مدينة مغربية تقع شمال شرق المملكة المغربية، وهي عاصمة جهة مكناس-تافلالت، وقد اتخذها السلطان العلوي مولاي اسماعيل (١٦٧٢-١٧٧٢م) عاصمة له، وشيد فيها العديد من المنشآت والتجهيزات. وقد سميت في مكناس نسبة إلى قبائل مكناسة التي استوطنتها منذ القرن العاشر الميلادي.
(٩) الشبيهي الموقت، محمد بن عبد الكريم. المرجع السابق، ص٤٩.
(10) Al Halabi, **Al Dour Al Nafis** In Wahbi D., (1984), «MOULAY IDRISS» évolution d'une petite ville traditionnelle en crise, Volume I, Thèse de Doctorat de 3(ème) cycle, Université François rebelais-Tours, U.E.R Aménagement Géographie Informatique, p. 5.
(١١) الجزنائي، علي. (١٩٩١)، **جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، المطبعة الملكية، الرباط، ص ١٥.
(١٢) الشبيهي الموقت، محمد بن عبد الكريم. المرجع السابق، ص ٤٤.
(١٣) الشبيهي الموقت، محمد بن عبد الكريم. المرجع نفسه، ص٧٧.
(14) Dresh J. (1930), **Le massif de Moulay Idriss (Maroc septentrional)** In: Annales de Géographie., t. 39, n°221. P. 500.
(١٥) مجلة إتقان (٢٠١٣)، العدد الأول، **نظرة عن نشأة وتطور الحرف بمولاي إدريس زرهون**، التصفيف والطبع جيكًا سيسطيم، ص ٥٦.
(١٦) **الكفتة**: هي كريات اللحم المفروم.
(17) Wahbi D., *op.cit.*, p. 232.
(١٨) الشبيهي الموقت، محمد بن عبد الكريم. المرجع السابق، ص ٤٣.
(19) Drissi M., 1987, **LA VILLE SAINTE de MOULEY IDRISS du Zerhoun**, Université Paris VII, UER, Histoire et Civilisation, Groupe de recherche de Tiers-monde, JUSSIEU, p. ٩٥.
(٢٠) الشبيهي الموقت، محمد بن عبد الكريم. المرجع السابق، ص ٤٤.
(21) Drissi M., *op.cit.*, p. 107.
(٢٢) **الصابة**: ممر مغطى.
(23) Drissi M., *op.cit.*, p. 203 - 208.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

دراسات

مصر والقضية الجزائرية ١٩٥٤–١٩٦٢
دراسة في الدعم الدبلوماسي

د. يوسف محمد عيدان
مدرس التاريخ الحديث والمعاصر
كلية التربية
جامعة كركوك – جمهورية العراق

مُلَخّصْ

تتضمن هذه الدراسة متابعة تاريخية للدعم الدبلوماسي المصري للقضية الجزائرية خلال الفترة (١٩٥٤–١٩٦٢) عن طريق المؤتمرات الأفرو– آسيوية، والأمم المتحدة، وجامعة الدول العربية، إذ لم يقتصر الموقف المصري المؤيد للثورة الجزائرية على الدعم العسكري والمادي فقط بل تجاوز ذلك الى الدعم الدبلوماسي الذي تمثل في الموقف المصري المساند للقضية الجزائرية في المؤتمرات الافرو– آسيوية واجتماعات الجامعة العربية وهيئة الأمم المتحدة، وبادرت مصر منذ الأيام الأولى للثورة الجزائرية إلى تأييدها، إذ قامت إذاعة صوت العرب في القاهرة بالتعريف بالثورة وتشجيع المناضلين الجزائريين، وتأليب الرأي العام العالمي على فرنسا. وقد عكس ذلك الموقف المصري الداعم للقضية الجزائرية حقيقة مهمة تتمثل في أن تأثير مصر كان واضحًا على الدول العربية والعديد من الدول الافرواسيوية سواء في المؤتمرات الدولية أو في هيئة الأمم المتحدة أو جامعة الدول العربية، لقد اتسمت خطب الوفد المصري بالعنف وبمحادثة فرنسا بصورة مباشرة، إذ كانت تلك الخطب تحمل دلالة واضحة تمثلت بربط النضال الدبلوماسي بالواقع الجزائري، والاستناد على الأدلة القانونية والتاريخية، وذلك لإعطاء القضية الجزائرية الصفة الشرعية والقانونية. تزامن الدعم المصري للقضية الجزائرية دبلوماسيًا خلال فترة الدراسة مع سنوات الثورة الجزائرية (١٩٥٤–١٩٦٢)، إذ كانت القضية الجزائرية من أهم القضايا التي أدرجت على جدول أعمال الوفود المصرية، محليًا وإقليميًا ودوليًا، وأدى ذلك بدوره إلى جعل هذه القضية تحدث وقعًا عالميًا ساهم في تضامن شعوب أسيا وأفريقيا معها، وكانت جهود مصر في تلك المؤتمرات من العوامل الأساسية في استمرار الكفاح المسلح نحو تحقيق استقلال الجزائر. وكان لذلك الجهد الدبلوماسي المصري أثره الايجابي الواضح على القضية الجزائرية والتعجيل في مسألة المفاوضات الفرنسية الجزائرية التي أدت بالنتيجة الى حصول الشعب الجزائري على حقه المشروع في تقرير مصيره وتخليصه بشكل نهائي من الوصاية الفرنسية.

بيانات الدراسة:
تاريخ استلام البحث: ١٢ سبتمبر ٢٠١٥
تاريخ قبول النشر: ٢٠ يناير ٢٠١٦

كلمات مفتاحية:
دعم دبلوماسي، الثورة الجزائرية، جمال عبد الناصر، الأمم المتحدة، فرنسا

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0051256

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
يوسف محمد عيدان. "مصر والقضية الجزائرية (١٩٥٤-١٩٦٢): دراسة في الدعم الدبلوماسي".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة - العدد التاسع والثلاثين؛ مارس ٢٠١٨. ص٨١ – ٩٠.

مُقَدِّمَةُ

جـذبت القضيـة الجزائريـة اهـتمام الـرأي العـام العـربي والعالمي، وحظيت بتأييد شعبي ورسمي، ودعـم مـادي ومعنـوي عربي، نتيجة لما تعرض لـه الشعب الجزائري مـن ظلـم وتجاوز وانتهـاك واضـح لحقـوق الإنسـان، ومـن هـذا المنطلـق تباينـت مواقـف الـدول العربيـة والدوليـة مـن مسـألة دعـم الشـعب الجزائري في سعيه لتحقيق استقلاله المشروع، كما أن هذا الدعم هو الآخـر أخـذ أشـكالاً مختلفـة منهـا مـا هـو مـادي ومعنـوي، ولعبـت الـدول العربيـة دورًا مهـمًا في مجـال تسـليح الشـعب الجزائري، ومحاولـة تـدويل قضيته وإيصال صـوته إلى المحافل

الدولية لا سيما عن طريق المؤتمرات الأفرو – آسيوية واجتماعات منظمة الأمم المتحدة، وكان لجمهورية مصر العربية دورًا رياديًا في هذا المجال. وقد تناولت إحدى الدراسات العربية موضوع الدعم العسكري المصري للثورة الجزائرية بشيء من التفصيل، ففي كتاب: عبد الناصر وثورة الجزائر، الصادر عن دار المستقبل العربي (القاهرة ١٩٨٤)، تناول فتحي الديب تفاصيل مهمة عن المساهمة المصرية في تدريب الطلبة الجزائريين، ولكون مؤلف الكتاب من مؤسسي جهاز الاستخبارات المصري، لذا فإن الدراسة تضمنت معلومات جديدة وتفاصيل مهمة عن الجهود المصرية المبذولة بشكل سري لتهريب الأسلحة من مصر إلى الجزائر.

وبما أن مجال بحثنا يتجاوز الدعم العسكري إلى الدعم الدبلوماسي المتمثل بتدويل القضية الجزائرية وإخراجها من الأطر المحلية والعربية الى الفضاء العالمي، لذا اعتمدت دراستنا الموسومة بـ (مصر والقضية الجزائرية ١٩٥٤-١٩٦٢ – دراسة في الدعم الدبلوماسي)، على دراسات سابقة تم التركيز فيها على المحاولات العربية – ومن بينها المصرية – في تفعيل قضية الجزائر في المحافل الدولية، ومن بين أهم هذه الدراسات دراسة للباحث: أحمد بن فليس وهي أطروحة دكتوراه بعنوان: السياسة الخارجية للثورة الجزائرية الثوابت والمتغيرات (١٩٥٤-١٩٦٢) مقدمة لجامعة بن يوسف بن خده، (الجزائر،٢٠٠٧). فضلاً عن كتاب إسماعيل دبش الموسوم بـ: (السياسات العربية والمواقف الدولية تجاه الثورة الجزائرية، الصادر عن دار هومة، (الجزائر، ٢٠٠٩). وكتاب الباحثة: مريم صغير: المواقف الدولية من القضية الجزائرية ١٩٥٤-١٩٦٢، دار الحكمة، (الجزائر، ٢٠٠٩)، كما أفادت الدراسة من كتاب: الجامعة الأفريقية دليل سياسي موجز لمؤلفه: ليجوم كولين، ترجمة أحمد محمود سلمان، الذي يتناول عرض تأريخي مفصل للمساهمة العربية في تدويل قضية الجزائر.

منذ إن تولى الرئيس المصري جمال عبد الناصر السلطة الفعلية في مصر عام ١٩٥٤، وانتهاجه سياسة قومية معادية للاستعمار ومتعارضة مع سياسة الأحلاف الغربية، تمثل الدور الإقليمي المصري في انموذج أخذ يتبلور باعتبار مصر معقلاً للثورة ومحررًا من الاستعمار وقائدًا إقليميًا في القارة الأفريقية بشكل عام، والمنطقة العربية بشكل خاص. وقد اعتبر جمال عبد الناصر أن الاستعمار هو السبب في كل المصاعب والمشكلات التي واجهت مصر في الداخل والخارج، وأنه يشكل عقبة في طريق مستقبلها، واعتبر أن تصفية هذا الاستعمار هو بمثابة رسالة تحملها مصر لباقي الشعوب التي ترزح تحت نير الاستعمار. تتضمن هذه الدراسة متابعة تأريخيه للدعم الدبلوماسي المصري للقضية الجزائرية في الفترة (١٩٥٤-١٩٦٢) من خلال المؤتمرات الافرو آسيوية، ومناقشات هيئة الأمم المتحدة، وجامعة الدول العربية، وبما أن فترة الدراسة تزامنت مع سنوات الثورة الجزائرية، لذا فإن من المستحسن إعطاء نبذة تأريخيه عن الثورة الجزائرية بهدف التعريف بدوافع تلك الثورة وأحداثها التاريخية.

أولاً: الثورة الجزائرية (١٩٥٤-١٩٦٢)

واجه الشعب الجزائري منذ الاحتلال الفرنسي عام ١٨٣٠ مشروعًا استعماريًا متكاملاً يهدفُ إلى إلغاء وجودهُ التاريخي، ونسف مقوماته المادية، يستخدم أسلوب العنف بلا ضوابط في مواجهة أي مقاومة، ويستخدم كل وسائل إلحاق الهزيمة النفسية بالجزائريين، وإبقائهم في حالة متردية من البؤس والشقاء والحرمان والجهل، لفائدة العنصر الأوروبي في الجزائر، الذي أصبح يملك الأرض، ويستحوذ على الثروة، ويسيطر على الاقتصاد والمصالح التعليمية والإدارية، وباختصار فإن العنف المتعدد الأشكال والأوجه الذي مارسه الاستعمار الفرنسي على الجزائريين منذ البداية والقوانين التعسفية الجائرة كان لها الأثر البالغ في تبلور غضب ومعاناة الشعب الجزائري[١]، وهناك مَنْ يرى إن سياسة إفقار الشعب الجزائري المتبعة بشكل متعمد من قبل السلطات الفرنسية، وما رافقها من مآسي كانت مبررًا كافيًا لقيام الثورة[٢]، وقد ساهم ذلك كله في تنامي الوعي التحرري لدى الجزائريين، ونتيجة للسياسة الفرنسية التي اتسمت بالعنف والقمع بحق الشعب الجزائري، حدثت العديد من الثورات الشعبية الهادفة إلى طرد القوات الفرنسية من البلاد[٣] وقد توجت جميع تلك الثورات بالثورة الجزائرية إبان الفترة (١٩٥٤-١٩٦٢) التي نال بها الشعب الجزائري استقلاله عام ١٩٦٢، بعد أن توحدت معظم الأحزاب الجزائرية تحت لواء جبهة التحرير الجزائرية التي حلت محل اللجنة الثورية للوحدة والعمل.[٤]

وبعد أن انتهى النشاط السياسي للحركة الوطنية الجزائرية مع الاستعمار الفرنسي إلى نقطة اللاعودة، ولم يعدّ هناك خيار أمام الجزائريين للتخلص من قبضة الاستعمار سوى المقاومة المسلحة، التي كانت أحداث الثامن من أيار ١٩٤٥مقدمة لها، فقد سلطت القوات الفرنسية بطشها على جموع المتظاهرين الجزائريين عندما هتفوا بشعارات الحرية، بمناسبة انتصار الحلفاء على دول المحور، فكان ذلك بمثابة القطيعة الأبدية بين الشعب الجزائري والإدارة الفرنسية، إذ تحولت المسيرات السلمية ليوم ٨ آيار ١٩٤٥ إلى مشادات وأعمال عنف، أعقبها قمع وحشي وإبادة جماعية أودت بحياة الآلاف من الشعب الجزائري، وجدير بالذكر إن السلطات الفرنسية رفضت حتى إجراء تحقيق في تلك المجازر،[٥] وقد لعبت تلك الأحداث دورًا كبيرًا في تهيئة النفوس وتعبئتها للثورة على واقع الظلم والتعسف الذي مارسه الفرنسيون، إن انتفاضة الثامن من آيار ١٩٤٥ قد مثلت منعرجًا حاسمًا في مسار الحركة الوطنية الجزائرية وكانت بداية لديناميكية جديدة ساهمت فيها بالدرجة الاولى المطالب السياسية التي كان هدفها الرئيس البحث عن خطة ثورية لإنهاء التسلط الفرنسي على الشعب الجزائري.[٦]

ومع بداية عام ١٩٥٠ أصبحت قوات الاحتلال الفرنسي متحكمة في كل الأمور تحكمًا كبيرًا، إذ قامت بتزوير الانتخابات، وتعطيل قوانين البلاد، وأفقرت الشعب الجزائري وأرهبته بعساكرها الذين راحوا يلاحقون عناصر الحركة الوطنية، كانت بداية الخمسينيات قاسية على الجزائريين وأصبح وضعهم

المعاشي أشبه بوضعية العصور الوسطى. ونتيجة لكل ذلك انطلقت الثورة الجزائرية في الأول من تشرين الثاني ١٩٥٤، في أوضاع بالغة الصعوبة، ليس أقلها عدم التناسب بين الهدف المنشود وهو الاستقلال، والإمكانات المتاحة لمواجهة قوة فرنسا في الجزائر، وشملت الثورة ما يقرب من (٦٤) مدينة وقرية في الوقت نفسه[٧] وتحددت أهداف الثورة المعلنة في النقاط التالية:

١- استرجاع السيادة الوطنية عن طريق الكفاح المسلح.
٢- إقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية والاجتماعية ذات السيادة ضمن إطار المبادئ الإسلامية.
٣- احترام جميع الحريات الأساسية دون تمييز عرقي أو ديني.[٨]

وردًا على ذلك أعلنت الحكومة الفرنسية إن الجزائر جزء من فرنسا، وأن الأخيرة لن تعترف بأي سلطة غير سلطتها[٩] وهذا ما زاد من حدة الثورة الجزائرية التي حققت انتصارات عدّة ضد القوات الفرنسية، الأمر الذي أجبر السلطات الفرنسية على اتخاذ موقف حازم تجاه تلك الانتصارات مهددة باستخدام القوة مع الجزائريين. وأخذت قوات جيش التحرير الجزائري[١٠] تهاجم مراكز القوات الفرنسية والمستوطنين الفرنسيين في المدن الكبرى وتعمل على تخريب المزارع التابعة للفرنسيين لتلحق بهم أكبر قدر من الخسائر الاقتصادية،[١١] في الوقت ذاته كان جيش التحرير الجزائري يعمل على تنظيم المناطق المحررة، ويقيم فيها إدارات محلية منظمة تفرض سلطتها على تلك المناطق، وتمنع القوات الفرنسية من العودة إليها مجددًا.[١٢]

تمكنت الثورة من صهر المجتمع الجزائري في مجموعة وطنية واحدة، وكرست الوحدة الجغرافية والبشرية والسياسية للجزائر، فأكتمل بذلك تشكّل الكيان السياسي الجزائري الذي حاول الاستعمار الفرنسي جاهدًا اقتلاعه من جذوره، وعملت الحركة الوطنية على بعث ذلك الكيان إذ أصبح بفعل الثورة واقعًا ملموسًا، مما عمق مفهوم الوطنية لدى الجزائريين، وقوى فيهم الوعي بالانتماء إلى الجزائر كوطن له مقوماته الشخصية وإلى مجتمع له خصوصياته، وهذا ما جعل الثورة في جوهرها عملية انبعاث جديدة لجزائر حديثة امحيت فيها الفوارق والميول الجهوية، وانصهرت في بوتقتها مختلف الشرائح والقوى الاجتماعية، فكان الكفاح المسلح العامل الحاسم في تشكيل الضمير الوطني الجزائري، وبعث الدولة الجزائرية التي قضى عليها الاستعمار الفرنسي عام ١٨٣٠، كما كانت نقلة نوعية في الوعي الاجتماعي والسياسي، والإحساس بالمصلحة العامة. وقد عملت القوات الجزائرية خلال الفترة (١٩٥٤-١٩٥٦) على تثبيت وضعها العسكري وتقويته، ومد الثورة بالمتطوعين والسلاح والعمل على توسيع إطار الثورة لتشمل كافة أنحاء البلاد. ونتيجة لاشتداد حدة المعارك أرسلت فرنسا الإمدادات العسكرية لقواتها في الجزائر، وفي عام ١٩٥٦ قامت باستدعاء قوات الاحتياط، فأصبح عدد القوات الفرنسية في الجزائر لا يقل عن ٤٠٠ ألف جندي.[١٣]

وخلال الفترة (٢٠ آب - ١٩ أيلول ١٩٥٦)، انعقد أول مؤتمر لجبهة التحرير الوطني بوادي الصومام في منطقة القبائل الصغرى، وتبنى المؤتمر برنامجًا سياسيًا عامًا، اعتبر بمثابة الإيديولوجية الرسمية للجبهة[١٤]، انعقد هذا المؤتمر بغياب الزعماء الجزائريين المدنيين الموجودين في الخارج وهم كل من أحمد بن بيلا، وحسين آيت أحمد، ومحمد بوضياف، ومحمد خضير. وتبنى المؤتمر مبدأ القيادة الجماعية وأنشأ مجلس وطني لقيادة الثورة الجزائرية، ولجنة تنسيق وتنفيذ، ويعدّ مؤتمر الصومام أهم اجتماع لقادة الثورة خلال مرحلة الكفاح المسلح فقد أسس لعملية تنظيم الثورة ووضع أساس لأجهزتها السياسية والعسكرية، كما تبلورت خلاله استراتيجية توحيد جميع الجزائريين لمواجهة الاستعمار، شكل المؤتمر مؤسسات ديمقراطية للثورة التحررية واقر مبدأ القيادة الجماعية كأسلوب لإدارة هذه المؤسسات الثورية، كم أكد على إشراك كل الفئات الاجتماعية في هدم النظام الاستعماري، ورغم الخلافات بين الفرقاء التي ميزت جلسات المؤتمر إلا إن وثيقة الصومام جاءت مكرسة لفكر وروح الثورة الجزائرية، كما إنها أعطت الأولوية للعمل السياسي على العمل العسكري وأولوية الداخل على الخارج، وقد عارض الزعماء المدنيون في الخارج وعلى رأسهم أحمد بن بيلا مقررات المؤتمر، إلا إنهم لم يؤثروا كثيرًا في مجريات الأمور لا سيما بعد ان قامت السلطات الفرنسية وكرد فعل على انعقاد مؤتمر الصومام باختطاف الطائرة التي كانت تقلهم، واعتقلتهم في ٢٢ تشرين الأول ١٩٥٦.[١٥]

وقد رأت فرنسا في تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦ فرصة لتثار من مصر بسبب دعمها للثورة الجزائرية، لذا شنت مع بريطانيا وإسرائيل الحرب على مصر عام ١٩٥٦، لأن القضاء على الحركة الثورية في مصر –من وجهة نظر فرنسا-سيقضي- على الثورة الجزائرية، ولعل هذا الرأي فيه شيء من الصحة، ولو تم القضاء على القيادة المصرية آنذاك لتم إبعاد حليف قوي لثوار الجزائر، إذ كان الرئيس المصري جمال عبد الناصر من أول وأهم الداعمين للثورة الجزائرية، وقام بتقديم المساعدة السياسية والإعلامية والمادية، ودعم الثوار بالأسلحة والذخائر.[١٦] وفي ١٠ شباط ١٩٥٨ صوتت الجمعية العامة للأمم المتحدة على ضرورة إيجاد حل سلمي للقضية الجزائرية[١٧]. وفي أيار١٩٥٨، استلم الجنرال الفرنسي (ديغول) الحكم في فرنسا، وأعلن إن الجزائر جزء لا يتجزأ من الدولة الفرنسية، واعتبر الجزائريين رعايا فرنسيين.[١٨]

لذا ازدادت حدة معارك الثورة الجزائرية وكان الثوار الجزائريين الذين اتخذوا من الجبال والغابات في مناطق القبائل مقرًا لهم ومنطلقًا لهجماتهم قد كبدوا الفرنسيين خسائر فادحة خلال ربيع ١٩٥٨، ومنذ اندلاع الثورة الجزائرية راهنت فرنسا في البداية على الحل العسكري، لإجهاض الثورة وإفراغ المشروع الوطني المتمثل في استرجاع السيادة الجزائرية كاملة غير منقوصة، وراح ساسة فرنسا وقادتها العسكريين بتطبيق ذلك الحل العسكري الذي تجسد في إقامة الأسلاك الشائكة ومحاولة عزل الشعب عن الثورة عن طريق إقامة المحتشدات في المدن

والأرياف، والأكثر من ذلك القيام بالعمليات العسكرية الواسعة بغرض تطهير الجبال من الثوار، وكانت قوى الثورة ترد بطرق ذكية على تلك الحملات، واعتمد الثوار الجزائريين أسلوب حرب العصابات ومباغتة الفرنسيين ونصب الكمائن لقواتهم، وباعتراف الفرنسيون أنفسهم فأن مناطق القبائل وصعوباتها التضاريسية جعلتهم في حيرة من أمرهم ،مما دفع بفرنسا الى التفاوض معهم في حزيران ١٩٦٠، إلا أن تلك المفاوضات لم تسفر عن أي نتيجة تذكر[١٩]. ومن الجدير بالذكر هنا أن اكتشاف النفط في الجزائر أوائل عام ١٩٥٨جعل الفرنسيون يتمسكون بها على نحو كبير أملاً في الحصول على فوائد كبيرة جراء استغلال النفط الجزائري.[٢٠]

وفي ١٩ أيلول ١٩٥٨، تم في القاهرة تشكيل الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية برئاسة فرحات عباس.[*][٢١] وقد اعترف بهذه الحكومة ما يقرب من ٢٦ بلدًا ما بين (١٩٥٨- ١٩٦١)، وقد أوهن النجاح الدبلوماسي الذي حققته الحكومة المؤقتة فرنسا كثيرًا إذ ضاقت عليها الدوائر، ووجدت نفسها أمام ندين، الأول: هو مواصلة الانتحار الاقتصادي والعسكري في مواصلة الحرب، والثاني: هو التفاوض مع الحكومة المؤقتة وهذا يعني ضمنيًا اعتراف فرنسا بالحكومة المؤقتة.[٢٢] ونتيجة إلى تزايد قوة الثورة الجزائرية وقدرتها على مواجهة الجيش الفرنسي من جهة، ومن جهة ثانية تلك التكاليف التي تكبدتها فرنسا ودفعت ثمنها غاليًا سواء من الناحية المالية لتصاعد تكاليف الحرب وأثرها على الحياة الاقتصادية في فرنسا نفسها، كما إن الخسائر البشرية الفرنسية في المعارك غدت غير مقنعة لعائلات الجنود الفرنسيون الذين قضوا في الحرب، ومن ثَمَّ أصبح صوتهم يوثر دون شك على القرارات الواجب اتخاذها تجاه المعضلة في الجزائر، ومن جهة ثالثة فإن القضية الجزائرية في المحافل الدولية أصبحت تحظى بالتأييد المتزايد، نتيجة لذلك اضطرت الحكومة الفرنسية إلى تقديم بعض التنازلات تجاه القضية الجزائرية،[٢٣] وفي ٢٠ شباط ١٩٦١، بدأت المفاوضات بين الوفدين الجزائري والفرنسي في سويسرا، إلا إنها سرعان ما توقفت بسبب تمسك الوفد الفرنسي بالصحراء الجزائرية ورفض الوفد الجزائري ذلك، ثم استؤنفت المفاوضات بين الوفدين في ٥ آذار ١٩٦١، وقد ألح الوفد الفرنسي على وقف القتال لإجراء المفاوضات، لكن الوفد الجزائري رفض ذلك الطلب فتوقفت المفاوضات بين الوفدين.[٢٤] كانت المفاوضات في حالة مد وجزر تخضع للمزاج السياسي الفرنسي حينًا والتقلبات الظرفية والدولية حينًا آخر، ولكن كانت تصب كلها في صالح ذلك التأييد الواسع للمجتمع الدولي للثورة الجزائرية. فما كان من فرنسا إلا إن تبدأ مرحلة جديدة من المفاوضات مع الجانب الجزائري.

وفي عام ١٩٦٢ استؤنفت المفاوضات مجددًا بين الحكومة الفرنسية والحكومة المؤقتة الجزائرية وكانت هذه المرة في مدينة ايفيان الفرنسية، لذا عرفت بمفاوضات ايفيان، بين (أيار ١٩٦١- آذار ١٩٦٢)، وأسفرت عن توقيع اتفاقية ايفيان في ١٨ أذار ١٩٦٢، وبموجبها تم ايقاف القتال بين الطرفين والاعتراف بحق الشعب الجزائري في السيادة على أرضه، وإطلاق سراح المعتقلين السياسيين الجزائريين، وأن تقوم العلاقات بين البلدين على أساس الاحترام المتبادل، والعمل على احترام الثقافة والدين والمساواة السياسية مع الأوروبيين، وأن يتم استغلال ثروات الصحراء الغربية مناصفة بين البلدين، وضرورة إجراء استفتاء شعبي بشأن مسألة استقلال الجزائر خلال ستة أشهر بعد إيقاف العمليات الحربية بين الطرفين.[٢٥]

وفي الاستفتاء اجمع الشعب الجزائري على الحرية والاستقلال حيث صوت (٩٧%) من الناخبين لصالح الاستقلال في ٣ تموز ١٩٦٢، واعترفت فرنسا رسميًا باستقلال الجزائر بعد ١٣٢ عامًا من الاستعمار الفرنسي،[٢٦] وأصبح مارسل جنيه أول سفير فرنسي معتمد في الجزائر.[٢٧]

ثانيًا: الدعم الدبلوماسي المصري للقضية الجزائرية

كان للقضية الجزائرية حضوراً قوياً في محافل الدولية، وفي الوقت ذاته غدت في نظر الشارع العربي قضية كل العرب، واكتسبت بعدًا قوميًا وحّد كلمة العرب وقرّب بينهم، فتسابقت المنظمات الشعبية والهيئات الحكومية والتشكيلات السياسية إلى تقديم المساعدة المادية والدعم المعنوي، واعتبرت مصر محور النشاط الرئيس للحركة الوطنية الجزائرية، نظرًا لموقعها المهم الرابط بين المشرق والمغرب، وكذلك احتضانها لقيادات الوفود الجزائرية، والتواجد المكثف للجزائريين المقيمين بمصر لا سيما لأغراض دراسية وعلمية، وأسبقية مصر بالجهر بموقفها المساند والداعم للثورة الجزائرية.[٢٨] وقد عكس موقف مصر الداعم للقضية الجزائرية دبلوماسيًا حقيقة مهمة، تتمثل في أن تأثير مصر كان واضحًا على الدول العربية والكثير من الدول الافرو-آسيوية، سواء في المؤتمرات الدولية أو في مناقشات هيئة الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية، وقد اتسمت خطب الوفد المصري بالعنف وبمخاطبة فرنسا بصورة مباشرة، إذ كانت تلك الخطب تحمل دلالة واضحة وهي ربط النضال الدبلوماسي بالواقع الجزائري والاستناد على الادلة القانونية والتأريخية، وذلك لإعطاء القضية الجزائرية الصفة الشرعية والقانونية.

لم يقتصر الموقف المصري من الثورة الجزائرية على الدعم العسكري والمادي فقط، بل تجاوز ذلك الى الدعم الدبلوماسي الذي تمثل في الموقف المصري المساند لثورة الجزائر في المؤتمرات الأفريقية والأسيوية واجتماعات الجامعة العربية ومناقشات هيئة الأمم المتحدة. وبادرت مصر منذ الأيام الأولى للثورة الجزائرية الى تأييدها، إذ قامت إذاعة صوت العرب في القاهرة بالتعريف بالثورة وتشجيع المناضلين الجزائريين وتأليب الراي العام العالمي على فرنسا، وعملت القيادة المصرية على تدريب الطلبة الجزائريين في مصر في الكلية الحربية المصرية ومختلف المعاهد العسكرية طوال سنوات الثورة.[٢٩] وفي ٢٣تموز ١٩٥٣ وجه الجنرال محمد نجيب والعقيد جمال عبد الناصر دعوة لفرحات عباس للمشاركة في مناسبة الذكرى الأولى للثورة المصرية إلى جانب شخصيات أخرى، وذهب فرحات عباس إلى القاهرة ووجد استقبالاً حارًا وفتح هناك مكتبا لحزبه (الاتحاد

الديمقراطي للبيان الجزائري).[٣٠] وشارك كذلك في احتفالات الذكرى الثانية لهذه المناسبة والتقى بالأمين العام للجامعة العربية فضلا عن شخصيات سياسية أخرى.[٣١]

تأتي مصر في مقدمة الدول العربية التي تحملت العبء الأكبر في التعريف بالقضية الجزائرية على المستوى الدولي، وحث الدول الأخرى على تبني حق الشعب الجزائري في تقرير مصيره واستقلاله.[٣٢] ولم تأل مصر جهدًا من اجل دعم الثورة الجزائرية في كافة المؤتمرات، إذ كانت القضية الجزائرية من أهم القضايا التي ادرجت على جدول أعمال الوفود المصرية محليًا وإقليميًا ودوليًا، وادي ذلك بدوره إلى جعل هذه القضية تحدث وقعًا عالميًا ساهم في تضامن شعوب آسيا وأفريقيا معها، وكانت جهود مصر في تلك المؤتمرات من العوامل الأساسية في استمرار الكفاح المسلح إلى تحقيق اِستقلال الجزائر.[٣٣]

ترجع بداية الجهود الدبلوماسية المصرية تجاه القضية الجزائرية الى مؤتمر باندونغ الذي عقد في إندونيسيا (١٨-٢٤ نيسان ١٩٥٥)، وحضرته وفود (٢٩) دولة أفريقية وآسيوية، التي لقيت فيه القضية الجزائرية صدى كبيرًا ومساندة واسعة من طرف المشاركين في هذا اللقاء الأول على صعيد الشعوب النامية، إذ كان كفاح الشعب الجزائري وقضيته محل إعجاب وعطف وتقدير من طرف المؤتمرين وكانوا يدركون أهمية وأبعاد الثورة الجزائرية ليس على مستوى القارة الأفريقية فحسب بل كذلك على مستوى العالم الثالث.[٣٤] وقد مثلت مصر في هذا المؤتمر بوفد مهم ترأسه جمال عبد الناصر (رئيس جمهورية مصر العربية)، الذي ألقى خطابًا ندد فيه بالاستعمار واعتبر أن بقاءه لا يتفق مع العهد الجديد في العالم، وأشار إلى قضية الجزائر مذكرًا أن الحكومة الفرنسية تزعم أن الجزائر هي جزء لا يتجزأ من الاتحاد الفرنسي، وأكد أن هذه الوثيقة الصادرة من طرف واحد لا تلزم الشعب الجزائري، ولا تغير حقيقة أن الجزائر بلد عربي وأن لشعبه حقًا طبيعيًا في الحرية وتقرير المصير.[٣٥] وقد لاقت دعوة مصر المساندة لشعب الجزائر في التحرر والاستقلال تأييدًا دوليًا من الهند وباكستان والصين وتركيا.[٣٦] وجددت الأطراف المشاركة في المؤتمر تأكيدها على حق الشعب الجزائري في استقلاله وادانت بشدة الاعمال الوحشية للاستعمار الفرنسي في الجزائر.[٣٧] وما يميز مؤتمر باندونغ هو ليس تدويل القضية الجزائرية ومساندتها معنويًا فحسب، بل تأكيد أعضاء المؤتمر على تقديم المساعدة المادية لحرب التحرير الجزائرية وتأكيد شرعية مطالب الشعب الجزائري وشرعية الوسائل المستعملة من اجل الاستقلال والحرية.[٣٨] كما شكل المؤتمر أول فرصة واسعة لطرح القضية الجزائرية على المستوى الدولي، وحتى التنسيق الجزائري - المصري كان مكثفاً ومتكاملاً في تعامله دوليا لتعبئة الرأي العام العالمي لمناصرة أهداف التحرر الوطني في الجزائر، وباعتراف جزائري فإن مصر قد مكنت الوفد الخارجي لجبهة التحرر الوطني من الدخول بقوة إلى الساحة الدولية.[٣٩]

وفي ٢٩ اذار١٩٥٦ اجتمع مجلس الجامعة العربية في القاهرة وأصدر قرارًا أعرب فيه عن استنكاره لتصريح رئيس الوزراء الفرنسي (جي موليه) الذي زار الجزائر في ٦ شباط ١٩٥٦، وصرح أثناء زيارته بأن ارتباط الجزائر بفرنسا ارتباط أبدي، وقد جاء في قرار مجلس جامعة الدول العربية أن المجلس يعلن تأييده التام للشعب الجزائري العربي ومشاركته الصادقة في محنته الحالية، وعبر عن ذلك بتعرض الشعب الجزائري الأعزل لحركة عدوانية مدمرة لا مبرر لها، وأعرب عن استنكاره للأعمال العدوانية التي تقترفها السلطات الفرنسية ضد الجزائر المطالبة بحقها في الحرية وتقرير المصير، والمتطلعة إلى النهوض بواجبها في استثمار خيرات بلادها لرفع مستوى شعبها وفي الوفاء بالتزاماتها الدولية. وقد ألقى رئيس الوفد المصري (خيرت السعيد) كلمة في هذا الاجتماع، أبرز فيها ما يعانيه شعب الجزائر من ظلم وتعسف، موضحًا أن الانتصار سيكون لهذا الشعب في النهاية، ومما جاء في كلمته "إذا كانت هذه الدورة تنعقد وعيون العالم متطلعة إلى البلاد العربية، فإنه ليسعدنا جميعًا، أن نرى الأمة العربية وقد توفرت لها العزة والكرامة وقد بدأت تأخذ طريقها نحو المجد مصممة على النهوض بدافع من الثقة في نفوس أبنائها والايمان بالله وبعدالة قضاياها".[٤٠]

كان الدعم الدبلوماسي المصري للقضية الجزائرية متزامنًا مع الدعم العسكري المصري لثوار الجزائر، وفي أواخر آذار ١٩٥٦، أوكل الرئيس المصري جمال عبد الناصر، (فتحي الديب)[٤١] من أجل إعداد تقرير عن الأحوال العسكرية والسياسية في الجزائر، على ضوئه وضع مخطط مصري يهدف إلى مواجهة المخطط الاستعماري الفرنسي، وأكدت القيادة المصرية على ضرورة تشديد الهجمات من أجل تحسين موقف المفاوض الجزائري عند إجراء أي مفاوضات مع فرنسا.[٤٢] وفي ١٢ نيسان ١٩٥٦ قامت القيادة المصرية بعقد اجتماع بين ممثلي فرنسا والجزائر، كما عقد اجتماع ثاني في ١٣ نيسان ظهرت فيه مناورات المفاوض الفرنسي وانتهت المباحثات دون الوصول إلى نتيجة إيجابية، لذا قررت مصر استمرار دعمها لثوار الجزائر.[٤٣]

وأعقب مؤتمر باندونغ، عقد مؤتمر أخر في بريوني في يوغسلافيا (١٨-١٩ تموز ١٩٥٦)، أبدت القيادة المصرية في هذا المؤتمر تأييدها التام للقضية الجزائرية، كما أيدت كل الجهود الهادفة إلى ايجاد حل سلمي وعادل لتلك القضية، وطالبت القيادة المصرية متمثلة بجمال عبد الناصر بإيقاف أعمال العنف بين الطرفين الفرنسي والجزائري والدخول في مفاوضات لإيجاد تسوية عادلة للقضية الجزائرية.[٤٤] وبعد اختطاف الزعماء الجزائريين في ٢٢ تشرين الأول ١٩٥٦ قامت مصر بالاتصال بممثلي (٢٥) دولة من الكتلة الأسيوية الأفريقية، ووافقوا بالإجماع على إصدار بيان عبّر عن استيائهم من اعتقال الزعماء الجزائريين، وطالبو بعرض مشكلة الجزائر على الجمعية العامة للأمم المتحدة.[٤٥]

وكان سفير مصر وممثلها الدائم في الأمم المتحدة (محمود فوزي) قد أكد من خلال كلمة ألقاها في كانون الأول ١٩٥٧ على "أن الشعب الجزائري قد أكد بدمائه التي قدمها عزمه على نيل الاستقلال بصفة لا تترك المجال للشك، وأن هذه الحقيقة يجب الاعتراف بها وقبولها بكل تعقل، أن الشعب الجزائري قد صمم على العيش في ظل الكرامة والحرية".[٤٦] وقد كان لكلمة محمود

فوزي صدى واسع، حيث كانت بمثابة ضربة مباشرة وجهت لفرنسا في هيئة الأمم المتحدة، كما أنها لقيت تأييدًا واسعًا من الدول العربية والأفريقية، وذلك ما أكسب القضية الجزائرية انتصارًا دبلوماسيًا مكنها من المضي إلى الأمام. وعند انعقاد الدورة الثالثة عشرة للأمم المتحدة عام ١٩٥٨، اقترحت مصر إجراء مفاوضات مباشرة بين فرنسا والحكومة الجزائرية المؤقتة، على أساس حق تقرير المصير والاستقلال.[٤٧]

وخلال الفترة (٢٦ كانون الأول ١٩٥٧-١ كانون الثاني ١٩٥٨) عقد مؤتمر التضامن الأفريقي – الأسيوي في القاهرة، وعبرت مصر من خلاله عن تأييدها وسعيها الحثيث نحو استقلال الجزائر واسترجاع حريتها.[٤٨] وأصدر المؤتمر قرارًا يحث على المفاوضات بين الجانبين والافراج عن المعتقلين الجزائريين، كما طالبت شعوب العالم بتنظيم المظاهرات والحملات الصحفية لتعبئة الرأي العام لاستنكار السياسة الفرنسية، وطالب المؤتمر بتقديم المساعدة الفعالة للاجئين الجزائريين، وناشد البلدان الاسيوية والافريقية محاولة التأثير على فرنسا لإنهاء الحرب بينها وبين الجزائر، وبذل المساعي لدى الحكومات العربية الاخرى لكي تكف عن مساعدتها لفرنسا.[٤٩] وبهذه المناسبة انشئت منظمة لتضامن الشعوب الافرو- آسيوية ضمت ممثلين عن حكومات البلدان المستقلة، وممثلين لحركات التحرر في القارتين وكانت الجزائر ممثلة بواسطة جبهة التحرير الوطني، وتنفيذًا لتوجهات مؤتمر القاهرة فقد تم تنظيم يوم أفرو- آسيوي للتضامن مع الشعب الجزائري في كفاحه ضد الاستعمار وذلك يوم ٣٠ اذار ١٩٥٨في عواصم الدول الأفريقية والآسيوية.[٥٠]

وفي نيسان عام ١٩٥٨ عقد مؤتمرًا للدول الأفريقية في مدينة (أكرا) عاصمة غانا، حضره أكثر من ثلاثمائة مندوب يمثلون (٦٢) هيئة شعبية في أفريقيا، وقد مثلت مصر في هذا المؤتمر بوفد ترأسه محمود فوزي وزير خارجية مصر آنذاك الذي ألقى خطابًا وضح فيه شرعية الكفاح الجزائري من أجل الاستقلال ومعنى الاستقلال للدول الممثلة في المؤتمر إذ قال "إن الانسان بدأ يدرك الخطأ الكبير في سيطرة دولة على أخرى، كما يدرك جنون السياسة المغامرة التي لا أساس لها ولا أخلاق والتي تتبعها فرنسا في الجزائر".[٥١]

وفي الدورة الرابعة عشرة للأمم المتحدة التي انعقدت في عام ١٩٥٩، وأثناء مناقشة القضية الجزائرية، تقدم وزير الخارجية المصري محمود فوزي ببيان أوضح فيه موقف مصر المؤيد للوطنين الجزائريين في المعركة التي يخوضونها ضد فرنسا في سبيل تحقيق الاستقلال، وأشار إلى مشروع (ديجول) الخاص بإجراء استفتاء في الجزائر إذ قال: "أن يكون من شأن الجزائريين بطبيعة الحال، ومن شأنهم وحدهم أن يتخذوا قراراتهم الخاصة، ونحن نلاحظ ونسجل اعتراف فرنسا بحق الجزائريين في تقرير مصيرهم". وفي ختام البيان أبرز محمود فوزي موقف مصر من القضية الجزائرية إذ قال: "إن موقف حكومتي من حكومة الجزائر وشعبها وكفاحها من أجل الاستقلال واسترداد البلاد والمحافظة على سلامة الأراضي سيظل كما كان في أي وقت مضى هو موقف الحزم والتصميم". وأثناء مناقشة القضية الجزائرية، هاجم محمود فوزي منظمة الأمم المتحدة واتهمها بالسلبية في معالجة قضية الجزائر. وحث على بدء مفاوضات بين الجزائريين والفرنسيين من أجل تسوية نهائية للقضية الجزائرية قائلاً: "إذا كانت هناك حرب يجب خوضها فيما يتصل بالجزائر، فيجب أن تكون هذه حربًا للانتصار على هذه العقبات، ويجب أن تكون حربًا على الحرب في سبيل انتصار السلام".[٥٢]

وفي ١٤ آب ١٩٥٩، اجتمع وزراء خارجية الدول الأفريقية المستقلة (مصر، ليبيريا، المغرب الأقصى، غينيا، السودان، أثيوبيا، ليبيا)، في مونروفيا عاصمة ليبيريا لمناصرة القضية الجزائرية،[٥٣] مثل مصر في هذا المؤتمر حسين ذو الفقار صبري،[٥٤] الذي ألقى خطابًا مهمًا ندد فيه بالفضائح التي ترتكبها فرنسا ضد الشعب الجزائري، كما ندد بقرار فرنسا الهادف إلى إجراء تجاربها الذرية في الصحراء الكبرى.[٥٥] وقد أوصى المؤتمر في قراراته بالاعتراف بحق تقرير المصير والاستقلال لشعب الجزائر وطالب فرنسا بسحب جيوشها من الجزائر والدخول في مفاوضات مع الحكومة الجزائرية المؤقتة، وألح على الدول المستقلة بمواصلة العمل الدبلوماسي لنصرة القضية الجزائرية على مستوى المحور الدولي، ومنح الجزائر المساعدات المادية.[٥٦]

وفي إطار دعم النضال الأفريقي عقد في تونس مؤتمر الشعوب الأفريقية في الفترة (٢٥-٣٠ كانون الثاني ١٩٦٠)، الذي اشتركت فيه مصر وعبر ممثلوها في المؤتمر عن سخطهم تجاه الجرائم التي يمارسها الاستعمار الفرنسي في الجزائر، وأيدوا المباحثات الجزائرية – الفرنسية من أجل تقرير المصير وطالب المؤتمر برصد مساعدات مادية في ميزانية الدول الإفريقية المستقلة لصالح النضال الجزائري، كما طالب بوضع حد للأحداث الدامية في الجزائر بمشاركة المتطوعين الأفارقة في الكفاح الجزائري المسلح.[٥٧] وفي المؤتمر الثاني لتضامن الشعوب الإفريقية الآسيوية الذي عقد في كوناكري عاصمة غينيا في الفترة (١١-١٥ نيسان ١٩٦٠)، بذلت مصر مساعي حثيثة من أجل إصدار المؤتمر لقرارات تستنكر سياسة فرنسا في الجزائر والموافقة على إنشاء جيش تحرير إفريقي – آسيوي للاشتراك في تحرير الجزائر.[٥٨]

وفي الفترة (٤-٧ كانون الثاني ١٩٦١) وبدعوة من الملك المغربي (محمد الخامس)، عقد مؤتمر في الدار البيضاء في المغرب الأقصى حضره رؤساء حكومات (مصر، غانا، مالي، غينيا، الحكومة الجزائرية المؤقتة، ووزير خارجية ليبيا)، وقد بحث المؤتمرون القضايا الإفريقية ولا سيما القضية الجزائرية، التي أعلن المؤتمرون بشأنها تصميمهم على تأييد الشعب الجزائري وحكومة المؤقتة بكل الوسائل لتدعيم الكفاح في سبيل الاستقلال، كما ناشد جميع البلدان التي تؤيد كفاح الجزائر بزيادة دعمها الدبلوماسي والمادي للحكومة الجزائرية المؤقتة.[٥٩] ونالت القضية الجزائرية دعما إفريقيا آخر في مؤتمر شعوب إفريقيا الذي انعقد في القاهرة من (٢٥-٣٠) آذار ١٩٦١، وقد لعبت مصر دورًا أساسيًا في هذا المؤتمر من أجل دعم القضية الجزائرية، إذا افتتح جمال عبد الناصر المؤتمر بخطاب تعرض فيه لمراحل كفاح القارة الإفريقية ضد الاستعمار متطرقًا لما تمارسه فرنسا من سياسة استعمارية في الجزائر، وأوضح أن القضية الجزائرية تمثل

ذروة النضال الإفريقي من أجل الحرية والاستقلال، وأكد أن الشعوب الإفريقية تؤيد الجانب الجزائري بكل قواها المادية والمعنوية في المفاوضات مع فرنسا.(٦٠)

وفي ١٤ كانون الأول ١٩٦١، أثيرت القضية الجزائرية في الدورة السادسة عشر لهيئة الأمم المتحدة، بناءً على طلب تقدمت به اثنان وأربعون دولة آسيوية وافريقية من بينها مصر، وتركزت خطب ممثلي الدول المساندة للقضية الجزائرية على ضرورة الإسراع في المفاوضات بين الجزائر وفرنسا، تنفيذ لقرارات الأمم المتحدة، والوصول بها إلى نتائج مرضية تضمن للجزائريين حق تقرير مصيرهم والاستقلال الكامل. وقد ألقى (عمر لطفي) رئيس الوفد المصري في هذه الدورة بيانًا أبرز فيه موقف الجمهورية العربية المتحدة من القضية الجزائرية، حيث ذكر أن القضية الجزائرية قضية عربية بالدرجة الأولى، وقد حدد ذلك في عدة نقاط، حين قال "يعرف الجميع موقف الجمهورية العربية المتحدة من هذه القضية التي تعنينا لأكثر من سبب واحد، فهي أولاً قضية تهم العالم العربي، لأن فرنسا حاولت منذ مائة وثلاثين عامًا وحتى اليوم إزالة الطبيعة العربية للبلاد، وهي ثانيًا تهمنا كقضية أفريقية، فقد مرت سبعة أعوام والجزائر تساهم بنضال أبنائها في تحرير القارة الإفريقية من الاستعمار، وهي ثالثًا تهم الأمم المتحدة. وأشار إلى مراحل تطور القضية الجزائرية في هيئة الأمم المتحدة، وعاب على الأمم المتحدة أنها لم تجد حلاً لهذه القضية.

وعند كلامه عن مفاوضات فرنسا للجزائر ذكر (عمر لطفي) أن الاتصالات التي جرت بين فرنسا والجزائر كانت تصطدم دائمًا بعناد فرنسا وإصرارها على موقفها، وبرر فشل المفاوضات برفض الحكومة الفرنسية الاعتراف بالمبادئ الأساسية لوحدة الأراضي الجزائرية ووحدة الشعب الجزائري، وطالب الأمم المتحدة بأن تقول كلمتها وتجد حلاً لهذه المشكلة بما يتفق مع آمال الشعب الجزائري. ونبه ممثل مصر إلى ما تمارسه فرنسا من تعذيب واضطهاد، مؤكدًا أن ذلك لم يوقف الشعب الجزائري عن كفاحه، وأكد أن أساليب التعذيب والاضطهاد التي لجاء إليها الجيش الفرنسي لن تصرف الجزائريين عن نضالهم، وفي ختام بيانه طالب الأمم المتحدة بإيجاد طريقة لإنهاء هذه الحرب الجزائرية الفرنسية، مؤكدًا أن الطريقة الوحيدة هي اعتراف فرنسا باستقلال الجزائر ضمن نطاق وحدة البلاد الإقليمية. ولقد عبرت مصر ومجموعة الدول الافرواسيوية في البيان الذي تقدمت به عن أسفها لوقف المفاوضات بين حكومة فرنسا والحكومة الجزائرية المؤقتة، ودعى الطرفين إلى استئناف المفاوضات من أجل إعطاء الشعب الجزائري حق تقرير مصيره، وذلك في نطاق احترام وسلامة الوطن الجزائري.(٦١)

وقد تجلى الدعم المصري أيضًا وبدون تحفظ عندما بدأت مفاوضات ايفيان في ١٨ آذار ١٩٦٢، إذ أصدرت الحكومة المصرية بيانا أكدت فيه مساندتها المطلقة للحكومة المؤقتة الجزائرية في المفاوضات التي ستجريها مع الحكومة الفرنسية والتي ترمي إلى الاعتراف بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره والحصول على استقلاله وسيادته التامة.(٦٢)

خَاتِمَةُ

اعتبرت مصر محور النشاط الرئيس للحركة الوطنية الجزائرية، نظرًا لموقعها المهم الرابط بين المشرق والمغرب، وكذلك احتضانها لقيادات الوفود الجزائرية، والتواجد المكثف للجزائريين المقيمين في مصر لا سيما لأغراض دراسية وعلمية، وأسبقية مصر بالجهر بموقفها المساند والداعم للثورة الجزائرية. كانت البواكير الأولى للدعم الدبلوماسي المصري للقضية الجزائرية قد تجسدت بتأسيس مكتب المغرب العربي في القاهرة الذي تأسس إثر انعقاد مؤتمر المغرب العربي بين (١٥-٢٢) شباط ١٩٤٧، وشكل محطة بارزة في العمل المغاربي من خلال مساهمته بالتعريف بالقضية المغاربية بشكل عام، وكانت الجزائر حاضرة من خلال حزب الشعب الجزائري، وضمن هذا المكتب تمكنت بعثة انتصار الحريات الديمقراطية من تطوير نشاطها الدعائي للثورة الجزائرية، وبدعم من مصر شارك أعضائها في مؤتمر باندونغ ١٩٥٥، وهو ما فتح الطريق نحو تدويل القضية الجزائرية، ثم توالت الاعترافات بالحكومة الجزائرية المؤقتة الذي كان تأسيسها في القاهرة أيضًا، إن الدعم المصري المتكامل للقضية الجزائرية تزامن مع نمو المد القومي العربي في مصر ومنذ تولي جمال عبد الناصر رئاسة جمهورية مصر في عام ١٩٥٤، وانتهاجه نهجًا قوميًا ومناهضًا للاستعمار في سياسته الخارجية، لعبت جمهورية مصر العربية دورًا إقليميًا مساندًا لحركات التحرر في العالم الثالث، وقد تجسد ذلك الدور في مواقف مصر المؤيدة للعديد من حركات التحرر العربي والإفريقي، وكان للقضية الجزائرية نصيبها من الدعم المصري، الذي لم يقتصر على الدعم العسكري والمادي فحسب بل تعدى ذلك إلى الدعم الدبلوماسي، الذي تزامن مع سنوات الثورة الجزائرية (١٩٥٤-١٩٦٢)، وتكللت الجهود المصرية الجزائرية بتشكيل الحكومة الجزائرية المؤقتة في ١٩ أيلول ١٩٥٨، على الأراضي المصرية، وساهمت الحكومة المصرية بدعم تلك الحكومة، ودعوة الحكومات الإفريقية إلى الاعتراف بها.

واصلت جمهورية مصر دورها في دعم الكفاح الجزائري دبلوماسيًا بالقدر نفسه الذي سلكته نحوها ماديًا وعسكريًا، ولم تخلُ المحافل الدولية من عرض للقضية الجزائرية، وكانت مصر دائمًا وراء كل المساعي لدعم القضية الجزائرية أو الحصول على قرار تأييد أو استنكار للإعمال الفرنسية في الجزائر واستمر هذا الدور بلا تراجع طوال فترة كفاح الشعب الجزائري. وكان للدعم الدبلوماسي المصري للجزائر دورًا كبيرًا في منح القضية الجزائرية بعدًا عالميًا. وتعريف الرأي العام العالمي بعدالة قضية الشعب الجزائري وحجم معاناته تحت نير السياسة الاستعمارية الفرنسية.

لقد عكس ذلك الدعم المصري حقيقة مهمة تتمثل في التأثير المصري على الدول العربية والكثير من الدول الإفريقية والسعي إلى تشكيل تكتل افرو آسيوي مساند للقضية الجزائرية، وفضح السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر بالاستناد على الأدلة القانونية والتاريخية التي تمنح القضية الجزائرية صفة شرعية. وكان لذلك الجهد الدبلوماسي المصري أثرًا إيجابيًا واضحًا في

التعجيل في بدأ مفاوضات جزائرية -فرنسية ترتكز على أساس عادل، وقد أدت تلك المفاوضات بالنتيجة إلى حصول الشعب الجزائري على حقه المشروع في تقرير مصيره ووضع حد نهائي للوصاية الفرنسية على الجزائر.

الهَوامِشُ:

(1) Phillip C.Naylor,France and Algeria, A History Of Decolonization and Transformation, Printed in the United State OF America, of The Regents OF The State OF Florida, 2000, P.8

(2) Muslim impoverishment in colonial Algeria In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N°17, 1974. pp143-145.

(٣) كان من أبرزها ثورة عبد القادر الجزائري ١٨٣١-١٨٤٧، وثورة القبائل عام ١٨٥١، وثورة واحات الجنوب عام ١٨٥٥، وثورة أولاد سيدي الشيخ ١٨٦٣، وثورة المقراني عام ١٨٧٠، للتفاصيل يُنظر: بشير بلاح، **تأريخ الجزائر المعاصر ١٨٣٠-١٩٨٩**، ج١، دار المعرفة، (الجزائر،٢٠٠٦)، ص٧١-١٣٩؛ مصطفى الأشرف، **الجزائر – الأمة والمجتمع**، ترجمة حنفي بن عيسى، دار القصبة للنشر، (الجزائر، ٢٠٠٧)، ص١١٥ وما بعدها.

(٤) للتفاصيل حول ظروف تأسيس جبهة التحرير الجزائرية، يُنظر: سعاد يمينة شبوط، **"الثورة الجزائرية في مرحلة المخاض (١٩٥٣-١٩٥٤)"**، دورية كان التاريخية، (القاهرة)، السنة السادسة عشر، العدد (٢١)، أيلول، ٢٠٠٣، ص ٩-٢٦.

(5) C.N.A.A.: Rapport du Procureur Général près la cours d'Appel à Monsieur le Procureur Général prés la cours d'Appel au sujets des résultats de l'information régulière sur l'affaire de la découverte des corps des membres de la famille hanouz, Bougie, 09/11/1946.

(٦) سيد أحمد بن نعماني، **٨ ماي ١٩٤٥ بالجزائر، مدن ورجال بلدية تاقيطونت المختلطة أنموذجًا (مقاربة تأريخية اجتماعية)**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية – قسم التأريخ، (الجزائر، ٢٠٠٩)، ص٢٠٦؛ أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية (١٩٣٠-١٩٤٥)**، ج٣، ط٤، دار الغرب الإسلامي، (بيروت، ١٩٩٢)، ص٢٢٧ وما بعدها.

(٧) أحمد إسماعيل راشد، **تأريخ أقطار المغرب العربي الحديث والمعاصر**، دار النهضة العربية، (بيروت، ٢٠٠٤)، ص١٦٦.

(٨) النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني: بيان فاتح نوفمبر ١٩٥٤، منشورات وزارة الإعلام والثقافة، (الجزائر، ١٩٧٩)، ص٨.

(٩) علي محافظة، **فرنسا والوحدة العربية**، مركز دراسات الوحدة العربية، (بيروت، ٢٠٠٨)، ص١٥٨.

(١٠) جيش التحرير الجزائري: تنظيم عسكري جزائري تشكلت قواته في البداية مما يقرب من ٣٠ ألفًا من المجاهدين، يتألف من جنود نظاميين وعدد غير قليل من المتطوعين. يُنظر: أحمد توفيق المدني، **هذه هي الجزائر**، مكتبة النهضة العربية، (القاهرة، ١٩٥٦)، ص٢٢١.

(١١) مذكرات الرئيس علي الكافي، **من المناضل السياسي الى القائد العسكري، ١٩٤٦-١٩٦٢**، دار القصبة للنشر، (الجزائر، ١٩٩٩)، ص٧٦.

(١٢) الفضيل الورتلاني، **الجزائر الثائرة**، دار الهدى، (الجزائر،٢٠٠٩)، ص١٨١-١٨٣.

(١٣) عمار بوحوش، التأريخ **السياسي للجزائر**، دار الغرب الإسلامي، (بيروت ١٩٩٧)، ص ٤١٨-٤١٩.

(١٤) آمال شلبي، **التنظيم العسكري في الثورة الجزائرية ١٩٥٤-١٩٦٢**، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة العقيد الحاج لخضر، (الجزائر، ٢٠٠٦)، ص٣٩٢-٣٩٤.

(١٥) بوحوش، المصدر السابق، ص٤٢٠؛ أحمد بن بلا، **مذكرات أحمد بن بيلا**، ترجمة: العفيف الأخضر، منشورات دار الآداب، (بيروت، د.ت)، ص١١٣-١٢٠.

(16) Matthew Connelly: A Diplomatic Revolution, Exford University, Press, New Yourk, 2002, p.79.

للمزيد حول الدعم العسكري المصري للثورة الجزائرية، يُنظر: فتحي الديب، **عبد الناصر وثورة الجزائر**، دار المستقبل العربي، (القاهرة، ١٩٨٤)، ص٢٤٣-٣٥٦.

(١٧) أحمد الشقيري، **قصة الثورة الجزائرية من الاحتلال إلى الاستقلال**، دار العودة، (بيروت، د.ت)، ص٤٥.

(١٨) جلال يحيى، **تأريخ المغرب العربي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (الاسكندرية، ١٩٨٢)، ص٣٤٩؛ أحمد توفيق المدني، **حياة كفاح**، ج٣، الشركة الوطنية للنشر، (الجزائر، ١٩٨٢)، ص٥٥٠.

(19) David Galula, Pacification in Algeria published by the Rand Corporation in 2006,p.220; Martin Windrow, The Algerian War 1954-62, first published in Great Britain, by Osprey.a division LTD, 1997.

(20) The Algerian War and The French Army, 1954-62, Edited by Martin S.Alexander and Martin Evans, J.F.V.Keiger, Printed and bound in Great Britain by Antony Rowe LTD, 2002, p.78.

(*) **فرحات عباس** (١٨٩٩-١٩٨٥): سياسي ورجل دولة جزائري ترأس اثناء الثورة الجزائرية الحكومة المؤقتة بعد إن كان في السابق من أنصار الاندماج مع فرنسا، ولد في منطقة القسنطينة من عائلة برجوازية، حصل ثقافة فرنسية، انتهج طريقًا سلميًا في المطالبة بالإصلاح والمساواة عبر المفاوضات والتفاهم فقط، إلا إن هذا النهج قد تغير بعد قيام الثورة، وأصبحت مهمة فرحات عباس الإشراف على الإعلام الخارجي لجبهة التحرير الوطني، وفي ١٩ أيلول ١٩٥٨، تشكلت حكومة ثورية مؤقتة في المنفى، عهد إليه برئاستها واستمر في منصبه هذا حتى ٢٧ أب ١٩٦١. يُنظر: عز الدين معزة، **فرحات عباس ودوره في الحركة الوطنية ومرحلة الاستقلال ١٨٩٩-١٩٨٥**، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري، (الجزائر، ٢٠٠٥)، ص٢٧ وما بعدها.

(٢١) حميد عبد القادر، **فرحات عباس رجل الجمهورية**، دار المعرفة، (الجزائر،٢٠٠١)، ص١٧٦.

(٢٢) راشد، المصدر السابق، ص ١٧٤.

(٢٣) ويدرج ضمن ذلك الضغوط الداخلية على فرنسا المتمثلة بجبهة الرفض المدني والعسكري التي بلغت ذروة نشاطها في عام ١٩٦٠، إذ لعب الرأي العام الفرنسي الرافض للحرب في الجزائر دوره في مناصرة القضية الجزائرية. يُنظر: أحمد منغور، **موقف الرأي العام الفرنسي من الثورة الجزائرية ١٩٥٤-١٩٦٢**، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، (الجزائر، ٢٠٠٦)، ص١٦٥ وما بعدها.

(24) Malek (Rédha), L'Algérie à Evian, histoire des négociations secrètes 1956, 1962, édition, A.N.E.P, Alger, 2001,p-p.94-98.

(٢٥) بن يوسف بن خدة، **اتفاقيات ايفيان**، ترجمة لحسن زغدار، محل العين جبائلي، دار المطبوعات الجامعية، (الجزائر، د.ت)، ص٣٩ وما بعدها.

(٢٦) صلاح العقاد، **الجزائر المعاصرة**، معهد الدراسات العربية العالمية، (القاهرة، ١٩٦٣)، ص١٢٦.

L'élite intellectuelle, l'avant-garde militante et le peuple algérien In: Vingtième Siècle. Revue d'histoire. N°12, octobre-décembre 1986. p. 57.

(٢٧) بنجامين ستورا، **تاريخ الجزائر بعد الاستقلال**، ترجمة: صباح ممدوح كعدان، الهيئة السورية العامة للكتاب، (دمشق، ٢٠١٢)، ص١٠.

(٢٨) هاجر قحموش، **التنافس بين جبهة التحرير الوطنية والحركة الوطنية الجزائرية (MNA) في المحافل الدولية –منظمة الأمم المتحدة نموذجًا**، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة محمد خضير، (الجزائر،٢٠١٣)، ص٢٩. كانت البواكير الأولى للدعم الدبلوماسي المصري للقضية المغاربية تتمثل بتأسيس مكتب المغرب العربي في القاهرة، إثر انعقاد مؤتمر المغرب العربي بين ١٥-٢٢ شباط عام ١٩٤٧، الذي شكل محطة بارزة في العمل المغاربي من خلال مساهمته بالتعريف بالقضية المغاربية بشكل عام، وكانت الجزائر حاضرة فيه من خلال حزب الشعب الجزائري. يُنظر:

Charles R.Shrader, The First Helicopter War Logistics and Mobility in Algera, Printed in The United State,1999, p.168.

(٢٩) لتفاصيل حول مساهمة الطلبة الجزائريين في مصر ودعمهم للثورة الجزائرية، يُنظر: محمد السعيد عقيب، **"الطلبة الجزائريون في مصر والمشرق العربي ومساهمتهم في الثورة الجزائرية"**، مجلة مصر والعالم العربي، (القاهرة)، العدد الأول، ٢٠٠٩، ص١٤٨-١٤٩؛ أحمد مريوش، **الحركة الطلابية الجزائرية ودورها في القضية الوطنية وثورة التحرير ١٩٥٤**، أطروحة دكتوراه كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، (الجزائر، ٢٠٠٦)، ص٢٣١-٢٥٦.

(30) Jean (Lacouture), cinq hommes et la France, édition, Seuil, Paris, 1961, p.306.

(31) Stora (Benjamin), Zakya Daoud, Ferhat Abbas une autre Algérie, édition, Casbah,1995, p.190.

(٣٢) خيري حماد، **قضايانا في الأمم المتحدة**، ط١، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، (القاهرة، ١٩٦٢)، ص٤٠٠.

(٣٣) شوقي عطا الله الجمل، **الدور الإفريقي لثورة يوليو ١٩٥٢**، (القاهرة، ١٩٩٤)، ص٤٦-٤٧.

(٣٤) جورج قرم، **"مؤتمر باندونغ ١٩٥٥، أول تدويل للقضية الجزائرية"**، مجلة الآداب اللبنانية (بيروت)، العدد الرابع، ٣٠ نيسان ١٩٥٥، ص١٨.

(٣٥) خطاب جمال عبد الناصر في مؤتمر باندونغ ٢١ نيسان ١٩٥٥، **مجموعة خطب وتصريحات جمال عبد الناصر**، القسم الأول، الهيئة العامة للاستعلامات، (القاهرة، ١٩٨٥)، ص٣٠٧-٣٠٨.

(٣٦) **صحيفة الأهرام**، العدد ٢٤٩٨٢، ٢١ نيسان ١٩٥٥.

(٣٧) أحمد بن فليس، **السياسة الخارجية للثورة الجزائرية، الثوابت والمتغيرات (١٩٥٤-١٩٦٢)**، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم السياسية والإعلام، جامعة بن يوسف بن خدة، (الجزائر،٢٠٠٧)، ص١٥٣.

(٣٨) مريم صغير، **المواقف الدولية من القضية الجزائرية ١٩٥٤-١٩٦٢**، دار الحكمة، (الجزائر، ٢٠٠٩)، ص١٢٥.

(٣٩) إسماعيل دبش، **السياسات العربية والمواقف الدولية تجاه الثورة الجزائرية ١٩٥٤-١٩٦٢**، دار هومة، (الجزائر، ٢٠٠٩)، ص٧٣؛ غربي الغالي، **فرنسا والثورة الجزائرية (١٩٥٤-١٩٥٨): دراسة في السياسات والممارسات**، دار غرناطة، (الجزائر، ٢٠٠٩)، ص٤٨١.

(٤٠) **صحيفة الأهرام**، العدد ٥٣٢٣، ٣٠ آذار ١٩٥٦.

(٤١) **محمد فتحي مبروك إبراهيم الديب** (١٩٢٣-٢٠٠٣): من مؤسسي جهاز الاستخبارات المصري، ويُعَدّ أحد معاوني الرئيس المصري جمال عبد الناصر في قضايا الشؤون العربية وحركات التحرر، كلفه ناصر برئاسة دائرة الشؤون العربية في جهاز الاستخبارات، للتفاصيل، يُنظر: موقع المعرفة الإلكتروني على الرابط: www.marefa.org

(٤٢) الديب، المصدر السابق، ص٦٣٣.

(٤٣) عودة عبد الرحمن، **مصر والحركة الوطنية في الجزائر منذ الحرب العالمية الأولى حتى الاستقلال ١٩١٤-١٩٦٢**، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، ١٩٩١، ص٢٤٢.

(٤٤) **صحيفة الأهرام**، العدد ٢٥٤٣١، ٢١ حزيران ١٩٥٦.

(٤٥) هدى فاروق "**عبد الناصر وحركات التحرر العربية** "، في كتاب: **جمال عبد الناصر -رؤية متعددة الزوايا** (إعداد) عبد القادر ياسين، ط١، دار الكتاب العربي، (دمشق، ٢٠٠٨)، ص٦٥٥.

(٤٦) **صحيفة المجاهد**، (الجزائر)، العدد ١٤، ١٥ كانون الأول ١٩٥٧.

(٤٧) حماد، المصدر السابق، ص٤٠٢؛ **صحيفة الأهرام**، العدد ٢٦٢٣٢، ٨ تشرين الأول ١٩٥٨.

(٤٨) محمد فايق، **عبد الناصر والثورة الإفريقية**، دار الوحدة، (بيروت، ١٩٨٤)، ص٥٤.

(٤٩) **صحيفة الأهرام**، العدد ١٥،١٥ كانون الثاني،١٩٥٨.

(٥٠) **صحيفة المجاهد**، العدد ٢١، ١ نيسان ١٩٥٨.

(٥١) **صحيفة الجمهورية**، (القاهرة)، العدد ١٥٨٢، ١٨ نيسان ١٩٥٨؛ فايق، المصدر السابق، ص٢١٤.

(٥٢) **صحيفة الأهرام**، العدد ٢٦٥٩٥، ٦ تشرين الأول ١٩٥٩؛ **صحيفة الأهرام**، العدد،٢٦٦٥٤، ٣٠ كانون الاول ١٩٥٩.

(٥٣) ليجوم كولين، **الجامعة الأفريقية، دليل سياسي موجز**، ترجمة أحمد محمود سلمان، الرابطة المصرية للتأليف والترجمة، (القاهرة، ١٩٦٦)، ص٢٥٦.

(٥٤) **حسين ذو الفقار صبري**: ولد في ١٩ شباط ١٩١٥ في القاهرة، حصل على البكالوريوس من كلية الطيران الحربي، وأصبح مدير إدارة القوات الجوية (١٩٥٦-١٩٥٧)، ومستشار رئيس الجمهورية للشؤون الخارجية (١٩٥٧-١٩٥٨)، ونائب وزير الخارجية (١٩٨٥-١٩٦٣)، ومستشار رئيس الجمهورية للشؤون الخارجية بدرجة وزير (١٩٦٤-١٩٧١)، وسفير مصر في دولة سويسرا (١٩٧١-١٩٧٥). يُنظر موقع المعرفة الإلكتروني على الرابط: www.marefa.org

(٥٥) **صحيفة الجمهورية**، العدد ١٢٧٩، في ١٧ آب ١٩٥٩.

(٥٦) كولين، المصدر السابق، ص٢٥٦.

(٥٧) شوقي الجمل، **الوحدة الأفريقية ومراحل تطورها، من مؤتمر أكرا ١٩٥٨ حتى مؤتمر تنمية الصناعة الأفريقي عام ١٩٦٦**، الدار القومية للطباعة والنشر، (القاهرة، ١٩٦٦)، ص٢٣؛ كولين، المصدر السابق، ص٢٨٠.

(٥٨) **صحيفة المجاهد**، العدد ٨٧، ١٦ كانون الثاني ١٩٦١.

(٥٩) **مجلة مصر والعالم العربي**، (القاهرة) العدد الثاني، تموز ٢٠١٠، ص٢٢.

(٦٠) **صحيفة الأهرام**، العدد ٢٧١٢٣، ١٦ آذار ١٩٦١.

(٦١) حماد، المصدر السابق، ص٤١٠-٤٢٢.

(٦٢) **صحيفة المجاهد**، العدد ٢٦، ٢٢ ايار ١٩٦١.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

دراسات

الظاهرة الكولونيالية ومناهضتها في فكر البشير الإبراهيمي من خلال مآثره الأدبية والصحفية



عبد القادر عزام عوادي

أستاذ مساعد

جامعة الشهيد حمة لخضر

الوادي – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

تُعَدّ شخصية الشيخ محمد البشير الإبراهيمي من أهم الشخصيات الزعمات الدينية والإصلاحية التي شهدها تاريخ الجزائر في العصر الحديث، ولقد عاصر الشيخ الإبراهيمي رفقة خليله وصديقه الشيخ عبد الحميد بن باديس فترة هامة من تاريخ الجزائر، وهي الفترة الاستعمارية وما تخللها من أوضاع مست المجتمع الجزائري في كافة المجالات، وحاول الشيخ الإبراهيمي رفقة الشيخ عبد الحميد بن باديس وتحت غطاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تأسست في يوم ٥ مايو ١٩٣١م، أن يقوموا بإصلاحات داخل المجتمع من خلال السياسة التعلمية والصحفية والتهذيبية التي مست مختلف طوائف المجتمع، وكان من أبرز ما دعا إليه الشيخ الإبراهيمي من خلال كتاباته وخطاباته ومراسلاته هو بغضه للاستعمار بكافة أشكاله ووجوهه المختلفة، وكتب الكثير في هذا المضمار منددًا بالاستعمار في كل الأوطان العربية والاسلامية، ولعل من أبرزها القضية الفلسطينية التي كانت همه رفقة القضية الجزائرية، وأيضًا من خلال عضويته في لجنة تحرير المغرب العربي.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٠ نوفمبر ٢٠١٥

تاريخ قبـول النشـر: ٠٤ مارس ٢٠١٦

كلمات مفتاحية:

جمعية العلماء، الاستعمار الفرنسي، المغرب العربي، الثورة التحريرية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0051257

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد القادر عزام عوادي، "الظاهرة الكولونيالية ومناهضتها في فكر البشير الإبراهيمي من خلال مآثره الادبية والصحفية".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد التاسع والثلاثين؛ مارس ٢٠١٨. ص٩١ – ١٠٢.

مُقَدِّمَةُ

منذ أن وطئت أقدام المستعمر الغاشم أرض الجزائر الطاهرة، بدأت المقاومات الشعبية التي واجهت هذا المستدمر، ولم يرض هذا الشعب الأبي أبدًا بالاحتلال والذل والمهانة، وقدم النفس فداءً للوطن، ولقد تعددت أشكال وأنواع مواجهة الاستعمار الفرنسي، فكانت المواجهة العسكرية غير المتكافئة هي الأولى من خلال المقاومات الشعبية، والعمل السياسي الذي ظهر فيما بعد من خلال الاحزاب والشخصيات السياسية، وأيضًا من أبرز المواجهات هي المواجهة الفكرية والإصلاحية والتي تصدت لها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من خلال توعية الشعب الجزائري، وأيضًا إصدار الجرائد والمجلات، وإنشاء المدارس وإرسال البعثات العلمية وكل ذلك من أجل إيقاظ الضمير الجزائري الذي تدنس بمخلفات الاستعمار الفرنسي الجاثم عليه ما يزيد عن قرن من الزمن.

ومن أبرز الشخصيات التي قادت في هذا المضمار شخصية محمد البشير الإبراهيمي "عليه رحمة الله"، الذي كان أسدًا شجاعًا في مواجهة الاستعمار بكلمته، وكان قلمًا دفاقًا بمقالاته التي عرت سياسات فرنسا الاستدمارية، وكان لسانًا فصيحًا من أجل إعادة الهيبة للغة العربية، وكان إمامًا مصلحًا يدافع عن حياض الإسلام والعقيدة الصحيحة. ولقد كان الإبراهيمي "عليه رحمة الله" من أشد المعارضين للاستعمار الفرنسي بقلمه، وأيضًا بفكره النير المستنير، فكان شعلة أضاءت عقول الجزائريين، وأنار افئدة الشباب الجزائري، فكانت مقالاته بمثابة اللقاح والمضاد الحيوي الذي اكتسبه الشباب الجزائري في تلك الفترة، وبذلك تولدت لديه روح جديدة هي روح المقاومة لكل ما هو مخالف

للشريعة الإسلامية وللشخصية العربية الجزائرية، فحارب العقائد الفاسدة، والتزم باللغة العربية، واللباس الإسلامي العربي، والعادات والتقاليد الجزائرية الأصيلة، وبذلك تكونت الشخصية العربية الإسلامية التي حاول الاستعمار الفرنسي طمسها والقضاء عليها طوال تواجده في الجزائر.

لذلك سوف تكون هذه الدراسة حول فكر الإبراهيمي ونظرته للظاهرة الكولونيالية الفرنسية، وأيضًا مناهضته ومحاربته لهذا التواجد الغاشم بفكره وقلمه وعمله، وسوف تكون الإشكالية تتمحور في التساؤلات التالية: كيف كانت نظرة البشير الإبراهيمي للظاهرة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر؟ وكيف واجهها البشير الإبراهيمي؟ وكل ذلك من خلال تراث شيخنا الأدبي والصحفي.

١-لمحة عن البشير الإبراهيمي وجهوده الإصلاحية داخل جمعية العلماء

ولد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، في يوم الخميس ١٤ شوال سنة ١٣٦٠هـ الموافق ليوم ١٤ جوان سنة ١٨٨٩م، في قرية رأس الوادي في بلدة (سطيف)، واسمه الكامل هو محمد البشير بن محمد السعدي بن عمر بن محمد السعدي بن عبد الله بن عمر الإبراهيمي،[١] وينتسب إلى قبيلة (ريغه)، الشهيرة بأولاد إبراهيم بن حيى بن مساهل. أخذ العلم عن الشيخ عبد العزيز الوزير، والشيخ محمود الشنقيطي، والشيخ حمدان الونيلي، والشيخ الطيب بن مبارك الزواوي وغيرهم.[٢]

هاجر إلى الحجاز قبل الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩١١م رفقة عائلته، وعند مروره على مصر استقر مدة ثلاثة أشهر هناك في مدينة القاهرة ينهل من علماءها وشيوخها خاصة علماء الازهر، وزار خلال تواجده هناك كل من الشاعرين حافظ إبراهيم وأحمد شوقي، والعالم القرآني الشيخ رشيد رضا، والعديد من العلماء الاخرين، وأقام في المدينة المنورة إلى غاية سنة ١٩١٧م، حيث ارتحل بعدها رفقة والده الى دمق ومارس التعليم في مدارسها الثانوية، ونجد أنه سنة ١٩١٣م اجتمع مع الشيخ عبد الحميد بن باديس واستعرضا حالة الجزائر السياسية والثقافية والعلمية والاصلاحية، وتناقشا مطولاً في سبيل الخروج من هذه الأزمة التي أصابت البلاد والعباد في الجزائر.[٣] وعاد إلى الجزائر في سنة ١٩٢٠م، وهناك كانت قد بدأت جهود الشيخ عبد الحميد بن باديس الاصلاحية، ولكنها لم تصل بعد إلى مرحلة الذروة والقوة، وبدأ الشيخ البشير الإبراهيمي أيضًا في منطقته بسطيف نشر بذور الحركة الاصلاحية والتعلمية هناك من خلال الحث على التعليم ومحاربة الجمود الفكري وإنشاء المدارس والمساجد الحرة، ولكن أعماله من سنة وصوله إلى الجزائر وإلى غاية سنة ١٩٢٩ لم تكن ذات ظهور وأثر بارز.

وبعد الاحتفالية المئوية التي قامت بها السلطات الفرنسية في ذكرى احتلال الجزائر، جاء الرد الوطني والرد من طرف العلماء المصلحين والوطنيين في الجزائر حيث وفي يوم ٥ مايو ١٩٣١ تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، من صفوة العلماء في تلك الفترة، فكانت أحسن رد عن تلك الاحتفالات والادعاءات الكاذبة بأن الجزائر أصبحت قطعة فرنسية، فعين الشيخ الإبراهيمي، نائبًا للرئيس عبد الحميد بن باديس، وبدأ العمل الجاد من أجل إصلاح المجتمع الجزائري. وهكذا كان نشاطه دؤوبًا في مجال الحركة الاصلاحية الجزائرية، فكان صاحب القلم السيال بتلك المقالات المنشورة في جرائد الجمعية، وكان يدعوا فيها الشعب الجزائري والشباب الجزائري بصفة خاصة إلى تحمل المسؤولية والى رفع الهمم، من أجل هذه الحركة الاصلاحية التي تقودها جمعية العلماء المسلمين، وكان أيضًا مدافعًا عن الدين واللغة والهوية ومحاربًا عنها في تلك المقالات.

وكان الشيخ البشير الإبراهيمي مكونًا للرجال، فلقد خرج من مدارسه ومن حلقاته العلمية العشرات من الأعلام والشخصيات العلمية والفكرية والاصلاحية في الجزائر، الذين حملوا بعد مشعل الإسلام والعربية والوطنية. وفي مدينة تلمسان لا تنسى ثمراته وجهوده، فلقد كان باعثًا للنهضة العلمية والإصلاحية في مدينة تلمسان في وقت لم يجرؤ فيه الكثير على مواجهة فرنسا فكريًا أو تعليميًا، ولكن الشيخ وفي سنة ١٩٣٧ أنشأ دار الحديث في تلمسان بجهود المخلصين ودعم الخيرين من مدينة تلمسان الطيبة، ولم تمر فترة حتى أنشأت أول مدرسة للفتيات بالقرب من دار الحديث مدرسة عائشة، هكذا كان ينير درب الجزائريين وخاصةً الشباب الجزائري الذي كان يرى فيه كل الأماني وواضعًا فيه كل الآمال، فسخر جهده ووقته وماله وقلمه وكل ما يملك من أجله.

وفي سنة ١٩٤٠م، قامت السلطات الفرنسية باعتقال الشيخ البشير الإبراهيمي وإبعاده إلى منطقة آفلوا، وذلك بسبب عدم دعمه للاستعمار الفرنسي ضد ألمانيا وأطلق سبيله في أوائل سنة ١٩٤٣م، والمحزن أنه بعد إبعاده بفترة وجيزة توفى الله الشيخ عبد الحميد بن باديس، فكان هذا الخبر فاجعًا وصاعقًا على الشيخ البشير الإبراهيمي، فلقد فقد أخيه وخليله، وصديق دربه. وبعد إطلاق سراحه في سنة ١٩٤٣م، عين الشيخ البشير الإبراهيمي رئيسًا لجمعية العلماء المسلمين وكانت فترة رئاسته من أبرز الفترات التي مرت بها الحركة العلمية والإصلاحية في الجزائر، وشهدت الجمعية على عهده نموًا كبير، فلقد أنشأ في عام واحد ثلاثًا وسبعين مدرسة وكتّابًا؛ وكان هدفه نشر اللغة العربية، وجعل ذلك عن طريق تحفيظ القرآن الكريم، إبعادًا لتدخل سلطات الاحتلال الفرنسي؛ وقد تسابق الجزائريون في بناء المدارس، فزادت على أربعمائة مدرسة.

وفي سنة ١٩٤٥م زُجّ به في السجن العسكري، ولقي تعذيبًا شديدًا من الفرنسيين، ثم أُفرج عنه يوم ١٠ مارس سنة ١٩٤٦م بعد أن قضى قرابة عشرة أشهر في السجن العسكري بقسنطينة، فقام بجولات في أنحاء الجزائر لتجديد النشاط في إنشاء المدارس والأندية والكتاتيب، وفي ٧ مارس ١٩٥٢م خرج من الجزائر إلى الشرق في رحلة عملية منظمة، وأقام في القاهرة أسبوعًا ثم سافر إلى باكستان فأقام بها قرابة ثلاثة أشهر متجولاً في مدنها الكبرى وألقى سبعين محاضرة في الدين والتاريخ والاجتماع، ثم رحل الى العراق فطاف بمختلف مدنها والقى فيها المحاضرات العديدة،

ثم رجل الى الحجاز في موسم الحج لسنة ١٩٥٢م، ثم رجع إلى القاهرة يوم ٢٤ اكتوبر ١٩٥٢م، وأخذ يتردد منها على العراق وسوريا والأردن والقدس يلقي الخطب والمحاضرات، وبهذا كسب الشيخ الإبراهيمي سمعة كبيرة وأصبح أحد الشخصيات العلمية المرموقة في المشرق وذا الصيت الواسع،(٤) وحين اندلعت الثورة الجزائرية سنة ١٩٥٤م قام برحلات إلى الهند وغيرها لإمداد الثورة بالمال والسلاح.

وقام بكل جهده في دعم ثورة التحرير سواء في القاهرة أو من دول عربية وإسلامية أخرى، وكذلك من خلال الرسائل والبرقيات التي كان يوجهها للزعماء والرؤساء في مختلف أصقاع العالم. فكان بجد زعيمًا مصلحًا مجاهدًا، وعالمًا عاملاً مخلصًا، فحارب الاستعمار الفرنسي بقلمه وفكره ولسانه، وحاربه بنشاطه السياسي والدبلوماسي الذي لم يكن له نظير في فترة تواجده خارج الجزائر، فكان رحالة من أجل قضية وطنه وشعبه.

١/١- أثاره ومؤلفاته:

كان من أعضاء المجامع العلمية العربية في دمشق والقاهرة وبغداد، وله شعر إسلامي يعتبر ملحمة في تاريخ الإسلام، حيث يبلغ حوالي ستة وثلاثين ألف بيت، كان ينشره في مجلة (البصائر) التي كان رئيس تحريرها؛ وهو من خطباء الارتجال المفوّهين. وقد طُبعت مقالاته في كتاب (عيون البصائر)، كما أن له كتبًا أخرى منها: (شعب الإيمان) و(الثلاثة) و(حكمة مشروعية الزكاة في الإسلام) و(الاطراد والشذوذ في العربية) و(التسمية بالمصدر) و(أسرار الضمائر العربية) و(الصفات التي جاءت على وزن فَعَل) و(كاهن أوراس) و(نظام العربية في موازين كلماتها) و(رسالة في ترجيح أن الأصل في الكلمات العربية ثلاثة أحرف لا اثنان) و(نشر الطي من أعمال عبد الحي) و(ملحمة شعرية) و(رسالة في مخارج الحروف وصفاتها بين العربية الفصيحة والعامية) و(الأخلاق والفضائل) وغيرها كثير جدًا.

قال الشيخ ابن باديس عنه: عجبت لشعب أنجب مثل الشيخ الإبراهيمي، أن يضلَّ في دين، أو يخزى في دنيا، أو يذلَّ لاستعمار.

٢/١- وفاته:

بعد عودته الى الجزائر، وبعد كل الاحداث السياسية التي شهدتها الجزائر عشية الاستقلال، استقل الشيخ الإبراهيمي عن كل تلك القلاقل والمعارك التي كانت بين الاخوة الاشقاء في السلاح، وما بيان أفريل المعروف إلا دليلاً واضحًا على حزن الشيخ الإبراهيمي وحرقة قلبه على هذا الوطن الجريح، الذي ما فتئ يلملم جراحه حتى أدخله هؤلاء في جراح ونزيف آخر. ووضع في الاقامة الجبرية، وبقي فيها إلى أن توفاه الله يوم ٢٠ مايو ١٩٦٥م، وهو الذي قال يوم ما أثناء طوافه في ربوع البلدان الاسلامية من أجل قضية وطنه "... خطت الاقدار في صحيفتي ان افتح عيني عليك وانت موثقة، فهل في غيب الاقدار أن أغمض عيني فيك وانت مطلقة؟ وكتبت الاقدار علي أن لا املك من أرضك شبرا، فهل تكتب لي أن احوز في ثراك قبرا".(٥)

٢-الظاهرة الاستعمارية في فكر البشير الإبراهيمي

ككل الجزائريين، وككل المصلحين العاملين، عاش العلامة محمد البشير الإبراهيمي في ظل الاستعمار الفرنسي الغاشم، فرأى بأم عينيه ذلك الظلم والتعسف الذي كان يعانيه الشعب الجزائري، والتفرقة وقوانين الظلم والجور، لذلك كان ينظر الى هذا المغتصب بعين البغض والكراهية الكبيرة، ومن أجل ذلك سعى رفقة خليله عبد الحميد بن باديس ونخبة من العلماء المصلحين الجزائريين إلى تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في يوم ٥ ماي ١٩٣١م، وكانت جمعية دينية اصلاحية تهذيبية هدفها الأول هو إيقاظ ضمير الشعب الجزائري ومحاولة نشر العلم والدين القويم ومحاربة الجمود الفكري والشعوذة التي كانت منتشرة في تلك الفترة بفعل بعض رجالات الطرق الصوفية، وأيضًا بدعم الاستعمار من أجل أن يطيل نوم هذا الشعب وتجهيله.

فنجد في افتتاحية جريدة البصائر في عددها الأول من سنة ١٩٣٥م، وهي افتتاحية بقلم العلامة عبد الحميد بن باديس فيقول فيها «وبعد فما ينتم علينا الناقمون؟ اينقمون علينا تأسيس جمعية دينية إسلامية تهذيبية تعين فرنسا على تهذيب الشعب وترقيته ورفع مستواه إلى الدرجة اللائقة بسمعة فرنسا ومدنيتها وتربيتها للشعوب وتثقيفها فاذا كان هذا ما ينقمون علينا فقدا أساءوا إلى فرنسا قبل أن يسيئوا إلينا... انظروا شيئًا ما إلى ما حواليكم من الامم وتأملوا فيما تنادي به الشعوب وما تعلنه من مطالب فإنكم اذا نظرتم وتأملتم حمدتم لهذه الجزائر الفتية نهضتها الهادئة وتمسكها المتين بفرنسا وارتباطها القوي بمبادئها وعدها نفسها جزءًا منها وقصرها لطلبها منها على أن تعطى جميع حقوقها كما قامت بجميع واجباتها وأن لا تقدمها في أيام السلم من قد لا يساويها في أيام الحرب».(٦)

إن القارئ لهذه السطور ليشعر في الوهلة الأولى أنها لا تصدر من طرف عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ويظن أنها لأحد الجزائريين الداعين لربط الألفة مع فرنسا، ولكن الناظر المدقق والعارف بخبايا تلك الفترة لسوف يدرك تمام الادراك معاني الشيخ عبد الحميد بن باديس في انتهاجه هذا الاسلوب في كتابة افتتاحية البصائر، فلقد كان يريد المداهنة والتخفي خلف السطور من أجل أن يطيل أنفاس جريدته الإصلاحية، وأيضًا جمعيته التهذيبية وكل ذلك من أجل هذا الشعب والوطن، وكان هذا مسلك جل العلماء في تلك الجمعية المباركة.

ونرجع إلى أستاذنا محمد البشير الإبراهيمي ونظرته للمستعمر فيقول فيه ما يلي: «كلمة الاستعمار إحدى الكلمات المظلومة باستعمالها في ضد معناها الوضعي، مع خلوها من النكتة التي يلمحها العرب في مثل هذا النوع من الاستعمال، حين سموا البيداء المهلكة مفازة، واللديغ سليما، والغادية قافلة، والنكتة الغالبة في تسمية الشيء باسم ضده هي التفاؤل أو

التفريج أو حسن الأدب في الخطاب أو عدم صك الاسماع بسوء القول. وكلمة الاستعمار آتية من "عمر" ضد "خرب" مع أن التفسير العملي لهذه الكلمة هو الخراب والتخريب، وليس فيها شيء من معنى الإعمار والتعمير، ولا أدري أي صارف صرف الجيل الذي مضى قبلنا من الكتاب والمترجمين عن ترجمة هذه الكلمة من لغاتها الأصلية بمعناها الحقيقي وهو التخريب والظلم والتسلط والقهر... والأسماء القبيحة لا تستر المعميات القبيحة إلا عند الصبيان وأشباه الصبيان من أمثالنا وأمثال الجيل السابق من أسلافنا الذي اقروا هذا الاستعمال».(٧)

هذه نظرة البشير الإبراهيمي بين مصطلح الاستعمار وواقع ما يسمى الاستعمار وهو في حقيقته استخراب واستدمار واستحمار، فهكذا كان يدعوا الى التفريق بين ما تدعوا اليه اللغة والمصطلحات وما ينظر اليه في ارض الواقع من ان هذه الظاهرة الغشومة الظلومة محال ان تكون ايجابية ومقصدها التعمير، وانما هي الدمار والقتل والتشريد، وكل معاني البؤس والشقاء على الشعوب.

ولقد وصف الشيخ الإبراهيمي الخبث الانكليزي والاستعمار البريطاني البغيض بكلمات دقيقة ومعبرة فقال « ... ولكنهم مع الاسف جاءوه بالكفن وهو في ثياب العرس، وعرضوا النوائح في مواكب الفرح، وارادوا ان يعالجوه من الفقر فعالجوه بالفقر ومعه الذل، وان يداووه فداووه من الحمى بالطاعون، وقيدوه بقيد من حديد مع مستعمر عتيد وجبار عنيد ولدود عرف بنقض العهود وتجاوز الحدود، مع مفترس مازالت أظافره حمراء من دماء المسلمين والعرب، ومازال واضعا قدميه النجستين على البقاع الطاهرة من أرضنا "القناة" من مصر وفي "الحبانية" من العراق وفي "المفرق" من الاردن، ومازال ممتدا كالسرطان على الشواطئ الشرقية لجزيرة العرب... كل هذه الأوصاف تعبر لجنس اسمه الانكليز»(٨)

وكان الشيخ الإبراهيمي لا يرى في الاستعمار إلا الشؤم والدمار والبؤس، ففي مقاله الصادر بمناسبة الذكرى الثالثة لمجازر ٨ ماي ١٩٤٥ كتب فيه «... أما الاستعمار فأيامه كلها نحسات، بل دهره، كله يوم نحس مستمر، محيت الفواصل بين أيامه ولياليه، فكلها سود حوالك، يطير طائر النحس منها فلا يقع إلا على أمم آمنة مطمئنة... لك الويل أيها الاستعمار، أهذا جزاء من استنجدته في ساعة العسرة فأنجدك، واستصرخته حين أيقنت بالعدم فأوجدك؟ أهذا جزاء من كان يسهر وأبناؤك نيام...»(٩).

ونجده أيضًا الشيخ الإبراهيمي يدرك حجم خطورة الاستعمار على المستوى الاجتماعي والثقافي للمجتمع، وبين أن الاستعمار ليس فقط هو ذلك التدخل العسكري المباشر في احتلال الشعوب، وانما خطره أكبر من ذلك، فهو كالورم الخبيث الذي يصيب الجسم ويسري في أجزاءه حتى يقضي عليه فيقول «يبيح الاستعمار الفرنسي فتح المقامر لتبديد أموال المسلمين، وفتح المخامر لإفساد عقولهم وأبدانهم، وفتح المواخير لإفساد مجتمعهم، ولا يبيح فتح مدرسة عربية تحيي لغتهم أو فتح مدرسة دينية تحفظ عليهم دينهم».(١٠) هكذا كان ينظر الشيخ الإبراهيمي للاستعمار، وكانت تنظر جمعية العلماء المسلمين بصفة عامة إلى هذا المستخرب الظالم، الذي كان من أول أنشطته هو محو الشخصية العربية والاسلامية للجزائريين، ومحاولة طمس الشخصية الجزائرية، من خلال سياسات التجهيل، وعمليات التمسيح التي كان يعطي لها كل الجهود ويسخر لها الأموال والدعم المادي والمعنوي، لأنه يعلم أن بقضائه على هذا الدين سوف يستقر في الجزائر باطمئنان وأمان. فلقد وصف هذا الاستعمار بكل صفات السوء، ونعته بجميع نعوت الظلم والجور، فكان قوالاً للحق لا يرده في ذلك أي بأس وأي خوف، وكان يخاطب الاستعمار الفرنسي في مقالاته وخطبه بكل الصفات التي كان يجب أن يخاطبه بها.

٣-البشير الإبراهيمي وقضايا الاستعمار في الوطن العربي

٣/١- القضية الفلسطينية:

تعتبر القضية الفلسطينية لدى رواد النهضة الجزائرية والاسلامية بصفة عامة ذات مكانة خاصة وتحتل حيزًا كبير من اهتمامهم وانشغالهم، ولقد كان الشيخ الإبراهيمي مهمومًا بهموم الأمة الإسلامية في جميع أقطارها، من طنجة إلى جاكرتا كما يعبر عنها مالك بن نبي، وكان ينظر إلى القضية الفلسطينية بوجهة دينية وقومية وسياسية، فدينيا هي أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين، ومسرى النبي عليه الصلاة والسلام، أما قوميًا ففلسطين دولة عربية وقعت تحت مخالب العدو الصهيوني الظالم، وأما سياسيًا فكان الإبراهيمي يدرك الأهداف الاستراتيجية التي حدت بالإنجليز لزرع هذا الورم الخبيث في قلب الأمة الإسلامية للقضاء عليها،(١١) والمتمثل أساسًا في استكمال المشروع الاستعماري الهادف الى القضاء على الامة الاسلامية، ونجده في مقالاته المنشورة عبر جريدة البصائر الغراء، لا ينسى دائمًا اخوانه المضطهدين بنير الاستدمار الغاشم الظالم، فيذكر القضية التونسية وانها قضية الاخوة الاشقاء، ولا ينسى المغرب الشقيق، وأيضًا القضية الفلسطينية التي أطنب في الحديث عنها باعتبارها قضية اسلامية ودينية.

وفي هذا الصدد حول القضية الفلسطينية في مقاله الصادر في العدد (٤٠) من جريدة البصائر تحت عنوان: نداء وتحذير إلى الشعب الجزائري المسلم العربي، فيقول: «إن الجزائر وطنكم الصغير، وإن افريقيا الشمالية وطنكم الكبير، وإن فلسطين قطعة من جزيرة العرب التي هي وطنكم الأكبر، وان الرجل الصحيح الوطنية هو الذي لا تلهيه الأحداث عن القيام بواجبات وطنيه الأصغر والأكبر».(١٢) هكذا ربط الشيخ الإبراهيمي الشعب الجزائر بانتمائه الجغرافي والطبيعي، وانتمائه العقدي الديني، ليجعل من القضية الفلسطينية هي القضية الاولى بالنسبة للشعب الجزائر، رغم ما يعانية هذا الشعب من نير الاستعمار وجوره.

وفي السياق نفسه نجده يكتب في مجلة الاخوة الاسلامية العراقية في عددها الخامس عشر، مقالاً بعنوان "هل لمن أضاع فلسطين عيدا؟."، واعتبر وبكل ألم وحصرة انه لا عيد إلا

باستعادة الامة الاسلامية وحدتها وعزتها وقوتها، ولقد كتب يقول: « مرت علي وأنا في الجزائر عدة أعياد من السنوات الأخيرة التي صرح الشر فيها للعرب والمسلمين عن محضه فكنت ألقى تلك الأعياد بغير ما يلقاها به الناس، ألقاها بتجهم اضطراري وانقباض نفسي وكأن الرائي يراني وأنا معه وأراه وكأنه ليس معي، فقد كانت تظللني في العيد سحائب من الكآبة لحال قومي العرب وإخواني المسلمين وأنا كثير التفكير فيهم والاهتمام بهم والاغتمام من أجلهم، فأغبطتهم تارة لأنهم في راحة مما أنا فيه وأزدريهم حينا لأنهم لم يكونوا عونا لي على ما أنا فيه، وما أشبههم في الحالتين إلا بالغنم تساق الى الذبح وهي لاهية تخطف الكلأ من حافتي الطريق لأنها لا تدري ما يراد بها».

وكان يعتبر الحركة الصهيونية هي حركة عنصرية استعمارية، تهدف الى جمع شتات اليهود في وطن "تسميه قولا فلسطين"، وما يفرق هذه الحركة عن باقي الحركات الاستعمارية، كونها تستعمل نفوذها المالي لشراء السلاح والذمم فيقول: "تشتري به السكوت والنطق، وتشتري به الحكومات والشعوب، وتعتمد عليه على الحيلة والمكر والتباكي والتصاغر في حينه، وعلى التنمر والإرهاب في فرصته".[١٣]

هكذا كان يشعر الشيخ الإبراهيمي بكل ألم ومرارة وحصرة، حول القضية الفلسطينية فيقول في نفس المقال: «وجاءت نكبة فلسطين فكانت في قلبي جرحًا على جرح، وكانت الطامة والصاخة معًا، وكانت مشغلة لفكري بأسبابها ومآسيها وعواقبها القريبة والبعيدة... أو تداركتم تضييعكم لفلسطين بالاستعداد الصادق لاسترجاعها أو تداركتم إعراضكم عن اللاجئين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بالمساعي الجدية لإرجاعهم، أو تداركتم إهمال المسجد الأقصى الذي أصبح تحت رحمة صهيون بالحفاظ في حمايته وإعداد وسائل تلك الحماية وهيهات هيهات...».[١٤]

ولم يقف دور الشيخ البشير الإبراهيمي عند هذا الحد وفقط، وانما كانت لديه نشاطات عملية في خدمة القضية الفلسطينية، فبالرغم من الظروف القاسية التي كان يفرضها المستعمر الفرنسي على الجزائريين من أجل قطع صلتهم مع العالم العربي والاسلامي، كانت جمعية العلماء وعلى رأسها البشير الإبراهيمي تقوم بمساعي حثيثة من أجل نصرة القضية الفلسطينية، فقامت الجمعية عن طريق الشيخ الطيب العقبي باتصالات حثيثة مع رجال الجمعية والاطراف السياسية المشكلة للحركة الوطنية واتفقوا على تأسيس "الهيئة العُليا لإغاثة فلسطين" سنة ١٩٤٨م، واختير الشيخ البشير الإبراهيمي رئيسًا لها، ولقد لهذه الهيئة دورًا سياسيًا وتعبويًا في خدمة القضية الفلسطينية.[١٥] وكثيرة هي تلك المقالات والدعوات التي وجهها الشيخ البشير الإبراهيمي من أجل القضية الفلسطينية والمسألة اليهودية، وفي مقاله المعنون بـ" فلسطين واليهود" ذكر الإبراهيمي كيد هؤلاء الأعداء وظلمهم للمسلمين عبر التاريخ، وبين القضية الفلسطينية بنسقها التاريخي فكان الشيخ الإبراهيمي بحق قلمًا صادقًا مدافعًا وبكل ما أوتي من قوة في إعلاء كلمة الحق ونصرة إخوته الفلسطينيين.

٢/٣- قضايا المغرب العربي:

ولم يكن البشير الإبراهيمي غافلا عن قطره، والدول العربية الشقيقة التي تحيط بدولته، المغرب وتونس وليبيا والتي كانت كلها تئن تحت وطأة الاستعمار الأوروبي الغاشم من ايطاليا وفرنسا واسبانيا. ولقد كتب حول قضايا هاته الدول التي ينتمي اليها دينيا ولغويا وعقديا وجغرافيا ولم يكن يرى أنه يفرقه عن اِخوته سوى هذا الاستعمار الظالم، فمع القضية الليبية التي تفاعل معها الجزائريون بكل عواطفهم وجوارحهم عندما قام الاستعمار الإيطالي في سنة ١٩١١م باحتلال ليبيا، فكانت هبة شعبية من أجل نصر-ليبيا عن طريق مقاطعة المنتوجات الإيطالية وأيضًا جمع التبرعات لصالح الليبيين، وأيضًا دور النخبة الجزائرية في هذا الأمر عن طريق الكتابات الصحفية والخطابات والمراسلات، فنجد على سبيل المثال عمر بن قدور الجزائري أحد أبرز رواد الصحافة الذين دافعوا بقلمهم من أجل القضية الليبية قبل الحرب العالمية الأولى، فنجد الشيخ الإبراهيمي من أبرز أولئك بعد الحرب العالمية الثانية، خاصة بعد خروج الاستعمار الإيطالي وتقسيم ليبيا إلى ثلاثة مقاطعات تحت إدارة الاستعمار الخبيث بين كل من فرنسا وبريطانيا.[١٦]

فها هو يحذر إخوانه الليبيين من مكر العدو الانجليزي عندما أراد أن يعقد معاهدة معهم، فقال محذرًا «... فكان أول الواجبات عن مليككم وحكومتكم أن يحافظوا على هذا الاستقلال، وأن يقدروا الأثمان التي اشتري بها...، وأن يرعوا حرمة ما أريق على جوانبه، من دموع ودماء، وأن يديجوه على الذلل السماح من الطرائف، وأن يجنبوه وهو في خطواته الاولى مزالق المعاهدات مع من لا عهد له وميثاق، وأن يربطوا مستقبله بالشرق لا بالغرب، وبالقريب لا بالغريب».[١٧] كما أعاب الشيخ الإبراهيمي على الليبيين وعلى كل الشعوب المستعمرة استعمال مصطلح "المطالبة بالاستقلال"، لأن الاستقلال في نظره يؤخذ ولا يعطى، وأنه "جنة لا يعبر اليها إلا على جسر من الضحايا"، ففي مقال تحت عنوان "ليبيا ماذا يراد بها"، أكد الإبراهيمي كلمة طلب الاستقلال هي كلمة خاطئة أملاها على الشعوب المستعمرة الضعف والعجز، وهي في معناها الحقيقي "طلب الحق من غاصبه، أو طلب الملك من سالبه.[١٨]

وأما تونس، فقد كانت حاضرة في فكر الإبراهيمي ومقالاته وزياراته، فلقد كان يعتبرها قبلة الجزائريين، وكانت تونس بمثابة المقر الثاني لكل الجزائريين، وكما نعرف فإن جل العلماء والمصلحين الجزائريين درسوا في جامعها المعمور، جامع الزيتونة المبارك، لذلك كانت أواصر المحبة والاخوة دائما مرتبطة بالبلد الثاني والشقيق، ورغم ان الشيخ البشير الإبراهيمي لم يكن طالبًا زيتونيا وإلا أنه كان يعتز دومًا بأنه درس على مشايخ الزيتونة في المدينة المنورة، وكان من أبرزهم الشيخ محمد العزيز الوزير، الذي اخذ عليه شرح الموطأ، وفقه الإمام مالك، والتوضيح لابن هشام، ويقول الشيخ الإبراهيمي في هذا الصدد: "أنا لم أتخرج من الزيتونة، ولم أقرأ في الجامع حرفًا، ولكني تخرجت بالمدينة المنورة على اضواء وكواكب الزيتونة في وقته ولا أحابي محمد

العزيـز الـوزير التونسي- رحمـه اللـه فكانـت لي بسـببه صـلة بالزيتونة مرعية المتات آمنة الانبتات".

فنجده في مقاله الصادر بجريدة البصائر في عـددها السـتون يعنـون مقـالاً بــ "حيـا اللـه تـونس"، وعـدد خصـال هـذا البلـد وفضائله على الجزائر والجزائريين، وخيوط المحبة والتواص الدائم بينهما، فقال «جمعية العلـماء، وشـعبها، ومدارسـها، ومعلموهـا، والجمعيات المتفرعة منها، و"البصائر" وأسرتها، كـل هـذا الجهـاز العلمـي الثقـافي العتيـد يتقـدم بالشـكر الخـالص، والثنـاء الجـم والتحيات الطيبات، إلى تـونس العزيـزة، مصورة في ذلـك الطـراز الرفيع من الزيتونة والهالة المحيطة بها...، وتـونس قبلـة الجزائـر العلميـة، ومأرزهـا الـذي تـأرز إليـه في النوائـب، ومنارتهـا التـي تشرف منها على الشرق وأنواره، فـلا عجـب إذا حرصـت جمعيـة العلماء على تمتين الحبال الواصلة بين الجزائر وبينها.»[١٩]

ولقد تعززت تلك العلاقة اكثر وتوثقـت عنـدما تـم تأسـيس معهد عبد الحميد بن باديس، الذي كـان فرعًـا زيتونيًـا، يتبـع في جميع برامجه وامتحاناته المنـاهج المقـررة في الزيتونـة، ويشرف على تلك الامتحانات ثلة من علماء الزيتونة، ورغم هذا الامر إلا ان الإبراهيمي كان ينتقد بعض البرامج والمناهج التعليميـة التـي يعتمد عليها مشايخ ومسيري جامع الزيتونة، فلقد كان في نظـره ان الجهاز التعليمـي في الزيتونـة يحتـاج إلى الاصـلاح، فيقـول في هذا الأمر: "ان الجهاز التعليمي بجامع الزيتونة خلـلاً يحتـاج إلى الاصلاح، وعللا يجب أن تـزاح، ونقـائص يجـب أن تُلغـى، وكلهـا بقايا من إصلاحات خير الدين، لم تعدّ تصلح لخير العلم ولا لخـير الدين".[٢٠]

هـكـذا كـان الشـيخ البشـير الإبراهيمـي مشـاركًا في الحيـاة الثقافيـة والعلميـة التونسـية مـن خـلال هاتـه الآراء التـي كـان يوجههـا إلى إخوانـه في جـامع الزيتونـة أو الى حتـى السياسـيين وزعماء الحركة الوطنية التونسية، فنجده على سبيل المثال يكتب بقلب صادق وقلم عطوف جراء وفاة المناضل "محمد المنصـف"، الذي وصل العرش سنة ١٩٤٢م، حيـث قـام بإصـلاحات متعـددة وأيضًا كانت له مواقف جريئة فلذلك قامت السلطات الفرنسـية بنفيه إلى الجزائر ثم إلى فرنسا حيث توفي في منفاه سـنة ١٩٤٨م، وكتب الشيخ الإبراهيمي مقالاً في جريدة البصـائر، وقـام بإرسـال برقية تعزية إلى نجله محمد الرؤوف وإخوته في تونس ومما جاء فيها " ...إنني باسمي وباسم جمعية العلماء المسلمين الجزائـريين ومن ورائها الأمة الجزائرية أعرب لكم عن الأسف العميـق لهـذه المصيبة، وأتقدم اليكم وإلى الأمة التونسية بالتعزية الخالصة".

ونجـده أيضًـا في حادثـة اغتيـال النقـابي والمنـاضـل "فرحـات حشاد" يدين وبشـدة الاسـتعمار الفرنسي- الـذي كـان وراء ذلـك الاغتيال، وأرسل العديد من برقيات التعزية والمواساة لكـل مـن الاتحاد العام التونسي- للشـغل وايضـا، بـاي تـونس، وصـالح بـن يوسف وغيرهم يعبر فيها عن الـم الشـديد جـراء هـذه الحادثـة الفظيعـة.[٢١] فلقـد كـان لتـونس في وجـدان علـماء الاصـلاح في الجزائر نظرة خاصة، وقرب خاص، لأنها المنارة التـي يسـتنير بهـا جل الجزائريين في تلـك الفـترة مـن الجهـل والظـلام الاسـتعماري الغاشم، وكانت بفضل جامعها المعمور الزيتونة القبس الذي انار على الجزائريين، من خلال العلماء الذين تخرجوا من جامعه.

وأما في القضية المغربية وعلاقته مع ملكهـا محمـد الخـامس التـي اتسـمت بـالأخوة والتعـاطف الكبـير، فلقـد كتـب برقيـات احتجاج إلى السلطة الفرنسية بسبب خلع الملك محمد الخـامس فقال في إحدى برقياته الموجهة إلى رئيس الجمهورية الفرنسية ما يلي: «أعـمال حكـومتكم الاسـتعمارية في المغـرب الأقصى- أثـارت غضـب العـالم الإسـلامي، كلـه عـلى فرنسـا وحركـت فـيهم روح الانتقام لأن كل ما تفعله حكـومتكم ضـد جلالـة السـلطان يعـدّ تعديًا شنيعًا على سلطة دينية شرعية». ولقد أرسل في هذا الشأن العديد من البرقيات الى الزعامات العربيـة والإسـلامية مـن أجـل التحرك والتعاطف مع الملك محمد الخامس، فكتب إلى السلطان يقول «حياكم الله ونصركم وثبت أقدامكم على الحق، المسلمون كلهـم معكـم بـأرواحهم وعقـولهم في مـوقفكم الشريـف أمـام الاستعمار لباغي وأساليبه المفضوحة، فأثبتوا ينصركم الله».[٢٢]

وكانت هناك علاقات تواصل كبيرة بينه وبين علـماء وزعـماء الإصلاح في بـلاد المغـرب الأقصى- ولقـد كانـت جريـدة الشـهاب والبصائر عامة بأقلام كثيرًا من المثقفين والمصلحين المغاربـة مـن أمثال: علال الفـاسي، ومحمـد غـازي، ومـكي النـاصري، وغيرهم. ولقد ذكر الشيخ إبراهيم الكتاني وهـو مغـربي، في جريـدة العلـم المغربية عن الشيخ الإبراهيمي ما يلي " كان يطرب كثيرًا لسـماع أخبار المغرب وأخبار عبد الكريم الخطابي، كما كان يطـرب كثـيرًا لسماع النشيد المغربي..."، وفي الجهة المقابلـة أيضًـا يقـول الشـيخ الإبراهيمي حول الشيخ ابراهيم الكتاني ما يلي:" للأسـتاذ البحاثـة العالم السلفي الشيخ محمد إبراهيم الكتاني أحـد علـماء المغـرب الأفذاذ المستقلين، مكانة ممتازة في نفوس جمعية العلماء وصلـة روحية قوية بهم من أيام المرحوم الأسـتاذ الـرئيس عبـد الحميـد بـن بـاديس، والكتـاني مـن المعجبـين بحركـة جمعيـة العلـماء الاصلاحية والمتتبعين لأطوارها ومن العاملين على ربـط الحركـات السلفية ببعضها البعض...".[٢٣]

ولأنه وطني وعربي وإسلامي، فقد كان حلمه الوحدة العربية والاسلامية، وأن تتحد هذه الاقطار المغاربيـة تحـت رايـة وغايـة واحدة، ونشرت جريدة صوت الجزائر الصادرة في فيفري ١٩٥٤م عنوان "الشيخ البشير الإبراهيمـي يتحـدث عـن الاتحـاد"، وذكـر الإبراهيمي دواعي الاتحاد المغـاربي، وخبـث الاسـتعمار في نفـث سموم التفرقة بين الاخوة، وأن يتفطن الجميع إلى هذا الأمر عـن طريـق التوحـد ونبـذ الخـلاف، وأن تكـون القضيـة هـي واحـدة والعدو هو واحد هو الاستعمار فقال «محل أن يستقل جزء مـن المغـرب العـربي وحـده ولـتكن لنـا في هـذا عظـة ألقاهـا علينـا الاستعمار لو فقهناها وهـو أنـه يـوم احتـل الجزائـر كـان يضمـر احتلال تونس ثم مراكش، ومن يوم اِحتـل الجزائـر وهـو يسـتعد للخطوة الثانية فلما رأى الفرصة ممكنة خطا خطوتـه ونحـن في غفلة ساهون، ويوم رأى إمكان الخطوة الثالثة لم يقصر وقد بلـغ في الخطوة الثالثة من استخفافه بنـا واسـتهتاره بشـأننا ان سـخر الجزائري ليقتل أخاه المراكشي».[٢٤]

لم يكن العلامة البشير الإبراهيمي غافلاً كما يدور حوله من فتن ومن مخاطر تصيب العالم الاسلامي، بل كان واعيًا ومستوعبًا كل تلك الأزمات الخطيرة، وكان دائمًا يحاول أن يأصل تلك المسائل، بتأصيل دقيق محاولاً تشريح المرض وإعطائه الدواء اللازم للشفاء منه كلية. والقارئ في مقالاته يجده مُلمًا بكل القضايا الوطنية والعربية والإسلامية، فلم ينسى العراق ولا باكستان ولا مصر ولا عمان فكان قلمه سيالاً لكل أحوال أمته الجريحة.[٢٥]

٤-وسائل مناهضة الاستعمار في فكر البشير الإبراهيمي

لم يكن يختلف الشيخ الإبراهيمي عن غيره من زعماء الحركة الاصلاحية في قضية مواجهة الاستعمار الفرنسي، أو الحركة الاستعمارية بصفة عامة، ولقد كان هو وأعضاء جمعية العلماء المسلمين، اتخذوا نهجًا صريحًا وواضحًا في هذا المجال، وهو الاصلاح الفكري والديني والعقدي، للمجتمع الجزائري من خلال نشر التعليم ومحاربة الجمود الفكري والعقدي، وأيضًا محاربة الطرقية ورجال الطرق التي كانت تحاول تثبيط المجتمع الجزائري وابقائه في سباته العميق، وترضيته بالقدر المحتوم وهو الاستعمار الفرنسي- فكانت جمعية العلماء قد حاربت هذا الفكر منذ تأسيسها عن طريق علماءها المخلصين العاملين، وكان الشيخ الإبراهيمي من أبرز هؤلاء رفقة صديقه وخليله الشيخ عبد الحميد بن باديس، ومبارك الميلي، والعربي التبسي- وغيرهم من زعماء الاصلاح في تلك الفترة والرعيل الأول لجمعية العلماء.

وكان الشيخ يحمل النخبة والمثقفين مسؤولية تبليغ الرسالة الدينية والاسلامية لكل طبقات المجتمع، ومحاولة ايقاظ الهمم، ونشر التعليم في أوساط المجتمع فقال في احدى محاضراته التي ألقاها في أحد نوادي تلمسان في سنة ١٩٤٣ وكانت تحت عنوان "واجب المثقفين نحو الأمة" ومما جاء فيه «... أما الواجب في حد ذاته فهو في الجملة إيصال النفع والخير إلى الأمة ورفع الأمية والجهل عنها، وحثها على العمل وتنفيرها من البطالة والكسل، وتصحيح فهمها للحياة وتنظيف أفكارها وعقولها من التخريف، وتنظيم التعاون بين أفرادها وتمتين الصلة والثقة بين العامة والخاصة منها، وتعليمهم معاني الخير والرحمة والاحسان لجميع الخلق».[٢٦]

فمنذ عوة الشيخ البشير الإبراهيمي من رحلته المشرقية التي كانت فيها طالبًا ومدرسًا، ولقد نال قدرًا كبيرًا من العلم والمعرفة، واكتسب العديد من الخبرات في بلاد المشرق، من الناحية الدينية والسياسية والإصلاحية، فمنذ أن حط الرحال في بلده الجزائر سنة ١٩٢٠م، بدأ مباشرة في الدعوة إلى الإصلاح ونشر التعليم في مدينة سطيف، ولقد دعا الشيخ الإبراهيمي إلى تأسيس مسجد حر من أجل التعليم فيه ونشر الفكر الاصلاحي، وفي سنة ١٩٢٤ زاره الشيخ عبد الحميس بن باديس، وكانت هذه اللقاءات البداية الرسمية لتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. وفي نادي الترقي الذي أسسه مجموعة من العلماء والاعيان في الجزائر العاصمة، شهد ميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في ٥ مايو ١٩٣١م، التي ضمت صفوة العلماء والمصلحين الجزائريين في تلك الفترة: عبد الحميد بن باديس، البشير الإبراهيمي، العربي التبسي، مبارك الميلي، الامين العمودي، احمد توفيق المدني، إبراهيم بيوض. والتي كان من أبرز أهدافها:

- محاربة الخرافات والبدع التي شوهت الإسلام، وبعث نهضة دينية فكرية.
- محاربة الآفات الاجتماعية: كالخمر والميسر والبطالة والجهل وكل ما يحرمه الدين وينكره العقل.
- المحافظة على الشخصية الجزائرية التي أصبحت مهددة من الاستعمار وعملائه من دعاة الإدماج والفرنسة والتجنيس.
- إنشاء المدارس الحرة في جميع جهات القطر لتعليم النشء اللغة العربية وعلوم الدين والتاريخ.
- تأسيس النوادي الثقافية لتنظيم الشباب وتربيتهم تربية دينية ووطنية وتأطيرهم في منظمات ثقافية وكشفية وغيرها.
- إصدار الصحف وهي بمثابة مدارس متنقلة، أو دروس سيارة يستفيد منها القراء والمثقفون في كل زمان ومكان.[٢٧]

هكذا كانت رسالة وأهداف الجمعية، وكان البشير الإبراهيمي أحد رجالها العاملين في هذا المضمار، فكان معلمًا ومصلحًا وأديبًا وصحفيًا بارعًا. فكان من أهم الوسائل المعتمدة في محاربة الاستعمار التي اعتمد عليها الإبراهيمي – عندما نقول الإبراهيمي فإننا نقصد الحركة الاصلاحية بصفة عامة وهي المتمثلة في جمعية العلماء- في محاربة الاستعمار، أولها بناء الانسان الجزائري بناءً سليمًا صحيحًا، على قواعد دينية وعلمية، وهذا لا يتأتى إلا بالعلم. ونريد التركيز على هذه النقطة الهامة في فكر البشير الإبراهيمي في تلك الفترة المزرية من تاريخنا، لأننا نود أن نستفيد نحن منها في مصيرنا الحالي، وأن نأسس لحركة علمية واصلاحية راشدة، مبنية على ما تركه لنا أجدادنا في جمعية العلماء.

وبعد تأسيس الجمعية انتشر- العلماء والمصلحين في المدن والقرى من أجل خدمة رسالة الجمعية وبث روح الاصلاح في كل أقطار الجزائري، وكان الشيخ البشير الإبراهيمي من نصيب مدينة تلمسان العريقة، فبعث الحركة الاصلاحية العلمية فيها من مرقدها وأسس بها مدرسة دار الحديث التي خرجت نخبة من فتيان الجزائر وفتياتها[٢٨]، وهذه المدرسة في تلمسان يرجع الفضل في فكرة تأسيسها إلى أمير البيان الشَّيخ محمَّد البشير الإبراهيمي :. وقد شارك بنفسه في تخطيطها وقام بتشييدها, حتَّى إنَّه كان يشرف على العمَّال بنفسه، وأسهم أهالي تلمسان رجالاً ونساءً بأموالهم وسواعدهم في بناء هذا الصَّرح العلميِّ من بدايته حتَّى نهايته. وقد أرجع الشَّيخ البشير الفضل إلى «جمعيَّة العلماء»، فقال معترِفًا: «الفضل في إنشاء هذه المدرسة العظيمة لا يرجع لأحد غير «جمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريِّين»، فكلُّ

فضل لهذا العاجز هو قطرة من بحر فضل «جمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريِّين». ولقد كان لدار الحديث التي تأسست في تلمسان دور كبير في توعية المجتمع الجزائري والتلمساني بصفة خاصة، حيث وقبل ١٠ أيام من افتتاحها أصدر البشير الإبراهيمي دعوة عامة في جريدة البصائر يوم ١٧ سبتمبر ١٩٣٧ وجاء فيها: «إن أكبر دعامة تقوم عليها النهضة الجزائرية الحديثة، هي تأسيس المدارس الحرة بمال الأمة، وقد قامت تلمسان بقسطها من هذا الواجب فشيدت مدرسة دار الحديث على طراز ليس له نظير في القطر الجزائري».[٢٩]

هكذا كان مع مدرسة الحديث، فلقد قدم لها كل جهده ووقته عندما كان مستقرًا في تلمسان، وبعث بها تلك الحركة الفكرية والعلمية والثقافية الاصلاحية، ونشطة تلمسان نشاطاً فائقًا، حيث نجد أنه في ١١ مايو سنة ١٩٥٢م، تم افتتاح أول مدرسة عربية للمرأة المسلمة والتي سميت باسم مدرسة عائشة، وكانت بتوجيه من طرف رائد النهضة في تلمسان شيخنا البشير الإبراهيمي، وهي بالقرب من مدرسة دار الحديث، فلم يغفل الدور الهام للمرأة المسلمة، التي تعتبر نواة الاسرة المسلمة والمجتمع المسلم الصالح، فكان لها المكانة المكينة لدى الحركة الاصلاحية لجمعية العلماء المسلمين من أجل تعليمها وتثقيفها. وكان في مقالاته المتعددة والمختلفة يدعوا طلبة العلم سواء في المعاهد والمدارس الخاصة بجمعية العلماء المسلمين في الجزائر، أو الطلبة الجزائريين المتواجدين عبر الاقطار العربية وفي مختلف الجامعات الاسلامية، وخاصةً البعثات العلمية إلى جامع الزيتونة فلقد كان يكتب عنهم بشكل دوري ويذكرهم بمهامهم ومسؤوليتهم في المجتمع وبرسالتهم في هذا الميدان.

وفي رسالة وجهها الشيخ الإبراهيمي إلى طلبة البعثات العلمية في جامع الزيتونة موجها لهم وأيضًا ناصحًا وراشدًا لهم من أجل مواصلة المسيرة العلمي من أجل وطنهم الذي يحتاج إليهم وإلى علمهم فقال «حياكم الله وبياكم، وأبقاكم عوامل رفع لهذا الوطن وأحياكم، وأطال أعماركم للعربية تعلون صروحها وتنقشون في الأنفس لا في الأوراق شروحها، ولهذه الامة تضمدون جروحها وتداوون قروحها، وللملة الحنفية تحمون حماها وترمون رماها».[٣٠] وفي رسالة وجهها الشيخ الإبراهيمي الى كل الطلبة المهاجرين في بقاع العالم العربي والاسلامي من أجل طلب العلم فقال في مطلعها «... إنكم يا أبناء مناط آمالنا، ومستودع أمانينا، نعدكم لحمل الأمانة وهي ثقيلة، ولاستحقاق الإرث، وهو ذو تبعات وذو تكاليف، وننتظر منكم ما ينتظره المدلج في الظلام من تباشير الصبح.... وأن الوطن حين يرضى بخلوه من أبنائه أنهم أخلوه إلا ليعمروه، وما قطعوه إلا ليصلوه، وما فارقوه شبانا عزلا إلا ليعودوا إليه كهولا مسلحين بقوة التفكير، تظاهرها قوة العلم، تظاهرها قوة العمل».[٣١]

وكتب في جريدة البصائر سنة ١٩٥٢، حول دار الطلبة بقسنطينة يقول: «أيتها الامة، إن خير ما يكون الإيجاف، في السنوات العجاف، فلا تتعللي بالسنين، فإنها تدول، ولا تعتذري بالأزمات فإنها تزول، وابني لنفسك ما يعود عليك نفعه ويبقى لك أجره وشكره».[٣٢] نعم هكذا كان الشيخ الإبراهيمي داعيًا للعلم وللتعليم، حريصًا على طلبته، لأنه يدرك تمام الأدراك أن أهم وسيلة لطرد هذا الاستعمار البغيض هو العلم، ولا حياة للأمة بغير العلم، وكان أيضًا يعد أجيالاً لما بعد الاستقلال لمرحلة بناء الجزائر المستقلة. أيضًا لا ننسى- الجانب الثاني الذي لعبه البشير الإبراهيمي في مناهضة الاستعمار الفرنسي- وهو الجانب الدبلوماسي والسياسي من خلال تدعيم الثورة الجزائرية بكل الوسائل الدبلوماسية والسياسية التي كان البشير الإبراهيمي فاعلاً فيها ومتصلاً بها، وهو ما نجده خلال تواجده في القاهرة، من خلال الخطب والرسائل والمبادرات السياسية التي قام بها من أجل دعم الثورة الجزائرية.

٤/١- الأسلوب السياسي والدبلوماسي من أجل مناهضة الاستعمار

مع اندلاع الثورة التحريرية لم يدخر الشيخ البشير الإبراهيمي جهدًا في مباركتها والدعوة الى المواصلة فيها، فنجد منذ اليوم الثاني من اندلاعها أصدرت جمعية العلماء في مكتبها بالقاهرة بيانا يوضع اندلاع الثورة المباركة، وبعد ذلك في يوم ١١ نوفمبر ١٩٥٤، اصدر المكتب أيضًا مقالاً مطولاً حول أحداث ومجريات المعارك التي خاضها جنود التحرير ضد المستعمر الفرنسي، وفي البيان الشهير الذي صدر في يوم ١٥ نوفمبر من نفس السنة، زكا الشيخ الإبراهيمي هذه الثورة ودعا الشعب الجزائري الى مباركتها واحتضانها، وأحقية الشعب الجزائري في نيل استقلاله المشروع.

ولم يقتصر نشاط الشيخ الإبراهيمي على هذا المجال بل كان يترجم أقواله إلى أفعال على أرض الواقع ولقد قام بتأسيس جبهة وطنية تضم العديد من الشخصيات الوطنية ذات الانتماءات الحزبية المختلفة، ومن أبرزهم نجد حسين آيت أحمد، محمد خيضر، أحمد بن بلة، احمد بيوض عن حزب البيان والشاذلي المكي واحمد مزغنة عن الحركة المصالية، وحسين لحول ومحمد يزيد عن مجموعة اللجنة المركزية،[٣٣] ولكنها تجمعت تحت مظلة واحدة من أجل الجزائر وثورتها المباركة وفقط، وكان الشيخ الإبراهيمي من المؤسسين ومن المفكرين في إنشاء هذه الجبهة بالقاهرة في مارس من سنة ١٩٥٥م، والتي سميت بجبهة تحرير الجزائر ولقد جاء في ميثاقها الموقع من طرف مؤسسيها ما يلي:

- تعمل الجبهة لتحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسي، ومن كل سيطرة اجنبية مستعملة كل الوسائل الممكنة لتحقيق اهدافها
- الجزائر جزء لا يتجزأ من المغرب العربي، والذي هو جزء من العالم العربي الكبير
- الجزائر عربية الجنس مسلمة العقيدة: فهي بالإسلام والعروبة كانت، وعلى الاسلام والعروبة تعيش، وهي في ذلك تحترم سائر الاديان، والمعتقدات، والاجناس، وتشهر بسائر النظم العنصرية للاستعمار.

وهكذا، نشط الشيخ الإبراهيمي من خلال هذه الجبهة في الخارج من أجل إسماع صوت الثورة الجزائرية في مختلف المحافل الدولية والعربية والإسلامية، وفي وكالات الأنباء والإذاعات ومختلف الصحف والمجلات وغيرها مما استطاع إليه الشيخ البشير الإبراهيمي سبيلاً من أجل الشعب الجزائري وأحقيته في نيل الاستقلال ومجابهة الاستعمار الفرنسي- البغيض. ولقد راسل الشيخ الإبراهيمي العديد من الزعامات العربية والإسلامية من أجل القضية الجزائرية، ومن أجل فضح أعمال الاستعمار الفرنسي في الجزائر، فراسل مع بداية الثورة التحريرية الزعيم المصري جمال عبد الناصر من أجل رعاية الثورة المباركة ومساندتها ماديًا ومعنويًا، كما قاما بشكر السيد أنور السادات[٣٤] وزير الدولة وسكرتير المؤتمر الإسلامي العام في تلك الفترة، على موقفه الصريح في مباركة الثورة الجزائرية وأحقية الشعب الجزائري في الحرية والاستقلال. وفي رسالة أخرى إلى الملك السعودي فيها شكر وتقدير على دعمه للقضية الجزائرية في المحافل الدولية، ودعوته إلى طرح القضية الجزائر في أشغال مجلس جامعة الدول العربية، من أجل اقرار عرضها في جمعية الأمم المتحدة من طرف المملكة العربية السعودية.[٣٥]

٥-محمد البشير الإبراهيمي واندلاع الثورة التحريرية

بعد وفاة عبد الحميد بن باديس في أبريل ١٩٤٠م، عين الشيخ البشير الإبراهيمي رئيسًا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وبقي رئيسها إلى غاية اندلاع الثورة التحريرية المباركة، ولقد كان المتحدث بلسانها، فلذلك نجد أن المواقف التي أتخذها البشير الإبراهيمي تجاه الثورة المباركة عند اندلاعها في غرة نوفمبر ١٩٥٤ كانت تمثل آراء جمعية العلماء المسلمين، وهو ما نجده في بيانه الذي نشره باسم مكتبة جمعية العلماء بالقاهرة في يوم ١٥ نوفمبر ١٩٥٤م، موقعًا البيان مع الشيخ الفضيل الورتلاني.[٣٦]

ولكن في بادئ الأمر يجب أن ندرك أن الثورة التحريرية لم تكن وليدة الصدفة، أو المجازفة، إنما كانت تحضر- وتختمر في الخفاء والسر، ومن بين العوامل التي كانت مشاركة في صناعتها هي جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والكثير من الكتاب والمؤرخين يغفلون عن هذه النقطة، فلقد كانت الجمعية بفعل مدارسها المنتشرة في القطر الجزائري، تقوم بعملية صحوة الضمير، وأيضًا ايقاظ الشعب الجزائري من سباته العميق، ومحاربة الجمود الفكري والعقدي، والعمل على إصلاح المجتمع الجزائري، لكي يعرف حقه في طلب الحرية والعيش الكريم، فلقد كانت كل هذه الجهود المبذولة من طرف رجال الإصلاح والعلماء المخلصين، بذور لبروز تلك التيارات التحررية التي تشكلت فيما بعد وأنتجت ثمرة هي حزب جبهة التحرير الوطني.

وعند اندلاع أول شرارة للثورة المباركة تفاجئ جميع الجزائريين سواء منهم في الداخل أو في الخارج، وحتى الزعامات السياسية والوطنية، ولذلك نجد أن الكثير منهم تردد في بادئ الأمر من إبداء رأيه حول هذه الثورة، ولكن جمعية العلماء والبشير الإبراهيمي كان من الأوائل الذين باركوا هذه الثورة وهؤلاء الشباب الذين اشعلوا الثورة ضد المستعمر الغاشم وأصدر البيان في يوم ١٥ نوفمبر في السنة نفسها مباركًا ومحتضنًا هذا العمل البطولي ففي مما جاء فيه «... هذا هو الصوت الذي يسمع الآذان الصم، وهذا هو الدواء الذي يفتح الأعين المغمضة، وهذه هي اللغة التي تنفذ معانيها الى الأذهان البليدة...، إنكم كتبتم البسملة بالدماء، في صفحة الجهاد الطويلة، العريضة، فاملأوها بآيات البطولة التي هي شعاركم في التاريخ، وهي ارث العروبة والإسلام فيكم».[٣٧]

وقبل هذا البيان الصريح الذي صدر عن جمعية العلماء في القاهرة والمتمثلة في الشيخ البشير الإبراهيمي والشيخ الفضيل الورتلاني، والذي دعا فيه بالمباركة لهذه الثورة الشعبية، وهذا العمل الجبار الذي قام به نخبة من الشباب المجاهد، وأكد على الشعب الجزائري ضرورة احتضان هؤلاء الشباب ومباركة ثورتهم المجيدة. ولقد كان قبل هذا البيان الذي دعا فيه الإبراهيمي بصراحة نحو احتضان الثورة، هو البيان الصادر في اليوم الثاني من اندلاع ثورة نوفمبر المجيدة، أي يوم ٢ نوفمبر ١٩٥٤م، وهو بيان صحفي بالدرجة الأولى وزعه مكتب جمعية العلماء بالقاهرة ممضي من طرف الشيخين الإبراهيمي والورتلاني، وذكرا فيه أن هناك ثورة اندلعت في الجزائر وأنها بشير خير على كل الجزائريين ضد الطغيان الفرنسي- الظالم الجائر، وبينوا أن هذا الأمر هو حتمي بسبب ما تعامل به فرنسا الجزائريين، ودعا الشعب العربي الى دعم الثورة الجزائرية وخاصة الرئيس المصري القومي جمال عبد الناصر.[٣٨]

وإن البشير الإبراهيمي لم يكن يعلم في بداية الأمر من هؤلاء الشباب وليست له معرفة شخصية بهم، لذلك لم يدعوا مباشرة الى الانضمام الى هؤلاء الشباب، وإنما بارك أعمالهم فقط. وكما يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله[٣٩] "عليه رحمة الله" في هذه النقطة «... ومن الانصاف ان نقول إن هناك فرقًا بين تبني الثورة والدعوة لها، وبين الانضمام لجبهة التحرير والالتزام بشرعيتها، والذي يدرس تطور الاحداث خلال خريف وشتاء ١٩٥٤م، يدرك أن اللجنة التي كونت جبهة التحرير وأعلنت الثورة لم تكن معروفة حتى لزعماء الحزب الذي خرجت منه، فما بالك بقادة التنظيمات الأخرى...، حقيقة أن الجبهة عينت ممثلين منها في الخارج، وكان مقر هؤلاء في بالقاهرة أيضًا، ولأن الاتصالات قد وقعت بين هؤلاء وبين الشيخ الإبراهيمي، ولكن هؤلاء الاعضاء كانوا أيضًا مجهولين لدى الشيخ الإبراهيمي، وكانوا قبل الثورة مجرد ممثلين لحزب له زعيم معروف للشيخ الإبراهيمي...، إضافة إلى ذلك فإن الصلة الوطيدة التي كانت بين بعض أعضاء مكتب المغرب العربي وبين السلطات المصرية كانت لا تساعد الشيخ الإبراهيمي، على إعلان تأييده السريع لجبهة التحرير من أول وهلة، مكتفيا بتبني الثورة باعتبارها حدثًا شعبيًا وتاريخيًا، في انتظار انجلاء الوضع عن هيكلة الثورة وقيادتها الجديدة».[٤٠]

ولعل من أهم الأسباب الأخرى التي جعلت الشيخ البشير الإبراهيمي يتريث في مسألة الانضمام إلى هذه المجموعة وأيضًا إلى الدعوة إلى تبني هذا الحزب الجديد، هو بيان أول نوفمبر الذي أصدرته جبهة التحرير مع اندلاع الثورة المباركة، ولقد كان هذا البيان خالي من مبادئ وأهداف جمعية العلماء المسلمين، ولا يتماشى مع خطها الإصلاحي الإسلامي العربي المعروف، لهذا لم يتبنى الشيخ الإبراهيمي وهو الشخصية الأولى في جمعية العلماء المسلمين، وأيضًا الشخصية العلمية الدينية المعروفة وطنيًا وإسلاميًا، بمدافعته عن العروبة والإسلام وكل ما يخص المسلمين في الهوية واللغة وغيرها من مقومات الدين، وفي السياق نفسه يذكر الدكتور سعد الله ما يلي «... فكيف نتوقع أن يتبنى الشيخ الإبراهيمي ذلك البيان على علاته، وهو الأديب النابغ والممثل الرمز لجمعية أخذت على عاتقها استرجاع الشخصية العربية الاسلامية الجزائرية؟، نقول هذا لكي يكون مفهوما عند من لم يفهم بعد لماذا احتضن الشيخ الإبراهيمي الثورة من أول وهلة ولم يفعل ذلك مع جبهة التحرير».(٤١)

ولكن مع مرور فترة حوالي سنة من اندلاع الثورة الجزائرية، كان البشير الإبراهيمي أحد الأطراف الفاعلة في تأسيس جبهة وطنية تحاول لململة جميع الاطراف التي كانت تملأ الساحة السياسية والوطنية في الجزائر، من أجل توحيد الصف والكلمة، وأيضًا إيصال الصوت بصفة جماعية وليست مفردة، فتأسست في القاهرة، في سنة ١٩٥٥م، جبهة تحرير الجزائر، وشارك في تأسيسها شخصيات وطنية بارزة، منها ممثلي لجبهة التحرير الوطني، وأيضًا أعضاء مكتب المغرب العربي في القاهرة، وأيضًا ممثلي مصالي الحاج. ولقد صدر في يوم ٢١ مارس ١٩٥٥ بالقاهرة بيان يوضع تشكيل هذه اللجنة ومما جاء فيه، «من أجل ذلك اتخذنا نحن الجزائريين المسؤولين المقيمين في القاهرة، في جبهة واحدة، هي جبهة تحرير الجزائر، عاملين على مساندة الشعب الجزائري في كفاحه القومي من أجل الحرية والاستقلال».(٤٢)

وهكذا كان الشيخ الإبراهيمي صوت الثورة الجزائرية في المحافل العربية والدولية، وأيضًا صوتها في مختلف وسائل الاعلام، ولقد كان قلمه سيالاً في دعم الثورة الجزائرية وكتب البيانات والمقالات الصحفية والادبية، من أجل التعريف بها والاشادة بعظمتها. ففي يوم ١١ نوفمبر ١٩٥٤ صدر بيان عن مكتب الجمعية في القاهرة يتضمن بالتفصيل العمليات العسكرية التي قادها المجاهدون في ليلة الاول من نوفمبر، بنوع من التفصيل والتبيين والتوضيح، وهو بيان منقول من جريدة البصائر في عددها ٢٩٢ الصادر يوم ٥ نوفمبر ١٩٥٤م، ولقد وزع البيان عن وسائل الاعلام المصرية ووكالات الانباء هناك، من أجل دحض الادعاءات الفرنسية التي كانت تقول أنها مجرد أعمال تخريبية قام بها مجموعة من قطاع الطرق وغيرها، فكان هذا توضيحا أن تلك العمليات كانت بإرادة شعبية وأيضا بطريقة منظمة.

ونجده في برقية أرسلها الى الملك سعود، يوصيه فيها بدعم القضية الجزائرية ويبارك له الخطوة التي قامت بها المملكة العربية السعودية من خلال توصية مندوبها في مجلس الجامعة العربية من أجل أثارة القضية الجزائرية في مجلس الجامعة العربية لكي يقرر عرضها في مجلس الأمن في الأمم المتحدة ومما جاء فيها: «... تتبعنا هذه الأطوار باهتمام مصحوب بالاغتباط والسرور والدعاء لجلالتكم أن قرأنا أن سفيركم بواشنطن تكلم باسم جلالتكم في قضايا الجزائر الدينية والثقافية والسياسية كلاما رسميا قويًا واضحًا وجريئًا...».(٤٣)

ولقد ربط الشيخ الإبراهيمي قضية بلاده بالشرع والدين الاسلامي، واعتبر أن الثورة الجزائرية هي جهاد في سبيل الله، وأنها ضد الكفار والصليبين، لذلك نجد في بعض مقالات أنه ربط الثورة بأسماء ومصطلحات دينية ومن السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، ففي كلمة ألقاها من إذاعة صوت العرب في القاهرة(٤٤) يوم ١٥ ماي ١٩٥٥م، كان عنوانها " عبرة من ذكرى بدر"، وذكر فيها الشيخ البشير الإبراهيمي بغزوة بدر الكبرى والتضحية من أجل الدين الاسلامي، وحماية الدين والعرض، وربط بين غزو بدر وبين الحرب بين المسلمين والكفار في تلك الفترة، وبين الاستعمار البغيض والشعب البسيط الأعزل الذي يطالب بحريته واستقلاله، وفي مقاله الأخرى أيضا التي كانت تحت عنوان " نفحات من ذكرى فتح مكة"، ونجد أيضًا تدخله بالإذاعة تحت عنوان "من وحي العيد" الذي قال فيه «... بأي حال عدت يا عيد؟ أبالجد العاثر، أم بالجد السعيد؟ وهل أنت بشير لهذه الأمم التي تحتفل باستهلالك، وتبتهج باستقبالك، لما ترجوه من حسن الفال وتحقيق الحرية والاستقلال، أم أنت لها نذير بدوام الشقاء واستمرار البلاء».(٤٥)

ولقد جاد الشيخ البشير الإبراهيمي بالعشرات بالمقالات التي كانت كلها تصب في دعم الثورة الجزائرية، ومحاولة إيصال صوتها الحقيقي إلى كل الاوساط العالمية المختلفة، وكان قلمه سيالاً من اجلها، فكتب المقالات والبيانات والمنشورات، وراسل الرؤساء والملوك والزعماء والعلماء وكل من كان يتوسم فيه خيرا من أجل هذه الثورة المباركة. فمن بين عناوين المقالات التي يمكن أن نذكرها أيضًا نجد: "الجزائر المجاهدة"، " كيف تنجح الثورة في الجزائر"، "إلى الثائرين الابطال من أبناء الجزائر والمغرب"، "فرنسا وثورة الجزائر"، جهاد الجزائر وطغيان فرنسا".

هكذا عاش مناضلاً بالقلم والكلمة والجهد والمال، ولم يدخر في سبيل قضايا شعبه أي شيء، ورغم ما عاناه بعد نفيه إلى مدينة أفلو، وذلك بعد الأحداث السياسية التي شهدتها البلاد عشية الاستقلال والتقلبات المتعددة، ولعل النداء الذي كتبه في الذكرى الرابعة والعشرين لوفاة الشيخ عبد الحميس بن باديس وذلك في يوم ١٦ أبريل من سنة ١٩٦٤م، ولعلها من آخر ما كتب الشيخ، وذكر فيها الانحراف السياسي والعقدي الذي مس البلاد. ولقد قال الشيخ يومًا في إحدى مقالاته المنشورة في جريدة البصائر ما يلي: «... خطت الأقدار في صحيفتي أن أفتح عيني عليك وأنت موثقة، فهل في غيب الأقدار أن أغمض عيني فيك وأنت مطلقة؟ وكتبت الأقدار عليّ ألا أملك من أرضك شبراً، فهل تكتب لي أن أحوز في ثراك قبراً؟» فلقد كان شيخنا العلامة بالفعل مجاهدًا مخلصًا، وعالمًا جليلاً، ومن الشخصيات القلائل التي حافظت على هوية هذا الشعب وحافظت على مبادئها

أثناء الاحتلال وبعده، فكان رجلاً شهمًا، صبورًا، شجاعًا، لا يخاف في الله لومة لائم.

خَاتِمَةُ

هكذا، ومن خلال هذه الدراسة تطرقنا إلى دور الشيخ البشير الإبراهيمي في محاربة ومناهضة الاستعمار الفرنسي في الجزائر، وتبيين دوره الإصلاحي والاجتماعي والعلمي والسياسي، من أجل دحر المستعمر الغاشم بكل الطرائق والوسائل. ونستطيع أن نجمل بعض النقاط كنتيجة لهذه الدراسة كالتالي:

- لا يعدّ الشيخ البشير الإبراهيمي شخصية علمية وفقط، وإنما كان عالمًا عاملاً مجاهدًا ومناضلاً في سبيل القضية الجزائرية في كل المحافل الدولية
- لقد ناهض الشيخ الإبراهيمي كل وسائل الاستعمار التي كان ينوي من خلالها طمس معالم الشخصية الجزائرية، ومحاربة الدين واللغة.
- استعمل الشيخ البشير الإبراهيمي في جهاده ضد الاستعمار كل الوسائل التي كانت متاحة له، من صحافة ومساجد ونوادي، وجمعيات وخطابات وغيرها من الوسائل.
- لم يكن الشيخ يفرق في مقالاته بين الاستعمار مهما كان جنسه أو لونه، وانما كان يخاطب كل أنواع الاستعمار مهما كانت، فكان ضد الاستعمار الانجليزي والايطالي والفرنسي...
- كان يدعوا دائمًا إلى الوحدة والتآزر بين أقطار المغرب العربي، والى توحيد الصفوف والكلمة لمجابهة الاستعمار، وكان يدعوا إلى الدعم العربي الموحد، وكان عربيًا مسلمًا خالصًا.
- كان الشيخ الإبراهيمي دائمًا يدعوا إلى العلم وطلبة العلم، لأنه كان يرى في العلم المنقذ الوحيد لهذه الأمة التي ادخلها الاستعمار في ظلمات الجهل والامية، وادخلها الطرقيون والمشعوذون في حركة الجمود الفكري والديني والعقدي.
- لقد لعب الشيخ البشير الإبراهيمي الدور الريادي في دعم ثورة التحرير أثناء تواجده بالقاهرة وذلك من خلال تشكيل جبهة تحرير الجزائر التي ضمت مختلف الشخصيات الوطنية.

وفي الأخير؛ إنه لا يمكن أبدًا حصر تضحيات الشيخ البشير الإبراهيمي أو جهوده ضد الاستعمار الفرنسي في أوراق معدودة، فلقد كان كل حياته مسخرة ضد الاستعمار، ومنذ أن فتح عينيه إلى أن توسد الثرى وهو يلعن فرنسا وكل مَنْ يداهن فرنسا.

الهَوامِشُ:

(١) محمد الصالح الصديق، **نماذج للاقتداء**، دار هومة، الجزائر، ٢٠١٣م، ص٤٠.
(٢) عبد الله العقيل: **العالم العلامة البشير الإبراهيمي**، موقع بن باديس.
(٣) خير الدين شترة: **الطلبة الزيتونيين بجامع الزيتونة ١٩٠٠-١٩٥٦**، طبعة خاصة، دار البصائر، ٢٠٠٩، ص٠٧.
(٤) محمد الصالح الصديق، المرجع السابق، ص٤٢.
(٥) عبد الله العقيل: المرجع السابق.
(٦) عبد الحميد بن باديس: "**افتتاحية جريدة البصائر**" في العدد الأول ليوم ٢٧ ديسمبر ١٩٣٥.
(٧) البشير الإبراهيمي: **أثار البشير الإبراهيمي**، ج٤، تق: أحمد طالب الإبراهيمي، ط١، دار الغرب الاسلامي، ١٩٩٧م، ص٣٨٠
(٨) البشير الإبراهيمي: **كلمة ألقيت بإذاعة صوت القاهرة** في سنة ١٩٥٣./ **أثار البشير الإبراهيمي**: ج ٤، ص٢٣٨.
(٩) البشير الإبراهيمي: **أثار البشير الإبراهيمي** (عيون البصائر)، ج٣، ص٣٣٤
(١٠) البشير الإبراهيمي: **في قلب المعركة**، دار الأمة، ٢٠٠٧م، ص٦٠.
(١١) قرين مولود: **البعد القومي في فكر الشيخ البشير الإبراهيمي**، مجلة دراسات تاريخية، العدد٢، افريل ٢٠١٤، مركز البصيرة للبحوث والاستشارات، دار الخلدونية، ص٧٣.
(١٢) البشير الإبراهيمي: **أثار البشير الإبراهيمي**، ج ٢، ص ٢٠٥
(١٣) البشير الإبراهيمي: **عيون البصائر**، ص٤٨٥.
(١٤) البشير الإبراهيمي: **أثار البشير الابراهيمي**، ج٤، ص ٢١٦,٢١٧
(١٥) مولود قرين: المرجع السابق، ص٧٤.
(١٦) مولود قرين: المرجع السابق، ص٦٨.
(١٧) البشير الإبراهيمي: **أثار الشير الإبراهيمي**، ج٤، ص ٢٣٩.
(١٨) مولود قرين: المرجع السابق، ص٦٩.
(١٩) البشير الإبراهيمي: **أثار البشير الإبراهيمي**، ج٢، ص٢٧١.
(٢٠) البشير الإبراهيمي: **محمد الطاهر بن عاشور وعبد الحميد بن باديس اماما: النهضة العلمية في الشمال الأفريقي**، جريدة البصائر، ع ٤٤، ٢٦ جويلية ١٩٤٨م.
(٢١) مولود قرين: المرجع السابق، ص٦٧.
(٢٢) البشير الإبراهيمي: **أثار البشير الإبراهيمي**، ج٤، ص٢٣٦/٢٣٧
(٢٣) مولود قرين: المرجع السابق، ص٧٠.
(٢٤) البشير الإبراهيمي: **أثار البشير الإبراهيمي**، ج ٤، ص٣٠٢.
(٢٥) للاطلاع أكثر حول هذه المقالات التي تمس القضايا العربية والإسلامية، يُنظر: البشير الإبراهيمي: **أثار البشير الإبراهيمي**، ج٤، دار الغرب الاسلامي، ١٩٩٧م.
(٢٦) البشير الإبراهيمي: **أثار البشير الإبراهيمي**، ج٢، ص١٢٩.
(٢٧) سعيد بورنان: **نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في فرنسا ١٩٣٦-١٩٥٦م**، دار هومة، ص٦٣-٦٤
(٢٨) مولود عويمر: **تراث الحركة الاصلاحية الجزائرية**، دار قرطبة، الجزائر، ٢٠١١م، ج٢، ص٣٢٥.
(٢٩) البشير الإبراهيمي: **أثار البشير الإبراهيمي**، ج١، ص٣٠٥.
(٣٠) البشير الإبراهيمي: **أثار البشير الإبراهيمي**،ج٢، ص١٥٢.
(٣١) البشير الإبراهيمي: **أثار البشير الإبراهيمي** (عيون البصائر)، ج٣، ٢٠١-٢٠٢
(٣٢) البشير الإبراهيمي: **أثار البشير الإبراهيمي**، ج٢، ص٤٥٢.
(٣٣) سعيد بورنان: **الشيخ الفضيل الورتلاني**، ص١٢٣.
(٣٤) **محمد أنور محمد السادات** ٢٥ ديسمبر ١٩١٨- ٦ أكتوبر ١٩٨١)، ثالث رئيس لجمهورية مصر العربية في الفترة من ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ وحتى ٦ أكتوبر ١٩٨١.

(٣٥) البشير الإبراهيمي: **في قلب المعركة**، ص٥٧.

(٣٦) ولد الشيخ الفضيل الورتلاني يوم ٦ فيفري من سنة ١٩٠٠م، بقرية "آنو" بقمم جبال بني ورتلان ولاية سطيف، وينتمي إلى أسرة عريقة اشتهرت بالعلم والصلاح، ومنهم جده المشهور العالم والرحالة الحسين الورتلاني صاحب الرحلة المشهورة المسماة "رحلة الورتلاني"، أخذ العلم على والده واعمامه ودخل المدرسة الفرنسية، وتعلم القرآن الكريم والفقة والنحو ومبادئ العلوم على أيدي عائلته، وانتقل إلى قسنطينة حيث أصبح تلميذًا لدى الشيخ عبد الحميد بن باديس، وتعرف هناك على رواد الحركة الاصلاحية الجزائرية، ذهب لمواصلة الدراسة بجامع الزيتونة ولكنه لم يطل المقام هناك ورجع الى قسنطينة ملازمًا الشيخ ابن باديس، وكان له دور ريادي ضمن نشاط جمعية العلماء سواء في الجزائر أو في فرنسا، وكان له دور ريادي في القاهرة، توفي بتركيا يوم ١٢ مارس ١٩٥٩م، وفي الذكرى الثامنة والعشرين لوفاته سنة ١٩٨٧م، تم نقل رفاته ودفنه بمسقط راسه بمدينة بني ورتلان بسطيف، بحضور شخصيات وطنية ودولية وجمع كبير من المواطنين، يُنظر: سعيد بورنان: **الشيخ الفضيل الورتلاني العلامة الثائر**، دار هومة، ط٢، ٢٠١٤م، ص-ص ٣١-١٦٠.

(٣٧) محمد البشير الإبراهيمي: **في قلب المعركة**، دار الامة، ص٢٢.

(٣٨) **جمال عبد الناصر حسين** (١٥ يناير ١٩١٨ - ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠) هو ثاني رؤساء مصر. تولى السلطة من سنة ١٩٥٦، إلى وفاته سنة ١٩٧٠. وهو أحد قادة ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، التي أطاحت بالملك فاروق) آخر حاكم من أسرة محمد علي (والتي شغل منصب نائب رئيس الوزراء في حكومتها الجديدة. وصل جمال عبد الناصر إلى الحكم عن طريق وضع محمد نجيب) الرئيس حينها) تحت الإقامة الجبرية، وذلك بعد تنامي الخلافات بين نجيب وبين مجلس قيادة الثورة، وتولى رئاسة الوزراء ثم رئاسة الجمهورية باستفتاء شعبي يوم ٢٤ يونيو ١٩٥٦.

(٣٩) **أبو القاسم سعد الله:** لُقب بشيخ المؤرخين الجزائريين من مواليد 1930م بضواحي قمار من ولاية الوادي، الجزائر، باحث ومؤرخ، حفظ القرآن الكريم، وتلقى مبادئ العلوم من لغة وفقه ودين، وهو من رجالات الفكر البارزين، ومن أعلام الإصلاح الاجتماعي والديني. له سجل علمي حافل بالإنجازات من وظائف، ومؤلفات، وترجمات، توفي يوم ١٤ ديسمبر ٢٠١٤م.

(٤٠) البشير الإبراهيمي: **أثار البشير الإبراهيمي**، ج٥، ص٧

(٤١) الشير الإبراهيمي: **أثار البشير الإبراهيمي**، ج٥، ص٨

(٤٢) البشير الإبراهيمي: **أثار البشير الإبراهيمي**، ج٥، ص٨

(٤٣) البشير الإبراهيمي: في قلب المعركة، ص٥٧.

(٤٤) **إذاعة صوت العرب**: هي إذاعة مصرية تبث من القاهرة، تم إنشائها في ٤ يوليو عام ١٩٥٣، وكانت من أول وأشهر الإذاعات المصرية التي بث لجميع أقطار العالم العربي باللغة العربية. اشتهرت الإذاعة كوسيلة أساسية استخدمها الرئيس المصري في حينه جمال عبد الناصر لبث خطاباته حول الوحدة العربية ومناهضة الاستعمار الاجنبي للبلدان العربية.

(٤٥) البشير الإبراهيمي: **في قلب المعركة**، ص٨٧.

مقالات

قادة الثورة الجزائرية السياسيين
هل كان بن خدة ضحية التحاقه المتأخر بالثورة؟

عزيز خيثر
أستاذ مؤقت التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة محند أكلي أولحاج - البويرة
الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

إن من بين أبرز قادة الثورة الجزائرية السياسيين الذين تركوا بصماتهم في تاريخ الثورة وذاكرة الشعب الجزائري هو بن يوسف بن خدة. الذي يعتبر شيء من التدقيق أو بعض من التقصي في المسار النضالي لهذه الشخصية منذ التحاقها بالتيار الثوري في الحركة الوطنية الجزائرية مطلع الأربعينات إلى غاية استقلال الجزائر مطلع الستينات يسمح بالوقوف على حقائق تاريخية هامة في مسيرة الرجل لعل من أبرزها مسألة تأخره في الالتحاق بصفوف الثورة منذ انطلاقها، وهو الأمر الذي حاول البعض استغلاله للقدح والتقليل من ثورية الرجل، لاسيما وأنه كان على رأس أحد جناحي الحزب المتصارعين فيما عرف بأزمة حزب الشعب (١٩٥٣-١٩٥٤)، وذهب البعض الآخر من "رفاقه" في درب الكفاح إلى محاولة إضفاء بعد سلبي جدًا عليها عندما كالوا له تهم تطعن في إخلاصه لقضية شعبه وتشكك حتى في وطنيته، وبغض النظر عن الخلفيات التي استندت عليها هذه الأحكام القاسية في حق الرجل، ومدى مجانبتها للحقيقة إلا أن المؤكد والثابت تاريخيًا أن بن خدة عانى من هذه الصفة التي رمت بضلالها على مساره النضالي بعد اندلاع الثورة.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	١٠	مارس	٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر:	٠٣	يونيو	٢٠١٥

كلمات مفتاحية:
الحركة الوطنية الجزائرية، الثورة الجزائرية، الاستعمار الفرنسي، بن يوسف بن خدة

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0051258

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
عزيز خيثر. "قادة الثورة الجزائرية السياسيين: هل كان بن خدة ضحية التحاقه المتأخر بالثورة؟".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد التاسع والثلاثين؛ مارس ٢٠١٨. ص١٠٣ – ١٠٨.

مُقَدِّمَةُ

لعل من بين أهم الشخصيات التي لا يمكن إغفال اسمها عند التصدي لكتابة التاريخ السياسي للثورة لا سيما إذا تعلق الأمر بهيئاتها القيادية هي شخصية بن يوسف بن خدة الذي يُعَدّ أحد أبرز القادة السياسيين للثورة، ولعل ما ميز هذه الشخصية هي أنها لم تصنع نتيجة الأحداث والتطورات التي أفرزتها الثورة، كما لم تكن من اكتشافها باعتبار أن بن خدة لم يكن شخصية مغمورة أو بعيدة عن الحياة السياسية في الفترة التي سبقت اندلاع الثورة، بقدر ما سمحت لها هذه الأخيرة بالبروز أكثر.

إن الماضي النضالي والسياسي لبن خدة في الحركة الوطنية مع حزب الشعب-حركة انتصار الحريات الديمقراطية جعله يعتلي مناصب عُليا في الثورة ويتدرج في سلمها بسرعة كبيرة إلى أن وصل إلى أعلى هرم القيادة السياسية للثورة عندما أسندت له رئاسة الحكومة المؤقتة للثورة الجزائرية سنة ١٩٦١. وفي اعتقادي أن التسليم بهذه الحقيقة تنفي عن صعود هذه الشخصية الصفة "الطارئة" أو اتهامها "بالتسلق"، بالقدر الذي يعطي انطباع قوي بأن هذا الارتقاء جاء نتيجة تمكن بن خدة من فرض نفسه وحضوره بكفاءته والتزامه واحترامه للقناعات التي تربى عليها منذ نعومة أظافره أين زاد انخراطه في الحركة الوطنية في صقلها.

لا يعتبر من الشطط أو المبالغة في القول إن بن خدة من قادة الثورة القلائل الذين صنعوا التاريخ وحفظوه من النسيان لتوثيقه معظم الأحداث التي عايشها بعدما قيدها في آثار علمية غاية في الأهمية صان بها ذاكرة الثورة، وأماط اللثام عن قضايا عديدة زادت من توضيح صورتها وساهم في تجلية لكثير من الحقائق التاريخية، كما كانت معين للباحثين في تاريخ الجزائر

المعاصر. لعل ما يزيد في أهمية الرصيد العلمي الذي خلفه الرجل هو اتسامه بالموضوعية إلى حد بعيد وابتعاده عن الانفعال والذاتية المفرطة التي تطبع الكثير من الشهادات والمذكرات الشخصية لبعض الفاعلين في هذه المرحلة الحساسة من تاريخ الجزائر. لا يمكن الادعاء بقدرة هذه المحاولة التأريخ لمسار هذا الرجل أو حتى لمرحلة من مراحل نضاله بقدر ما تمثل إضاءة لمسألة مهمة متعلقة بتاريخ هذا الرجل ونضاله في الثورة، لعلها تجيب عن تساؤل يمكن لأي متتبع لتاريخ هذه الشخصية أن يطرحه هو: هل كان بن خدة ضحية التحاقه المتأخر بالثورة؟

أولاً: ملاحظات على المسار النضالي لبن خدة في الحركة الوطنية

إن التدقيق في تتبع المسار النضالي لبن يوسف بن خدة منذ التحاقه بالتيار الثوري في الحركة الوطنية الجزائرية مطلع الأربعينات إلى غاية استقلال الجزائر مطلع الستينات يسمح بالوقوف على حقائق تاريخية هامة في مسيرة الرجل لعل من أبرزها مسالة تأخره في الالتحاق بصفوف الثورة منذ انطلاقها، وهو الأمر الذي حاول البعض استغلاله للقدح والتقليل من ثورية الرجل، لاسيما وأنه كان على رأس أحد جناحي الحزب المتصارعين فيما عرف بأزمة حزب الشعب ١٩٥٣-١٩٥٤، وذهب البعض الآخر من "رفاقه" في درب الكفاح إلى محاولة إضفاء بعد سلبي جدا عليها عندما كالت له تهم تطعن في إخلاصه لقضية شعبه وتشكك حتى في وطنيته، وبغض النظر عن الخلفيات التي استندت عليها هذه الأحكام القاسية في حق الرجل، ومدى مجانبتها للحقيقة إلا أن المؤكد والثابت تاريخيا أن بن خدة عانى من هذه الصفة التي رمت بضلالها على مساره النضالي بعد اندلاع الثورة.

سأسعى في هذه المحاولة الإحاطة بأهم الجوانب المتعلقة بهذه المسألة، والإجابة على بعض التساؤلات المتعلقة بها لعلها تكشف جانب من الحقيقة التي نترك الحكم على مدى صحتها للقارئ. ولعل أبرز هذه التساؤلات ما يلي: هل تأخر بن خدة عن الالتحاق بالثورة مرده إلى عدم اقتناعه بها؟ وهل التحاقه بها كان بسبب خشيته التأخر عن ركبها؟ إلى أي مدى أثرت هذه المسألة على مساره النضالي في الثورة؟ ألم يكن بن خدة ضحية أسباب أخرى غير هذه المسألة التي تم توظيفها من طرف بعض قادة الثورة لتصفية حسابات كانت عالقة بينهم؟

إن بن يوسف بن خده من الشخصيات الوطنية الثورية القيادية التي حافظت على قناعاتها ومبادئها التي تؤمن بها، وثبتت على مواقفها ودافعت عنها في الوقت الذي انساقت شخصيات أخرى وراء مصالحها وإغراءات السلطة وامتيازاتها أثناء الحركة الوطنية وثورة التحرير. إن تتبع المسار النضالي للرجل يسمح بتسجيل عدة مواقف تشهد له بالثبات والإخلاص للمبادئ، مما فوت عليه في بعض الأحيان فرص للارتقاء في الهيئات القيادية للثورة أو كانت سببًا في تأخرها، وفي أحيان أخرى لم يحافظ على مركزه في البعض منها بسببها، في الوقت الذي كان بإمكانه عدم تفويت تلك الفرص مقابل التراجع أو التزحزح قليلاً عن تلك المبادئ، أو تغيير ولائه لصالح مجموعة من المجموعات التي تنافست على السلطة والقيادة أثناء الثورة.

لا ينبغي أن يفهم من هذا التقديم بأن الغرض منه إضفاء ايجابية مطلقة على سيرة الرجل ومواقفه في مساره النضالي، بقدر ما نراه شهادة منا هي حق للرجل علينا فرضها بأعماله ومواقفه الثابتة وتضحياته الصادقة التي تلزم كل باحث نزيه ورفيق درب بعيد عن الخلافات الشخصية والانتماءات الحزبية والتوجهات الإيديولوجية الإدلاء بها بكل موضوعية. كما لا يعني هذا أيضا تنزيه هذه الشخصية من الوقوع في بعض الأخطاء بالنظر إلى حجم المسؤوليات الكبيرة التي تقلدها في الحزب أو الثورة التحريرية، فهو كغيره من الشخصيات القيادية شاب مساره بعض النقائص والمثالب، لكن الحقيقة التاريخية تفرض القول بأن أخطاء الرجل في مساره لم تصل به إلى حد الانحراف عن مبادئ وثوابت الثورة وقضيته الوطنية، أو التخلي عن مبادئه أو تغيير ولائه بالشكل الذي يضفي سلبية على مواقفه، أو يطعن في وطنيته ويشكك في نزاهته، بقدر ما تعبر عن قناعات وخيارات لم تكن صائبة أو متأخرة عن وقتها.

وبغض النظر عن كل هذا فإنه تجدر الإشارة إلى أن الرجل كان لا يتردد في تصحيح واستدراك أخطائه، وتعديل مواقفه كلما تبين له عدم سدادها، ونضرب مثالاً واحدًا على هذا عندما تأخر قليلا عن الالتحاق بالثورة التي لم يكن يؤمن إلى غاية اندلاعها بأولويتها على العمل السياسي الذي كان يدعو إليه سنوات قبل انطلاقها، أو على الأقل كان يرى بأن وقتها لم يحن بعد، عندما كان على رأس الأمانة العامة لحركة انتصار الحريات الديمقراطية (١٩٥١-١٩٥٤)، لكن سرعان ما تدارك موقفه منها وانخرط فيها طواعية وعن قناعة كما يذكر عنه المؤرخ الانجليزي آليستر هورن[١] بعدما أدرك أن طبيعة الاستعمار الفرنسي- وسياسته لم تترك أمام الجزائريين إلا خيارًا واحدًا من أجل انتزاع حريتهم.

ثانيًا: التوظيف السلبي لتأخر التحاق بن خدة بالثورة

لقد حاول البعض استغلال مسالة تأخره في الالتحاق بصفوف الثورة عند انطلاقها للتقليل من ثورية الرجل أو توظيفها من أجل محاولة إضفاء بعد سلبي جدا على ماضيه النضالي كما فعل بعض رفاق دربه في الكفاح عندما كالوا له تهم تطعن في إخلاصه لقضية شعبه وتشكك حتى في وطنيته، وبغض النظر عن الخلفيات التي استندت عليها هذه الأحكام القاسية في حق الرجل، ومدى مجانبتها للحقيقة إلا أن المؤكد والثابت تاريخيا أن بن خدة عانى من هذه الصفة التي رمت بضلالها على

مساره النضالي بعد التحاقه بالثورة والتي سرعان ما طفت على السطح بعدما أسندت له مناصب قيادية داخل مؤسساتها.

أعتقد جازمًا بأنه من الظلم والإجحاف في حق بن خدة توظيف هذه المسألة للطعن في شرعية تعيينه داخل تلك المؤسسات، أو التسرع في قدحه باعتبارها نقيصة أو هنة في مسيرته النضالية، بل يجب وضعها في سياقها التاريخي حتى تتضح معالمها. فالمعروف أن بن خدة كان على رأس الأمانة العامة لحركة انتصار الحريات الديمقراطية ثلاث سنوات قبل اندلاع الثورة، وهي المرحلة التي عرف فيها الحزب أزمته المعروفة، أين كان بن خدة كغيره من إطارات الحزب منخرطا فيها وطرفًا أساسيًا في النزاع بحكم منصبه في الحزب، الأمر الذي لم يكن معه من السهل عليه الخروج من تلك الأزمة بمجرد إعلان الثورة، وما يدعم هذا هو غياب أي إطار من جناحي الحزب المتصارعين انخرط في الثورة فور اندلاعها، ومن جهة أخرى لم تسعف الإدارة الاستعمارية بن خدة لينخرط في الثورة سريعًا إذ عاجلته بالاعتقال في شهرها الأول بعدما احتج على حملة الاعتقال التي شنتها هذه الإدارة ضد الجزائريين وخاصة رفاقه في الحزب.[٢]

بعد إطلاق سراحه من السجن في ماي ١٩٥٥ لم يلبث بن خدة طويلاً حتى التحق بصفوف الثورة، وهنا تجدر الإشارة إلى أن التحاق بن خدة بالثورة لم يكن وليد الصدفة، كما لم يكن وليد تعرضه للقمع، ولوانه لا يمكن إغفال دور هذا الأخير في ترسيخ قناعته بالثورة كخيار وحيد بقي متاحًا أمام الجزائريين، باعتبار أن فرنسا بتعاملها الفض والعنيف مع الشعب الجزائري بعد اندلاع الثورة كان سببًا دفع بالكثير من الشباب الذين أحسوا بالظلم إلى الالتحاق بصفوف جبهة التحرير الوطني، لكن هذا لا يعني بأن الفكر الثوري عند هؤلاء الشباب ومنهم بن خدة قد ولد في لحظة تعرضهم للقمع والاعتقال الذي انجر عنه إحساس كبير بالظلم، بقدر ما قطع عليهم هذا الأسلوب العنيف في التعامل الشك والتردد الذي كان مسيطرا على البعض منهم، وحال دون انخراطهم في صفوف الثورة منذ اندلاعها، لاسيما بالنظر إلى الغموض الذي اكتنفها في البداية.

إن ما ينبغي التأكيد عليه هنا أن عرض هذه الفكرة ليس الغرض منه المرافعة عن خطأ ارتكبه الرجل كانت مسؤولياته في الحزب تمكنه من فهم طبيعة وحقيقة هجومات أول نوفمبر ١٩٥٤ أكثر من غيره، وتفرض عليه تقدم صفوف مفجري الثورة الذين خرجوا من صلب هذا الحزب، ومن جهة أخرى لا أريد أن أتهم بالتبسيط باعتبار أن هذا الكلام قد ينطبق على شاب عادي أو مناضل بسيط في الحزب، ولا يمكن القبول به في المقابل من إطار قيادي في حزب ثوري تعرض للاعتقال من قبل وذاق مرارته (دخل للسجن عام فقط بعد انخراطه في الحزب سنة ١٩٤٢ وبقي فيه ٨ أشهر، وهي تقريبا الفترة نفسها التي قضاها في اعتقاله الثاني من نوفمبر ١٩٥٤ إلى ماي ١٩٥٥)، ولكن أردت من خلال تسويق هذه الفكرة التأكيد على أن الرجل عانى بسبب هذا الأمر أكثر مما يستحق بعد التحاقه بالثورة وتوليه مناصب قيادية فيها، بحيث ظلت لفترة من عمر الثورة سببا وجيها في نظر بعض رفاقه في درب النضال والثورة للتقليل من أهليته في تولي تلك المناصب التي تقلدها، وما كان يزيد من تأكيد وجاهة هذا الحكم من وجهة نظرهم هو أن بن خدة لم يكن من الثوريين في الحزب وإنما كان على رأس المركزيين السياسيين.

هذا ولم تتوقف أبعاد هذه المسألة عند بن خدة فقط وإنما تم توظيفها كسهم لانتقاد بعض قادة الثورة الذين استعانوا به وعمل معهم في قيادة الثورة في ظروف عصيبة كانت تمر بها، وقد نذهب بعيدا في أبعاد هذه المسألة وتأثيرها على مسار بن خدة ونجازف بالقول إنها كانت بالإضافة إلى طبعه المسالم وشخصيته ومستوى تكوينه. من أهم العوامل التي ساهمت بشكل كبير في الحد من طموحه للعب دور كبير في جزائر ما بعد الاستقلال، وهي نفسها العوامل بالإضافة إلى معطيات أخرى عرفتها الجزائر قبيل استقلالها جعلته يؤثر المصلحة العُليا للثورة والوطن على مصلحته الشخصية عندما استسلم لِمَنْ هو أقدم منه انخراطًا في الثورة، وأكثر إسهاما في تفجيرها، ولم يصر على تمسكه بالشرعية التي كان يمثلها.

إن الحديث عن قضية تأخر التحاق بن خدة بالثورة، وفي المقابل حضوره في الهيئات القيادية العليا للثورة والمواقف المختلفة منها لاسيما المنتقدة والمعارضة لها من طرف قادة آخرين تستدعي التوقف عند أمر هو في غاية الأهمية حسب اعتقادي، وهي أن قضية التعيين والتمثيل داخل هذه الهيئات أثناء الثورة كانت مسألة شديدة الحساسية والتأثر بمبدأ "الشرعية الثورية التاريخية" التي كانت حقًا لا يقبل التشارك فيه أو التنازع عليه في نظر القادة المفجرين للثورة، كما لم يكن قابلا للتنازل أو التقادم، وكانت كل محاولة لتجاوزه أو تهميشه من قبل عناصر غير منتمية لهذه المجموعة تكال لها تهم الانحراف عن مبادئ الثورة، ومحاولة الانفراد بقيادة الثورة والاستحواذ عليها، وفي بعض الأحيان بلغت أبعاد خطيرة راح ضحيتها عدد من القادة.

ثالثًا: بن خدة بين الإبعاد والترقية

إن مفجري الثورة أو ما يعرف "بالتاريخيين" من فرط حرصهم على احترام مبدأ الشرعية الثورية التاريخية جعلوه معيارا ظل يتحكم في مسألة قيادة الثورة الفعلية وبدرجة أقل في التمثيل داخل هيئاتها القيادية، أين سمحوا وتساهلوا في بعض الأحيان فيما يخص مسألة التمثيل داخل الهيئات القيادية للثورة بوجود عناصر من خارج هذه المجموعة، لاسيما إذا كانوا من القادة العسكريين.

أما القادة السياسيين الذي يُعَدّ بن يوسف بن خدة واحدا منهم فان تعينهم داخل هيئات الثورة كان راجعًا لعدة اعتبارات منها على سبيل الذكر لا الحصر حاجة الثورة إلى كفاءاتهم، ونجاحهم في فرض وجودهم بالشكل الذي لم يسمح بإبقائهم

على الهامش. ولقد ازدادت أهميتهم مع ظهور بوادر التسوية السياسية (التفاوض) مع فرنسا، لكن كل هذا لم يشفع لهم لتولي المناصب التي كانت تمثل السلطة والقيادة الفعلية التي ظلت حكرًا على غيرهم من التاريخيين والعسكريين ومن كان يدور في فلكهم من الأعوان والحلفاء، لتنحصر مشاركتهم في القيادة بتولي المناصب التقنية والإدارية وتصدر الواجهة السياسية للثورة.

انطلاقًا مما سبق يمكننا المجازفة بالقول؛ أن بن خدة صحيح قد تبوأ مناصب قيادية عديدة في الثورة من عضوية لجنة التنسيق والتنفيذ الأولى، إلى وزارة الشؤون الاجتماعية في الحكومة المؤقتة الأولى للثورة الجزائرية سنة ١٩٥٨، وصولاً إلى رئاسة هذه الحكومة سنة ١٩٦١، لكن ليس أقل منه صحة أن ملاحقة صفة "التأخر" ومن قبلها الصفة "المركزية" كانتا من أهم الأسباب التي جعلته قائد من الصف الثاني في الثورة بعد التاريخيين.

لقد ارتبط الظهور الأول لبن خدة في الهيئات القيادية للثورة مع تعيينه في لجنة التنسيق والتنفيذ الأولى التي أقرها مؤتمر الصومام سنة ١٩٥٦ الأمر الذي لم يكن مرحبًا به من طرف بعض القادة بالداخل والخارج الذين انتقدوا بشدة وجود عناصر وصفوها "بالمعتدلة" [٣] و"الغير تاريخية" على هذا المستوى من التمثيل داخل مؤسسات الثورة العليا، ووصل بهم الحد إلى وصمها "بالغير مخلصة" [٤]، لكن المفارقة التي حصلت هي أن هذه العناصر التي أقصيت من مناصبها القيادية بسبب هذه التهم تم الاستعانة بها فيما بعد، كما تم استبدالها بعناصر أخرى هي أكثر اعتدالا وبعدا عن الانتماء الحزبي والتوجه الفكري للمجموعة المفجرة للثورة، الأمر الذي يطرح عدة تساؤلات عن حقيقة إبعاد بن خدة عن لجنة التنسيق والتنفيذ الثانية التي أقرها مؤتمر القاهرة في أوت ١٩٥٧، وإبعاده عن وزارة الشؤون الاجتماعية للحكومة المؤقتة الأولى سنة ١٩٦٠ في الوقت الذي تم استدعاؤه لرئاسة الحكومة المؤقتة الثانية سنة ١٩٦١.

قبل الإجابة عن الأسباب الحقيقة التي أدت إلى إبعاد بن خدة عن مسؤولياته في مؤسسات الثورة تجدر الإشارة إلى أن مسألة إسناد مناصب في الهيئات العليا للثورة لغير المفجرين كانت من القضايا الخلافية التي أثارت نقاشات حادة وطويلة في اجتماعات قادة الثورة بداية من مؤتمر الصومام الذي أثيرت فيه قضية الصفات التي يجب أن تتوفر في أعضاء هذه الهيئات بحيث يذكر لخضر بن طوبال بأن زيغود يوسف وممثلي المنطقة الثانية، وحتى عدد من ممثلي المناطق الأخرى (الثالثة والرابعة) كانوا مع فكرة وجوب اختيار الأعضاء من المجموعات الأولى التي فجرت الثورة من أجل الحفاظ على الإيديولوجية الثورية، وحماية الثورة من حدوث أي انحراف قد يؤدي إليه إشراك بعض العناصر المعتدلة أو المتخلفة عن الالتحاق بالثورة في هذه الهيئات.[٥]

إن هذه الشهادة من بن طوبال تبعد الشك عن رواية جيلبار ميني الذي ذكر بأن بن طوبال كان يتهم المركزيين بأنهم على استعداد لتحري مسار الثورة مقابل الاتفاق مع فرنسا قبل تحقيق النصر النهائي، ويذكر بأن هذه القناعة هي التي حملته على قبول دعوة كريم بلقاسم له (قبل خروجه إلى تونس) بضرورة الالتحاق به من أجل تهميش المركزيين في لجنة التنسيق والتنفيذ.[٦] وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه التهمة حسب اعتقادي كانت تستند في خلفياتها إلى ذلك العرض الذي قدمه بعض المركزيين منهم بن خدة وصالح الونشي- وشرشالي وعبد المالك تمام... إلى بن بلة الذي التقوا به بعد خروجهم من السجن في مدينة سان ريمو الايطالية أين عرضوا عليه فكرة إنشاء حزب سياسي يعمل بشكل شرعي ويتحدث باسم المجاهدين، وهي الفكرة التي كانت محل ترحيب من جاك سوستيل.[٧]

إن مما لا شك فيه؛ أن إبعاد بن خدة من عضوية هذه المؤسسات القيادية لم يكن بسبب قلة كفاءته أو تقصيره في أداء مهامه ومسؤولياته، وهي المسألة التي لا تقبل النقاش باعتبار أن مسار الرجل حافل بالأعمال الكثيرة التي قدمها للثورة منذ انخراطه فيها، فبن خدة وأمثاله من المثقفين قدموا إضافة كبيرة للثورة لاسيما على الصعيد التنظيري والتنظيمي الأمر الذي رفع من مستوى الأداء السياسي والعسكري للثورة بالشكل الذي سمح لها بالصمود وإفشال استراتيجية العدو التي كانت على درجة كبيرة من الخطورة والمناورة. إن إبعاد هذا الاحتمال الأول (قلة الكفاءة والتقصير) يؤكده أيضًا إعادة استدعاؤه لتولي مناصب قيادية أرفع في مؤسسات الثورة السياسية مما يدحض الانتقادات التي وجهت لعبان بأنه استعان بعناصر دخيلة غير مخلصة ثوريًا، ويحملني في نفس الوقت لتبني وجهات نظر هي احتمالات أخرى أراها أقرب للحقيقة حتى ولو لم يتم التصريح بها من طرف من كان وراء عزله.

تكاد تجمع الدراسات الأكاديمية الجادة والشهادات التاريخية الموضوعية على أن إبعاد بن خدة عن لجنة التنسيق والتنفيذ الثانية سنة ١٩٥٧ كان بسبب قربه من عبان رمضان الذي عمل معه منذ انخراطه في الثورة، ورغبة خصوم هذا الأخير في عزله بعدما بات يشكل من وجهة نظرهم خطرا عليهم باعتباره كان يطمح للانفراد بقيادة الثورة وتمكين السياسيين من أمثاله في مؤسسات الثورة فقاموا بإبعاد مساعديه بن خدة وسعد دحلب اللذين كانا من أكثر المقربين إليه، ومنه يمكن القول بأن سبب إبعاد بن خدة عن هذه الهيئة هو ليس لماضيه باعتباره كان مركزيا أو لقلة كفاءته، وإنما كان نتيجة تصفية حسابات بين بعض قادة الثورة وصراع مستتر بينهم على القيادة، بمعنى أن هذا الإبعاد كان يستند في خلفياته إلى الصراع بين بعض الأطراف حول القيادة أكثر منها خلفيات مؤسسة على ثوابت ومبادئ ثورية.

إذا كان الإبعاد الأول لبن خدة عن مؤسسات قيادة الثورة كما رأينا فان إبعاده عن وزارة الشؤون الاجتماعية في الحكومة المؤقتة الثانية راجع إلى تمسكه بمبدأ دخول قيادة الثورة إلى أرض الوطن ساحة المعركة الحقيقية، وهي الفكرة التي لم يكن يتحمس لها كثير من القادة الذين استروحوا الخارج ورأوا بأن تكوين هيئة أو لجنة تتكفل بإدخال السلاح للولايات كفيلة بحل هذا المشكل[٨]، لذلك عندما أصر بن خدة على هذه الفكرة وثبت في موقفه هذا الذي كان يتماشى مع المبدأ الذي أقره مؤتمر الصومام تم عزله من الحكومة في إطار سياسة إبعاد الأصوات المخالفة.

إن ما تجدر الإشارة إليه هو أن بن خدة على الرغم من انه كان من أبرز قادة الثورة السياسيين الذين كان لهم باع طويل ووزن كبير في هذا المجال، مكنه من الارتقاء داخل الهيئات القيادية للثورة ومعرفة الأسباب التي أدت في كل مرة إلى عزله وإبعاده عن هذه الهيئات يزيد من تأكيد هذه الحقيقة باعتبار أنه في كل مرة يعزل إما يكون ضحية توازنات وصراع مواقع بين بعض القادة في هذه الهيئات، أو ضحية ثباته على موقفه، في الوقت الذي لم يجرأ فيه أحد من الذين كانوا وراء إبعاده باتهامه بالفشل في أداء مهامه أو اتهامه بمخالفة مبادئ الثورة.

وما يسجل لبن خدة أيضًا هو أنه على الرغم من إدراكه لحقيقة هذا الأمر الذي تكرر معه، إلا أننا لم نسجل له مواقف معارضة لقرارات الثورة أو قيامه بعمل انتقامي يضر بها، مما يؤكد إخلاصه لها وللمبادئ التي كان يؤمن بها لاسيما إذا علمنا بأنه لم يركن للراحة أو اعتزال النضال في الفترات التي أبعد فيها عن مناصبه بل استمر في كفاحه وخدمته لقضية شعبه. أين واصل كتاباته الصحفية في جريدة المجاهد، كما قاد العديد من البعثات الدبلوماسية التي كانت تسعى لحصد الدعم والمساعدة للثورة الجزائرية في العديد من الدول، أين حقق نجاحًا كبيرًا في عمله بهذا المجال، أين ساعدته خبرته ورصيده الكبير الحافل بالنجاحات التي حققها في السابق جعلت الحكومة المؤقتة لا تستغني عنه في هذا المجال، ويكفي هنا الإشارة والتذكير بالبعض منها، ففي ديسمبر ١٩٥٨ قاد بن خدة أول بعثة للحكومة المؤقتة للثورة الجزائرية إلى الصين أين تم استقبالها بحفاوة وحرارة كبيرتين، وصفها بن خدة بأنها "تعتبر من أهم البعثات". لا لأنها حصلت فيها الثورة على دعم مادي كبير (سلاح ومؤن...) بلغت قيمته حسب آليستر هورن ٢ مليار فرنك فرنسي،[٩] وإنما لأثرها النفسي على المقاتلين لأن فيها رفع العلم الوطني وعزف النشيد الوطني لأول مرة في تاريخ الجزائر على تراب دولة أجنبية، لقد جعلت أهمية حصاد هذه البعثة أحد المؤرخين الفرنسيين يعلق عليها باستعارة جميلة قال فيها "لقد كانت الجبهة كذلك الصياد الذي رمى بشباكه ليصطاد أرنبا فإذا به بالأسد"، وتجدر الإشارة إلى أن بن خدة هومن حث على هذه الزيارة.

إن كل هذا يحيلنا إلى فكرة هامة كان بن خدة نموذج عنها وهي أن الخلاف الذي كان بين بعض قادة الثورة خاصة بعد مؤتمر الصومام أين ظهر الانقسام بين قادة الداخل والخارج، وتطور هذا الخلاف بعد تزايد الشكوك بين بعض الأطراف التي كانت حريصة على قيادة الثورة، كانت له آثارا سلبية على الثورة ومستقبلها لأنه أدى إلى تصفية وإقصاء إطارات، وعزل وتهميش أخرى ولو بشكل مؤقت من المشاركة في إدارة المعركة، مما فوت على الثورة فرص الاستفادة من طاقاتهم وكفاءاتهم ليس في قيادة العمل المسلح وتنظيمه فحسب، وإنما في التنظير لمستقبل الدولة وإعادة بعثها بالشكل السليم الذي كان بالإمكان أن يجنبها العديد من الأزمات والكبوات لا سيما على الصعيد السياسي والاقتصادي.

خَاتِمَةٌ

إن تتبع مسار بن يوسف بن خدة ومواقفه خلال الثورة لا يسمح فقط بالوقوف على حجم إسهام الرجل وأعماله في سبيل خدمة القضية الوطنية، وإنما أيضًا يتيح فرصة التعرف على طبيعة العلاقات التي كانت بين قادة الثورة، والتصنيفات التي كانت تعرفها النخبة الثورية من قبيل: قادة عسكريين وقادة سياسيين، مفجرين رواد ومتأخرين تابعين، ثوريين وغير ثوريين، راديكاليين ومعتدلين... وغيرها من التصنيفات التي حكمت العلاقات فيما بينهم بشكل علني أحيانًا ومستتر في أحايين كثيرة. وبغض النظر عن تداعيات هذه التصنيفات وغيرها من الاعتبارات الأخرى التي كان يتم الاحتكام إليها يبقى بن خدة من خيرة قادة الثورة، وإطار من إطاراتها بموصفات رجل الدولة غير أنه لم يأخذ حقه كاملاً سواء في الثورة وحتى بعد الاستقلال، ويكفي للاستشهاد على هذا هو أنه همش بعد الاستقلال بعدما رفض منازعته أثناء الثورة للسلطة الشرعية التي كان على رأسها من طرف بعض القادة الذين استندوا في طلبهم للسلطة على مبدأ الشرعية التاريخية بعدما بدأت تلوح في الأفق بوادر الاستقلال.

وفي الأخير أختم بالقول إن بن خدة كان رجلاً مخلصًا وفيًا للثورة مؤمنا بمبادئها التي لم يحد عنها، حريصًا على نجاح أهدافها التي سعى بصدق إلى تحقيقها، غير أن ماضيه السياسي وتأخره عن موعد انطلاق الثورة كانا بالإضافة لاعتبارات أخرى مرتبطة بالعلاقات التي كانت بين النخبة الثورية من أبرز العوامل التي رمت بظلالها عليه بالشكل الذي وان لم تجعله يدفع ثمنها فإنها حالت بينه وبين ما كان يأمل أن يقدمه لهذا الوطن الذي يعتبر بن خدة من خيرة أبنائه.

الهَوامِشُ:

(1) Alistair Horne: Histoire de la guerre d'Algérie, 4 édition, édition Dahlab, Alger, 2007, p141.

(٢) قبل ثلاثة أيام من اعتقاله كتب بن خدة رسالة جماعية نشرت بجريدة Alger Républicain احتج فيها على الاعتقال الذي تعرض له بعض المناضلين الأبرياء بطريقة وحشية، ليتم اعتقاله بعدها. انظر:
Alistair Horne: Ibid, p100.

(٣) بن بلة مثلاً اعتبر إدخال عناصر معتدلة في هيئات الثورة خطأ وخرق لمبادئ الثورة، ووصف هذه العناصر أيضًا "بالورم الحقيقي" مثلما جاء في رسالته إلى لجنة التنسيق والتنفيذ في خريف ١٩٥٦، وهي الرسالة التي نشرتها جريدة Le Figaro في جويلية ١٩٥٧ بعدما تمت مصادرتها من أحد مناضلي فيدرالية جبهة التحرير بفرنسا في فيفري من السنة. انظر:
Mabrouk Bel Houcine: le courier: le courier Alger-Caire 1954-1956, edition Casbah, Alger, 2000, p197.

(٤) عندما وجهت الانتقادات لقرارات مؤتمر الصومام بتعيينه لعناصر غير ثورية في مؤسسات الثورة كان من الصعب الجزم بأن بن خدة وسعد دحلب المركزيين كانا أيضًا معنيين (محمد العربي الزبيري يستثنيهما لأنهما من حزب ح ا ح د) باعتبار وجود عناصر بعيدة التيار الثوري، مثل البيانيين والعلماء، لكن إبعادهما في أول فرصة (مؤتمر القاهرة أوت ١٩٥٧) أتيحت للقادة المعارضين لإشراك هذه العناصر في هيئات الثورة القيادية يجعل من الصعب القول بأنهما كانا غير معنيين، بغض النظر عن خلفيات تلك التهم، هذه الخلفيات التي لا يستبعد استنادها أيضًا على مبرري التأخر عن الالتحاق بالثورة و مبرر الماضي السياسي في الحزب بالنسبة للرجلين.

(٥) محمد العربي الزبيري: **تاريخ الجزائر المعاصر ١٩٥٤-١٩٦٢**، ج٢، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٩، ص٥٣. (نسخة الكترونية).

(6) Gilbert Meynier: L'histoire intérieure du FLN 1954-1962, éditions Casbah, Alger, 2003, p334.

(٧) لا يستبعد أن يكون هذا الحزب السياسي الذي دعا إليه المركزيون من بنات أفكار فانسان مونتاي (أحد أعضاء فريق العمل مع سوستيل الذي يذكر عنه هورن بأنه من أفضل الفرنسيين العارفين بالشؤون الجزائرية) الذي عرض هذه الفكرة عليهم في المقابلات التي أجراها معهم في السجن بموافقة من سوستيل الذي كان يسعى من ورائها إلى جر الثوار للعمل السياسي والتخلي عن العمل العسكري لذلك كان يرحب بها.

(٨) لقد كانت فكرة عودة قيادة الثورة إلى الداخل من أبرز القضايا التي أثارت الخلاف في اجتماع العقداء العشرة، وكانت سببًا في إطالة مدته (صيف – خريف ١٩٥٩)، أين كان بن خدة من القادة القلائل الذين أصروا على ضرورة دخول قيادة الثورة إلى الداخل رفقة العقيد لطفي (علي بودغن) والعقيد علي كافي، في حين كان يفضل أغلب القادة الآخرين البقاء في الخارج بعيدًا عن ساحة المعركة التي كانت في هذه السنة محتدمة ومختنقة بفعل قلة السلاح ومخطط الجنرال شال الرهيب.

(9) Alistair Horne : Op.cit , p332.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

موقف النخبة المثقفة الفرنسية من الثورة الجزائرية (١٩٥٤/١٩٦٢) فرانز فانون وجون بول سارتر أنموذجًا

د. إبراهيم الهلالي
أستاذ بحث -مركز الدراسات الأندلسية
أستاذ مؤقت -قسم الفنون
جامعة تلمسان – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

النخبة فئة أو أقلية من الناس تتمتع بمواصفات طبيعية أو مكتسبة، يشكل مفهومها منطلقًا منهجيًا لكل فهم حصل في حركة التاريخ الإنساني وما يعتمد فيه من صيرورة وأحداث، الهدف من هذه الدراسة تبيان حقيقة العلاقة بين النخبة المثقفة الفرنسية والثورة التحريرية، الذين يؤمنون بفلسفتهم وحريتهم السياسية، مبادئ دافعوا عنها منذ الحرب العالية الثانية حتى الثورة الجزائرية لتجسيدها في الواقع، نجد بعض المثقفين الذين شاركوا مشاركة فعلية في تحرير الجزائر، والبعض الآخر بالكتابة والمساندة المطلقة لشعب غير شعبهم، لذلك سأتطرق للأفكار الفلسفية لبعض المثقفين اليساريين تجاه القضية العادلة للشعب الجزائري، الذين اختلفت آراؤهم حول الثورة الجزائرية، على الرغم من همجية ووحشية الجيش الفرنسي. اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج التاريخي، لدراسة فترة من فترات تاريخ الجزائر وتأريخها في الفترة الممتدة بين (١٩٥٤-١٩٦٢)، الغرض سرد ووصف الأرضية المهدة لاندلاع الثورة الجزائرية، وكذلك المنهج المقارن والاستقرائي للمقارنة بين شخصيتين من الشخصيات المثقفة الفرنسية. انخراط "فانون"، ومن بعده "جون بول سارتر"، في خدمة الثورة الجزائرية بكل حرية ووعي وفاعلية جعلهما نموذجًا ثوريًا عمليًا متميزًا عن غالبية المثقفين والسياسيين الفرنسيين، وقد قادهما فهمهما الواعي لجوهر مشكلة الجزائر إلى إدانة خطاب الاستعمار بقلمهما، ثم تحول إلى الانخراط في صفوف الثورة ودعم المجاهدين، من خلال مشاركتهما الفعلية في الثورة التحريرية. رغم أن جرائم الاحتلال الفرنسي الثقافية كانت غاية في القسوة، إلا أنه من مجانبة الصواب القول بأن النخبة المثقفة الفرنسية لم تستطع فعل شيء أمام هذا الواقع المأساوي بل حاولت بكل الطرائق في سبيل الحفاظ على هوية ومقومات هذا الشعب المحتل.

بيانات المقال:
تاريخ استلام المقال: ٢٧ ديسمبر ٢٠١٧
تاريخ قبول النشر: ٠٥ فبراير ٢٠١٨

كلمات مفتاحية:
المثقفون، الثورة الجزائرية، النخبة، المبادئ الإنسانية، الاستعمار الفرنسي

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0051259

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
إبراهيم الهلالي. "موقف النخبة المثقفة الفرنسية من الثورة الجزائرية (١٩٥٤/١٩٦٢): فرانز فانون وجون بول سارتر أنموذجا".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد التاسع والثلاثين؛ مارس ٢٠١٨. ص ١٠٩ – ١١٤.

مُقَدِّمَةُ

كانت الثورة التحريرية ومازالت موضوع إلهام وإبداع أدبي وفني وتساؤل فكري، تجلت من خلال تمثيلاتها في مجالات مختلفة، فاقترنت الثورة التحريرية بالتاريخ المشترك للبلدان المغاربية وبتيار القومية العربية وبالمبادئ الإنسانية التي كانت فرنسا ذاتها حاملة لرايتها. فلقد أخذت عدة شخصيات من النخبة المثقفة الفرنسية على عاتقها مهمة الدفاع عن قضية إنسانية هادفة مثل الثورة الجزائرية، التي أسمعت صوتها للعالم بأسره، انطلاقًا من إميل زولا الذي اختار النضال على جبهة فردية من خلال كتاباته المتميزة، وسواء من فلاسفة القرن التاسع عشر أمثال فيكتور هيغو، والفيلسوف الفرنسي- جون بول سارتر، وصديقه الدكتور فرانز فانون، الذين اختاروا الانخراط في النضال

الجزائري ومنحوا أقلامهم قبل أصواتهم لمساندة الثورة الجزائرية، إيمانا منهم بعدالتها وأحقية الشعب الجزائري في نيل الاستقلال.

إذا، فما الدوافع الحقيقية وراء مواقف النخبة المثقفة الفرنسية حول الثورة الجزائرية (١٩٥٤/١٩٦٢)؟ وينبثق من هذه الإشكالية سؤالين جوهرين، يتمثلان فما يلي: ما مفهوم النخبة؟ وما أدوار النخبة المثقفة في المجال الثقافي والاجتماعي والسياسي؟ فما تتمثل مواقف، كل من المفكرين: فرانز فانون وجون بول سارتر حول الثورة الجزائرية؟ هذا ما سوف نرصده في مقالنا هذا، ولكن قبل الخوض في هذه الورقة البحثية، يجب الإشارة إلى مسألة هامة وهي إبراز مفهوم النخبة، وما أدوار النخبة المثقفة في المجال الثقافي والاجتماعي والسياسي.

أولاً: مفاهيم النخبة

وتدل كلمة النُّخبة في اللغة العربية على المختار من كل شيء، وعلى الاصطفاء في كل أمر ولا تحمل في دلالاتها العربية هذه طابعًا سيسيولوجيًا أبستمولوجيًا أو أيديولوجيًا، فاقتصرت دلالتها على الخبرة اللسانية الصرفة التي وردت في قواميس اللغة العربية، وفي مختلف الاستخدامات للإشارة إلى نخبة القوم وصفوتهم وعزوتهم. وتشتق كلمة النُّخبة في اللغة العربية من الفعل: انتخب أي اختار، والانتخاب هو الاختيار والانتقاء، فنخبة القوم تعني خيارهم وصفاوتهم.[١] وجاء في لسان العرب لابن منظور، أن كلمة نخبة مصدرها الفعل انتخب وانتخب الشيء أي اختاره، والنخبة ما اختاره منه، ونخبة القوم، ونخبتهم خيارهم، ويقال: نخبة القوم (بضم النون وفتح الخاء) وإذا قيل جاء في نخب أصحابه، أي خيارهم.[٢]

لقد أشار معجم المصطلحات السياسية والدولية، إلى أن (Elite) يقابلها بالعربية الصفوة أي: عُلِّية القوم، وهم أقلية ذات نفوذ تحكم الأغلبيةً، وتلعب هذه الصفوة دورًا قياديًا، وسياسيا لإدارة جماعاتهم من خلال الاعتراف التلقائي بهم بصفتهم.[٣] ولقد جاء في القواميس الفرنسية، أن النُّخبة أقلية متميزة عن الجماعات التي تنتمي إليها بامتلاكها لخاصية التفوق والقدرة بما تمتلكه من قدرات وخصائص وسمات ومميزات، ويعرف قاموس روبرت الفرنسي Le Robert النُّخبة بأنها "مجموعة من الأشخاص المتفوقين في الممارسة الاجتماعية في حقل اجتماعي معين، وهم يمتلكون القدرة على التأثير في المجال السياسي والاجتماعي".[٤]

أما منظرو النُّخبة، فيعد المفكر الفرنسي الطوباوي سان سيمون من الرواد الأوائل لعلم الاجتماع السياسي وهو أول من وضع الخطوط العامة لتحليل النُّخبة بمنهجية سوسيولوجية مكنته من النظر إلى المجتمع كهرم واسع تتمركز في قمته نخبة توجهه وترسم مساره.[٥] ويقرّ سان سيمون في نظريته النخبوية أن وجود النُّخبة أمر ضروري لا بد منه للحياة الاجتماعية مؤكدًا في الوقت ذاته على دورها الكبير في إصلاح المجتمع والنهوض بالحياة السياسية فيه، وذهب إلى الاعتقاد بأنه لا يمكن تحقيق الإصلاح السياسي إلا بتغيير النُّخبة أو تثويرها، ولذا ينبغي أن تسند مهمة الحكم إلى النُّخب الذكية مثل العلماء والفنانين وكبار رجال الصناعة، وضمن هذه الرؤية يؤكد سيمون أهمية المؤهلات العلمية والفكرية وليس الانتماء الأسري والانتماءات التقليدية الأخرى في تشكيل النُّخب وتأهيلها.

وفي نص شهير له سمي "أمثولة سان سيمون" وهي مقالة نشرها عام ١٨١٩ يرى سيمون: أن فرنسا لن تعاني من فقدان ملوكها ونبلائها وكل أنواع سياسييها ولكنها ستصاب بكارثة عمياء إذا ما فقدت علماءها وصناعيها وأفضل حرفييها، فالنُّخب كما يراها تشكل روح الأمة وقوتها الخفية.[٦] عندما نأخذ بمفهوم ألفريدو باريتو للنخبة، بوصفهم الأفراد الأكثر تميزًا وحضورًا وتأثيرًا في مجال اختصاصاتهم عندها نستطيع أن نبني على هذه الرؤية لتحديد مفهوم النخبة الثقافية، وضمن هذا التصور يمكن القول بأن مفهوم النُّخب الثقافية يدل في أبسط تعريفاته على هؤلاء الذين يمارسون تأثيرا أكبر في مجال الانتاج الثقافي، والرمزي في مجتمعاتهم وحقول تخصصاتهم الفكرية، ولا سيما الكتاب والمنظرون والأدباء والشعراء والمفكرون والمنظرون والإعلاميون، ويتميز هؤلاء بطاقتهم الانتاجية في مجال الفكر والثقافة، كما يتميزون بتأثيرهم الكبير في الروح المعنوية والثقافية لشعوبهم وغالبا ما يميز الباحثون بين النخبة الثقافية والمثقفين، فالمثقفون يشكلون طبقة واسعة من العاملين في حقل الثقافة ولكن النخبة منهم ترمز إلى أكثرهم تميّزًا، وتأثيرًا وحضورًا في الحياة الاجتماعية والثقافية للمجتمع، وهذا يعني أن النخبة الثقافية تتشكل من كبار الأدباء والكتاب والمؤرخين والشعراء والفنانين، الذي يلعبون دورًا مميزًا وحيويًا في مجال اختصاصاتهم الفكرية والمعرفية.[٧]

وبما أن الشأن الثقافي من اختصاص الأكاديميين غالبًا، فإن الاستعمار الفرنسي لم يدخر جهدًا في الاستعانة بالمستشرقين الفرنسيين لتحقيق غاياته في البلدان التي يحتلها، خاصة في الجزائر التي عدت على الدوام بقعة جغرافية استراتيجية بالنسبة لفرنسا، فلقد كان لهذه الفئة من العلماء والدارسين الدور الأكبر في نجاح أغلب الحملات الغربية على العالم العربي والإسلامي منذ الحروب الصليبية على الشرق، وربما قبل ذلك أيضًا في الأندلس.[٨] ولطالما غطى الاستشراق الفرنسي على الاحتلال العسكري وما انجر عنه من مآسي بادعاء زائف مفاده أن فرنسا تهدف إلى نشر رسالة حضارية في الوسط الجزائري، وتعليمه اللغة الفرنسية ليكون أقرب إلى منابع الحضارة الغربية، متناسيًا أنه "لا توجد ولا يمكن أن توجد حضارة عالمية بالمعنى الدقيق للكلمة، لأن الحضارة تفترض تواجد ثقافات متنوعة للغاية، بل هي تتمثل في هذا التواجد نفسه، ولا يمكن للحضارة العالمية أن تكون إلا تحالفًا، على الصعيد العالمي، بين ثقافات تحافظ كل واحدة منها على طابعها الخاص".[٩] ورغم ذلك فإن ادعاءهم لم يصمد طويلاً، وكشف الزمن بطلانه من خلال التمييز العنصري، والاضطهاد غير الأخلاقي الذي تعرض له الجزائريون، حتى أولئك الذين صدقوه

في بداية الأمر عن حسن نية، وأرسلوا أبناءهم إلى المدارس الفرنسية.

ولعل الكاتب الفرنسي أوغست برنارد كان أوضح عندما أبان عن الهدف الحقيقي للاستعمار الفرنسي في الجزائر إذ يقول: "إننا لم نحضر إلى الجزائر لإقرار الأمن، بل لنشر الحضارة واللغة والأفكار الفرنسية.. وليست الجزائر مستعمرة كالهند الصينية.. ولكنّها جزء من فرنسا كما كانت أيام روما.. إننا نريد أن نجعل هناك أجناساً، تندمج فينا عن طريق اللغة والعادات.. وسيتم هذا بعد نشر لغة فيكتور هوغو."[١٠] رغم محاولة تغيير معالم الثقافة الجزائرية من خلال محاربة مقومات الشخصية المحلية بأبعادها المختلفة، إلا أن القضية الجزائرية كانت من أعدل القضايا العالمية، بدليل الدعم القوي والشعارات المساندة لها، التي رفعها كل ثوار العالم نصرة لها ضد الاستعمار الفرنسي، ومن أبرز صور هذه المساندات والإعلانات، تلك التي جاءت من أبناء جلدة المحتل ذاته الذين كانوا يؤمنون بحق تقرير مصيره، من مثقفين وأطباء وسياسيين، وحتى جنود فرنسيين كلهم رفعوا شعار الجزائر جزائرية، ووقفوا وقفة مناهضة للإجرام الاستعماري الذي تمارسه فرنسا في حق الشعب الجزائري وشقوا رفقة مناضلين آخرين من جنسيات مختلفة طريقاً للحرية والعدالة، وكونوا شبكات لدعم الثورة الجزائرية.

وقد سلك هذه السبيل مؤرخون وباحثون آخرون، منهم بيرك وامريت، حتى ظهر في سنة ١٩٦٠، أثناء حرب التحرير كتاب ج بيرك، لأكست، وبرونا ونوشي،" الجزائر ماضيها وحاضرها"، "نطاق ومراحل نشأة الجزائر الحالية"، فقد وقف هؤلاء المؤرخون موقفا صريحا ضد مزاعم النظام الاستعماري، وأثبتوا أن أمة تكونت تدريجيا خلال التاريخ في الجزائر.[١١] إن التاريخ والأحداث قد أحبطت مكائد الكائدين، ولسنا اليوم في مقام حساب مع خصومنا بالأمس، بل إننا نعترف لهؤلاء المؤرخين بما يعتبر خدمة للعلم، ولكننا لا نقبل أخطائهم ولا استنتاجاتهم المغرضة في تأويل تاريخنا وفهمه، لأنها استنتاجات أملتها ظروف وسياسة معروفة، ونحن لا نقدر المؤرخين المتأخرين الذين توخوا جادة الصواب أحيانا عن غير قصد أو كانوا بسبب تطرفهم عاملا ليقظتنا وتنبيهنا من غفلتنا.[١٢] فلقد أخذت بعض النخبة المثقفة على عاتقها مهمة الدفاع عن قضية إنسانية هادفة مثل الثورة الجزائرية، التي أسمعت صوتها للعالم بأسره، والذين التزموا بمبادئهم ودافعوا عنها منذ الحرب العالمية الثانية حتى الثورة الجزائرية، وحاولوا تجسيدها في الواقع حيث نجد أن بعضهم شارك مشاركة فعلية في تحرير الجزائر، والبعض الآخر بالكتابة والمساندة المطلقة لشعب غير شعبهم، ومن بينهم: (فرانز فانون، جان بول سارتر).

ثانيًا: فرانز فانون

إنه من أهم أصدقاء الثورة الجزائرية والمساندين للقضية الجزائرية العادلة، الذين تبنوا موقفًا معاديًا لما تقوم به فرنسا من جرائم حرب ضد الشعب الجزائري، نجد فرانز فانون الذي لم يكن يعلم شيء عن الثورة الجزائرية في الفاتح من نوفمبر ١٩٥٤، وقد انطلقت هذه الأخيرة وفانون يتابع أخبارها من خلال الصحف الاستعمارية.

فرانز فانون من مواليد ١٩٢٥، بفور دي فرانس بجزيرة المارتينيك، وهو طبيب نفسي ومنظر اجتماعي ومناهض للاستعمار، التحق بالقوات الفرنسية الحرة سنة ١٩٤٣، ثم نقل للمغرب في مدينة الرباط ١٩٤٤، ثم إلى شرشال وبجاية حيث أنهى خدمته العسكرية بتاريخ ١٣جانفي ١٩٤٦، ونشط فانون سياسيا في مدينة البليدة وبدأ في التفكير بالوضع الاستعماري للمستوطنة وبعد استكشافه للأضرار النفسية التي يخلفها الاستعمار من خلال المرضى الذين كان يفحصهم في المستشفى.[١٣] إنه رجل في مظهره هدوء وفي داخله غليان مستمر، أنيق اللباس، لطيف الحركة، لكنه متواضع عن إيمان، لأنه اعتنق الاشتراكية وآمن بها مصيرًا أفضل لكل الشعوب، مثلما آمن بالوحدة كأضمن طريق لشعوب إفريقيا؛ مرهف الحساسية، لكنه مؤمن بضرورة العنف للقضاء على الاستعمار، قدس المبادئ التي اعتنقها إلى درجة أنه طبقها في حياته، ولم يجعلها مجرد نظريات، طبقها رغم ما تعرض له من متاعب كان في غنى عنها كطبيب نفسي ناجح وكاتب لامع أمامه مستقبل مليء بالأضواء والآمال.[١٤]

طريق الصراحة والنظرة السليمة هو الذي قاده إلى الثورة الجزائرية، لأنه فهم بحساسيته المرهفة وبتفكيره العميق إن ثورة الجزائر ليست حركة وطنية محلية، ولكنها حركة تنتشر أفقيًا فتؤيد وتتضامن مع كل أرض بها معركة ضد الاستعمار، ومع كل نفس ترفض الاستعمار وتمتد عموديًا فتحارب كل رواسب "العنصرية"، والتفكير الرجعي لذلك ارتمى فيها من غير تردد وخدمها بقلمه وفكره ونشاطه، خدمها في البليدة حيث كان مديرا لمستشفى الأمراض العقلية يشتغل مع مناضلي الجبهة في كل المهام التي تفرضها ظروف الكفاح على مناضلي الجبهة، من العناية بالجرحى، إلى حمل السلاح، إلى إيواء القادة أثناء تنقلاتهم وخدمها محررًا في المقاومة الجزائرية ثم في المجاهد وخدمها رئيسًا لبعثة الحكومة الجزائرية في غانا، حيث وجد مرتعًا خصبًا لنشاطه الفياض وتعلقه المتحمس بالوحدة الإفريقية، خدمها بما خلده في كتابيه "العام الخامس للثورة الجزائرية"، "المعذبون في الأرض".[١٥]

وتعتبر سنة ١٩٥٨ نقطة الالتقاء والالتفاف لكل التيارات الوطنية والأحزاب السياسية والجمعيات النقابية، في صفوف جبهة التحرير الوطني والذي تمّ تأسيس جريدة المجاهد، في جوان ١٩٥٦ وهي لسان حال جبهة التحرير الوطني، حيث كلف فانون في سنة ١٩٥٧ بمهمة الإعلام ومن هذا المنطلق، قد ورد في جريدة المجاهد مقتطفات العام الخامس للثورة الجزائرية، وهو من أهم كتاباته التي توضح موقفه الإيجابي، والمساند للثورة الجزائرية والمعادي للاستعمار الفرنسي- وهو عبارة عن دراسة

تحليلية للمجتمع الجزائري، والتحولات الجذرية التي حصلت داخل المجتمع بفضل الثورة، وما أدخلته من نظرة جديدة للحياة، وقد اعتمد على ملاحظاته وتجاربه الشخصية كمناضل، وطبيب نفسي في جيش التحرير الوطني وجبهة التحرير الوطني.[١٦]

إن انخراط "فانون" في خدمة الثورة الجزائرية بكل حرية ووعي وفاعلية جعله نموذجًا ثوريًا عمليًا، متميزًا عن غالبية المثقفين والسياسيين الفرنسيين، وقد قاده فهمه الواعي لجوهر مشكلة الجزائر إلى إدانة خطاب الاستعمار بقلمه ثم تحول إلى الانخراط في صفوف الثورة ودعم المجاهدين، وذلك من خلال مشاركته الفعلية في الثورة التحريرية.[١٧] وبمعنى آخر؛ أن تأييد فانون للثورة الجزائرية والوقوف بجانبها هو كسب مئات المثقفين إلى جانب القضية العادلة وعندما كتب سارتر تمهيدًا لكتاب فانون "معذبو الأرض"، وضّح بأن فانون أكد تضامنه الكامل مع الشعب الجزائري كفرد فرنسي، وعند تشييع جنازة فانون صرّح ممثل عن الحكومة الجزائرية المؤقتة السيد كريم بلقاسم قائلاً: "فرانس فانون مثالك يبقى دائمًا حيًا نم واسترح في سلام فالجزائر لن تنساك أبدًا"، وفعلاً فالجزائر في عهد الاستقلال لم تنسى فانون، بل شيدت مؤسسات باسمه وكتبت عنه عدة كتب وبحوث أكاديمية في الجامعات الجزائرية.[١٨]

ثالثًا: جان بول سارتر

قبل التطرق الى موقف جان بول سارتر من الثورة الجزائرية، يجدر بنا أن نتطرق أولاً إلى حياته بإيجاز؛ إذن من هو سارتر؟

جان بول أيمارد سارتر، ولد في ٢١ جوان ١٩٠٥ بباريس، بدأ حياته الدراسية في أكتوبر ١٩١٥ بثانوية هنري الخامس بباريس، وقد كان ناجحاً في دراسته، إذ قال عنه أساتذته أنه كان ممتاز في جميع الميادين، وفي ١٩٢٤ دخل سارتر المدرسة العليا للأساتذة حيث التقى بعدة طلبة أصبحوا فيما بعد كنخبة فرنسية، وسجلوا أسمائهم في تاريخ الفكر المعاصر أمثال ريمون أرون، موريس مورلو بوانتي، وبول نزان الخ ...[١٩] ولقد كتب سارتر سنة ١٩٣٨ روايته الأدبية المشهورة " الغثيان"، حيث لقيت تشجيعا من قبل النقاد الأدبيين ومن هنا بدأ سارتر يكتب المقالات والكتب الأدبية والفلسفية، وأصبح معروفا في الأوساط الثقافية والعالمية كأديب وكفيلسوف ورجل يهتم بالسياسة، وفي جوان ١٩٤١ سجن ونقل إلى محتشدات بألمانيا، وبقي إلى مارس١٩٤١ وعمره آنذاك ٣٥سنة.[٢٠] وفي ٢٥ جوان ١٩٤٣، كتب سارتر كتابه المشهور والقيم" الوجود والعدم"، والذي جعله كمفكر ضمن الفلاسفة الوجوديين المعاصرين، وما بين سنوات ١٩٤٠/١٩٦٠ التزم بالكتابة وبالعمل بمواقفه الفعلية، وذلك حسب" فكرة الحرية "عنده وتطورها في كتبه.

حقيقة لم يوجد في تاريخ الفكر الفلسفي المعاصر، فيلسوف كتب كجان بول سارتر في عدة مجالات فكرية وأدبية وفعلا لم يكن فيلسوفا فقط، بل كان أيضا مؤلف للروايات والمسرحيات والقصص، وعالمًا نفسانيًا، وعالمًا في السياسة والصحافة (بالإضافة إلى هذا فهو رجل يثير الدهشة والأعجاب).[٢١] لقد آمن بفكرة الحرية والتي تعد من بين التزاماته، كما ندّد بشدة وحشية الجيش الفرنسي في الجزائر، حيث كتب سارتر في نهاية الخمسينيات " سجناء الطونا " لكي يبين للرأي العام كيف يمارس التعذيب على الشعب الجزائري على الرغم من أن صحته النفسية كانت متدهورة حسب سيمون دي بوفوار.[٢٢]

بعد أن اكتسب وعيًا مبكرًا معاديًا للاستعمار، وقف جان بول سارتر بحزم جنبًا إلى جنب مع الشعب الجزائري في كفاحه من أجل الكرامة، التزام "الأزمنة الحديثة" (Modernes Temps) في حرب الجزائر سبقت التزام مؤسسها ومديرها جان بول سارتر، في ماي ١٩٥٥ أفرجت المجلة عن عدد حول الصراع، فيه مقال معاد للوجود الفرنسي في الجزائر بعنوان "الجزائر ليست فرنسا"، ومن هنا بدأت علاقة سارتر بالثورة الجزائرية، صودرت "الأزمنة الحديثة" طوال فترة الحرب التحريرية: أربع مرات في الجزائر، مرة في فرنسا.[٢٣] أما أول مقال كتبه سارتر نفسه عن الثورة الجزائرية، فكان في مارس ١٩٥٦ بعنوان "الكولونيالية عبارة عن نظام"، يبرز فيه الميكانيزمات الاقتصادية والسياسية للاستعمار ويدعو إلى محاربته، فوضع بذلك اللبنة الأولى لجبهة ثقافية فرنسية مناهضة للاستعمار، ولم يتوقف الأمر عند هذا، بل واصل رفضه للسياسة المنتهجة لهذا "النظام" بمداخلة خلال ملتقى من أجل السلم في الجزائر، نظم بقاعة واجرام Wagram في باريس، يوم: ٢٧ يناير ١٩٥٦، تحت رعاية لجنة حركة المثقفين ضد استمرار الحرب في الجزائر.[٢٤]

لم يبدأ وعي سارتر المناهض للاستعمار من هذا التاريخ، ولا من الانتفاضة الجزائرية عام١٩٥٤ بل منذ عدة سنوات، فقد سبق أن قام بدعم قضية الدستور الجديد في تونس وقضية الاستقلال بالمغرب، في المؤتمر الذي شارك فيه عام ١٩٤٨، وفي عام ١٩٥٢ أجرت معه الصحيفة التابعة لفرحات عباس، جمهورية الجزائر (la république Algérienne) مقابلة، وفي خريف عام ١٩٥٥ قدم دعمه لحركة لجنة المثقفين ضد استمرار حرب الجزائر. وقد كان لفرنسيس جانسون (Francis Janson) المتعاون مع "الأزمنة الحديثة"، والذي نشر مع زوجته كوليت Colette "الجزائر الخارجة عن القانون" "L'Algériehorslaloi" في ديسمبر ١٩٥٥ مساهمة كبيرة أيضًا في تطور وعي الفيلسوف، ومنذ هذا التاريخ عرف سارتر "تجديدًا أخلاقيًا"، أوصله إلى اكتشاف موضوع جديد للتاريخ، أكثر راديكالية من طبقة البروليتارية وهم المستعمرُون، وقد استفادت الثورة الجزائرية كثيرًا من هذا الاكتشاف، فتحصلت على دعم جبهة ثقافية واسعة في فرنسا.[٢٥]

كتب محمد حربي في ١٩٩٠ قائلاً: ومنذ هذا التاريخ عرف سارتر "تجديدا أخلاقيا" أوصله إلى اكتشاف موضوع جديد للتاريخ، أكثر راديكالية من طبقة البروليتارية وهم المستعمرُون، وقد استفادت الثورة الجزائرية كثيرا من هذا الاكتشاف، فتحصلت على دعم جبهة ثقافية واسعة في فرنسا.[٣٦] فنشرت نصوص سارتر في الفترة الواقعة ما بين مارس ١٩٥٦، أبريل ١٩٦٢، وكشفت عن حرب كلامية قوية، وشجاعة نادرة في عصرنا: فقد كانت حياة الفيلسوف مهددة، وكان منزله في شارع بونابرت قد تعرض مرتين للتخريب من قبل منظمة الجيش السري (OAS). لم يكن **الأمر** يتعلق عند سارتر بمجرد دعاية لمواقف مصطنعة كما نعيشها حاضرا، والتي يتوخى أصحابها فقط تحريك مبيعات كتاب أو الدفع نحو إثارة مجموعة دعوات، تلهفا للظهور الإعلامي.[٣٧] ومع تطور موقف سارتر اتجاه الثورة الجزائرية، وفي فيفري ١٩٦٠، قام بزيارة إلى كوبا مع سيمون دي بوفوار، وتقابل مع الرئيس فيدال كاسترو وزار جامعة هافانا، حيث ناقش مع الطلبة تطورات الثورة الكوبية، وقارناها بالثورة الفرنسية والثورة الروسية، إلى جانب هذه النشاطات عقدا ندوة صحفية في التلفزة الكوبية، وفي هافانا التقى مع بعض المثقفين البرازيليين واستدعوه لكي يلقي محاضرة ويندد بالسياسة الديماغوجية الفرنسية اتجاه الثورة الجزائرية.[٣٨]

لم تكن معركة سارتر فقط معركة كتابه، بل معركة المثقف الملتزم التي تجسدت على كل الجبهات حيث قادته الأحداث، فقد ساهم في عدة لقاءات من أجل السلم في الجزائر (في جوان ١٩٦٠ وفي ديسمبر١٩٦١ في روما) كما شارك في مظاهرة صامتة في أول نوفمبر ١٩٦١، المندد بمجازر ١٧ أكتوبر إلى مظاهرة ١٣ فيفري ١٩٦٢ محتجا على القمع الدموي في مترو "شارون"، كما أدلى بشهادته في جل محاكمات (حاملو الحقائب) والمعروفة بمحاكمة شبكة جونسون، يصرح سارتر: "استعملوني كما تشاؤون".[٢٩] ولقد أعلن سارتر أنه من حاملي الحقائب لجبهة التحرير الوطني الجزائرية، حينما قال في رسالته التي بعثها إلى محامي فرانسيس جانسون: "لو أن فرانسيس جانسون طلب منه حمل الحقائب أو إيواء المناضلين الجزائريين، وأمكن له القيام بذلك دون أن يعرضهم للخطر لفعلته دون تردد".[٣٠] حقيقة أن سارتر دافع وشجع كل ما يساند الثورة الجزائرية، كما شارك في عدة مظاهرات ضد الأعمال الإجرامية المتوحشة، التي تقوم بها السلطات العسكرية في الجزائر يوميا أثناء الثورة التحريرية، ومثل عدة جمعيات سياسية التي نددت بطرق التعذيب والقتل البشع، وتحدث عن الحرية وحقوق الإنسان بالجزائر في ندوة صحفية داخل فرنسا وخارجها، وحضر في عدة محاكم لمحاكمة المناضلين.[٣١]

وهذا ما جعل بعض المثقفين الفرنسيين يذهبون إلى تأييد سارتر، وسياسته تجاه الثورة الجزائرية ففي بداية سبتمبر ١٩٦٠، قام ١٢١ مثقفا فرنسيا بإمضاء بيان رسمي، دفاعًا عن الحقوق الشرعية للشعب الجزائري، معظم الممضيين على الإعلان التاريخي من المثقفين العاملين في مجلة "الأزمنة الحديثة" التي يديرها سارتر، وسيمون دي بو فوار والروائي ميشال بو تور وعالم الاجتماع ماكسيم رود ينسون، وكذلك ابنة فلورنس، والزوجة السابقة كلارا لوزير الثقافة أندري مارو؛ حقيقة فالموقف هنا يثير الدهشة والحيرة، أي كيف يمكن أن ينظم بعض المثقفين الفرنسيين إلى جانب نضال الشعب الجزائري في تقرير مصيره، ويتمردوا على نظام بلادهم، ويقومون ضد سياسة رئيس الجمهورية الجنرال ديغول تجاه الجزائر.[٣٢]

خَاتِمَةٌ

لقد كانت الثورة التحريرية ومازالت موضوع إلهام وإبداع أدبي وفني وتساؤل فكري، تجلت من خلال تمثيلاتها في مجالات مختلفة، فاقترنت الثورة التحريرية بالتاريخ المشترك للبلدان المغاربية وبتيار القومية العربية وبالمبادئ الإنسانية التي كانت فرنسا ذاتها حاملة لرايتها، فلقد أخذت عدة شخصيات من النخبة المثقفة الفرنسية على عاتقها مهمة الدفاع عن قضية إنسانية هادفة مثل الثورة الجزائرية، التي أسمعت صوتها للعالم بأسره، فالقضية الجزائرية كانت من أعدل القضايا العالمية، بدليل الدعم القوي والشعارات المساندة لها، التي رفعها كل ثوار العالم نصرة لها ضد الاستعمار الفرنسي- ومن أبرز صور هذه المساندات، الفيلسوف الفرنسي جون بول سارتر وصديقه الدكتور فرانز فانون.

يُعَدّ مفهوم النخبة (Elite) من المصطلحات التي يعنى بها علم الاجتماع السياسي ويقصد بها طبقة أو أقلية من الصفوة المختارة من أفراد المجتمع، تتمتع بمؤهلات وقدرات طبيعية أو مكتسبة، وتعرف بامتيازاتها السياسية والاقتصادية والعسكرية والعلمية والثقافية. لقد أخذت عدة شخصيات من النخبة المثقفة الفرنسية على عاتقها مهمة الدفاع عن قضية إنسانية هادفة مثل الثورة الجزائرية، التي أسمعت صوتها للعالم بأسره، والذين اختاروا الانخراط في النضال الجزائري، ومنحوا أقلامهم قبل أصواتهم لمساندة الثورة الجزائرية، إيمانًا منهم بعدالتها وأحقية الشعب الجزائري في نيل الاستقلال. ونستخلص في الأخير من هذه المواقف والكتابات، مدى أهميتها في كتابة تاريخ الثورة الجزائرية والإجابة على إشكالية الموضوع، المتمثلة في دور المثقفين الفرنسيين في مناصرة الثورة الجزائرية، وأن مواقف فرانز فانون وجان بول سارتر وكتاباتهم، أماطت اللثام عن جزء من الحقيقة التاريخية في وجود مثقفين مخلصين للثورة الجزائرية.

الهَوامِشُ:

(١) ابن منظور، **لسان العرب**، ج٤، دار المعارف، القاهرة، (د. ت)، ص٢٤٦٨.

(٢) ابن منظور، **لسان العرب**، المجلد الأول، دار صادر، بيروت، ١٩٥٥، ص٧٥١/ ٧٥٢.

(٣) أحمد زكي بدوي، **معجم المصطلحات السياسية والدولية**، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٨٩، ص ٥٢/٥٣.

(4) Akoun André et autres. Le Robert, seuil, dictionnaire de sociologie, France, Editions: les presses de Mama, Octobre 1999, p175.

(٥) إبراهيم العريس، **أمثولة سان سيمون بناء المستقبل مشروط بازدهار الفنون والحرف**، الحياة ١٧ مارس ٢٠١٣، الموقع:
http://alhayat.com/OpinionsDetails/493815

(٦) المرجع نفسه.

(٧) إدوارد سعيد، **المثقف والسلطة**، ترجمة، محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٦، ص ٣٤/ ٣٥.

(٨) رمضان حينوني، **واقع الثقافة في ظل الاحتلال الفرنسي للجزائر**، موقع بوابتي، تونس بتاريخ:٢٠١١/٠٣/١٢، الموقع: (www.myportail.com)
انظر: رحيل أبو الأنثروبولوجيا الحديثة لوسيلة بن شني، بموقع:
http://elkhabar-hebdo.com/site/news-action-show-id-505.htm

(٩) المرجع نفسه.

(١٠) سكينة بوشلوح، **عرض لكتاب الطيب بن إبراهيم**: "الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر" الرابط:
http://forum.meshfakeronline.net/index.php?showtopic=29604

(١١) مولود طياب، تصحيح تاريخنا الوطني وتحرير مبادئه، مجلة الثقافة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، العدد: ٦٧، ١٩٨٢، ص١٥/١٦.

(١٢) المرجع نفسه، ص ١٦.

(13) Mostéfa khiati: les blouses blanches de la révolution, édition ANEB, 2011, p412.

(١٤) حياة ثابتي، **فرانز فانون والثورة الجزائرية**، قسم التاريخ والآثار، جامعة تلمسان، ٢٠١٥. انظر: مجلة المجاهد، ج٤، ١١ / ١٢ / ١٩٦١.

(١٥) فرانز فانون، **العام الخامس للثورة الجزائرية**، الطبعة الأولى، ترجمة: ذوقان قرقوط، مراجعة: الأستاذ عبد القادر بوزيدة، منشورات آنيب، الجزائر، دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٤.

(١٦) عبد المجيد عمراني، **النخبة الفرنسية المثقفة والثورة الجزائرية ١٩٥٤ – ١٩٦٢**، دار الشهاب، باتنة، د. ت، ص٩٣.

(١٧) حياة ثابتي، **فرانز فانون والثورة الجزائرية**، ص٠٢.

(١٨) عبد المجيد عمراني، **جان بول سارتر والثورة الجزائرية**، مكتبة مدبولي، باتنة، الجزائر ١٩٩٥، ص٧٢.

(١٩) المرجع نفسه، ص١١.

(٢٠) المرجع نفسه، ص١٢.

(٢١) المرجع نفسه، ص١٣.

(٢٢) عبد المجيد عمراني، النخبة الفرنسية المثقفة والثورة الجزائرية، ص١٤٠.

(٢٣) سليم بتقة، **الثورة الجزائرية في كتابات المثقفين الفرنسيين_ سارتر نموذجًا**_ مجلة أبحاث في اللغة والآدب الجزائري، جامعة بسكرة، الجزائر، العدد:١١، ٢٠١٥، ص٦١.

(٢٤) المرجع السابق، ص٦١.

(٢٥) المرجع نفسه، ص٦١/٦٢.

(26) Mohammed Harbi, «Une conscience libre, «*Les Temps modernes,* Paris, octobre-décembre 1990, p. 1034.

(27) Tous publiés dans *Situations V,* Gallimard, Paris, 1964. Voir Michel Contat et Michel Rybalka, *Les Ecrits de Sartre,* Gallimard, Paris, 1970.

(٢٨) عبد المجيد عمراني، **جان بول سارتر والثورة الجزائرية**، ص١٤١.

(٢٩) رشيد خطاب، **الأصدقاء والخاوة، الدعم العالمي لثورة التحرير الوطنية الجزائرية قاموس بيبلوغرافي**، ترجمة: مصطفى ماضي، دار الكتاب، الجزائر، ٢٠١٣، ص ٢٤٠.

(٣٠) عبد المجيد عمراني، **جان بول سارتر والثورة الجزائرية**، ص١٤٤.

(٣١) المرجع نفسه، ص ١٤٥.

(٣٢) المرجع نفسه، ص ١٤٥.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

حول تاريخ السودان الغربي للمؤرخ "السعدي"
علامات منهجية وتقاطعات

عبد السلام انويكة
أستاذ باحث في التاريخ المعاصر
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
تازة – المملكة المغربية

مُلَخّصٌ

يدخل مؤلف "تاريخ السودان" لعبد الرحمن السعدي التومبوكتي ضمن نصوص تاريخية مصدرية تقليدية، والذي بقدر ما تأسس على غنى متنه بما هو خبري إخباري تاريخي يخص بلاد المغرب خلال القرن السابع عشر الميلادي تحديدًا نصفه الأول، بقدر ما هو على درجة من القيمة التاريخية لِما يعرض له من معطيات مجالية ووقائعية تعكس ما كانت عليه بلاد السودان الغربي في علاقتها بالسلطة السعدية. ولعل القيمة التراثية والعلمية للمؤلف كحوليات أساسية لدراسة تاريخ وحضارة بلاد السودان الغربي، تقوم على ما يحتويه من معالم معرفية ومنهجية وعلى موقعه ضمن الأسطوغرافيا السودانية والمغربية خلال الفترة نفسها. وللإشارة فمعظم الدراسات العلمية الأكاديمية التي توجهت بعنايتها لزمن بلاد السودان الغربي خلال العصر الحديث، اعتمدت المؤلف الذي يبرز جزء منه ما كان عليه المغرب من امتداد مجالي وسياسي وثقافيًا وحضاري في الصحراء وبلاد السودان الغربي، وما حصل من تأثير وتأثُر في تشكيل وتطوير نمط حياة مشتركة كذاكرة. وللوقوف على عناصر تباين وتقاطع بين مؤلف "السعدي" ومصادر تقليدية حول بلاد السودان الغربي والمغرب الاقصى، يستحضر المقال نموذجين هما أحمد بابا التمبوكتي صاحب "نيل الابتهاج بتطريز الديباج"، والصغير الافراني صاحب "نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي". وتبقى الإشارة إلى أن مؤلف "تاريخ السودان" الذي نشر لأول مرة في باريز ١٩١٣، يحتوي ويجمع رواية السعدي عن تنقلاته ورحلاته لعدة كيانات سياسية بالسودان الغربي، كما بالنسبة لمملكة "سنغاي" التي قامت على مجال واسع من مالي فكانت بحدود ممتدة من المحيط الاطلسي غربًا إلى نجيريا الحالية شرقًا. ومن هنا فهو بأهمية تاريخية ليس فقط بالنسبة لبلاد السودان بل المغرب الاقصى كذلك خلال فترة حكم الدولة السعدية، وما ورد في المؤلف هو نتاج تراكمات ثقافية حضارية طويلة المدى بهذه المنطقة من الصحراء ومن السودان، تحضره مدينة تومبوكتو بشكل معبر نظرًا لموقعها ولما تقاطع بها من أحداث ووقائع وتفاعل فكري.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٢ أكتوبر ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ٢٣ فبراير ٢٠١٦

كلمات مفتاحية:

عبد الرحمان السعدي، الكتابة التاريخية، تاريخ السودان، تاريخ المغرب الحديث، مملكة سنغاي

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0051260

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد السلام انويكَة. "حول تاريخ السودان الغربي للمؤرخ "السعدي": علامات منهجية وتقاطعات".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد التاسع والثلاثين؛ مارس ٢٠١٨. ص١١٥ – ١٢٢.

مُقَدِّمَةٌ

يرتب "تاريخ السودان" للسعدي، ضمن مصادر الدراسات التاريخية الأساسية، حول بلاد السودان الغربي والأوسط خلال العصر الحديث. ورغم أنها كانت سباقة من المهم الاشارة إلى أن عناية الجامعة المغربية بالأبحاث والدراسات الافريقية لاتزال حديثة العهد، فهي لم تعرف تراكما في هذا المجال على محدوديته، سوى مع بداية ثمانينيات القرن الماضي.[١] بل ويسجل أن ما هو متوفر حول علاقات المغرب بافريقيا، رغم غزارته وتواتره، يقدم صورة ثابتة لابد من الاشتغال عليها وتعميق النظر إليها. ولابد من التمييز بين جزيئاتها ورسم خط لتطورها، على أن هذا أمر وجهد موكول للأبحاث والدراسات العلمية.[٢] وإذا كانت قد تراكمت عدة أعمال أكاديمية تاريخية لعدد من الباحثين في هذا الاتجاه، توزعت على التحقيق وعلى دراسات

مفتوحة حول بلاد السودان الغربي. بكلية الأداب والعلوم الانسانية بالرباط ومعهد الدراسات الافريقية الحديث العهد. فإن معظم هذه الأبحاث على قلتها اعتمدت على إرث هام من مصادر تقليدية ذات ارتباط وثيق بالبيئة المحلية لبلاد السودان الغربي. وهذه الوثائق المصدرية بقدر ما شكلت مادة علمية دسمة لهذه الأعمال والأبحاث، بقدر ما هي في حاجة إلى إعادة نظر وإلى نقد على ضوء مناهج حديثة. ففي هذا الاطار يرى ذ. العروي أننا أهل كتاب وكتابة، أما الأفارقة فهم أهل رواية غير مدونة.[٣]

ومؤلف تاريخ السودان لعبد الرحمان السعدي موضوع المقال، يدخل في نطاق أدبيات أساسية تقليدية لدراسة بلاد السودان الغربي والأوسط. نتوخى إبراز قيمتها التراثية العلمية كحوليات، ترتبط شكلا ومضمونا بثقافة محلية مع أنها لاتخلو من لمسة رسمية.[٤] وذلك من خلال الوقوف على علامات معرفية ومنهجية لهذا المؤلف، وعلى مكانة المُؤلف ضمن الأسطوغرافيا، ليست السودانية فحسب بل المغربية كذلك. وعلى مستوى نفس الفترة الزمنية إنها من خلال نماذج فقط. أسئلة وغيرها حاولنا مقاربتها وايجاد أجوبة لها، من خلال تصميم توزع على محورين أساسيين.

أولاً: المؤلَف والمُؤلف والتأليف التاريخي حول بلاد السودان الغربي والمغرب خلال العصر الحديث

١/١- من هو عبد الرحمان السعدي وماهي علامات مُؤلفه

ولد "السعدي" في مدينة تومبوكتو بمالي وعاش ما بين (١٥٩٦- ١٦٥٥)، مارس القضاء والإمامة في مدينة جني، التي اعتبرت أنذاك مركزًا علميًا إسلاميًا هامًا. من مؤلفاته "تاريخ السودان" الذي نشر لأول مرة في باريز عام ١٩١٣، تحدث السعدي فيه عن تنقلاته ورحلاته، لعدة كيانات سياسية في السودان الغربي، كما الحال بالنسبة ل: مملكة "سنغاي" التي قامت على مجال واسع من مالي، فكانت حدودها تمتد من المحيط الاطلسي غربا إلى نجيريا الحالية شرقًا. ومُؤلف "السعدي" واحد من أهم مصادر التاريخ ليس فقط بالنسبة لبلاد السودان الغربي، بل حتى بالنسبة للمغرب في زمن الدولة السعدية. وما أورده "السعدي" في هذا المؤلف، هو نتاج ترسبات وتراكمات ثقافية حضارية، طويلة المدى بهذه المنطقة من الصحراء ومن السودان، ومدينة تومبوكتو حاضرة في هذا المُؤلف وبشكل معبر، بالنظر لموقعها ولما تقاطع بها من أحداث وأفكار، فقد كانت الكتب بهذه المدينة ذات قيمة عالية وكان هناك ارتباطا لهذه الحاضرة السودانية مع الشمال الافريقي، ومن هنا تطور الفكر و الفقه والعلم والأدب، وهي القضايا التي وجدت من يؤرخ لها، ومن هؤلاء المؤرخين عبد الرحمان السعدي.[٥] الكتاب هو من القطع المتوسط، يظم ٣٢٦ صفحة، ثم نشره لأول مرة من طرف هوداس المستشرق بمشاركة تلميذه بنوةbenoit . تم الاعتماد في تحقيق هذا المؤلف على عدة نسخ مخطوطة، وعملية النشر تمت بواسطة مدرسة اللغات الشرقية الحية. النسخة التي تم الاشتغال عليها في هذا المقال، هي من سلسلة كتب اليونيسكو التصويرية الخاصة بافريقيا . (Oeuvres Representatives).

وقد تمت إعادة طبعه من طرف وتحت رعاية منظمة اليونيسكو، على إثر توصية من طرف خبراء الهيئة الدولية للفلسفة والعلوم الانسانية "١٩١٣"، المؤلف يتوزع على ٣٨ باب وكل باب هو بموضوع أو قضية تاريخية معينة، بحيث هناك الأخبار والأحداث، والترجمة، وبنسبة (٩٥%) من هذه الأبواب الواردة في المؤلف تبتدئ بـ: ذكر. ويمكن الحديث عن عشرات المصادر التاريخية الخاصة بافريقيا الغربية، وهي المصادر التي تحدث عنها وجمعها الباحث جوزيف كيوك، Josephcooq في كتاب صدر منذ حوالي العقدين من الزمن بعنوان:

Recueil de Sources Arabes de l'Afrique Occidentale du 8ème au 13 siecle Paris ,1985.

وهذه المصادر هي التي هيأت لظهور مصادر جديدية، منها كتاب تاريخ السودان "للسعدي". الذي من علاماته المميزة تباين الطول وعدد الصفحات من باب لآخر، ومن صفحتين في الباب الواحد إلى خمسون صفحة، وهناك أبواب هي عبارة عن استدراكات، لما تم نسيانه من طرف المؤرخ. وهذا فيه ما يثبت أن مواد هذا المؤلف لم يتم جمعها دفعة واحدة، وعليه فقد كان يقوم بإثبات كل ما يقع للمُؤلف في فصل، وهذا ما ترتب عنه تقطع في تسلسل الأحداث وفي كرونولوجيا المؤلف.[٦] ومن خلال قراءة أبواب الكتاب يظهر أنها تتوزع على ثلاث اهتمامات أو أهداف أساسية، قد تكون كتبت خلال فترات وبشكل منفصل. أولاً: الترجمة لبعض الاعلام البشرية وهي تتضمن معلومات هامة. ثانيًا: ذكر ما تعلق بالجوانب الحضارية والسياسية والعسكرية لبلاد السودان، ثالثًا: أبواب عبارة عن رحلات قام بها المؤلف نفسه. وعبر هذه العلامات والمستويات الثلاث الظاهرة في هذا المُؤلف هناك تباينات في الأسلوب المعتمد تجاه كل غرض من هذه الإغراض.[٧] والعلامة الأخرى هو أن الفصل الأخير من المؤلف (فصل ٣٨)، يبدو وكأنه بداية جديدة في الكتابة لجزء جديد ثان، بحيث المؤلف يفتتح هذا الفصل بالحمدلة.[٨]

٢/١- قصدية التأليف والوعي بالموضوع وبالكتابة التاريخية

كتاب تاريخ السودان عمل وتأليف لشخص ينتمي للفترة المدروسة (بداية العصر الحديث)، وهو تأليف سوداني يحضر في متنه السودان الغربي والمغرب الأقصى على حد سواء، هذا بحكم الارتباط والأحداث المشتركة في جوانب عدة، بين المجالين الجغرافيين، وثالثًا فإن هذا الكتاب هو تأليف تاريخي، اتخذ صاحبه من التاريخ موضوعًا عن قصد، فحضره وعي ممارس في الكتابة التاريخية. ومن هنا، فإن هذا العمل يسمح بتحقيق مقارنات في الكتابة التاريخية خلال هذه الفترة، بين المنطقتين وبين المؤرخين من حيث شكل ومضمون ومنهجية الكتابة، وحتى من حيث علمية وموضوعية الكتاب.[٩]

وهنا يطرح سؤال التأثير والتأثر وقيمة التحول في الكتابة التاريخية، ودرجة الجمود المنهجي والتواصل الحضاري، بين بلاد السودان الغربي والمغرب الأقصى خلال هذه الفترة والفترات

السابقة. ففي مقدمة كتاب تاريخ السودان "للسعدي"، هناك اعتراف واضح بأن تاريخ المنطقة كان إلى حدود زمانه تاريخ رواية شفوية. وهذه الرواية معرضة للضياع وبالتالي لابد من الكتابة والتدوين، ففي هذا السياق يقول السعدي: "فقد أدركنا أسلافنا المتقدمين، أكثر ما يتوانسون به في مجالسهم، ذكر الصحابة والصالحين ... ثم ذكر أشياخ بلادهم وملوكها وسيرهم، وقصصهم وأنبائهم وأيامهم ووفياتهم، وهو أحلى مايرون وأشهر ما يتذاكرون حتى انقرض ذلك، ولما رأيت انقراض ذلك العلم ودروسه...وأنه كبير الفوائد كثير الفرائد. لما فيه من معرفة المرء باخبار وطنه وأسلافه فاستعنت بالله سبحانه في كتب ما رويت من ذكر ملوك السودان... وذكرتمبكت... وذكر بعض العلماء والصالحين الذين توطنوا فيها، وغير ذلك إلى آخر الدولة الأحمدية الهاشمية العباسية، سلطان مدينة حمراء مراكش.[١٠] وعليه فمن خلال النص الذي أورده السعدي في مقدمة مؤلفه، يظهر أنه كان على وعي وكانت عليه مسؤولية تجاه تدوين وكتابة تاريخ المنطقة، ومن هنا قيمة المؤرخ وقيمة تدوين وكتابة تاريخ المنطقة وقيمة هذا العمل/المؤلف.

٣/١- المؤلف "تاريخ السودان" كمصدر تقليدي لتاريخ المغرب الحديث

كل الدراسات العلمية والأكاديمية التي توجهت بالبحث إلى بلاد السودان الغربي، بكيفية خاصة خلال العصر الحديث، توقفت واعتمدت على مؤلف تاريخ السودان للسعدي. والكتاب في جزء منه يبرز ذلك الامتداد المجالي والسياسي، والثقافي والحضاري للمغرب في الصحراء وفي بلاد السودان الغربي، ويبرز ذلك التأثير والتأثر في تشكيل وتطوير نمط الحياة. والمؤلف كمصدر تقليدي لتاريخ المغرب الحديث، جاء مكملاً لما ورد في كتب الرحلات حول المنطقة، وفي فترات سابقة كما الحال عند ابن بطوطة، الحسن الوزان،.... (القرن ١٤ م – القرن ١٥م). ويعرض المؤلف للكثير من الأحداث منذ مرحلة التأسيس عند الدولة السعدية، فيذكر مثلا المجال الترابي للامتداد السعدي في بلاد السودان على عهد أحمد الأعرج ومحمد الشيخ، وأهم الاصطدامات وردود الفعل بين الطرفين (محمد الشيخ – الإسكيا إسحاق ١٥٤٤م).[١١] وحملة أحمد المنصور السعدي حاضرة في هذا المؤلف، وبشكل دقيق، كقوة عسكرية ومسالك طرقية وإعداد واكراهات...وهي الحملة التي توجهت إلى سنغاي عام ١٥٨٤م، ولم يتحقق منها أي شيء في المرحلة الأولى.[١٢] تلك الارتباطات بين المخزن المغربي وبلاد السودان، حاضرة من خلال شخصيات وعائلات مغربية... في هذا المؤلف.[١٣]

الحملة السعدية الثانية لسنة ١٥٩٠ التي جاءت على إثر رد عنيف، من طرف الأمير إسكيا اسحاق، الذي رفض مغادرة منجم تغازي ، وكانت قد قصدت القضاء على مملكة السنغاي.[١٤] وكل النقاط الاستراتيجية التي تم اتخاذها انطلاقًا من مراكش، وما أعده الباشا جودر من تنظيم وانتقاء للقادة المرافقين.[١٥] كذلك ردود الفعل السودانية (في تومبوكتو والنواحي)، كلها أحداث وإفادات واردة في مؤلف السعدي التي من شأنها تقديم الكثير من الاشارات، في مقارنتها مع ما أوردته، مصادر أخرى مغربية سودانية (نيل الابتهاج، الفتاش، نزهة الحادي، الفشتالي...).

وحضور مغرب الدولة السعدية، بكيفية خاصة خلال العقود الثلاثة الاولى من ق١٧ في بلاد السودان، لم يقتصر فيها المؤلف على الأحداث العسكرية والامتدادات، بل رصد الاحوال الاجتماعية الاقتصادية الحضارية المغربية، في هذه المناطق من الصحراء.[١٦]

ومن خلال دراسة هذا (المُولف/ الكتاب) في إطار علاقات مغربية مع بلاد السودان الغربي. يمكن الوقوف على دلالات هامة تخص كون المغاربة منذ الفتح الاسلامي، كان لهم فضل كبير في إحداث متغيرات، ونقلة نوعية في تاريخ غرب افريقيا، وكان لهم اسهام في إدراج حضارات حوض الابيض المتوسط، وادخالها إلى مجتمعات افريقيا جنوب الصحراء.[١٧] وقد أكدت الدراسات على خاصية اساسية في سياسة المواجهة السعدية للاطماع البرتغالية في المنطقة، من خلال اعطاء الاسبقية لتعميق العلاقات بين المغرب والسودان، ولهذا فقد حاولوا مراقبة أهم المحطات خاصة توات التي تم فتحها، وذلك قبل مراقبة المناطق القريبة من مراكش كما الحال بالنسبة لتادلة و دكالة.[١٨]

٤/١- الشروط السسيوثقافية التي أثرت في شخصية مؤرخ مملكة سنغاي

عُرف "السعدي" بمؤرخ مملكة السنغاي، وهو من أسرة عريقة في العلم بمدينة تومبوكتو مسقط رأسه عام ١٥٩٦، أي بعد وفاة محمود كعت صاحب مؤلف "الفتاش". شروط تاريخية ومجتمعية عاش فيها وجعلته يتأثر بعدة ظواهر وشخصيات وأحداث.، فقد تلقى تعليمه على يد عدد من المشايخ منهم أحمد بابا التمبوكتي الشهير. اهتم بالثقافة واشتغل بالتجارة، وعمل إمامًا في مسجد مدينة الغرباء، لأن المدن الافريقية في هذه الظروف على إثر تحولاتها الثقافية والحضارية، كانت في الغالب تتركب من مجالين مدينة الغرباء وهم التجار والفقهاء ومدينة الأهالي.[١٩]

وفي هذه الأجواء السياسية الثقافية، تولدت رغبة الكتابة التاريخية عند "السعدي" وهي الأجواء التي تأثر بها. ومن جملة ما تاثر به هناك: أحوال مدينة تومبوكتو وحركتها وكثرة العلماء بها والأولياء والصالحين والزاهدين... كذا حركتها التجارية.. وإلتقاء الطرق بها.[٢٠] تأثر السعدي بعدد من العلماء الذين تحدث عنهم من خلال زيارتهم لتمبوكتو، من أجل التدريس في مدارسها، ومن مختلف البلاد الاسلامية كالمغرب والاندلس والحجاز ومصر...، كذلك الطلبة الذين توجهوا إليها من السنغاي والنيجر... كذا برواج الكتب واستنساخ المخطوطات.[٢١]

تأثر السعدي بعدد من الرحلات التي قام بها إلى عدة مناطق من تمبوكتو إلى مسينا، وبأخرى قام بها من مدينة ديينى إلى تومبوكتو، هذه الرحلات الميدانية مكنت السعدي من ذكر وكتابة أوصاف دقيقة لأمكنة وقبائل واحوال اقتصادية وأمن ووسائل نقل وغيرها.[٢٢] وتحدثت بعض الكتابات عن تعرض "السعدي" لبعض المضايقات من طرف باشا مدينة ديينى، وعن إنصاف الحاكم المغربي الاعلى في مدينة تومبوكتو له، وأنه على إثر هذه المضايقات وهذا الانصاف تحول إلى منصب الكتابة، إلى جانب عدد من الباشوات المغاربة الذين صاحبهم في رحلاتهم.

وأن هذه الرحلات مكنته من توسيع آفاق معارفه، وبالتالي إقدامه على مشروع تأليفه لكتاب تاريخ السودان.[٢٣] وكانت لشخصية أحمد بابا التمبوكتي الأستاذ، أثر بليغ في تكوين السعدي وفي علامات مؤلفه ، فهومن المصادر التي اعتمدها للاستشهاد ولتوثيق عمله التاريخي.

ثانيًا: الكتابة التاريخية عند عبد الرحمان السعدي: الأسس والتميزات

١/٢- الجوانب المنهجية المعتمدة وبنية المُؤلف

ينطلق "السعدي" من وعي وقناعة ذاتية، على أنه مقدم على كتابة تاريخية تخص مجالاً معينًا هو بلاد السودان الغربي. وهذا الاقدام انبنى على أهداف واضحة عندما قال "ولما رأيت انقراض ذلك العلم ودروسه... وأنه كبير الفوائد... لما فيه من معرفة المرء بأخبار وطنه وأسلافه.... فاستعنت بالله سبحانه في كتب ما رويت من ملوك السودان... وذكر تنبكت.... وذكر العلماء....".[٢٤] وعليه نلمس أنه اتجه إلى التاريخ وكتابته كمؤرخ، أين يظهر ذلك من خلال مؤلفه كتوزيع، كمحتوى، كأسلوب.

من خلال قراءة الكتاب يظهر أن "السعدي" كتب سيرا على منوال سابقيه، وبالطريقة المؤلوفة خاصة عند الذين تأثر بهم وأخذ عنهم كما الحال عند أستاذه أحمد بابا التمبوكتي بحيث يقول: "وقد رأيت في كتاب الذيل..".[٢٥] فجاءت تجربة السعدي عبارة عن سرد خبري تاريخي، بنصوص وردت في مؤلفه عبارة عن حوليات، بحيث يذكر السنة، ويأتي على مجموع أحداثها وأخبارها فيقول مثلا "وفي يوم الخميس الثامن من الربيع الثاني في العام الثامن والأربعين والألف توفي الشيخ الفقيه العالم الفاضل.... وفي أوائل شعبان توفي أخونا سليمن ...في ليلة الخمس العاشر من رمضان توفي أخونا ومحبنا النافع... »[٢٦] كتاب السعدي الذي ينتمي إلى طريقة كتابة تاريخية معتادة، مدخله كان عبارة عن رصد لأهمية التاريخ، ثم فصول أو أبواب توزعت على سير، غزوات مدن، فكر، تراجم...، ومدخل هذا الكتاب فيه إدراج لأهم علامات المحتوى، أو التصميم الذي إختاره المؤلف في البداية، بحيث أورد في ختام المقدمة «ذكر ملوك السودان أهل سغي،وقصصهم واخبارهم وسيرهم وغزواتهم، وذكر تنبكت ونشأتها، ومن ملكها من الملوك، وذكر بعض العلماء والصالحين الذين توطنوا فيها وغير ذلك... وبالله تعالى استعين وهو حسبي ونعم الوكيل ».[٢٧]

وبناءً على هذا الاختيار والرؤية فقد قسم مؤلفه إلى أبواب بلغ عددها (٣٨) باب، تباينت من حيث قضاياها وهذه الأخيرة (القضايا) هي التي أعاد ذكرها عند الانتهاء من كتابة مؤلفه في مرحلته الاولى (في جزءه الأول) فنجده يقول في بداية الباب (٣٧) "وهنا انتهى القول بنا فيما أردنا من جمع ما تيسر من أخبار ملوك أهل سغي ونبذة من ذكر قيمغ وأهل ملي، وملوك جني ونشأتها ونشأة تمبكت ومن ملكها، ودولة الأحمدية الهاشمية، المنصورية الملوية فيها، وذكر بعض العلماء والصالحين فيهما وآبائهم وقصصهم وسيرهم وغزواتهم وأيامهم وتواريخهم، ووفيات بعض أعيان البلاد والاحبة والإخوان وأهل القرابة....".[٢٨]

وإذا كان مؤلف "تاريخ السودان" يمثل عمق الثقافة العربية الاسلامية وأن نكهته رسمية في إطار حوليات بلاطات.[٢٩] فإن هذه الحوليات امتدت أحيانًا على مساحة زمنية كبيرة، وهذا تميز عند "السعدي" فنجده يقول: "ذكر الوفيات والتواريخ من العام الثاني والأربعين والألف إلى آخر العام الثالث والستين والألف..."[٣٠] فإذن البعد الاخباري عنده يمكن تلمسه في مقدمة المؤلف، والجزء الأهم من هذه الخبريات توجه بها إلى البيئة المحلية وإلى بلاد السودان.

ومن مجموع ٣٨ باب في هذا المؤلف، خصص باب واحد (الباب ٣٠) للحديث عن تاريخ وملوك الدولة السعدية، وباب واحد خصصه للتعريف بالطوارق، (الباب ٨) وهناك بابين آخرين بطابع وصفي الأول (الباب ٣) خصصه للحديث عن استيلاء كنكن موسي (منسي موسى) على مملكة السغي .و باب ثاني (باب ٣٢) حول زيارات المؤلف لبلاد ماسنة وقد عنونه هكذا" سياحة مؤلف الكتاب إلى بلاد ماسنة"، وربما درجة تأثر المؤلف بإستاذه " أحمد التمبوكتي". هي التي جعلته يخصص له بابا واحدا ووحيدا تضمن نبذة حول كتاب نيل الابتهاج بتطريز الدباج، الذي أورده السعدي هكذا" كتاب الديل لأحمد بابا". باب واحد كذلك هو الذي خصصه "لتاريخ السودان" وهو الأخير ، وعليه ملاحظات وقد أورده هكذا "تاريخ السودان" من ١٠٦٣ الى ١٠٦٥ بداية هذا الباب مخالفة لما أورده المؤلف في باقي الأبواب، وكأن هذا الباب (باب ٣٨) هو بمثابة مدخل جديد كجزء ثان، من الكتاب لكن الموت كانت أقوى من إرادة "السعدي" وهو يقول في هذا الشأن «الحمد لله وحده ومما حدث بعد ما مضى من التاريخ».[٣١] فإن من جملة ٣٨ باب من أبواب كتاب تاريخ السودان هناك ٣٢ باب إبتدأت بذكر....، وستة أبواب فقط هي التي تباينت عناوينها بين الترجمة، الرحلات، التعريف. مع الاشارة إلى أن معظم صفحات هذا المؤلف تتكون من ١٩ سطر مع استثناءات محدودة، وداخل كل سطر من السطور لا يتجاوز عدد الكلمات ١٢ كلمة.

٢/٢- المصادر التاريخية لمؤلف تاريخ السودان

فيما يتعلق بالمصادر التي إعتمدها "السعدي" في مؤلفه، لم يخصص لها جانبًا، كما حصل عند التمبوكتي مثلاً في نيل الابتهاج بتطريز الدباج، بل وردت في سياقات الكتابة عند وقوفه عليها للاستشهاد، ويأتي أحمد بابا التمبوكتي (الأستاذ) (١٥٥٦- ١٦٢٧) في مقدمة مصادر المؤلف.[٣٢] وإذا كان "لفي بروفنسال" قد اعتبر هذا الكتاب ضمن أهم المصادر المغربية المتعلقة بالتراجم فأورد "إن أحمد بابا التمبكتي جدير بأن يسجل إسمه ضمن المؤرخين غير المباشرين للمغرب أواخر القرن السادس عشر الميلادي".[٣٣] وسواء أحمد بابا، الفقيه المؤرخ والشخص، أو مؤلفه نيل الابتهاج، فكلاهما من العناصر التي أثرت في كتابة وكتاب "السعدي"، بحكم كون هذا الاخير تتلمذ على يد الأول (الشيخ والمريد..).[٣٤] ويظهر اعتماد ع السعدي على ما كتبه أحمد بابا وعلى مؤلفه السابق الذكر أساسًا، من خلال هذه النصوص وهذه المقتطفات من كتاب تاريخ السودان: «قال العلامة الفقيه أحمد بابا رحمه الله تعالى، خربت تمبكت ثلاث مرات الاولى على يد سلطان موش، والثانية على يد سن علي، والثالثة على يد الباشا

محمود زرقون ....».[٣٥] أورد السعدي كذلك ضمن ما أورده حول تاثره باستاذه أحمد بابا التمبوكتي فقال «وسمعت العلامة الفقيه أحمد بابا رحمه الله أنه قال....».[٣٦] وفي نص آخر أورده "السعدي" جاء فيه «كذا وجدته مضبوطًا في ذيل الديباج للعلامة الفقيه أحمد بابا رحمه الله». ويضيف «وقد رأيت في كتاب الذيل».[٣٧]

إنما ما يؤكد حقيقة تأثر واعتماد المؤلف على أستاذه أحمد بابا، كونه خصص له بابًا من أبواب كتابه (الباب العاشر) وهو الوحيد ضمن تراجمه وبهذه العناية. وضمن المصادر التي اعتمدها "السعدي" هناك ابن بطوطة (١٣٠٣-١٣٧٧م) وهذا الأخير كان قد قام برحلة سنة ١٣٥٣م إلى منطقة مالي، ومكث بها مدة من الزمن فسجل ما كان يصادفه، وهو في بلاد السودان الغربي وفي زمن السلطان منسي موسى.[٣٨]

ويقول "السعدي"بما يثبت اعتماده على ابن بطوطة"، قال أبو عبد الله محمد ابن بطوطة في رحلته رحمه الله تعالى، كان السلطان منسي موسى ولما حج نزل بروض لسراج الدين بن الكويك، أحد كبار التجار من أهل الاسكندرية بركة الحبش خارج مصر، وبها نزل السلطان واحتاج إلى مال فتسلمه من سراج الدين هذا. وتسلف منه امراؤه أيضًا وتوجه سراج الدين بنفسه لاقتضاء ماله ومعه ابن له، فلما وصل تنبكت اضافه اسحاق الساحلي، فكان من القدر موته تلك الليلة قال فيه وبهذه البلدة قبر ابن اسحاق".[٣٩] اعتمد "السعدي" كذلك على صاحب كتاب الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية وهو مؤرخ مجهول، وهكذا فقد أورد" وهم المسوفة ينتسبون إلى صنهاجة، وصنهاجة يرفعون أنسابهم إلى حمير كما في كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية».[٤٠] استحضر "السعدي" هذا المصدر التاريخي المغربي، عند حديثه عن التوارق في عرض نسبهم وكان ذلك في الباب الثامن. ضمن مصادر المادة المعرفية في كتاب تاريخ السودان، اعتمد "السعدي" على الرواية الشفوية والمعاينة والمشاهدة. يظهر ذلك بوضوح من خلال هذا المقتطف، "وهي كائنة إلى الآن بالمشاهدة والمعاينة ولما اسلم (يقصد السلطان كنبر) خرب دار السلطنة وحولها مسجدا لله تعالى وهو الجامع، وأنشا الأخرى لسكناهم، وهي في مجاورة الجامع من جهة المشرق.... وقيل أن في ذلك الأرض سبعة آلاف قرية وسبعة وسبعين قرية متقاربة بعضها إلى بعض».[٤١]

وفي مقتطف آخر يقول "وفي أواسط ذي القعدة الحرام من هذا العام (يقصد ١٠٣٨هـ. سافرت إلى سيد الأخ المحب الفاضل الفقيه محمد سنت قاضي ماسنة لزيارته، فطلبها منى منذ أعوام لم يقدرها الله سبحانه، إلا في هذا الوقت وهو أول رؤيتي بتلك الجهة".[٤٢] ومن خلال ما اعتمده من معاينة ومشاهدة في صلاته ولقاءاته والمهام التي تكلف بها، جاء مؤلفه غنيا بالأخبار، وهوما أكده عبد الهادي التازي الذي قال: "وتتحدث رواية أخبار السودان للسعدي".[٤٣] وهنا عوض تاريخ السودان للسعدي تم ذكر رواية أخبار السودان للسعدي، وهذا البعد الخبري الذي تأثر به من خلال مصادره ظهر بشكل كرونولوجي، بحيث يحضر اليوم والشهر والسنة. في هذا الإطار يقول مثلاً "وليلة الأحد العاشر من ذي الحجة الحرام المكمل للعام ١٠٥٥ هـ توفي أخونا محمد الأمين كعت".[٤٤] "وفي يوم السبت خامس ذي الحجة الحرام المكمل للعام ١٠٥٦هـ توفي سيد الوقت وبركته الشيخ المحب سيدي الشريف محمد بن الشريف الحاج الحسني".[٤٥] "وبقي في ذلك الوهن والضعف الى نهار الجمعة السادس من شوال عام ١٠٥٨هـ عزل ومكت في الولاية سنة واحدة وتسعة أشهر".[٤٦]

٣/٢- نقاط التقاطعات بين مؤلف تاريخ السودان ونماذج من المصادر السودانية والمغربية

للوقوف على عناصر تلاقي تباينات بين مؤلف "السعدي"، ونماذج من مصادر تقليدية في بلاد السودان الغربي والمغرب الاقصى. توجه إختياري إلى أحمد بابا التمبوكتي صاحب "نيل الابتهاج بتطريز الديباج"، وإلى الصغير الافراني صاحب "نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي". فيما يتعلق بالأول (١٥٥٦-١٦٢٧م) فقد كان مولده ونشاته بتمبوكتو، هو من أسرة عالمة بمكانة اجتماعية، عالية، اشتغل بالقضاء كانت له ثقافة فقهية إسلامية واسعة،عاش بعض المحن في مسيرة حياته يظهر ذلك بوضوح في كتاباته، سيرته ومؤلفاته. فقد حوصرت عشيرته (بني اقيت) وتم التنكيل بها وسياقتها بالقيود إلى مراكش، فسجن لمدة سنتين (١٠٠٢-١٠٠٤هـ). وهذا الانتقال كلف التمبوكتي فقدانه عددًا من كتبه ومجلداته، أثناء الرحلة من السودان إلى مراكش، كما أن عشيرته أصيبت بالطاعون. وقد تضايق التمبوكتي في مراكش، لدرجة أنه قال عند مغادرتها "لا ردني الله إلى هذا المعاد ولارجعني إلى هذه البلاد".[٤٧]

وهذه الرحلة التي كانت من السنوات الصعبة في حياة التمبوكتي، كانت الأهم على مستوى العطاء والشهرة. بحيث سنة ١٠٠٥هـ أكمل مؤلفه "نيل الابتهاج"، واسترجع بعض مافقده من الكتب أثناء رحلته إلى مراكش من تومبوكتو. كما أنه تواجد في المغرب الاقصى في فترة ازدهار الدولة السعدية، حيث عصر أحمد المنصور الذهبي الذي كانت تُدعم فيه العلوم والجهود العلمية. ومؤلفات التمبوكتي كثيرة، حتى قيل أنه كان مطبوعًا على التأليف.[٤٨] إنما الأكثر شهرة فهو "نيل الابتهاج"، الذي ورد سبب إقدامه على كتابته في المقدمة، وهذا تقليد عند كل مؤرخي هذه الفترة وحتى قبلها، ليس فقط ببلاد السودان بل حتى في المغرب الأقصى والنموذج عند بن خلدون.[٤٩] وفي آخر كتاب"نيل الابتهاج"، خصص المؤلف جانبًا لذكر مصادره وعددهم كبير ومنهم ابن خلدون.

أما فيما يتعلق بالصغير الافراني، فقد عاش ما بين (١٦٦٩-١٧٤٠)، فترة نهاية الدولة السعدية وبداية زمن الدولة العلوية. أحيطت هذه الشخصية التاريخية بكثير من الاهتمام من قبل باحثين ونقاد وبالتالي هناك خلافات حول ترجمته.[٥٠] تكوينه ارتبط في البداية بمنطقة سوس ثم مراكش، وهنا يلتقي من حيث تواجده بهذه المدينة مع التمبوكتي. عاش بعض الأزمات في حياته أثناء انتقاله الى فاس لتعميق التعلم والتكوين، وهذه الأزمة لم تكن مع المخزن كما حصل عند التمبوكتي، بل مع الفقهاء المتزمتين الرافضين للتجديد وتحرير الفكر، وهذه الأزمة والصراعات امتدت لحوالي عقد من الزمن.[٥١] وكما الحال عند

التمبوكتي فقد كان التأليف عند الافراني غزيرا في الأدب والتاريخ، بحوالي أربعين مؤلفًا الأهم فيها هو: "نزهة الحادي" ويظهر أن تأليف هذا الكتاب تم على مراحل متقطعة، ما يتأكد بشكل واضح في خاتمة الكتاب. حيث أشار إلى أنه أنجز مؤلفه في مرحلتين عندما تغلب على صعابه التي مر بها. بحيت يقول: "وقد كنت جمعت محصلة في بطائق فإذا رمت تهديبه،عاق منه عائق ولما ألمت بنا تلك المصيبة الفادحة نبذت تلك التقاليد بزوايا الهجران حتى نسجت عليها عناكب النسيان".[٥٢]

وسبب الاقدام على الكتابة أوردها الافراني في المقدمة (نظرته إلى التاريخ، الأهمية والقيمة) والمنهج الذي اختاره في الكتابة واتبعه تحدث عنه في مؤلفه.[٥٣] وحول المرحلة السعدية التي أرخ لها الافراني، اعتمد فيها على رواية شفوية ومكتوبة، ومصادره المكتوبة كان فيها الأساسي والثانوي.[٥٤]

ويظهر طابع الإخبار عند الافراني من خلال هذا المؤلف، في اعتماده على جمع المعلومات على اختلاف تناقضاتها ومقارنتها مع بعضها.[٥٥] أين هو السعدي من هؤلاء؟ وما هو تميزه؟ وماهي نقط التلاقي والاختلاف مع هذه التجارب التاريخية السودانية والمغربية؟ يلتقي مع أحمد بابا التمبوكتي من حيث مسقط الرأس بمدينة تومبوكتو وفي بعض الصعاب التي عاشها إنما بشكل مختلف من حيث المدة والنوعية. فالسعدي ظل في بلاده السودان الغربي، وعاش فترة حرجة مع أحد الباشوات المغاربة، إنما تم انصافه في الأخير وتحول إلى منصب هام خدم فيه السلطة والمخزن، وتمكن من توسيع آفاقه المعرفية وعلاقاته وبالتالي الإقدام على الكتابة التاريخية.[٥٦] أخذ عن أحمد بابا التمبوكتي بحيث عندما توفي هذا الأخير (١٦٢٧م) كان السعدي في عقده الرابع. من حيث الأصول والنشأة والانتماء الأسري، هناك العلم وممارسة القضاء والرحلة، وبغض النظر عن دوافعها سواء عند السعدي أوالتمبوكتي، فقد كان لها دور كبير في التكوين والاطلاع. فالتمبوكتي بدأ كتابه الشهير"نيل الابتهاج" في تومبوكتو وأنهاه بمراكش.[٥٧] والسعدي استفاد من رحلاته وزياراته رفقة الباشوات، فتوسعت معارفه التاريخية والجغرافية والاجتماعية. وبنفس ما أورد التمبكتي حول علم التاريخ وأهميته في مقدمة "نيل الابتهاج"، وضع السعدي مقدمة لكتابه "تاريخ السودان" تحدث فيها عن أهمية التاريخ فقال "ولما رأيت انقراض ذلك العلم ودروسه وأنه كبير الفوائد كثير الفرائد...".[٥٨] وهنا يلتقي السعدي مع أستاذه أحمد بابا وهذا الأخير بابن خلدون، وإذا كان أحمد بابا قد خصص جانبا لذكر مصادره، فعند السعدي وردت هذه المصادر ضمنيًا في المحتويات. ومؤلفات التمبوكتي كثيرة ومعظمها في مجال التراجم.[٥٩]

بينما في كتاب تاريخ السودان، التراجم حضورها باهت مع حضور قوي للحوليات والأخبار. فالتمبوكتي لم تكن له تقطعات في كتابة مؤلفه الشهير، اللهم الانتقال من تمبوكتو إلى مراكش، بينما السعدي لم يغير مكان الإقامة لكن كان هناك توقف عن الكتابة قبل أن يعود من جديد. مصادر التمبوكتي كثيرة ومتنوعة، وهو ما يظهر محدودًا عند السعدي مع التقاء الرجلين في اعتماد الرواية الشفوية، بحكم أن المجتمع السوداني مجتمع رواية شفوية وليس كتابة.[٦٠]

وعند المقارنة بين السعدي والصغير الافراني من خلال مؤلفيهما، فهناك أولاً الفارق على مستوى الزمن. فالأول عاش مابين (١٥٩٦-١٦٥٥م) والثاني ما بين (١٦٦٩-١٧٤٠م) ولكل فترة تميزها وأحداثها وشروطها التاريخية. إن على مستوى بلاد السودان الغربي، أو المغرب الاقصى، فأزمة وظروف الانتقال من بلاد سوس بالمغرب الى مراكش، ومنها إلى فاس عند الافراني علمته الشئ الكثير، وكانت فترة صعبة دفعته للكتابة وهنا يلتقي مع السعدي، في اكتساب وتوسيع المعارف عن طريق الرحلات والزيارات.

مؤلفات الافراني كثيرة هي بحوالي الأربعين مؤلفًا بخلاف السعدي، وهناك تقطع في الكتابة عند الطرفين ومعهم التمبوكتي أحمد بابا كذلك إنما بشكل باهت، وهنا يظهر أن الكتابة التاريخية عموما تتأثر بالظروف الذاتية والسياسية والاجتماعية. الكتابين " تاريخ السودان للسعدي" أو"نزهة الحادي" للافراني، إخراجهما للنشر وللطبع كان على يد المستشرق الفرنسي هوداس. وسواء عند التمبوكتي أو عند الافراني، فالسعدي يلتقي معهما في حديثة عن أهمية التاريخ في مقدمة الكتاب. وهنا يظهر نوع من النمطية في الكتابة التاريخية خلال هذه الفترة، خاصةً على مستوى مقدمات المؤلفات، بدأ بابن خلدون إلى أحمد بابا إلى السعدي إلى الافراني.... والاختلاف الملموس بين هؤلاء هو المصادر المعتمدة ونوعيتها. فالتمبوكتي كتب في التراجم.. والافراني حول أخبار الملوك الذين حكموا المغرب خلال القرن السادس عشر والسابع عشر الميلادي، من عهد المنصور الذهبي إلى المولي إسماعيل العلوي.[٦١] أما السعدي فقد تم تصنيفه من طرف الباحثين ضمن الاخباريين، وضمن كتب الحوليات البلاطية.

خَاتِمَةُ

كتاب تاريخ السودان للسعدي من المصادر التاريخية التقليدية، التي توزع محتواها على ما هو إخباري تجاه المغرب الأقصى، إنما أساسًا السودان الغربي، بكيفية خاصة خلال النصف الأول من القرن السابع عشر ـ الميلادي. والمؤلف أسهم في التعريف بالأماكن والأحداث الأساسية وبالوقائع. وهو بحمولته المعرفية كان له أثره على مستوى رصد أحوال بلاد السودان ضمن متغيراتها الداخلية، خلال هذه الفترة من تاريخ المغرب الأقصى، التي تحكمت فيها امتدادات سعدية مجالية، وتواصل كان فيه التأثير والتأثر بين المنطقتين. والمهم في هذا المؤلف كونه اعتمد اللغة العربية التي توسعت في بلاد السودان، مع دخول الاسلام إليها عبر قرون. كما أن الكتاب هو إنتاج محلي وفق رؤية سودانية للتحولات والأحداث.[٦٢] وعليه فهو قيمة علمية مضافة هامة بالنسبة لتاريخ المغرب خلال العصر الحديث.

والمؤلف كمتن كان موضوع اهتمامات ودراسات، ومصدرًا لعدد من المؤرخين التقليديين كما الحال بالنسبة لأبي عبد الله محمد الولاتي البرتلي (القرن الثامن عشر الميلادي) وهو صاحب كتاب "فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور". بحيث أوردت بعض الدراسات والأبحاث أن الولاتي في الكثير من معلوماته وإفاداته، اعتمد على المؤرخ عبد الرحمان السعدي التمبوكتي.[٦٣] و"هنري دو كاستري" بدوره أورد أن ما جاء عند "ابن خلدون" حول أهالي حوض النيجر، فيه اتمام كبير لما أورده السعدي في مؤلفه.[٦٤] ويتحدث عبد الله العروي عن إمكانية الاستفادة العلمية، في الدراسات والابحاث التاريخية من مصادر متوفرة حول العلاقات بين المغرب وبلاد السودان. إنما عبر إعادة النظر فيها ونقدها على ضوء مناهج عصرية، وذلك للتمكن من تأويل أنواع الروايات الشفوية.[٦٥]

الهَوامِشُ:

(١) لمزيد من الأضواء انظر: كتاب "**العلوم الانسانية والاجتماعية بالمغرب**" طروحات ومقاربات، المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط، ١٩٩٨.

(٢) العروي عبد الله، "**علاقات المغرب بأفريقيا ملاحظات أولية**"، مجلة دراسات، كلية الآداب والعلوم الانسانية، أكادير العدد الثاني، ١٩٨٨، ص١٧.

(٣) المرجع نفسه، ص٢٠.

(٤) الشكراوي خالد، **فاس من خلال المصادر السودانية قراءة أولية**، سلسلة ندوات ومناظرات ٣، منشورات كلية الآداب سايس فاس، ندوة فاس وأفريقيا، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٦، ص٢٨.

(٥) التوفيق أحمد، **العلاقات بين المغرب وافريقيا الغربية**، منشورات عكاظ، جمعية موظفي كلية الآداب الرباط، ١٩٩٢، ص ١٤- ١٥.

(٦) محمد الغربي محمد، **بداية الحكم المغربي في بلاد السودان الغربي**، دار الرشيد للنشر، وزارة الثقافة والاعلام، العراق ١٩٨٢، ص٥٣٤.

(٧) المرجع نفسه، ص٥٣٥ – ٥٣٦.

(٨) في الفصل (٣٧) هناك إشارة واضحة إلى إنهاء المؤلف بذكر تاريخ هذه العملية، وهي سنة ١٠٦٣ هـ، بحيث يقول "وهنا انتهت المجموعة بحمد الله وحسن عونه، بتاريخ نهار الثلاثاء .... من ذي الحجة الحرام، تمام الثالث والستين والالف، والحمد لله، رب العالمين وهو حسبي ونعم الوكطيل (ص ٣١٤ – من مؤلف تاريخ السودان) والعودة الثانية للكتابة وكأنها بداية لجزء ثان في الفصل ٣٨، بدأها المؤلف بقوله "الحمد لله وحده ومما حدث بعدما مضي من التاريخ..." (ص ٣١٥ من كتاب تاريخ السودان).

(٩) يظهر أنه من حيث المنهجية، وعرض المادة التاريخية، وترتيبها هناك تشابه مع معالم المنهج المعتمد، عند المؤرخين المغاربة خلال نفس الفترة (الافراني، الفشتالي).

(١٠) السعدي عبد الرحمان، **تاريخ السودان**، تحقيق ونشر هوداس ١٨٩٨، طبعة جديدة، مكتبة أمريكا والشرق، باريز ١٩٨١، ص١- ٢.

(١١) السعدي، **تاريخ السودان**، م سابق، ص ٩٩ - ١٠٠.

(١٢) المرجع نفسه، ص١٢٠.

(١٣) المرجع نفسه ص ٥٩-٦٠.

(14) Assadi, «Tarikh es-Soudan», Texte Arabe Edité et Traduit par Houdas, Avec la Collaboration de Benoit .Lib.d'Amerique et d'Orient,1981, p 217.

(15) Lt. Colonel.H. De Castries , la Conquete du Soudan Par Elmansour, Hesperis ,vol. III, 1923. p445.

(١٦) السعدي، م. سابق، ص١٧٩.

(١٧) العلوي القاسمي هاشم، "**أصول الروابط التاريخية بين بلاد المغرب وغرب افريقيا في العصور الوسطى**"، مجلة كلية الآداب، فاس، عدد ٥ خاص ، ١٩٨٩، ص١٢٩.

(18) Ahmed Bouchrareb. «le Maroc et l'Afrique dans le Contexte des Grandes Decouvertes .Pub. de l'Institut des Etudes Africaines,1992 , p3.

(١٩) التوفيق أحمد، **معهد الدراسات الأفريقية في العلاقات بين المغرب وافريقيا الغربية**، م. سابق، ص١٦.

(٢٠) السعدي، م. سابق، ص٢٠.

(٢١) شوقي عطا الله الجمل، "**الحضارة الاسلامية العربية في غرب أفريقيا**"، مجلة المناهل، مطبعة فضالة، العدد السابع، وزارة الثقافة، الرباط، ١٩٧٦، ص١٥٤.

(٢٢) الغربي محمد، **بداية الحكم المغربي في بلاد السودان**، م. سابق، ص٥٣٨.

(٢٣) التوفيق أحمد، م. سابق، ص١٦-١٧.

(٢٤) السعدي، م. سابق، ص٢.

(٢٥) المرجع نفسه، ص٦٤.

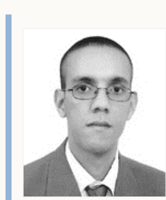
(٢٦) المرجع نفسه، ص٢٩٦.

(٢٧) المرجع نفسه، ص٢.
(٢٨) المرجع نفسه، ص٣٠٣-٣٠٤.
(٢٩) الشكراوي خالد، **فاس من خلال المصادر السودانية قراءة أولية**، منشورات معهد الدراسات الأفريقية الرباط، وكلية الآداب ساسي فاس، "فاس وإفريقيا"، طبعة أولى، ١٩٩٦، ص٢٨.
(٣٠) السعدي، م.سابق، ص٢٩٤.
(٣١) السعدي، م. سابق، ص٣١٥.
(٣٢) انتهى أحمد بابا التمبوكتي من كتابة مؤلفه نيل الابتهاج بمراكش في ٢٧ دجنبر ١٥٩٦، وهو تاريخ ميلاد المؤرخ عبد الرحمان السعدي.
(٣٣) لفي بروتسال، **مؤرخو الشرفاء**، تعريب عبد القادر الخلادي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة التاريخ ٥، الرباط، ١٩٧٧، ص١٧٩.
(٣٤) التوفيق أحمد، **العلاقات بين المغرب وأفريقيا الغربية**، م. سابق، ص١٦.
(٣٥) السعدي، م.سابق، ص٩.
(٣٦) المرجع نفسه، ص٣٥.
(٣٧) المرجع نفسه، ص٦٤.
(٣٨) علوي حسن حافظي، "**علاقة المغرب الأقصى بمالي من خلال رحلة ابن بطوطة**"، مجلة المناهل، عدد ٥٣، وزارة الثقافة، الرباط، ١٩٩٦، ص١١٩.
(٣٩) السعدي، م. سابق، ص ٨.
(٤٠) المرجع نفسه، ص٣٥.
(٤١) المرجع نفسه، ص١٣.
(٤٢) المرجع نفسه، ص٢٣٠.
(٤٣) التازي عبد الهادي، **الوسيط في التاريخ الدولي للمغرب**، المجلد الثالث دار نشر المعرفة، مطبعة المعارف الجديدة. الرباط طبعة اولى، ٢٠٠١، ص٩٨.
(٤٤) السعدي، م. سابق، ص٢٧٦.
(٤٥) المرجع نفسه، ص٢٧٨.
(٤٦) المرجع نفسه، ص٢٨٧.
(٤٧) التمبوكتي أحمد بابا، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، عناية وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات دار الكتب، طرابلس، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠، ص ١٥.
(٤٨) المرجع نفسه، ص١٨.
(٤٩) ابن خلدون ع.الرحمان، **المقدمة**، دار الجيل، بيروت، بدون سنة، ص٤.
(٥٠) مزين محمد، "**من مؤرخي الأشراف اليفراني صاحب النزهة**"، مجلة المناهل، عدد ٣٦، وزارة الثقافة، الرباط، ١٩٨٧، ص ٢٠٦-٢٠٧.
(٥١) المرجع نفسه، ص٢١٣.
(٥٢) الافراني الصغير، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، تصحيح العبارات التاريخية للسيد هوداس. مدرس اللغة العربية بباريز، طبعة ثانية، مكتبة الطالب، الرباط، ص٣١٠. (الطبعة الأولى تمت على يد بردين صاحب مطبعة بمدينة أنجي سنة ١٨٨٨).
(٥٣) المرجع نفسه، ص٢.
(٥٤) مزين محمد، م. سابق، ص٢٣٥-٢٣٦.
(٥٥) مزين محمد، ص٢٢٧.
(٥٦) التوفيق أحمد، م.سابق، ص١٦-١٧.
(٥٧) الغربي محمد، م. سابق، ص٥٤١.
(٥٨) السعدي، م. سابق، ص٢.
(٥٩) انظر أهم هذه المؤلفات مرتبة في كتاب نيل الابتهاج.../ تقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، م. سابق، ص١٩.
(٦٠) العروي عبد الله، م.سابق، ص٢٠.
(٦١) مزين محمد، م.سابق، ص٢٣١.
(٦٢) التوفيق أحمد، م. سابق، ص١٥.
(٦٣) صمدي محمد سعيد، **قراءة في فتح الشكور في المعرفة أعيان علماء التكرور**، لأبي عبد الله محمد الولاتي البرتلي، مجلة المناهل، وزارة الثقافة، الرباط، العدد ٧١-٧٢، السنة ٢٠٠٤، ص٣٤٢.
(٦٤) H.de Castries .Ibid .P. 435.
العروي عبد الله، مجلة الدراسات، كلية الآداب والعلوم الانسانية، أگادير، العدد (٢)، السنة ١٩٨٨، ص٢٠.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

دراسات

علاقات المغرب بالأتراك العثمانيين
من خلال الوثائق الإسبانية بمجوعة المصادر الدفينة لتاريخ المغرب



د. خالد بويقران
إطار بالمندوبية السامية
لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير
بني ملال – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

أرخت مجموعة من المصادر لتاريخ العلاقات المغربية العثمانية خلال القرن السادس عشر، والملاحظ أن حيزًا كبيرًا من هذه الوثائق كان تنظيمه وجمعه من لدن الأوربيين، فنظرًا للموقع الاستراتيجي للمغرب والتنافس على احتلاله من لدن إسبانيا من جهة، والعثمانيون من جهة أخرى، اِهتم الطرفان بمجريات الأحداث فيه. وهنا نسجل تراكم مجموعة من الوثائق لدى إسبانيا جمعت من لدن شانطان دولافيرون وهنيري دوكاستر فيما يسمى المصادر الدفينة لتاريخ المغرب لأرشيف الوثائق والمكتبات الإسبانية. وهنا نقف على مصدر، رغم خلفية الاستعمارية تطرق إلى حقيقة الأوضاع وتطور مسار دبلوماسية المغرب اِتجاه الدولة العثمانية التي تحاول فرض سيطرتها عليه.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٤ سبتمبر ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ٨ ينـايـر ٢٠١٦

كلمات مفتاحية:

المغرب، إسبانيا، الأتراك العثمانيين، علاقات المغرب بالأتراك العثمانيين

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0051261

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

خالد بويقران. "علاقات المغرب بالأتراك العثمانيين من خلال الوثائق الإسبانية بمجوعة المصادر الدفينة لتاريخ المغرب".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة - العدد التاسع والثلاثين؛ مارس ٢٠١٨. ص١٢٣ – ١٣٤.

مُقَدِّمَةٌ

بداية نود الإشارة إلى نقطة مهمة وتتعلق بالجانب المنهجي في هذا العمل؛ كانت طريقة عملي خلال هذا البحث منكبة على مجموعة الوثائق المأخوذة من "المصادر الدفينة لتاريخ المغرب: في جزئها المتضمن لأرشيف الوثائق المكتوبة باللغة الإسبانية ولتنظيم العمل آثرت بتخصيص جذاذة عمل لكل وثيقة، تضمنت هذه الجذاذات جرد الوثيقة وتصنيفها حسب النوع والموضوع والمضامين التي جاءت به الوثيقة وأخيرًا الترجمة الكاملة لها، ولإعطاء العمل دقة أكبر في تتبع الوثائق المذكورة في البيبليوغرافيا المصدرية أشرنا إلى رقمها الترتيبي في المرجع الأصلي والصفحات التي ردت فيها وكذلك رقم المجلد (Tome). ولمعالجة هذه الوثائق خلال هذا البحث، فقد وضعنا تصميمًا له معتمدين على المطلوب من العمل والهدف منه، من تصنيف معتمد على معيار النوع والموضوع، ثم بعد ذلك انطلقنا إلى العمل على المتن فأبرزنا مضامين كل وثيقة إلى جانب ترجمة نصها من اللغة الإسبانية إلى اللغة العربية.

والجدير بالذكر هنا الإشارة إلى مجموعة من الخصائص والمميزات التي طبعت هذا البحث ونستهلها بجانب المتن، حيث ركزنا خلال الترجمة على القواميس الإسبانية القديمة، وهذا راجع إلى الطابع التقليدي للغة الوثائق، فكما سيتم الإشارة إلى ذلك في هوامش جذاذة الوثيقة رقم (٨)، فإن اللغة المتعامل معها هي لغة إسبانية مليئة بالشوائب الجهوية، فليست نظيرة للغة المعروفة لدينا اليوم، وهنا نود إثارة انتباه المطلع على الوثائق والعمل أن هناك بعض الصعوبة في قراءة هذا المتن. كما نشير كذلك إلى مسألة جمع وربط الكلمات بعضها ببعض، لا ندري هل الأمر يتعلق بالأخطاء المطبعة، أم بقاعدة سائدة في كتابات تلك الفترة، كما أننا نسجل تشوه مجموعة من المصطلحات وحلول حروف فيها مكان أخرى، الأمثلة كثيرة على ذلك: أسفل = تحت bajo = حل حرف (x) محل حرف (j)، وحلول حرف (y)، محل حرف (e) أو(i) في أغلب الأحيان/ ثم حلول حرف (n) محل حرف (m) و(b) محل حرف (v) والعكس صحيح، بعد ذلك نمر إلى عرض متن العمل ونستهل ذلك بعرض المحور الأول للتصنيف حسب النوع والموضوع.

المحور الأول: تحديد المعطيات المميزة للوثائق المدروسة

١/١-جرد وتصنيف الوثائق:

لقد ركزنا في جرد الوثائق على أرقامها ضمن المصدر وهو "المصادر الدفينة تاريخ المغرب"، وبالضبط ضمن الأجزاء رقم (١)، و(٢)، و(٣) الخاصة بوثائق وأرشيف المكتبات الإسبانية فالترقيم المعتمد روماني، بعد ذلك حددنا أرقام الصفحات التي وردت فيها الوثيقة الواحدة، وإلى جانب ذلك رقم المجلد، فبهذه المعطيات تسهل عملية عثور عليها وضبط الإحالة إليها ضمن أي بحث يتم اعتمادها فيه. والملاحظ أن طريقة الجرد كانت منهجية لوحدها، إذ لابد من تتبع تسلسلها الكرونولوجي، وهذا يساعد الباحث على الوقوف على تطور الأحداث ومعها عدد الوثائق، فكل مرحلة معينة ومعها الأحداث التي وقعت فيها كم معين من الوثائق تتفاوت أهمية حسب الفترة ولعل تطور الترقيم دليل على تزايد أهمية العدد وغنى المادة المعرفية التي توفرها تلك الوثائق المدروسة.

فنحن خلال هذه العملية لم نغفل الاطلاع على الأجزاء الثلاثة المتوفرة للوثائق التي جردها شانطال دولافيرون، وهنري دو كستري حول الوثائق الاسبانية لكننا وقفنا على أهمها في نظرنا، ولعل التفاصيل الكبيرة التي تتوفر عليها الوثائق كانت عائقًا أمام العملية الثانية من عملنا خلال هذه المرحلة وهو التصنيف. والتفصيل نلج إطار التقارير أولاً والتي تطرقت إلى أخبار المغرب وهي وثائق ذات طابع سياسي، له أهميته في الوثيقة رقم (LXXV) مثلاً والمستمدة من المجلد الثالث من سلسلة الوثائق الاسبانية.[١]

في إطار تصنيف الوثائق المدروسة، والمتضمنة لمعطيات حول تاريخ العلاقات المغربية العثمانية خلال القرن السادس عشر الميلادي، آثرنا اِلتزام معايير محددة في جردها، يتعلق الأمر بتبني النوع كمعيار أول، والملاحظ هنا هو غني هذه الوثائق بالرسائل والتقارير التي كانت صلة الوصل بين أطراف عديدة منها ما هو رسمي كالدولة وولاتها، وهنا عثرنا على وثائق اسبانية من جهة كان لها السبق في تعقب تحولات الدبلوماسية العثمانية والمغربية السعدية بشكل دقيق، وعندما نذكر الرسائل نقف على أنواع عديدة بينها، فمنها ما هو موجه من القناصل والسفراء الإسبان والولاة على مناطق النفوذ الإسباني في شمال إفريقيا إلى الملك، ومنها ما هو موجه إلى أمراء وأميرات كانت لهم ولهن الكلمة في القرار الإسباني. أما التقارير وهو الشكل الثاني من الوثائق فيتطرق إلى تطورات الأمور في الجزائر والمغرب والملاحظ أن تتبع هذه التقارير ودراستها يوفر مادة غنية ومهمة لمعرفة المعادلات التي كانت تتحكم في الوضع الدبلوماسي بين المغرب السعدي من جهة والسلطة العثمانية بالجزائر المجاورة. فالتصنيف عمل بالغ الأهمية بالنظر المحتوى، فمن أجل ذلك لابد من الاطلاع على الوثيقة كاملة وقراءتها تسهل عملية فهمها وترجمتها فيما بعد، فالمدخل هنا هو التصنيف الذي اتخذ معيارين اثنين الأول هو النوع والثاني الموضوع كما سبق الذكر.

بعد النوع يأتي الموضوع والذي يتطرق إلى ما هو اقتصادي وسياسي وديني ودبلوماسي دائمًا في الفترة السعدية المواكبة لفترات من التواجد العثماني في الجزائر، وكذلك بقوة التاج الإسباني والعلاقة بين هذه الأطراف كانت مؤطرة بعامل التقارب المغربي الإسباني من جهة وهدفه طرد الأتراك من المغرب والتقارب المغربي العثماني لمواجهة الخطر المسيحي الايبيري، فالمعاهدات مثلاً صنفت سياسية تارة واقتصادية تارة أخرى ودبلوماسية في مناسبات أخرى، والأمر هنا لا يتعلق بمضامينها فقط بل كذلك أهدافها والظرفية التي تتعامل معها هذه المعاهدات والتي أتت فيها. كمثال على ذلك نذكر معاهدة وقعها الإسبان والمغاربة طرفاها المباشرات حاكم مليلية والمنصور بن إبراهيم قائد مخزني على منطقة اغمارة في الريف وتتطرق هذه المعاهدة إلى صيغة سياسة لحفظ من المناطق الحدودية بين مليلية والمناطق المجاورة لها وذلك لتشجيع النشاط التجاري بها.

المحور الثاني:

العمل على متن (النصوص المكونة للوثائق)

١/٢-ترجمة الوثائق من اللغة الإسبانية إلى اللغة العربية

الوثيقة رقم (١)

رسالة من الكونت دي ألكوديتي الى الاميرة ريخنتي (مقتطفات) في وهران: ٢٣ يوليو ١٥٥٥[٢]

ظهر الرسالة بخط اليد: وهران-١٥٥٥- إلى سمو الأميرة من الكونت دي الكوديتي- ٢٣ يونيو ١٥٥٥.
موجهة الى معالي سمو أميرة البرتغال، حاكمة إسبانيا...إلخ
سيدتي،
معالي قوة سيدتي،
ما يهاب خطره في هذه المناطق أن الشريف يتجه نحو تحريض سكان الجزائر ضدنا، لأنهم جميعًا أعداءنا من جانب العقيدة وفي الإيمان، والخطر كذلك في احتمال توافق وتحالف ملك الجزائر والشريف، لأنه لاينقص شرفاء وصالحون وشيوخ يعززون صداقتهم، فرغم كون هذا الاتفاق صعبًا لأني أعلم بمجئ ابن باربا روسا لإزاحته عن السلطة بأمر من الباب العالي (السلطان العثماني)، وأنه لا يجرؤ على الذهاب إلى تركيا لأنه غني وأن السلطان العثماني ساخط عليه، ومن المحتمل بأن يميل الشريف إلى أي طرف لأنه يريد استعادة بينيون دي فيليز ومعها الجزائر وإذ حصل هذا سوف تلحق مناطق نفوذنا كذلك، وتعلمون الخصاص في الجنود الذي نعانيه.

ربنا الله نرجو الحياة لملكتنا ويحفضها
لملكاتها وسادتها لسموكم.
من وهران، ٢٣ / يونيو ١٥٥٥

خادمكم المخلص،
الامضاء: الكونت دي الكودويتي

الوثيقة رقم (٢)

تفويض منح الكونت دي الكوديتي للتفاوض مع الشريف بروكسل في فاتح أبريل ١٥٦٦[٣]

ظهر الوثيقة بخط اليد:
حان وقت منح التفويض من لدن الملك للكونت دي الكوديتي من أجل التفاوض بشأن السلم مع الشريف، ملك فاس والمغرب، في بروكسيل يوم ١٢ من أبريل ١٥٥٦.
على الهامش: الدون فيليب.

الملك،
لسمو الملك الفارس بين المغاربة مولاي محمد الشيخ ملك فاس والمغرب، فبواسطة الدون مارتن دي قرطبة، ودي بلاسكو Velasco، والكونت دي الكوديتي قبطاننا في وهران ومملكة تلمسان وتونس، نريد التفاوض بشأن السلم والهدنة معنا ونساعكم في طرد الأتراك من الجزائر ومناطق أخرى من المغرب، فتهديدهم لمناطق عديدة من البر وأخرى من البحر جعلهم أعداءً مشتركين، مهم لا يحافضون على أي وعد أو قانون، وأخذا بإرادة الشريف لمساعدتنا على فإننا نمنح المدعو الكونت دي ألكوديتي تفويضنا للتفاوض معكم أو مع من ينوب عنكم في ذلك، في الزمان والطريقة والشروط التي تبدو ملائمة لخدمة الله ونحن، ونلتزم بتطبيق ما اتفق عليه معكم وما يتصل بما اتفق عليه وسوف نؤكد ذلك برسالة مسلمة من يدنا ومختومة من طرفنا.

في إقامتنا ببروكسيل في دوقيه بيرفانتي
يوم فاتح أبريل ١٥٥٦

الوثيقة رقم (٣)

رسالة من ألو نصودي غوريا Alonso de Gurrea ألى الاميرة ريختتي Regente[٤]
مقتطفات

ظهر الرسالة مكتوب: مليلية-١٥٥٦-إلى سموكم من قبطان مليلية: ١٥ ابريل ١٥٥٦.
موجهة إلى: معالي السمو والقوة (السيدة) أميرة البرتغال حاكمة ممالك قشتالة، سيدتي،

معالي السمو والقوة سيدتي:
... (نقط حدف)
كما أمرت سيدتي أن أحبطها علمًا بما يجري مع الشريف، بعد كتابتي إلى سموكم عنه، فالقايد "AlCaide"٥، لم يتحدث لي في هذا الشأن عن المغاربة. فالمعروف عنهم الكذب والدردشة، كما هو حالهم، والحديث معهم غير مجد فهم منقسمون على بعضهم.
فعن ملك[٦] الجزائر لا أعرف منه أنه أكثر من أنه لازال في الجزائر والمغاربة أخبروني أن ابن بر روسا[٧] قد طرده من الحكم وأن هذا الأخير ليس محاربًا وفي هذا الشأن فرح المغاربة لذلك.

من مليلية في ١٥ أبريل ١٥٥٦
من سموكم
الإمضاء: الدون الونصو دي غوريا

الوثيقة رقم (٤)

توجيهات من الكونت الكودوتي الى الدون مارتن دي قرطبة[٨]

ظهر الوثيقة مكتوب: التوجيهات.
بين أمور أخرى نريد الاقناع بإرسال اناس آخرين بأمر واعتمادًا على ماجيئ به من رسائل التي أحضرها نونيز نقول[٩]:
أنه نظرًا لكون المغاربة متقلبي الرأي من أي سوء أو خطر في الحرب وأنه ما من شأن صغيرة أو كبيرة تحدث بسبب انتصار الأتراك[١٠]، سوف تؤثر علينا وعلى مناطق تواجدنا، والتي سوف تتطلب النجدة، وهكذا فإنه من الممكن إقناع حاكم الجزائر بالمجئ بتنازلات أكثر بإقناع من الشيوخ والصالحين[١١]، من هذا الطرف أو ذلك التركي أو المغربي فالاتراك هم أصحاب الحظ الوفير والأكبر لتحقيق الالحاق الضرر، وهكذا فعلى جلالة الملك الاستفادة ما أمكن مما هو مطروح من لدن الجزائر والتعامل معه بأقصى حد من الحيطة.
فنرجو سموكم إيفاد رسول كما طلبت ذلك سلفًا في كتابات أخرى، فهناك اناس في كلا الطرفين يرغبون تحقيق أمور لا يرغب فيها جلالة الملك ولا السلطان، والحل هو دعم السلطان وجيشه ضد الأتراك والتفاوض في ذلك، فهو يريد تجهيز (١٢) ألفًا وهو نصف الجيش فقط الذي وجه لحماية الساحل والمحافظة على الاتفاق من أجل جدبهم إلى هناك، فالحقيقة أن السلطان سيرقص على ما نعزفه من ألحان.

وهران في ١٩ من أبريل ١٥٥٦، إمضاء الكونت

الوثيقة رقم (٥)

مكتوب خلف الوثيقة: ١٥٧٧ نقل لسالة كتبها فراي لويس دي ساندوفال Fray Luis De Sandaval إلى السلطان عبد الملك.[١٢]
حول المعاملة الجيدة والمتبادلة للسجناء والاسرى من الطرفين لدى إسبانيا والمغرب.. والوضع اتجاه الأتراك،

سموكم وعال مقامكم الملك وسيد البربر.
ليكن الله في عون سموكم والجميع، فالرسالة التي كتبها سموكم لنا جوابًا على تلك التي أرسلناها لكم توصلنا بها بفرح وأرسلناها إلى الملك الدون فيليب، وترجمة لها إلى ملك البرتغال وشرحنا فيها الأعمال الجيدة التي قدمتموها للمسيحين، جزاكم الله عليها.
فتعاملكم مع سجنائنا واسرنا بالحسنى، واشارتهم لنا بذلك، فنحن مجبرون على الفصل نفسه اتجاههم والله يجازينا على ذلك خير الجزاء، ونتعاون على خير الأعمال.
فما يقول سموكم عن مسألة إرسال الأسرى إلى "القسطنطينية"، فنحن نطالب بالاطمئنان واليقين بعدم إرسال أحد إلى هناك، فالأحسن استخدامهم للعمل لديكم للاستفادة منهم، فهم خدام اوفياء مع حسن معاملتكم لهم، ونظرًا لسحائكم وكرمكم فإنهم يعيشون أملاً في الحرية والعفو، وحلول السلام بين المملكتين والخدمة بوفاء لهما.
وصلنا كذلك من مخبرين أنكم تقومون بإخبار الأطفال على اعتناق الاسلام بالقوة واستخدامهم في تصوركم، فهناك مَنْ يقول إنهم فصلوا عن أمهاتهم بالقوة، فتألمت الأمهات كثيرًا لذلك، فكما يلاحظ سموكم أننا لا نقوم بإجبار أسركم على اعتناق المسيحية بالقوة، إلا بإرادتهم الخاصة والحرة، وإذا كانوا متزوجين فإنهم يستفيدون من أزواجهم وأبناءهم بحرية.
فيما قال سموكم بإرسال باخرة إلى إسبانيا وأخرى إلى إيطاليا لاسترجاع أسرى لكن مع عدم التوفر على تفاهم مسبق فإنه تتعذر ذلك دون التفاوض والتنسيق مع جلالة الملك والمستشار.
فأمر السلم متعلق بعلاقة جلالتكم مع المسيحين في مسألة الأسرى وخاصةً إذا واجه الاتراك التزاماتنا، فكما يدرك سموكم الأهداف الحقيقية للأتراك فانه يحلم أنه ليس هناك أمن على الحياة أو الدولة حيث يضع الأتراك أقدامه، نبقى هنا على أمل أن تبقى الأمور مفتوحة بينهما كما هو الحال في السنوات التي خلت فمع الأتراك لا أمان على الحياة أو الدولة، وسموكم يعلم حادثة قتل الأتراك والدكم ومن أجل مصلحة سموكم التخلي عن كل ما يربط من مصلحة مع الأتراك وما إليهم، والتحالف مع الملك الدون فيليب الذي له اليد والقوة لاقتحام كل شيء وخاصةً بواسطة مساعدتكم وتعاونكم مع المسيحين يظهر أن سموكم يفوض موانئ بلادكم لنا حتى لا يستفيد منها الاتراك، لأن هناك يعج دائمًا بالأتراك الذين يرغبون في الحصول على كل شيء، لأن ليس لهم وسيلة للمجيء إلى بلادكم إلا البحر، ونحن نرسل من هناك الجنود إلى وهران لمقاومتهم والاستفادة منهم كذلك، كل ذلك لكي نحمي حياتكم وملككم منهم ونأمن جانبهم ونحصل في الجزائر والبلاد المجاورة لها سواحل نتاجر فيها كما كان الحال خلال ملك من قبلكم[١٣]، ورغم كبير الأذى الذي لحق المغاربة من الاتراك، فهؤلاء أخذون نساءهم وأطفالهم بالقوة، وسوء المعاملة اتجاه المغاربة، ونحن هنا بنية وكبير الإرادة نفاوض للاستفادة من هذه الأمور التي تخصني، الدرجة الأولى والتي فيها مصلحة ورضى الرب، وتمكنني من خدمة الرب وسموكم، وهو أهم شيء بالنسبة لي، ومعهم الدون فيليب سيدي، من أجل سلم الكل.

من فرانسيسكو دي اشبيلية، في ١٠ أبريل ١٥٧٧.
هنا اخترت أسيرين وهما خوان دي لالوكا ورود ريغو غارسيا، لدى سموكم الذي من أجلهما أطلب وأرجو أن تحسنوا إليهما وتوصلوا الصدقات التي نجمعها ونرسلها إليكم لتصل إلى الأسرى والسجناء لديكم، ونرجو من سموكم معالجة كل هذا.

الوثيقة رقم (٦)

رأي مجلس ملك إسبانيا[١٤]

على ظهر الوثيقة مكتوب بخط اليد ١١ ابريل ١٥٧٧، رفقته، كيف ارسل جلالته دوق "البا المركيز دي لوس فيليز وفرانسيسكودي إيبارا" من لدن انطونيو بيريز (كاتب الملك فيليب الثاني)، وكذلك رسائل المولى عبد الملك التي كتبها لجلالتكم ورفقته ماله علاقة بفرانسيسكو دي "إيبارا (Ybarra) والذي أورده القبطان كابريط الذي أرسل الى جلالتكم عن طرح اتفاقية السلم من لدن مولاي عبد الملك على أنها مناسبة، فحسب تقدير فرانسيسكو دي ايبرا Ybarra، أن هذا كثير على عدو، رغم كونه كذلك لا يعمد إلى الاستعانة بالسلاح التركي وإحضارهم، وبهذا يمكننا القول بأن له نية طرد الاتراك من أرضه وبقيت فصول الاتفاقية معه كما هي ملائمة.

على الهامش مكتوب بخط اليد الكاتب ماتيو فاسكيز Mateo Vaisquez، وكذلك بخط اليد الملك فيليب الثاني:
كعندما سيحل وقت تطبيق وتنفيذ هذا السلم فإن يجب فهم أن اشراك ملك البرتغال مهم، ونراسل هذا الأخير لمعرفة رأيه وارادته في هذا الأمر، حتى نرجع كابريط إلى المولى عبد الملك وسماع رأيه في ذلك مباشرة والشروط التي يطرحها في سبيل تطبيق هذا السلم والتفاوض على الحل الانسب، مع التركيز على إبعاد الأتراك عن أي اتفاق ومن على أ"رض المملكتين وإذا أراد مساعدتنا على دخول الجزائر فلا بأس.
فمن الصائب استدعاء زونييغا Zuniga الذي يوجد في سبتة، فهذه المرحلة من القضية لاتسمح بتفاوض زونييغا على أي شئ.
بعد أيام كان دوق "ألبا" من دعا بأن يسافر "كابريط" برسالة من الملك فيليب الثاني الى المولى عبد الملك لاقتراح المساعدة الاسبانية عليه ضد الأتراك، أو المغاربة الاخرين الخاجين عن طاعته، وذلك بتقديم الدخيرة والعتاد (الأسلحة) وبواخر حربية، فالوثيقة تقول إن الموانئ هي أصعب الأماكن للدفاع عنها وأن على السلطان تسليمها للملك فيليب. وإيصال خبر أن ملك البرتغال سوف يدخل ضمن هذا السل.

الوثيقة رقم (٧)

رسالة من فيليب الثاني إلى المولى عبد الملك[١٥]

ظهر الرسالة بخط اليد: لقد حان وقت الذهاب بالنسبة للقبطان كابريط.
إلى مولاي عبد الملك،
الدون فيليب...،

المحترم والاشرف بين المغاربة، مولاي عبد الملك، ملك فاس والمغرب سلام متمنياتنا بالازدهار.
من أجل رسائلكم في ١٠ يناير والـ ٠٥ من فبراير الماضيين وما جاء في رسائلكم الاخرى المختومة باسمكم التي أحضرها القبطان كابريط، وما حمله من خطاب شفهي منكم تدبير عن إيمانكم، تلقينا بإرادة جيدة وأمل في تحقيق سلم وصداقة معنا. وقد أكدنا على المدعو القبطان بالعمل على تحقيق هذا السلام، ونحن نفوضه بذلك بكامل الثقة والشرعية، ونفسه ما ننتظره من جانبكم، دمتم شرفاء وعالي القيمة بين المغاربة، وليحفظكم الله دائمًا وأبدًا.

الوثيقة رقم (٨)

على ظهر الوثيقة مكتوب عبارة:
"له علاقة بما جاء في رسالة عبد الملك والشريف وقائد البنيون" ما تحتويه رسائل "البربر".[١٦]

كان القبطان كابريطا بين من عند الملك[١٧] فأمر من طرف جلالته للذهاب إلى المغرب حيث يوجد الشريف عبد الملك، الذي بعث برسائل في ١٠ من يناير و٥ من فبراير من هذه السنة، والتي يطلب فيها السلام من الملك فيليب الثاني وحسن الجوار كالذي أبرمه مع فرنسا وانجلترا والذي دخله أيضًا ملك البرتغال، فجواب جلالته جاءت بشرط إلا يتعارض ذلك مع قوانين بلاده إسبانيا، وأن يحضى جلالته بنفس التحالف الذي حضي به الأتراك، وأن هذا الأمر سوف يناقش حتى الوصول إلى حل مرض. أن جلالته يرغب في تحقيق ذلك عندما أرسل الباب العالي بالموافقة على منح الحماية إليه وأخيه، لأن ذلك سوف يؤدي اقتطاعي مملكتين ويمكنه أن يحد من الأسري والسجى لدى الطرفين.

باطلاع جلالته على هذا الخطاب وأشخاص آخرين أرسلوا للمهام المنوطة بهم في هذا القرار. وقد جاء من المغرب فرانسيسكو دي شونيغا (Francisco de çuniga) الذي أمر باستيعاب المطلوب لكي يتكلف بمهمة رفقة مولاي عبد الملك، كرجل ورع وناسك وثقة، يوصل الرسائل منه واليه، ويصبح كاتبه الخاص ودراعه. وما مطلوب منه الآن تحقيق السلام مع جلالته ملك اسبانيا وملك البرتغال. كما سبق وفعل كأبريط بواسطة رسائله. وإخراج الأتراك من مملكته معرفة منه بالأذى الذي يسببنه لِمَنْ يتعامل مع السلطان، كالمدعو شونيغا الذي سوف نعود إلى قضيته جانبًا وبالتفصيل. والذي لاقى قبولاً واستحسانًا من لدن السلطان، من خلال الرسائل.

الوثيقة رقم (٩)

رسالة من الدون مارتن دي قرطبة إلى فيليب الثاني[١٨]
(مقتطفات)

ظهر الوثيقة مكتوب: نسخة من رسالة المركيز الدون مارتن دي قرطبة الى جلالته بتاريخ ١٠ من اكتوبر ١٥٥٧.

في علاقة مع جاء به فراي ميكيل من مدينة الجزائر وتقرير ما أمرنا به نحيط جلالتكم بما هو رئيس في التفاوض، وما أراده جلالتكم تحقيقه هناك، أكتب لجلالتكم عما توصلنا به مع (حاجي موراتو) حول نية الاتراك التدخل في المغرب، وأن ذلك ليس سرًا بالنسبة إليه. وأن تآلبه ضد السلطان جاء نتيجة منعه (أي حاجي موراتو) من الوصول الى زوجته، وهو سبب الخلاف بينهم، وأن الأتراك يحاولون توظيف ذلك الايقاع بين السلطان وحاجي موراتو، وهكذا فإن الامر قد اتخذ طريقًا آخر اذ نشر حاجي موراتو خبرًا أن الملك مولاي محمد قد تحالف مع البرتغال لطرد مولاي عبد الملك صديق الاتراك العثمانيين، وأن الملك البرتغالي مستعد للمساعدة في ذلك، وهكذا فإن تجارًا مسيحيين يشهدون على ذلك ونشر نفس الخبر في الجزائر وهذا ما لا يترك أي موطأ قدم للأتراك بالمغرب فهذا الجوار مع الاتراك مؤذ كثيرًا، ومعالجة آداه صعب جدا، فبمجرد وضع قدم الاتراك في المغرب، وأنه لم تتم مساعدة مولاي امحمد الشريف كتلك التي قدمت لعمه، فلن يصبح أي من أهل الملك سلطانا بعد ذلك.
ففي كل ما قاله فراي ميكيل، فإنه تعامل مع السلطان على أساس مدي المساعدة له ضد الاتراك وطردهم، وقد بدا لدي مجموعة من الاشارات تؤكد شكوكي.
هناك "مايسي بيدرو" وهو كاطلاني الذي أرسل إلى رسالة الملك، تحيل على أن هناك في فلانسيا عارف بأمور اسبانيا وهو أندريا غاسبار كورسو (والمعروف حقيقة بفرانسيسكو غاسبار كورسو). بما يسمع ويطلع عليه من أخبار، وهو ومدعو للحضور إلى مجلس الملك، ويعتبر ذا صلة بمتمردين وهم من يوصلون الرسائل من وإليه.

الوثيقة رقم (١٠)

رسالة لويس إبريرا إلى فيليب الثاني
سبتة في ١٣ غشت ١٥٧٨ م[١٩]

ظهر الرسالة مكتوب بخط اليد: تحدير للدون خوان أوسايتي ساعي جبل طارق: في ١٣ غشت ١٥٧٨م

بعد المعرفة الرابع من غشت صفا الجو بين ملك البرتغال والملك المغربي وكذلك أوضاع المملكتين حتى ١٢ من نفس الشهر سنة ١٥٧٨م وقد أحيط العديد كجلالة الملك بواسطة مرسال جبل طارق وفراسيسكو دوراتي من اشبيلية بالاوضاع هناك، وقد جاءت الاخبار من تطوان كذلك بواسطة فرسان وقد جاءت كذلك أخبار عن المعركة التي جرت بين الطرفين وأنه خلال خمس ساعات من القتال توفي ملوك: عبد الملك (ملوك) (Maluc) وأخيه مولاي الناصر (رجل فاضل) والملك أحمد الشريف (الضعيف الشخصية) وملك البرتغال الذي وضع في كيس وأرسل الى فاس والذي لم يشأ السلطان إعادته الى البرتغاليين.

وكان الخليفة السلطان وهو أخوه المنصور يتوفر على غنائم كثيرة وعتاد وذخيرة فقرر تحصين العرائش وإتمام تلك التي دشنت في سلا(التحصينات) وكما جاء أن رئيس الفيلق التركي قد نادى على الاتراك من الجزائر للمجئ والتدخل هناك في المغرب لأنها فرصة وفراغ لإلحاق المغرب بالجزائر وأن جلالة السلطان مهدد في ملكه بشكل كبير من لدن الاتراك.

٢/٢-العلاقات المغربية العثمانية من خلال مضامين الوثائق المدروسة

تمكننا الوثائق التي شملها الجرد والتصنيف في إطار هذه الدراسة، من تكوين فكرة واضحة عن طبيعة العلاقات المغربية العثمانية خلال فترة مهمة من القرن السادس عشر الميلادي. فالمخزن السعدي لم يدخر جهدًا في الدفاع عن حدوده واستقلال المغرب عن التدخل العثماني المتزايد فيه، ونفس الشيء حدث اتجاه المد المسيحي الاستعماري الاييري وهنا تبرز اهمية هذه الوثائق التي سردت معطيات جديدة والبداية مع رحلة القبطان "كابريط" وهو اسباني زار مراكش بمبادرة فردية استغلها التاج الاسباني لضبط التراسل مع المملكة الشريفة آنذاك. فالملك فليب الثاني كان متمسكا بفتح التواصل مع السلطان عبد الملك السعدي بهدف تحقيق السلام الذي كان عنوان اتفاقيات عديدة وقعها الملك الاسباني المذكور مع دول أخرى كفرنسا وانجلترا. والملاحظ هنا أن جعل المغرب طرفًا في خطة السلام الإسبانية لم تكن صدفة. فالملك فيليب الثاني كان على بينة من امور تهدد بلاده وعرشه والإشارة هنا الى التواجد العثماني. فاسبانيا تريد حشد أطراف إلى صفها، ولو تعلق الأمر بتحقيق هدنة وضمان عدم التحالف بين المغرب والعثمانيين ضد الملك فيليب الثاني، فنحن ننظر هنا إلى وجه متطور من الدبلوماسية الأيبيرية وانعكاساتها على العلاقة العثمانية السعدية. ودعما لهذا المسار جاءت اسبانيا لطلب فك أسر من سقطوا في يد المغاربة وعثمانيوا الجزائر، سواء كانوا بحارة أم تجار. بعد السفارة غير الرسمية التي كانت ظاهرة من ظواهر العلاقات المغربية الاسبانية والمغربية العثمانية، نورد نموذجًا آخر للعلاقات بين المغرب والعثمانيين ويتجلى في استغلال الصدقات الشخصية مع السلاطين السعديين. والنموذج هو" فرانسيسكو دي زونيغا". وقد اوردنا هذه الظاهرة للتمهيد والانطلاق نحو دراسة علاقة المغاربة مع العثمانيين من خلال الاتفاقيات الثنائية المخزنية الاسبانية، فالميل الذي كان ينهجه حكام مليلية الى عقد اتفاقيات مع قواد المنطقة المجاورة للثغر الذي سيطر عليه الاسبان بعد تسلمه إياه من البرتغال. فقائد منطقة اغمارة بالريف الشرقي، المنصور بن إبراهيم، كان قائدًا مخزنيا. وقد رغب حاكم مليلية دييغو بيريز دي ارمالطي توقيع اتفاقية هدنة مع القائد نيابة عن المخزن المركزي، وبموجبها طالب الاسبان سراح أسراهم في المغرب وتعويض من تضرر من سرقة أو نهب وغير ذلك من كلا الطرفين على أراضي إسبانيا أو المغرب. لكن الملاحظ أن هذه الاتفاقية كانت موجهة بطريقة غير مباشرة نحو تحميل المخزن المغربي مسؤولية حماية الاسبان من أي خطر يتعرضون له من لدن العثمانيين، الذين يجوبون المناطق برًا وبحرًا، سواء بموافقة المخزن أو بدونها.

فالملك فيليب كان عازمًا على ابرام صفقة تقيه من العثمانيين عن طريق توظيف علاقة مولى عبد الله الغالب بالعثمانيين. وضمان الاسبان لنشاط وانفتاح منطقة مليلية وبنيون دي فليز امام التجارة مع القبائل وكذلك الاتراك القادمين من الجزائر. لكن المثير في الامر هو الجانب العسكري من الاتفاقية المذكورة، فقد طالب الاسبان بحق تحرك جنودهم على التراب المغربي من منطقة نفوذهم بمليلية الى مناطق اخرى في غرب الجزائر برا. وهذا امر سوف يعقد علاقة المغرب بالعثمانيين، سوف يعتبر ذلك تواطئا مخزنيا مع اسبانيا. وهي العدو الاول للاتراك بالمغرب الاسلامي، فلا يمكننا النظر الى العلاقات المغربية العثمانية من زاوية ثنائية فقط، فالطرفان ليسا بمعزل عن المحيط الدولي آنذاك ويخضعان لتاثيره ويؤثران بدورهما فيه. لفهم عميق للعلاقات الدولية آنذاك كان ضروريا الاطلاع على هذا الجانب المهم من الوثائق المرتبة ضمن الارشيف الاسباني، والواردة في " مجلدات المصادر الدفينة لتاريخ المغرب ".

بعد العامل السياسي، لعب العامل الديني دورًا مهمًا وحاسمًا أحيانًا في طبيعة العلاقات المغربية مع الأتراك. ونقصد هنا الانتماء الديني المشترك مع العثمانيين من جهة، وهو ما رسم خلفية دينية لتحالف مع الأتراك وجعل المخزن السعدي يستعين بذلك لضمان التوازن في القوة ضد الإسبان والبرتغال قبلهم. فلا يمكن تجريد هذه العلاقات من إطارها العام، فالوساطة التي قادها شيوخ وعلماء وشرفاء زوايا لتلطيف العلاقة بين الطرفين

المخزن والأتراك، قادها من الجانب الإسباني القساوسة والرهبان الذين كانت لهم حظوة لدى السلاطين المغاربة، وعلى رأس رجال الدين المسيحين نذكر القسيس لويس دي ساندوفال الذي بعث برسالة إلى المولى عبد الملك باشبيلية في أبريل ١٥٧٧، وكان الهدف منها هو عدم تسليم الأسرى الإسبان المسيحيون الذين سقطوا في أسر المغاربة إلى الدولة العثمانية. فالاشاعات المتداولة آنذاك تروج أن هؤلاء سوف يجدون طريقهم إلى أسطنبول كأسرى لهم علاقة بالخلافات بين إسبانيا والبرتغال من جهة والأتراك من جهة أخرى. وهكذا أصبح المغرب ساحة لصراع بين الطرفين. فما لم تفلح الدبلوماسية السياسية في تحقيقه، أضحت الوساطة الدينية بديلاً فعالاً لدى الأطراف الثلاثة وأثار بشكل جلي على مواقف المغرب من الأتراك في اِتجاه الحيطة والحذر من الإسبان والعثمانيين. والدليل هو محاولة القسيس ساندوفال في الرسالة نفسها تحريض السلطان السعدي على الأتراك ويقترح عليه انتزاع المناطق التابعة للأتراك في المناطق المحادية لحدود المغرب شرقًا، ويقصد مدينة وهران وحتى الجزائر العاصمة. دائمًا ومن خلال هذه الوثيقة التحريض كان سياسة خفية إسبانية نهجت مع أسلاف المولى عبد الملك.

أما عن الجانب المغربي العثماني، فكانت شخصيات الدينية وسيطًا دبلوماسيًا. فضل حاجي موراتوا، حسب الوثيقة توظيف الاطماع العثمانية في المغرب، لتصفية ضغائن وحسابات له مع المولى عبد الملك الذي لم يترك له المجال لاسترجاع زوجته، فقام موراتو ببث الشائعات في فاس، عن تحالف سري بين المولى محمد وملك البرتغال لغزو المغرب، وطرد المولى عبد الملك الذي يعتبره صديقًا للأتراك. والتجار المسيحين كانوا شهودًا على ما قاله، والشيء نفسه اشيع في العاصمة الجزائر. وقد دعم حاجي موراتوا ذلك بإبراز التهديد الذي يتربص للأتراك العثمانيين. وأنه في حالة تحقق ذلك لم تبقى للأتراك ويخص بالذكر السلطان العثماني أي موطئ قدم في المغرب. لكن إذا تحالف الأتراك مع "الحاحي موراتوا" فانهم معُا سوف يتمكنون من شن حرب ضد إسبانيا والدخول إلى شبه الجزيرة الأيبيرية، وعرقلة الملاحة نحو الهند، ومن ثم سيطرة عليها ومراقبتها والاستفادة منها. ولتسهيل هذه المهمة فان المولى عبد الملك سوف يمنحهم ميناء البحر الصغير "Mar chica" لإرساء بوارجهم الحربية "أي العثمانيين". أحس الملك فيليب الثاني بخطر هذا المشروع. وهكذا عادت الأمور لتتحقق عكسيًا أي أن الإسبان أعادوا فعلاً خططهم في أي تعامل مع المولى محمد الذي يريد طرد عمه المولى عبد الملك من السلطة. وهكذا سوف يتجنبون اِحتمال تحالفه مع الأتراك. وكذلك إذا حدث وحصل العثمانيون على ميناء فقد تتهدد الممتلكات الإسبانية في المنطقة بأكملها. وتصبح الثغور الإسبانية في شمال المغرب تحت نطاق الخطر الذي يشكله قراصنة الجزائر وطرابلس الغرب.

لم يدرج الأب ميكيل (Miguel) أي إشارة عن اِحتمال تحالف المولى عبد الملك مع فيليب الثاني لطرد الأتراك العثمانيين من المغرب. أشار تقرير الى نصائح واراء موجهة للملك فيليب في شأن ضرورة التقارب بين الإسبان[٢٠] والمغاربة لطرد الأتراك.

فالتعامل المقترح يشترط إدخال البرتغال في أي اتفاق محتمل آنذاك لدعم الخطة الهجومية ضد الأتراك. فلماذا اقتحام لمغرب في هذه الخطة؟ الجواب يميل إلى توظيف أراضيه كساحة معركة عوض نقد صراع إلى مناطق نفوذ الإسبان في شمال أفريقيا.

وظف الإسبان شبكة مهمة وقوية من الجواسيس لرصد التطور في الأوضاع في شمال أفريقيا فهناك جواسيس للملك فيليب يعتمدون على قرصنة ومهربين في التراسل مع المغرب. وخص بالذكر "أندريا غسبارو كورسا" "Andrea gasparo corsa" الذي كان مصدر أخبار بالنسبة للملك فيليب عن العلاقة بين المغرب والأتراك بالجزائر.

كان اللواء التركي في الجيش المخزني السعدي عاملاً متحكمًا في العلاقات المغربية العثمانية س بطريقة غير مباشرة. حاول قائد اللواء التركي في الجيش المخزني السعدي، كان هناك فيلق من الاتراك يعملون كجنود في الجيش السلطاني السعدي، استغلال الموقف، وارسال خطاب لوالي الجزائر التركي، للتدخل في المغرب قصد غزوه، وهو بذلك يتأمر مع العثمانيين ابناء جلدته ضد المغاربة، فبعث بباخرتين تركيتين كانتا رسيتين في واد مرتيل للقيام بهذه المهمة. وقد شكل ذلك تهديدا لملك السلطان الفتي "المولى أحمد" الذي وصفه قائد اللواء التركي المذكور لضعف، وعدم القدرة على المحافظة على السلطة، ولا أحد يحل مكانه. كما يخبرنا من خلال الوثيقة كذلك، أن الأتراك العثمانيين يمكنهم المجيء إلى المغرب دون سلاح، فهذه الأخيرة متوفرة هنا بشكل كاف.

خَاتِمَةٌ

يمكن النظر إلى الوثائق المدروسة على أنها تسيطر وتفسير لمرحلة مهمة من تاريخ المغرب السعدي، ويتعلق الأمر بفترة أواسط القرن السادس عشر الميلادي. وقد تميزت الفترة من خلال هذه الوثائق بصراع كبير ثلاثي، من جانب هناك الأوربيون بزعامة اسبانية والبرتغال، وأخر يمثله الاتراك العثمانيون المستقرون في الجزائر والذين يرغبون في توسيع سيطرتهم على المغرب وشبه الجزيرة الأيبيرية، وثالث وهو المغرب السعدي الذي يجاهد الحفاظ على استقلاله، ودفع التدخل الأوربي في شماله وعلى طول سواحله (الثغور) والتدخل التركي من الشرق.

من خلال الوثائق يمكننا القول؛ أن المغرب كان ساحة الصراع بين العثمانيين والأسبان، وقد سخرت في هذا الصراع جميع الوسائل، بما فيها الدبلوماسية والسياسية والدينية والعسكرية حيث كان الوسطاء من الشيوخ ورجال الدين وسيلة أراد من خلالها الملك الإسبان والسلطان السعدي تحقيق مكتسبات تحت غطاء الأخوة الدينية وتوظيف عامل الجوار في ذلك، الشيء نفسه وظفه العثمانيون في علاقاتهم مع المغرب السعدي، ومن جانب آخر عمل الجواسيس وأعضاء الإرساليات الدينية، بشكل منفردة، لاستقصاء أخبار المغرب وإرسال تقارير إلى إسبانيا والبرتغال، وبلغت درجة الاعتماد على الأشخاص مكانة كبيرة لدى الملك فيليب الثاني، حيث أرسل فرانيسكو دي زونيغا كمرسول وموظف سوف يعمل لدى السلطان السعدي آنذاك، ويعمل بجد وجهد لكسب ثقة، التي سوف توظف لصالح الإسبان، بواسطة الاطلاع على حركات وسكنات السلطان ومعه المغرب.

لجأ الإسبان والأتراك إلى إرسال مفاوضين إلى المغرب السعدي، لمناقشة شروط الاتفاقيات وإمضاءها أو توقيعها نيابة عن ملوكهم، وعبرت المرسلات في الوثائق عن بعض حيثيات هذه الاتفاقيات (الخاصة بمنطقة فيلز الغمارية). وقد وردت أكثر من وثيقة في الموضوع.

الملاحق

جدول رقم (١)

جرد وتصنيف الوثائق المأخوذة من المصادر الدفينة لتاريخ المغرب "الجزء الخاص بالفترة السعدية - أرشيفات ومكتبات ووثائق إسبانيا"

الجرد				التصنيف	
رقم الوثيقة	ترقيمها في المرجع	صفحاتها على المرجع	المجلد Tome	حسب النوع	حسب الموضوع
١	LXXXV	٢٦٠-٢٦٢	II	رسالة من الكونت دي الكاوديتي إلى الأمير بختني(مقتطفات) في وهران ٢٣ يونيو ١٥٥٥	**سياسي - ديني**
٢	C	٣١٦-٣١٨	II	تفويض اعطى للكونت دي الكوديتي للتفاوض والتعامل مع الشريف المقصود (السلطان السعدي) في فاتح ابريل (١٥٦٦) - بروكسيل	**سياسي - دبلوماسي**
٣	CI	٣١٩-٣٢٠	II	رسالة من الونصو دي غير يا إلى الأميرة ريختني (مقتطفات في امليلية ١٥ ابريل (١٥٥٦	**سياسي**
٤	CII	٣٢١-٣٢٣	II	رسالة موجهة من كونت دي الكودوتي إلى الدون مارتن دي قرطبة وهران ١٩ أبريل ١٥٥٦	**سياسي – دبلوماسي**
٥	LXVIII	٢٨٦-٢٩١	III	رسالة موجهة من الأب (القسيس لويس دي ساندوفال إلى مولاي عبد الملك) في اشبيلية بتاريخ ١٠ أبريل ١٥٧٧	**سياسي ديني (حول الوساطة الدينية العلاقة بين المغرب السعدي وإسبانيا**
٦	LXIX	٢٩٢-٢٩٥	III	مقتطف من تقرير يلخص رأي ونصيحة موجهة لملك فليب II في ١١ أبريل ١٥٧٧	**سياسو التقرب المغربي الإسباني لطرد الأتراك العثمانيين**
٧	LXX	٢٩٦-٢٩٧	III	رسالة من الملك فليب II إلى المولى عبد الملك (١١ أبريل ١٥٧٧)	**سياسي (تقبل الملك فليب II لرغبة السلطان مولاي عبد الملك إعلان الهدنة والسلام بين المغرب وإسبانيا)**
٨	LXXV	٣١٥-٣١٧	III	تقرير حول أخبار المغرب	**وثيقة ذات طابع سياسي**
٩	LXXX	335-332	III	رسالة من الدون مارتن دوق قرطبة إلى الملك فيليب II (مقتطفات من الرسالة)	**سياسي**
١٠	**CXIV**	**٤٥٣-٤٥٦**	**III**	**رسالة من لويس دي ايريرا إلى الملك فيليب II سبتة ١٣ غشت ١٥٧٨**	**سياسي**

الهَوامِشُ:

(1) les Sources inédites de l'histoire du Maroc, par Robert Ricard et Chantal de la véronne (Paris-1956)-(Tome III) première série –Dynastie Saadienne. Collection de lettres, documents et memoires, Espagne/Archives, documents, et bibliothèque d'Espagne.pp.315-317.
(2) les Sources inédites de l'histoire du Maroc, par Robert Ricard et Chantal de la véronne (Paris-1956)-(Tome II) première série –Dynastie Saadienne. Collection de lettres, documents et memoires, Espagne/Archives, documents, et bibliothèque d'Espagne.pp.260-262.
(3) Ibid.pp.316-318.
(4) Ibid.pp.319-320.
(٥) المقصود به المدعو "على أغراس".
(٦) والمقصود بالملك هنا باشا الجزائر "صلاح ريس موروت" باشا الجزائر.
(٧) المقصود به "الحسن بن خير الدين" العثماني.
(8) Ibid.pp.321-323.
(٩) رغم كون مصدر هذه الأوامر مجهولاً من خلال الوثيقة، فإن هناك إشارة ضمن الاحالة المرفقة تفيد أنه ليس إلا الدون مارتن دي قرطبة ابن الكونت دي الكوديت.
(١٠) الحديث هنا عن سيطرة الأتراك على منطقة La bougie يوم ٢٨ شتنبر ١٥٥٥.
(١١) أرسل الأتراك من جانبهم الإمام الخروبي إلى السلطان السعدي سنة ١٥٥٢، سنوات بعد ذلك تبادل السلطان العثماني سليمان سفارة أخرى.
(12) les Sources inédites de l'histoire du Maroc, par Robert Ricard et Chantal de la véronne (Paris-1956)-(Tome III) première série –Dynastie Saadienne.Collection de lettres, documents et memoires,Espagne/Archives, documents, et bibliothèque d'Espagne.pp.286-291.
(١٣) شارك الأب سان دوفال في مفاوضات سابقة كان طرفاها من جهة إسبانيا ومولاي محمد الشيخ، ثم مولاي عبد الله بعد من جهة أخرى (انظر: السلسلة ١-إسبانيا، المجلد الثاني-ص٢١٤ والرقم ١).
(14) les Sources inédites de l'histoire du Maroc, par Robert Ricard et Chantal de la véronne (Paris-1956)-(Tome III) première série –Dynastie Saadienne.Collection de lettres, documents et memoires, Espagne/Archives, documents, et bibliothèque d'Espagne. pp.292-295.
(15) Ibid.pp.296-297.
(16) والمقصود بها غير العجم أو النصارى في شمال أفريقيا "المغرب مثلا".
(17) Ibid.pp.315-317.
(18) Ibid.pp.332-335.
(19) Ibid.pp.453-456.
(٢٠) كان الملك الإسباني يقدر أهمية الجبهة المغربية والفوائد التي تعود على بلاده متى ضمن حياد المغرب وبالأحرى لانضمامه لإسبانيا.
كريم، عبد الكريم، **المغرب في عهد الدولة السعدية: دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية والمختلف المظاهر الحضارية**: بمناسبة الذكرى الأربعمائة لمعركة وادي المخازن (الإثنين ٣٠ جمادى الأولى ٩٨٦ هـ/٤ غشت ١٥٧٨ م /، شركة الطبع والنشر، ١٩٧٨.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

مقالات

ظاهرة الهجرة في تاريخ المغرب المعاصر
الهجرة المغربية نحو فرنسا ما بين ١٩١٢-١٩٦٠ نموذجًا

صهيب الحجلي
مدير فضاء الذاكرة التاريخية -وزان
باحث دكتوراه -جامعة الحسن الثاني
الدار البيضاء – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

يطمح البحث الذي بين أيدينا، إلى مقاربة موضوع الهجرة المغربية صوب فرنسا ما بين ١٩١٢–١٩٦٠ مقاربة تاريخية تسعى إلى معالجة ظاهرة الهجرة المغربية باعتبارها لبنة من الاساس التاريخي الذي بني عليه المغرب الحالي. فإذا كان منطق المؤرخ يؤمن بأن التاريخ هو فهم للماضي واستشراف للمستقبل، فإن ماضي المغرب المرتبط بالهجرة يمكن أن نفهم من خلاله الحال الذي يعيشه المغرب الآن كما يمكن أن نتنبأ بمستقبله كذلك. ولمناقشة هذه الظاهرة سعينا إلى اعتماد مناهج متنوعة، كالتاريخ المقارن وذلك لما له من أهمية في كشف وصبر التباينات والتباعدات التي تظهر بشكل واضح من خلال العنصر المقارِن والعنصر المقارَن به، مما يتيح لنا الفرصة لاستكشاف الأحداث التاريخية وتأويلها أيضا، وتماشيا مع موضوع مقالنا، سعينا إلى عقد مقارنة بين المهاجرين المغاربة القيمين بفرنسا بنظرائهم من الدول الأخرى، سواء الدول المغاربية أو الدول الأجنبية المقيمة كذلك بنفس البلد، متأكدين من أنه بدون تاريخ مقارن من المستحيل الحصول على استنتاجات سوسيولوجية عامة من الأحداث المنفردة" كما أنه لا قيمة لعمل كهذا إلا إذا استند إلى المنهاج المقارن. وإلى جانب المنهاج المقارن في التاريخ، تم الاعتماد كذلك على التاريخ الكمي، إذ من خلاله سعينا إلى إيضاح مجموعة من النقاط المرتبطة بموضوع مقالنا، فتم استخدام قواعد البيانات والإحصائيات إذ بالاعتماد عليها تمكنا من تصنيف المادة التاريخية وتنسيقها وتحليلها، فأغلب المصادر التي اعتمدنا عليها اعتمدت بشكل كبير على الأرقام المتمثلة في الإحصائيات القدمة، هذه الاخيرة تم تحويلها إلى مبيانات وإلى جداول تسهل على القارئ والمطلع عملية الفهم والاستيعاب.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٢١	أكتوبر	٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر:	٠٧	ينـايـر	٢٠١٦

كلمات مفتاحية:
المتربول الأم، اليهود المغاربة، الهجرة المغربية، تاريخ المغرب المعاصر، الجاليات الأجنبية في فرنسا

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0051262

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
صهيب الحجلي. "ظاهرة الهجرة في تاريخ المغرب المعاصر: الهجرة المغربية نحو فرنسا ما بين ١٩١٢-١٩٦٠ نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد التاسع والثلاثين؛ مارس ٢٠١٨. ص١٣٥ – ١٤٢.

مُقدِّمَة

انتقل موضوع الهجرة الدولية، بما ينطوي عليه من شبكة معقدة من الانعكاسات الديمغرافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، إلى صدارة الاهتمامات الوطنية والدولية عملت معه جل الأطراف المعنية على التكثيف من تنفيذ سياسات واستراتيجيات للتأثير على مستويات الهجرة الدولية وأنماطها، فأدت بذلك المناقشات المتعلقة بقضايا مثل البطالة، وتحويلات العمال، انخفاض الخصوبة، وشيخوخة السكان، وهجرة الأدمغة والعقول، والإدماج الاجتماعي، وكراهية الأجانب، إلى استئثار الموضوع باهتمام متزايد من طرف الباحثين الأكاديميين المغاربة والأجانب المنتمين لحقول معرفية متعددة كعلم الاجتماع والجغرافيا والاقتصاد والأنثروبولوجيا والقانون وما إلى ذلك.

وضمن قضية الهجرة الدولية وحسب البيبليوغرافيا المتوفرة، فإن الهجرة المغربية نحو فرنسا شكلت أحد أبرز القضايا التي أسالت مداد العديدين، استرعت انتباه مجموعة من الباحثين والمنظمات المهتمة، لتظفر بنصيب الأسد من الدراسات اعتبارا

لأسبقيتها وكلاسيكياتها وكذا اعتمادًا على أرقامها وتعدادها الكمي مقارنة بباقي البلدان المستضيفة كإيطاليا أو اسبانيا مثلاً. هذا، وإيمانًا منا بالخلل الحاصل على مستوى الأدبيات التاريخية من حيث التعامل مع الظاهرة بشكل خاص، فسيطمح مقالنا الذي اخترنا له كعنوان "ظاهرة الهجرة في تاريخ المغرب المعاصر: الهجرة المغربية نحو فرنسا ما بين ١٩١٢-١٩٦٠ نموذجًا"، مقاربة الموضوع مقاربة تاريخية سنسعى من خلالها على وضع الظاهرة في إطارها التاريخي من خلال المراحل المختلفة التي تزامنت مع الترابطات الهيكلية بين المغرب وفرنسا، ومن تم العمل على تحليل أهم الأسباب التي أدت إلى تواصل زخم هذا النمط من الهجرة منطلقا من جملة من الاستفسارات والتساؤلات من قبيل: ما هي الأصول التاريخية لظاهرة الهجرة العمالية في فرنسا؟ ما هي الأصول الجغرافية للمهاجرين المغاربة نحو فرنسا؟ ما هي أهم خصائصهم المهنية؟ وما هو الثابت والمتغير في ظاهرة الهجرة المغربية عقب احراز المغرب على استقلاله سنة ١٩٥٦؟

١-البدايات الأولى لعملية الهجرة في المغرب

ترتبط البدايات الأولى لعملية الهجرة في المغرب ارتباطا وثيقا بنسق العلاقات الاستعمارية التي توطدت بين الدول الكلونيالية ومستعمراتها في الخارج، ما يجعلها تنتمي إلى نموذج الهجرة الاستعماري (Le Modèle Migratoire Colonial)،[١] ويعني استعمال هذا المفهوم أن الخصائص الرئيسية لهذه الهجرة والاليات التي تخضع إليها هي فريدة من نوعها ولا مثيل لها، كما أن المجال الذي تنتمي إليه هو مجال متجانس يستمد تجانسه من الهيمنة الاستعمارية، فميلاد وتطور هاته الهجرة ليس إلا أحد أثار الاستغلال الاستعماري الذي عكس التحولات التي طرأت على بنى الاقتصاد الرأسمالي، ومما لا شك فيه أن أحد الشروط الأساسية اللازمة لبدء عملية الانتاج تقتضي وجود قوة عمل محررة من أية علاقة إنتاج سابقة على الرأسمالية يمكن أن تغني قوة العمل عن الاضطرار لبيع هذه القوة نظير أجر،[٢] ولقد تم ذلك تاريخيا بتحطيم البنى الاجتماعية الكائنة وتغيير أنماط الانتاج و بنى التبادلات الاقتصادية الداخلية والخارجية باتخاذ إحدى الوسيلتين: الاستعمار العسكري المباشر (الجزائر) أو الية الاستعمار المقنع (الحماية بالنسبة للمغرب وتونس).

وعلى الرغم من أن مسؤولية الاستعمار عن الهجرة المغربية قد أصبحت من البديهيات، فلا بأس بالذكر، على أن أغلب الكتابات السابقة انطلقت جميع تحاليلها المتعلقة بظاهرة النزوح الريفي والهجرات الداخلية والخارجية من نظرة إيديولوجية تبرر النظام الاستعماري بشكل مباشر أو غير مباشر بالتركيز على الأسباب الديمغرافية والبطالة، أي بترديد المقولة التي مفادها أن الدول المتخلفة توفر يدا عاملة للدول المتقدمة، وكمثال على هذه التحليلات الديمغرافية نسوق ما عبر عنه Robert Montagne و L. Chevalier على أن سكان شمال افريقيا تعودوا على الهجرة بحثا عن العمل والموارد، وفرارا من المناطق حيث تكون الكثافة السكانية جد مرتفعة، لكن لو كان هناك فائض فعلي في السكان، فكيف نفسر إذن الواقع العام الخاص بسكان المدن الذين كانت تشكل نسبتهم فقط ٥% من العدد الاجمالي للسكان؟[٣] وإذا كانت المناطق المغربية تفتقر للموارد الطبيعية لا توفر الحاجيات الأساسية للسكان، وبما أن الهجرة إلى فرنسا ما هي إلا امتداد طبيعي للهجرات العادية بحثا عن الماء والكلأ، فلماذا تدخلت فرنسا عسكريا لتفويضها للمعمرين الأوربيين؟

هكذا، لا بد إذن من الرجوع إلى السياسة الاستعمارية لدراسة تطور الهجرة المغربية، لكن قبل الخوض في ذلك يجب أن نطرح سؤالاً جوهريًا فيما تمظهر زمنيًا الفوج الأول من المهاجرين المغاربة؟

ما يعرف عن فرنسا أنها غدت أواخر القرن التاسع عشر بلدا تقليديا في استقبال الهجرات الشمال-إفريقية،[٤] لكن مع ذلك لم يكن للعمال المغاربة أي تواجد يذكر قبل عشريات القرن العشرين، وقد كان هذا نتاجا لمعطى أن اليد العاملة المغربية كانت تحت تصرف الرأسمال الفرنسي في مستعمرات ما وراء البحار وكانت جدواها تكمن في بقائها في بلدانها الأصلية، ما يعني أن الهجرة المغربية صوب فرنسا قبيل سنة ١٩١٢ كانت ذات معطى "جواري" Voisinage،[٥] هذا النمط من الهجرات لم يكن وليد مصادفة عفوية ولم ينطلق من فراغ، وإنما كان امتدادا لتيارات هجروية داخلية عرفها المجتمع المغربي قبل نظام الحماية بعقود منها ما كان قد اعتاد عليه سكان منطقة الريف من هجرات متتالية وموسمية إلى المناطق الغربية للجزائر بقصد المساهمة في الأشغال الفلاحية الفصلية من حصاد وجني للعنب في الضيعات الشاسعة التي كان المستعمرون الفرنسيون قيد استغلالها فكانت تقديرات هؤلاء الموسميين تتراوح سنويا أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ما بين ١٥٠٠٠ و٢٠٠٠٠ مهاجر.[٦]

كما لعبت الظروف الطبيعية التي شهدها المغرب في سنوات ١٨٧٨، ١٨٨٧، ١٩٢٥، ١٩٣٠، ١٩٣٤، ١٩٤٠ دورًا أساسيًا في تيار الهجرة المجاورة، فقد عرف المغرب خلال هذه السنوات قلة التساقطات المطرية نتج عنه توالي سنوات الجفاف وانتشار المجاعة قذفت بأفواج هائلة من المهاجرين الريفيين نحو الجزائر الفرنسية، فسجل في وهران وحدها ما يناهز ٥٠٠٠ مغربي كانوا ذي مشاركة سنوية في مزارعها وضيعاتها[٧] غير أن هذه الهجرة المجاورة التي كانت وقائعها تتفاعل ضمن دائرة المد والجزر بين مجتمعات متقاربة تخضع في بنيتها لعوامل طبيعية وجغرافية، سرعان ما عرفت تقلبات جذرية منذ العقد الأول من القرن العشرين جراء عوامل أجنبية زعزعت بشدة معطيات وخصوصيات الهجرة المجاورة، ذلك أن المد الاستعماري الكاسح وما فرضه من حماية فرنسية واسبانية كان من تبعاته أن توافدت أفواج مهمة من المعمرين مباشرة بعد الغزو العسكري حتى أن عددهم ارتفع من ٥١,٥٥٠ معمر سنة ١٩٢١ إلى

٣٦٠,٠٠٠ عام ١٩٥٢[٨] أقدمت سلطات الحماية على إثره على تكوين رصيد هائل من الأراضي الخصبة خلقت معطى جديد سمي بأراضي الاستعمار Terres de Colonisation فأصبحت الهجرة المجاورة بهذه المعطيات تخضع أساسًا لاعتبارات سياسية وعسكرية كانت تقتضيها سياسة الحماية.

٢-الموجات الأولى للهجرة المباشرة نحو فرنسا "المتربول الأم"

كانت هذه إذن، المميزات الأولى الهجرة المغربية ذات الصلة بفرنسا، أما عن الموجات الأولى للهجرة المباشرة نحو فرنسا "المتربول الأم" كانت قبيل فترة الحرب العالمية الأولى حيث تم استغلال عمالة دول شمال افريقيا للعمل في المصانع والمناجم، وقبل أن تنتظم حركة الهجرة من المغرب إلى فرنسا، يشير المؤلف (Joany Ray) في مؤلفه (Les Marocains en France) إلى أنه حوالي سنة ١٩٠٩ –أي قبل فرض الحماية- كان هناك عدد يناهز المئة من عمال منطقة سوس في مصنع لصهر المعادن بمدينة نانت (Nantes)[٩] ويبقى هذا العدد استثنائيًا وقياسًا محدودًا للمهاجرين المغاربة مقارنة بالسنوات التي تلت سنة الحماية. فقد كان من أهم الانشغالات السياسية والعسكرية لسلطات الحماية في هذه الفترة المحافظة على أراضي الاستعمار وحشد إمكانيات بشرية ومادية للنهوض باقتصادياتها ودعم فيالقها العسكرية، فأخذت وزارة الحرب على عاتقها مهمة استخدام أفواج اليد العاملة المغربية في الاقتصاد الفرنسي بإنشاء مصلحة تنظيم عمال المستعمرات[١٠] (Service de l'Organisation des Travailleurs Cloniaux) التي باتت تمارس رقابة مباشرة وغير مباشرة على حركة الهجرة.

جدول رقم (١)

أعداد المهاجرين المغاربة خلال الحرب العالمية الأولى[١١]

المشاركون في الحرب	٤٠٣٩٨
العمال	٣٥٥٠٠
(القتلى والأسرى)	٩٠٠٠
المجموع	٧٥٨٩٨

شكلت طبقة المهاجرين المغاربة انطلاقًا من معطيات الجدول جالية مهمة وضخمة ضمن الجاليات الأجنبية بفرنسا، إلا أن هناك تضاربًا للآراء فحين نجد العربي طلحة قد عد قوام المهاجرين المغاربة في ٨٤٨٩٨ فرد، كان تعداد المهاجرين حسب تقرير المؤلف (Pierre Devillars) ما بين ١٥٠٠٠ و٢٠٠٠٠ فرد،[١٢] لكن هذا التضارب في الآراء والغموض في المعطيات الرقمية اختلاف يسهل تفهمه، طالما هي إحصاءات تقريبية فقط، وطالما كان من الصعب التمييز بين جنسيات المهاجرين المغاربين آنذاك. لكن يبقى القاسم المشترك بين هذه الطروحات أنه غداة انتهاء الحرب هُجر معظم الشغيلة الأجنبية إلى أوطانهم ومن ضمنها الشغيلة المغربية لطبيعة عقود العمل المؤقتة(CTT) Le Contrat de Travail Temporaire كما تتقاطع فيما بينها على أن الهجرة المغربية إلى فرنسا لم تنطلق إلا قسرا أثناء الحرب العالمية الأولى وذلك نتيجة الحاجة الملحة التي فرضتها ظروف التعبئة العامة، وبالتالي قد لا يكون من الصواب الحديث عن هجرة اختيارية طالما أن حرية الاختيار كانت غائبة، لكن وحتى غضون ١٩١٩ كانت المعطيات الرقمية للمهاجرين المغاربة تتراوح بين ٢٥,٠٠٠ و٣٠,٠٠٠ مهاجر وهذا راجع إلى انتعاش الاقتصاد الفرنسي والحاجة إلى تعويض الخسائر الناجمة عن الحرب مقابل انعدام أية رقابة فعلية على المهاجرين الجدد حتى حدود سنة ١٩٢١ رغم معارضة أرباب العمل الفرنسيين بالمغرب الراغبين في تنمية الحماية، فسجل بذلك تيار الهجرة زيادة كبيرة حيث سجل قدوم ٤٠٠ مهاجر من منطقة سوس وحدها لحقتهم بعد ذلك بقليل مجموعات جديدة رفعت العدد إلى ٩٠٠ من المنطقة نفسها اشتغلت بمناجم با-دو-كالي[١٣] Pas de Calais.

أما هذا التيار الجارف من المهاجرين المغاربة، عملت سلطات الحماية على فرض رقابتها على كل هجرة واستصدرت ظهيرا بتاريخ ٢٧ شتنبر ١٩٢١ يمنع فتح المكاتب الوسائطية في عمليات التشغيل بالخارج ثم أردفته ظهيرًا سنة ١٩٢٤ يمنع منعا باتا تصدير اليد العاملة المغربية إلى الخارج،[١٤] لكن رغم إجراءات الحظر هذه، شهد تيار الهجرة استمرارية فسجل ٢١,٠٠٠ مهاجر مغربي سنة ١٩٣٠ معظمهم لحق بالمصانع الفرنسية عن طريق الهجرة السرية عبر الجزائر حدا بالسلطات الفرنسية إلى ترحيل معظم المهاجرين صوب بلدانهم الأصلية. أعقبته إصدار ظهير جديد في ٢٧ أكتوبر ١٩٣١ ينظم حركية العمال المغاربة ويقيد شروط خروجهم من المنطقة الفرنسية من المغرب بوجوب حصولهم على جواز سفر من رئيس الناحية التي ينحدرون منها بعد تقديم طلب في شأن ذلك معززا بعدد من الوثائق (بطاقة التعريف، لائحة السوابق العدلية، شهادة طبية، شهادة من القابض العام تؤكد وضع مبلغ ١٠٠٠ فرنك كضمانة لتغطية تكاليف العودة الاضطرارية).[١٥]

لكن أمام الانتعاش الاقتصادي الذي شهدته فرنسا سنة ١٩٣٦ وأمام تصاعد قدرات ألمانيا الصناعية والعسكرية، اعتمدت فرنسا سياسة جديدة للهجرة باستصدار ظهير مؤرخ في ١٣ يوليوز ١٩٣٨ أنشأت بمقتضاه أول مصلحة رسمية مكلفة بالهجرة أسند إليها مهمة تأمين احتياجاتها من العمال والتعاقد مع أرباب العمل الأوربيين[١٦] ولعل أبرز عملياتها الرقابية على تيار الهجرة المغربية كانت بين سنة ١٩٣٨ و١٩٤٠، حيث أشرفت على تنظيم ثلاث مجموعات من العمال تضمنت كل واحدة منها ٥,٠٠٠ عامل اختص أفراد المجموعتين الأولى والثانية للاشتغال في الميادين الفلاحية وعلى الأخص في مزارع الشمندر السكري في كل من المناطق التالية: Marne, La Seine-et-Oise, La Seine-et-

La Somme, Les Ardennes وكان هذا الصنف يهم خصوصا المناطق المتعودة على توفير اليد العاملة الفلاحية الموسمية للجزائر الفرنسية (المناطق الشرقية والأطلس)، بينما أرسلت المجموعة الثالثة للعمل في المصانع الحربية ودعم الفيالق العسكرية الفرنسية، حيث كان قوامهم عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية ما تعداده ١٢,٠٠٠ عسكري مغربي أضيف إليهم فيما بعد فوج لا بأس به تم إنزاله في ١٥ غشت ١٩٤٤ بشواطئ جنوب فرنسا.[١٧]

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وبعد تسريح أغلب العمال والعسكريين إلى بلدانهم الأصلية، لجأت فرنسا اضطراريًا إلى "ضرورة الهجرة" للمساهمة في برامج إعادة البناء والاعمار وتنشيط الحركة الاقتصادية، فقد تمخض عن الحرب وضع ديمغرافي واقتصادي[١٨] مزري جعلاها في حاجة ماسة لانتداب اليد العاملة الأجنبية فأنشأت لذلك هيئة تمارس رقابتها على تيارات الهجرة باتت تعرف بالمكتب الوطني للهجرة Office National d'Immigration (O.N.I) في ٢ نونبر ١٩٤٥، ولتقريب الصورة أكثر، نشير إلى أن المكتب ONI أشرف على تشغيل ٤,٠٠٠ مهاجر مغربي لفائدة مفاحم فرنسا Charbonnages de France في الفترة المتراوحة بين ١٩٤٦ و١٩٤٨ فقط،[١٩] لكن على الرغم كن هذه الاجراءات فقد شهد تيار الهجرة الخفي استمرارية كما في فترة ما قبل الحرب، بحيث فبرك المغاربة طرقا سرية للولوج إلى فرنسا عن طريق مرورهم بالجزائر حيث يستحصلون على أوراق ثبوتية للاقامة والعمل ليدخلوا إلى فرنسا كجزائريين كحل جراء القانون الصادر في شتنبر ١٩٤٧ الذي منح الجنسية الفرنسية للجزائريين ما ألغى قيود تحركاتهم نحو فرنسا، فكان قوام الشغيلة المغربية المهاجرة إلى فرنسا بهذه الطريقة ما تعداده ١٢,٠٠٠ شخص سنة ١٩٥٠.[٢٠]

٣-البروز التدريجي لتيار الهجرة الطلابي بداية الخمسينيات

هذا، ولم تعرف بدايات الخمسينيات هجرة بمعطى رقمي لافت للانتباه، فقد شهد تيار الهجرة ركودا وتراجعا ملحوظا، وهذا راجع للانكماش الاقتصادي في الفترة الممتدة ما بين ١٩٥٠-١٩٥٥، فكان لها تأثير مباشر على سوق العمل وعلى تيارات الهجرة الأجنبية نحو فرنسا، كما كان للمد المهم للمقاومة المغربية ضد الاستعمار عميق الأثر على معطيات الهجرة بتشديد الرقابة على التحركات السكانية طوال هذه الفترة، خاصة بعد نفي السلطان محمد الخامس سنة ١٩٥٣ [٢١] ولن تظهر من جديد إلا بعد الاستقلال سنة ١٩٥٦ لتأخذ منحى جديدا، فبالإضافة إلى الهجرة العمالية بدأت بوادر تيار هجروي تتراءى منذ هذه الفترة تمثلت في إقبال الطلبة المغاربة على الجامعات والمعاهد الفرنسية سعيا لتحصيل المؤهلات العلمية التي أصبح عهد الاستقلال يتطلع إلى اكتسابها نظرًا لغياب البنى التعليمية للدراسات العليا في المغرب، وينضاف إلى هذه الأسباب مسألة التبعية الثقافية بسبب السيطرة التامة لنظام التعليم الفرنسي على المؤسسات التعليمية المغربية، فاعتبرت الجامعات الفرنسية كنتاج لهذه المعطيات امتدادًا طبيعيًا لهذه المناهج التي رسخت مع بداية عهد الحماية.

جدول رقم (٢)

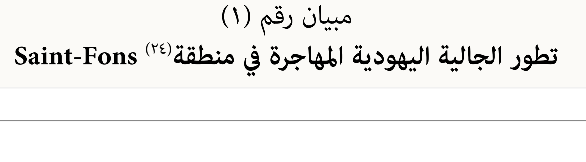
أعداد الطلبة المغاربين المسجلين في المعاهد الفرنسية ١٩٥٩-١٩٦٠[٢٢]

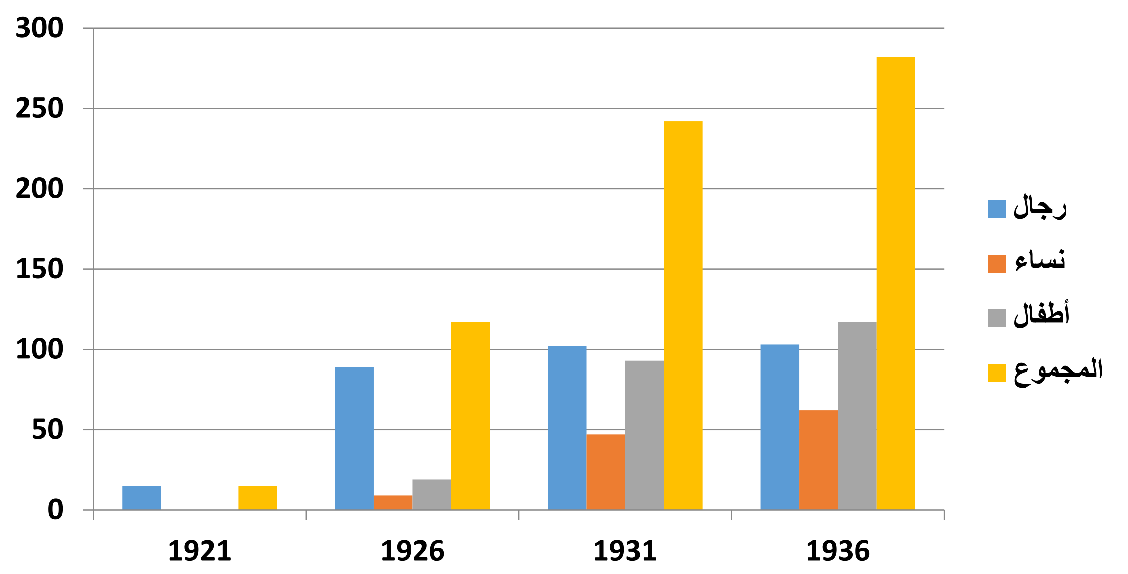
الجنسيات	أعداد الطلبة
مغاربة	١١٥٤
جزائريون	٣٢٥١
تونسيون	١٣٧٧

نتاجًا لهذه المعطيات نجد أن عدد الطلبة المغاربة المسجلين بالمعاهد الفرنسية، هو رقم لا بأس به مقارنةً بالبلدان المغاربية الأخرى التي كانت ذات سبق في خوض مضمار استكمال الدراسة في الخارج، وما يدل على أهمية الرقم كذلك، هو أنه كان من أصل ١٦٠٠ طالب مغربي كانوا مرسلين لمتابعة الدراسة في الخارج في هذه السنة، سجل ١١٥٤ طالب منهم في المعاهد الفرنسية أي بنسبة تفوق (٧٤%) من مجموع الطلبة المهاجرين.[٢٣]

٤-هجرة اليهود المغاربة نحو فرنسا

وقد سجلت الفترة كذلك انطلاقة قوية لهجرة اليهود المغاربة نحو فرنسا، وهذا لا يعني بأن هجرة اليهود المغاربة تجلت في هذه الفترة فقط، فقد كانت جالية يهودية لا بأس بها دخلت التراب الفرنسي- وتوزعت بالمدن الفرنسية خاصة منها مارسيليا وليون، إلا أن تمركزهم هم بالأساس المنطقة الصناعية Saint-Fons جنوب Lyon، وهذا الجدول يبرز تطور الجالية اليهودية المهاجرة في المنطقة.

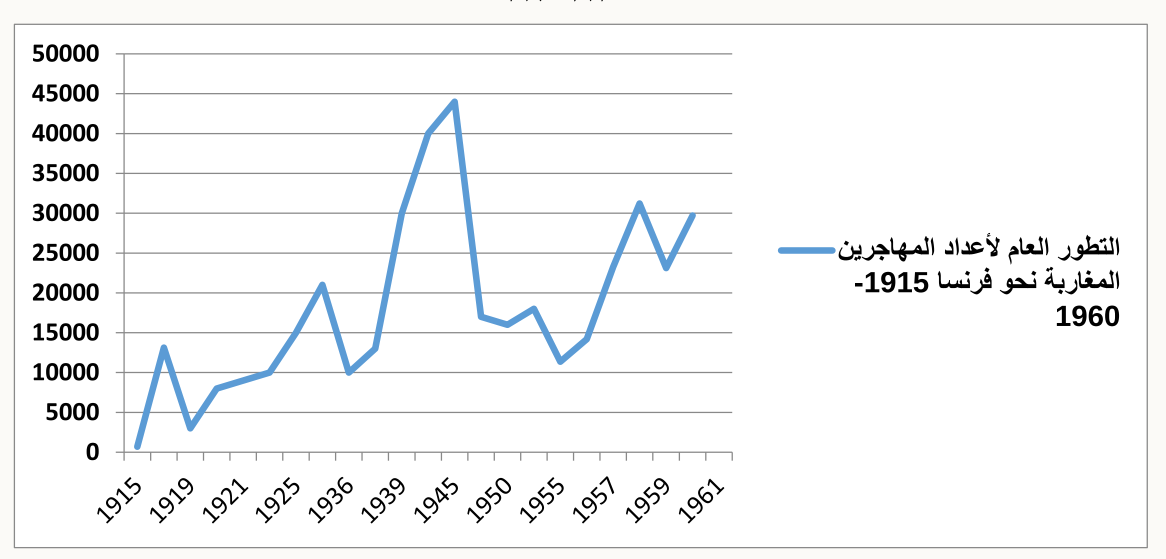

مبيان رقم (١)
تطور الجالية اليهودية المهاجرة في منطقة[٢٤] Saint-Fons



أما عن هجرة اليهود التي تلت الحرب العالمية الثانية، فقد كانت مع قيام الكيان الصهيوني في فلسطين سنة ١٩٤٨ حيث بلغ عددهم حوالي ٢٥,٠٠٠ مهاجر ما بين ١٩٤٨ و١٩٥١، لكن انطلاقتهم القوية نحو فرنسا اندرجت في عدة أسباب أهمها أن النشاطات الاقتصادية التي كانت تعتمد عليها هذه الفئة من المغاربة تجسدت أساسا في التجارة، إلا أنه نتاجا لاستحواذ اليهود السلافيين على بنى الدولة الصهيونية، فرض على المهاجر اليهودي المغربي ممارسة أعمال لم يهيأ إليها من قبل، من قبيل الأشغال الزراعية والعمومية (بناء الطرق...) شأنه شأن اليهودي ذو الأصول المشرقية، لهذا فإن جزءً مهما منهم اتجه نحو فرنسا حيث ناهز تعدادهم بفرنسا ٢٠٠٠ فرد سنة ١٩٥١، وإذا ما دققنا النظر في عدد المغاربة الحاصلين على الجنسية الفرنسية منذ ١٩٤٨ يتبين أنهم كانوا دائما ينتزعون حصة الأسد وفي ارتفاع مستمر، وهذا راجع إلى تعاطف المجتمع الدولي معهم في كل أزمة عصيبة يواجهها الكيان الصهيوني. كما شهد تيار هجرة اليهود المغاربة نحو فرنسا نشاطه بعد سنة ١٩٥٦عند تنامي الحركة الوطنية للمطالبة بالاستقلال وتأجج للآراء الداعية إلى ترك المغرب بعد استفحال البروباغاندا الصهيونية التي كانت تحذرهم من رفع الحماية عنهم فور استلام الوطنيين زمام الحكم بغية تعمير أرض فلسطين.[٢٥]

وإجمالاً، فقد كانت السياسة الاستعمارية مسؤولة إلى حد بعيد عن تيارات الهجرة المغربية نحو فرنسا حيث أدى تغلغل الاقتصاد الرأسمالي في المغرب إلى القضاء على البنيات التقليدية للإنتاج وإفراز بطالة هيكلية ما أخضعها للمتطلبات الكلونيالية منذ العقد الأول من القرن العشرين، وبقي يتحكم فيها تبعا لرغباته، فتراه تارة يشجع الهجرة إلى فرنسا بعمله على جلب المغاربة للعمل في مصانع التعدين وصناعة المعدات الحربية قبيل الحرب العالمية الأولى، وتارة أخرى يصدر مراسيم لتحريمها عند احتياجه لليد العاملة لخدمة مصالحه في المغرب.

مبيان رقم(٢)
التطور العام لأعداد المهاجرين المغاربة نحو فرنسا
١٩١٥-١٩٦٠[٢٦]



٥-عقد الستينيات واستئناف المد الهجروي المغربي

مع عقد الستينيات من القرن الماضي، انطلقت حركة الهجرة المغربية في توسعها وتنوع توجهاتها بشكل لم يسبق له مثيل، فلم تعد مقتصرة على فرنسا، بل تعددت إلى بلدان أوربا الغربية مثل بلجيكا وهولندا وألمانيا، وانجلترا والبلدان الاسكندنافية، وحتى إلى البلدان التي كانت حديثة العهد بنزوح مهاجريها عنها كإسبانيا وإيطاليا اللتين أصبحتا بعد ذلك من البلدان المستقبلة للمهاجرين من مختلف العوالم،[٢٧] إلا أن حصة الأسد كانت دائمًا ما تؤول إلى فرنسا، فقد تميزت تيارات الهجرة المغربية صوب فرنسا في فترة ما قبل الستينيات من القرن الماضي بسمة أساسية تمثلت في الطابع الاجباري وقد تمخض عن هذا الطابع القسري حتميات خصائصية، بحيث تركزت الإهتمامات منذ البدايات الأولى للفرنسيين في مميزات خاصة للمهاجر المغربي من قبيل الأصل الجغرافي الخاص وأولوية مناطق على أخرى، وهو ما عنى الرغبة الرأسمالية الفرنسية في استجلاب مجموعات من خصائص جغرافية بعينها أكثر من غيرها من الفئات السكانية الأخرى في مناطق أخرى، وقد فرض هذا أيضا ضرورة مهنية بحيث شكلت هذه المناطق موردا أساسيا لتأمين حاجيات فرنسا من اليد العاملة الفلاحية والمنجمية، فرضت معها ضرورة التمركز الجغرافي الضيق بالمحافظات الفرنسية.[٢٨]

لكن مع مطلع الستينيات تطورت رغبات المغاربة لتصل إلى الاشتغال في قطاع التجارة والخدمات وذلك راجع إلى ما حظيت به من تكوين وتأهيل من طرف الشركات الفرنسية التي عملت كل ما بوسعها لتأهيل هذه الشريحة المرغوب فيها والمفضلة على اليد العاملة الجزائرية والتونسية، وتستغل هذه الشركات فقر اليد العاملة المغربية من حيث الوعي النقابي والسياسي خاصةً تلك الشريحة التي تنحدر من الجنوب والتي ترى في فرنسا تلك الجنة الموعودة التي ستنتهي فيها مشاكلهم الاقتصادية، حيث كان الجنوب المغربي إلى أمد قريب المزود الأساس للاقتصاد الفرنسي على مستوى اليد العاملة إلا أن هذه القاعدة لم تكن لتصمد أمام التطورات التي عرفتها فرنسا والمغرب على حد سواء حيث دخلت الريف والمراكز الحضرية في غمار التنافس مع الجنوب لتزويد فرنسا باليد العاملة خصوصًا بعد انشاء مراكز التشغيل بعدد من المراكز الحضرية وعلى رأسها الدار البيضاء التي أضحت تؤمن أكبر نسبة للمهاجرين واليد العاملة للاقتصاد الفرنسي.

خَاتِمَةُ

كانت هذه إذن أهم الخصائص المميزة للهجرة المغربية نحو فرنسا مرحلة ما قُبيل سنة ١٩١٢ (عهد الحماية الفرنسية-الاسبانية على المغرب) ومطلع الستينيات، والتي ترتبط كما هو باد ارتباطًا وثيق بالظرفيات المحلية والدولية العامة والخاصة. ولا ندعي –على الرغم من كل ما تم الوصول اليه-أننا أحطنا بالظاهرة من كل جوانبها، وأننا أعطينا إجابات كافية شافية للإشكاليات أو الأسئلة المتبلورة عنها، بقدر ما سعينا إلى تقديم مساهمة شخصية في الموضوع، مستفيدين من خلاصات الأبحاث والدراسات السابقة، علها تسد جزءًا من الفراغ الذي تعرفه الدراسات والبحوث المهتمة بتاريخ الهجرة المغربية.

الهَوامِشُ:

(١) علي سكاح، **المهاجرون المغاربيون في فرنسا وإشكالية الاندماج**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في القانون، جامعة محمد الخامس الرباط ١٩٩٩، ص. ٢٧. من ناحية أخرى، يوضح منظرو الاقتصاد الماركسي وعلى رأسهم Otto Bauer على أن الرأسمالية المالية عندما تصل إلى مرحلة معينة من التطور تكون بحاجة إلى استقطاب واستغلال الهجرة من أجل الحفاظ على أكبر قدر ممكن من معدلات الفوائد، وهكذا يظهر بوضوح أن حركات الهجرة تشكل عنصرا أساسيا وحيويا لمختلف مراحل التطور الرأسمالي. فالمرحلة الأولى تكون داخلية على صعيد البلد الرأسمالي نفسه باستعمال اليد العاملة الاتية من القطاع الزراعي المتأثر بالتغيرات العميقة، أما المرحلة الموالية فتكون خارجية أي بالتوسع الاستعماري ومد القواعد الرأسمالية للاستفادة من السواعد العاملة الأجنبية.

(٢) عبد الله البارودي، **المغرب الامبريالية والهجرة**، ترجمة المركز العربي للوثائق والدراسات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٩، ص. ٣٩-٤٠.

(٣) يعترف Robert Montagne رغم اعتباره من أهم منظري السياسة الكولونيالية التي تربط ظاهرة الهجرة بالاكتظاظ السكاني، على أن الأكثرية الساحقة من سكان المغرب أي ما يزيد عن تسعة أعشار تتألف من سكان البوادي. بينما يتوزع الحضريون في المدن التالية: فاس ٥٠٠٠٠ نسمة، الرباط ٢٠٠٠٠، سلا ١٠٠٠٠، مراكش ٦٠٠٠٠. انظر:

Robert Montagne, Révolution au Maroc, Editions France-Empire, Paris 1951, p.

(٤) عكس المغرب، ترجع جذور الهجرة الجزائرية نحو فرنسا إلى نهاية القرن التاسع عشر حيث وصل فوج لا بأس به من التجار الجزائريين ميناء مارسيليا سنة ١٨٧٠-١٨٧١.

(5) Mustaphba Belbah et Patrick Veglia, «Pour une Histoire des Marocains en France», Hommes et Migrations, n°1242 Mars-Avril 2003, p. 20.

أحمد أقلال، "الدواعي التاريخية والاجتماعية للهجرة المغربية"، أشغال ندوة **هجرة المغاربة إلى الخارج** بالناظور ١٩٩٩، مطبعة المعارف الجديدة الرباط ٢٠٠٠، ص٥١.

(٦) يتوزع هؤلاء المهاجرون الموسميون في الجزائر، تبعا لعددهم ولمناطقهم الجغرافية على الشكل التالي: منطقة وجدة (٣٥٠٠٠)، تازة (٢٠٠٠٠) تافيلالت (٢٠٠٠٠) ورزازات (٦٥٠٠) درعة (٣٠٠٠).

(7) Jean Bonnet et R. Bossard, «Aspects Géographique de l'émigration Marocaine vers l'Europe», Revue de Géographie du Maroc, n° 23-24, 1973, p8.

(٨) عمدت فرنسا على تشجيع الاستيطان في المناطق الزراعية، كما سهلت استحواذ الأوربيين على أغلب الوظائف والخدمات في المناطق الحضرية فقد كان يكفي أن يكون عمر الشخص أقل من ستين سنة ويتوفر على سجل عدلي نظيف، وشهادة طبية ليكون من المرشحين للتوجه إلى المغرب، عندئذ توفر له السلطات الفرنسية من ٢ إلى ١٠ هكتارات من الأرض وذلك حسب عدد الأبناء. وهكذا ففي سهل سوس وحده يشير Robert Montagne في مؤلفه Révolution au Maroc (ص٩٧) إلى أن ٤٥ ألف هكتار من الأراضي قد وضعت تحت تصرف الاستيطان حيث أن ٢٥٠٠٠ هكتار منها قد تحولت فعليًا إلى

مزارع للمعمرين. عبد الله البارودي، **المغرب الامبريالية والهجرة،** م،س، ذ، ص٤٥.

(9) Joany Ray, Les Marocains en France, Librairie du Recueil Sivey, Paris 1938.

(١٠) أنشأت وزارة الحرب هذه المصلحة بداية سنة ١٦١٦ بغية تسهيل هجرة عمال المستعمرات من أجل دعم المجهود الحربي الفرنسي وعلى غرارها سارت جل الوزارات Le Service Des Travailleurs (وزارة الفلاحة) Le Service de la Main d'œuvre Agricole (وزارة العمل).

(11) M. Belbah et P. Veglia, "Pour une Histoire des Marocains en France", Op.cit, p. 20.

(١٢) عبد الله البارودي، **المغرب الامبريالية والهجرة،** م.س.ذ، ص. ١٢.

(١٣) نفسه، ص. ١٣.

(14) Elkbir Atouf, «Les Migrations marocaines vers la France durant l'entre deux guerre», Revue Hommes et Migrations N°1247, Janvier-Février 2004, p. 50.

(١٥) تحرم فصول الظهير كذلك على المسؤولين في وسائل النقل البري والبحري والجوي نقل العمال المغاربة خارج المغرب إذا لم يكونوا متوفرين على الجواز السالف الذكر وتحملهم في حالة المخالفة مصاريف إعادة المعني بالأمر، كما تشدد في عقوباتها الزجرية في حالة الهجرة غير الشرعية برفع عقوبة الحبس من شهر إلى سنة وبغرامة أدناها ٥٠ فرنك إلى ٥ آلاف فرنك، وبهذا تكون قد ساوت في العقاب بين العامل والمسئول.

(16) M. Belbah et P. Veglia, «Pour une Histoire des Marocains en France», Op.cit, p. ٢١.

(١٧) عبد الله البارودي، المغرب **الامبريالية والهجرة،** م.س.ذ، ص. ١٦.

(١٨) واجهت فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية أزمة ديمغرافية بعد أن أثرت الحرب على البنية السكانية، وذلك من خلال وفيات الفئات العمرية في سن الجندية ٢٠-٤٠ أجبر السلطات الفرنسية على الاستعانة بمستعمراتها من أجل سد النقص الحاصل في الفئات العمرية في سن النشاط.

(19) M.Belbah et P.Veglia, «Pour une Histoire des Marocains en France», Op.cit, p. ٢٢.

(٢٠) عبد الله البارودي، **المغرب الامبريالية والهجرة،** م.س.ذ، ص. ١٨.

(٢١) يعزى هذا الركود بعد إصدار ظهير ٨ نونبر ١٩٤٩ الذي رفع في فصله العاشر عقوبة السجن إلى سنتين في حالة قيام عامل مغربي بمحاولة هجرة غير شرعية، ونتاجًا لهذه المعطيات لم تستقطب إعادة بناء أوربا الغربية في إطار مشروع "مارشال" إلا عددًا قليلاً من المغاربة في فرنسا، استقدمت معظمهم شركات صناعية بطرق ملتوية، وهكذا نرى أنه مع كل تشريع جديد تضاف تشديدات جديدة يُراد بها خفض المد الهجروي من جهة وسد الثغرات في التشريعات السابقة من جهة أخرى.

(22) Abdelkader Latreche, «Les Etudiants Maghrébins en Europe, Nouveau Visage de l'Immigration maghrébine: Cas de France», In «Les Dimensions Socioculturelles des Maghrébins Emigrés en Europe», Université de Tunis 2005, p. 245.

(٢٣) يعزى تطور التيار الهجروي للطلبة المغاربة إلى فرنسا، بالتحسن الذي عرفه أعداد المتعلمين بالمغرب فقد بلغ عدد المسجلين بالمرحلة الثانوية ٩٨,١٩٩ سنة ١٩٦٠ في شقي التعليم التقليدي والحديث ما حدا بأفواج مهمة من الطلبة المغاربة لتقديم ترشيحاتهم لاستكمال دراساتهم العليا بفرنسا بعد مرحلة الباكالوريا. انظر: عبد الله البارودي، **المغرب الامبريالية والهجرة،** م.س.ذ. ص. ٣٤-٣٥.

(24) Elkbir Atouf, «Une Communauté Prolétaire: les Juifs marocains de Saint-Fons 1919-1946», Archives Juifs, 2003/2, Vol.36, p. 122.

(٢٥) نصر شمالي وهشام الدجاني، **الظروف التاريخية للهجرات اليهودية،** سلسلة القسام الفكرية، دمشق ١٩٩٠، ص. ١٩٢.

(26) Larbi Talha, Le Salariat Immigré Dans La Crise La main-d'œuvre maghrébine en France (1921-1987), op.cit, p. 79.

(٢٧) فتحت ألمانيا أبوابها أمام الهجرة المغربية ابتداءً من سنة ١٩٦٠ حين استقبلت ١٠٠٠ عامل مغربي ثم ٢٥٠٠ عامل سنة ١٩٦٢، ثم تلتها بلجيكا حيث وفد إليها ٢٠٠ عامل سنة ١٩٦٢ ليرتفع العدد إلى ما يقارب ٢٠٠٠ عامل سنة ١٩٦٣، ثم تلتها هولندا حين استقبلت ١٠٠٠ عامل سنة ١٩٦٣ و٩٥٠٠ عامل سنة ١٩٦٦، لكن مع ذلك كله، يبقى التيار الرئيس لتدفق الهجرة العمالية المغربية متجها نحو فرنسا.

(٢٨) نشير على سبيل المثال أنه كانت توجه المؤسسات والمقاولات الفرنسية وكلائها بالمغرب إلى مناطق خاصةً بجهة الجنوب لاختيار مرشحين للشغل من ذوي الكفاءات الجسدية، وقد كان لها ذلك بحيث عملت -هذه المقاولات-على تشغيل ٤٠٠٠ مهاجر مغربي لفائدة مفاحم فرنسا بين سنتي ١٩٤٦ و 1948فقط.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

الحركة الريسونية شمال المغرب
نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين



نبيل الطويهري
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
باحث في التاريخ المعاصر – كلية الآداب
الدار البيضاء – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

يتفق أغلب المؤرخين على أن وضعية الأزمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي عرفتها البلاد نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كانت حافزًا ومؤشرًا على ظهور حركات تمردية في سائر أنحاء المغرب من سوس جنوبًا إلى طنجة وتطوان شمالاً، كما هو الحال عند ابن الأعرج السليماني الذي رأى فيها "خراب العمران وهلاك الرجال ونفاذ الأموال، وارتباك الأحوال". وما حركة أحمد الريسوني إلا جزء من هذه الحركات التي ظهرت وسط قبائل جبالة شمال المغرب، مارست نشاطها عن طريق النهب واختطاف الأجانب (والترهاريس، بيرديكاريس، ماكلين) وهي حوادث كان لها انعكاسات سلبية زادت من حدة الضغوطات الأجنبية، وتعميق الأزمة المالية عبر دفع تعويضات وغرامات لتحرير الرهائن، بل أكثر من ذلك سيضطر المخزن إلى قبول شروط الريسوني لإطلاق سراح المختطفين بتعيينه في منصب عامل طنجة سنة ١٩٠٤. بوصوله إلى السلطة سيتجه هذا الأخير إلى مواجهة القبائل الجبلية المعارضة لسياسته من خلال استخدام العنف والتعذيب ونهج أسلوب الحصار الاقتصادي، خاصة ضد قبيلة الأنجرة التي منعها من التزود في أسواق طنجة، وقبيلة بني يسف التي تقدم لنا الشهادات الشفوية صورًا بليغة عن حجم معاناتها. وبحكم طموحها دخلت الحركة الريسونية في علاقات سياسية مع القوى الأجنبية (الإسبانية والألمانية) استهدفت تحقيق مصالح شخصية، في حين شكلت فرصة سانحة أمام هذه الأخيرة للضغط على المخزن، وبالتالي استخدامها كورقة رابحة لانتزاع امتيازات مختلفة زادت من تأزيم وضعية البلاد والاتجاه نحو فرض الحماية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	١٧	سبتمبر	٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر:	٠٣	ينــايـر	٢٠١٦

كلمات مفتاحية:
الريسونية، الحماية الفرنسية، القبائل الجبلية، طنجة، المخزن

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0051263

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
نبيل الطويهري. "الحركة الريسونية شمال المغرب نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد التاسع والثلاثين؛ مارس ٢٠١٨. ص١٤٣ – ١٤٨.

مُقَدِّمَةُ

لا تخفى على أي باحث أو مؤرخ أهمية دراسة تاريخ المغرب، لا سيما في لحظته المفصلية أواخر القرن التاسع عشر- ومطلع القرن العشرين، نظرًا لما عرفته هذه الفترة من تحولات عميقة وتغييرات جذرية يجمع معها المؤرخون سواء مغاربة أو جانب على أنها كانت حافزا على ظهور حركات تمردية وثورات في سائر أنحاء البلاد. إلا أنه وعلى الرغم من أهمية دراسة طبيعة هذه الحركات، فإن التأريخ لها ما يزال في حاجة إلى بذل المزيد من الجهد والعمل الجاد، لاكتشاف خصوصياتها وتحليل مسارها التاريخي سواء بالإيجاب أو السلب. وهذه الدراسة ما هي إلا محاولة للتعرف على بعض الجوانب المرتبطة بهذه الحركات، خاصة الحركة الريسونية بالشمال في علاقتها بالمخزن، والمجتمع الجبلي والبعثات الديبلوماسية بشكل عام.

أولاً: السياق التاريخي لنشأة الحركة الريسونية

نشأ أحمد الريسوني بقرية الزينات على بعد ٧٠ كلم من مدينة طنجة، ولد ١٨٧٠م، ينتمي إلى الزاوية الريسونية التي برز نشاطها منذ العصر السعدي، والتي كان لها مساهمات طيبة وإيجابية في المجالات السياسية والاجتماعية والفكرية انطلاقًا من مقرها بتازروت.(١) تضاربت الآراء حول نشأته الأولى فهناك من خصص له حيزا كبيرا واجتهد في إظهار شخصيته كبطل من أبطال الوطنية المغربية(٢) ظهرت عليه علامات النبوغ والعبقرية منذ الطفولة(٣) أو الرجل المثالي الذي اشتغل بطلب العلم وتمتع بالذكاء(٤) في حين نجد آخرين رأوا فيه مجرد قاطع طريق، مجبول على الطمع وحب المال(٥) هوايته المفضلة القيام بأعمال اللصوصية والنهب(٦) من خلالها تمكن من تحصيل الثروة واكتساب هالة اجتماعية.(٧)

يتفق أغلب المؤرخين مغاربة وأجانب، على أن وضعية التفكك والانقسام والفوضى التي سادت البلاد في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كانت حافزًا على ظهور حركات تمردية في سائر أنحاء المغرب، من سوس في الجنوب إلى طنجة وتطوان في الشمال إلى درجة دفعت البعض إلى اعتبارها فوضى اجتاحت البلاد، أو مرحلة تعكس التردي الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، كما هو الحال عند ابن الأعرج السليماني الذي رأى فيها "خراب العمران وهلاك الرجال، ونفاذ الأموال، وارتباك الأحوال".(٨)

وما حركة أحمد الريسوني إلا جزء من هذه الحركات، التي ظهرت وسط قبائل جبالة شمال المغرب، استفادت من ضعف السلطة المركزية، فنصبت نفسها مدافعة عن استتباب الأمن والاستقرار في المنطقة، من خلال اعتبار أن ما تقوم به يدخل في نطاق المشروعية والضرورة، وهذا ما عبر عنه أحد الباحثين الذي رأى أن أحمد الريسوني "حينما شب هالته ما عليه أمته من ظلم وهوان ونهب وفراغ السلطة المخزنية فالتجأ إلى لغة العصر وهي أخذه حقه بيده"(٩) في حين أشار آخرون "أن الأمراض الاجتماعية في ذلك العصر كان لا سبيل إلى التخلص منها إلا بانتهاج نفس الطريق الذي ينتهجه العتاه المتمردون الذين عاثوا في الأرض فسادًا".(١٠)

إذا انطلقنا من هذه الآراء يظهر لنا أن حركة أحمد الريسوني مارست نشاطها بهدف محاربة اللصوصية والنصب، ولكن في إطار تحليلنا التاريخي ألا يمكن أن تكون حركة الريسوني هي نفسها جزء من هذه اللصوصية التي عمت المنطقة؟

هذا الافتراض نجد الجواب عنه في اعتداءات الريسوني وعصابته على القبائل الجبلية خاصة (قبيلة الأنجرة وقبيلة بني يسف...) وهو ما أشار إليه هاريس في كتابه "مع مرور الوقت جميع المناطق الجبلية، أصبحت تخاف وترتعب من أفعال وتصرفات الريسوني".(١١) وأشار إليه أيضًا المريني العياشي بقوله "استمر أحمد الريسوني في قبائل جبالة متنقلا هنا وهناك يترصد هذا أو ذاك.. قاصدًا القضاء الكلي على كل من يحاول أن ينافسه، لا يتسامح مطلقا مع أي منافس مهما كان صغيرًا أو كبيرًا.(١٢) وبالتالي فحركته لم تكن تقف عند محاربة اللصوصية، بل تعدتها إلى محاولة فرض الوجود في المنطقة الجبلية، وفي سبيل ذلك كان لا يتوانى عن استخدام القوة والعنف واستغلال نسبه الشريف للسيطرة على القبائل الجبلية.(١٣)

وإلى حدود سنة ١٨٩٤، سيقوم الريسوني وعصابته بفعل شنيع يتجلى في قتل خطيبة وأمها لرد الاعتبار لأخته التي أراد زوجها الارتباط مرة ثانية.(١٤) هذه الحادثة ستدفع السلطان المولى الحسن إلى إصدار أوامره إلى عامل طنجة عبد الرحمن بن عبد الصادق باعتقاله فوقع القبض عليه بعد خيانة أحد المقربين منه الذي أوهمه بأن العامل يريد توليته على أصيلا سنة ١٨٩٥. هذا الحدث شكل نقطة التحول في مسار الحركة الريسونية إذ سيتعرض لمعاملة قاسية في سجن الصويرة وصفها هاريس على الشكل التالي: "كان الريسوني في السجن مقيدًا بالأغلال من عنقه ويديه ورجليه ويعاني من البرد والعمل الشاق"(١٥) هذه الوضعية المزرية ستدفعه إلى الفرار لكن محاولته باءت بالفشل سنة ١٨٩٧ وهذا ما تذكره رسالة علي ابن الحاج إلى المولى عبد العزيز"إن المساجين بسجن الصويرة سولت لهم أنفسهم الفرار من السجن بقيودهم فهاجموا السجان والمخازنية والعسكر.. فلم يفلت منهم أحد(١٦)" "وإلى حدود سنة ١٩٠٠ وأمام استعطاف شرفاء الريسونيين وتدخل النائب السلطاني محمد الطريس سيطلق سراحه، لكن وبمجرد خروجه من السجن عاد إلى سابق أفعاله واستخدام أساليب ووسائل جديدة في المواجهة مع المخزن تتمثل في سياسة الاختطاف.

١/١- اختطاف والتر هاريس* ١٦ يونيو ١٩٠٣

هذا الحدث أثار ضجة في أوروبا باعتباره شكل تهديدًا حقيقيًا للأوروبيين في المغرب، وخاصةً في منطقة طنجة، غير أن عملية الاختطاف لا تزال إلى اليوم تثير الكثير من التساؤلات حول ما إذا كان هاريس قد دفع بنفسه عمدًا إلى الاختطاف، حتى يكتسب المزيد من النجومية، خاصةً أن المدينة في ذلك الوقت كانت عاصمة إعلامية بالإضافة إلى كونها عاصمة دبلوماسية. في هذا الصدد يشير تقرير اللجنة الإفريقية الفرنسية يوليوز ١٩٠٣: "أن هاريس هو الذي عرض نفسه للاختطاف كي يزيد من تأزيم الوضعية السياسية للمغرب.(١٧) أو كما توضح الوثائق المخزنية أن عملية الاختطاف كانت مدبرة بين هاريس والريسوني وقصة الاختطاف ما هي إلا وسيلة لتحقيق مكاسب شخصية للطرفين معا".(١٨) وبمجرد علم بريطانيا بالموضوع، سارعت إلى الدخول في مفاوضات مع الريسوني انتهت بتحرير هاريس ٢٥ يونيو ١٩٠٣ بعد قضائه ٩ أيام، ليتم تسليمه إلى الدواس بقلبية الأنجرة حيث قضى ١٢ يوم قبل أن يطلق سراحه في ٥ يوليوز ١٩٠٣.

٢/١- اختطاف بيرد يكاريس وفارلي ١٨ مايو ١٩٠٤

اختطف الريسوني أمريكيا هو بيرد يكاريس وصهره فارلي، وطالب بتنفيذ عدة شروط من أجل تسريحهما من بينها فدية مالية قدرها 350,000 بسيطة، وعزل باشا طنجة، وتعينه هو نفسه عاملا عليها وعلى أحوازها، وإطلاق سراح الأسرى في صفوف حركته، والحماية البريطانية له ولعائلته.[١٩] هذه الحادثة كان لها تأثيرات سياسية خطيرة، دفعت بريطانيا إلى توجيه شكوى عبر وزيرها أرثور نيكولسن تحمل فيها المخزن المغربي المسؤولية الكاملة عن ما يمكن أن يقع للمختطف فارلي. ومن جهة أخرى أرسل روزفيلت رئيس الولايات المتحدة الأمريكية بارجة حربية الى السواحل المغربية كما وجه أمره إلى القنصل الأمريكي بطنجة صامويل ريني كومري ببعث رسالة إلى المولى عبد الحفيظ يحذره فيها من مغبة أفعال الريسوني ويخبره فيها بضرورة التعامل مع الشروط التي يفرضها الريسوني من أجل تحرير الرهائن".[٢٠]

وتحديدًا عند هذه النقطة نود أن نشير إلى أن حادثة الاختطاف خلقت صدى واسع في الصحافة الدولية، مما زاد من حدة الضغوطات الأجنبية.* أمام هذا الوضع، سيضطر السلطان إلى قبول شروط الريسوني وهذا ما تحقق في ١٨ يونيو ١٩٠٤، بإطلاق سراح المختطفين وتعيينه في منصب عامل طنجة. وبالتالي يمكن القول أن التعيين هو ثمن الاختطافين[٢١]، في حين بالنسبة للسلطان كان استسلامًا لشروط أشد ما تكون تحقيرًا أمام شخص ليس سوى رئيس عصابة.[٢٢]

ثانيًا: الريسوني وأثر سياسته في المنطقة بداية القرن العشرين

١/٢- السياسة تجاه القبائل الجبلية

مارس الريسوني سلطاته على أحواز طنجة، وبدأ في تطبيق سياسته التي تميزت بالقسوة واستخدام العنف ووسائل التعذيب، وما يؤكد ذلك الرسالة التي وجهها أحمد الطريس إلى محمد الطريس في ٢٣ شتنبر ١٩٠٥: "البارحة قامت عصابة الريسوني بهجوم على قبيلة بني مكوار وسرقوا الماشية واختطفوا خمس بنات من هذه القبيلة"[٢٣]. الريسوني استخدم أيضا أسلوب الحصار الاقتصادي ضد قبيلة الآنجرة حيث منعهم من التزود بالمنتجات المتوفرة في أسواق طنجة مما تسبب لهم في الفقر المدقع[٢٤] والشهادات الشفوية بدورها تقدم معلومات ثمينة تصف العلاقات المتوترة بين الريسوني والقبائل الجبلية، خاصة شهادة العلامة الأحمدي* من قبيلة بني يسف.

"إن قبيلة بني يسف خاصة ومنطقة جبالة عامة، إذ تأكد لها أن الريسوني كان يفرض عليها ما لا تطيق حمله ولا تستطيع أداءه، بادرت إلى استقبال ممثل المولى عبد العزيز مستهدفة الخلاص مما يلحقها من طرف أعوان الريسوني، ويضيف أنها كانت واثقة من نفسها أنها ستأخذ حصتها من الريسوني إما عن طريق السلطة المخزنية أو بيدها"[٢٥]. ويمكن أن نشير أيضًا إلى موقف قبيلة أهل سريف من القايد الريسوني من خلال الأشعار التالية:

الريسوني الكافر بالله	ليحوس عباد الله
الريسوني يا بو قجة	كيقبض الرجال بلا حجة
الريسوني يا بوشنافر	حتى هو قا القناطر[٢٦]

هذه نماذج من الواقع السياسي الذي كانت عليه قبائل جبالة تجاه سياسة أحمد الريسوني, والتي عبر عنها أحد المعاصرين لهذه الأحداث بقوله" قام الريسوني بتلك الناحية – طنجة وأحوازها- و أبدأ وأعاد الفساد والخراب والنهب والتقتيل وتجنى على جانب الدولة بكل ما قدر عليه من الأمور الفظيعة".[٢٧]

٢/٢- التعامل مع فئة المحميين

المحميون يمثلون فئة خاصة من المواطنين تمتعوا بامتيازات كثيرة، وخاصة الاقتصادية فيما يتعلق بتملك الأراضي، وباعتبار مدينة طنجة مدينة دولية، فقد عرفت تواجد أعداد كبيرة منهم، فكان من الطبيعي أن تدخل هذه الفئة في مواجهة مع الريسوني لأنها شكلت عائقًا أمام ممارسة سلطته. أولاً: وضعيهم خارج سلطته، وثانيًا: استفادتهم من الإعفاءات الضريبية وحق تملك الأراضي. ونتيجة لتعارض مصالح الريسوني والمحميين بدأ في محاربتهم باعتبارهم خطرا على البلاد، قام بإلقاء القبض على المحميين، مصادرة أملاكهم، وجلدهم عند أبواب البعثات الديبلوماسية بطنجة.[٢٨] هذه السياسة ستتسبب في موجة من الاحتجاجات والسخط من طرف البعثات الديبلوماسية الأوربية المقيمة بطنجة، مما سيتشكل أحد الأسباب في إقالته.

٣/٢- المعاملة مع الأجانب

سنتناولها انطلاقًا من سنة ١٩٠٥، عندما فتح الريسوني الأبواب أمام الأجانب من خلال الترخيص لهم بحق امتلاك الأراضي، كما صرح بذلك قاضي طنجة في رسالته الموجهة إلى وزير العدلية محمد غرنيط والذي اتهم فيها الريسوني بأنه يبيع بلاد الحرث في فحص طنجة للأجانب.[٢٩] هذه السياسة ستكون سببًا في تزايد العداء تجاه الأجانب خاصة من طرف الساكنة المحلية فكان مقتل المواطن الفرنسي ألبرت شاربونيي نواحي طنجة، وهو الأمر الذي سيدفع فرنسا للتدخل عبر وزيرها للشؤون الخارجية "ليون بورغوا" لفرض مجموعة من الشروط:

- توقيف الجناة المسؤولين عن هذه الجريمة.
- دفع غرامة مالية قدرها ١٠٠,٠٠٠ فرنك فرنسي.
- تقديم اعتذار رسمي للحكومة الفرنسية.
- وضع نصب تذكاري في مكان الحادثة لتخليد ذكرى الضحية.

هذا الحدث أثار استنكار باقي السفارات الديبلوماسية التي وجهت مذكرة جماعية إلى وزير الخارجية المغربي يطلبون فيها وضع حد لما يقع في طنجة[٣٠] مما شكل أزمة حقيقية للسلطان

باعتبار أن الريسوني كان يمارس أعماله في طنجة العاصمة الديبلوماسية آنذاك.[٣١] وأمام هذه الضغوطات سيوجه السلطان المولى عبد العزيز ظهير لإقالته ٢٨ دجنبر ١٩٠٦، كما وجه أمره لوزير الحربية محمد الكباص بتجهيز محلة لإخضاع الريسوني تكفل بقيادتها بوشتى البغدادي الذي هاجم الزينات وأمام عدم قدرة الريسوني على المواجهة اضطر إلى الفرار نحو تازروت واستخدم حرب العصابات، مما سيدفع المخزن إلى تخصيص مكافئة مالية للمساعدة في القبض عليه.[٣٢] في ظل هذه الأزمة، سيلجأ الريسوني إلى سياسته السابقة. ففي الوقت الذي حاول فيه الضابط ماكلين لعب دور الوسيط بين المخزن والريسوني سيلقى عليه القبض بقبيلة أهل سريف سنة ١٩٠٧ من طرف هذا الأخير، وكعادته سيفرض شروط منها:

- الحصول على فدية مالية قدرها ٢٠ ألف جنيه إسترليني.
- الحماية الإنجليزية له ولعائلته.
- استرجاع أملاكه المصادرة من طرف المخزن.

وبعد مفاوضات عسيرة، بينه وبين المخزن، تدخلت الحكومة البريطانية عبر وزيرها جيرارد لوثر فأطلق سراح ماكلين في ١٩٠٨. هذا الاختطاف زاد من تأزيم الوضعية المالية للمغرب الذي سيضطر إلى تسديد الفدية عبر الاقتراض من بريطانيا نفسها.[٣٣]

ثالثا: الريسوني وعلاقته بالقوى الأجنبية

١/٣- الريسوني والعلاقة الألمانية

أشار هاريس أن علاقة الريسوني بالألمان تعود إلى ما قبل الحرب العالمية الاولى، حيث تعهد للمجموعة الألمانية مانيسمان بالاستفادة من أعمال التنقيب في المناطق الجبلية والتي كانت مغلقة في وجه الجنسيات الأخرى والمنقبين[٣٤]. هذه العلاقة التجارية ستفتح الباب أمام الريسوني للدخول في علاقات ديبلوماسية مع القنصل الألماني بتطوان، والعرائش، وكذلك مع القنصل الألماني بمدريد. وهو ما أكدته جريدة التايمز الصادرة في ٣ شتنبر ١٩١٨ وهي عبارة عن رسالة ألمانية موجهة إلى الريسوني تتضمن وعودا بتقديم المال والذخيرة والحفاظ على مصالحه في المنطقة.[٣٥]

ومن خلال ما أشار إليه دوسيكونزاك، فالمجموعة الألمانية كانت تباشر مصالح ألمانية في المنطقة، فعند احتلال اسبانيا للعرائش والقصر الكبير تدخلت المجموعة واقترحت على الريسوني تسهيل العملية لضمان مصالحها في ظل وجود دولة أوربية، لكن سرعان ما تغيرت الأمور بين اسبانيا والريسوني، الشيء الذي دفعه إلى طلب الحماية من السفارة الألمانية بطنجة والتي تدخلت باقتراح التهدئة في المنطقة عبر مجموعة من المقترحات:

- الاعتراف بنوع من الاستقلالية الذاتية للمناطق الشمالية.
- تشكيل قوات محلية تحت إمرة الريسوني.
- إعطاء مجموعة مانيسمان كامل الصلاحية في التعامل مع المغاربة.[٣٦]

هذه المقترحات أثارت سخط الصحافة الإسبانية، وحكومتها، في حين جعلت الريسوني أكثر ثقة في الألمان، لكن سرعان ما تبخرت آماله عندما وصلت الأخبار بهزيمة الألمان. في الحرب العالمية الأولى وتراجع اهتمامها بالمغرب وهذا ما سيشكل فرصة مناسبة لانفراد الإسبان بالمنطقة الشمالية. وفي هذا الصدد أشار هاريس أنه خلال الحرب راسل الريسوني واستفسره حول علاقته بالألمان وصحة تلقيه المال من ألمانيا فأجاب الريسوني على الشكل التالي: "إذا كان للإنجليز أو فرنسا أو غيرها من الدول المال لتقديمه، فأنا سأوافق من يدفع أكثر".[٣٧]

"si l'Angleterre ou la France ou tout autre nation on de l'argent a distribuer, j'accepterai volontaires, le plus sera le mieux".

٢/٣- الريسوني والإسبان

مع حلول سنة ١٩٠٧، سيتم خلع مولاي عبد العزيز بمراكش وتنصيب أخيه مولاي عبد الحفيظ، وكنتيجة للمساندة الريسونية سيعيد المولى عبد الحفيظ تعيينه بظهير سنة ١٩٠٩، عاملاً على أصيلا وقسم كبير من منطقة جبالة. خلال هذه المرحلة أقدمت اسبانيا على احتلال العرائش والقصر الكبير وبالضبط سنة ١٩١١ لأنها أصبحت تخاف من التقدم الفرنسي في البلاد / احتلال فاس).

في هذا الصدد تشير المصادر التاريخية أن الريسوني ساهم مساهمة فعالة في تسهيل عملية الاحتلال، وهذا ما يؤكده إدواردو كينطانا في كتابه الأسطول الحربي الإسباني بالمغرب واحتلال القصر الكبير والعرائش" كانت فرنسا تريد الاستيلاء على مدينتي أصيلا والقصر الكبير بصفة غير مباشرة بواسطة المحلات المغربية التي كانت تحت قيادة ضباط فرنسيين، وكان الريسوني يحس بالخطر الذي كانت تشكله فرنسا على منطقة نفوذه لهذا سهل عملية الاحتلال.[٣٨] بدوره جرمان عياش أشار إلى "أن الريسوني فضل اسبانيا لأنها لم تكن في نظره قوة عظمى كغيرها من الدول، وحيث أنها لم تكن تتوفر على قوة فإنه لم يكن يراها مهيأة لسحقه[٣٩]".

انطلاقاً من هذه الآراء التاريخية يتبين أن الريسوني وضع الثقة في الأسبان وقاية له من التهديد الفرنسي، وأيضا حفاظا على كامل سلطته في المنطقة. وبإعلان الحماية الفرنسية في سنة ١٩١٢ سيصبح الريسوني الرجل الذي تخاطبه اسبانيا في شخص الجنرال سلفستري الذي سيحاول القضاء على سلطته من خلال احتلال مجموعة من المناطق (اثنين سيدي اليمني- ثلاثاء الريصاني) بل وحتى التوجه إلى مقر الريسوني بأصيلة. وهو ما سيدفع هذا

الأخير إلى الفرار نحو تازروت. خلال هذه المرحلة سيجد الأسبان صعوبة في فرض سيطرتهم على القبائل الجبلية وهو ما سيدفعهم إلى التفاوض مع الريسوني مقابل ضمانات (استمراره في السلطة، وتزويده بالوسائل اللازمة لتدعيمها والمال والأسلحة). لكن هذه المرة بقيادة الجنرال خوردانا الذي عقد معه هدنة سنة ١٩١٥ تتلخص فيما يلي:

- وضع المال والسلاح تحت إشارة الريسوني.
- الاعتراف به قائدًا على القبائل الخاضعة له.
- توليه مسؤولية التواصل والحفاظ على الأمن مع القبائل.[٤٠]

هذا الاتفاق سيجعل ساكنة المنطقة تنظر إليه كعميل للإسبان يتآمر معهم للسيطرة على البلاد، ومع مرور الوقت ستكبر طموحات الريسوني وسيحاول فرض إرادته على الإسبان، وهذا ما سيدفع خوردانا إلى التعبير عن استيائه بقوله "يتمثلني الرأي العام كصانع للسياسة الريسونية والمدافع المتحمس عن الشريف بالعكس لم أكن أستطيع متابعة السياسة التي فرضتها الظروف على جميع الجنرالات إلا بالتصالح معه، ولم أصل إلى ذلك إلا عبر مجهود جبار بالتضحية بهيبتي".[٤١] هذا التقرير يعتبر آخر تقرير للجنرال خوردانا والذي يمكن اعتباره وصية سياسية عشية وفاته ١٩١٨، للجنرال برنكر الذي سينهج سياسة مغايرة تجلت معالمها في محاولة القضاء على قوة الريسوني في المنطقة بمطالبته بتقديم البيعة إلى مولاي المهدي بن إسماعيل، وهو ما أكد للريسوني أن الوعود التي تلقاها من الإسبان بتعينه خليفة سلطاني في المنطقة تبخرت وبالتالي لم يبق له خيار سوى إعلان الحرب على الإسبان.

٣/٣- الريسوني والحماية الفرنسية

سنتناولها من خلال ما أشار إليه المقيم العام "ليوطي" والذي اعتبر الريسوني عدو الفرنسيين من خلال ما توفر لديه من المعلومات التي استقاها من مخبريه بالمنطقة الجبلية، والتي اقتنع من خلالها بأن الريسوني إذا ما تم تسليحه وتزويده بالمال فإنه سيوجه جهوده نحو المنطقة الفرنسية وفي هذا الصدد نجده يقول" بالنسبة للمغرب الفرنسي أصبحت مسألة الريسوني خطيرة ومما يزيد من تعقيد المسألة هو أن الإسبان يجعلون منه مركز سياستهم فمجرد ذكر اسمه يظهر حب الناس له في مدريد أكثر مما هو في تطوان"[٤٢]، خاصة في فترة تعين الجنرال خوردانا. وقد تأكد الموقف الفرنسي من أحمد الريسوني في معارضتهم للمقترح الإسباني بتنصيب الريسوني خليفة بالمنطقة الشمالية.

الريسوني بدوره كان يعتبر الفرنسيين مصدر خطرا على سلطته لذا بادر إلى ربط علاقات مع الإسبان، والمقولة الريسونية التالية ستوضح كيف كان الريسوني ينظر علاقاته مع الساكنة المحلية والقوى الأجنبية "البربر" خدامي، والإسبان عبيدي، والفرنسيين أعدائي، والألمان حلفائي".[٤٣]

"les Berbères, sont mes serviteurs, les espagnoles sont me exlaves, les Français sont mes ennemis, les Allemands sont mes alliés"

خَاتِمَةٌ

من خلال كل ما تقدم يتبين؛ أن ضعف السلطة المركزية، وتزايد الضغط الأجنبي بالبلاد أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين فسحًا المجال أمام ظهور حركات تمردية لصوصية، تميزت بصعود شخصيات كبرى جشعة لا تضع نصب أعينها إلا مصلحتها الخاصة، بقي بعضها مجرد لصوص، بينما اكتسب البعض الأخر الجاه والنفوذ، وما الحركة الريسونية إلا واحدة من هذه الحركات التي استطاعت تكديس الأموال عن طريق المساومة (الحصول على تعويضات مقابل إطلاق سراح الرهائن)، والارتقاء إلى تقلد مناصب سامية (عامل طنجة وأصيلة)،جعلتها تمارس سياسة عنيفة تجاه بعض القبائل الجبلية التي مازالت الشهادات الشفوية تقدم لنا صورًا من العلاقات المتوترة بينها وبين الريسوني منها قبيلة بني يسف، بني مكوار، فحص الأنجرة، أهل سريف. وبحكم طموحها دخلت الحركة الريسونية في علاقات ديبلوماسية مع الدول الأوروبية مما شكل فرصة سانحة أمام هذه الأخيرة للضغط على المخزن، وتهديده بالتدخل في شؤون البلاد (إرسال بوارج حربية- فرض تعويضات -محاولة تنظيم الشرطة) وبالتالي استعمالها كورقة رابحة لانتزاع امتيازات مختلفة زادت من تأزيم وضعية البلاد.

مقالات

الهَوامِشُ:

(١) الريسوني، علي، "**رجال ومواقف دفاعا عن وحدة الأمة**"، مطبعة الشويخ، ١٩٨٢، ص٢١.

(٢) الريسوني، علي "**أبطال صنعوا التاريخ**، تطوان، ١٩٧٥، ص١٣.

(٣) التهامي الوزاني: **المقاومة المسلحة والحركة الوطنية في شمال المغرب**، تحقيق وتعليق ابن عزوز حكيم، مطبعة الساحل، الرباط ١٩٨٣، ص٣٩.

(4) Mohamed ali dahech, **my ahmed raisounni face au colinialisme franco-espagnole,**١٩٩٨ pp: 33.

(5) Khalouk Temsamani(A),"Ahmed raisouni bilan d'une vie aventureuse.". **Dar niaba**,١٩٨٨. N°: 15, P: ١٤

(6) Khalouk Temsamani(A)."les coups de raisounni".1895-1907", **Dar niaba**.1988. N° 19/20, / P: 8.

(7) Idem.

(٨) الخديمي علال، "**التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب**"، إفريقيا الشرق ١٩٩١، ص٣٥.

(٩) الريسوني علي، "**الذكرى الستونية لمعارك احتلال رباط زاوية" تازروت**"، مطابع الشويخ، تطوان، ١٩٨٢، ص٧.

(١٠) المريني العياشي، "**صور من التاريخ البطولي لمنطقة جبالة"** الجزء الأول، المطابع الدولية، طنجة، ١٩٨٣، ص١٣٧.

(11) Harris walter, "**le Maroc disparu**" traduit par paul odinote .paris.1929. P: 167

(١٢) المريني العياشي، م س. ص١٣٠.

(13) Khalouk Temsamani(A)," Ahmed raisouni...., op.cit, P: 15.

(14) Harris (W) .**le maroc**....op.cit ؛ p: 168.

(15) Idem.

(١٦) خلوق التمسماني، **"الحركة الريسونية من خلال الوثائق المغربية ١٩٠٨-١٨٩٧"**، الناشر سيليكي إخوان، الطبعة الأولى ١٩٩٧، ص٦.

* أنظر الملحق ص: ٢٨-٢٩.

(17) Khalouk Temsamani),les coups...... op.cit. P: 13.

(١٨) خلوق التمسماني، م س. ص١٨.

(19) Khalouk Temsamani, "les coups.......op.cit , P: 14.

(20) Laroui A, les origines.......op.cit. P 354.

(21) Khalouk Temsamani, "les coups"....."op.cit, P: 16

(22) D.f.weisgerber, **"Au seuil du maroc moderne"**.Edition,la porte,rabat,1949.p:126.

(23) Khalouk Temsamani (A) ,"les coups........ op.cit", P: 16.

(24) Ibid ,p:17

* العلامة الأحمدي من العلماء الأفاضل الذين عايشوا هذه الفترة التاريخية.

(٢٦) محمد أخريف: "**الاحتلال الاسباني لمدينة القصر الكبير ومقاومة القبائل المجاورة**"، ص"١٩١-٢٢٨" سلسلة ندوات رقم ١، منشورات الدراسات والأبحاث حول القصر الكبير، تنسيق وتقديم: محمد المغراوي- ط، ٢٠٠٠ أ، ص٢١١.

(٢٧) الحسن بن الطيب بوعشرين الخزرجي المكناسي،"**التنبيه المعرب عما عليه الآن حال المغرب**" تقديم وتصحيح محمد المنوني، دار النشر للمعرفة ط أ ١٩٩٤، ص:٧٩.

(28) Harris(w), **le maroc**......op.cit , p: 181.

(٢٩) خلوق التمسماني، "**الحركة الريسونية**....."، ص٢٠.

(30) HARRIS, (W). op.cit, P: 184

(31) Laroui(A), les origines.......op.cit. P 350.

(32) Khalouk temsamani **,** les coups"...Op.cit ,. P: 28.

(33) Khalouk temsamani, "les coups ...op.cit . P: 31

(34) Harris(w), Le maroc....op.cit p: 192.

(35) Ibid, p: 193.

(36) Khalouk TEMSAMANI, "raisouni et les affrontements diplomatique","**Dar niaba** , 198٣.N° 13/ P: 7

(37) Hariss (W), op. cit, p: 196

(٣٨) محمد ابن عزوز حكيم: "**الشريف الريسوني والمقاومة المسلحة في شمال المغرب**"ج الأول. مطبعة الساحل.الرباط.١٩٨١، ص٢٢.

(٣٩) جرمان عياش: **أصول حرب الريف**، ترجمة خلوق التمسماني، الرباط. ١٩٩٢ ص ٢٦٧.

(40) Khalouk Temsamani,"" raisouni et les affrontements..." op.cit.P:10

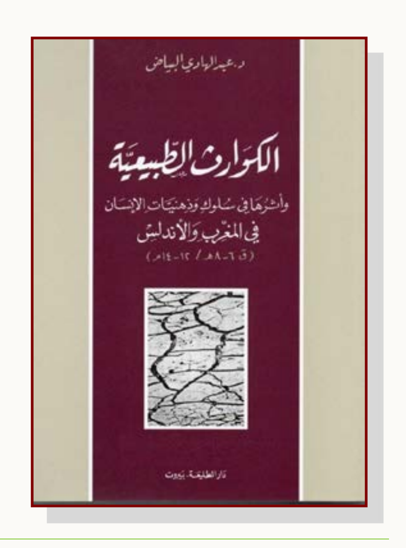
(41) Ibid, P: 16.

(42) Khalouk temsamani," raisouni et les affrontements..." op.cit .P :١٥

(43) Idem.



الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان
في المغرب والأندلس (ق٦ - ٨ هـ/ ١٢ - ١٤م)



هشام البقالي
ماجستير في تاريخ الأندلس
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
طنجة - المملكة المغربية

بيانات الكتاب

الدكتور عبد الهادي البياض
الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان
في المغرب والأندلس (ق٦-٨هـ / ١٢-١٤م)

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٨
٣١٩ صفحة

كلمات مفتاحية:
المجاعات، الكوارث المناخية، العصر الوسيط، الكوارث الطبيعية، المغرب والأندلس

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0051264

مقدمة

من المتعارف عليه بين عموم الباحثين والدارسين في شتى العلوم "أن تقدم الثقافة العالمة وتطورها شديد الارتباط بالتطارح والتناظر، والجدل والنقاش الجاد، وأن النقد البناء هو ركيزة أساسية لكل تفكير علمي يطمح للتقدم والتجاوز"[١]. لكن المتتبع للمشهد الثقافي بالمغرب ليسترعيه خفوت روح السجال والنقاش بين عامة المثقفين، بل إن الساحة الثقافية تشهد انتكاسة للحس النقدي السجالي حسب البعض[٢] بعد أن ظل سائدًا خلال أواخر القرن الماضي. فالسمة الطاغية بين مثقفينا في الوقت الحالي، هي التساكن والتهادن بل يمكن إضافة اللامبالاة المقصودة تجاه إنتاج الغير. والحقيقة فإننا نؤيد ما ذهب إليه الدكتور محمد الشريف حينما اعتبر "أن ما نعثر عليه من أدبيات نقدية تكاد لا تتخطى نطاق المجاملات والتزلف العلمي، أو إنها أقرب إلى تسطيحات الثقافة الصحفية منها إلى النقد والسجال العلمي الموضوعي."[٣]

بادئ ذي بدء تجدر الإشارة إلى أن موضوع الكتاب الذي نسعد اليوم بتقديم قراءة نقدية فيه، يتأطر زمنيًا في المرحلة الثالثة من مراحل تقدم البحث التاريخي في العصر الوسيط أي مرحلة ما بين سبعينيات القرن الماضي إلى وقتنا الراهن، وهي مرحلة تميزت بالانفتاح على علوم مساعدة للتاريخ كعلم الآثار والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وغيرها من العلوم. بل والاستفادة من مناهج عدة علوم، كالمنهج الإشكالي، والمنهج المقارن ناهيك عن توظيف مفاهيم التحليل النفسي والسلوكي والمقاربة الأنثروبولوجية. ولعل استعمال كل هذه العلوم في حقل التاريخ لا شك وأنها ستجعل المشتغل بهذا العلم أن يقتحم مواضيع ظلت لفترة طويلة خارج اهتمام الباحثين والمؤرخين، ولعل موضوع الكتاب يأتي في طليعة هذه الموضوعات. فمن المتعارف عليه بين عموم الباحثين في علم التاريخ أن البحث في تاريخ المناخ وما يترتب عن تقلباته من كوارث طبيعية وأوبئة لا يزال يخطو خطواته الأولى بالمغرب، في الوقت الذي قطع أشوطاً بعيدة في أوروبا حيث أصبحت نتائجه تقدم خدمات ثمينة للمؤرخين والباحثين. وللوقوف على قلة الاهتمام بقضايا المناخ والكوارث الطبيعية والأوبئة عبر مراحل تاريخ المغرب، تكفي مراجعة دليل الرسائل والأطاريح الجامعية.

وإذا كان التهيب من معالجة قضايا المناخ حتى في المراحل المتأخرة من مراحل المغرب يُعَدّ قاسمًا مشتركًا بين الباحثين، فإن البحث في هذه الإشكالية خلال الحقب الماضية يُعَدّ بحق مغامرة يصعب التكهن بنتائجها،

فالنصوص القليلة المتناثرة بين مظان مختلفة لا تسمح بتكوين تصور عام عن التطورات المناخية التي شهدها المغرب الوسيط، فبالأحرى الإجابة القاطعة على الأسئلة المطروحة. إن التمعن في علاقة المناخ بالتاريخ يدفع إلى القول بوجود قاسم مشترك بينهما، فالتغيرات المتتالية التي شهدها المناخ، كتتابع الفترات الممطرة ومثيلاتها الجافة، تُعَدّ شبيهة إلى حد بعيد بالتغيرات التي تصيب الحضارات[٤]، ولعل نظرية ابن خلدون تقدم النموذج الأمثل لمعاينة العوارض الدورية التي تصيب هذه الحضارات. وعلى العموم فإن المناخ والتاريخ يخضعان لتقلبات مستمرة[٥]. فكما لا يمكن التحكم في العوامل الطبيعية، يصعب إلى حد "الاستحالة" أحيانًا التنبؤ بالتحولات الاجتماعية.

وهكذا فإن وضع خطاطة أولية للتطورات المناخية للمغرب والأندلس، خلال مراحل تاريخهما السابقة كفيل برتق العديد من الثغرات التي تعاني منها المصادر المكتوبة، وهي في الآن ذاته كفيل بالتقليل من المساحات البيضاء التي تعرقل البحث في ظواهر اقتصادية واجتماعية وذهنية غاية في الأهمية. والظاهر أن السؤال المركزي الذي حمل المناخ إلى قلب انشغالات المؤرخين هو: هل هناك تطابق تام بين المناخ والمجتمع في حركتهما المطردة؟ إن الإجابات المتباينة للمؤرخين هي ما يضفي نوعًا من المشروعية على إثارة هذه الإشكالية. فهل كان للمناخ تأثير واضح المعالم على الإنسان والدولة خلال العصر الوسيط؟

ينبغي الاعتراف، أولاً؛ أن محاولة الإجابة على هذا السؤال تصطدم بالعديد من الإكراهات والصعوبات لعل أولها، انطلاق الباحث من شبه فراغ تنظيري في هذا المجال. فباستثناء بحث الدكتور محمد الستيتو الموسوم بـ"**الكوارث الطبيعية في تاريخ مغرب القرن السادس عشر**" وبحث الدكتور محمد الأمين البزاز المعنون بـ" **مجاعات وأوبئة المغرب في القرنين ١٨ و ١٩**"[٦] ودراسة الباحثة ثريا المرابط زروال حول "**تاريخ الزلازل بالمغرب من ٨٤٦ م إلى ١٩٦٠ م**"[٧]، لا نصادف أبحاثا ذات بال تهم الإشكالية موضوع الدراسة[٨]، اللهم إذا استثنينا دراسة المرحوم الحسين بولقطيب الموسومة بـ"**جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين**"[٩]. وإذا علما أن البحثين الأولين يهمان الفترة الحديثة من تاريخ المغرب، وأن الثالث "بانورامي" يهم إشكالية بعينها، أدركنا ولا شك غياب بحث مخصص لدراسة أثر التقلبات المناخية على مجتمعات ودول الغرب الإسلامي الوسيط.[١٠]

من هنا تأتي أهمية هذه الالتفاتة العلمية التي قدمها الباحث عبد الهادي البياض ليسد ثغرة كبيرة في الدراسات التاريخية المغربية. بعد هذه النظرة الوجيزة على أهمية الموضوع مجال الدراسة، يجدر بنا أن نقدم عرضًا ملخصًا عن مضامين الكتاب، على أن نردفه ببعض الأفكار المندرجة في إطار قراءته.

محتوى الكتاب

قسم الباحث موضوعه إلى مقدمة وبابين تنضوي تحتهما فصول وخاتمة. ففي المقدمة بين أهمية الموضوع وامتداداته السلوكية والذهنية، إلى جانب نبذة عن ملامح المنهج المعتمد في مقاربته. أما الباب الأول من الدراسة والمعنون بـ"**أثر الكوارث الطبيعية في السلوك والذهنيات**" (ص١٧. ١٥٦)، فقد تطرق فيه الباحث إلى دراسة أثر الكوارث الطبيعة في سلوك وذهنيات الإنسان بالمغرب والأندلس. وقد جرى تفصيل ذلك في فصوله الثلاثة على الشكل التالي:

الفصل الأول عنونه بـ"**مسح عام للكوارث الطبيعية في المغرب والأندلس**" (ص١٧. ٧٨) حيث قام الباحث بمسح عام لأصناف الكوارث الطبيعية التي عصفت بالمغرب والأندلس في الحقبة مجال الدراسة، ويتضح أنها قد تنوعت ما بين القحوط والمجاعات، والعواصف والسيول، والجراد ناهيك عن الحرائق فضلاً عن الزلازل والأوبئة، وقد قام الباحث بتذييل كل منها بفحص وتعليق. انظر الصفحات (٤١. ٤٢. ٤٣. ٤٤. ٤٥. ٤٦- ٦٠. ٦١. ٦٢. ٦٣- ٦٩). وقد اعتمد الباحث في هذا التعليق والفحص على المنهج الكمي الإحصائي، ناهيك عن مؤشر الحدود الفاصلة بين مستوى تردد أصناف الكوارث الطبيعية على مدار حقبة الدراسة (ص٤١. ٤٢. ٦١)، ليخرج بخلاصة مفادها أنه لم يخل قرن من القرون الثلاثة سلم فيه المغرب والأندلس من ضغط الكوارث والجوائح، مع إقراره باستثناء القرنين ٦ و٧ للهجرة بنسب عالية في ترددها في المجال المدروس.

أما الفصل الثاني الموسوم بـ" **الكوارث الطبيعية وسلوك الإنسان العدواني والاستسلامي في المغرب والأندلس**" (ص ٧٨. ١٢٩) فحاول البياض إبراز أثر الكوارث الطبيعية في تشكيل سلوك إنسان العدوتين، فاتضح من خلال التحليل سيادة سلوكات عدوانية من تجلياتها الغصب والسلب والتعدي (ص٧٨. ٨٧)، ومن مظاهرها المضاربة والاحتكار وغلاء الأسعار (ص٩٩. ١١٢). وهي سلوكات حاول الباحث الكشف عن مدى مقاومة الدول المركزية لها في مراحل قوتها لدعم شرعيتها (ص ١١٢ . ١١٦). كما حاولت الدراسة إبراز لحظات فتور هذه المقاومة في طور هرمها، وتورط أجهزة السلطة في الأطراف البعيدة في أعمال السطو والنهب بشكل مباشر أحيانًا، وبتنسيق مع العصابات المتنفذة في حال استفحال الكوارث أحيانًا أخرى. الشيء الذي فاقم الأزمة وفسح المجال لذوي النفوذ الروحي والديني، بالتدخل للتخفيف من حدة الاحتقان الاجتماعي لإعانة المنكوبين وإغاثتهم. كما كشفت الدراسة سلوكات استسلامية تجلت بالأساس في تعدد حالات الفرار والهجرة والتنقل الاضطراري خوفا من شبح المجاعة والوباء (ص ١١٦ . ١٢٩).

"**أثر الكوارث الطبيعية في ذهنيات إنسان المغرب والأندلس**" عنوان الفصل الثالث (ص١٣٠. ١٥٦) حيث قام الباحث بتتبع أثر الكوارث الطبيعية في صياغة ذهنيات

عرض كتـــاب

خرافية وسلوكية سحرية، ارتبط بها إنسان المغرب والأندلس في الحقبة المعنية بالدارسة، وقد تجلى ذلك في عجزه عن إدراك العلاقات السببية المؤثرة في حدوث الاضطرابات المناخية القصوى. ساعد على ذلك تواضع مستوى الوعي المرتبط بانحسار مجالات التعليم وفقر مقرراته (ص١٣٥)، فوجدت المتغيرات المناخية مرتعا لسيادة الفكر الخرافي والاعتقاد في المشعوذين والكهان والسحرة والمنجمين (ص١٤٢.١٥٦).

والحقيقة فإن الاستقراء التاريخي يوضح أن هذه السلوكات لم تكن سوى واجهة تعبيرية عن واقع مثخن بالأزمات والفواجع الطبيعية الصعبة التي كابدها إنسان الحقبة المدروسة. كما يتبين أن ضغطها المتزايد ولد ذهنيات التعليل الخرافي، التي دعمتها الأجهزة الحاكمة أحيانًا، من خلال اتخاذ أولي الأمر المنجمين وسيلة لمعرفة أسرار الغيب، وكشف الطالع وقراءة القرانات، باعتبارها وسائل رصد خرافية للاضطرابات المناخية (ص١٥٣.١٥٦). وهكذا كشفت الدراسة سيادة طقوس سحرية، من زجر وقراءة الكتف وخط رمل ورقى، وكذا اتخاذ طلاسم لحراسة الإنسان والمكان من الآفات والكوارث (ص ١٤٢.١٥٦).

في حين حاول عبد الهادي البياض في الباب الثاني الموسوم بـ" **الكوارث الطبيعية وإبداع أساليب المواجهة"** (ص١٥٩ . ٣١٠)، حاول رصد أهم ردود فعل إنسان مجال الدراسة تجاه مضاعفات الكوارث الطبيعية، مركزا على أساليب المواجهة التي أبدعها للتخفيف من ضغطها على وجوده وموارد عيشه. على هذا الأساس قام الباحث بتفصيل ذلك في أربعة فصول عنون الأول منها بـ" **الإنسان في المغرب والأندلس بين مواجهة الكوارث الطبيعية والعودة إلى الطبيعة (ق ٦ . ٨ هـ/ ١٢ . ١٤م)** حيث حاول إبراز التدابير الميدانية لمواجهة مضاعفات الكوارث الطبيعية، منها تطوير أساليب السقي وعدم الاعتماد الكلي على مياه التساقطات (ص١٥٩- ١٦٧) وذلك من خلال استغلال المياه الجوفية، بدءا بعمليات التنقيب عن المياه واختبار جودتها، مرورا بمد قنوات السقي وحفر الآبار والصهاريج، وصولا إلى ترشيد استغلال المياه بوسائل تقنية وتنظيمها وفق قوانين وأعراف محلية (ص١٦٢- ١٦٧). كما حاول الباحث الكشف عن دور السدود والجسور في الحد من خطورة السيول والفيضانات الجارفة (ص١٧٢-١٧٥)، هذا فضلاً عن وسائل مكافحة الجراد (ص١٧٧ -١٧٩). كما حاولت الدراسة إبراز دور الزلازل وهزاتها الارتدادية رغم إقراره بقلتها في ظهور ذهنيات طالما ربطت بينها. أي الزلازل وبين أنواع العقاب السماوي للإنسان، كما أبرزت الدراسة الحس العلمي الذي عبر عليه بعض علماء الفترة محل الدرس وذلك من حيث فهم الظاهرة، واستيعاب علاقاتها السببية (ص١٧٩ -١٨١).

وتعرضت الدراسة إلى إبراز دور الكوارث الطبيعية . وخاصة منها المجاعات . في ظهور سلوكات غذائية بدائية - كما عبر عنها الباحث-نسخت عادات إنسان المغرب والأندلس المتحضرة، وذلك من خلال سياحته في البراري لجمع موارد الغابات وثمارها، وقنص حيواناتها وزواحفها، بل ومنافسة وحيشها في التهام الأعشاب والحشرات. وهكذا يتضح أن الجوع إذا تمكن من الإنسان فإن نظرته لما حوله من القيم تتغير بتغير سلوكه (ص١٨١ -١٩٤) وحينها لا يتورع عن القيام بأي عمل شاذ كأكل البهائم والجيف كما عبر عن ذلك ابن الخطيب.[١١]

وفي الفصل الثاني الموسوم بـ" **الكوارث الطبيعية وسلوك الادخار في المغرب والأندلس (ق ٦ ـ ٨ هـ/ ١٢ . ١٤)** حاولت الدراسة، رصد السلوكات التحصينية التي اهتدى إليها إنسان المغرب والأندلس تحت ضغط هواجس الخوف من المصير المجهول. وتجلى ذلك في تجفيف المواد القابلة للادخار، وإعداد مطامر وأهراء لصيانة احتياطه الغذائي وتفادي الفترات القاسية التي تفرضها عليه الكوارث الطبيعية. كما عالجت الدراسة المخازن والمستودعات الرسمية وذلك من حيث طرائق بنائها وتهيئتها، وعوامل تدبيرها وإدارتها ومدى دورها في إغاثة المتضورين جوعًا (ص٢٠٢ .٢١٢). كما تم رصد سلوكات الخزن الشعبي، حيث يتضح أن سلوك الادخار أضحى عادة راسخة في المغرب والأندلس في العصر الوسيط عمومًا وفي الفترة مدار الدراسة خصوصًا (ص٢١٢.٢٢٣).

تصدى البحث لدور الكوارث الطبيعية في ظهور التوترات الاجتماعية وذلك في الفصل الثالث والمعنون بـ "**مواجهة الكوارث الطبيعية وظهور التوترات الاجتماعية"** (ص٢٢٤ -٢٥٢)، حيث احتلت القحوط والمجاعات والفيضانات محور الصراع في المغرب والأندلس.

وهكذا أمكن الوقوف على دور التحولات المناخية وتشكلات سطح تضاريس العدوتين، في نشوء التوترات بين سكان المناطق المرتفعة والمستوطنين أسفل منهم، وذلك على ضوء النصوص التي استطاع الباحث إدراجها في متن الدراسة. والحصيلة أن معظم المنازعات كانت تعزى إلى عدم تكافؤ الفرص في استغلال المياه سواء في فترات ندرته أوفي فيضانه (ص٢٢٤.٢٣٨). كما حاولت الدراسة إبراز دور الكوارث الطبيعية، في نشوب الخصومات بين المزارعين والرحويين، خاصة في أوقات القحط والجفاف وغالبًا ما كان أصحاب المزارعين والجنات يستفيدون من المياه على حساب أصحاب الرحى وذلك استنادًا على أجوبة الفقهاء في هذه النوازل، (ص٢٣٨.٢٤٨). وتجدر الإشارة إلى؛ أن كتب الفقه والنوازل والحسبة تزخر بمادة تاريخية مهمة تهم معظم الحالات التي تكون فيها الكوارث والجوائح سببا في إثارة الخصومات بين الشركاء والمتعاقدين سواء تعلق الأمر بمنازعات الإيجار، أو أنواع الشراكة في البوادي، أو المعاملات في المرافق الاقتصادية والدينية، فضلا عن النزاع بشأن صيانة وترميم ما أتلفته الكوارث المختلفة بالمغرب والأندلس خلال الحقبة التي اهتمت بها الدراسة.

وفي الفصل الرابع المعنون بـ" **مواجهة الكوارث الطبيعية وتأسيس المجتمع المتضامن في المغرب والأندلس (ق ٦ . ٨ هـ/ ١٢ . ١٤ م)**، أبرزت الدراسة أن سلوكات التوتر والنزاع لم تكن الإفراز السلبي للكوارث الطبيعية فقط، فلهذه الآفة

وجه إيجابي تمثل من خلال الاستقراء الشامل لثقافة التكافل الاجتماعي لسكان العدوتين. حيث يظهر أن الرباطات الصوفية شكلت ملاذا لإيواء الجوعى، بينما فتحت الدول المركزية مخازنها في وجه جحافل الجوعى، كما وفرت المواد الضرورية للأسواق ناهيك عن تحرير الأسعار. هذا ولا ننسى الدور الاجتماعي لمتصوفة المرحلة المدروسة إبان هذه الكوارث. كما حاولت الدراسة إبراز عناية الدول المركزية في مراحل قوتها لبناء وتجهيز المرافق الإستشفائية والمستشفيات العمومية، خاصة إذا علمنا أن خدماتها كانت مجانية.

وفي الخاتمة (ص ٣١١ . ٣١٥) قام الباحث بتقديم تلخيص عام لأهم فصول الدراسة. هذه إذا أهم مضامين الدراسة التي حاول من خلالها الباحث إعطاء صورة واضحة عن أثر الكوارث الطبيعية في سلوك وذهنيات إنسان العدوتين فيما بين القرنين السادس والثامن الهجريين، الثاني عشر والرابع عشر للميلاد.

الملاحظات والتساؤلات

ونصل الآن إلى إبراز بعض الملاحظات والتساؤلات التي عنت لنا من خلال قراءتنا للكتاب.

في البداية تجدر الإشارة إلى؛ أن الدراسة التي بين أيدينا تضم بين دفتيها حوالي ٣٢٠ صفحة وقد بذل الباحث من أجل دراسة هذا الموضوع الذي لايزال مغيبا في الإستوغرافية المغربية الحديثة، بذل مجهودًا جبارًا، وهو ينتقل ويجول بين أصناف مصدرية مختلفة وذلك قصد لم النصوص المتعلقة بموضوع البحث. فالموضوع يُعَدّ-وبكل المقاييس- موضوعًا إشكاليًا مفعمًا بالمطبات التي تمتزج فيها ندرة المتون النصية بالتعقيدات المنهجية التي تفرضها طبيعية موضوع بهذه الشاكلة. لكن رغم ذلك لم يخصص الباحث للمقدمة سوى صفحتين وبضعة أسطر، ويخيل إلينا أن للمقدمة مكانها الاستراتيجي في كل الأعمال الأكاديمية، نظرًا لأنها يجب أن تتضمن رؤى ومواقف منهاجية معينة، وهذا ما لا نلحظه في هذه المقدمة.

يحيل الباحث على مصادر مرقونة وهي في الحقيقة مطبوعة، فمثلا يحيل على كتاب أحمد بابا التنبكتي (ت ٩٦٣ هـ/ ١٠٣٦م)، "**كفاية المحتاج المعرفة من ليس في الديباج**"، تحقيق، محمد مطيع، د.د.ع، في التاريخ، خزانة كلية الآداب بالرباط، والكتاب متداول وقد طبعته وزارة الأوقاف المغربية، مطبعة فضالة، سنة ٢٠٠٠. وكذلك يحيل الباحث على مصادر مخطوطة وهي في حقيقة الأمر قد حققت انظر مثلاً "**جنة الرضي في التسليم بما قدر الله وقضى**" مخطوط الخزانة الحسينية رقم ٢٦٤٨، والكتاب محقق من طرف الدكتور صلاح جرار، سنة ١٩٨٩[١٢]، وهناك نسخة ثانية من هذا العمل أنجزته الدكتورة ميلودة الحسناوي الشرويطي لكنه لازال مرقونًا. كما يشير إلى فتاوى البرزلي في نسختها المخطوطة وهي قد طبعت سنة ٢٠٠٢، وما دمنا في قضية المصادر، فالباحث لم يورد قائمة المصادر والمراجع المعتمد عليها في دراسته، وإنما اكتفى بوضع لائحة للمصادر المخطوطة متبعا في ذلك منهجية أستاذه الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش، مما يصعب معه حصر قائمة البيليوغرافيا التي اعتمدها الباحث في دراسته.

في الفصل الأول من الدراسة والذي خصصه الباحث لمسح عام للكوارث والمجاعات التي ضربت المغرب والأندلس، إبان الحقبة مجال الدراسة، نرى الباحث يتحاشى ذكر مجموعة من القحوط والمجاعات وذلك في الجدول الأول من الصفحة ٣٦، معللاً ذلك "التفادي التأويل القائم على التخمين المؤدي في الغالب إلى الأحكام والنتائج". (ص٤١).

والیكم أهم تلك القحوط والمجاعات:

نوع الكارثة	سنة وقوعها	مجالها	المصدر
مجاعة	**٦١٤ هجرية**	**غير محدد**	**البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٦٧**
مجاعة	**٦١١ هجرية**	**غير محدد**	**البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٦٧**

جدول مجاعات غير محددة التاريخ لم يذكرها المؤلف:

المصدر	الصفحات
التشوف	**٢٤.٢٤٦.٣٠٧.٣٣٣**
المناهج الواضح	**ج ٢، ٣٠٥.٤٠٤**
مناقب أبي يعزى (مخ)	**٢٣**
الذيل والتكملة	**س ٨ ق ١، ص ١٧٥**
الإعلام بمن حل مراكش من الأعلام	**ج ٩، ٨٦ والجزء ١، ٢٧**
النجم الثاقب (مخ)	**٢٢٩**
المؤنس في أخبار إفريقية	**١٢١**
البيان المغرب	**ج١، ٢٧١**

الجدول نقلاً عن الحسين، بولقطيب، **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين**
منشورات الزمن، سلسلة قضايا تاريخية، رقم ٤، الدار البيضاء، ٢٠٠٢، ص٤٦.

كما يحيل الباحث على مجموعة من المصادر للمرة الأولى لكنه لا يعطي كافة البيانات المتعلقة بالبيليوغرافيا، مما يؤدي بالقارئ إلى إيجاد صعوبة معرفة الطبعة التي اعتمدها الباحث، خاصة عندما يحيل على مصادر حققت أكثر من مرة ومن طرف باحثين مختلفين (انظر مثلاً نفاضة الجراب، والإحاطة...، في عدة صفحات).

في غياب مادة مصدرية كفيلة بإماطة اللثام عن أثر الكوارث الطبيعية في سلوك وذهنيات إنسان المرحلة إبان الدراسة يضطر معه الباحث عبد الهادي البياض إلى إقحام مجموعة من الظواهر الطبيعية وغير الطبيعية في بحثه، فمثلاً يتحدث عن ظاهرتي الكسوف والخسوف (ص٧٤. ٧٥). ناهيك عن إيراده للحرائق واعتبارها كوارث طبيعية مع العلم أن جميع النصوص التي استشهد بها الباحث ليدعم أرائه حول هذه الحرائق هي من صنع إنسان المغرب والأندلس خلال مرحلة الدراسة. ولنا أن نتساءل: هل تعد الحرائق التي يتسبب فيها الإنسان، كوارث طبيعية؟ (انظر صفحات ٦٩. ٧٠. ٧١. ٧٢. ٧٣. ٧٤) وهل ظاهرتي الخسوف والكسوف، كوارث طبيعية؟

إن الباحث كما أسلفنا الذكر يقحم مجموعة من الظواهر الطبيعية في الدراسة، رغم اعترافه مثلاً بأن الزلازل" ليست من صنف الكوارث التي تحدث باستمرار بشكل عام، وفي المغرب والأندلس بشكل خاص نظرًا لبعد مجاليهما الجغرافي نسبيًا عن خط الزلازل" (ص٧٥)؟ بل أكثر من هذا فإننا نجد عبد الهادي البياض يدرج زلازل وقعت في المغرب والأندلس وهي زمنيًا خارج الإطار الذي حدده لبحثه، أي ما بين القرنيين السادس والثامن للهجرة، حيث يتحدث عن زلزال ضرب المغرب سنة ٤٧٢هـ/ ١٠٧٩م، (ص٧٥) وهذا الزلزال متأخر عن بداية القرن السادس بـ ٢٨ سنة، والأغرب من هذا وذاك أن الباحث يستشهد بزلازل المشرق ومدينة تونس في إفريقية سنتي(٦٠٠ هـ/١٢٠٤م- و٦٥١هـ/ ١٢٥٣م) على التوالي، معللا ذلك" بحكم التباعد الزمني للهزات الأرضية [لذلك] أدرج تلك القريبة جدًا من الغلاف الزمني المحدد لموضوع الدراسة" (ص٧٥).

إن المتأمل لكتاب" **الكوارث الطبيعية**" ليلحظ أن الباحث عبد الهادي البياض لم يلتزم بمنهجية موحدة في دراسته، ففي سياقه لعرض الكوارث الطبيعية التي ألمت بالمغرب والأندلس خلال الحقبة المدروسة، نجده يتحدث عن كوارث كل قرن على حدة فمثلا يتحدث عن قحوط ومجاعات القرن السادس الهجري، (ص٢٠. ٢٤). ويدرج قحوط ومجاعات القرن الثامن الهجري، (ص٣٣. ٤٦)، في حين نجده يتحدث عن أثر هذه الكوارث وسلوك الإنسان بشكل متداخل، أي أنه يتحدث عن أثرها بصفة عامة سواء كان ذلك في العصر المرابطي أو الموحدي أو المريني.

يتحدث الباحث عن أن المتصوفة كان لهم أثر واضح على الفقراء والمنكوبين في الكوارث والمحن التي عصفت بسكان المغرب والأندلس في الحقبة قيد الدرس، وهذا أمر لا يجادل أحد فيه، لكن الدكتور عبد الهادي البياض يتناقض مع نفسه، ويتحدث عن هذه الشريحة من المجتمعين المغربي والأندلسي بقوله إن البعض منهم كان" يأخذ الطعام وقت رخصه ويتاجر أيام غلائه" وهذا أمر يتناقض وسلوك المتصوفة خاصة متصوفة الحقبة المدروسة[١٣]، وقد جبل هؤلاء على التكافل والتضامن خاصة أيام المجاعات والكوارث والشدائد، والغريب في الأمر أن الباحث لا يعزز كلامه هذا بنصوص فهو لم يستدل على ذلك ولو بنص واحد، اللهم إذا استثنينا اقتباسه هذه الفكرة من كتاب" **النشاط الاقتصادي**" للدكتور عز الدين أحمد موسى.[١٤]

يستشهد الباحث في دراسته بأحداث مؤطرة زمنيا خارج مجال البحث أي القرنيين ٦. ٨ هـ/ ١٢. ١٤م، فمثلاً يستشهد في المحور الذي عنونه بـ" **المجاعات والعودة إلى سلوك التغذية البدائية**" بأن إنسان الأندلس عانى من كثرة الجوع الذي ألم به حتى أقدم على أكل لحم أخيه الإنسان، واستدل على ذلك" بأحدهم عندما هجم على نصراني وقع في الحفير فأخذ باليد ووزع لحمه"، وهذا الحدث مؤطر زمنيًا خارج الفترة مدار الدراسة، وهذا الحدث وقع سنة ٤٨٧ هـ/١٠٩٤م. (انظر الصفحة ١٩٤).

إن المتفحص لمضامين الكتاب بدقة يجد أن الدكتور عبد الهادي البياض قد أفرد عناوين لبعض المحاور لا علاقة لها بمضمون تلك المحاور، فمثلا نجده يعنون أحد المحاور بالصيغة التالية: "**استعانة المخزن بالأولياء في الحملات التكافلية إبان الكوارث الطبيعية**"، والحقيقة أن هذا المحور يتحدث عن بعض الأدوار الاجتماعية لمتصوفة القرنين السادس والسابع الهجريين، هذا من جهة ومن جهة ثانية نجد الباحث لا يستشهد بمتصوف واحد من القرن الثامن الهجري، مع العلم أنه يؤكد في غير من بأن هذا القرن هو قرن الكوارث بامتياز، فهل يعني هذا أن هؤلاء المتصوفة لم يكن لهم دور اجتماعي في هذه الحقبة؟

حقيقة أن متصوفة هذا القرن كان لهم دور اجتماعي مهم على غرار متصوفة عصري المرابطين والموحدين، ونكتفي هنا بالإشارة إلى أطروحة الدكتور محمد مفتاح الموسومة بـ"**الخطاب الصوفي مقاربة وظيفية**" والتي أدرج فيها مجموعة من الأدوار الاجتماعية لمتصوفة القرن الثامن الهجري، خاصةً إبان الكوارث التي هي قيد الدرس في هذا الكتاب.

إذا كان الأمر والحالة هذه، فإن عبد الهادي البياض وإن اعترف بهذه الأدوار التي أنيطت برجال التصوف في العصر الوسيط- مع ذلك- فإنه يُسقط بعض المفاهيم المعاصرة على هؤلاء ويحملهم مالا يتحملونه، فنجده يقول:" على الرغم من أهمية الدور التكافلي الذي اضطلع به الأولياء زمن الكوارث المناخية بالمغرب والأندلس، فقد أسهموا دون قصد في إفشال تطور الاحتقان الاجتماعي إلى نواة احتجاج واعية، كان من شأنها إحداث طفرة نوعية في إشاعة لغة الحقوق والواجبات، وترسيخ سلوك محاسبة المسؤولين في إدارة الشأن العام، وخاصةً في الفترات العصيبة التي تتزامن مع الكوارث الطبيعية أو تعقبها"[١٥]. نعتقد أن مثل هذه المفاهيم من قبيل "الاحتقان الاجتماعي" و"نواة احتجاج

واعية" و"لغة الحقوق والواجبات" و"ترسيخ سلوك محاسبة المسؤولين في إدارة الشأن العام"، مصطلحات لم تكن واردة في عقلية متصوف العصر الوسيط، وهي مفاهيم برزت بعد القرن الثامن عشر مع الدولة الوطنية الحديثة، وعصر الأنوار، لذلك فهذا الطرح لا ينسجم مع عقلية متصوف العصر الوسيط، الذي كان همه الوحيد هو مساعدة المحتاجين والمعوزين، ولم يكن يُفكِّر في تأليب المجتمع ضد السلطة، هذا مع العلم أن هذه الدراسة وغيرها تجعل عمل المتصوفة هذا متسم بالظرفية، في حين أن المتأمل للنصوص يرى عكس ذلك.

وبالعودة إلى صيغة المحور الذي أشرنا إليه آنفًا وعلى ضوء ما سبق عرضه أعلاه، يمكننا أن نتساءل، أين تتجلى استعانة المخزن بالأولياء في هذا المحور؟ مع العلم أن الباحث لم يستشهد ولو بنص واحد عن استعانة المخزن بالمتصوفة؟ هذا مع العلم أن جل متصوفة العصر الوسيط كانوا يبدون معارضة تجاه السلطة ورموزها[١٦]. وحسبنا في ذلك أن يقر بهذه الحقيقة واحد من أكبر المتخصصين في تاريخ المغرب والأندلس في العصر الوسيط بقوله إن "علاقة السلطة بالمتصوفة كانت في أغلبها علاقة تنافر وتباعد ومواجهة، وسلكت المؤسسة الحاكمة في مواجهة التيار الصوفي مجموعة من الأساليب تراوحت بين المراقبة والمتابعة وإلصاق تهم الخروج عن السنة، والملاحقة والإبعاد والاعتقال والسجن والاغتيال، وكلها أساليب تفصح عن مدى خطورة المتصوفة كتيار فكري فرض نفسه في المجتمع المغربي الوسيط".[١٧]

في الفصل الثالث من الباب الثاني الموسوم بـ "مواجهة الكوارث الطبيعية وظهور التوترات الاجتماعية في المغرب والأندلس (ق٦-٨هـ/ ١٢-١٤م)، يتكرر كثيرًا مفهوما "الأعالي" و"الأسافل"، لكن الباحث لا يعطي للقارئ العادي أو غير المتخصص شرحًا لهذين المصطلحين.[١٨]

وعلى العموم يُلاحظ؛ أن دول الفترة مجال الدراسة قد قامت بالأدوار المنوطة بها تجاه رعاياها. فقد كانت في كثير من الأحيان، حاضرة إبان الكوارث الكبرى، محاولة التدخل للتخفيف من وقعها على الشرائح السفلى من المجتمع، حيث كانت تفتح مخازنها أمام الفقراء والجياع، الأمر الذي يقلل من حجم الخسائر الديموغرافية. لكننا نلحظ أن أغلب إذ لم نقل جل النصوص التي استشهد بها الدكتور عبد الهادي البياض حول الكوارث الطبيعية تهم الحواضر دون البوادي، إذ مازلنا لا نعلم هل قامت دول الفترة محل الدراسة، تجاه سكان البوادي بنفس الأدوار التي قامت بها تجاه سكان الحواضر. فهل مردُ هذا الأمر إلى صمت المصادر الوسيطية كلما تعلق الأمر بسكان البوادي، فالحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لهؤلاء السكان تعاني من غياب شبه تام؟ أم ذلك يعود إلى عقلية المؤرخ الوسيطي الذي يتحمل المسؤولية المركزية في" تغييب" حياة الأغلبية المنتجة والاقتصار على تتبع حياة الخلفاء والسلاطين وكبار القواد العسكريين وشيوخ القبائل والفقهاء المدافعين عن الاختيارات المذهبية للدول الوسيطية؟ سؤال نطرحه ونترك الإجابة عنه للمتخصصين في هذه الفترة، عسى أن يجدوا له جوابًا.

ختم الباحث كتابه بخاتمة لا توازي في نظرنا المجهود الجبار الذي بذله في سبيل إخراج هذا العمل والكشف ما للكوارث الطبيعية من أثر في سلوك وذهنيات إنسان المغرب والأندلس في المرحلة قيد الدراسة، فهو قام في هذه الخاتمة بإيراد ملخص مقتضب لفحوى فصول وأبواب الدراسة ليس إلا. بيد أن خاتمة أي كتاب وخاصةً الأعمال الأكاديمية تكون عبارة عن عصارة البحث أو الدراسة، فهي تحمل استنتاجات العمل وأهم الخلاصات التي خرج بها الباحث في موضوعه بل أكثر من ذلك فهي تحمل تساؤلات مشروعة تفتح أبوابًا أخرى أمام البحث العلمي، وهذا ما لا نجده في هذه الخاتمة.

وتبقى أكبر ملاحظة على الباحث هي، عدم تخلصه من أسلوب أستاذه الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش، فالقارئ للأطروحة ليلحظ حضور شخص الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش بقوة في الدراسة.

خاتمة

والحصيلة؛ أن هذه الانتقادات لا تنقص من قيمة العمل أي شيء إذ يكفي أن نعلم أن الباحث ينطلق من شبه فراغ تنظيري فالمحن والكوارث التي عاشها إنسان الفترة المذكورة" تقابل بصمت المصادر التي تعز فيها المادة التي يمكن للباحث أن يكشف من خلالها صورة من صور الدمار الذي استهدف الإنسان وبيئته، مما يشكل عثرة في درب تطور البحث في تاريخ الكوارث المناخية ويفسح مقابل ذلك المجال للتخمين والحدس وقياس النصوص ببعضها، مع ما يكتنف هذه العملية من مزالق منهجية". (ص٦٤). وعسانا أن نكون بقراءة هذا العمل، قد أضفنا إضافات إلى هذه الدراسة التي قام بها الباحث عبد الهادي البياض، وساهمنا معه بالحد الأدنى المطلوب من أجل خدمة تاريخ الكوارث الطبيعية في المغرب والأندلس خلال الحقبة المدروسة. وحسبنا أننا حاولنا وسعينا "وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ" و"وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ".

الهوامش

(١) محمد الشريف: **إصدارات في تاريخ الغرب الإسلامي (قراءات نقدية)**، ج١، الرباط، ٢٠٠٥، ص٣.
(٢) المرجع نفسه، ص٣.
(٣) المرجع نفسه والصفحة.
(٤) الناصري، محمد، **"الكوارث الطبيعية والحتمية التاريخية"**، مجلة كلية الآداب، الرباط، عدد ١٥، ١٩٨٩ . ١٩٩٠، ص٦٨.
(٥) المرجع نفسه، ص٦٩.
(٦) الصادر عن منشورات كلية الآداب الرباط، ١٩٩٢.
(٧) رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة في التاريخ مرقونة بخزانة كلية الآداب بالرباط، بتاريخ: ١٣ .٦ .١٩٩١م.
(٨) للوقوف على غياب الاهتمام بالمناخ والكوارث الطبيعية عبر تاريخ المغرب، يراجع: **دليل الأطروحات والرسائل الجامعية المسجلة بكليات المغرب** في ١٩٦١ إلى ١٩٩٤ وملحقاه لسنتي ١٩٩٥ إلى ١٩٩٦، منشورات جامعة محمد الخامس كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة دراسات بيبليوغرافية، رقم٤.
(٩) الصادر عن منشورات الزمن سنة ٢٠٠٢، سلسلة قضايا تاريخية رقم (٤)، ١٣٥ صفحة.
(١٠) توجد مجموعة من الدراسات القطاعية التي اهتمت بموضوع الكوارث الطبيعية نذكر منها: الحسين إسكان، **"المجاعات والأوبئة بين الآفات السماوية والجائحة الإنسانية خلال العصر الوسيط شمال المغرب"** ضمن أعمال ندوة، **المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب**، منشورات كلية الآداب الجديد، سلسلة ندوات ومناظرات، ع، ٤، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء،٢٠٠٢.- عز الدين جسوس، **"الكوارث الطبيعية والأوبئة ومدى تأثيرها على العلاقة بين الرعية والسلطة السياسية خلال حكم المرابطين"** ضمن ندوة، المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب.- صدقي أحمد الدجاني، **"الكوارث الطبيعية"** ضمن أعمال ندوة، **الكوارث الطبيعية، آفة الجراد**، ربيع الثاني، ١٤٠٩ هـ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة الدوريات.- ياسين عثمان، **"الوقاية من آفة الجراد"** ضمن المرجع السابق.- ابن الخوجة، **"الجراد بين الدراسات الحديثة"**، ضمن المرجع السابق.- محمد الأمين البزاز، **"حول المجاعات والأوبئة بالمغرب خلال العصر الوسيط"**، مجلة كلية الآداب الرباط، العدد ٢٨، ١٩٩٣، ص ٩٣ . ١١١، نفسه **"الجراد والجوع والأمراض في المغرب خلال العصور القديمة والوسطى"**، مجلة المناهل، عدد خاص بتجربة الإصلاح في المغرب، العدد، ٦٩ ،٧٠، ١٩٩١، ص١٠٩ - ١٢٢. ولنفس الباحث، **«الطاعون الأسود في المغرب»**، مجلة كلية الآداب، العدد، ١٦، ١٩٩١، ص ١٠٩.١٢٢.
Rosenberger et triki; «famines et épédémies ou maroc oux xvie siècle» le partie hesperis tamuda: vol XIV.
(١١) ابن الخطيب، **نفاضة الجراب**، ج٢، ص٣٢٤.
(١٢) جنة الرضى في التسليم لما قدر الله وقضى لأبي يحيى محمد بن عاصم الغرناطي، المتوفى سنة ٨٥٧ هـ، تحقيق، د. صلاح جرار، دار النشر، البشير والتوزيع، طبعة ١٩٨٩، ٣ أجزاء.
(١٣) هذا ما خلصنا له في بحثنا لنيل الإجازة في التاريخ، **الدور الاجتماعي لمتصوفة العصر المرابطي**، (نسخة، مرقونة، السنة الجامعية ٢٠٠٨).
(١٤) عز الدين، أحمد موسى، **النشاط الاقتصادي في المغرب والإسلامي خلال القرن ٦ هـ**، دار الشروق، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هج/ ١٩٨٣، ص٢٩٦.
(١٥) عبد الهادي البياض: **الكوارث الطبيعية**...م. س، ص٢٧٥-٢٧٦، نفسه: **"تجليات المقاربة الوسيطية في منهج التكافل الاجتماعي لمتصوفة مغرب العصر الوسيط"**، ضمن كتاب: **التصوف السني في تاريخ المغرب، نسق نموذجي للوسطية والاعتدال**، تقديم وإشراف: د. ابراهيم القادري بوتشيش، منشورات الزمن، سلسلة شرفات، ٢٧، الدار البيضاء، ٢٠١٠، ص٢٣٣.
(١٦) التميمي، أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الفاسي (ت. ٦٠٣ أو٦٠٤ هـ)، **المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد**، دراسة وتحقيق، محمد الشريف، الرباط، ٢٠٠٢، ج١، ص٢٣٥.
(١٧) بوتشيش، إبراهيم القادري: **"حول محن المتصوفة المغاربة في العصر المرابطي"**، مجلة المناهل، عدد٨٠، ٨١، فبراير ٢٠٠٧، خاص بالزوايا في المغرب، ج١، ص٤٨.
(١٨) مفهوما "الأعالي" و"الأسافل" يقصد بهما المجال الذي تحتله عالية النهر وسافلته، وحول المصطلحين وكيفية تنظيم العلاقة بين العالية والسافلة في الحقبة موضوع الدراسة يراجع: بنميرة، عمر، **النوازل والمجتمع: مساهمة في تاريخ البادية بالمغرب الوسيط (ق٨ . ٩ هـ/ ١٤ . ١٥ م)**، دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب الرباط، ١٩٨٨ . ١٩٨٩، (مرقونة)، ص ٣٩٥ . ٣٩٦.

عرض كتـــاب

الحركة الفقهية في المغرب الأوسط

بين القرن السابع والتاسع الهجري/ الثالث عشر والخامس عشر الميلادي

حياة سيدي صالح
أستاذة مساعدة في كلية العلوم الإنسانية
جامعة "الجيلالي بونعامة"
خميس مليانة - الجمهورية الجزائرية

بيانات الأطروحة
أطروحة دكتوراه تاريخ وسيط
جامعة أبو القاسم سعد الله، الجزائر (٢)
قسم التاريخ
الباحث: عبد القادر بوعقادة
إشراف :أ.د. موسى لقبال
١١٨٦ صفحة - الجزائر ٢٠١٥

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0051265

كلمات مفتاحية:
العصر الوسيط، المغرب الأوسط، التاريخ والفقه، المدرسة الفقهية الإفريقية

مُقَدِّمَةُ

يحتاج البحث في العلاقة بين "التاريخ والفقه" إلى دراسة خصوصًا على مستوى المغرب الأوسط، حيث لم يحض هذا التوجه بالعناية، واقتصر الباحثون على دراسة شخصيات فقهية، أو علم من العلوم، أو التطرق إلى الصراع المذهبي. كما أنّ الاستشراقيين أخلطوا بين الحركة الفقهية والتصوف، فكان الفقه عنصرًا هامشيًا، وقد سايرهم في هذا الدارسون لوقائع الحركة الثقافية ببلاد المغرب. والأطروحة تجيب على عدد من المسائل الخاصة بتاريخ الفقه في المغرب الأوسط، كتحقيب الحركة الفقهية ببلاد المغرب، وموقع المغرب الأوسط فيها، ومسألة التوجه المذهبي لهذا المجال الواسع من نهاية الفتح إلى قيام الدويلات، والعلاقة بين المتصوفة والفقهاء، ودخول المذاهب إلى بلاد المغرب، والتنقيب عن دور فقهاء المغرب الأوسط العلمي والاجتماعي والسياسي. ودراسة تاريخ التشريع لهذا المجال الذي تعتبر بجاية حاضرته الشرقية وتلمسان حاضرته الغربية، والواقع بين مدارس فقهية مالكية، إفريقية شرقًا وأندلسية وفاسية غربًا، وغرضي من هذا العمل أن يكون أرضية انطلاق لأبحاث في تاريخ الفقه والتشريع بالمغرب الأوسط. وقد حرصت على الالتزام بالشروط المنهجية المعتبرة في بناء البحث.

الحركة الفقهية في المغرب الأوسط

ازدانت مكتبة التاريخ ببحث قدمه الأستاذ عبد القادر بوعقادة، حينما تمّت مناقشة أطروحته لدكتوراه العلوم في التاريخ الوسيط بجامعة الجزائر - قسم التاريخ-والموسومة بـ "الحركة الفقهية في المغرب الأوسط بين القرنين ٧و٩هـ - ١٣و١٥م "، يوم ١٧ جوان ٢٠١٥م وهذا بعد بحث دام أزيد من ست سنوات، تحت إشراف فقيد التاريخ الوسيط الدكتور موسى لقبال، ثم الدكتورة الفاضلة لطيفة بشاري، بمعية الدكتور المغربي القدير عبد الإله بنمليح عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة فاس. وقد دامت المناقشة إلى حدود أربع ساعات، استمتع فيها الحاضرون بمداخلات الدكاترة المناقشين وردود الباحث في جو علمي رائع. انتهى إلى إجازة الباحث بدرجة مشرف جدا مع التهنئة على العمل المميز، والجهد الواضح الذي بذله.

أشار الباحث في مقدمته إلى قيمة الفقه كنتاج للحضارة العربية الإسلامية، والذي برزت من خلاله القيمة التي أتيحت لعقل الإسلامي في تناول قضايا المجتمع والسلطة. وقد استرسل الباحث في التوطئة لموضوعه بالحديث عن الفقه الذي ظل يخضع لتطورات أفقيًا من حيث توسع مجاله الجغرافي، هذا الأخير الذي يحوي عادات وتقاليد وأعراف وأحداث، بات من الضروري على الفقهاء النظر في شأنها، وأمّا عموديًا فقد صار التعمق في المسائل المطروحة وإخضاعها لنصوص الشرع مع

عدم الإضرار بالعرف أمرًا ملحًا، استوجب عملاً دقيقًا ومنهجًا رصينًا، لا يتمكن منه إلاّ من امتلك أدوات الاجتهاد وآليات النظر، وترتب على هذا نشوء المذاهب. وإذا كانت الناس تحتكم إلى النبي (ﷺ) الذي ورث علمه الصحابة، وظهر ذلك في وحدة منسجمة، فإنّه فيما بعد قد انقسم الناس في رؤاهم إلى مذاهب وطوائف، وانحدر عن مذهبي أهل الفقه وأهل الحديث مذاهب شتى، انتهت زمن إغلاق باب الاجتهاد إلى مذاهب سنية أربعة ومذاهب أخرى كثيرة مندثرة.

وأكّد الباحث على أنّ الاختلاف الحاصل بين أصحاب المذاهب إنّما منشؤه المنهجية التي اتبعها كل صاحب مذهب، كما أنّ تأثيرات العلوم الأخرى كعلم الكلام وضروبه والمنطق ونحوه، وتأثيرات النزعات الباطنية كالزهد وسلوكه، والتصوف وطرقه قد تركت بصماتها على الفقه والفقهاء، من حيث التعاطي معها سلبًا أو إيجابًا، وهذا ما زاد في حدّة التمايز بين الفقهاء، فظهرت المذاهب.

ثم انتقل إلى الكلام عن بلاد المغرب التي شهدت الحراك نفسه الفقهي المتوافر بالمشرق، بفعل الرحلة العلمية أو الزيارة الدينية لأداء مناسك الحج، فكان انتقال الأفكار والمذاهب والمناهج منذ القرون الأولى للهجرة، وإذا كانت بلاد المغرب مصدر تلقي في المراحل الأولى، فإنّه مع مرور الزمن صارت مركز علم وفقه، له أعلام وتصانيف، ومدارس ذات تأثير على الحياة الفقهية والعلمية عمومًا. وانتفض علماء أمثال أسد بن الفرات وسحنون وأحمد بن نصر الداودي وأبو الوليد الباجي وابن حزم وأبو بكر بن العربي وابن رشد الجد والحفيد، ثم المقري الجدّ وعبد الرحمن ابن خلدون وأبو إسحاق الشاطبي وغيرهم من الأعلام بمصنفاتهم وآرائهم، يبرزون القيمة العلمية والرؤى الفقهية التي تميّزت بها بلاد المغرب، من خلال مدارس الفقه المحتواة ضمن المدرسة المالكية.

وإذا كانت المدرسة الفقهية الإفريقية والأندلسية قد أبانت عن أسبقيتهما في هذا الشأن، ممّا جعل الباحثين يسخّرون أقلامهم للبحث فيهما بما توفر لديهم من مصادر ومعطيات، فإنّ بقية البلاد وعلى رأسها المغرب الأوسط قد طالها الإغفال ليس على مستوى الفقه، بل مسّ الحياة الثقافية عموما، بسبب النقص الفاضح على مستوى المادة المصدرية، وهو ما دفع بالبعض إلى الحثّ على ضرورة البحث لرفع الغموض عن مجال واسع لا يمكن أن يُتجاوز، في ظل حركية فقهية مسّت البلاد المجاورة. وكان من بين من اهتم لهذا الشأن شيخ المؤرخين أبو القاسم سعدالله حينما ألف مصنفه الشهير "تاريخ الجزائر الثقافي من ق١٠ إلى ق١٤ه" وهو من المصنفات الأولى التي أسست لهذا المنحى، وفتح الباب لأعمال جادة، كان منها ظهور دراسات في المراحل المتأخرة حملت همّ المسألة، وقامت بتسليط الضوء على مفاخر المغرب الأوسط.

يبيّن الباحث في هذا الشأن بأنّ أعلام المغرب الأوسط كانوا متوافرين، ومصنفاتهم موجودة معلومة، إلاّ أنّ البحث فيها بات يشوبه الاحتشام مما فوّت فرصا عديدة صار الباحثون يعملون على تداركها. ولذا جاءت محاولته تهدف إلى تعزيز جهد هؤلاء في سبيل إعطاء صورة تاريخية صادقة عن مجال واسع من بلاد المغرب، ألاّ وهو المغرب الأوسط. واستهدف من خلالها دراسة واقع الفقه والفقهاء، وتتبع أدوارهم من خلال تفحص تكوينهم ورحلاتهم ومشايخهم ومصنفاتهم وآرائهم وفتا ويهم ومواقفهم وتأثرهم وتأثيراتهم، وتوضيح مراتبهم ضمن مجموع فقهاء بلاد المغرب والمشرق. كما قام بتتبع حواضر العلم ومراكز الفهم وبيوتات الفقه لأجل معرفة المحاضن التي ترعرع فيها الفقه بالمغرب الأوسط، ولا شكّ أنّ الوافدين على حواضر المغرب الأوسط سواء بدافع التجارة، أو هروبًا من السلطان، أو من منطلق البعثات العلمية، وسواء كانوا من الأندلس والمغرب الأقصى، أو من بلاد المشرق حيث بلاد مصر والحجاز والعراق والشام، أو غيرها من البلاد، قد كان لهم الأثر الكبير من حيث انفتاح طلاب المغرب الأوسط على الجديد، أمّا بالنسبة للفقهاء فإنّ ظاهرة تلاقح الأفكار قد أبانت عن العديد من القدرات التي اكتسبها هؤلاء الأعلام من خلال رحلاتهم نحو المشرق أو الأندلس أو إفريقية، حيث عادوا بأفكار مبتكرة ومناهج بحث متنوعة، وفقه غزير، فأعطى ذلك ملمحًا لمدرسة المغرب الأوسط ولحاضرتيه بجاية وتلمسان. كما أنّه تتبع واقع المؤسسات التعليمية، وهياكل الدرس الفقهي المتعددة، والاطلاع على المصنفات والمدونات بكل أقسامها قد أبان عن تواجد حركة فقهية جادة ومؤثرة بالمغرب الأوسط.

تطرق البحث إلى العلاقة بين الفقهاء ومجتمعهم سواء بالحاضرة أو البادية من خلال تتبع السؤالات وجواباتها، وتفحّص العلاقة بين الفقهاء والسلطان، والفقهاء والصلحاء والزهاد ليبيّن مدى الارتباط الحاصل بين هؤلاء سواء زمن العشرة أو أيام النّفرة، وكيف تعاطى الفقهاء مع وقائع الناس وفق المنظور الشرعي، إذ اعتبر الفقهاء دوما مرجعا يضبط سلوكات المجتمع بكل أطيافه العامة منه والخاصة، الرعية والأمير، الجند وأهل الذمة وغيرهم.

ومن خلال هذا طرح الباحث **عدّة إشكاليات** ليجيب عنها في بحثه، فتوصيف الحركة الفقهية في بلاد المغرب الأوسط، وذكر تطوراتها عبر الزمن، والحديث عن بنيتها المتعددة العناصر، والأدوار التي تكفّل بأدائها فقهاء المغرب الأوسط في ظل التردي السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي بات ينخر جسم المغرب والأندلس عمومًا، وكيف تفاعل فقهاء المغرب الأوسط مع قضايا المجتمع والاقتصاد والسياسة، في ظل واقع اختلف عن بلاد المشرق؟

وإذا كانت القضايا الاجتماعية كالنزاع بين الحضر والبدو أو العلاقة بين الزوج وزجته ومشكلات الأسرة، وقضايا الميراث وآفات السحر والشعوذة والبدع وغيرها، أو القضايا الاقتصادية كأحوال السوق ومظاهر الغش في الدراهم و السّلع، ومصادرة الحق في المياه والرعي، والتعدي على الممتلكات، أو القضايا المشتركة بين المجتمع والاقتصاد كالآفات والمجاعات والأوبئة وما يعرف بالجوائح، أو سياسية كالنفرة والجهاد والإمامة والإمارة وولاية العهد أو العلاقة بين الدول، أو كانت فكرية علمية كالموقف من الكلام والمنطق ومن بعض المصنفات التي لا تروق للفقهاء قد ظلت تطرح نفسها دومًا، فإنّ الفقيه صار من اللازم عليه أن يعطي بشأنها جوابات مع المحافظة على الأعراف والعادات التي تربط ذات المجتمع، فإلى أي مدى وفّق الفقيه في ذلك؟ وما طبيعة المنهج المقتدى به في تصريف المشكلات والتشريع للمجتمع؟ وهل اختلفت مناهجهم في التعاطي مع هذه المظاهر؟ ليخلص في الأخير إلى إشكال يجمع هذا كله بالنسبة لبلاد المغرب الأوسط حصره في مدى وجود مدرسة فقهية مغرب أوسطية يمكن رصدها من خلال اللمح الفقهي بشتى مظاهره، بحيث يمكن أن يتمايز بها عن باقي المدارس الأخرى؟

أوضح الباحث دوافع الاختبار لهذا الموضوع بأنّ شغف العلم وحبّ الاطلاع، والبحث عن تاريخ أمّة من خلال رجالها وعلمائها، كل ذلك كان أبرز دافع تخطى إلى الواجب الذي يحتّم على كل باحث القيام عليه، لأنّ التأسيس للكيانات يفترض أن يكون على قاعدة صلبة تتطلب التثبت والتمحيص، والبحث عن البنيات الدفينة الحقيقية، خصوصًا وأنّ الخراب طال المستندات بفعل عاديات الزمن وأيادي منتجي المحن. ويضاف إلى هذا كله تصاريح القدامى بعدم وجود علم يدرس في بلاد المغرب الأوسط، أو فقه يمكن أن يمثّل هذا الإقليم، وهو الوصف الذي وصل إليه العبدري الحيحي في موسومه "**الرحلة الحجازية**"، كما أشار كل من الذهبي والسخاوي أثناء حديثهما عن العلوم ببلاد المغرب، وعلم الأصول والحديث تحديدًا، بأنّه لا يوجد بهذا المجال من يتوسع فيه هذا المنحى. وقد تردد صدى هذا الحكم في كتابات المدرسة الفرنسية الاستعمارية، ولا تزال بعض الأفكار والطروحات تصبّ في هذا الاتجاه حتى من أبناء الجلدة. فعبد الكريم غلاب على جلالة قدره في تاريخ المغرب نجد قد تاه في تحليله لواقع هذا المجال الفسيح، وحاول أن يفرض الإزدواجية "المغربي والعربي" من منطلق الاستقلال أو الاتباع، ولن الأفضلية، فقدّم نظرة تصب في إطار الصراع العربي المغربي "البربري"، ومن خلال ذلك نجده يقزم من شأن دول ويبرز قيمة أخرى، ويعطي ميزة لدولة على حساب أخرى، وهو طرح غير سديد باعتبار أن طبيعة الدول الإسلامية عصرئذ لم تكن لتذهب نحو الفصل بين عربي وغير عربي، فكان طرحه بهذا يجسد رؤية مدرسة ناقمة على كل ما هو عربي مشرقي، وهذا ما استوجب الوقوف عنده والردّ عليه، ومن خلال ذلك الردّ على من اصطف في الاتجاه الرامي إلى محو تاريخ أمة وأمجاد أعلام فقهاء، كان لهم من الباع ممّا أثر في القريب منهم والقاصي.

أشار الباحث إلى دوافع أخرى منها الاطلاع على تجارب الماضين من أهل المغرب الأوسط في التعامل مع المعضلات المتعددة، بما يعطي حلولا إضافية، وعملا يمكن أن يرجع إليه، ويقتدى به في ظل "**عمل أهل المغرب**". ولم يغفل الباحث حب المساهمة في بناء فكر اجتماعي من منظور تاريخي، وهذا بتقديم الخلفية التاريخية والبنية الكفيلة، ورسم رؤية تتسم بالموضوعية والدّقة والشمولية لواقع ظل دومًا يشكل مساحة واسعة لأحداث بارزة ومؤثرة في تاريخ المغرب الإسلامي والحوض المتوسط ومجمل جغرافية أفريقيا.

كما أنّه لم يغفل دافع إثراء هذا التخصص "**التاريخ والفقه**"، الذي يحتاج إلى مزيد من البحث والتنقيب خصوصًا على مستوى المغرب الأوسط، إذ لم يحظ هذا التخصص بالدراسة الشاملة والدقيقة، حيث اقتصر بعض الباحثين على دراسة شخصيات فقهية، أو علم من العلوم، أو التطرق إلى الصراع المذهبي، ومن ثَمَّ الخوض في الخصائص المذهبية لكل توجه. كما أنّ بعضهم لم يفكك الحركة الفقهية، فأعطى لبعض الفقهاء صفة مخالفة لواقعهم الفقهي وتوجههم الفكري، مع إهمال -أيضًا-الواقع الاجتماعي لهؤلاء الفقهاء من حيث الحياة اليومية لهم وعاداتهم ومعيشتهم، وهذا دون إهماله الدراسات الجادة التي تناولت موضوع الحياة الفقهية ببلاد المغرب عمومًا. أراد الباحث أيضا أن يدرس الجانب الفقهي الذي أهملته الدراسات الاستشراقية التي ركزت بالأساس على الحركة الصوفية، وربما أخلطت بين الحركة الفقهية والتصوف، فبرز الفقه كعنصر هامشي عند دراسة الحياة الثقافية لديهم، حينما تمّ التركيز على موسوم التصوف، وقد سايرهم في هذا الطرح عدد من الدارسين لوقائع الحركة الثقافية في بلاد المغرب.

أجاب عن بعض المسائل التي لم يفوت عدد من الباحثين طرحها والاشتغال عليها، وقد بقيت هذه المسائل تفرض نفسها على كل صائل في هذا الشأن. فمسألة تحقيب الحركة الفقهية وبداياتها ببلاد المغرب، وموقع المغرب الأوسط فيها تحتاج إلى إضاءات، ومسألة التوجه المذهبي لهذا المجال الواسع منذ نهاية الفتح إلى قيام الدويلات المعروفة، والعلاقة بين المتصوفة والفقهاء، ودخول الأشعرية إلى بلاد المغرب، ودور فقهاء المغرب الأوسط في ذلك. بالإضافة إلى التنقيب عن دور فقهاء المغرب الأوسط في المجال السياسي. هي كلها مسائل شغلت باله وحاول توضيحها، وقد كان الباحث يهدف من خلال ذلك فتح مجال البحث في التاريخ الفكري الثقافي لبلاد المغرب الأوسط، ومنه الدراسة تاريخ التشريع لهذه المساحة الواسعة التي تعتبر بجاية حاضرتها الشرقية وتلمسان حاضرتها الغربية، حسب تقدير البكري منذ القرن (٥هـ/ ١١م)، وهو المجال الواقع بين مدارس فقهية مالكية، إفريقية شرقا وأندلسية وفاسية غربًا، لكن

موقعها الثقافي الفكري لم يتم التطرق إليه إلا باحتشام وبإشارات عابرة، ممّا جسد صفة الهامشية لهذا المجال الفسيح. فكان يروم لهذا العمل أن يصير أرضية انطلاق لأبحاث، وبنية لمواضع تاريخ الفقه والتشريع بالمغرب الأوسط خصوصا، وعموم بلاد المغرب. وقد حرص على الالتزام بالشروط المنهجية المعتبرة في بناء البحث، واعتمد في ذلك خطة العمل للإجابة على التساؤلات.

محتويات الأطروحة

وقصد الجواب عن جملة الإشكالات المبيّنة أعلاه اعتمد خطّة بحث تقوم على التدرج والانتقال من مرحلة لأخرى لأجل السيطرة على الموضوع الواسع، فقد قُسّمت الخطة إلى مقدمة لتوضح الفكرة وفق إشكالات يفترض الجواب عليها بمنهج بحث تاريخي رصين، ووفق مصادر ومراجع ذات قيمة بالنسبة للبحث. ومع المقدمة أربعة ابواب كل باب تمّ تقسيمه إلى فصول لتوضيح المسائل.

تحدث في **الباب الأول** عن نشأة الحركة الفقهية في بلاد المغرب عمومًا ومظاهر نشاطها من نهاية الفتح إلى نهاية القرن ٦م/١٢م، وإذا كان هذا الباب يدرس عموم بلاد المغرب، فإنّ الهدف كان التأسيس للفقه بالحديث عن الأرضية التي انطلق منها ليصير فيما بعد عصب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ولا شكّ أنّ الدراسات قدمت بعضًا من ملامح الحركة الفقهية في هذا الإطار الزماني، ولكن منهج الموضوع يقتضي مراجعة ذلك، خصوصًا إذا علمنا بأنّ مجالاً واسعًا -بلاد المغرب- لم يعط حقه من البحث والتدوين لتاريخ التشريع في العصر الوسيط، فتحدث عن تاريخ التشريع ومراحله، واجتهد في تحديد الموقع لبلاد المغرب ضمن مراحل التشريع، ثمّ ذكر اختلاف الناس في توصيف ذلك، وقدم بدائلاً لطروحات جديرة بإثبات نظرة تشريعية تتفق مع بعض وتختلف مع آخرين. كما تتبع في هذا الباب الخريطة المذهبية التي تواجدت في هذا الإطار الزماني ببلاد المغرب وأشار إلى العوامل المتحكمة فيها والمؤثرة عليها، وتتبع دخول المذاهب العقدية منها كالاعتزال والتشيع والطوائف غير السنية كالظاهرة البرغواطية. ثمّ تحدّث عن دخول المذاهب السنية إلى بلاد المغرب العقيدية منها أو الفروعية، وناقش أسباب رسوخ المذهب السني ببلاد المغرب، كما ركز على المذهب المالكي والآراء المتداولة بشأن أخذ أهل المغرب بالمذهبية المالكية دون غيرها، وهذا دون إغفال المذاهب التي سبقت ترسخ المالكية. والأكيد أنّ انتهاء بلاد المغرب إلى الأخذ بالمذهبية السنية وفقه مالك تحديدا لم يكن على سبيل الصدفة أو السهولة، وإنّما ترسخ بعد صراع عنيف، وفي زمن غير يسير في ظل اختلاف مذاهب الأمراء وتعدد مشارب العلماء.

فأمّا بشأن السلطان ودوره فقد تجلى ذلك من خلال تتبعّه للدول التي قامت ببلاد المغرب – وليس كل الدويلات-وطبيعة المذهبية التي اتسمت بها ابتداء من قيام الإمارة الرستمية وكيف تعاملت مع تيارات مخالفة وفق توصيف ابن الصغير المالكي الذي أبان مصدره عن طبيعة العلاقة التي وجدت بين المذاهب على عهد الرستميين وحجم الحريات الفكرية والدينية التي وفّرها أمراء هذه الدولة حتى باتت ملجأً لكل نافر من سلطان أو راغب في أمان. وتمّ فيه أيضا الحديث عن مذهبية الحماديين والتحول إلى المذهبية المالكية، في وقت كان التشيع قد وجد منفذا منذ نهاية القرن ٣هـ أيام قيام الدولة الفاطمية إلى أن قامت صنهاجة الشمال والجنوب باسترداد المذهبية المالكية، وقد توصل الباحث إلى أنّ ترسيخ المالكية بدولة بني حماد قد كان حافزًا لإخوانهم الصنهاجيين الزيريين تحديدا في التجنّد وراء المالكية والانتصار لها.

ثمّ ساق الحديث عن العلاقة بين الأمراء المرابطين والفقهاء المالكية وغير المالكية، وتفحصت مسألة تمسك المرابطين بالفروعية المالكية وإلى أي مدى أمكن صحة الدراسات فيما وصلت إليه من اعتبار المرابطين دولة فروع وانعدام فقهاء الأصول؟ وتوصل إلى ضرورة إعادة قراءة التراجم التي غالبًا ما صارت تفند ما ذهب إليه البعض من القطع بفروعية المرابطين، كما أنّ تفحّص النصوص قد دفع إلى ضرورة مراجعة العلاقة بين الفقهاء والمتصوفة في زمن المرابطين، حيث يحتاج الموضوع إلى إعادة صياغة بالخروج عن الأحكام المفرطة إلى الاحتكام إلى جميع النصوص. وانتهى الباحث إلى سرد الوقائع المذهبية زمن الموحدين الذين لم يستقروا على مذهبية واحدة، ممّا جعل عقول الباحثين تختلف أحكامها على القائمين على الدولة الموحدية بين من يرى سطوة الظاهرية ومن يجزم بشافعيتها، ومن اعتقد بالمذهبية المالكية حينما اتبع أمراؤها موطأ مالك، ومن جزم بالتومرتية كتوجه رامه المؤسس وسار عليه البعض إلى زمن التنكر لموسوم المهدوية والعصمة لابن تومرت من قبل أحفاد عبد المؤمن بن علي الكومي.

خاض الباحث في رصد قيمة الفقه وتأثيراته في هذا العصر من خلال مجموع المسائل التي كانت تُدار بين عدد من الفقهاء، وقد دلّت مناقشاتهم على علو الهمّة -بالنسبة للفقهاء-البارزة من خلال الدفاع عن قناعاتهم المذهبية تجاه المسائل محل النقاش. ولا شك أنّ دخول التيارات العقدية والفقهية في المراحل الأولى إلى بلاد المغرب قد أفرز مثل هذه النقاشات، فارتقى بعضها إلى الصراع المذهبي، وبقي الآخر يحوم في مساحة الخلاف الفقهي المعتبر، وقد تناول الباحث بعض المسائل التي بيّنت حدّة النقاش والجدل وكان على رأسها موضوع خلق القرآن ومسألة النبيذ وشربه والخلاف في وضعية أرض المغرب. وهي مواضيع دلّت من وجهة نظر أخرى على حركية العلم والفقه تحديدًا ببلاد المغرب الإسلامي، ومواقف الفقهاء تجاه

مسائل شغلت بال العامة والخاصة، وأظهرت موقف السلطان وحرصه على الفصل في المسائل المناقش فيها، مع العلم أن حلقة الجدل بين العلماء لم تكن تسعها الجلسة والجلستان بقدر ما كانت تدار لأيام عديدة ويراسل فيها فقهاء في أقاصي البلاد.

وإذا كان الغرض من **الباب الأول** توضيح الخلفية التاريخية لموضوع الدراسة في الإطار الزماني لما بعد الموحدين، فإنّ الباب الثاني تمّ من خلاله رصد بنية الموضوع والعناصر المكوّنة له، وتتبع الأرضية التي كانت قاعدة صلبة لحركة الفقه في المغرب الأوسط. وكان أهمّ مكون وجب البحث فيه وإبرازه هو المجال الجغرافي الذي دار فيه نشاط الفقهاء، وترعرت فيه الحركة الفقهية، فكان الحديث عن بلاد المغرب الأوسط وحدودها والاستقطاب الذي شكلته هذه البلاد، حيث تتبع الباحث المصادر من خلال تقصي بعض العبارات الدّالة على جغرافية المغرب الأوسط، من حيث بروز هذا المصطلح أو من حيث البحث عن حدود ومجالات المغربين الأدنى والأقصى، ليستشف من خلالها حدود المغرب الأوسط، وربما وجد الباحث صعوبة في تلمس ذلك في المراحل الزمنية الأولى، فإنّ سهولة التقصي لما بعد الموحدين توافرت له، مع العلم بأنّه مارست المقياس السياسي في المراحل الأولى حينما تتبعت مناطق النفوذ لكل من دولتي الرستميين والحماديين، وإن كان هذا لا يروق للبعض فإنّ مقاييس التحديد للمجال تظل دومًا محل اجتهاد في هذه الحقبة. وتعزز ذلك بتتبع الحالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لبلاد المغرب الاوسط قصد إعطاء الدلالات على حدود المجال، ثمّ معرفة الواقع العام الذي شهدته بلاد المغرب الأوسط في فترة ما بعد الموحدين وهي مجال الدراسة.

ومن عناصر بنية الموضوع الحديث عن هياكل الدرس والتعليم ببلاد المغرب الأوسط، فبقدر وفرة هذه المؤسسات وانتشارها عبر المساحة مجال الدراسة، وذكر تعداد القائمين عليها من الأئمة الفقهاء الأعلام، أو الرواد إليها من طلبة حملة الأقلام، أو الراعين لها من نخبة المجتمع ذوي السلطان والأحلام، كل ذلك قدّم رؤية موضوعية يمكن من خلالها رسم معالم الحركة العلمية والفقهية تحديدًا لبلاد المغرب الأوسط، وإذ لم يجد دراسة موضوعية جادة حول المؤسسات التعليمية والمناهج التربوية لبلاد المغرب الأوسط سوى النزر القليل، فإنّ الاستناد إلى اجتهادات البعض ممن تحدّث واختص بمجال المغربين الأدنى أو الأقصى، يمكن إسقاطها على واقع المغرب الأوسط بالنظر للرابطة التاريخية والعلمية بين مجالات بلاد المغرب، بالإضافة إلى احتواء هذه الاجتهادات على ومضات وإشارات دالة على هياكل الدرس في المغرب الأوسط. وهكذا كان هذا الفصل من الباب الثاني يقوم على تقديم وإحصاء هذه المؤسسات وأدوارها وطبيعة النشاط الذي أنيطت بها عبر العصر الوسيط، وأثرها في تكوين طبقة من الطلبة الدين صاروا بمرور الزمن علماء نشطوا في هذه المؤسسات المختلفة العدد والشكل والحجم.

أما **الفصل الثالث** من هذا الباب المختص ببنية الحركة الفقهية في المغرب الأوسط فقد ناقش فيه الصّلات العلمية، وكان التركيز على أثر الرحلة العلمية التي اتّخذت اتجاهها من المغرب الأوسط نحو حواضر العلم والأماكن المقدسة، وربما كانت الصلات الأولى تقع بين المغرب الأوسط وبلاد إفريقية والمغرب الاقصى في الدرجة الأولى، ثم نحو بلاد الأندلس ومصر كمرحلة ثانية، ثمّ إلى الحجاز حيث الحج وإلى العراق وبلاد الشام قصد الزيارة والاستزادة من العلوم، ثم العودة إلى المغرب الأوسط لأجل تنشيط الحركة العلمية والدينية. وكان من خلال الرحلة العلمية ورود العديد من الأفكار والآراء ذات البعد الفقهي أو العقدي، كما وفد من باب الرحلة المصنفات الفقهية وغيرها، فوفّر ذلك سبيلاً آخر اطّلع من خلاله طلبة المغرب الأوسط على ما كان يروج من اجتهادات، وعموما فإنّ فنّ الرحلة وما ترتب عنها من إجازات علمية، والدخول في سلسلة الرواية بالنسبة لفقهاء المغرب الأوسط قد أبان عن ذلك التلاقح والتأثير الذي رسم العلاقة بين مجالي المشرق والمغرب، وقد رصد في هذا الشأن عددا من الفقهاء الذين كانوا يقومون بالرحلة، وقصد بذلك توضيح الدور والمكانة التي حازها هؤلاء الفقهاء في بلادهم أو خارجها.

أما **الفصل الرابع** من هذا الباب فجاء تبيانًا للقائمين على الحركة الفقهية بهذا المجال، وتمّ فيه رصد الفقهاء الذين قاموا على العلوم والفقه تحديدًا، وحاول تصنيف هؤلاء الفقهاء حسب أبرز التخصصات التي امتازوا بها. وقد كان الاطلاع على أكبر عدد من المصادر لأجل استجلاء هذا المقوّم من أهم العوامل التي مكنت الباحث من تقصي اهتمامات الفقهاء، ومن معرفة ما كان بهذه المساحة التي عدّت معبرا مهمّا لرحلة الفقهاء نحو المشرق أو وجهات أخرى، والتعرف على الأدوار التي لعبها هؤلاء بفضل تخصصاتهم، كما أعطت عملية رصد أصناف الفقهاء الوجه الحقيقي لما كان يجول بالمغرب الأوسط من علوم ومصنفات ومعرفة مناهج العلماء. وبالإضافة إلى دراسة توجهات الفقهاء وتخصصاتهم كان من اللازم الاطلاع على أحوالهم ويومياتهم وعلاقاتهم مع الأسرة والمجتمع وفيما بينهم، سواء في حالة الرخاء أو أيام العسرة، ومواقفهم من السلطان وأيام السلم ووقت الحرب. وقد أبان البحث عن واقعهم وعلاقاتهم الاجتماعية على الجانب الآخر للفقهاء، ليس في حلق الدرس وإنما في البيت والسوق ومع عامة الناس وخاصتهم.

أما **الباب الثالث**، فقد اختص بدراسة نشاط الحركة الفقهية ومظاهره، حيث حاول الباحث إبراز ثلاثة مؤشرات رآها تفي بالغرض، بغض النظر عن أهمية مؤشرات أخرى التي تحمل من القيمة ما يمكن أن تفرز هذا النشاط وتلك المظاهر. وكان أول مظهر هو تسليط الضوء على الرحلة العلمية والنتائج التي انجرّت عنها. فتحدّث عن طرق انتقال العلوم، وركز على ما صاحب الرحلة من إجازات علمية واستدعاءات قام عليها

الفقهاء كطريقة للتواصل العلمي، ثمّ شرح الوجهات التي اتخذتها رحلة علماء المغرب الأوسط إلى حواضر بلاد المشرق والمغرب، وأشار إلى تلك الأعداد الهائلة من الطلبة والعلماء الذين اتخذوا الرحلة سبيلا لتحقيق الغرض العلمي وتحصيل الفنون، وأشار من خلال ذلك إلى مجموع المشايخ والمدارس ذات التأثير، والمناهج التي عمل على جلبها المغاربة سواء في العلوم النقلية أو العلوم العقلية، وما هي الافكار التي تداولها طلبة المغرب الأوسط النجباء بالبلاد التي رحلوا إليها.

ولابد من الإشارة إلى أنّ الرحلة العلمية التي انطلقت من المغرب قد قابلتها في المراحل الموالية رحلة أخرى من أعلام الحواضر الإسلامية، حينما وفد هؤلاء على حواضر المغرب الأوسط يرومون أخذ العلوم، والاستفادة من المشايخ الذين كانوا متوافرين، وقد كان ذلك بمثابة رد جميل حيث أخذ الوافدون عن فقهاء المغرب الأوسط، ولا شكّ أنّ اللقاء قد خلّف العديد من النتائج، كان في مقدمتها ثراء حلقات النقاش بين الوافدين وأصحاب الأرض، مثلما جرت المراسلات بين الطرفين حول مواضع بقي النقاش فيها محتدمًا مدّة من الزمن مثل النقاش المغيلي – السيوط، أو جدل التلمسانيين والتونسيين.

أمّا المظهر الثاني للنشاط الفقهي فتمثّل في تلك المدرسة الفقهية التي خلفها نشاط العلماء ببلاد المغرب الأوسط، حينما صارت كل حاضرة منه تزخر بالفقهاء الذين التفّ حولهم الطلبة يرتشفون من معينهم مختلف العلوم والفنون، وكان منها الفقه الذي عُدّ عميد التخصصات عصرئذ. ولجأ الباحث في ذلك أولاً إلى رصد حواضر المغرب الأوسط والتعريف بالقيمة الطبيعية والتاريخية للمدينة، فقام بجرد معظم الحواضر ذات الشأن في تلك الفترة، وكان القصد تقديم المعطيات على المدرسة الفقهية التي نبتت بالحاضرة، والتوطئة لها بتوضيح ملامحها. ثمّ لجأ إلى الحديث عن الأثر الفقهي لتلك الحواضر. وقد قسمها إلى حواضر أساسية مؤثرة مثل تلمسان وبجاية والجزائر وقسنطينة، وأخرى ثانوية لم تصل إلى درجة الحواضر الرئيسية، ولكن تأثيرها على الحركة الفقهية بات واضحًا، وعناية أهلها بالفقه والفقهاء فاق الظنون. ولم يكن علماؤهم أقل شأنا من علماء الحواضر الرئيسة، بل كثيرًا ما كان هؤلاء في مصاف العلماء ذوي النباهة والفضل. وكان الهدف إبراز القيمة الفقهية لحواضر المغرب الأوسط وتحديدًا بجاية وتلمسان وما بينهما من الحواضر، باعتبار أن البكري قد حدد سالفًا حدود المغرب الأوسط فيما بعد القرن ٦هـ/١٢م، فخاض في تتبع مسارات فقهائها من حيث دراستهم وتتلمذهم ورحلاتهم، وذكر بعض إنتاجهم الفقهي، وسجالاتهم مع العلماء الآخرين، وقد انتهى الباحث إلى أنّه بالفعل قد وجدت مدرسة فقهية لها توجهها داخل المذهب المالكي من حيث تأثير فقهائها وغزارة مصنفاتها، وقوة طرح علمائها بالمقارنة مع العلماء الآخرين.

وتبرز عناية علماء المغرب الاوسط بالفقه ونشاطهم في هذا الشأن من خلال العناية بالتصنيف الفقهي، ولذا لم يتوان الباحث في اقتفاء أثرهم في شأن التدوين الفقهي، وقام بجرد مؤلفاتهم في شتى ميادين المعرفة العلمية، النقلية منها والعقلية، فذكر عنايتهم بأمهات التصانيف في المذهب المالكي، وأشار إلى أهم خصائص التأليف لدى هؤلاء، وانتهى إلى ذكر نماذج من هذه التواليف، قصد إعطاء أمثلة حية على النشاط الفقهي والعلمي الذي جسّد دور المدرسة الفقهية بالمغرب الأوسط. ولا عجب أن نجد عنايتهم بعلوم عقلية تضاهي عنايتهم بالعلوم النقلية، وتنافس فقهاؤهم في العقائد والفرائض والحديث والكلام والمنطق والتدوين الصوفي، مثلما كانت عنايتهم في الفقه فروعه وأصوله. ورغم أن علماء المغرب عموما قد عُرف عنهم الحفظ وإهمال الكتابة، إلاّ أنّ ما وصل من خلال المخطوطات يحتاج إلى جهد جماعي يمكن من خلاله أن الوصول به إلى استخراج المكنون، وتحقيق المخطوط وفرض رؤى باتت لدى البعض رصيدًا مهملاً عند علمائنا وجب أن نبعثه ونحافظ عليه.

أما **الباب الرابع** فقد اعتنى فيه برصد جهود فقهاء المغرب الأوسط، وأثرهم وأدوارهم في الحركة الفقهية، وعموم ميادين العلم. وقد قسّمه إلى أربعة فصول، فتحدث في الفصل الأول عن أثرهم في منهجية الفقه أو دورهم في انتقاء المناهج التي سلكها فقهاء العصور في مجموع الحواضر الإسلام، فتحدث عن مساهمتهم في مجال الأصول –أصول الفقه تحديدا دون إهمال أصول الدين–وكان قصده الإجابة على عدد من السؤلات التي شككت في جهود علماء المغرب الأوسط في مجال الأصول، بل لجأ بعضهم إلى نفي العلوم بحواضر المغرب الأوسط، واعتبارها مناطق قاحلة من العلوم ضاربة بكلكلها في الجهالة. وكان من بين الملاحظات التي تمّ التركيز عليها وعمل على توضيحها هي الطريقة المعتمدة في بلاد المغرب الأوسط في مجال الأصول بين طريقة الفقهاء أو طريقة المتكلمين، ولا شك أن منحى المتكلمين كان هو المنتشر والمؤسس بهذا المجال، ولكن الإشكال الذي فرض نفسه هل كان ذلك على منحى المتقدمين أو المتأخرين؟ وقد كان دور أعلام المغرب الأوسط في ذلك كبير حينما قاموا بالتأليف فيه مثلما فعل الشريف التلمساني. كما تمّ الخوض في الحديث عن فقه المقاصد والقواعد الفقهية والفروق الفقهية التي كان لعلماء المجال المدروس كبير الأثر فيه بما يبيّن قيمة حواضر الفقه بالمغرب الأوسط، وإذا كان للمقري الجد (ت. ٧٥٩هـ/١٣٥٨م) سبق في التأليف في القواعد الفقهية التي صاغها في أزيد من ألف ومائتي قاعدة، وتبعه في ذلك الونشريسي حينما ألّف في القواعد مؤلفا تداوله الناس سمّاه " إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك"، والذي اعتبر بمثابة تلخيص لكتاب المقري الجدّ، فإنّ دور فقهاء آخرين كان جليلاً حينما درّسوا الفقه وأصوله، وتخرّج عنهم من الطلبة من كان له فضل عظيم في مجال المقاصد أمثال أبي إسحاق

الشاطبي(ت٧٩٠هـ/١٣٨٨م) الذي عدّ من رجالات هذا التخصص بلا منازع، وهكذا يبدو جليًا التأثير المغرب أوسطي على فقهاء الحواضر المجاورة حينما تتلمذ طلبتهم على مشايخ المغرب الأوسط كتتلمذ الشاطبي على فقهاء تلمسان.

أما في **الفصل الثاني** من الباب الرابع فقد أشار الباحث فيه إلى ظاهرة الجدل كوجه من أوجه التعاطي العقلي بين فقهاء المغرب الأوسط، وهي تنبه على الدور الذي تقلده هؤلاء الفقهاء بما يبرز قيمتهم وأدوارهم الراقية. فقام بتعريف هذا العلم ودواعيه والموقف منه. ثم خاض في العوامل المساهمة في تباين الرؤى واختلاف الوسيلة، من بعدها اختلاف الأحكام، ووجد بأن دور فقهاء المغرب الأوسط قد تجلى بشكل واضح من خلال هذا المعطى، وصارت الفتاوى تجاه عدد من القضايا التي شهدت جدلا تبرز قيمة الفقهاء ومدى مساهماتهم في مجال الجدل.

وظهر من بين العوامل المساهمة في الاختلاف والجدل تمسك المغاربة بمنحى التقليد رغم هبوب نسمات الاجتهاد، ومحاولة البعض من الفقهاء الخروج من دائرة التقليد إلى دائرة إبداء الرأي دون التقيّد بالمذهب، وهذا ما أثار ضدهم أهل التقليد. وكان من المسائل التي تمّت مناقشتها أيضًا تلك العوامل المساهمة بصفة مباشرة في تباين منهج التفكير والفتوى، التي أفرزت من وُصف بالتقليدي الفروعي ومن وصف بالأصولي، وبين من أعطى حرية للعقل وتمادى في توظيف المنطق والكلام، ومن تقيّد بالمنقول وتوقف عن توظيف الاجتهاد داخل المذهب أو خارجه. كما أنّ الانضباط بمسألة عمل أهل المنطقة التي ترعرع فيها الفقيه، أو برزت فيها المسألة مدار النقاش، قد تركت آثارها على منحى الفقهاء وطبيعة الفتوى، ولا شك أن اختلاف البيئات قد ساهم بشكل مباشر في تباين الفتاوى والمناهج، فوقع بذلك الجدل، وازدادت حدّة النقاش التي كانت تبرز من حين لآخر على شكل مصنفات فقهية أو عقدية أو غيرها من أنواع العلوم المدوّن فيها.

كان من جملة المسائل التي اتخذها الباحث نماذج للتحري في الموضوع مسألة الاجتهاد والتقليد في نظر فقهاء المغرب الأوسط، وذلك حينما خاض الناس فيمن يحق له الاجتهاد، وهل وجد في بلاد المغرب وفي العصور المتأخرة من وُصف بالمجتهد، وهل يُقصد بالمجتهد ذلك الذي تكون له آراء داخل المذهب، وهنا طرحت مسألة أخرى وهي موقع ابن القاسم من الاجتهاد والتقليد؟ فمنهم من اعتبره مجتهدا، ومنهم من أصرّ على اتباعه المذهب المالكي رغم بعض الخلافات بينه وبين صاحب المذهب. وتناقش الفقهاء حول مسائل جعلت بعضهم محل الغضب من قبل الأمراء أو عموم الناس كالموقف من الخوض في الكلام وفي المنطق أوفي الفلسفة، وهي توحي بما كان قد وقع زمن المرابطين تجاه مسألة الأخذ بالأشعرية، ومدى اعتبار منهج القائمين عليها أهل رشاد وهداية أم أنّهم أهل فساد وغواية؟ وهو السؤال الذي كان قد طرحه الأمير المرابطي على الفقيه ابن رشد الجد (ت.٥٢٠هـ)، وقد كانت هذه المسائل من العلوم الوافدة على بلاد المغرب والأندلس، والتي أثارت ضجّة كبيرة دفعت بالفقهاء إلى تداولها، وربما دام بعضها مدة طويلة، بالإضافة إلى مسائل أخرى التي قد تكون ميدان بحث مستقبلاً.

أما **الفصل الثالث** من هذا الباب فتتبع فيه الباحث الأثر الاجتماعي للفقهاء بالمغرب الأوسط، حيث شكّل هؤلاء الأعلام المرجعية الفاعلة لمجتمعاتهم، وكانت المسائل التي تستعصي على العامة أو حتى على الخاصة كالأغنياء والأمراء يُرجع فيها إلى هؤلاء الفقهاء لأجل البث فيها بما يضفي على سلوكات الجميع نوعا من الشرعية والقبول النفسي والاجتماعي. وقد تمّ تناول هذا الاهتمام من زاوية التطرق إلى النوازل ودور الفقهاء في التوجيه من خلالها، كما تمّ التركيز من خلال ذلك على بعض النوزال الكفيلة بإبراز الدور الاجتماعي للفقهاء، لأنّ محاولة الخوض فيها وإبراز قيمتها قد اشتغل عليها مجموعة من الباحثين، وأبانوا عن الشيء الكثير منها، ولكن الحديث عن أعلام المغرب الأوسط يتطلب المزيد من تسليط الضوء على ممارساتهم الاجتماعية في ظل النوازل وأثرها على المجتمع بكل فئاته وأطيافه. فتطرق الباحث إلى عدد من القضايا النوازلية التي مارس عليها فقهاء المغرب الأوسط فقههم وأظهروا مناهجهم في تحقيقها والإجابة عنها، فظهر من خلال ذلك فهمهم لواقعهم، وسقطت جواباتهم عليها بردا وسلاما، ولقيت من القبول ما جعلهم مصدر تشريع، وملجأ السائلين من أقاصي الأرض - كسؤال ابن لب الأندلسي للتلمسانيين- فضلاً عن أطياف مجتمعاتهم.

ومن المسائل النموذجية التي ناقشها الباحث في هذا الشأن يحضر الموقف من أهل الذمة الذين كانوا يشكلون طيفًا اجتماعيًا بارزًا، وقد تمّ التركيز على إحدى النوازل الخاصة بأحد فقهاء المغرب الأوسط وهي نازلة يهود توات التي شكلت نقطة خلاف واضحة بين فقهاء المغربين الاوسط والأقصى، وظهر انتصار المغيلي والسنوسي ومن خلالهم مدرسة تلمسان على حساب مدرسة فاس التي مثلها الفقيه العصنوني ومن حالفه فيها. وقد انتهت النازلة بتأديب اليهود وإذلالهم. كما تحضر مسألة اجتماعية غاية في الأهمية شكلت حراكا فقهيا وفكريًا كبيرًا مدة من الزمن، وهي مسألة الشرف وثبوته، ولأهميتها على المستوى الاجتماعي فإنّ صدى المسألة لم يكن لينفرد به المغرب الأوسط فحسب، بل تردد في كثير من حواضر بلاد المغرب، وخاض فيها فقهاء تونس وفاس وغيرهم. كما أن الموقف من بعض السلوكات التي مسّت بصفة مباشرة مسائل التشريع قد حرك في بعض الفقهاء الغيرة على الدين، فنهضوا يبينون لناس أخطارها وحجم العقوبات اللازمة في شأنها، كما أنّ بعض الأعمال التي تدخل في نطاق التصوف وسلوك الزهد كالاجتماع على القرآن، والاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وزيارة الاضرحة

وما يقع بشأنها، وغيرها من المسائل ظلّت عالقة ومصدر نقاش بين الفقهاء، كان من الواجب توضيحها وتحديد الموقف تجاهها.

أما **الفصل الرابع** من هذا الباب فقد تطرق فيه الباحث إلى الحديث عن الدور الذي قام به فقهاء المغرب الأوسط في المجال السياسي حينما قدّموا رؤاهم ومواقفهم تجاه بعض القضايا التي شغلت بال الامراء ونخبة الفقهاء. وحاول قبل ذلك توصيف العلاقة بين الفقيه والسلطان ببلاد المغرب الأوسط، باعتبار مكانة المنصبين ودورهما في تحريك المجتمع وتسييره، هذه العلاقة التي كانت تتسم في هذا العصر في الغالب بالودّ والتكامل، ولكن لم يمنع هذا من وجود النفرة من بعض الفقهاء وسوء المعاملة من كثير من الأمراء، ولذا فإنّ رصد العلاقة بينهما أظهر الازدواجية في تعامل عدد من الفقهاء تجاه السلطان والعكس صحيح. ولئن كان هذا التوصيف للعلاقة بين الفقيه والسلطان توصيفا قاصرا على توضيح العلاقة على حقيقتها، فإنّ الهدف كان وضع توطئة لتبيان مدى عناية بعضهما ببعض، وأن دراسات الباحثين قدمت ما يمكن أن يشكل نبراسا يكشف عن خبايا العلاقة بين السلطان والفقيه في المغرب الإسلامي.

وعرّج الباحث الحديث عن التجارب السياسية، وإسهامات فقهاء المغرب الأوسط في موسوم السياسة الشرعية، وهو الهدف من الدراسة لتوضيح قيمة فقهاء المغرب الأوسط، وقد تناول الموضوع من جانب طرح الرؤى السياسية التي ساقها هؤلاء الفقهاء من زوايا مختلفة، فأشار إلى محاولات المغيلي في بلاد السودان الغربي وعلاقاته مع ملوكها، وكيف سطر منهجا سياسيا لهؤلاء الملوك، كما أشار إلى الوصايا التي قدمها أبوحمو موسى الزياني لولده، وهو يبيّن له سلوك الملك والخطوات التي من الواجب اعتمادها من خلال كتابه "واسطة السلوك". وتحدّثت الأطروحة عن مواقف الونشريسي من خلال كتابه "الولايات ومناصب الحكومة الإسلامية والخطط الشرعية"، بالإضافة إلى مواقف كل من عبد الرحمن بن خلدون الذي يؤسس من خلال مقدمته ومن خلال مصنفه " لباب المحصل في أصول الدين" للسياسة الشرعية، والثعالبي من خلال رسالته في الجهاد وهو يستشرف الوضع في الأندلس وبلاد المغرب رغم ميولاته الصوفية، وابن مرزوق من خلال حديثه عن الإمامة والخلافة في مسنده، والسنوسي وغيرهم من فقهاء المغرب الأوسط.

أمّا المنهج فإنّ الموضوع يندرج ضمن الدراسات التاريخية رغم ما فيه من تداخل مع بعض الاختصاصات، ولذا كان اعتماده على رسم منهج تاريخي لاستقراء وتحليل وقائع الحركة الفقهية في بلاد المغرب الأوسط تحديدا، وتطلب منه هذا المنهج جمع المعلومات المتعلقة بالموضوع من قريب أو بعيد، من مصادرها المخطوطة الدفينة أو المطبوعة المتداولة، وقام بتوثيقّها توثيقًا تاريخيًا محكمًا من حيث ذكر مؤلفها ومكان تواجدها، ومن خلال هذا توفر لديه قدرًا من الوثائق والنصوص برزت في الموضوع، وكان يثبت صدقيتها ونسبتها لمؤلفها وقيمتها بالنسبة. ثمّ يقوم بتشريح هذه الأصول والمعلومات وتحديد المعنى الحقيقي، وتوظيفها وفق ما تحتاجه الدراسة معتمدا آلية التركيب والتحليل في محاولة لاستخلاص الحقائق من النصوص والروايات التاريخية، كما قام الباحث بالمقارنة بين النصوص ومقابلتها مع غيرها للتثبت من المعلومات الواردة فيها، ووضع الأفكار في نسق تاريخي يتناسب والعنصر محل الدراسة، مستعملاً آلية الاستدلال القائمة على الانتقال من القضايا المسلم بها إلى قضايا أخرى تنتج عنها بالضرورة، وفق ما لديه من وثائق.

وقد أسدى هذا المنهج خدمته للبحث في دراسة وأسباب الاختلاف والصراع الذي كان قائمًا. وباعتبار الموضوع يمس العلوم المؤثرة في الحقبة مدار الدراسة كالفقه وأصوله، والعقائد والحديث والتصوف والمنطق، فإنّ الضرورة اقتضت على الباحث الاطلاع على هذه التخصصات، ومحاولة معرفة المفاهيم التي توضحها، حيث لا يمكن فهم التاريخ والثقافة الوسيطيين، إلاّ بالرجوع إلى مثل هذه العلوم الخادمة لتاريخ الحقبة، فاعتمد عدّة مصنفات ودراسات متخصصة لسناها في هذا الشأن. ولأجل السيطرة على الموضوع وفق هذه المنهجية جاءت دراسته في الباب الأول بتقديم تعاريف ومفاهيم ترتبط بالموضوع وتوضيح الخلفيات التي قامت عليها الحركة الفقهية بالمغرب الأوسط لأجل تسهيل الولوج إلى الموضوع، فقدّم بنية توضح الكثير من معالمه، ثم لجأ في الأبواب الموالية إلى صلب الموضوع بالشرح والتفسير، وكان يلجأ إلى توظيف المنهج الكمي لنفس الغرض قصد الاختصار والتوضيح أكثر، وكان هذا بإحصاء الفقهاء والمصنفات، ومجمل تخصصاتهم، والمناطق التي تواجدوا بها أو رحلوا إليها، كان هذا ضمن جداول وأشكال، كما اعتمد في سبيل هذا على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والشواهد الشعرية، ومقالات الفقهاء في ميادين شتى.

نتائج الدراسة

وقد انتهى الباحث إلى جملة من النتائج يمكن أن تفتح آفاقا مستقبلية ومنها:

- أن الفقه الإسلامي صار عاملا مهما في تشكيل الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي لعموم بلاد المغرب الإسلامي، ويعود تأثير هذا العامل إلى منتصف القرن الأول للهجرة، حيث تزامن وحركة الفتح التي قادها ثلة من الصحابة وكبار التابعين، فبيّنوا لأهل المغرب أصول الإسلام ومعالمه الكبرى، واستمر ذلك العمل مع الزمن إلى أن تمّ أسلمة جميع بلاد إفريقية والمغرب. ولم ينته القرن الثاني حتى ظهر من بين أبناء هذا المجال الواسع من حمل لواء العلم، وقام على شأن الفقه وتعليم ساكنة المغرب

الإسلامي، بعدما هاجر هؤلاء الطلبة إلى المشرق للتزود بالعلوم ولقاء مشيخة المشرق.

- وإلى غاية نهاية القرن الثاني للهجرة لم تأخذ بلاد المغرب بمذهب فقهي معين يمكن أن يشكل سيطرة تامة على هذا المجال، بل يسجل ذلك التعدد المذهبي العقدي (من سنية وخارجية وشيعية واعتزالية ومرجئة) والفقهي (إباضية وحجازية مالكية وعراقية حنفية وأخرى مندثرة). التي بقدر ما يؤاخذ عليها طابع الصراع ابتداء من القرن الثالث للهجرة إلى نهاية القرن الرابع منهى بشكل جلي، فإنّ صبغة التنوع المذهبي والحرية الفكرية والدينية باتت جلية شهدت عليها حلقات النقاش الفقهي والعقدي، ورعاية السلطة لهذا الشأن.

- ومن الضروري التأكيد على قضية حساسة وهي مسألة تحقيب الحركة الفقهية ببلاد المغرب، والتي لا يمكن ربطها بمراحل الفقه والتشريع التي مرّت بها بلاد المشرق، ففي الوقت الذي كانت فيه المذاهب الفقهية الأولى بارزة بالمشرق والتعمق في الفقه والاعتقاد عمودًا، كانت بلاد المغرب في مرحلة النشأة والتأسيس للفقه بحكم العناية بالفتح، ونشر الإسلام أفقيا، ولم تكن مراحل وأدوار الفقه تتناسب وتلك الواضحة مشرقًا إلّا بعد القرن الثالث للهجرة، حينما راجت المدونة وتربع على عرش إفريقية والأندلس مذهب مالك.

- أمّا ما يخص المغرب الاوسط فعلى الرغم من موقعه الحساس المتوسط للمغرب والأندلس، وعلى الرغم أيضا من اعتباره مركز أوّل دولة موازية للخلافة بالمشرق (الإباضية والإدريسية والسليمانية)، فإنّ الكلام عن الحركة الفقهية فيه، وإدخال رجاله ضمن طبقات الفقهاء شكل دومًا عائقًا بارزًا في سبيل توصيف الحركة الفقهية بهذا المجال، وقد كان نقص المعطيات وعدم إدراج المصادر لفقهاء المجال من اسباب الغموض التي وصفنا، ولا نجد سوى إشارات عابرة يمكن اعتمادها، وهذ ملاحظة لا يمكن أن تتعدى القرن الثالث للهجرة، أمّا بعد هذا القرن فإنّ الصورة تبدو واضحة، من خلال ما ألفه المالكية من كتب تراجم وطبقات، على غرار ترتيب المدارك للقاضي عياض، أو غيرهم من أصحاب المذاهب على منوال الإباضية. وأنّ الأعلام الفقهاء بحواضر المغرب الأوسط قد جلّت قدراتهم وفاعليتهم منذ ذلك الحين.

- لا يمكن إغفال مسألة النزاع المذهبي في المراحل الأولى لتأسيس المغرب الإسلامي، هذا الصراع الذي كان في المراحل الأولى (القرنين الثاني والثالث للهجرة) حول مسائل العقيدة بين مذاهب مختلفة، ثمّ تقلص بعد قرون إلى صراع داخل الاتجاه الواحد، أي بين المالكية والأحناف أو بين المالكية والظاهرية (بين القرنين الرابع والسادس للهجرة)، ثمّ تقلص ثانية (بعد القرن السابع) داخل المذهب المالكي، فظهرت لدينا مدارس داخل المذهب المالكي، مدرسة القيروان وإفريقية، ومدرسة الأندلس، ومدرسة فاس، ثم مدرسة المغرب الأوسط المتمثلة في حاضرتي بجاية وتلمسان ومشايخ ما بينهما من حواضر، ونعتقد أن المدرسة الأخيرة (المغرب أوسطية) كانت حاضرة بعد القرن السابع، وبكل معالمها من حيث الشيوخ الذين تلقوا العلوم المختلفة عن مشايخ المشرق والمغرب الإسلاميين، أو بفضل حركة التأليف في شتى العلوم العقلية والنقلية أو من حيث المناظرات والجدالات التي كان فيها لفقهاء المغرب الأوسط الشأن العظيم والخير العميم على طلبة حواضرهم أو على حواضر عموم المغرب والأندلس.

- ولا شك أن ظاهرة استجداء الفتوى من قبل فقهاء وطلبة المغرب والاندلس والمشرق من علماء المغرب الأوسط قد أظهرت مدى قيمة وعلو همة هؤلاء الفقهاء، فتتلمذ الشاطبي في تلمسان ورحلة التجيبي وتعلمه ببجاية ومراسلة ابن لب للشريف التلمساني، واعتراف القباب بالمناهج المتطورة في بجاية عكس فاس، وطلب الإجازة من السنوسي، وشروح مصنفات المقري الجد وتدريس ابن مرزوق بمصر والحجاز والشام، وغيرها من المظاهر العلمية تعطينا صورة صادقة عن قيمة هؤلاء الفقهاء، وتطور مناهج الدرس الفقهي لديهم، وتقف معالم دالّة على المنحى الفقهي المتميز لهؤلاء الفقهاء.

- تقدم نفس النصوص إشارات مفيدة عن سير العملية التربوية من حيث المناهج المتبعة في تلقين الطلبة على مستويات متنوعة، وأشارت إلى وجود التقليديين والمتأخرين، وسجلت النقاش الذي كان يدور بين أطياف الفقهاء المارسين للدرس العلمي وكيف كان التباين في الرؤى بينهم، وهو ما نسجله بين فقهاء بجاية وتلمسان وفاس، واعتبرت بجاية ثم تلمسان في طور متقدم حسبما يلاحظ من كلام القباب لتلامذته وهو يتفحص الدرس العلمي في تلمسان.

- وتضيف المصنفات التي قام على تأليفها فقهاء المغرب الأوسط، والعناية بالشروح على الكتب المختصرة والقيام على اختصار الكتب الطوال، أو التي تحتاج إلى اختصار بقصد التبيان وتسهيل الحفظ للطلبة، برهانا على اجتهاد نخبة المغرب الأوسط في تزويد المدرسة المالكية، فاختصار كتاب الجمل للخونجي فيما يخص المنطق، والعناية بشرح مدونة سحنون، وواضحة ابن حبيب الاندلسية وتداول مختصر ورسالة ابن ابي زيد القيرواني في الفقه، وتأليف مفتاح الوصول من قبل الشريف التلمساني، وشرح مستصفى الغزالي، وحفظ مصنف ابن الحاجب وكتاب

عرض أطروحة

القواعد لابن عبد السلام المصري في الاصول هي إشارات واضحة فيما يخص الحركة الفقهية النشيطة على مستوى حواضر المغرب الأوسط.

- ومن الواجب الإشارة إلى معطى لآخر يقف دليلاً دامغًا على نشاط الحركة الفقهية بالمغرب الأوسط وهو عناية ساكنة المغرب الأوسط بالعلم والتعليم، حيث ساهمت كل الطبقات في نشر التعليم والحث عليه بوسائلها المختلفة، وكان من أكبر المدعمين لمنحاها السلطة الحاكمة التي أعلنت حمايتها للفقهاء والمتعلمين، وساهمت في تشييد المدارس ودور العلم، وحفّزت مجموع الوافدين على حلق الدرس، وإذا كانت السلطة لا تقف في وجه مساهمة المجتمع في ترقية العملية التربوية، فإنّ مظهر العناية بالأوقاف، وتقديم الأعطيات والجرايات يعدّ مظهرًا قوي الحضور لمساهمة الأمير في التعليم، كما أن تعاطي العلم في جميع الأماكن من قبل الخاصة أو العامة في المساجد والأسواق والحوانيت والمساجد والمصليات قد أبان عن تلك الأهمية التي أولاها مجتمع المغرب الأوسط للعلم والعلماء.
- ومن أوجه العناية بالعلم والتعليم الرحلة في طلبه وخوض المغامرة في سبيل تحقيق المراد العلمي من قبل فقهاء المغرب الأوسط، سواء البحث عن السند العالي في الحديث أو تتبع الإجازة والتلقي عن الشيوخ مصنفاتهم، أو البحث عن المصنفات التي تزيد في اتساع أفق العالم بالرد عليه أو الطالب بالأخذ عن صاحبه، وقد كانت رحلة فقهاء وطلبة المغرب الأوسط تدوم فترات متباينة بحسب الطلب والعزيمة التي يوصف بها صاحب الرحلة، كما لا يمكن حصر تلك الرحلات في اتجاه معين، وإنّما كانت الوجهات مختلفة ومتعددة، مثلما أن حواضر المغرب الأوسط كانت هي كذلك محل اهتمام طلبة وفقهاء المغرب والأندلس وإفريقية، إذ كانت تشكل مراكز علم تهافت عليها الأعلام سواء زمن الاستقرار أو فترات الاضطراب. وهكذا فبفضل الرحلة ووفرة الهياكل التعليمية وعناية المجتمع والسلطان بالحركة العلمية عموما والفقهية خصوصًا برز في المغرب الأوسط أصناف من الفقهاء أصحاب التخصصات التي جسدت الحركة الفقهية بالمغرب الأوسط، وقامت على اكتاف هؤلاء الفقهاء نهضة علمية بارزة جلبت الانتباه، ونوعت المنتوج المعرفي. حيث ظهر الفقهاء الأصوليون والفروعيون والمناطقة والفرضيون والمحدثون والمتصوفة وغيرها من الأصناف المتخصصة التي انتمت إلى رقعة المغرب الأوسط.
- ومن الملاحظ أنّه أثناء توصيف الواقع الثقافي بالمغرب بالأوسط خاصة والمغرب الإسلامي عمومًا، اختلف الدارسون في إثبات حكم يعبرّ عن حقيقة الواقع من حيث الازدهار أو الانهيار، حيث اعتبر البعض بأنّ هناك مفارقة بين الثقافي والسياسي، إذ تميز الواقع السياسي وتبعه الاقتصادي بالانحلال والضعف والانقسام، في حين يبرز الجانب العلمي الثقافي كمعطى يتميز بالارتقاء والازدهار من حيث التأليف وعدد العلماء، واهتمام المجتمع بفئة العلماء، وبناء المدارس والمساجد وخزائن الكتب والعناية بالطلبة. وفي هذا الاتجاه انقسم الناس إلى مجموعتين، أولاهما اعتبرت العهد المريني والحفصي والزياني عهد الذروة للثقافة، باعتبار أنهّا لم تكن محصورة في منطقة دون سواها، وأنها فترة فحول الفقهاء، أمثال أبي العباس الغبريني والأخوين ابن خلدون وغيرهما، في حين يذهب اتجاه آخر إلى اعتبار الواقع الثقافي سليلا للوضع السياسي، وانّ التدهور قد مسّ جميع مفاصل المرحلة دون استثناء، إلاّ ما قد يعتبر طرفة تاريخية للمرحلة نفسها، ومن هنا فلا يعتد بها. حيث عبّرت هذه الرؤية عن انتهاء عهد التجديد والابتكار، وعكف الناس ومالوا إلى الشرح والاختصار، وجمع ما تفرق عن السلف، وغابت أنوار الحداثة التي بدأت تشرق على أوربا. والحقيقة إنّه لا يمكن الفصل بشكل نهائي في الحكم عن المرحلة، ومع ذلك يمكن اعتبارها -الفترة المتدة بعد ق٧ إلى ق٩ للهجرة- مرحلة امتداد لفترات سالفة مع ما يمكن تسجيله من اجتهاد بعض السلاطين في تحريك الواقع السياسي والعلمي، لعلو همتهم - أمثال أبي الحسن بفاس، وأبي حمو موسى بتلمسان - وكذا بعض العلماء الذين أظهروا اجتهاداتهم من جهة، كالشريف التلمساني وابن خلدون عبد الرحمن، مثلما أظهروا حنقهم على الواقع الثقافي الفكري من جهة ثانية، فقاموا ضده بالانتقاد، ولأجل التوجيه مع ما وجدوه من معارضة من قبل أقرانهم بالمغرب والأندلس. وعموما يتطلب هذا الوضع التريث أو المزيد من البحث والتحليل لإصدار أحاكم نهائية عن الواقع عصرئذ.
- يمكن إدراج ملاحظة أخرى ضمن العناصر المكوّنة لمدرسة المغرب الأوسط، من حيث البعد الصوفي الروحي والبعد العقلي المنطقي والبعد الأصولي الفقهي، حيث اتسمت بما اتسمت به المدرسة المالكية المغربية بعد القرن السابع للهجرة حينما أخذت بالجنيدية والأشعرية، لكن نضيف التقارب المالكي الشافعي، وما له من اثر على الحركة الفقهية، فبتفحص ترجمة أبي عمرو بن الحاجب – وهو أحد الأقطاب المالكية الأصولية - نحصل على أحد أهم مشايخه الذين تأثر بهم وهو أبو الحسن تقي الدين علي بن عبد الله الشاذلي الشريف الحسني العارف بالله (٥٧١-٦٥٦هـ) صاحب الطريقة الصوفية المنتشرة ببلاد المغرب والمشرق، إذ تشير المصادر إلى تتلمذ ابن الحاجب عليه وقراءته عن طريقه كتاب "الشفا في التعريف بحقوق المصطفى" للقاضي عياض، كما أخذ عن الشاذلي جملة من

الطلبة منهم العز بن عبد السلام وابن دقيق العيد وعبد العظيم المنذري وابن صلاح، وابن عصفور ومحي الدين بن جماعة، وكلهم أصحاب اتجاهات مالكية وشافعية. كما نجد الأثر الأشعري بارزًا على محيا الحركة الفقهية المغربأوسطية من خلال الأخذ بمؤلفات الباقلاني والجويني وغيرهما.

خَاتِمَةٌ

وعمومًا فإن القرن السابع وما يليه شهد بالمغرب الأوسط نهضة علمية وفقهية تحديدًا، تميز بالانفتاح على المدارس غير المالكية كالشافعية، كما تميزت ببعدها الصوفي الجنيدي المديني، والتحفت برداء العقيدة الأشعرية وفق ما قاله صاحب المتن ابن عاشر: في عقد الأشعري ومذهب مالك وفي طريقة الجيند السّالك.

لقد جاءت أطروحة الباحث غاية في الأهمية من حيث تطرقها إلى موضوع الفقه وارتباطه بالتاريخ، فشكل ذلك التداخل بين الاختصاصين عنوانًا مهمّا سيستفيد منه الباحثون والطلبة في التخصصين، كما أنّ التركيز على المجال الجغرافي المتمثل في المغرب الأوسط قد اعطى الموضوع تميزًا فريدًا بيّن من خلاله الباحث قيمة المجال وفقهائه ومجتمعه عبر العصر الوسيط. وحيث احتوت أطروحة الباحث على مواضيع غاية في الجدّة، فإنّها بذلك تعتبر مجالاً خصبًا للباحثين الجدد لأجل التوسع في البحث فيها، خصوصًا وأن الباحث اعتمد في بحثه المتميز على ازيد من (٥٠) مخطوط، و(٣٣٦) مصدرًا مطبوعًا، و(٢٥٠) مرجعًا بالعربية والاجنبية، كما فاقت الدراسات المعتمدة عدد (٢٤٠) دراسة بين رسائل وأطروحات وملتقيات ومقالات في مجلات مختلفة. وهذا ما جعل لجنة القراءة والمناقشة تشيد بالبحث وصاحبه، وتتمنى له مزيدًا من الجهد لإثراء مكتبة التاريخ برصيد إضافي يعلي من شأن البحث العلمي. وقد تمّ تتويج بالباحث بتقدير مشرف جدًا مع تهنئة اللجنة المناقشة.

الأمراض والأوبئة وآثارها على المجتمع المصري

(١٧٩٨ – ١٨١٣م)

ليلى السيد عبد العزيز
باحثة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب - جامعة طنطا
جمهورية مصر العربية

بيانات الأطروحة
أطروحة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب – جامعة طنطا
٤٢٨ صفحة – مصر ٢٠١٦

إعداد: ليلى السيد عبد العزيز
إشراف: د. وجيه علي أبو حمزة
إشراف: د. إبراهيم علي عبد العال

كلمات مفتاحية:
تاريخ الطب، مجال الصحة العامة، الأمراض الاجتماعية، الطب الشعبي

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0051266

مُقَدِّمَةٌ

هناك فجوة كبيرة أغفلها المؤرخون العرب عن تلك الفترة التاريخية المهمة (١٧٩٨- ١٨١٣م) فكانت الكتابات الخاصة بها عن الجانب الاجتماعي قليلة جدًا، وهى فترة مجيء الحملة الفرنسية على مصر وما أعقب خروج الحملة من فوضى وصراع على الحكم والسلطة وإهمال أمور الدولة، وما تبع ذلك من انتكاسة صحية استمرت حتى سنة ١٨١٣م إلى أن بدأ محمد على باشا الاهتمام بأمور الصحة؛ ويُعَدُّ موضوع الأمراض والأوبئة من الموضوعات المهمة التي تلقى الضوءَ على المزيد من المعلومات عن الحياة الاجتماعية، وأيضًا على الوضع السياسي والاقتصادي الذى أثر على تفاقم وسوء الوضع الصحي للمجتمع المصري. ويرجع السبب في اختياري لموضوع الأمراض والأوبئة وآثارها على المجتمع المصري من عام (١٧٩٨- ١٨١٣م) البداية هي مجيء الحملة الفرنسية على مصر لأنها تعتبر نقطة بداية لانفتاح مصر على الثقافة الأوروبية والنهاية عام ١٨١٣م هو بداية الإصلاحات الطبية التي بدأها محمد على.

لقد ساءت الأحوال الصحية؛ بسبب انتشار الجهل وانتشار الأمراض والأوبئة؛ نتيجة إهمال المشروعات الصحية، وانتشار الخرافات بين الناس، وتأخرت الحياة العلمية وأصبح دور التعليم في مصر مقصورًا على الأزهر الشريف وبعض الكتاتيب. وشهدت مصر تفشي كثير من الأمراض التي عانت البلاد منها كثيرًا كالأمراض الجلدية، حيث كان الجدري أكثر شيوعًا وكثيرًا ما اجتاح قرى بأكملها وفتك بالكثير من سكانها، كما كان بلية مخفية لأطفال مصر في ذلك الوقت إذ كان يقضي على حياة معظمهم، فواجهته الحكومة بتطعيمهم ضده، كما تفشى بمصر في تلك الفترة أمراض العيون الكثير منهم، وأمراض البطن التي كان أخطرها الدوسنتاريا، هذا فضلاً عن أمراض أخرى كالأمراض العقلية والتناسلية التي كان لها هي الأخرى خطرها على سكان مصر في تلك الفترة.

وقد تميز القرن الثامن عشر بانتشار الأوبئة الفتاكة التي حصدت أرواح كثيرٍ من المصريين فنقص عددهم، وانخفض مستوى معيشتهم، وقلت موارد البلاد الإنتاجية، ومن الصعب الشفاء من الوباء ومن النادر أن يشفى المريض قبل أن يمر بكل فترات المرض في المواضع المختلفة، حيث ينشأ التقيح ويحتفظ الجلد بلون غريب يقرب عادةً من اللون الأرجوانى. وكانت الحالة الصحية في مصر في أواخر القرن الثامن عشر قبل مجيء الحملة الفرنسية بسنوات طويلة غاية في التدهور والسوء؛ فالأمراض والأوبئة تنتشر في البلاد وتفتك بالمصريين، والحكام مشغولون عن مقاومتها، والمستشفيات الموجودة قليلة لا تفي بالغرض، فلم يكن أمام المصريين سوى اللجوء إلى المشعوذين والدجالين. فقد كانت مهنة الطب مهنة خاملة راكدة تسلطت عليها الخرافات وشملها الجهل ورجع بها أدعياء الطب السنين العديدة إلى الوراء.

الدراسات السابقة

كانت الكتابات والمؤلفات التاريخية كثيرة جدًا في الفترة التي أعقبت فترة البحث، وأيضًا خلال الفترة العثمانية السابقة كل مَنْ يتعمق بها يجد الجديد، أما فترة الحملة وما أعقبها كان التركيز فيها على الجانب السياسي أولاً، ثم الجانب الاقتصادي ثانيًا، أما الوضع الاجتماعي فلم يحظ بالاهتمام الذي يستحقُه من قبل المؤرخين، لذلك كان لا بد لي من التطرق إلى دراسة الجانب الاجتماعي؛ فكانت دراسةُ الحياة الصحية لمصر خلال هذه الفترة (١٧٩٨ – ١٨١٣م) أمرًا غيرَ ميسرٍ في بداية العمل. فلما كانت الكتابات لهذه الفترة قليلة جدًا ويكاد يكون هناك فراغًا بحثيًا لتناول هذه الفترة من الجانب الاجتماعي، فقد حاولت أن أقوم بسد هذا الفراغ بقدر استطاعتي.

محتويات الأطروحة

ولقد كانت دراسة هذا المجال شيقة للغاية بالنسبة لي على الرغم من الصعوبات التي واجهتني في جمع المادة العلمية، فلم تكن الدراسة بالعمل الميسور لقلة المادة العلمية التاريخية وتشتتها مما أرهقني كثيرًا من أجل تقديم ولو جزء بسيط عن الحالة الصحية وآثار الأمراض والأوبئة على المجتمع المصري، ونتائج الانفتاح على الغرب وإدخال عادات وتقاليد جديدة إلى المجتمع المصري، وما تبع ذلك من بناء الدولة الحديثة؛ بالإضافة إلى أحوال المرأة وتحررها وتأثير كل ذلك على المجتمع المصري مع إبراز محاولة الاستفادة من الإيجابيات التي قدمها علماء الحملة الفرنسية من أجل مقاومة الأمراض والأوبئة والسلبيات التي نجمت عن تفشي العدوى. أما **المنهجية** فقد اتبعت الباحثة منهج البحث التاريخي في ضوء جمع المادة العلمية من وثائق ومصادر والكتابات المتعلقة بموضوع البحث، وتناولتها بالموضوعية التامة القائمة على النقد والتحليل.

والدراسة مقسمة إلى مقدمة وستة فصول وخاتمة، ويتناول الفصل التمهيدي دراسة الأمراض والأوبئة في مصر العثمانية والآثار السلبية على المجتمع المصري كالأزمات التي أصابت المجتمع المصري مثل انخفاض فيضان النيل والعوامل التي ساعدت على انتشار الأمراض والأوبئة، ثم تناولت سيطرة المعتقدات الباطلة على عقولهم ولجوئهم إلى الخرافات؛ بالإضافة إلى الدور الإيجابي لبعض حكام مصر في مواجهة الأمور. ويتضمن الفصل الأول **(الأوضاع الصحية في مصر)** حيث تم إلقاء الضوء على أوضاع المجتمع المصري عند مجيء الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨-١٨٠١م) في القاهرة، الإسكندرية، الصالحية، دمياط، رشيد، طنطا، الصعيد. ثم الوضع في الفترة التي أعقبت رحيل الحملة (١٨٠١ - ١٨١٣م). ثم تناولت وضع المصريين بالنسبة لتعاطي المواد المخدرة، وأنهيت الفصل بأسباب حدوث وانتشار الأمراض والأوبئة.

ويستعرض الفصل الثاني **(الأمراض المنتشرة في مصر)**، فقد تعرضت في هذا الفصل للأمراض التي انتشرت في مصر خلال هذه الفترة والتي كان من أهمها الرمد، والجدري، والدوسنتاريا، والزهري، السيلان... وغير ذلك. تناولت المرض من حيث تعريفه وأعراضه وسبب حدوثه وانتشاره ونتائجه على مجتمع مصر في إطار تأريخي. ويناقش الفصل الثالث **(الأوبئة المتفشية في مصر)**، حيث تخصص هذا الفصل لوباء الطاعون الذي كان يُحدث فتكًا ذريعًا حين كانت تُصاب به مصر، ثم تناولت بشكل عام كيفية الوقاية للأمراض والأوبئة في مصر وبعض طرائق العلاج التي اتُبعت في مصر. ويستعرض الفصل الرابع **(الإجراءات الصحية والطبية)**، وقد تحدثت في هذا الفصل عن دور أطباء الحملة والجهود التي بذلوها أثناء تواجد الحملة الفرنسية من بناء مستشفيات، وتوزيع المنشورات الصحية لتوعية الأهالي، واستخدام أسلوب العقاب لتنفيذ الأوامر، ومنع المخالطة بالنساء المشهورات، وتحريم دفن الموتى داخل المساكن، واتخاذ إجراءات متعلقة بالنظافة، وفرض الحجر الصحي، ثم الإجراءات التي اتخذت بعد جلاء الحملة الفرنسية ومنها ما يخص الحجر الصحي عام ١٨١٣م.

ويدور الفصل الخامس عن **(ممارسات الاستشفاء وهو ما يعرف "الطب الشعبي")** من لجوء المصريين إلى طائفة الحكماء والحلاقين في العلاج كالعلاج بالفصد والحجامة والكى بالنار، وانتشار السحر والدجل والشعوذة كالاعتقاد في الجن واللجوء إلى الزار، والأخذ بالحسد، واللجوء إلى طائفة الغجر، والتداوي بالعقاقير العشبية، والتداوي بالأدوية المستخلصة من الأحجار والمعادن، والاستشفاء بالأضرحة، والتصديق بالخرافات والمعتقدات الباطلة، وكان كل ذلك نتيجة لتفشي الجهل وضعف حال التعليم. أما الفصل السادس والأخير **(آثار ونتائج الأمراض والأوبئة على المجتمع المصري)**، فقد تعرضت لنتائج معدلات الوفيات، وآثارها على جنود الحملة الفرنسية ومدى فتك الأمراض بهم، ثم تعرضت لآثارها على المصريين وانتشار المفاسد في المجتمع المصري وبخاصة مجتمع القاهرة من التبرج والزيجات المختلطة وانتشار البغايا وتنظيم دور الدعارة وبروز طائفة العوالم والغوازي، والآثار المترتبة على الزنا وآثار الأوبئة على المصريين وأثر ظاهرة دفن الموتى بالمساكن، وأثر المواد المخدرة، وأثر الجهل، وآثارها بعد خروج الحملة حتى عام ١٨١٣م.

نتائج الدراسة

وختمنا هذا العمل المتواضع بخلاصات عامة، إذ كان من المفيد أن نستخلص بعد نهاية كل فصل نتيجة أو أكثر ولما كان البحث مرتبطًا بدراسة موضوع الأمراض والأوبئة وآثارها على المجتمع المصري، فقد أسفرت هذه الدراسة على جملة من النتائج يمكن إجمالها فيما يلي:

- لقد انتشرت الأمراض المختلفة والأوبئة الفتّاكة، وكان الحُكام في جهلٍ تام بوسائل المقاومة ولم يكن بالبلاد طب ولا أطباء بل كان الناس يعيشون تحت رحمة المنجمين والحلاقين وأدعياء الطب، فكانت الأمراض تحدث بين الفلاحين بسبب القذارة (عدم الوعي الطبي) والرطوبة وسوء التغذية.[١]
- الجدري كان أول الأمراض، شديد الفتك بالأرواح ويُعَالج بإعطاء عسل وسكر يوميًا لمدة ستة أيام وفي اليوم السابع يُعطى سمكًا مملحًا، ولا يأخذ المريض مسهلاً قط، ويمنع من غسل عينيه حتى ولو امتلأت بالقيح وانطبقت جفونه، وأكد "فولني Volney" [*] أن مرضى الجدري يعالجون منه في مصر بطريقة سيئة للغاية.[٢]
- أما عن الرمد، فقد أكد "أوليفيه Olivier"على أن الهواء المحمل بالغبار والأتربة هو السبب في انتشار أمراض العيون وخاصة الرمد وكتب تبريرًا غريبًا وهو: أن المصرين اعتادوا النوم ليلاً في الهواء الطلق خارج منازلهم فيكونون عرضة لهبوب رياح الصحراء ويكون الهواء لطيفًا ليلاً وفي الصباح تشتد أشعة الشمس فهذا الانتقال الفجائي من حرارة الليل المنخفضة إلى حرارة الصباح الشديدة هي وراء انتشار أمراض العيون[٣]. أما "سافاري Savary"[*] فقد عزى سبب إصابة المصريين بأمراض العيون إلى أنهم يستنشقون رائحة الورود ليلاً فتسبب لهم الحساسية لعيونهم، كذلك أكد أن رياح الخماسين هي السبب في انتشار العمى ونفى "سافاري" أن تكون الحرارة أو الشمس الحارقة هي المسئولة عن أمراض العيون مؤكدًا أن البدو يعيشون في الصحراء وعيونهم سليمة ولذلك نلاحظ أن المماليك نادرًا ما يتعرضون لمرض العيون، كما أن الفلاحين في الدلتا أكثر تعرضًا لهذا المرض من البدو.
- عانى الرحالة الفرنسيون من الحمى بسبب ارتفاع حرارة الجو ولكن "فورمون" أكد أن هواء القاهرة نظيف وأن مياه النيل هي العلاج الوحيد للحمى ولا تحتاج لغلي أو تطهير، في حين وُجد رأي مناقض يذكر أن مياه النيل التي تشرب طيلة العام دون تنقية تسبب الحمى التي تهدم الجسم وذلك لأن مياه النيل تصاب بالعطب كل عام قرب نهاية شهر أبريل.
- وعن الأمراض التناسلية، فيعتقد أن ميكروبها البالغ النشاط ينتقل من جيل لجيل حيث ينتقل إلى دم الأطفال مع لبن الرضاعة لذلك فإن الأمراض التناسلية لا تشفى بشكل جذري.
- وكان أخطر الأوبئة على الإطلاق هو الطاعون؛ فقد ذكر "فولني Volney" أن الطاعون لا ينشأ داخل مصر بل يأتي إليها من الإسكندرية إثر وصول أحد المراكب المقلعة من أزمير وإستانبول ومنها إلى رشيد ثم ينتقل منها إلى القاهرة، فهو روح خبيثة تتسرب إلى جسم الإنسان وقد يحلو لها أن تسكنه حتى تقضي عليه أو تبرحه فيشفى.
- إن الإجراءات التي اتخذت من أجل الوقاية من الأمراض والأوبئة كانت كلها حميدة وآتت بفائدة على الطرفين الفرنسيين والمصريين ووضعت حد لمنع انتشار الأمراض والأوبئة، فإن بونابرت قد اصطحب معه فريقًا بارعًا من الأطباء على رأسه الطبيب ديجينت والجراح لارى، فقام هذا الفريق منذ أن وطأت أقدامهم أرض البلاد بجهود عظيمة وفائقة في مقاومة الطاعون والأمراض المتفشية في البلاد، وبذل المحاولات لتشخيص تلك الأوبئة والأمراض وعلاجها واهتمامهم بتحسين الحالة الصحية للجنود الفرنسيين وما صاحبه من إنشاء المستشفيات العسكرية والمحاجر، ولقد انعكست هذه الجهود وتلك الاهتمامات على المصريين الذين سمح لهم بالتردد على المستشفيات الفرنسية والتزود بالتعليمات والأوامر الصادرة عن قيادة الجيش لعدم تفشى الأمراض فيما بينهم وبالتالي الحفاظ على صحة الجنود.
- بالإضافة إلى اهتمام الفرنسيين بإنشاء المحاجر الصحية لمراقبة الوافدين عبر البحر إلى البلاد وأيضًا توزيع المنشورات الصحية على الأهالي أدت إلى نمو الوعي الصحي لدى المصريين، كما أن إجراءات النظافة استفاد منها المصريين إلى وقتنا هذا فحقًا قد ساهمت الجهود الفرنسية في تحسين أمر الصحة في مصر؛ إلا أنه لم يفلح الفرنسيون في استرعاء انتباه القاهريين أو إثارة إعجابهم بجهودهم العلمية، بل نجحوا في إزعاجهم وتحريك مخاوفهم وزيادة استخفافهم بهم، حيث كانت تلك الإجراءات التي لجأ إليها أطباء الحملة ورؤساؤها لمنع انتشار العدوى ومكافحة الأمراض جهودًا عظيمة من أجل المحافظة على الصحة العامة في مصر وكان يلازمهم التوفيق في بعض مساعيهم من فائدة استشارة الأطباء الفرنسيين، وقبول المعالجة على أيديهم، ولكن كانت الإجراءات التي اتخذت للحيطة من وباء الطاعون جعلت المصريين ينفروا منهم وكانت سببًا في سخطهم عليهم.
- أما بعد خروج الحملة عام ١٨٠١م عاشت مصر سنوات من الفوضى التي صاحبها إهمال واضح للصحة العامة وذهبت على أثرها جهود الأطباء الفرنسيين، وعاد الناس إلى الاعتماد مرة أخرى على الوصفات البلدية، كما عادوا إلى ممارسة دفن موتاهم وسط الأحياء وضاعت جهود الأطباء الفرنسيين، وظل الوضع كذلك إلى أن تولى محمد علي حكم مصر ١٨٠٥م بدأ في إنقاذ الأمر فاستدعى الأطباء الأجانب من الخارج.
- كان المصريون في ذلك الوقت لهم ممارسات يلجئون إليها بغرض الشفاء من الأمراض، من عمل التمائم والاكتفاء أحيانًا بزيارة أضرحة الأولياء عند المرض والالتجاء إلى الدجالين، والواقع أن بعض هذه الطرائق قد تجدى في العلاج إما عن طريق المصادفة، أو عن طريق العامل النفسي.

- لقد نتج عن انتشار الأمراض والأوبئة في مصر الكثير من الآثار ليس على الجانب الاجتماعي فقط مثلما يعتقد الكثيرون وإنما على جميع جوانب الحياة العامة، فنجد أن الظروف السياسية التي عانى منها المجتمع سواء في فترة الحملة أو الصراعات والفوضى بعد خروج الحملة، أو العقبات التي واجهت محمد على أثرت بالسلب على إهمال أمور الصحة، وكذلك الوضع الاقتصادي من نقص في الغذاء أو المحاصيل الزراعية لعدم وفاء النيل، فكثيرًا ما أصاب المجتمع قحط ومجاعة صاحبه تفشي الوباء، فكان أمرًا طبيعيًا حدوث حالات وفاة كثيرة جدًا.

خَاتِمَةُ

في الحقيقة؛ إن المرض كان هو العدو الحقيقي الذي هدد جنود الحملة، وقد نجم عن الأمراض الاجتماعية في هذه الفترة كالزنا والرقص من تزايد حالات المصابين بالزهري والسيلان مما أتاح الفرصة إلى حدوث خلل في كيان المجتمع المصري تسببت فيه فئة خاصة منه وليس المجتمع بأكمله بأن انتشرت المفاسد من جراء ممارسة الزنا والراقصين والبغايا. ثم ألحقت الباحثة بالبحث عدد من الوثائق والملاحق التي استندت عليها خلال دراستها لموضوع الرسالة، وكذلك ألحقت بها بعض الصور عن حالة المجتمع في ذلك الوقت. ولقد استخدمت الباحثة الوثائق والوحدات الأرشيفية التي وفرت لها مادة علمية وفتحت مجال أمامها للتوسع في الموضوع ولعل أهمها محافظ الحملة، ومحافظ الأبحاث، ووثائق عابدين، وملخصات دفاتر المعية السنية تركى، ومحافظ الذوات، وسجلات محكمة دمياط الشرعية، ومجلس النظار والوزراء. واعتمدت الباحثة على عدد من الدوريات منها كورييه دى ليجيبت (Courrier de l'Egypt) ومجلة الروزنامة، ومجلة مصر الحديثة، ومجلة الأطباء، والطبية المصرية، ويعسوب الطب، ومصر المحروسة، هذا بالإضافة إلى الرسائل العلمية غير المنشورة خلال فترة البحث، والمصادر التي جعلتني أتفنن في سرد الموضوع وأطلعتني على حقائق كثيرة عن الحالة الصحية للمجتمع المصري في هذه الفترة من تاريخ مصر مثل علماء الحملة الفرنسية: موسوعة وصف مصر (Description de l'Egypt)، والجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، وكتابات فولني وكلوت بك: لمحة عامة إلى مصر.

الهوامش

(١) حلمي محروس إسماعيل: **حالة مصر الاجتماعية في القرن الثامن عشر**، رسالة ماجستير، آداب إسكندرية، ١٩٦٧م، ص١٧٧، ١٨٤.

(*) أحد الرحالة الفرنسيين الذين زاروا مصر وكتبوا عنها وألف كتابًا، وقد رجع علماء الحملة إلى هذا الكتاب.

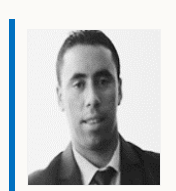
(٢) س. ف. فولني: **ثلاثة أعوام في مصر وبر الشام**، ترجمة: إدوارد البستاني، ج١، ط٢، منشورات دار المكشوف، بيروت، لبنان، ١٩٤٩م، ص١٥٧؛ إلهام ذهني: **مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م، ص٣٣٥.

(٣) فولني: مصدر سابق، ج١، ص ١٥٥؛ نهى سعيد: **الطب في مصر في العصر العثماني**، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب القاهرة، ٢٠٠٥، ص٧٥.

(*) من أهم الرحالة الذين زاروا مصر، جاء إلى مصر عام ١٧٧٣ م ومكث بها ثلاث سنوات ووضع كتابًا عن مصر في ٣ أجزاء استعانت به الحملة الفرنسية. انظر؛ ياسر قطامش: **مصر في عيون فرنسية**، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١٤، ص٢١.



المدن التاريخية الأثرية ودورها الثقافي والسياحي في الجزائر
حالة واحة تيتيمون، مازونة، بجاية



عمار سماعلي
أستاذ جغرافيا وتهيئة عمرانية
جامعة ٢٠ أوت ١٩٥٥
سكيكدة - الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

تمثل هذه المدن التاريخية الفريدة من نوعها والتي أدرجت ضمن المعالم التاريخية لمنظمة اليونسكو منذ ١٩٨٢ حيث من الواجب تدعيم وحماية هوية هذه المدن باستمرار ضد العولمة والتيارات الخارجية وإعادة الاعتبار وحماية التراث الذي يعتبر مثالاً حيًا على المستوى المتوسطي. وعلى الفاعلين الجزائريين إيجاد الحلول الملاءمة للحفاظ على مراكزها التاريخية، وضمان تحسين الإطار المعيشي للسكان، ومسايرة متطلبات العصر، وهذا مع التشبث القوي بالهوية الثقافية مواجهةً لأخطار العولمة التي تفرضها علينا.

كلمات مفتاحية:
واحة تيميمون، فقارة تيميمون، مدينة مازونة، بجاية

معرِّف الوثيقة الرقمي:
DOI 10.12816/0051267

أولاً: واحة تيميمون

تقع مدينة تيميمون[١] في الجنوب الجزائري وبالتحديد في منطقة قورارة بولاية أدرار وتلقب بعروس الصحراء كما تتميز بطابع عمراني معماري فريد من نوعه الأمر الذي دفع الباحثين الفرنسيين وقت الاستعمار إلى تصنيفها على أساس أنها الواحات الرائعة في شمال إفريقيا. يسمى سكان المنطقة بالتوارق أو الرجال الزرق، كما يقال إن اسمهم مستمد من اسم القائد المسلم طارق بن زياد، ويعود سبب تسميتهم بالرجال الزرق لأنهم يلبسون القماش الأزرق ويلثمون وجههم لتفادي غبار الصحراء. تنفرد الواحة الحمراء في مدينة تيميمون بطابع فلكلوري هو "أهل الليل" طابع ذو إيقاع موسيقي جميل يتضمن المديح الديني والشعر، كما تعرف المنطقة كذلك بالعديد من الصناعات التقليدية كالسلال والفضة والحدادة وتشتهر بصناعة النسيج وخاصةً زربية فاتيس التي تعدت شهرتها الحدود الجزائرية.


منظر عام لمدينة تيميمون

(١) سميت المدينة بهذا الاسم نسبة للسلطان ميمون وإضافة تي بلغة أهل المنطقة تعني تنسب إليه. تتكون منطقة تيميمون من مجموعة قصور هي: تلالت - بادريان -الكاف- الغزال- زقور - طاروابة- أغيات- اعلاملال -ماسين ب-ويحيا- زاوية الحاج بلقاسم- بني مهلال -بني ملوك -اغنت- ليشتى- اولاد طاهر- تمانة تاورسيت -الواجدة.

١/١-عادات وتقاليد سكان تيميمون

تظاهرة السبوع

تعرف واحة تيميون المدينة الهادئة بتظاهرة السبوع التي تقام مرة كل سنة مع حلول درى المولد النبوي الشريف، حيث تصبح المدينة منبر للتهليل والمدائح الدينية تنشطها مختلف الفرق الفلكلورية. كما يمثل السبوع بالنسبة لسكان هده المدينة والمناطق المجاورة لها تظاهرة ثقافية واقتصادية تجدرت في التقاليد المحلية مر السنين. ومن الحكايات التي تروى في تيميون عن السبوع أن المرابطين عندما نزلوا بالمنطقة أشاعوا الصلح والأخوة بين القبائل المتناحرة أنداك وكاعتراف من هذه القبائل بفضل المرابطين عليهم في إشاعة الصلح والسلم في المنطقة يقوم أبناء توات "سكان تيميمون" بزيارة قبور هؤلاء الصالحين.

من طقوس هذه التظاهرة التي تقام في هذه المناسبة لقاء الألوية الذي يتم في مكان يسمى بـ الحفرة وفي هذا اللقاء تقام المبارزة بين فرق الألوية[٢] والرايات الذي يتوج دائما بفوز مجموعة وانهزام أخرى تحت الأهازيج والزغاريد. وبعد الانتهاء من المبارزة يستلقي الجميع على الرمال لمدة دقائق وقبل غروب الشمس والانصراف، يتجه الجميع إلى ساقية سيدي الحاج بلقاسم لشرب كمية من الماء تبركًا بهذا الوالي الصالح، الذي خدم الإسلام والمسلمين بهذه المنطقة.



تظاهرة السبوع

(٢) الألوية: عبارة عن مجموعة رايات كل واحدة منها ترمز إلى أحد الأولياء الصالحين الذين حضروا أول لقاء دعاهم إليه الشيخ سيدي الحاج بلقاسم في منطقة حفرة العلم، حيث اقترح عليهم فكرة الاحتفال باليوم السابع من المولد النبي الشريف بالطريقة التي تقام حاليًا.

فقارة تيميمون

يعتمد مبدأ الفقارة أساس على الحفر في منطقة يوجد بها ماء تكون عالية المستوى، يمكن نقل هذه المياه إلى مناطق أخرى أقل انخفاضًا عبر قنوات تحت الأرض تستخدم للري. يقول الدكتور بهاء الدين الجزائري، ذو الأصول السورية، الذي اهتم بتاريخ مدينة تيميمون "أصل الفقارة يعود إلى سيدي عثمان الذي جاء إلى تيميمون كداعية لتعليم القرآن، إذ تعلم أنظمة الري عبر تجواله في العديد من مناطق الشام ونقلها إلى تيميمون قبل أكثر من ثمانية قرون، أين كان المزارعون يعتمدون على الري والأبرا وسحب الماء يدويًا بالدلاء فاستبدل نظام الري القائم بنظام الري بالفقارة.



الفقارة نموذج فريد من نوعه في توزيع المياه بالتساوي

ثانيًا: مازونة عبق التاريخ

يمتد تاريخ مازونة إلى جدور الحضارات القديمة فكانت منارة للعلم ومنهلا للحضارة برأي المؤرخين والدارسين، فأراضيها الخصبة والغنية وأنهارها أثارت إعجاب الكثير من الرحالة الجغرافيين الذين مروا بالمنطقة حيث ذكرها الإدريسي في قوله: "هي على بعد أميال من البحر شرقي حوض فروخ، بين جبال ذات انهار ومزارع وبساتين وأسواق عامرة ومساكن مؤنقة من أحسن البلاد بقعة وأكثرها فواكه وأبانا وسمنا وعسلا".

٢/١- أصل تسمية المدينة:

يوجد اختلاف في تحديد أصل تسمية المدينة، حيث ورد في كتاب دليل الحيران لمحمد بن يوسف الزياني أن مازونة هوإسم لرئيس قبيلة زناتية تدعى ماسون المعروف باسم رجيس ماسينغ جانسين كما يذكر الدكتور مولاي بالحميسي فضلاً عن مذكرات السيد الوكيل يوسف المازوني أن مازونة استنبط اسمها من إسم ملكة كانت تمتلك كنزا من النقود يسمى موزونة وحكي أن ملكًا حط رحاله أثناء مروره بمازونة بأحد جبالها وكانت ترافقه ابنته إسمها زونة فطلب من رجاله أن يحضروا لها ماءً فلما وجدوا المنبع احتكروه لأنفسهم وقالوا "ماء زونة".

٢/٢- تاريخ تأسيس المدينة:

حسب المؤرخين فغن تاريخ تأسيس مدينة مازونة يرجع إلى العهد الروماني مستندين في ذلك على وجود آثار وقطع من النقود الرومانية التي وجدت بالمنطقة وفي هذا الصدد يذكر الرحالة الإسباني "مرمول" عندما قام بجولته عبر المغرب العربي خلال القرن السادس عشر في كتاباته أن ملزونة مدينة قديمة أسسها الرومان مبرهنا على صحة قوله بوجود آثار ولوحات رومانية منقوشة. أما الإدريسي، فقد حدد بعض التفاصيل حول المدينة، وذكر أنها كانت موجودة منذ القدم قبل الإسلام بحوالي بضعة قرون، غير أن العلامة ابن خلدون يذكر بان مازونة أسست على يد عبد الرحمان زعيم مغراوة في القرن الثاني عشر ميلادي وهوما يقاسمه فيه الرأي صاحب كتاب "دليل الحيران" لمحمد لن يوسف الزياني. تقول بعض الدراسات التاريخية أنه عقب الفتوحات الإسلامية لمنطقة المغرب العربي سارع سكان مدينة مازونة لاعتناق الإسلام لتشتهر مدينة مازونة بمدرستها الدينية المختصة في الدراسات الفقهية والتي ذاعت شهرتها في ذلك الوقت بكثرة مجالسها العلمية، ونجابة طلبتها، وقريحة مشايخها، ومن أشهرهم الشيخ محمد أبوطالب بن عبد الرحمان، المعروف بـ "ابن الشارف المازوني "الذي شارك مع طلبته في تحرير مدينة وهران من الاحتلال الإسباني.

٣/٢- أثار مدينة مازونة:

توجد في مدينة مازونة القديمة أثار قائمة وشاهدة إلى يومنا هذا على عراقتها ومنها محكمة قديمة وعدة مساجد عتيقة يعود تاريخها إلى العهد العثماني، ومدرسة قرآنية يعود تاريخها على القرن الحادي عشر الهجري، أسست من طرف الشيخ سيدي بن شارف وبها أضرحة لمجموعة من العلماء الذين عاشوا ودرسوا في تلك الحقبة كما بني بها مسبح كبير يدعى "تامدة". استخدم كمكان للراحة والاسترخاء ويصب في منبع طبيعي ويقع تحت صخور ضخمة، وتحيط به أشجار ومساحات خضراء ذات مناظر خلابة

المساجد: توفرت مازونة سنة ١٨٣٣ م على مسجدين ومقهى وقد ذكرا هذين المسجدين في مذكرة TATAREAU ومن جملة المساجد التي تأسست منذ القدم فهي على التوالي.

- مسجد سيدي محمد الغريب (تايسارت) بني عام ١٠٠٠م
- سجد سيدي عزوز بني عام 1100.
- مسجد الهدى بوذلول بني عام ١٤٥٠م.
- مسجد سيدي علي بن لحسن بوماتع بني عام ١٤٠٠م.
- مسجد سيدي عبد الحق القصبة بني عام ١٦٠٠م.
- مسجد سيدي محمد بن شارف بني عام ١٧٠٠م.
- مسجد مولاي بسويقا (بوعلوفة).
- مسجد المدرسة أسسه امحمد بن الشارف عام ١٠٢٩م.

الزوايا ومراكز حفظ القرآن: إن الزاوية قلعة من قلاع بث العلوم، ونوعية العقول، وتربية النفوس، والأخذ بيد الأمة نحو السعادتين، ودعوتها إلى كل كمال، ولذا كانت الزوايا منتشرة في مازونة وما حولها من بينها: زاوية سيدي بللوش في أولاد سلامة: شهدت هذه الزاوية بتخريج الكثير من الطلبة حفظة القرآن، وزاوية سيدي غلام الله: ولقد شهد لهذه الزاوية أيضا بتخريج عدد من الطلبة.

ثالثًا: بجاية تاريخ وحضارة

تعتبر بجاية كباقي مدن المتوسط مستعمرة رومانية حيث حكمها الرومان بعد تغلبهم على قرطاج، ثم اتخذها الوندال عاصمة لهم في القرن الخامس تعاقب على حكمها البربر، الحماديون وأسسها الناصر بن علناس بن حماد بن زيري في الشمال الإفريقي في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري لذا تسمى الناصرية نسبة إليه، بعدها حتلها الإسبان ثم الفرنسيون إلى غاية الاستقلال. من أبرز معالمها التي بقيت صامدة في وجه الزمن نذكر سكوار "بورغيدون" وساحة أول نوفمبر التي تعد بمثابة مركز بجاية القديمة التي لا تزال شاهدة على حضارة الحماديين حيث يلتقي فيها الأعيان والزوار الذين يتوافدون عليها من كل حدب وصوب كما نجد "القصبة القديمة" التي لا تزال تحتفظ بماضي المدينة وتاريخها الذي نحته ابن خلدون وتحولت إلى مكتبة يأتيها أزيد من ٧٠٠٠ طالب وباحث يطالعون في نفس القاعة التي كان ابن خلدون يقدم فيها دروسه منذ قرون، والتي بناها الموحدون في القرن الثاني عشر.

المرور ببجاية أيضًا يقتضي ألا يغادرها الزائر دون المرور بقرية "إغيل علي" موطن الكاتبة الكبيرة الطاووس عمروش التي جمعت بين حضارة الشرق والغرب هذه القرية التي تطل على منطقة الصومام وإفري وازلاقن، التي شهدت انعقاد مؤتمر الصومام التاريخي أثناء الثورة التحريرية.

مغارة أوقاس، يستحيل على أي زائر أن يدخل مدينة أوقاس المتواجدة على بعد ٣٠ كلم من مدينة بجاية في اتجاه الساحل الشرقي أن يغادرها دون أن يعرج على النفق الكبير الدي يفتح أبوابه نحو الدهاليز المتشابكة والتي تسمى بالمغارة العجيبة بأقواس، حيث صنفت من عجائب الدنيا المصنفة مؤخرًا في إسبانيا. في هذه المدينة تتيح الفرصة لكل إنسان أن يقوم برحلة إلى أعماق الأرض ليكتشف ما تخفيه من أسرار وعجائب صنعتها يد الطبيعة، ونقصد بذلك التماثيل الغريبة للصواعد والنوازل التي تتواجد على عمق ١٢٠ متر من سطح الأرض، لتصل بزائرها إلى نهر يدعى بنهر الأماني إلى غاية الوصول إلى ممر ضيق جدًا يضطر كل زائر إلى الاصطفاف الواحد أمام الأخر قبل أن يحطوا الرحال في استوديو صغير تنبعث منه قطع موسيقية كلاسيكية رائعة بمجرد الضرب على إحدى تلك الصواعد بقطعة حجرية صغيرة.



مغارة مدينة ازلاغن

الحضيرة الوطنية ليما قورايا

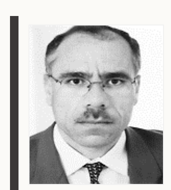
"يما قورايا" الحصن الأسطوري لأجمل موقع سياحي في المنطقة اختلفت بشأنه التفاسير والروايات التاريخية بين مَنْ يقول إن مدينة بجاية لها (٩٩) وليًا صالحًا أخرهم امرأة تدعى **"قورايا"** حكمت المنطقة، ومَنْ يقول إن قورايا امرأة جاءت مع الاستعمار الإسباني ودخلت الإسلام، ودافعت عن المدينة لتستقر بها وتصبح قديسة. ولكن لا شيء من هذه الروايات مؤكد حتى الآن، ويبقى حصن قورايا أجمل موقع سياحي يزوره السياح من ربوع الوطن وخارجه سنويًا تبركًا بسر المرأة الأسطورة التي تبدو من بعيد في شكل صخرة جبلية على هيئة امرأة نائمة رأسها باتجاه القبلة، وقد أقرت الدراسات الأخيرة لمهندسين معمارين أن الحصن الذي شيده الفرنسيون يحتوي في داخله على ضريح قورايا بعد اكتشافهم لقبة بداخلها.

المراجع

- الإدريسي، **وصف أفريقيا الشمالية في اختراق الآفاق**، صفحة ونشره هنري بيرس، الجزائر، ١٩٥٨.
- مولاي بلحميسي، **دور مازونة في الحركة العلمية والثقافية من منتصف القرن الخامس إلى منتصف القرن الحالي**، ١٩٧٦
- محمد بن يوسف الزياني، **دليل الحيران وانيس السهران في أخبار مدينة وهران**، الجزائر، ١٩٧٨.
- HARMOLE CARVJOL. discrétion générale d'dafrica 1973. tard France Perrot d'blencour paris 1867. 03vol
- **ANAT** Agence National D'aménagement du Territoire (2011) monographie willaya de ADRAR
- **ANAT** Agence National D'aménagement du Territoire (2011) monographie willaya de BEJAIA

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

النخب السياسيّة العربية والتاريخ
تأمّلات في علاقة السياسيّين بالتاريخ وأشكال الكتابة التاريخيّة
حالة تونس نموذجًا (١٩٥٦ ، ٢٠١٠)



د. عادل بن يوسف
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة سوسة
مخبر الدراسات المقارنة والمتناهجة
جامعة صفاقس – الجمهورية التونسية

مُلَخّصْ

نهتمّ في هذه الدراسة بعلاقة السياسيّين العرب بالتاريخ وأشكال الكتابة التاريخيّة أثناء وجودهم في السلطة من خلال حالة النخبة السياسية التي تداولت على الحكم بتونس منذ الاستقلال إلى غاية اندلاع "ثورة" الحريّة والكرامة. وليست غايتنا من وراء ذلك الحكم على هؤلاء السياسيّين أو لفائدتهم بالتحقيب لمختلف الأحداث والمحطات التاريخية الكبرى التي مرّوا بها بين ١٩٥٦ و٢٠١١، ولا كذلك بالتطرّق للبرامج الرسمية المعتمدة في مادة التاريخ في مختلف مستويات التعليم الثلاثة (الابتدائي والثانوي والعالي) والمناهج والوسائل البيداغوجية المستخدمة في تدريسها منذ تَوْنَسَةِ المدرسة التونسية سنة ١٩٥٨ (في إطار ما يعرف ببرنامج الأستاذ محمود المسعدي) ...، بقدر ما نسعى إلى التعرّف على أشكال كتابة النخبة السياسية الوطنية للتاريخ خلال فترة الحماية والنضال الوطني ضد المستعمر الفرنسي (١٨٨١–١٩٥٦) ثمّ – وهو الأهمّ بالنسبة لنا – إبّان مباشرتها للحكم منذ مطلع الاستقلال إلى حين إزاحتها عنه في (جانفي/ يناير) ٢٠١١. ولن يكون تناولنا لمسألة على غاية من الأهمية متصلة بهذا "العلم الجامع" لكل العلوم وفق مقاربة منهجية وبيداغوجية، لأنّ ذلك يبقى من مشمولات المختصين في علوم التربية والبيداغوجيا التعليمية " didactique de l'enseignement La"Teaching didactics"، بل وفق مقاربة في المضمون تستند إلى لمضامين الوثائق التاريخية المتاحة لنا من نصوص وخطب وتصريحات وصور وتسجيلات سمعية – بصرية، بتحليلها وتمحيصها واستجلاء ما بها من معطيات متصلة بعلاقة النخبة السياسية التونسية مع علم التاريخ وأشكال تعاملهم وتفاعلهم معه. سنعرّف في القسم الأوّل من الدراسة وتحديدًا في العنصر التمهيدي منها بملامح النخبة السياسية التونسية وظروف تشكّلها خلال الفترة المعاصرة (بمختلف مكوناتها وأصنافها وتفرعاتها: التقليدية والعصرية...). أمّا القسم الثاني فسنخصّصه لنظرة هؤلاء السياسيّين وفي مقدمتهم الرئيس الراحل الحبيب بورقيبة وغالبية الشخصيات التي عملت معه من: وزراء وكتّاب دولة وولاة ودبلوماسيّين وموظفين سامين في جهازَيْ الدولة والحزب الحاكم ...، للتاريخ وأشكال تعاملهم معه وكتابته منذ مطلع الاستقلال إلى غاية سقوط نظامه يوم ٠٧ (نوفمبر/ تشرين الثاني) ١٩٨٧. أمّا القسم الثالث والأخير من الدراسة فسنخصّصه لأشكال الكتابة التاريخيّة من طرف السياسيّين التونسيّين خلال فترة حكم الرئيس الأسبق زين العابدين بن علي (١٩٨٧–٢٠١١)، فيما سيكون العنصر الثاني منه نظريًا بالأساس بالخوض في الطريقة "المثلى" التي يمكنها التأسيس لكتابة تاريخية علمية وموضوعية مستقبلا من قبل رجالات السياسة، لا في تونس فحسب، بل في العالم العربي بصفة عامة.

كلمات مفتاحية:
المصادر التاريخية، التاريخ الوطني، الحزب الدستوري، زين العابدين بن علي، الحبيب بورقيبة

بيانات الدراسة:
تاريخ استلام البحث: ١٩ يونيو ٢٠١٦
تاريخ قبول النشر: ١٥ سبتمبر ٢٠١٦

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0051268

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
عادل بن يوسف، "النخب السياسيّة العربية والتاريخ، تأمّلات في علاقة السياسيّين بالتاريخ وأشكال الكتابة التاريخيّة: حالة تونس نموذجًا (١٩٥٦، ٢٠١٠)".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة -العدد التاسع والثلاثين؛ مارس ٢٠١٨. ص١٧٥ – ١٩٨.

مُقَدِّمَةٌ

لا يختلف اثنان في أنّ تاريخ البشريّة قد كُتب في العقود الأخيرة "من أسفل إلى أعلى"، أي بالتركيز على المستضعفين والمستغلين والمحرومين...، في المجتمع، وذلك بغاية إبراز دور الطبقات الشعبية في تاريخ كل بلاد.[١] أمّا كتابة التاريخ فتكون "من أعلى إلى أسفل"، أي بالتركيز على دور النخب وتحديدًا السياسيّين منهم، ورغم هيمنتها على الكتابة التاريخيّة منذ العصور القديمة و"التأسيس" لها من قبل الملوك والخلفاء والسلاطين والرؤساء والكهنة... الذين كتب بعضهم يوميات أو مذكرات وسير ذاتية... خاصة بهم، مستعينين بمؤرّخي البلاط والقصر والكنيسة، فإنها تبقى محدودة.

غير أنه منذ مطلع الفترة المعاصرة نما هذا الجنس من الكتابة في الأوساط السياسية بنسق مطّرد، سواء في أوساط الملوك والأمراء والرؤساء والوزراء وكبار المسؤولين ورجالات الدولة...[٢]، أو في أوساط المقاومين والمناضلين والنقابيّين الذين شغلوا الشأن العام والحياة السياسية لفترات متفاوتة من حيث المدّة والأداء. ولم يشذّ السياسيّون بالدول العربية عن هذا المنحى. فقد لاحظنا منذ خمسينيات القرن الماضي اهتمامًا غير مسبوق بالتاريخ وإقبالاً على كتابته. ورغم أهميّة الكتابات والإصدارات التاريخيّة، سواء الرسمية منها (الصادرة عن الحكومات) أو الخاصّة (الصادرة عن السياسيّين على نفقتهم الخاصّة)، فإنّ مضمونها للأسف لم يُكتب بالقدر الكافي من الموضوعية والصرامة العلمية ولم يتمّ تفكيك وتحليل الآليات والديناميات المتصلة به وخاصّة التعريف بجميع الشخصيّات الفاعلة فيه والتي أسهمت بشكل أو بآخر في صنعه من: مناضلين ومقاومين ونقابيّين وحقوقيّين ورجال دولة ودبلوماسيّين...، أو من مكوّنات الطبقة السياسية والإدارية الذين اعتلوا سدّة الحكم بمختلف الأقطار العربية منذ استقلالها عن الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية (قبيل الحرب العالمية الثانية بالنسبة لدول المشرق العربي ومنذ مطلع الخمسينات بالنسبة لدول المغرب العربي).

وقد تنوعت الكتابات التاريخيّة لهؤلاء السياسيّين فتراوحت بين الكتب والمذكرات والسير الذاتية والخطب والمحاضرات والمقالات والحوارات...، حول الأحداث التي ساهموا في صنعها (خلال فترة الكفاح الوطني) أو المناصب والأدوار التي اضطلعوا بها في أجهزة الحزب والدولة بدولهم، مشرقًا ومغربًا منذ فجر استقلالها. ولم يشذّ السياسيّون التونسيّون منذ فجر استقلال البلاد عن هذا الاتجاه. لهذه الأسباب وبحكم اشتغالنا على النخبة التونسية العصريّة قُبيل وإبّان الفترة الاستعمارية (١٨٨٠-١٩٥٦) ومطلع الاستقلال،[٣] فقد استرعى انتباهنا كثرة الكتابات التاريخيّة للسياسيّين بتونس المستقلّة. وهو في المطلق مؤشّر هام على نضج النخبة السياسية التونسية وأهمية حسّها الثقافي والفكري...، لذلك آلينا على نفسنا دراسة واستقراء وتفكيك هذه "الظاهرة" الملفتة للانتباه.

ولا نهدف من خلال دراستنا هذه التطرّق إلى أشكال الأداء السياسي لهؤلاء السياسيّين أثناء وجودهم في السلطة، وذلك بالحكم لهم أو عليهم والتحقيب لمختلف الفترات والمحطات التي مرّوا بها بين ١٩٥٦ و٢٠١١ ولا إلى البرامج الرسمية لمادة التاريخ في مختلف مستويات التعليم لدراستها وتحليلها من قبل المختصّين في تاريخ التعليم ومناهجه ووسائله البيداغوجية بتونس منذ تَوْنَسَتِهِ سنة ١٩٥٨ (في إطار ما يعرف ببرنامج الأستاذ محمود المسعدي)، بقدر ما نسعى إلى التعرّف على أشكال كتابتهم للتاريخ، بدءًا بالفترة الاستعمارية مرورًا بممارستها للحكم – وهي محور اهتمامنا – وصولاً إلى خروجهم نهائيًا من الساحة السياسية.

أولاً: مدخل تاريخي: (السياسيّون في تونس المستقلّة: ملامحهم وأدوارهم)

١/١- ما المقصود بالسياسيّين؟

إشكاليّة المفهوم:

لغة:

حسب قاموس المعاني: السياسيّون والساسة من فعل ساسَ [سُسْتُ، أَسُوسُ، سُسْ، مصدر سِيَاسَةٌ] وسَاسَ الدَّوَابَّ: اِهْتَمَّ بِتَرْبِيَتِهَا وَتَرْوِيضِهَا والاعْتِنَاءِ بِهَا وسَاسَ أُمورَ النَّاسِ بِالحَقِّ: تَدَبَّرَهَا، تَوَلَّى تَدْبِيرَهَا وَتَصْرِيفَهَا. ومَنْ يعمل في السِّياسة، متعلِّق بإدارة الشّؤون العامّة وتنظيمها سياسيّ محنّك/مخضرم... جاء في لسان العرب لابن منظور أن السياسة مصدر للفعل ساس يسوس، وساس الأمر سياسة: قام به، وسوسه القوم: جعلوه يسوسهم. ويقول مجد الدين الفيروز آبادي- صاحب القاموس المحيط - سُسْتُ الرعيّة سياسة، أي أَمَرْتُهَا ونهَيْتُهَا. وقال ابن حجر: يسوس الشيء أي يتعهده بما يصلحه والسياسة فعل السائس الذي يسوس الدواب سياسة، أي يقوم عليها ويروضها، والوالي يسوس الرعية أي يأمرهم.

وجاء في الحديث النبوي الشريف: "كان بنو اسرائيل يسوسهم أنبياؤهم"، أي يتولون أمورهم كما يفعل الولاة بالرعيّة. كما وردت كلمة سياسة ومشتقاتها في شعر العرب، تقول الخنساء: "ومعاصم للهالكين وساسة قوم محاشد". ويقول أبو العلاء المعري: "يسوسون الأمور بغير عقل فينفذ أمرهم ويقال ساسة". وقال الحطيئة: "يسوسون أحلامًا بعيدًا أناتها وإن غضبوا جاء الحفيظة والجدّ".[٤] وبشكل عام يمكن القول إنّ السياسة في اللغة العربية تشير إلى معنى الرياسة والقيادة والذكاء والفطنة والكياسة والدهاء. وفي القواميس الغربية مرادفها هو كلمة "Policy" وتعني السياسة كفنّ أو كممارسة يقوم بها السياسيّون.

اصطلاحًا:

السياسة هي السعي للسلطة من أجل بسط النفوذ. وعلى الرغم من الاتفاق حول هذا الهدف (بسط النفوذ). إلاّ أنّ هناك اختلافا حول الهدف من بسط النفوذ، فبينما يرى البعض أنّه لتحقيق مصالح ذاتية، يرى آخرون أنّ الهدف هو السعي لتلبية حاجيات المجتمع، وتحقيق الصالح العام. والسياسة هي فنّ الخداع أي "فنّ حكم البشر عن طريق خداعهم" وهي المكر والخداع والمساومة. والسياسي هو الذي يجيد المكر والخداع.

وكلما كان السياسي مخادعًا، كـان ناجحًا وقـادرًا عـلى الاحتفـاظ بالسلطة لفترة أطول.[٥]

وعمومًا لـيس المقصـود بالساسـة والسياسـيّين قطعا بالفئـة الحاكمة الممسكة بدواليب الدولة والإدارة. لكن قناعتنا هم مـن كانوا أيضًا خارج الحكم. وتأكيدا لذلك ميّز عالم الاجتماع ورجل الاقتصاد الايطالي "فيلفريدو باريتو "Vilfredo Pareto" (1923-1848) ميّز بين فريقين مـن السياسـيّين: فريـق يَحْكُـمُ وفريـق لا يَحْكُـمُ. وفي الوقـت الـذي يُجَاهِـدُ عنـاصر الفريـق الحـاكم في المحافظـة عـلى مكانتهم، فـإنّ عنـاصر الفريـق الـذي لا يحكـم يُجاهدون في إتعاب الفريق الحاكم والتصدي له بشـتّى الأشـكال والطرّق والوسائل بغايـة إزاحتـه وافتكـاك مكانـه، أي مـا يوافـق بلغتنا اليوم بالمعارضة. فكان "فيلفريدو باريتو" أوّل مـن تحـدث عن النّخبة السياسية في القرن التاسع عشر. أمّـا "ڤايتـانو موسـكا "Mosca Gaetano" (١٨٥٨-١٩٤٤)، فبوصـفه سياسـيّا وعالمًـا وصحفيّا إيطاليّا، فقد كان له الفضـل في تطـوير نظريـة الصّـفوة ومصطلح ما يعرف اليـوم بـــ "الطبقـة السياسـية " Une Classe politique". فكان إلى جانب كل من "فيلفريدو باريتو" و "روبار ميتشـيلز "Robert Michels" مـن مؤسّـسي- "المدرسـة الايطاليـة للصّفوة "Italian School of Elitists".

وتأكيـدًا لـذلك صـنّف بعـض علـماء الصّـفوة وفي مقـدمتهم الايطـالي "بـاريتو" وعـالم الاجـتماع الأمـريكي "شـارل رايـت ميلـز "Charles Wright Mills" (١٩١٦-١٩٦٢) النّخبـة السياسـية صـنفين: نخبـة حاكمـة "Une élite au pouvoir" ونخبـة غـير حاكمة "Une élite en dehors du pouvoir" وأنّه يمكن لهـذه الأخيرة أن ترتقي إلى الحكم والعكس بالعكس. كما يمكن لشرائح أو فئات مـن الصّـفوة السياسـية أن تحتكـر السـلطة الاقتصـادية فتعبّر عن نفسها دون تعريف أو وعي بكونها جماعات أو شرائح وسـيطة "Médiatrices". ومـن هـذا المنطلق ومـن الأجـدى ألا تقتصر دراسة السياسيّين والنخبة السياسية على الطبقة الحاكمـة وإقصاء الطبقة غير الحاكمة، لأنّ أدوار وتجربة العديـد مـن بـين هؤلاء الفاعلين الخلفيّين" أو في "الواجهة الثانية" و"الثالثة" وحتى في الصفوف الخلفيّة، قد تكـون حسـب "ڤايتـانو موسـكا" أفضـل أداءً وأجدى وأنفـع للـبلاد وللمجتمـع أحيانًـا مـن أدوار الطبقـة الحاكمة.[٦]

لكلّ ما تقدّم سوف لن نقتصر في دراستنا على عناصر النخبـة الحاكمة فحسـب، بـل سـندرس موقـف بعـض الأسـماء والوجـوه السياسية من نظيرتها القابعة خارج سدّة الحكم في مواقع نضـال اجتماعي ونقابي وثقافي بالقول والفعل وخاصّة بالقلم عبر الكتابة والتدوين والتحرير...، في الحقل التاريخي.

٢/١- ملامح السياسيّين في تونس منذ مطلع الاستقلال:

يرى أحد خبراء القانون أنّ "النّخبة السياسيّة الحقيقيّـة هـي التي يمكن أن تحمل قيمـة تغيـير سـياسي حقيقـي، وهـي نخبـة تفرزها عمليّة النضال الجمعـيّ مـن وسـط الجماهـير". واسـتنادًا لهذه المقولة فإنّ ميلاد النّخبة السياسيّة قد ارتبط أولاً وقبل كـل شيء بشرط النضال السياسي زمن الاستعمار. وبالتالي ومـن وجهـة نظره فإنّه "ليس بالإمكان الحـديث عـن نخبـة سياسـيّة تنشـأ في غـرفٍ مغلقـةٍ في العاصـمة، أو في حضـن الحكـم التسـلّطيّ، ثـمّ تسعى إلى إنشاء جسور مع الجماهير، التي لا تستجيب، ولها كلُّ الحقّ في ألاّ تسـتجيب، ثـم لا تخجـل هـذه "النّخبـة" مـن اتهـام الجماهير بالسلبيّة والخنوع... ".[٧] فما هي ملامـح السياسـيّين في تونس المستقلّة؟

وللتـذكير فـإنّ السياسـيّين في تـونس قبـل فـترة الاسـتعمار الفرنسي، من رجـال الدولـة والمخـزن المنتشرـين في كامـل أنحـاء البلاد، لا سيّما بالمدن والقرى والتجمّعـات السـكنيّة الكـبرى. أمّـا الأريـاف مـوطن القبائـل البدويّـة، فقـد كانـت خاضعـة لـزعماء القبائـل والعشـائر أو المحـاربين الـذين كانـت تـربطهم علاقـات وطيدة ببعض رجـال الـدين والتجـار والوسـطاء بالمـدن... وكانـت هـذه الجماعـات تحكـم وفـق علاقـات أبويّـة مبنيّـة عـلى مبـدأ "الرئاسة" بالمعنى الخلدوني القائم على العصبيّة القبليّة... وكانـت تستمدّ نفوذها من القوانين القبليـة التـي غالبـا مـا تعطـي تميّـزا لجماعات بعينها حسب الرتبة أو السنّ أو الانتماء إلى القبيلة.

ومـع حلـول الاسـتعمار الفرنسي- وبدايـة انـدماج الـنظم التقليدية في المنظومـة الغربيـة الحديثـة، بـرزت للوجـود وجـوه جديدة نَمَتْ مع ظهور المؤسّسات الحديثـة. كـما سـاهم التعلـيم العصرـي في بـروز نخـب عصرـيّة جديـدة في جميـع الميـادين والمجالات: ملاّكون وتجّار كبـار، محـامون، أطبّـاء، رجـال تعلـيم، صـحفيّون، صـناعيّون، موظّفـون...[٨] ومـن بـين هـؤلاء تشـكّلت النخبة السياسـية العصرـيّة الوطنيّـة التونسـيّة التـي نـادت، أولا بتشريك الأهالي في إدارة شؤون البلاد ثمّ بالنضـال السـياسي ضـد المسـتعمر، تـارة بالمفاوضـات، وتـارة أخـرى بالتظـاهر والإضراب والعصيان المدني...، وأخـيرًا بالكفـاح المسـلّح بـين ١٩٥٢ إلى غايـة انتزاع الاستقلال الداخلي في ٣١ جويليـة/يوليو ١٩٥٤ والاسـتقلال التم في ٢٠ مارس/آذار ١٩٥٦.

وإحقاقًا للحقّ، فإنّ هذه النخبـة السياسية مدينـة في نشـأتها للمدرسة الاستعماريّة عـلى حـد قـول الـزعيم الجزائـري فرحـات عبّاس الذي اعترف بالتـأثير الـذي مارسـته المدرسـة عـلى سـلوكه وطريقة تفكيره في أبلغ عبارة بقوله: "حين كنت أبلغ مـن العمـر اثني عشر سنة كنت أعدُو في الحقل حافي القدمين دون أن أسمع كلمة واحدة مـن الفرنسـية، لا فـرق في ذلـك بينـي وبـين راعـي الماشية في قريتنا. واليـوم بفضـل المدرسـة صرت قـادرًا عـلى بنـاء أسرة وتربية أولادي، كما صرت قادرا على أن أعـيش وأمـوت مـن أجل وطني...".[٩]

ولعلّ هذا ما يفسّر عدم تجانس السياسيّين التونسيّين فهـم سليلو نخبتين ولا نخبة سياسية واحدة. فاجتماعيا هم من شرائح اجتماعية ومهنيّة مختلفة، حتى وإن كانوا من حاملي الشـهادات العليـا مـن أصـحاب المهـن الحـرّة: محـامون، أطبّـاء، صـيادلة ومهندسـين... وكبـار أعـوان الإدارة ورجـال التعلـيم في مقدمـة محترفو العمل السياسي الخالص. وعلميًا لهم تكوين متباين: مـن خرّيجي جامع الزيتونة المعمور وفروعه ومـن خرّيجـي المـدارس والمعاهد والجامعات العصرية بتونس وفرنسا. بمعنـى أنـه يمكـن تصنيفهم إلى نخبتين: واحدة تقليديّة وأخرى عصريّة، وذلك خلافا لما كانت عليه الحال خـلال الفـترات البعيـدة السـابقة للاحـتلال الفرنسي. والمتأمّل في هذه النخبـة السياسـية العصرـيّة التونسـيّة يلاحظ أنّها لم تقتصر على العنصر الرجـالي فحسـب، بـل شـملت

أيضا العنصر النسائي (ولو بأعداد قليلة) بتشكّل نخبة نسائيّة منذ الفترة الاستعماريّة وتحديدا منذ مطلع ثلاثينيات القرن العشرين، رغم كثرة العراقيل والصّعوبات في مسارها. وقد تدعّم وزن وحجم هذه النخبة بالخصوص خلال فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ومطلع الاستقلال.

وقد ساهمت سياسة التعليم العمومي التي أرستها فرنسا في تونس منذ ١٨٨٣ بقسط كبير في تطوّر الفتاة التونسية المسلمة وارتياد أجيال متعاقبة من التلميذات المدارس العمومية - ولو باحتشام وبنسق بطيء -، بسبب كثرة الصّعوبات والعوائق الذاتيّة والموضوعيّة. وقد سمح ذلك منذ منتصف الثلاثينات بتشكّل نواة لنخبة نسائية على السّاحة، بما للكلمة من معاني ودلالات. ونتيجة لذلك لم تتأخّر المرأة عن احتلال مكان لها ضمن النخبة العصريّة إلى جانب أخيها الرّجل والاضطلاع بأدوار هامة في الحركة الوطنيّة ثمّ في بناء الدولة وتحديث المجتمع بعد ١٩٥٦. وخلافًا لتعليم الفتى، كانت مسيرة تعليم البنت التونسيّة المسلمة على النمط العصري "طويلة" و"عسيرة" إن لم نقل "شاقّة"، بحكم كثرة المحاذير والعراقيل الاجتماعية والدينية... لكن في المقابل سمحت "تضحيات" الفتيات التونسيات بنشأة وتشكّل نخبة نسائيّة عصريّة تونسيّة.

ورغم كونها أقلّ عددًا وانتشارًا من نظيرتها "الرجاليّة"، فإنّها لم تكن تقلّ عنها كفاءة واقتدارًا وإشعاعًا لم تغب عن الشأن العام وعالم السياسة والمحيط القريب منها وتحديدًا هياكل الحزب الحاكم (الحزب الدستوري والتجمّع الدستوري الديمقراطي) والمنظّمات الوطنية وفي مقدمتها الاتحاد القومي النسائي والاتحاد العام التونسي للشغل، رغم حضورها بالأساس في التعليم والصحّة والقضاء المحاماة... ونضالها أساسًا في الجمعيات والمنظمات الوطنية كالاتحاد النسائي الاسلامي والكشّافة ومجالي الإغاثة والطفولة ومقاومة الأميّة... زمن الاستعمار، قبل أن تلتحق بسدّة الحكم منذ مطلع الاستقلال على رأس المنظمات الوطنية وفي مقدمتها الاتحاد القومي النسائي التونسي- وهياكل الحزب الدستوري (اللجنة المركزية والديوان السياسي) والبلديات ومجلس الأمّة ومجلس النواب والإدارات المركزية... منذ مطلع الاستقلال.

ويمكن أن نذكر من بين عناصر النخبة السياسية النسائية كل من: شريفة المسعدي، شريفة السعداوي، راضية الحداد، فتحية المختار مزالي، أسماء الرباعي بلخوجة، وسيلة بن عمّار، درّة بوزيد، جليلة حفصيّة... والقائمة تطول. ورغم اختلاف الانتماء الاجتماعي للسياسيّين التونسيّين واختلاف تكوينهم العلمي والثقافي والأيديولوجي...، فقد كانوا متجذّرين في محيطهم الوطني ومنفتحين على محيطهم الخارجي. كما تمكّن غالبيتهم من الانصهار ضمن الأجهزة العصريّة لدولة الاستقلال. ولم يكن هذا الاندماج بحثا عن مقابل أو بغاية تحقيق بعض "المغانم" والمنافع المادية الشخصيّة والمحافظة على مواقعهم في دولة الاستقلال، بدافع الحفاظ على وحدة وتماسك "الأمّة التونسية" وبناء البلاد وتطوير المجتمع والنهوض به.

٣/١-صعوبات ومنزلقات الكتابة التاريخيّة من طرف السياسيّين:

يواجه السياسيّون المهوسين بالتأريخ والكتابة التاريخيّة في جميع البلدان والمجتمعات عديد الصّعوبات التي لا يمكن لهم التخلّص منها، سواء قبل، أثناء أو بعد كتابتهم للتاريخ، ومن أبرز هذه الصّعوبات:

(٣/١) ١- "منزلقات" البيوغرافيا والسّيرة الذاتيّة:

تُعدّ كتابة السّيرة الذاتيّة نوعا من المخاطرة والمغامرة. فهي "رهان "Un Pari" صعب، بل "مقامرة" و"ورطة" كما وصفها "فرنسوا دوس "François Dosse"،[١٠] وسبب ذلك أنّ البيوغرافي لا يمكنه أن يمتلك مفتاح الشخصيّة التي يريد التأريخ لها والتعريف بها وتخليد اسمها وذكراها للأجيال القادمة. فعالم النفس ولو قضّى عشرين سنة في دراسة حالة ما، لن يمتلك أبدًا مفتاحها، والبيوغرافي أيضًا لا يمكنه الوصول إلى حقيقة الشخصيّة. لهذا نجد بيوغرافيات متعدّدة حول نفس الأشخاص، ليس لأنّ الأمر يتعلّق باكتشاف أرشيفات أخرى، وإنّما لوجود أسئلة وإشكاليّات جديدة قابلة للطّرح وفق اختلاف الرّؤى والمواقف والمقاربات بين الأشخاص حول مسألة أو قضيّة ما. وتزداد هذه الصعوبات تعقيدًا إذا ما كان كتّاب البيوغرافيات من السياسيّين مهما اختلفت جنسياتهم وتوجهاتهم السياسية. فالنتائج التي يتوصّل إليها السياسي تبقى بلا ريب غير نهائية ومفتوحة أمام دراسات المؤرخين وقابلة للإضافة والإثراء والنفي والتأكيد... ومن المستحيل الوصول إلى حقيقة وعمق الشخصية قيد الدرس وفكّ جميع رموزها وخفاياها لعديد الأسباب لعلّ أبرزها ذاتية وانحياز ونرجسية السياسيّين أثناء الكتابة بحكم انتمائهم لأيديولوجيا وأحزاب وعائلات سياسية بذاتها.

لذلك فإنّ غالبية كتاباتهم تتضخّم فيها الذاتية والأنا والسقوط في استعراض بطولاتهم وإنجازاتهم وأدوارهم في صناعة بعض الأحداث التاريخيّة، مقابل التقليل من دور بعض الشخصيّات الأخرى من أحزاب وتنظيمات وانتماءات فكرية وأيديولوجية أخرى وتجاهل ذكر بعض الأحداث التي لم يشاوا فيها أو كانت لهم منها مواقف سلبية ومثيرة للجدل. وبذلك تصبح الكتابة البيوغرافية من طرف السياسيّين "مقامرة" وضربًا من ضروب الرّهان البيوغرافي الذي يُعَدّ كسبه أمرًا صعبًا، إن لم نقل يستحيل إدراكه، لكونه قد يصبح في نهاية المطاف "رهانًا خاسرًا" مثلما ذهب إلى ذلك مختصّ البيوغلرافيا "فرنسوا دوس "François Dosse".[١١]

(٣/١) ٢-قلّة استخدام السياسيّين للمصادر التاريخيّة وغيابها أحيانًا:

خلافًا للمؤرخين والباحثين المختصين، لا يستخدم السياسيّون عند كتابتهم وتأريخهم للفترتين الحديثة المعاصرة المصادر التاريخيّة من أرشيفات ووثائق أصلية بالأرشيفات العمومية والخاصة مراكز البحث والمكتبات الوطنية ومقالات ودراسات صادرة بالصّحف والدوريات...، سواء في تونس أو خارجها. فيكتفي غالبيتهم بالاقتصار على ذاكرتهم الشخصية وما يستقونه من معلومات وشهادات من أصدقاء لهم أو من مناضلي وكوادر الأحزاب والتنظيمات التي ينتمون إليها. وكما هو معلوم فإنّ

الشهادة الشفوية تبقى عرضة للتأويل والتفخيم والتقليل فتكون حصيلة كتابتهم غير موضوعية ومنقوصة عامة.

وفي المقابل وفي الوقت الذي يمكن للسياسيّن بالدول العربية ومن بينها تونس النفاذ إلى الأرصدة والملفات الشخصية بالأرشيفات العمومية بطرق مختلفة عبر علاقاتهم الشخصيّة ومناصبهم صلب الدولة والحزب فينتقون من الكرتونات والملفات والوثائق... ما "يلذّ ويطيب" لهم، فغنّ المؤرخين والباحثين العاديّين يصطدمون بسطوة القوانين المنظمة للأرشيف العمومي: قانون ١٠٠ سنة (الذي تمّ الحطّ فيه إلى مدة ٧٠ و ٦٠ سنة حسب البلدان) بالنسبة للأشخاص وقانون ٣٠ سنة بالنسبة للهياكل والجمعيّات والمنظمات. وفي غياب اطلاع السياسيّين على الأرشيفات والصّحافة والمادة الإخباريّة الخاصة بالفترة التي يؤرخون لها من إنتاج أدبي وفكري وسياسي وديني...، تبقى كتاباتهم منقوصة، بل قد تتحوّل إلى "مرآة مشوّهة"، من الضروري استغلال المادة الواردة بها بكل حذر من قبل الباحثين. وتبعًا لذلك فإنّ مقارعة المؤرخين والباحثين لكل ما يرد في كتابات السياسيّين بأنواع أخرى من المصادر والوثائق – إن أمكن ذلك بطبيعة الحال –، يصبح أمرًا لا مناص منه!

عمومًا يمكن القول في خاتمة هذا المدخل النظري – التاريخي، أنّ النخبة السياسية بالعالم العربي وبتونس تحديدا "ظاهرة" تاريخيّة قديمة جدا. كما أنّ السياسيّين التونسيّين مطلع الاستقلال رغم أنهم لم يكونوا متجانسي الانتماء الاجتماعي والتكوين الفكري والأيديولوجي والسياسي، فقد قدم غالبيتهم – باستثناء قلّة منهم - تضحيات ونضالات وكانت لهم مواقفهم وأدوار هامة في مقاومة الاستعمار الفرنسي زمن الحماية. وهو معطى لا يجعلنا يمكننا من الحديث عن نخبة سياسية بتونس المستقلة في صيغة المفرد، بل عن "نُخَبٍ" سياسية في صيغة الجمع. وكما أشرنا إليه آنفا فإنّ حضور هؤلاء السياسيّين لم يقتصر منذ مطلع الاستقلال وإلى غاية ٢٠١١، على الحضور في الحقل السياسي واحتكار المناصب القيادية في أجهزة الحزب والإدارة والدولة...، بل بحكم كونهم كانوا فاعلين في التاريخ للعقود الثلاثة من الحكم البورقيبي وطيلة ٢٣ سنة من حكم بن علي، فقد تاقوا لكتابة تاريخهم وتاريخ تونس زمن وجودهم في حلبة التاريخ وسدّة الحكم. فما هي أسباب اهتمامهم بكتابة التاريخ، أهمّ كتاباتهم، أشكال وحصيلة الكتابات الصادرة عنهم؟

ثانيًا: السياسيّون يطرقون باب التاريخ: زمن الحكم البورقيبي (١٩٥٦-١٩٨٧)

١/٢- تاريخ يكتبه المُنتصِرُون:[١٢]

(١/٢) ١- تغييب بورقيبة لخصومه من التاريخ الوطني:

إنّ المتأمّل في الخطب والمحاضرات والندوات...، المتصلة بتاريخ تونس المعاصر وبتاريخ الحركة الوطنية تحديدًا يلمس كثرتها وتواتر صدورها وتنظيمها بانتظام على امتداد العقود الثلاثة من الحكم البورقيبي.

منذ الاستقلال الداخلي اكتست خطب رئيس الحكومة الحبيب بورقيبة آنذاك ووزراءه حلّة تاريخية على وقع "فرحة الشعب" بعيد "النصر" وعودة المجاهد الأكبر مظفّرا من فرنسا إلى أرض الوطن يوم غرّة (جوان/ يونيو) ١٩٥٥ إثر اعتراف فرنسا بالاستقلال الداخلي لتونس وتوقيعها على الاتفاقيات الخاصة بذلك يوم ٠٣ (جوان/ يونيو) ١٩٥٥. وعلى إثر إلغاء النظام الملكي وإعلان النظام الجمهوري واعتلائه سدة الرئاسة ازداد نسق حضور التاريخ في الخطب الرسمية لبورقيبة ورجالات دولته من وزراء وكتاب دولة وولاة وكتّاب عامين للجان التنسيق الحزبي ومعتمدين...، ورؤساء منظمات وطنية...، أمام المواطنين في الاجتماعات والجولات الرسمية داخل البلاد لإحياء ذكرى الأحداث الوطنية[١٣]... أو بمناسبة الاجتماعات الدورية لكبار المسؤولين أمام إطارات الحزب والحكومة على الصعيدين الوطني والجهوي.

وفي جميع المنابر قدّم رجالات دولة الاستقلال قراءة آحادية الجانب لتاريخ تونس وللحركة الوطنية بإبراز دور الحزب الدستوري الجديد والمنظمات الوطنية الموالية وفي مقدمتها: الحزب الحرّ الدستوري القديم والحزب الشيوعي والاتحاد النقابي لعملة القطر التونسي "USTT" التابع له وجامعة عموم العملة التونسية الأولى (١٩٢٤-١٩٢٥) بقيادة محمّد علي الحامي وجامعة عموم العملة التونسية الثانية (١٩٣٦-١٩٣٩) بقيادة بلقاسم القناوي... ونتيجة لذلك تمّ تجاهل أدوار عديد المناضلين والمقاومين والنقابيّين والسياسيّين غير المنتمين للحزب الدستوري في النضال الوطني ضد الاستعمار من أجل التحرّر والانعتاق.

وكان في مقدمة المغبوطين والمغيّبين من تاريخ تونس المعاصر اليوسفيّون والشيوعيّون والزيتونيّون... بإقصائهم من المناصب والوظائف في الإدارة العمومية وأجهزة الدولة على الصعيدين المركزي والجهوي. ولا يعود هذا الإقصاء لمواقف الأحزاب والمنظمات والهياكل سالفة الذكر، بل لأسباب وخلافات شخصية في الغالب بين زعيم الحزب الحاكم وزعماء وقادة هذه المنظمات والهياكل وفي مقدمته خلاف بين بورقيبة وصالح بن يوسف وبين بورقيبة والزيتونيّين بسبب اصطفافهم إلى جانب شقّ الأمانة العامة منذ (سبتمبر/أيلول) ١٩٥٥.

(١/٢) ٢-تاريخ الحزب الدستوري الحاكم يصبح التاريخ الرسمي للبلاد:

لم يقتصر الأمر على تغييب الحزب الدستوري الحاكم لخصومه من الحياة العامة والساحة السياسية، بل تجاوزه لتنظيم عديد المحاكمات السياسية الكبرى ضدّ المعارضين للنظام من يوسفيّين (بين ١٩٥٦ و١٩٥٩) والقوميّين العروبيّين (في سنتي ١٩٦٧ و١٩٦٩) واليساريّين (في سنوات: ١٩٦٨ و١٩٧٢ و١٩٧٤) والنقابيّين في سنة ١٩٧٨.[١٤]

كما لم يكتف النظام الحاكم بالتشجيع على كتابة تاريخه من قبل "مؤرخيه" ومؤلفيه، بل قام بدعم كل هذه الإصدارات ماديا وأدبيا وتولى نشرها باللغتين (العربية والفرنسية) في الأسواق والمكتبات العمومية والمكتبات المدرسية والجامعية...، بل تمّ إقرار تدريس الحركة الوطنية في برامج المرحلتين الابتدائية والثانوية مع التركيز على دور الحزب الحرّ الدستوري الجديد

وزعمائـه وعـلى رأسـهم الحبيـب بورقيبـة في "انبعـاث" الحركـة الوطنية وخروجها مـن السبات منذ سـنة ١٩٣٤ (وهـو تـاريخ ميلاده بمدينة قصر هلال في ٠٢ مارس/آذار ١٩٣٤ وانشـقاقه عـن الحزب الحرّ الدسـتوري) ودور زعمائـه في قيادة مسيرة النضال الوطني مـن سـنة ١٩٣٤ إلى غايـة الاسـتقلال التـام للـبلاد في ٢٠ مارس/آذار ١٩٥٦. كما تواصل المجهود التوثيقي الرسمي للحـزب الدستوري الحاكم بعد الاسـتقلال بالتـأريخ لعديـد مؤتمراتـه بـين ١٩٥٥ و١٩٨٦ والمحطـات الوطنيـة الكبرى وفي مقـدمتها معركـة الجلاء عن قاعدة بنزرت في جويلية/يوليو ١٩٦١ التي أفضـت إلى جلاء آخر جندي فرنسي عن قاعدة بنـزرت في ١٥ أكتوبر/تشريـن الأول ١٩٦٣ والتـأميم الزراعـي في ١٢ مـاي ١٩٦٤ وغيرهـا مـن المحطات التاريخيّة الأخرى.

ومـن الصعب في اعتقادنا القيـام بجـرد لجميـع العنـاوين المتصلة بالعمل الوطني بتونس زمن الحماية والمحطات الوطنية اللاحقة منذ الاستقلال والصادرة عن الحـزب الدسـتوري الحـاكم نظرا لكثرتها واقترانها بجميع المحطات والمناسبات الوطنية تقريبًا منذ انبعاثه سنة ١٩٣٤ إلى غاية سنة ١٩٦٤. لـذا سـنكتفي بـذكر أبرزها وهي:

- وثائق١، بورقيبة (الحبيب)، **مقالات صحفيّة (١٩٢٩-١٩٣٤)**، دار العمل تونس ١٩٧٩، ٤٢٤ صفحة.
- وثائق ٢، **الدستور الجديد إزاء المحنة الأولى (١٩٣٤-١٩٣٦)**، دار العمل، تونس ١٩٧٩، ٢٨٧ صفحة.
- وثائق ٣، **الدستور الجديد والجبهة الشعبية بفرنسا (١٩٣٦-١٩٣٨): الحوار**، دار العمل، تونس ١٩٧٩، ٣٧٠ صفحة.
- وثائق ٤، **الدستور الجديد والجبهة الشعبية بفرنسا (١٩٣٦-١٩٣٨): القطيعة**، دار العمل تونس ١٩٨١، ٢٥٦ صفحة.
- وثائق ٥، **قضية بورقيبة، ٩ أفريل/أبريل ١٩٣٨**، دار العمل، تونس ١٩٨١، ٣٢٧ صفحة.

- *Histoire du mouvement national Tunisien*, Documents XII, Le Néo-Destour Face à la troisième épreuve 1952-1956, T 1: l'échec de la répression, Dar El Amal, Tunis 641 pages.
- *Histoire du mouvement national Tunisien*, documents XIX, Le Néo-Destour face à la Troisième épreuve, 1952-1956, T 2: la victoire, Dar El Amal, Tunis 1979, 669 pages.
- *Histoire du mouvement national Tunisien*, documents XX, Le Néo-Destour Face à la deuxième épreuve 1938-1943, dans l'engrenage de la deuxième guerre mondiale, C.D.N., Tunis 1980.
- *Historie du mouvement national tunisien, Pour Préparer la troisième épreuve, T 1: Le Néo-Destour brise le silence 1944/49*, C.D.N., Tunis 1972, 566 pages.

(١/٢) ٣-الرئيس بورقيبة يتحوّل إلى محاضر في تاريخ البلاد الحديث والمعاصر:

في مطلـع السـنة الجمعيـة ١٩٧٣-١٩٧٤ وتحديـدا مـن ١٣ أكتوبر/تشريـن الأول ١٩٧٣ إلى غايـة ١٥ ديسـمبر/كانون الأوّل ١٩٧٣ قام الرئيس الحبيب بورقيبة بإلقـاء سلسـلة مـن الـدروس اسـتعرض فيها بطريقتـه الخاصّـة ومـن وجهـة نظره طبعًا إلى: نشـأته، دراسـته بـتونس وبفرنسـا، بداياتـه مـع مهنـة المحاماة والعمل الصّحفي والسياسي ومسيرته السياسـية ونضالاته طيلة قرابة ربع قرن (بين ١٩٣٣ و١٩٥٦) بمختلف تفاصيلها وحيثياتها.

وقـد تـمّ طبـع هـذه المحـاضرات في كتـاب صـدر بـاللغتين بعنوان: حياتي، آرائي، جهـادي، خـلال سـنتي ١٩٧٧ و١٩٧٨. وقد تطرّق الرئيس الراحل في هذه المحاضرات وبطريقته الخاصّة ومن وجهة نظره بطبيعة الحال إلى: نشـأته والبيئـة التـي عـاش فيها، دراسـته بـتونس وبفرنسـا، بداياتـه مـع مهنـة المحامـاة والعمـل الصّحفي وعالم السياسة ومسيرته السياسية ونضالاته طيلة قرابة ربع قرن (بين ١٩٣٣ و١٩٥٦) بمختلف تفاصيلها وحيثياتها... وقـد تمّ طبـع هـذه المحـاضرات أمـام طلبـة معهـد الصّحافة وعلـوم الأخبار كل يوم خميس وذلك بكلية الحقـوق والعلـوم السياسـية بالمركّب الجامعي بتونس العاصمة. وقد حرص أن يستدعى لهذه المحاضرات أبرز الوجوه السياسية بالبلاد، بمن فيهم خصومه. وفي اختياره على طلبة معهـد الصّـحافة وعلـوم الأخبـار وعـلى كليـة الحقوق أكثر من دلالة لكونهم سيصبحون بعد مـدة قصيرة مـن رجـال الصـحافة والإعـلام الـذين سيمسـكون بمقاليـد السـلطة الرابعة.

أمّا بالنسبة لكليـة الحقـوق فهـي المؤسّسـة الجامعيـة التـي يتخرّج منها القضاة والمحامين ورجال القـانون ممّـن سيمسـكون بالسلطة القضائية[١٥]!

ولم يكتفِ بورقيبة في هذه الخطـب باسـتعراض أهـمّ أطـوار تاريخه الخاص (بين ١٩٠٣ و١٩٧٣) وتاريخ تونس خـلال الفترتـين الحديثـة والمعـاصرة والقيـام بـبعض الإشـارات التاريخيّـة حـول الفترتين القديمة والوسيطة. ورغم عديد الجوانب الايجابيـة التـي أتى عليها في مضمون محاضراته وفي مقدمتها: السيرورة التاريخيّـة للبلاد التونسية منذ القديم إلى النصف الثاني من القرن العشرين، تأكيده على مفهومي الشخصية والهوية التونسية، مفهوم الكيـان التونسي، الأمّة التونسية، الترابط بـين أجيـال المصلحين ورجـالات الإصلاح والوطنيّين "الخلّص" في تاريخ تونس الحـديث والمعـاصر، بدءًا بخير الدين باشا، مرورا بالبشير صـفر رائـد الحركـة الشـباب التونسي ومحمّد علي الحامي رائد الحركة النقبية وخلفـه الـزعيم الشهيد فرحات حشّاد، وصولا إلى شخصه ورفاقـه صلـب الحـزب الدستوري... إلاّ أنه قد هـاجم في بعـض المحـاضرات الكثـير مـن الرموز الوطنية، لا سيّما خصومه، الأحياء مـنهم والأمـوات وذلـك بمحضر البعض منهم بمن في ذلك رفقاء دربه من مؤسّسي الحـزب الدستوري الجديد. ويأتي في مقدمـة هـؤلاء: الشـيخ عبـد العزيـز الثعالبي والطاهر صفر ومحمـود المـاطري والشـاذلي الخـلادي.... ولم يسلم منـه حتـى شـقيقه محمّـد بورقيبـة الـذي عـاب عليـه ضعفه في المنفى في أقصى الصـحراء التونسـية بـين ١٩٣٤ و ١٩٣٦ وتوجيهه رسالة إلى المقيـم العـام "مارسـال بيروطـون" دون علـم

المجموعة تمّ على إثرها إطلاق سراحه. وكذلك الشأن بالنسبة للأستاذة الطاهر صفر وحسونة العياشي والبحري قيقة نتيجة ضعفهم عند الإدلاء بشهاداتهم أمام قاضي التحقيق العسكري، "دي قيران دي كايلا" "De Guérin De Cayla" بعد أحداث ٠٩ أفريل/أبريل ١٩٣٨.[١٦] وغيرها من الاتهامات التي هزّت صورة هؤلاء الزعماء وشوّهت تاريخهم ونضالاتهم زمن الاستعمار وأثرت فيهم أيما تأثير نظرا لبثها بالإذاعة والتلفزة.

وعلى سبيل الذكر لا الحصر وفي سياق حديثه عن الشيخ عبد العزيز الثعالبي قال: "(...) إنّه صنيعة فرنسا، ضرورة أنها استجلبته من الخارج إلى تونس لغاية معيّنة (...)"[١٧]. وكان في خطاب له في أواخر سنة ١٩٥٥ قد استهزأ منه ووصفه بـ "المثليّ"![١٨]

وفي المحاضرة الأخيرة وصف حملة الاعتقالات التي طالت اليساريّين الذين أحيلوا على محكمة أمن الدولة في (أوت/أغسطس) ١٩٧٤ بـ "الجراثيم" وغيرها من الأمثلة. كما اعترف علنا في إحدى محاضراته حول تاريخ تونس بتدبير اغتيال خصمه الزعيم صالح بن يوسف ذات يوم ١١ أوت/أغسطس ١٩٦١ بمدينة فرنكفورت بألمانيا بقوله: "(...) وهكذا تخلّصت تونس من تلك الحيّة الرقطاء (...)".[١٩] وعندما تحدّث عن خير الدين التونسي قال عنه: "(...) وقرّر أن يهاجر إلى تركيا لأنه تركي الأصل والرجوع إلى الأصل يتم بأدنى سبب، وقبل أن يسافر باع أرزاقه ومنها هنشير أولاد سعيد الذي باعه إلى شركة فرنسية. ومن هنا يتضح أن هؤلاء الناس مهما كانوا مصلحين فإنه لم تكن لهم روابط حقيقية بالأرض التونسية (...)".[٢٠] وفي حديثه عن عبد الكريم الخطابي فقال: "(...) وقلت في نفسي عندما شاهدته واجتمعت به أهذا هو الذي هز عواطفنا وأثار رحماسنا عندما كنا شبابا، إذ هو لم يظهر لنا إلا بمظهر بعيد جدا عما كنا نتصوره. وتبين لنا أن الرجل بسيط وتصريحاته للصحافة وغيرها لم تكن إلاّ من قبيل الكلام الأجوف (...)".[٢١] وغيرها من المواقف "الصادمة" لبورقيبة من بعض الرموز الوطنية الذين لم يتوان عن وصفهم بالضعف والتواطئ وحتى الخيانة في بعض "اللحظات التاريخيّة الفارقة" من تاريخ البلاد.

وفي محصّلة محاضراته التاريخيّة قدّم بورقيبة نفسه للعموم بمثابة الشخص صاحب المواقف الراجحة والمناضل الدؤوب الذي لا يضعف ولا يستسلم ولا يعرف الانكسار رغم عديد المضايقات والمحن التي تعرّض لها من قبل المستعمر وخصومه السياسيّين من طرد وإقصاء ومحاكمات وسجون ومنافي...، داخل تونس وخارجها. فكان "منقذ" البلاد والأمّة التونسية من التلاشي والزوال و" يوغرطة[٢٢] الذي انتصر"، في حين فشل هذا القائد النوميدي ومن بعده القائد القرطاجي حنبعل[٢٣] في حروبهما ضد الرومان. ويرى أحد الباحثين أنّ كل هذه الصفات والتضحيات التي رافقت مسيرة بورقيبة لا تتوفّر إلاّ لدى الأنبياء والرسل[٢٤]!

وقد تمّ جمع وتفريغ وتبويب وفهرست وترجمة هذه المحاضرات إلى اللغة الفرنسية لتصدر أخيرا في كتاب بعنوان: "الحبيب بورقيبة، حياتي آرائي، جهادي "(باللغة عربية) و "Ma vie, mes idées, mon combat "(باللغة الفرنسية)، صدرا عن كتابة الدولة للإعلام في طبعتين: طبعة أولى سنة ١٩٧٧ وطبعة ثانية سنة ١٩٨٣. وسرعان ما أصبح هذا المؤلّف المرجع الرئيس، إن لم نقل الوحيد في تاريخ بورقيبة ونضالاته ومواقفه بصفة خاصة وتاريخ الحزب الدستوري الحاكم والحركة الوطنية التونسية عمومًا. وإجمالاً مثلت هذه المحاضرات محطة هامة في مأسَسَةِ تاريخ تونس المعاصر وتحديدا تاريخ الحركة الوطنية من قبل الحزب الحاكم ومن طرف أعلى شخصية في هرم الدولة.

٢/٢- الساسة يكتبون تاريخ تونس بأنفسهم:

لا يتسع المجال لذكر جميع الإصدارات المتصلة بتاريخ تونس التي صدر البعض منها قبل الاستقلال. لذا سنكتفي بذكر أبرزها وتحديدا تلك الصادرة عن رموز الحركة الوطنية التونسية. وهي مؤلفات سابقة لمستقل تونس يعود صدورها إلى الفترة الاستعمارية، نذكر من بينها بالخصوص العناوين الرئيسة وهي:

- جماعي (رغم كونه يُنسب للشيخ عبد العزيز الثعالبي)، **تونس الشهيدة**، باريس ١٩٢٠، تعريب حمادي الساحلي، دار الغرب الاسلامي، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٨، ٣٩١ صفحة. وقد صدر لأول مرة باللغة الفرنسية بعنوان:

La Tunisie martyre: *ses revendications*. Front Cover. Jouve, Janvier 1920, Paris, 212 pages.

- الحبيب ثامر، **هذه تونس**، القاهرة، ١٩٤٨.
- علي البلهوان، **نحن أمّة**، تونس ١٩٤٨.
- علي البلهوان، **تونس الثائرة**، القاهرة ١٩٥٤.
- Habib Bourguiba, La Tunisie et la France. Vingt cinq ans de lutte pour une coopération libre, Éditions P. Julliard, Paris 1954, 462 pages.

وقد تمّ تعريب هذا المؤلَّف ليصدر في تونس بعنوان:

- الحبيب بورقيبة، بين تونس وفرنسا كفاح مرير طيلة ربع قرن في سبيل التعاون الحرّ، باريس ١٩٥٤.

وبعد استقلال البلاد تنامت وتيرة إصدار هذه المؤلفات التاريخيّة للشقّ المنتصر من الفاعلين التاريخيّين زمن الاستعمار وفي مقدمتها مؤلفات الحاكم الجديد، الرئيس الحبيب بورقيبة ورفاقه في النضال.

كما كلف المسؤولون في جهازي الدولة والحزب عددًا من المؤرّخين والباحثين بالجامعة التونسية بكتابة تاريخ تونس للفترات الأربعة تمّ طبعها ونشرها على مراحل (بين ١٩٦٨ و١٩٨٣) في مؤلفات مختصّة أصبحت المراجع الرسمية، إن لم نقل الوحيدة المعتمدة في تاريخ تونس. وهي حسب التسلسل الزمني:

- Collectif (Hédi Slim & Ammar Mahjoubi & Khale d Belkhoja & Abdelmajid Ennabli), Histoire générale de la Tunisie: Tome 1: L'Antiquité, Tunis, S.T.D., 1968, 408 pages.
- Collectif (Hichem Djait & Mohamed Talbi & Farhat Dachraoui), Histoire générale de la Tunisie: Tome 2: Le moyen âge, Tunis, S.T.D., 1965, 408 pages.
- Collectif (Ezzdine Guellouz & Abdelkader Masmoudi, Mongi Smida), Histoire générale de La Tunisie, Tome 3: Les Temps modernes, Société Tunisienne de Diffusion, Tunis 1983, 438 pages.
- Ahmed Kassab, Histoire générale de la Tunisie, Tome 4: L'Epoque contemporaine, STD, Tunis 1976, 505 pages.

٣/٢- الفاعلون التاريخيّون يكتبون تاريخهم بأنفسهم:

كفاعلين تاريخيّين لم يكتف رجال السياسة بكتابة التاريخ الرسمي للبلاد منذ بداية الفترة الاستعمارية إلى غاية فترة حكم بورقيبة، بل انتقلوا لكتابة تاريخهم الشخصي في ظروف ودوافع وأشكال مختلفة. وتأتي في مقدمة إصداراتهم المذكرات والسير الذاتية واليوميات...، التي صدرت في سنوات متباعدة منذ مطلع الاستقلال وسنة ١٩٦٠ تحديدًا إلى غاية سنة ١٩٨٤. وقد بلغ عدد المذكرات والسير الذاتية الصادرة عن هؤلاء الفاعلين خلال فترة حكم بورقيبة باللغتين العربية والفرنسية، ١٠ إصدارات (٠٥ منها باللغة العربية و٠٥ باللغة الفرنسية) لثمانية (٠٨) مناضلين من أجيال مختلفة.

وتُعَدّ هذه الإصدارات قليلة مقارنة بعدد المناضلين من مختلف الاتجاهات السياسية والايديولوجية. ولم تكن باكورة هذه الإصدارات لرئيس الجمهورية و"المجاهد الأكبر" الحبيب بورقيبة كما كان يُنعت، بل لرفيق دربه الأستاذ الطاهر صفر الذي لم ينعم باستقلال بلاده نتيجة وفاته إبّان الحرب العالمية الثانية نتيجة مرض. ولم يُدْلِ الرئيس بورقيبة بدلوه في الحقل التاريخي إلا بعد ١٧ من وصوله إلى سدة الحكم عبر سلسلة المحاضرات التي ألقاها أمام طلبة معهد الصحافة وعلوم الأخبار بالعاصمة بين ١٣ أكتوبر/تشرين الأول و١٥ ديسمبر/كانون الأوّل ١٩٧٣ كما أسلفنا ذكره.

وفيما يلي القائمة الكاملة لجميع العناوين الصادرة خلال فترة الحكم البورقيبي موزّعة بين اللغتين ومرتّبة ترتيبا كرونولوجيّا حسب تاريخ صدورها:

جدول (١)

المذكّرات والسّير الذاتية الصادرة باللغة العربية قبل سنة ١٩٨٧

(مرتّبة ترتيبا كرونولوجيّا حسب تاريخ صدورها)

باللّغة العربية:

الشخصية السياسية	عنوان المذكّرات أو الكتاب	دار النشر/ تاريخ ومكان الصدور/ عدد الصفحات/ التقديم...
١. الحبيب بورقيبة	حياتي، آرائي، جهادي	**كتابة الدولة للإعلام، تونس ١٩٧٨، ٢٤٦ صفحة.**
٢. إبراهيم طوبال	البديل الثوري بتونس	**دار الكلمة، بيروت ١٩٧٩.**
٣. الرشيد إدريس	من باب سويقة إلى منهاتن	**دار بن عبد الله للنشر، تونس ١٩٨٠.**
٤. الرشيد إدريس	ذكريات عن مكتب المغرب العربي بالقاهرة	**الدار العربية للكتاب، تونس ١٩٨١.**
٥. الرشيد إدريس	**من جاكرتا إلى قرطاج**	**الشركة التونسية للتوزيع، تونس ١٩٨٣.**

باللّغة الفرنسية:

Noms et prénoms	Intitulés	Editions, dates et lieux, nombre de pages, préfaces…
6. Tahar Sfar	Journal d'un exilé	**Editions Bouslama, Tunis 1960, 100 pages.**
7. Mohamed Salah Mzali	Au fil de ma vie: Souvenirs d'un Tunisien	**Collection Léon L'Africain, Editions Hassen Mzali, Tunis 1972, 380 pages.**
8. Ahmed Ben Salah	Marc Nerfin, Entretiens avec Ahmed Ben Salah sur la dynamique socialiste en Tunisie dans les années soixante	**Editions François Maspero, (Cahiers Libres 276-277) Paris, 1974, 186 pages.**
9. Habib Bourguiba	Ma vie, mes idées, mon combat	**Publications du Secrétariat d'Etat à l'Information, 1977, 355 pages.**
10. Mohamed Mzali	L'action de la parole	**Conversation avec Xavière Ulysse, Publisud, Paris 1984, 281 pages.**

٤/٢- المعارضون المغتربون يُدلون بدلوهم في كتابة التاريخ:

رغم خروج غالبيتهم من البلاد قسريًا أو طواعية، فإنّ استقرارهم بالمهجر لم يمنعهم من أن يدلوا بدلوهم في تاريخ تونس المعاصر دون أن تكون لهم كلمة الفصل في المسألة. ومن مواقعهم قدموا رؤى جديدة لتاريخ تونس والحركة الوطنية. من الصعب الاتيان على جميع إصدارات الفاعلين في تاريخ تونس المقيمين بالخارج، سواء بالمشرق أو بالمغرب أو بأوروبا نظرًا لكثرتهم. لذا سنتخذ مثالاً واحدًا على هؤلاء نظرًا لطرافته وتحوله إلى مرجع في تاريخ تونس من طرف العقيد معمّر القذافي ذات ١٧ فيفري من سنة ١٩٩٠ وهو المناضل القومي الطاهر عبد الله[٢٥] الذي أصدر:

- **الحركة الوطنية التونسية رؤية شعبية قومية جديدة**، مكتبة الجماهير بيروت، ١٩٧٦. وفي سنة ١٩٩٠ صدر بتونس عن دار المعارف للطباعة، سوسة – تونس، ٢٥٤ صفحة. وقد قدّم هذا الإصدار قراءة قومية محضة للحركة الوطنية ونضالات التونسيّين في المجال السياسي والنقابي والثقافي إلى درجة استشهاد القائد الراحل معمّر القذافي بمقتطفات منه بمجلس النواب بباردو في إحدى زياراته لتونس حول إعدام السلطات الفرنسية للمقاومين التونسيّين للاحتلال الفرنسي في أعقاب الحملة العسكرية على تونس سنة ١٨٨١. وهم تحديدا: سعد قم البناني الذي أعدم بالساحة العمومية بالقيروان في خريف ١٨٨١ بعد دخول جيش الاحتلال المدينة المقدسة يوم ٢٦ أكتوبر/تشرين الأول ١٨٨١[٢٦].

يضاف إليها عديد الفصول من إصدارات كل من الحبيب المولهي... من اليوسفيّين والقوميّين العروبيّين المهاجرين خارج أرض الوطن أو المغبوطين داخله. كما ظهرت بعض الإصدارات مؤخرا بعد ١٤ جانفي/يناير ٢٠١١ من أبرزها مذكرات المقاوم علي الزليطني[٢٧] التي قام بتحقيقها وإصدارها شقيق المناضل الإعلامي بالإذاعة التونسية محمّد حفظي الزليطني ثمّ ابنته فوزيّة الزليطني بعد وفاة والدها.[٢٨] وتجنّبا للتكرار سنرجئ الخوض في تفاصيل هذه الإصدارات عند حديثنا عن مثيلاتها الصادرة زمن حكم بن علي وتحديدًا بداية من سنة ١٩٨٨. وعمومًا يمكن القول أنّ العقود الثلاثة من الحكم البورقيبي قد أسّست لقيام جنس من الكتابة التاريخيّة خاصّ بالفاعلين السياسيّين في تاريخ تونس المعاصر متصل بتاريخ تونس زمن الاستعمار ثمّ بدولة الاستقلال، رغم عديد المآخذ على مستوى شكل وخاصّة المضمون. فهل سيتواصل هذا الجنس من الكتابة التاريخيّة زمن حكم بن علي أو الحقبة النوفمبرية؟

ثالثًا: الفاعلون السياسيّون والكتابة التاريخيّة زمن حكم بن علي (١٩٨٧-٢٠١١): من التحرّر من قيود النظام البورقيبي إلى إكراهات النظام الجديد:

رغم افتقاد رجل التغيير لرصيد نضالي -تاريخي وضعف مستواه الثقافي بحكم تكوينه العسكري، فإنّ ما يلفت الانتباه خلال فترة حكم الجنرال بن علي هو حرصه الشديد على إعادة كتابة تاريخ تونس المعاصر وخوفه من التاريخ والمؤرّخين. ويظهر ذلك من خلال عدة مؤشرات من أهمها:

١/٣- بحث يائس لبن علي عن شرعيّة تاريخية ورصيد نضالي له ولأسرته

لم تكن لرجل التغيير سيرة ذاتية مشرّفة ورصيد نضاليّ وطني له ولعائلته تضاهي نضالات وتضحيات الزعيم الحبيب بورقيبة ورفاقه من رموز الحزب الحرّ الدستوري والأحزاب والمنظمات الأخرى كالحزب الشيوعي والاتحاد العام التونسي للشغل... لذلك ومنذ الأسابيع الأولى لوصوله إلى الحكم عقب "الانقلاب الطبي" الذي قاده فجر يوم ٠٧ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٨٧ ضد رئيسه، وبعد تركيز أسس نظامه الجديد الذي وسمه بـ "العهد

الجديد" أو "التحوّل المبارك"، رام زين العابدين بن علي البحث عن محطّة نضاليّة - ولو عرضيّة - في مسيرته المهنية وفي تاريخ عائلته المرتبط بالتواطؤ مع سلطات الاستعمار الفرنسي. التجأ إلى "تزييف التاريخ" والاستيلاء على بعض الوثائق والملفات الخاصّة به وبعائلته.

ومن جهة أخرى عمل بعض الإعلاميّين المتزلّفين على صياغة بيوغرافيا رسمية للرئيس الجديد بعيدة كل البعد عن الواقع بإدراج أحداث تاريخية من نسج خيالهم. فبمناسبة الذكرى الثلاثين للعدوان العسكري الفرنسي على قرية ساقية سيدي يوسف،[٢٩] جاء في الشريط الوثائقي الذي أعدته وبثته مؤسّسة الإذاعة والتلفزة الوطنية يوم ٠٨ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٨٨ أنّ " فخامة الرئيس زين العابدين بن علي لمّا كان ضابطا مبتدئا بثكنة الكاف (الحدودية مع الجزائر) أصيب برصاصة من الجيش الفرنسي على مستوى كعب رجله اليسرى أثناء مشاركته في التصدّي للعدوان العسكري الفرنسي على قرية الساقية، أفقدته القدرة على المشي، الأمر الذي استوجب خضوعه للعلاج لفترة طويلة "[٣٠] !

لكن غاب عن مسؤولي وسائل الإعلام الرسمية أو بالأحرى "تناسوا" أنّ العدوان على قرية ساقية سيدي يوسف كان عدوانًا جويًا باستخدام (٢٥) طائرة عسكرية أمريكية الصنع من صنف: "A- 26" و"Corsair" و"Mistral" وأنّ جيش البرّ الفرنسي لم يشارك يومها في العملية ولم تطأ قواته التراب التونسي بالمرّة. وكأنهم بذلك يبحثون عن "محطّة نضالية" للرئيس الجديد لإعطائه القليل من "الشرعية" أو "الاستحقاق التاريخي" الذي لم يتسنّ له ولعائلته[٣١] شرف اكتسابه مقارنة بالرئيس السابق بورقيبة وجلّ أفراد النخبة السياسية الحاكمة ممّن عملوا معه منذ استقلال البلاد !

٣/٢- "حمّى" الإصدارات التاريخيّة الثأرية لمعارضي النظام البورقيبي

إحقاقًا للحقّ ومنذ بدايات حكمه وتحديدا منذ مطلع سنة ١٩٨٨، سمح بن علي بنشر وإصدار جميع النصوص "المصادرة" من قبل لجنة الرقابة، بما في ذلك الكتب والدراسات والمقالات التاريخيّة التي تناولت مسيرة ونضالات المغيّبين في تاريخ تونس من: يوسفيّين وقوميّين عروبيّين ويساريّين...، بمختلف انتماءاتهم الاجتماعية ومواقعهم، سواء داخل البلاد أو خارجها. وفي نفس السياق سمح للكثير من المعارضين الذين صدرت في حقهم أحكامًا غيابية بالسجن من قبل محكمة القضاء العليا والمحكمة العسكرية ومحكمة أمن الدولة...، بالعودة إلى أرض الوطن بعد عقود من الاغتراب. ونذكر من بين هؤلاء رموز الحركة اليوسفية وفي مقدمتهم: المناضِلَيْن حسين التريكي[٣٢] وعبد العزيز شوشان.[٣٣]

ولم يعترض بن علي على دفن المناضل اليوسفي العروبي إبراهيم طوبال[٣٤] في صيف ١٩٩٠ بمسقط رأسه بمدينة المهديّة إثر وفاته بجنيف بعد رحلة طويلة بين طرابلس الغرب والقاهرة والجزائر العاصمة، انطلقت منذ سنة ١٩٥٥. بل كلّف أحد المسؤولين بالمهدية لتقديم التعازي لأفراد عائلته، إضافة إلى تأمين مراسم الدفن أمنيا وتنظيميا.[٣٥] كما سمحت السلطات لعديد الجمعيات والمنظمات والشخصيات المستقلة بتنظيم عديد الندوات والمنابر الفكرية الحرّة بدور الثقافة والمقرّات الرسمية التي دعت إلى مراجعة تاريخ الحركة الوطنية التونسية. ونتيجة لهذه "اللفتة الكريمة" لتاريخ تونس ورموزه من طرف أعلى هرم السلطة بالبلاد، سجّلنا منذ مطلع سنة ١٩٨٨ زخمًا من الكتابات التاريخيّة حول تاريخ الحركة الوطنية والنقابية نادى أصحابها بضرورة إنصاف عديد الوجوه التي تمّ تغييبها في برامج التاريخ الرسمي بالمدارس الابتدائية والمعاهد الثانوية وردّ الاعتبار إليهم بإسناد شوارع وساحات عمومية ومتاحف تحمل أسمائهم وإقامة نصب تذكارية تخليدًا لنضالات بعض المقاومين والمناضلين ضد المستعمر الفرنسي ثمّ ضد حكومة الاستقلال وجلب رفاة من توفوا منهم في بلدان صديقة إثر مغادرتهم قسريًا أرض الوطن للاستقرار بها منذ سنة ١٩٥٥.

كما تحرّرت أفواه الكثير من المناضلين والمقاومين والنقابيّين المغيّبين في تونس حيث تحوّل الصحفيّون ومراسلو عديد الصّحف بالجهات لمحاورة البعض منهم حول أحداث ووقائع ومعارك وتنظيمات...، جدّت ورأت النور زمن الاستعمار أو بعد الاستقلال. كما تمّ استدعاء البعض الآخر منهم إلى الاذاعات والتلفزة الوطنية لتوضيح بعض الجوانب الغامضة من تاريخ تونس المعاصر أو تصويب بعض المغالطات في الكتابات التاريخيّة منذ الاستقلال. ونذكر في مقدمة هؤلاء كل من: المقاومين اليوسفيّين، القوميّين العروبيّين، المورّطين في المحاولة الانقلابية لشهر ديسمبر/كانون الأوّل ١٩٦٢ المعروفة باسم "محاولة لزهر الشرايطي"، رموز اليسار التونسي (من مجموعة "برسبكتيف" والعامل التونسي، النقابيّين الذين حوكموا إثر الاضراب العام ليوم ٢٦ جانفي/يناير ١٩٧٨ وبعض الاسلاميّين الذين عرفوا الايقاف والتعذيب والسجون والمنافي... كما شمل رد الاعتبار كذلك بعض أفراد العائلة الحسينيّة من أبناء وأحفاد وأصهار آخر ملوك تونس، حسين بن علي الذي تمّت إزاحته عن الملك لإثر إعلان النظام الجمهوري يوم ٢٥ جويلية/يوليو ١٩٥٧.

وقد أحصينا بين مطلع سنة ١٩٨٨ و٢٠١٠ من العناوين الصادرة عن المناضلين والمقاومين والنقابيّين المعارضين لبورقيبة بين ١٩٥٥ و١٩٨٧، ٤٠ عنوانا (٢٤ منها باللغة العربية و ١٦ باللغة الفرنسية)، صدر جميعها بتونس عن مناضلين وفاعلين سياسيّين وتنظيمات سياسية وايديولوجية ونقابية مختلفة، بدءا باليوسفيّين مرورا باليساريّين أو حتى الدستوريّين أنفسهم ممّن عملوا مع بورقيبة منذ مطلع الاستقلال قبل أن يتمّ استبعادهم لاحقًا لعدة أسباب من جهازي الحزب والدولة. ويكفي أن نلقي نظرة على قائمة هذه الإصدارات الموجودة أسفل هذا لنتبيّن "تحرّر" الأقلام من كل أشكال الرقابة الذاتية والرقابة الإدارية الرسمية. ومن الصعب في اعتقادنا تعداد جميع العناوين الصادرة عن أفراد النخبة السياسية منذ مطلع فترة حكم بن علي إلى غاية نهايته نظرا لكثرتها وتعدّد أشكالها، لكن الثابت أنّ إصدارها كان بغاية رد الاعتبار للفاعلين في تاريخ تونس المعاصر من طرفهم والتخلص من "حمل ثقيل" لازمهم وأسرار وتفاصيل تاريخية ظلّت جاثمة على صدورهم لعقود:

جدول (٢) المذكّرات والسّير الذاتية الصادرة عن السياسيّين بعد سنة ١٩٨٧:
(مرتّبة ترتيبا كرونولوجيّا حسب تاريخ صدورها)

باللغة العربية:

الشخصية السياسية	عنوان المذكّرات أو الكتاب	دار النشر/ تاريخ ومكان الصدور/ عدد الصفحات/ التقديم...
١. محمّد الحبيب المولّهي	الوطن والصمود	دار الغرب الإسلامي ١٩٩١، ٥١٢ صفحة.
٢. النوري البودالي	الحق والحقيقة: غاية وواجب	مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، تونس ١٩٩١.
٣. الحبيب نويرة	ذكريات عصفت بي	سراس للنشر، تونس ١٩٩٢، ٣٣٣ صفحة.
٤. الحبيب نويرة	يوميّات ديبلوماسي في الوطن العربي	مؤسّسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس ١٩٩٢.
٥. يوسف الرويسي	كتابات ومذكّرات المناضل يوسف الرويسي السياسية مع وثائق جديدة تنشر لأول مرة	إعداد وجمع وتقديم الأستاذ عبد الجليل التميمي، مؤسسة التميمي للنشر، زغوان ١٩٩٥، ٢٩٣ صفحة.
٦. البشير بوعلي (١٩٢٢-١٩٩٨)	ذكريات مناضل وطني	تقديم جلّولي فارس، ميدياكوم، تونس ١٩٩٦، ٣٠١ صفحة.
٧. الحبيب قْرار	لتحيا تونس	مطبعة بوسلامة، تونس ١٩٩٦، ٢٥٠ صفحة.
٨. بلحسن الجريري	شاهد على إسهام جربة في الحركة الوطنية	شركة فنون الرسم للنشر والصحافة، تونس ١٩٩٨، ١٢٧ صفحة.
٩. محمّد الفريخة	مناضل شاهد على عصره	تونس ١٩٩٨، ١٨٤ صفحة.
١٠. طاهر باشا خير الدين (١٨٧٥-١٩٣٧)	خواطر ومذكّرات[٣٦]	تقديم وتحقيق حمادي الساحلي، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، تونس ١٩٩٨، ١١١ صفحة.
١١. بلقاسم القناوي	مذكّرات نقابي وطني	منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، تحقيق فريد بن سليمان تقديم علي المحجوبي، منوبة ١٩٩٨، ١٥٦ صفحة.
١٢. محمود الفريخة	مناضل شاهد على عصره	تونس ١٩٩٨.
١٣. الرشيد إدريس	في طريق الجمهورية	دار الغرب الإسلامي، بيروت ٢٠٠١، ٥٥٦ صفحة.
١٤.حامد الزغل	جيل الثورة: ذكريات مناضل	سراس للنشر، تونس ٢٠٠١، ٦٢٧ صفحة.
١٥. الحبيب نويرة	مراسلات وإرساليات: ١٩٤٢ - ١٩٩٧	طبعة محلية، تقديم حمّادي الساحلي، تونس، ٢٠٠٢.
١٦. عبد المجيد شاكر	الهادي شاكر: جهاد واستشهاد مذكّرات	التعاضدية العمّالية للطباعة والنشر، صفاقس ٢٠٠٣، ٣٥٠ صفحة.
١٧. الحبيب المنكبي	في ذاكرة مناضل	تقديم مروان بن العربي، عبد العزيز بلطيف، طه زين العابدين، تونس ٢٠٠٣، ١٨٠ صفحة.
١٨. محمّد بن سعيد	مسيرة نضالية: وقائع وحقائق عن معارك التحرير بقليبية والجنوب التونسي 1956 - 1947	تونس ٢٠٠٥، ١٤٣ صفحة.
١٩. محمود شمّام	من وحي الذاكرة: عن الزيتونة... وعن علاقة بورقيبة بالقضاء...	مطبعة ميقا ٢٠٠٠، الطبعة الأولى، تونس ٢٠٠٥، ١٢٦ صفحة.
٢٠. علي المعاوي	ذكريات وخواطر	المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، منوبة ٢٠٠٧، ٧٩٩ صفحة.
٢١. الحبيب نويرة	سنوات المحنة والكفاح ١٩٢٥-١٩٦٥: من خلال رسائل أصحابها، تحقيق وتعليق أحدهم الحبيب نويرة، جزءان: الجزء ١: من	دار تونس للنشر، طبع الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس ٢٠٠٧: ج ١: ٤٢٠ صفحة، ج٢: ٤٧٤ صفحة.

الشخصية السياسية	عنوان المذكّرات أو الكتاب	دار النشر/ تاريخ ومكان الصدور/ عدد الصفحات/ التقديم...
	الرسالة رقم ١ بتاريخ ١٩٢٥/٠٦/٢٠ إلى الرسالة رقم ٢٦٧ بتاريخ ١٩٤١/٠٦/٣٠. الجزء ٢: من الرسالة رقم ٢٦٨ بتاريخ ٥ جويلية/يوليو ١٩٤١ إلى الرسالة رقم ٤٩٩ بتاريخ ١ مارس/آذار ١٩٦٥.	
٢٢. محمّد مزالي	نصيبي من الحقيقة	دار الشروق، القاهرة، أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٧، ٦٠٠ صفحة.
٢٣. الطيّب شواري	ما عملت ورأيت وسمعت: ذكرياتي عن دور القلعة الكبرى في تحرير الوطن	المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، منوبة ٢٠٠٨، ٥٥٥ صفحة.
٢٤. أحمد بن صالح	مذكّرات سياسي في «الشروق»	حوار وإعداد فاطمة بن عبد الله الكرّاي، جريدة «"الشروق» التونسية، الحلقة ٢١٣ ليوم الخميس ٢٥ مارس/آذار ٢٠١٠ (سلسلة متواصلة).

باللغة الفرنسية:

25. Mohamed Ben Salem	L'antichambre de l'indépendance	*Cérès productions, Tunis 1988, 253 pages.*
26. Mohamed Ben Salem	Médecin du néant	*Société Tunisienne de diffusion, Tunis 1989, 103 pages.*
27. Haj Mohamed Gaaloul	Mémoires d'un militant syndicaliste et politique	*Impr. Dar Al-Arab, Tunis, 1989, 90 pages.*
28. Slimane Ben Slimane (1905-1986)	Souvenirs politiques	*Cérès Productions, Tunis, 1989, 304 pages.*
29. Habib Achour	Ma vie politique et syndicale. Enthousiasme et déceptions 1944-1981	*Editions Alif, Tome 1, Tunis, 1989, 396 pages.*
30. Ezzeddine Chérif	Mémoires d'un beldi, Propos recueillis et présentés par Khadija Mahmoud Chérif	*Cérès Productions, 1990, 215 pages.*
31. Mahmoud El Materi	Itinéraire d'un militant (1926-1944), Préface de Azzedine Guellouz	*Cérès Productions, Tunis, 1992.*
32. Collectif	Mémoire de femmes, Tunisiennes dans la vie publique 1920 – 1960 (13 témoignages : 6 en langue arabe et 7 en langue française)	*Coordonné et introduit par Habib Kazdaghli, Publication conjointe du CREDIF et de l'I.S.H.M.N.T. avec le concours du fonds « Souad Al-Sabah », Editions Media Com- Collection Mémoires, Tunis, 1993, texte bilingue (229 pages en langue arabe et 128 pages en langue française).*
33. Radhia Haddad	Parole de femme	*Editions Elyssa, Tunis, janvier 1995, 253 pages.*

34. Ezzeddine Azzouz	L'Histoire ne pardonne pas, Tunisie (1938-1969)	*Paris, l'Harmattan & Tunis, Dar Achraf 1988, 270 pages.*
35. Béhi Ladhgham	Correspondance 1952-1955: Les années décisives, présenté et annoté par Raouf Hamza	*Cérès Productions, Tunis 1990, 354 pages en langue française et 86 pages en langue arabe.*
36. Tahar Belkhodja	Les trois décennies Bourguiba	*Arcantères, Collection : Les témoins de l'histoire, Paris 1998, 286 pages.*
37. Chédly Kélibi	Orient-Occident - la paix violente(37), Entretien avec Geneviève Moll	*Editions Sand, Collection Aujourd'hui Et Demain, Paris, 24/03/1999, 429 pages.*
38. Mohamed Mzali	Un premier ministre de Bourguiba témoigne	*Editions Jean Picollec, Paris, 2004, 693 pages.*
39. Ahmed Ben Salah	Noura Borsali, Livre d'entretiens avec Ahmed Ben Salah	*Tunis, 2008, 236 pages.*
40. Béji Caïd Essebsi	Le bon grain et l'ivraie	*Sud Editions, Tunis le 7 Avril 2009, 505 pages.*

لكن السؤال الذي يطرح نفسه: ما الذي قدمته تلك المذكرات والسير الذاتية – سواء الصادرة منها زمن بورقيبة وخاصّة زمن بن علي -من جديد للكتابة التاريخيّة المتصلة بالنخبة السياسية في تاريخ تونس المستقلة؟

إنّ دراسة دقيقة ومتأنية لتلك الإصدارات تجعلنا نقف على جملة من الحقائق التاريخيّة لعل أهمها:

معلومات وحقائق جديدة على غاية من الأهميّة:

إلى جانب المعلومات الشخصيّة عن الأوساط التي نشأ وعاش فيها هؤلاء المناضلين وظروف الدراسة وبدايات العمل السياسي والنقابي والجمعيّات ومسيرتهم النضاليّة والمهنيّة بمختلف تفاصيلها ومحطّاتها،... فقد تضمّنت جلّ هذه المذكّرات والسّير الذاتيّة عدة حقائق وفصول مثيرة من تاريخ الحركة الوطنيّة لا توجد تماما في الرّوايات الرسميّة المعتمدة من قبل رجالات السلطة والحزب الحاكمين ولا أثر لها بالمرّة في سيرهم ومذكّراتهم الصّادرة من قبلُ (بدفع وبدعم مادي وإعلامي وأدبي من قبل أجهزة السلطة الرسميّة). بل أكثر من ذلك، فالمادة الواردة في البعض منها مناقضة تماما للروايات سابقة الذكر. وهي مسألة على غاية من الخطورة تضع مصداقيّة وموضوعيّة البعض من مناضلينا السياسيّين والنقابيّين موضع الشك! غير أنّها تحيل القارئ الفطن وخاصّة المؤرّخ إلى مزيد التدقيق والتثبّت من بعض الأحداث بمقارنة ومقارعة المصادر والرّوايات لمقاربة الحقيقة، لأنّ بلوغ المؤرّخ إلى الحقيقة التاريخيّة المطلقة أمر صعب المنال إن لم نقل مستحيلاً.

ورغم هذه السلبيّات و"الهنات" فقد تضمّنت تلك السّير والمذكّرات الكثير من الحيثيّات والتفاصيل الدقيقة جدًا أحيانًا، أي ما يصطلح على تسميته معشر المؤرّخين بـ "التاريخ المصغّر" "La petite histoire". ولئن تبدو هذه الجزئيّات والتفاصيل غير مفيدة أو ثانوية بالنسبة للبعض، فإنّ البعض الآخر من المهتمين بالبيوغرافيا والباحثين في حقول معرفيّة أخرى كعلم الاجتماع والأنتربولوجيا وعلم النفس والاقتصاد والعلوم السياسية يعتبرونها مفيدة إن لم نقل على غاية من الأهميّة لأنّها توفّر لهم مادة أوليّة لا يمكن أن تتوفّر في الأرشيفات العمومية والخاصّة أمهات المصادر والمراجع والدوريّات الأكاديميّة.(٣٨)

مذكّرات "ثأريّة" وسقوط في الذاتيّة المفرطة:

لا بدّ من التذكير بأنّ التعامل مع هذه المذكّرات يطرح مشاكل منهجية عويصة، فقد انطلق مجمل أصحابها في إعادة كتابة الذاكرة الوطنية من منطلقات ذاتية. فكاتب المذكّرات السياسيّة يحدّد نفسه بالنظر إلى نصّ سابق، صُبغ في نظره بالا موضوعية وغاب فيه الاعتراف بدوره. ومن هذا المنطلق فهو، وإن حاول صياغة تاريخ جديد للحركة الوطنية أكثر مصداقية، لا يتجاوز البحث عن نفسه داخل الرؤية التي يعلن رفضه لها على حد قول عدنان المنصر(٣٩) فأغلب أصحاب هذه المذكّرات سيسعون إلى إبراز أنفسهم كزعماء حقيقيّين في مواجهة زعيم مزيّف أو فاقد للشرعيّة وتحديد مواقعهم باستمرار بالنسبة إلى الحبيب بورقيبة(٤٠) الذي نجح في مقاومة الاستعمار ثمّ في الوصول إلى سدّة الحكم كأول رئيس للجمهورية التونسيّة بعد الإطاحة بالنظام الملكي في ٢٥ جويلية/يوليو ١٩٥٧.

وليس بالإمكان أن نتناول بالتحليل والنّقد مضامين كلّ المذكّرات والسّير الذاتيّة التي قمنا بحصرها لأنّ ذلك يتجاوز في الواقع حدود مثل هذه الدراسة.

رغم ما تضمّنته هذه المذكّرات والسّير الذاتيّة من معلومات وحقائق جديدة، فإنّ جلّ أصحابها قد سقطوا في الذاتيّة بإبرازهم وتركيزهم على الأدوار التي اضطلعوا بها ضمن الحركة الوطنية بعد أن أهملتها الكتابات التاريخيّة السابقة لها أو قلّلت من شأنها و"حرّفتها" عن قصد أو بغير قصد. كما اتّسم قسمًا هامًا من هذه المذكّرات والسّير بصبغة تبريريّة وذاتيّة معلنة، إن لم نقل مفرطة أحيانًا. فنجدهم أحيانًا يُصدرون أحكامًا قاسية على بعض خصومهم السياسيّين دون الاعتراف بأخطائهم أو تقصيرهم، على غرار ما قام به كل من محمّد الصّالح مزالي، والحبيب عاشور أثناء حديثهم عن بورقيبة، أو محمّد مزالي أثناء

حديثه عن الكتلة المعادية له والمتستّرة بغطاء بورقيبة في أواخر فترة حكمه والتي تزعمتها زوجته وسيلة بن عمّار وضمّت العديد من الشّخصيّات السياسيّة البارزة على الساحة السياسيّة ممّنْ كانوا يأتمرون بأوامرها للتآمر ضده.[41] ولعلّ ذلك ما يفسّر حرص بعضهم على ترجمتها ونشرها في طبعة عربيّة بعد أن صدرت في البداية في طبعة فرنسيّة. ونتيجة لذلك تصبح مذكّراتهم وسيرهم الذاتيّة "ثأرية" بالأساس.[42] ولنا في مذكّرات عز الدين الشريف "مذكّرات بلدي" والشاذلي الخلاّدي (عبد الحقّ) "زمن الاستعمار"،... أفضل الأمثلة. غير أنّ هذا "الثأر" يبقى على الورق ولا يتجاوزه نتيجة فشلهم في القيام بذلك على أرض الواقع لعدة أسباب، منها ما هو ذاتي ومنها ما هو موضوعي.

وعلى الرّغم من كل هذه النقائص على مستوى المضمون، فإنّه يمكن القول إنّ أصحاب هذه المذكّرات قد وُفّقوا إلى حد ما في كتابتها وهو إنجاز يُحسب لهم قياسا بظروفهم والتقلّبات والهزّات العديدة التي عرفها أغلبهم إبّان فترة الحماية أو خلال فترة الحكم البورقيبي. لقد قدّم لنا كل هؤلاء زخمًا تاريخيًا ضمّ طيفًا سياسيّا ونقابيّا هائلاً وجوانب ذاتية لا يمكن للمؤرخين والمختصّين أن يجدوها إلا لدى صانعي الأحداث، والتي من شأنها أن تُنير لهم سبل فهم وتحليل مختلف مكوّنات الحياة السياسيّة والنقابيّة والحراك الاجتماعي والثقافي للمجتمع التونسي في أدق جزئياته وخصوصياته واستغلالها على الوجه الأمثل لمراجعة كل ما كُتب وإثراء كل ما سيُكتب حول تاريخ تونس المعاصر.

وعمومًا تضمّنت كل هذه البيوغرافيات والسّير الذاتيّة معلومات وحقائق غير معروفة من قبل الجمهور العريض للقرّاء، وهي بالتأكيد إضافات على غاية من الأهميّة يمكن للمؤرّخ والباحث الاستفادة منها في عديد الميادين والاختصاصات خارج الحقل التاريخي كالعلوم السياسيّة وعم الاجتماع وعلم النفس... غير أنّه نتيجة لطابعها "الثأري" وسقوط الكثير من أصحابها في الذاتيّة المفرطة، فإنّ المؤرّخ مطالب بالتحرّي والتثبّت من المعلومات الواردة فيها وذلك بضرورة القيام بمقاطعتها أساسا مع الأرشيفات وبعض المصادر الشفويّة من الطرف المقابل وغيرها من أبجديّات الكتابة التاريخيّة المحترفة.[43]

٣/٣- إعادة كتابة تاريخ تونس المعاصر مشروع لم يكتمل

في خطوة أولى أعاد الرئيس السابق زين العابدين بن علي إعادة طبع الكتب الأربع حول تاريخ تونس المشار إليها سابقا والتي تمّ تأليفها بطلب من الرئيس الراحل الحبيب بورقيبة وصدرت باللغة الفرنسية بداية من سنة ١٩٦٨ في أربعة أجزاء. وقد تولّى الأستاذ محمّد مصمودي صاحب دار الجنوب للنشر نشر هذه السلسلة في ثوب جديد وأنيق بتقديم مجموعة من الباحثين والمؤرخين التونسيّين. وقد صدر الجزء الأول الخاصّ بتاريخ تونس القديم سنة ٢٠٠٣، فيما صدر الجزء الثاني عن العهد الوسيط سنة ٢٠٠٥. وصدر الجزء الثالث عن الفترة الحديثة سنة ٢٠٠٨. أمّا الجزء الرابع من السلسلة الخاصّ بتاريخ تونس المعاصر، وبعد مراجعة وتصويب وتحيين من قبل مؤلّفه الأصلي، الأستاذ أحمد القصّاب والأستاذ أحمد ونيّس (الذي التحق به)، فقد صدر قبل الإطاحة بنظام بن علي في ١٤ جانفي/يناير ٢٠١٤. وبمناسبة صدور الجزء الرابع من هذه السلسلة نظّم فضاء "آر ليبريس "Art-libris" (بضاحية قرطاج صلامبو) يوم الجمعة ٢٥ جوان/يونيو ٢٠١٠، احتفالا تمّ خلاله تقديم الكتاب بحضور مؤلّفَيْ الكتاب[44].

أمّا بالنسبة للّغة العربية، فقد قام الحزب الحاكم بتكوين لجنة من الباحثين الجامعيّين والمؤرّخين التونسيّين ترأسها الأستاذ خليفة شاطر، تولت إصدار أربعة كتب في الفترات التاريخيّة الأربع بعنوان: " تونس عبر التاريخ "، تولّى نشرها مركز الدّراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية بتونس بين سنتي ٢٠٠٥ و٢٠٠٨[45]. وقد قدّم لهذا السلسلة الأستاذ خليفة شاطر بمقال بعنوان: "من حصاد المدرسة التاريخيّة التونسية". وهي كالآتي:

- جماعي، **تونس عبر التاريخ**، الجزء الأول: **العصور القديمة**، إشراف الأستاذ خليفة شاطر، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس ٢٠٠٧، ٢٣٥ صفحة.
- جماعي، **تونس عبر التاريخ**، الجزء الثاني: **من العهد العربي الاسلامي إلى حركات الإصلاح**، إشراف الأستاذ خليفة شاطر، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس ٢٠٠٧، ٣١١ صفحة.
- جماعي، **تونس عبر التاريخ**، الجزء الثالث: **الحركة الوطنية ودولة الاستقلال**، إشراف الأستاذ خليفة شاطر، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس ٢٠٠٥، ٢٠٧ صفحة.
- جماعي، **تونس عبر التاريخ**، الجزء الرابع: **تونس التحوّل**، إشراف الأستاذ زهيّر مظفّر، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس ٢٠٠٧، ٢٠٧ صفحة.

ولئن لم تطرح الأجزاء الثلاثة الأولى من هذه السلسلة اشكالات تذكر فإنّ الجزء الرابع الخاصّ بتاريخ تونس ما بعد ١٩٨٧ أو "تونس التحوّل" قد أثار جدلا في صفوف بعض المؤلفين له والوسط الجامعي عامة لحرص المشرف على هذه السلسلة وعلى مستشار رئيس الجمهورية وزير أملاك الدولة وأستاذ القانون الدستوري الأسبق، الأستاذ زهيّر المظفّر على توجيه مضمون نصوص المؤلفين وذلك بقراءتها قراءة دقيقة في ثنايا الجمل والكلمات ودلالاتها ورفض وتنقيح عديد الفقرات والعناصر منها مرارًا وتكرارًا لتتضمّن مادة تاريخية تليق بـ "صانع التغيير" ومكاسب تونس في "العهد الجديد" في جميع المجالات من بينها حرّية الصّحافة والتعبير والتنظيم والنشاط السياسي.[46]

٤/٣- تغييب لبورقيبة من الذاكرة الجماعية للتونسيّين

يُجمع التونسيّون من مختلف الأعمار والمستويات والانتماءات السياسية والفكرية على أنّ بن علي الذي أزاح بورقيبة من الحكم يوم ٠٧ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٨٧ إثر "الانقلاب الطبّي" قد عمل ما بوسعه على تغييب بورقيبة من الساحة الوطنية والذاكرة الجماعية حيّا وميتا وذلك بضرب تعتيم كلّي على كلّ ما يتصل بشخصيته خشية من أن يبرز على حسابه. ومؤشرات هذا التعتيم عديدة يمكن ذكر بعضها:

- التقليص من عدد الدروس الخاصة ببورقيبة والحزب الدستويري الجديد من البرامج الرسمية لمادتي التاريخ والتربية

المدنية وتحديدا تاريخ الحركة الوطنية في برامج السنوات الخامسة والسادسة من السنة التاسعة للتعليم الأساسي وخاصّة برامج السنوات النهائية من التعليم الثانوي (أقسام البكالوريا) في مختلف الشعب المخصّصة للحزب الدستوري الجديد مع انطلاق تطبيق قانون الإصلاح التربوي لسنة ١٩٩١ الذي أقرّه وزير التربية والتعليم العالي آنذاك، الأستاذ الراحل المناضل اليساري محمّد الشرفي.

- حذف التماثيل التذكارية للزعيم بورقيبة من الساحات العمومية بالمدن التونسية (باستثناء نُصبَيْ حلق الوادي وطبرقة العملاقين ونصب الصغير بمسقط رأسه بمدينة المنستير)، علاوة على إزالة جميع الصور والنصب الرسمية من جميع الإدارات العمومية.

- "إعدام" جميع المنشورات المتصلة بالزعيم بورقيبة من كتب ومؤلفات ودوريات...، بالحرق أو بالتخلّص منها بشتى الطرق أو نقلها في أفضل الحالات إلى مخازن الأرشيف للإدارات والمؤسسات الرسمية. ولم تسلم إلاّ تلك الموجودة بالمكتبة الوطنية والأرشيف الوطني ومراكز البحث العلمي المتخصّصة والمكتبات العمومية.

- نقل جميع خطب بورقيبة وخطب وزراءه وتسجيلاتهم الصوتية (في شكل أشرطة سمعية ومرئية) بالإذاعات العمومية والتلفزة الوطنية إلى الأرشيف فأصبحت عرضة للتلف والرطوبة واستحال على الباحثين والمؤرخين استغلالها في أغراض علمية أكاديمية صرفه.

وبعد وفاته منع بن علي بثّ جنازة بورقيبة عبر التلفزيون التونسي وخيّب أمل الملايين في تونس وخارجها من الذين كانوا ينتظرون نقل مراسم الجنازة، إذ بث التلفزيون ساعة تشييع بورقيبة إلى مثواه الأخير برنامجا وثائقيا عن الطيور والمحميّات الطبيعية في تونس والامتناع عن إعطاء إشارة البثّ " Le Signal de diffusion" لعشرات القنوات التلفزية ووكالات الأنباء الدولية التي أوفدت مراسلين لها إلى تونس لنقل مراسم الدفن يوم ٠٨ أفريل/أبريل ٢٠٠٠.

- منع تنظيم أي احتفال بالذكرى السنوية لوفاة بورقيبة.

- منع رفاق الرئيس الراحل من السياسيّين المعروفين من التحول إلى المنستير للمشاركة في إحياء ذكرى رحيله وزيارته في "سجنه الأخير" بمسقط رأسه[٤٧].

وغيرها من الممارسات الأخرى التي مكنت بن علي من "تغييب" زعيم البلاد وأحد أبرز محرّريها وبُناة دولة الاستقلال عن الذاكرة الجماعية للتونسيّين، لا سيّما الشبّان منهم المولودين بعد سنة ١٩٨٧ !

وبقدر ما نجح بن علي ونظامه في طمس وتشويه تاريخ الرجل وغبطه لمدة ٢٣ عاما كاملة (من ١٩٨٧ إلى غاية ٢٠١٠) فإنّ الزعيم الحبيب بورقيبة قد عاد من جديد إلى ساحة التاريخ الوطني بأشكال جديدة وأكثر قوّة حتى من فترة حكمه بعد ١٤ جانفي/يناير ٢٠١١. وبذلك يمكن القول أنّ عملية "السطو" على التاريخ مآلها الفشل التام والانتكاس، لا في تونس، بل في جميع دول العالم !

٥/٣-حرص بن علي على تلميع صورته وكتابة تاريخ ناصع لنظامه

بغاية التأريخ لمحاسن نظام "العهد الجديد" وإنجازات "التحوّل المبارك" وكتابة تاريخ مُشْرِقٍ لشخصه ولنظامه منذ توليه الحكم في ٠٧ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٨٧، توجّه بن علي أولا إلى المؤرخين المختصّين في التاريخ المعاصر وتاريخ الزمن الراهن. وعندما لم يجد تجاوبا في صفوف هؤلاء توجّه إلى الجامعيّين التونسيّين من التجمعيّين بدرجة أولى (نسبة لحزب التجمّع الدستوري الديمقراطي الحاكم وريث الحزب الدستوري منذ ٢٧ فيفري ١٩٨٨) في اختصاصات مختلفة: في التاريخ، في العلوم القانونية والسياسية في اللغة والآداب العربية والفرنسية (في اختصاص الحضارة تحديدا)، في الاقتصاد، في الماليّة... الخ. ولتحقيق ذلك قام بن علي بتوظيف جيش من الكتّاب والمؤلفين ورجال فكر من داخل تونس وخارجها.

(٥/٣) ١-من داخل تونس:

من الصّعب ضبط قائمة كاملة في الاصدارات التي أرّخت لنظام بن علي ومزاياه وأياديه البيضاء على البلاد والعباد... لكثرتها وتنوعها: كتب ومؤلفات، كتيّبات، نشريات، دوريّات، مقالات منشورة وغير منشورة... لذا سنقتصر على ذكر المؤلّفات دون سواها. أحصينا خلال الفترة الممتدّة بين ١٩٩٢ و٢٠٠٩ من حكم بن علي، صدور ٢١ عنوانا لكتاب تونسيّين، ١٢ إصدارا منها باللغة العربية و٠٩ إصدارات باللغة الفرنسية صدرت داخل تونس وخارجها. وهي مرتبة ترتيبا كرونولوجيا كالآتي:

*** باللغة العربية:**

- جماعي، **٧ نوفمبر/تشرين الثاني: الثورة الهادئة**، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله للنشر، تونس، ١٩٩٢.
- ص.ش، **بن علي والطريق إلى التعدديّة**، دار سراس للنشر، تونس، ١٩٩٥.
- ص.ش، **عودة حنبعل... أو تجديد العهد**، دار سراس للنشر، تونس، ١٩٩٧.
- ع.ب، **الاستقرار السياسي في تونس**، أوربيس، تونس، ١٩٩٧.
- م.ع.ح، **تونس المستقبل**، أوربيس، تونس، ١٩٩٩.
- س.ش[٤٨] و ص.ب.ج، **بن علي خيار المستقبل**، سانباكت، تونس، ١٩٩٩.
- س.ب.ف، **الإصلاح الدستوري في جمهورية الغد**، سلسلة المكتبة القانونية، تونس، ٢٠٠٢.
- ز.م، **جمهورية الغد : الأسُسُ والأبعاد**، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس،٢٠٠٢.
- ع.ش، **الثقافة في فكر الرئيس زين العابدين بن علي، سيلدار**، تونس، ٢٠٠٣.
- ز.م، **من الحزب الواحد الى حزب الأغلبية -التجربة التونسية**، سنباكت، تونس، ٢٠٠٤.
- ص.ش، **من ديمقراطية المعتقدات الى ديمقراطية البرامج**، الدار العربية للكتاب، تونس، ٢٠٠٥.
- ح.ف، **بن علي فلسفة التحدي ومسارات المستقبل**، تونس، ٢٠٠٩.

وغيرها من العناوين والإصدارات "تحت الطلب" من تأليف المتزلّفين للنظام.

* باللغة الفرنسية:

- Sadok Chaâbane, Ben Ali et la Voie Pluraliste en Tunisie, CERES Editions, Tunis, 1996.
- Sadok Chaâbane, Ben Ali on the Road to Pluralism in Tunisia, American Educational Trust - Washington DC, 1997.
- Sadok Chaâbane, Les Défis de Ben Ali, Editions de l'Orient, Paris, 1999.
- Sadok Chaâbane, Ben Ali : Bâtir une Démocratie, Maison arabe du Livre, Tunis, 2005.
- Moncef Guitouni, Tunisie le Destin Recouvré, Editions ESKA, Paris, 1997.
- Mohamed Béchir Hlaiem & Hédi Mhenni, Ben Ali: l'Ethique au Service du Politique, Orbis, Tunis.
- Mézri Haddad, Des Acquis aux Défis, Paris Médiane, 2004.
- Colectif, Ben Ali l'Homme des Promesses Tenues, SIMPACT, Tunis, 2004.
- Mohamed Laïd Ladab, Tunisie du 7 Novembre : Une Nouvelle Stratégie du Développement à l'Ere de la Globalisation, SAGEP, Tunis, 1996.

والمتأمّل في قائمة مؤلفي هذه الكتب يلاحظ أنّه على ٢١ مؤلفًا، ١١ منهم جامعيّون وهو ما يعطينا نسبة تفوق النصف بقليل (٥٢،٣٨ %) وفي ذلك دليل واضح على نجاح بن علي وأجهزته في استقطاب خيرة الجامعيّين التونسيّين تمهيدا لـ "تدجين" الجامعة وتوظيفها في خدمة مشروعه السياسي!

(٣/٥) ٢-من خارج تونس:

عبر عدة هياكل ومؤسّسات رسمية وفي مقدمتها "الوكالة التونسيّة للاتصال الخارجي " L'Agence Tunisienne de Communication Extérieure" (ATCE) التي بُعثت للغرض منذ سنة ١٩٩٠ والتي كان من الذين أشرفوا على إدارتها أساتذة جامعيّون نذكر من بينهم أستاذ الحضارة العربيّة، الأستاذ م. ز (بين ٢٠٠٧ وأفريل/أبريل ٢٠١٠) الذي شغل من قبلُ خطة مدير ورئيس تحرير جريدة الحريّة (بين ٢٠٠٥ و٢٠٠٧) ومستشار وزير الثقافة (بين ١٩٩٨ و٢٠٠٧)...، إضافة إلى ديوان التونسيّين بالخارج وبعض السفارات والقنصليّات والمراكز الثقافية التونسية بالخارج. وكان من أولويات هذه الوكالة طبع ودعم عديد الكتب الدعائية لنظام بن علي، إضافة إلى دعم عديد الدراسات والمقالات والبحوث...، ماديًا وإعلاميًا عبر الدعاية لها عبر وكالة الأنباء الأجنبية ووسائل الإعلام الرسمية المرئية والمسموعة والمكتوبة.[٤٩] وقد أحصينا حوالي (٤٢) إصدارًا لكتّاب أجانب، (٢٤) منها باللغة العربية و(١٨) باللغات الفرنسية والإيطالية والانجليزية، منها ما طُبع بتونس ومنها ما طُبع في الخارج. ولم تقتصر هذه الإصدارات على التأريخ لبن علي وانجازاته فحسب، بل وكذلك لحاكمة قرطاج، سيّدة تونس الأولى، حرمه، ليلى بن علي. وفيما القائمة الكاملة لهذه الإصدارات باللغتين العربية والفرنسية:

باللغة العربية:

- أ.س.، **بن علي صانع المستقبل**، طرابلس، ٢٠٠٢.
- أ.س.، **الربّان والسفينة**، سنباكت – تونس، ٢٠٠٤.
- أ.س.، **زين العابدين بن علي: التوهّج الدائم، تونس**، ٢٠٠٩، ١٢٩ صفحة.
- كاتب مجهول، **إنجازات الرئيس زين العابدين بن علي**، مركز زايد للتنسيق والمتابعة - دولة الإمارات العربية المتحدة، شركة أبو ظبي للطباعة والنشر، أبو ظبي، ٢٠٠٢، ٥٩ صفحة.
- أنطوان غريب، **تونس من التحرير الى التغيير**، دار الميثاق للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٦.
- جورج علم، **بن علي وصناعة التاريخ**، بيروت، ٢٠٠٩.
- جيهان عاصم، **التونسية ملكة متوّجة**، دار نوبار للطباعة، القاهرة، ٢٠٠١.
- جيهان عاصم، **تونس بن علي بعُيونٍ مصرية**، القاهرة، ١٩٩٩.
- حميدة نعنع، **العقل في زمن العاصفة، دار كتابات**، بيروت، ١٩٩٩، ٢٨٦ صفحة.
- رفيق الصيداوي، **ليلى بن علي وتطلّعات المرأة العربية إلى الحداثة**، دار الميثاق للدراسات والنشر، بيروت ٢٠١٠.
- سالفاتوري لومباردو، **تونس المستقبل**، أوربيس للنشر، تونس، ١٩٩٩.
- سالفاتوري لومباردو، **ربيع تونسي: مسيرة متضافرة بين الرئيس وشعبه**، سراس للنشر، تونس، ١٩٩٩.
- عبد الرحمان مطر، **تونس بن علي: شرعية الإنجاز**، دار النورس، دمشق، ٢٠٠١.
- عبد العزيز بن عبد الله السنبل، **تونس الأصالة والمعاصرة في عهد بن علي**، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر – بيروت، ٢٠٠٢.
- عصام كامل – سوسن أبو حسين، **المعجزة التونسية**، رسالة للنشر والخدمات الصحفية، القاهرة، ٢٠٠٥.
- علي الصرّاف، **بن علي ومسيرة التحديث في تونس**، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٤.
- بدر الدين أدهم، **المرأة التونسية من التحرّر إلى دوائر القرار**، دار الكتب المصرية – القاهرة، ٢٠٠٤.
- علي طعمه، **تونس وعصر الزين: تحوّل من أجل الانسان**، مؤسسة الهيثم للصحافة والطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٩.
- عوض سلام، **تونس... التحدّي: الشراكة الأورومتوسطية**، فنّ الطباعة، تونس، آرتيب، ٢٠٠٥.
- مجموعة من الباحثين، **وعدٌ وإنجازٌ**، سنباكت – تونس ٢٠٠٤.
- مجموعة من الباحثين، **أفكار من أجل تونس**، منشورات أفكار أون لاين بيروت، ٢٠٠٤
- محمّد حلمي، **بن علي رجل الإصلاح والإنجاز**، دار الجمهورية

للصحافة، القاهرة، ٢٠٠٤.

- ندى أيّوب-يونس عوده-نهاد حشيشو، **بن علي: نجاح التجربة وشرعيّة الطموح**، المؤسّسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – بيروت، ٢٠٠٥.

- نوّاف الرومي، **اندماج الاقتصاد التونسي في العولمة في عهد زين العابدين بن علي**، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية – تونس، ٢٠٠٦.

باللغة الفرنسية:

- Collectif, Geschichte und Gegenwert Lucian O. Meysels, Tunesien - Brennpunkt der Kulturen, Herbig, Munich, 2004.

- Collectif, Zine El Abidine Ben Ali : Les Grands Changements, Union des Ecrivains Russes, Union des Ecrivains Russes – Moscou, 2003.

- Gaetana Pace, L'Euro-Mediterraneità della Tunisia di Ben Ali, Edizioni dell'oleandro, Rome, 1995.

- Georgie Anne Geyer, Tunisia, a Journey through a Country that Works, Stacey International, Londres, 2003.

- Georgie Anne Geyer, Tunisie, le Pays qui Avance, Mediane, Paris, 2004.

- Jon Marks and Mank Ford, Tunisia: Stability and Growth in the New Millennium, Euromoney books, London, 2001.

- Nicole Ladouceur et Luc Dupont, La Tunisie, une Démocratie Naissante, Editions de la SROH - Montréal, 1993.

- René Blanchot - Marceau Bigéni, La Tunisie de Ben Ali et le Partenariat Euro- Méditerranéen, Institut Méditerranéen d'Etudes Economiques et Financières, Toulon, 2001.

- Salvatore Lombardo, La Revanche de Carthage, Autres Temps, Marseille, 2000.

- Salvatore Lombardo, Un Printemps Tunisien, Autres Temps, Marseille, 1998.

- Salvatore Lombardo, Un Rêve plus Loin, Carnets Tunisiens, Autres Temps, Marseille, 1998.

- Valentin Mbougueng, Ben Ali et le Modèle Tunisien, Editions de l'Orient, Paris, 1999, 102 pages.

- Valentin Mbougueng, La Tunisie en Afrique, Mediane, Paris, 2002.

- Vincenzo Porcasi, L'Approccio Tunisino alla Solidarietà, Edizioni Dell'Oleandro, Rome, 2003.

- Vincenzo Porcasi, Pour un Développement Solidaire - l'Expérience de la Tunisie, Mediane, Paris, 2003.

- Yves Brissette, Luc Dupont et Moncef Guitouni, La Tunisie de Ben Ali: Les Défis de l'Emergence, Carte Blanche - Québec, 2003.

- Gaetana Pace, Ben Ali, All' Insegna Delle Grandi Sfide, Edizioni Dell'Oleandro, Rome, 2002.

-Valentin Mbougueng, Institutions et Vie Politique en Tunisie, Orbis, Tunis, 2006.

وقد أحصينا من بين هذه الإصدارات (٦٣) عنوانًا لكتّاب تونسيّين وأجانب، صدرت بكل من تونس والخارج. وإذا ما علمنا أنّه كان يتمّ إنفاق حوالي ٥٠,٠٠٠ دينارا (أي حوالي ٢٥,٠٠٠ دولارًا) بالنسبة لكل كتاب يطبع خارج تونس، فإنّ المبلغ الجملي الذي كان ينفق على تلك الكتب يبلغ ٣,١٥٠,٠٠٠ دينارا (أي حوالي ١,٧٥,٠٠٠ دولارا) وهي مبالغ تُصرف كما هو معلوم بالعملة الصّعبة. يُضاف إلى هذا المبلغ الضخم ما كان ينفق من أموال طائلة (بالعملة الصّعبة كذلك) لسحب بعض الكتب المعارضة لبن علي وأفراد عائلته من السوق بالبلدان الأجنبية التي تصدر بها وفي مقدمتها فرنسا وكندا وسويسرا... وهي في اعتقادنا أموال المجموعة الوطنيّة كان من الأجدى إنفاقها على طبع كتب علميّة أو تحقيق طبع كتب في التراث التونسي- أو ترميم مواقع ومعالم أثريّة متداعية... أو في التنمية البشرية والمحلية. وللتدليل على ذلك يكفي الرجوع للتقرير النهائي للجنة تقصّي الحقائق حول الرشوة والفساد المشار إليه آنفا لندرك بالأمثلة والأرقام حجم التلاعب بالمال العمومي انطلاقا من كبرى الملفات وفي مقدمتها ملفّي الحوض المنجمي وملفّ "وكالة الاتصال الخارجي" الذي انفرد بحوالي (٥٠) صفحة من كامل التقرير الذي تضمّن أكثر من ٥٠٠ صفحة.

(٥/٣) ٣-مصادرة مؤلفات المؤرخين والمؤلفين غير الموالين للنظام:

مقابل كل هذا التبذير والإسراف للمال العام في كتب لا يمكن القول عنها سوى أن لا قيمة لها بالمرّة وأنّ مكانتها "داخل القمامة" أو في سلّة المهملات، كانت المؤلفات التاريخيّة والسياسية للوجوه العلمية والأكاديمية التونسية الملتزمة والمحايدة، لا تَلْقَى إطلاقًا الدعم والحظوة والعناية المادية والأدبية اللازمتين ولا حتى الترخيص بصدورها ونشرها. وقد تسبّبت هذه السياسة في حصول خيبة أمل وإحباط لدى الكثير من المثقّفين والمؤلفين، لا سيّما لدى الملتزمين وحتى لدى المستقلّين وغير المنتمين منهم للحزب الحاكم ولأحزاب الموالاة. فقد اضطرّ البعض من بين هؤلاء إلى طبع مؤلفاتهم خارج البلاد للإفلات من الرقابة وطول الانتظار للحصول على الإذن بالصدور والنشر، الأمر الذي كلفهم مصاريف مادية باهضة وعديد المضايقات البوليسيّة والتتبّعات العدلية.

وفي هذا الإطار، يمكن ذكر مؤلفات كل من: المرحوم الأستاذ محمّد الشرفي وهالة الباجي والدكتور المنصف المرزوقي والمازري الحداد ومحسن التومي... (من الجامعيّين) وكل من: سليم بقّة وأحمد المناعي وتوفيق بن بريك... (من غير الجامعيّين) التي طُبعت في الخارج ومُنعت من الدخول إلى البلاد، حتى بمناسبة انتظام المعرض الدولي للكتاب بتونس. ورغم نجاح بن علي

وبطرق مختلفة في "احتواء" الأستاذ المازري الحدّاد بتعيينه سفيرا لتونس في منظمة اليونسكو بباريس (بين ٢٠٠٩ و٢٠١١)، فإنّ هذا الأخير قد قدّم استقالته في الربع ساعة الأخير (صباح ١٤ جانفي/يناير ٢٠١١)، أي قبل سقوط النظام وانتقد رئيسه في عديد المنابر الإعلامية قبل وبعد استقالته. وبذلك أمكن له التدارك في الوقت البديل!

وفي ذات السياق تورد الأديبة زينب الجويلي ما يلي: "... كان نظام بن علي النقطة السوداء في تاريخ تونس كلها وتاريخ المثقّف التونسي- بالخصوص، حيث شهدت مسيرته انزلاقًا وانحدارًا، واختار بعضهم التصفيق لسياسة العهد البائد فكتم صوت الضمير والكلمة الصادقة المبنية على النقد الأمين الحر البناء...".[٥٠] وحول لجنة القراءات بوزارة الداخلية أوضحت: "... في العهد البائد بتونس كانت تتشكل لجنة قراءات بوزارة الداخلية تصدر أحكاما تعسفيّة تصادر حرّية التعبير، أما الكتب التي تمجّد وتنافق يُكتب لها أن ترى النور، وأصبح الكاتب مضطرًا لأن يجعل المعاني مكبوتة تتأرجح في قراءة ذكيّة لما بين الأسطر من أجل أن يتخطى دائرة الممنوع...". وأشارت إلى أنّ: "الثورة التونسية كانت المتنفس الذي فكّ أسر الكتاب، حيث شهد الأسبوع الأول منها تصدّر واجهات المكتبات التونسية سلسلة من الكتب الممنوعة التي صُودرت سابقا ومن أشهرها رواية [حاكمة قرطاج] التي مُنعت من دخول البلاد وشهدت أكثر نسبة إقبال من حيث الشراء بالإضافة إلى العديد من المراجع. وبعد ما ألغِيَتْ كل القيود السابقة التي ضيّقت الخناق على المبدع التونسي، نشطت حركة النشر- والتوزيع بتونس، وعادت الأمور إلى حركة توازن لطالما بقي المثقّف التونسي- متعطشا لها...".[٥١]

ولم تفلت بعض مراكز البحث العلمي من هذه الرقابة حيث بقيت أشغال عدة ندوات دولية والأيام الدراسيّة حول الذاكرة الوطنية التي انتظمت في رحاب مؤسّسة التميمي للنشر- في مكاتب مصلحة الإيداع القانوني بالمكتبة الوطنية سنوات نظرا لتضمّنها فقرات، إن لم نقل كلمات، معارضة لنظام بن علي. وهو ما عرّض المؤسّسة في سنة ٢٠٠٦ إلى الهجوم ليلاً من قبل مجهولين وتكسير لجدرانه وإتلاف لأثاثه ولبعض الوثائق بمبنى المؤسّسة، الأمر الذي كلّفه خسارة مادية قُدّرت بحوالي ٣,٠٠٠ دينار للترميم والإصلاح ورفع قضيّة ضد مجهول. كما صُنّفت المؤسّسة كـ "مركز بحث مُعارض". وقد اضطرّ الأستاذ عبد الجليل التميمي إلى طبع البعض من منتدياته وندواته في الخارج، على غرار المنتدى الخاصّ بالاتحاد العام التونسي للشغل الذي تضمّن شهادة شفوية للوجه الجامعي والنقابي الأسبق، الأستاذ الطيّب البكوش، لم تعجب جهاز بن علي...، والأمثلة على ذلك كثيرة.

وأمام تظلّم صاحب المؤسّسة من هذه الممارسة والتنديد بها في الخارج، اتصل الوزير المستشار للرئيس بن علي، المرحوم عبد العزيز بن ضياء بالأستاذ عبد الجليل التميمي ليقترح عليه تنظيم ندوة أو نشاط متصل ببن علي وبإنجازاته منذ ١٩٨٧ و"طيّ صفحة الماضي"[٥٢]. لكنّ هذا الأخير رفض بتعلّة وجود عديد المؤسّسات الرسمية على غرار المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية والتجمّع الدستوري الديمقراطي ووكالة الاتصال الخارجي للقيام بمثل هذه الأنشطة! بل أغرب من ذلك، ورغم أنّ عديد الكتب العلمية التي كانت تطبع خارج تونس وتنتمي إلى صنف المؤلفات العلمية أو التاريخيّة أو الأدبية المحضة ولا تتضمّن مادة سياسية أو نقدا لنظام بن علي وسياسيته في الحقل الثقافي أو الاقتصادي...، فقد كانت تخضع لترخيص مسبق من وزارة الداخلية قبل توزيعها ونشرها في تونس. وفي هذا الصدد يمكن ذكر مصير نسختين من كتاب الأستاذ محمّد الطاهر المنصوري حول تاريخ جزيرة قبرص في العهد الوسيط، الذي رغم طابعه التاريخي بقي ينتظر الإذن بالدخول لمدة أشهر، قبل الحصول على ترخيص من مصالح وزارة الداخلية التي عهدت لشخص "شبه أمّي" قراءته وتقييمه وصياغة تقرير حول مضمونه، قبل السّماح لصاحبه سحبه نُسْخَتَيْهِ من مصالح الديوانة[٥٣] ! والأمثلة على ذلك عديدة.[٥٤]

وخلاصة القول؛ أنّ النظام البوليسي لبن علي لم يطوّر في نهاية الأمر إلا الثقافة التي تناسبه، ثقافة المديح والولاء من جهة، وثقافة الإسفاف التي تخاطب الغرائز من جهة ثانية. وبالطبع لا يمكن للمرء أن ينتظر من نظام مثل هذا أن يطوّر الكتابة التاريخيّة والمعرفة التاريخيّة بثقافة تخاطب العقل وتنمّي الملكات النقدية للناس وترتقي بأذواقهم وتحرّرهم من الجهل والظلام وعقليّة "القطيع الوديع" الخاضع كليًا لسلطة الراعي. وقد ألحقت هذه السياسة أضررًا فادحة بالبحث في تاريخ الزمن الراهن أو التاريخ الآني لتونس بصفة خاصة والفكر النقدي النيّر عامة نتيجة الحصار الرهيب الذي ضُرب عليه في وقت كانت فيه الأفكار الرجعية والمتعصبّة تجد طريقها إلى قلوب القرّاء التونسيّين، لا سيّما الشبان منهم وذلك عبر المنشورات القادمة من الشرق في معرض تونس الدولي للكتاب وعشرات القنوات التلفزية التي كانت ولا تزال إلى اليوم تبثّ سمومها من أقطار الخليج العربي. وقد أدّت هذه السياسة إلى تجفيف منابع الفكر التقدمي المستنير ومهّد الطريق تدريجيًا لظاهرة التطرّف الديني في تونس ما بعد ١٤ جانفي/يناير ٢٠١١.

وهكذا يمكن القول إنّ حصيلة كتابة تاريخ النخبة السياسية التونسية والعربية خلال الفترة المعاصرة كانت حصيلة سلبية في العموم لأنّ كتابها، سواء كانوا من الفاعلين السياسيّين وخاصة من "المؤرخين الرسميّين" أو "مؤرّخي القصر-" قد رسموا صورا زاهية للرئيس وللحزب الحاكم فكانوا "مؤرخين تحت الطلب" غنموا عديد الامتيازات والمكارم مقابل كتابتهم فقدموا تاريخًا كله بطولات. وبمجرّد سقوط نظام بورقيبة سنة ١٩٨٧ تحرّرت الأقلام والأفواه لتقدم تاريخًا مغايرًا تمامًا لما كُتب في عهده وكذلك الشأن بالنسبة لفترة ما بعد سقوط نظام بن علي في ١٤ جانفي/يناير ٢٠١١ بما أنّنا نعيش منذ تلك اللحظة وإلى اليوم على "كذبة" تاريخه الحافل بالمكاسب والإنجازات!

أخيرًا بعد التعريف بملامح النخبة العصريّة التونسيّة بمختلف أصنافها وفروعها وعلاقاتها...، خلال فترة اهتمامنا (قُبيل الحماية وطيلة كامل الفترة الاستعماريّة وفجر الاستقلال) وكيف كتب تاريخها خلال فترتي حكم بورقيبة وبن علي، وفي ظلّ ما شهدته تونس منذ سنة ٢٠١١ من زخم تاريخي بتصدّر الملفات

والشهادات التاريخيّة لوسائل الاعلام الرسمية والخاصّة وزوال الطابوهات والمحاذير التي سلّطها حكّام تونس طيلة أكثر من نصف قرن على تاريخ تونس المستقلّة بمنعهم الخوض في الملفات التاريخيّة الشائكة أو الحارقة المتصلة به - كما نعتها الاعلاميّون – وتغييبهم لتاريخ عديد الشخصيات والمنظمات والأحداث الوطنية الهامة من الذاكرة الجماعية...، جدير بنا أن نتساءل: كيف السبيل لكتابة تاريخ النخبة السياسية التونسية بطريقة وأسلوب علميّيْن بعيدة كل البعد عن الحسابات السياسية – بل السياسوية – والحزبية الضيّقة؟

٦/٣-سبل التأسيس لكتابة تاريخ موضوعيّ من طرف السياسيّين

من الصّعب تقديم "وصفة" لنموذج مثالي للكتابة التاريخيّة من قبل السياسيّين، سواء كان ذلك بتونس أو بسائر أنحاء العالم العربي. من وراءه تاريخنا الوطني لعدة أسباب، أوّلها أنّ الكتابة الفردية للتاريخ غالبا ما تخضع لثقافة المؤرّخ وميوله واتجاهاته السياسية والفكرية الذي غالبا ما يركز على الإيجابيات والانتصارات ويتناسى ويغيّب الإخفاقات والنكسات وكل أشكال الفشل للحزب الحاكم الذي ينتمون إليه والعكس بالعكس. وللمحافظة علي الموضوعية والحياد في هذا الجنس من الكتابة التاريخيّة من الضروري في اعتقادنا:

- تشكيل هيئة أو لجنة وطنية مستقلة لكتابة التاريخ السياسي لتونس بمختلف أحداثه ومحطاته والأطراف الفاعلة فيه من نخب وجماهير وأحزاب ومنظمات ومؤسسات وجمعيات...، تضمّ خيرة المؤرخين والباحثين الأكاديميّين بالجامعة التونسية بمختلف كلياتها ومعاهدها ومراكز ومخابر ووحدات البحث بها بكامل جهات البلاد وذلك في الفترات التاريخيّة الأربع: القديم والوسيط والحديث والمعاصر وفي جميع الاختصاصات، بدءًا بالتاريخ السياسي مرورًا بالتاريخ الاقتصادي فالاجتماعي وصولاً إلى التاريخ الثقافي والديني.

- إتاحة قدر كبير من حرّية البحث وفتح الأرشيفات العمومية وفي مقدمتها أرشيفات رئاسة الجمهورية ووزارة الداخلية ووزارة الخارجية والحزب الدستوري والتجمّع الدستوري الحاكمَيْن (بين ١٩٥٦ و٢٠١١)...، أمام الباحثين حتى يتسنى لهم الاطلاع علي الوثائق الأصلية...، مع إلزامهم بواجب التقيّد بأخلاقيات المهنة وفي مقدمتها: عدم التشهير بالأشخاص والذوات والأعراض وعدم المسّ بالأمن القومي والوحدة الوطنية وكذلك بالحرمة الترابية للدول المجاورة والشقيقة والصديقة.

- وجوب الحرص على تفسير جميع الأحداث التاريخيّة التي جدّت بتونس منذ سنة ١٩٥٦، بدءًا بالتفسير المادي وصولاً إلى التفسير المثالي للتاريخ مع الحرص على البحث عن دور الفرد بالرجوع إلي الظروف الموضوعية المصاحبة للحدث داخليًا وخارجيًا (إقليميًا ودوليًا).

- كتابة وتفسير الأحداث التاريخيّة بالاستعانة بالعلوم المكمّلة للتاريخ "Les sciences connexes de l'histoire" مثل علم الاجتماع وعلم الاقتصاد وعلم النفس والأنثروبولوجيا وعلم الآثار...، بدءًا بدور الطبيعة والبيئة الجغرافية، مرورًا بالتكوين العلمي وصولاً لنفسيّات الفاعلين في التاريخ وأبطاله.

- الابتعاد عن الأحكام القطعيّة في تفسير الأحداث التاريخيّة، أي أن يكون ماديًا أو مثاليًا ومن هنا اختلاف وجهات النظر لأن كل حُكمٍ أو من الحُكمَيْنِ أو تفسير من التفسيريْن يؤدي إلي نتيجة مغايرة للأخرى ويكرّس التفرقة في صفوف القرّاء بين متقبّل ورافض لهذا التفسير.

- الابتعاد عن المجاملة لنظام أو حزب أو تنظيم...، وخاصّة لشخص أو مجموعة أشخاص عند تفسير الأحداث السياسية على أنها تاريخًا، بينما المنهج العلمي في التاريخ يرى أنّ التاريخ يبدأ حين تنتهي السياسة. أي بعبارة أخرى لا ينبغي أن نكتب تاريخ بلد ما في ظلّ وجود الحاكم في سدة الحكم لأنّ المؤرّخ أو الكاتب سيخضع حتما للمناخ السياسي القائم بالبلاد لأنّ ما يدوّنه اليوم من أحداث قد يتغير في اليوم الموالي. وفي ذلك خطورة على الكتابة التاريخيّة والبحث العلمي عامة.

- الاستقلاليّة عن السياسة وعن الدين لأنّه إذا تحكّمت الاتجاهات السياسية والدينية لدى كاتب التاريخ والمؤرّخ فسوف ينتهي به المطاف إلى تدمير وقائع التاريخ لصالح الاتجاه أو الحزب السياسي الذي يكتب عنه. وكذلك الحال إذا تحكّمت في نوازع المؤرّخ عقيدة أو مذهب ديني. فالشيعة مثلا إذا كتبوا تاريخ السنة سوف يلعنون أهل السنة والعكس صحيح. والتاريخ الذي تمليه الأهواء لا يصبح بالمرّة تاريخًا وليس هناك شيء أكثر إفسادا للتاريخ من الأهواء.[٥٥]

- وجوب إرساء أسس مدرسة تاريخية وطنية بكل بلد عربي ومن بينها تونس تنبع منها أفكار المؤرخين التونسيّين. ومن الضروري أن تتميز هذه المدرسة عن غيرها من المدارس التاريخيّة بحضور قويّ وعميق للهويّة الحضارية والثقافية والتاريخيّة لتونس. لأنّه كما هو معلوم إذا استعمل التاريخ لأغراض سياسية أو حزبية أو عقائدية فإننا نتتج "تاريخا أيديولوجيا"، لأنّه إذا ما استعمل من طرف النخبة السياسية والسلطة الحاكمة ينتج "تاريخا رسميا". أمّا إذا استعمل لأغراض الهويّة فإنّه ينتج "تاريخ الذاكرة".

ورغم أنّ العلم لا وطن له وأنّ الدراسات التاريخيّة يجب ألاّ تكون نابعة من نظريات قطرية وإقليمية، بل يجب أن تنفتح على المدارس الأخرى التي تمتزج وتتفاعل مفاهيمها بين المؤرخين[٥٦]. وبالتالي لا نرى ضرورة أن تكون هناك مدرسة تاريخية تونسيّة متفرّدة في اتجاهاتها بحيث يستمد المؤرّخ التونسي من واقع فهمه للمجتمع التونسي ومن واقع البيئة التونسية وأن تكون قريبة من ثقافتنا ومتصلة اتصالاً عميقًا بنفسيّة وعقليّة التونسي.

- إعادة النظر في تحقيب تاريخ تونس المعاصر حيث مازلنا ندرّس لطلابنا تاريخ تونس المعاصر يبدأ بالاحتلال الفرنسي للبلاد، وهو في اعتقادنا أمر غير مقبول لأنه لا يمكن أن يكون منطلق هذه الفترة باحتلال أجنبي لتونس! لذا يجب أن نبحث عن بداية جديدة منطقية لهذا التاريخ عبر وقفة جادة من المؤرّخين التونسيّين بتحديد تاريخ واضح تكون منطلقًا لتاريخنا المعاصر مثل سنة ١٨٦٤ تاريخ اندلاع انتفاضة علي بن غذاهم.

- إعادة النظر في تسمية تاريخ تونس خلال الفترة الاستعمارية بـ "تاريخ الحركة الوطنية" لأنّ تاريخ هذه قد ارتبط للأسف بتنظيمات سياسية ورموز وزعماء سياسيّين بعينهم دون سواهم

وفي مقدمتهم: الحزب الدستوري الجديد وقادته على غرار الحبيب بورقيبة ومحمود الماطري والطاهر صفر...، وبدرجة أقلّ عبد العزيز الثعالبي وصالح بن يوسف ومحمّد علي الحامي فرحات حشّاد... وفي ذلك إقصاء وتقليص من أدوار عديد الشخصيات والمنظمات والجمعيات السياسية الوطنية، على الصعيدين المركزي والجهوي.

- إعادة ضبط البرامج والمناهج الدراسية في مادة التاريخ بإقرار تدريس جميع الفترات والأحداث والتنظيمات والشخصيات الفاعلة في تاريخ تونس، بما فيها والأحداث والتنظيمات والشخصيات والفترات "السوداء" والمثيرة للجدل، لأنّ تدريس هذه الأخيرة يمكّن المتقبلين من مقارنتها بالأحداث والتنظيمات والشخصيات والفترات الزاهية من تاريخ البلاد ودفعهم إلى التوقي منها كما هو الشأن بالنسبة لأواخر فترة حكم بورقيبة وسنوات الجمر من حكم بن علي.

- عدم تسييس مادة التاريخ من قبل رجال السياسة حتى لا نعود ثانية لمربع "التاريخ الرسمي الوردي" كما الحال لفترتي حكم بورقيبة وبن علي بجعل التاريخ علما من العلوم الانسانية "المستقلّة" والمتحرّرة من رقابة الحزب الحاكم والدولة وإقرار تدريس جميع الأطراف الفاعلة في صنع دون استثناء أو تفضيل لطرف على الآخر.

- تجريم العبث بالوثائق التاريخيّة الرسمية التي تُعدّ جزءًا من الذاكرة الوطنية وتراثًا وطنيًا، يجب على الدولة حفظه وحمايته شأنه شأن المعالم والمواقع الأثرية.

- عدم إقرار تدريس فترتي "ثورة" الحرّية والكرامة والانتقال الديمقراطي في تونس (من سنة ٢٠١٠ إلى اليوم) لأنّ تدريسها يستوجب حيزا زمنيا لكتابتها يقتضي من الباحثين والمؤرّخين الاطّلاع على الأرشيفات والوثائق الرسمية وعديد الشهادات لشخصيّات رسمية سياسية وعسكرية وأمنية...، فاعلة في هذه الفترة الحرجة من تاريخ تونس بغاية تحديد جذورها وآلياتها وأطوارها بآمالها وخيباتها وبنجاحاتها وانتكاساتها...

خَاتِمَةٌ

يمكن القول في خاتمة هذه المحاولة للتأريخ للنخبة السياسية التونسية في تونس المستقلّة أنّ هذه الأخيرة لم تكن متجانسة اجتماعيا وايديولوجيا وفكريا... ورغم أنّ ذلك يعدّ معطى إيجابيًا وعنصر إثراء للطبقة الحاكمة وعنصر دفع للمجتمع التونسي عامة، فإنّ هذه النخبة السياسية للأسف لم تستفد من هذا التنوّع ولم تدخل طور "الكتلة التاريخيّة" بما للكلمة من معنى. فكان هاجسها الأول والأخير البقاء أكثر ما يمكن في الحكم. ولم يقتصر الأمر على "احتكار" السلطة لصالحها، بل أقصت ونكّلت بكل من لم ينتمِ إليها فكريًا وايديولوجيا وخاصّة حزبيًا وأسّست لمنظومة "الرأي الواحد" و"الحزب الواحد" والزعيم الأوحد"...، التي تكرّست بوضوح على أرض الواقع وأثبتت بما لا يدعو للشك أنها تمرّ بمحنة عميقة. ولهذه المحنة مؤشرات عديدة، من أهمّها الفجوة العميقة بين السياسات التي تطبّقها تلك النخبة والمطالب الشعبية من ناحية، وخداعها لشعبها من ناحية أخرى!

وقد أثّرت هذه السياسة سلبًا على المشهد السياسي طيلة العقود الثلاثة من الحكم البورقيبي وألقى بضلاله على الحياة السياسية طيلة أكثر من عقدين من حكم بن علي. ونتيجة لذلك لم تتمكّن بعد ستين سنة من استقلال البلاد من تضميد جراح الماضي وما اعتراه من جراح وآلام وضغائن وأحقاد...، ولا من كتابة تاريخ موضوعي بطرق ومواصفات علمية بعيدة عن الحسابات السياسية. ونتيجة لذلك كان تاريخها ذاتيًا نرجسيًا وثأريًا ومشوّهًا في الغالب، بعيدًا كل البعد عن المعايير والمقاييس العلميّة الموضوعيّة المعمول بها في جميع دول العالم. ولا يمكن في اعتقادنا التأسيس لهذا الجنس من الكتابة إلاّ بتوفّر جملة من الشروط الموضوعية والذاتية في أوساط النخبة السياسية التونسية. ويمكن تلخيص الشروط الموضوعية في الجوانب التالية: وضع جميع الأرشيفات والأرصدة الأرشيفية والوثائق التاريخية في مراكز مختصّة بعد تصنيفها وجردها وتبويبها من قبل خبراء في علم الأرشيف ومختصّين في التاريخ المعاصر وتاريخ الزمن الراهن وفتحها أمام كل الباحثين والمؤرخين دون استثناء (مهما اختلفت توجهاتهم الأيديولوجية والفكرية وانتماءاتهم السياسية) وذلك بعد استيفاء الشروط المعمول بها دوليًا للنفاذ للأرشيفات والتأكد من أنّ عملية فتحها لا تمسّ بسلامة وأمن الدولة والدول المجاورة والصديقة لتونس وكذلك الشخصيات التي ما تزال على قيد الحياة أو أبنائهم وأحفادهم.

أمّا الشروط الذاتية فهي بالأساس: الابتعاد عن الشخصنة و"الاستنقاع السياسي" باستقطاب جميع الكفاءات المغيّبة من الحقل السياسي من جهة، وتدبير ثقافة ديمقراطية حزبية من جهة ثانية وخاصّة التأسيس لمشروع كتابة تاريخية موضوعية لكل مكوّنات المجتمع دون استثناء...، لأنّ النخبة السياسية أينما كانت ليست في نهاية المطاف موضوع دراسة وتحليل وكتابة من قبل المؤرّخين والباحثين، بل يجب أن تكون بالأساس مصنعًا لإنتاج الأفكار والمشاريع والحلول لمجتمعها وإلاّ فإنه ليس لبقائها في السلطة مكانًا.

واليوم بعد سقوط نظام الاستبداد وتحرّر الأقلام والأفواه والعقول في تونس إثر "ثورة" الحرّية والكرامة في تونس، فقد سجّلنا لحسن الحظ عودة "قويّة" للتاريخ منذ الأيام الأولى لسقوط نظام الاستبداد في ١٤ جانفي/يناير ٢٠١١. وقد تجسّمت هذه العودة في حضور غير مألوف للمؤرخين والمناضلين والسياسيّين المغيّبين منذ عقود وذلك في الإذاعات والقنوات التلفزية والمنابر السياسية والفكرية...، بجميع المدن والقرى والأرياف التونسية، إمّا لطرح قضايا وملفات تاريخية أو لإحياء لذكرى أحداث ومحطات وشخصيّات وطنية ومحلية كادت تُنسى كليًا.

ورغم أنّ هذه العودة تُعدّ مؤشرًا إيجابيًا في تونس المتحرّرة، فإنّها لم تخلُ من التوظيف السياسي من قبل أحزاب وشخصيات سياسية داخل نظام الحكم وخارجه طيلة كامل الفترة الانتقالية. وهي في اعتقادنا فترة تستحقّ دراسة مستقلة بذاتها قصد تقييم أشكال حضور التاريخ وعودته على الساحة والتأسيس لإرساء أسس مصالحة فعليّة بين التونسيّين وتاريخهم على أسس علمية سليمة.

ملف العدد

الهَوامِشُ:

(١) من أبرز المؤرّخين الذين أحدثوا ثورة في كتابة التاريخ من أسفل، الأميركي "هوارد زين "Howard Zinn" (١٩٢٢-٢٠١٠) أستاذ التاريخ الأميركي اليساري المناضل الذي أصدر كتابًا بعنوان: "تاريخٌ شعبيٌّ للولايات المتحدة الأميركية". وقد اعتمد فيه على شهادات المقهورين من سكّان البلاد الأصليّين، أو من العبيد الذين استجلبوا من إفريقيا، أو من أبناء الطبقة العاملة الذين استنزفت قواهم المصانع الأولى التي أنشئت في الولايات المتحدة الأميركية.

Howard Zinn, Une Histoire populaire des États-Unis de 1492 à nos jours, Agone, coll. «mémoires sociales», 2002.

وقد تولّى المركز القومي للترجمة في مصر ترجمة هذا الكتاب، وكُتبت عنه سلسلة من المقالات للتعريف به.

(٢) تعود كتابة المذكرات واليوميات من طرف الملوك والرؤساء بمفردهم أو بالاسعانة بإخباريّين وكتاب ومؤرخين إلى العصور القديمة. وبالنسبة للتاريخ المعاصر وبأوروبا والولايات المتحدة تحديدا نذكر مذكّرات كل من: الزعيم شارل ديغول، ورئيس الوزراء البريطاني وانستن تشرشل، والرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران وخلفه الرئيس جاك شيراك، والمستشار الألماني هلموت كول... أمّا بالنسبة الملوك والرؤساء العرب يمكن ذكر مذكّرات كل من: عبد الله بن الحسين، **مذكرات الملك عبد الله**، المطبعة الهاشمية، عمان، ١٩٧٠. واللّواء محمّد نجيب أول رئيس لمصر: **كنت رئيسًا لمصر**، المكتب المصري الحديث، القاهرة ١٩٨٤، ٤٢٠ صفحة. وممدوح رضا، **مذرات الملك طلال**، دار الزهراء للإعلام العربي 1991. والشاذلي بن جديد، **ملامح حياة**، دار القصبة للنشر، الجزائر ٢٠١١، الجزء الأول، ٢٧٩ صفحة. ومختار ولد داده، **موريتانيا على درب التحديات**، دار كارتلا للنشر، باريس ٢٠٠٣ (بالفرنسية):

La Mauritanie contre vents et marées, éditions Karthala, Paris 2003, 650 pages.

وقد أصدر الرئيس الموريتاني السابق معاوية ولد سيدي أحمد الطايع المقيم بالدوحة كتابا بعنوان: **نجاة العرب**، شركة البراق للنشر والتوزيع، الكويت ٢٠١٢، ٤٧٠ صفحة. وهو بمثابة خواطر تحدث فيه عن الربيع العربي والثورات التي تشهدها بعض الدول العربية. وهو ويستعدّ هذه الأيام لإصدار مذكراته بمساعدة عدد من الكتاب والمؤرخين وضعهم على ذمته أمير قطر بمقرّ إقامته بالدوحة... وغيرها كثير.

(٣) عادل بن يوسف، **الطلبة التونسيّون بالجامعات الفرنسية ١٨٨٠-١٩٥٦: دراسة لملامح النخبة العصريّة ومواقفها من أبرز القضايا الوطنيّة والدوليّة**، أطروحة دكتوراه في التاريخ المعاصر تحت إشراف الأستاذ محمّد الهادي الشريف، (٣ أجزاء ١١٤٦ صفحة)، تمّت مناقشتها يوم ٥ أفريل/أبريل ٢٠٠٠ بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس. صدرت في طبعة مخفّفة تحت عنوان: **النخبة العصريّة التونسيّة (١٨٨٠-١٩٥٦): طلبة الجامعات الفرنسية نموذجا**، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بسوسة ودار الميزان للنشر، سوسة مارس ٢٠٠٦، ٨٢٦ صفحة.

(٤) **القاموس المحيط**، حرف السين، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٩٥.

(٥) المرجع السابق.

(6) Alfio Mastropaolo, «La double théorie de la classe politique de Gaetano Mosca», in Revue internationale de politique comparée, n° : 4/2004, Vol. 11, pp. 611-630.

(٧) عادل عامر، **"النخب العربيّة ومطلب الإصلاح الديمقراطي"**، جريدة الإسماعيليّة براس الالكترونيّة بتاريخ ١٨ ماي/مايو ٢٠١٢.

(٨) أ. د. أحمد زايد، **"نخب ما بعد الاستعمار"**، جريدة الأهرام الديمقراطية، الكترونيّة بتاريخ ٠٣ ماي/مايو ٢٠١٢.

(٩) فرحات عبّاس، **الشابّ الجزائري**، جون بارك، باريس ١٩٣١، ص ٩١. [أعيد طبعه سنة١٩٨١] (بالفرنسيّة):

Ferhat Abbas, Le jeune algérien, La jeune Parque, Paris, 1931, p.91, [réédition Garnier, 1981].

(١٠) فرنسوا دوس، **الرّهان البيوغرافي: كتابة حياة**، منشورات لا ديكوفرت، باريس ٢٠٠٥. (بالفرنسيّة):

François Dosse, Le Pari biographique : écrire une vie, éditions la découverte, Paris 2005.

(١١) المرجع السابق.

(١٢) كان أوّل مَنْ نطق بهذه الجملة الكاتب والشاعر والصحفي الفرنسي "روبار برازياك "Robert Brasillach" (١٩٠٩-١٩٤٥) الذي عُرف بتعامله مع النازيّين زمن الحرب العالمية الثانية ومواقفه المتطرفة التي عبّر عنها في النشريات النازية التي أشرف عليها. وتورد بعض المصادر أنه نطق بجملته هذه يوم ٠٦ فيفري/فبراير ١٩٤٥ عندما كان ينفّذ عليه حكم الإعدام بتهمة الخيانة والتعامل مع العدوّ. أمّا من الجانب الأكاديمي فتُنسب المقولة إلى المفكّر ومؤرّخ الفنّ الألماني والناقد الأدبي من أصل يهودي "والتر بنيامين" Walter Bendix Schönflies Benjamin" (١٨٩٢-١٩٤٠) المتأثر بالمادية التاريخية. وقد استعملها من جانب نقدي سنة ١٩٤٠ كي يميّز بين مدوّن الأخبار الذي يتأثر بالمنتصر وبما هو ظاهر، وبين المؤرخ المادي الذي يهتمّ بالإنسان منتصرًا كان أم منهزمًا.

(١٣) تمّ تجميع النصوص والتسجيلات الصوتية لجميع خطب بورقيبة بين ١٩٥٥ و١٩٧٥ وتفريغها وترجمتها إلى الفرنسية. وبحرص من مدير الحزب الدستوري الحاكم والمؤرّخ الرسمي للقصر، الأستاذ محمّد الصيّاح صدرت عن دار العمل بين ١٩٧٧ و١٩٨٤ مبوّبة ومرتبة ترتيبا كرنولوجيا في ٣٤ جزء (باللغتين العربية والفرنسية) تحت عنوان: **خطب بورقيبة**. تُضاف إليها الإصدارات الخاصة بأهمّ محطّات الكفاح الوطني من ٠٢ مارس ١٩٣٤ إلى غاية ١ جوان/يونيو ١٩٥٥.

(١٤) لمزيد التفاصيل حول هذه المحاكمات انظر: جماعي، **المحاكمات السياسية بتونس ١٩٥٦- ٢٠١١**، جزءان، منشورات المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر، جامعة منوبة، تونس ٢٠١٥.

(١٥) لمزيد التفاصيل حول هذه المحاضرات انظر: عبد الجليل بوقرّة، **بورقيبة بلسان بورقيبة**، دار آفاق - برسبكتيف، ٢٠١٥، ٣٨٢ صفحة.

(١٦) **الحبيب بورقيبة**، حياتي آرائي جهادي، **نشريات** وزارة **الإعلام**، ص١٥٠-١٥١.

(١٧) المصدر السابق، ص ١٤٦.

(١٨) خطب الحبيب بورقيبة، الجزء الأول: **خطاب بتاريخ ١٩ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٥٥**، نشريات وزارة الإعلام، تونس ١٩٧٩.

(١٩) الحبيب بورقيبة، **حياتي آرائي جهادي...**، ٢٧٩.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ص ٣٦-٣٧.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٦١.

(٢٢) ملك نوميدي ولد سنة ١٦٠ ق.م قاد أحد أشهر الحروب البربر ضد الرومان بين ١١٠ و ١٠٥ ق.م. وإثر هزيمته اقتيدَ إلى روما حيث حكم عليه بالإعدام. لكنه آثر الانتحار شنقا سنة ١٠٤ ق.م في نافذة زنزانته عن الموت بهذه الطريقة وتلبية رغبة الرومان.

(٢٣) قائد عسكري ورجل دولة قرطاجي ولد بقرطاج سنة ٢٤٧ ق.م التي غادرها في سنّ التاسعة نحو قرطاجنّة بإسبانيا. وفي سنة ٢١٨ ق.م قاد الجيش القرطاجي في الحرب الثانية ضد روما انطلاقا من اسبانيا عابرا جبال الآلب والبيريني بجيوشه وفيلته إلى غاية روما التي حاصرها وكاد يطيح بها إثر عدة انتصارات ضد جيوشها. غير أنّه هزم في الطور الافريقي من الحرب في معركة زاما سنة ٢٠١ ق.م. اضطرّ إلى مغادرة قرطاج للاستقرار بآسيا الوسطى هروبا. لكنّ الرومان لاحقوه إلى غاية

هناك وعند أسره سنة ١٨٢ ق.م. آثر الانتحار على الطريقة الفنيقية بسمّ في خاتمه.

(٢٤) لمزيد التفاصيل حول هذه الاستعارة انظر: عدنان منصر، دولة فصول في الأيديولوجيا والممارسة (١٩٥٦-١٩٧٠)، تقديم الأستاذ حسن رؤوف حمزة، كلية الآداب والعلوم الانسانية بسوسة، تونس ٢٠٠٤، ص ٣٥. ولم يشذّ العقيد الراحل معمّر القذافي عن هذه الصورة حيث نُعت سنة ١٩٧٠ بـ "رسول الصحراء". انظر كتاب: ميريلا بيانكو، **القذافي رسول الصحراء**، الطبعة ١، دار الشورى، بيروت/لبنان ١٩٧٣، ٣٠٤ صفحة. وهو ترجمة للحوارات التي أجرتها معه ميريلا بيانكو باللغة الايطالية. وقد تُرجم إلى عدة لغات وصدر الفرنسية سنة ١٩٧٤ وبالانجليزية سنة ١٩٧٥.

(٢٥) مناضل من الرعيل الأول للحزب. من مواليد مدينة قصر هلال. حوكم سنة 1968 من أجل انتمائه للتيار البعثي في تونس. غادر البلاد ليعيش بين سوريا وفرنسا حيث توفي عام ١٩٧٨.

(٢٦) وهي أوّل زيارة رسمية للعقيد معمّر القذافي لتونس منذ توصول بن علي إلى الحكم في شهر جانفي ١٩٩٠ بمناسبة انعقاد القمّة المغاربية الأولى بتونس بعد إنشاء اتحاد المغرب العربي في مدينة مراكش في ١٧ فيفري/فبراير ١٩٨٩.

(٢٧) مناضل من الرعيل الأول ولد بقرية ميدون من جزيرة جربة في ١٢ مارس ١٩١٣. انخرط في الحزب الدستوري الجديد منذ تأسيسه سنة ١٩٣٤ ونُفي مع زعماءه في سجون ومنافي المستعمر الفرنسي بتونس تونس وفرنسا ولقّب بـ "قائد النضال الحزبي". وكان من أشرف على تأسيس أوّل مدرسة عسكرية للجامعة الدستورية بتونس، ولعب دورا محوريا في إذكاء المقاومة السرية والمظاهرات التي عمّت البلاد بين ١٩٥٢ و١٩٥٤، وعندما ضيّق عليهم الخناق في تونس انتقل إلى ليبيا حيث فتح مكتب الحزب الدستوري بطرابلس وأشرف على تدريب المناضلين الذين ساهموا في معركة التحرير ونال الكثير منهم الشهادة في سبيل ذلك. لكن منذ سنة ١٩٥٥ انحاز علي الزليطني إلى صالح بن يوسف ضد الحبيب بورقيبة. ومن المؤسف أنّ كامل أرشيف علي الزليطني ومكتبته قد تمّت مصادرتها أيام التحقيق في المحاكمة الكبرى لليوسفيّين في جانفي ١٩٥٧. حُكم عليه بعشرين سنة أشغالا شاقة، قضاها بسجن غار الملح. وفي ٣٠ ماي/مايو ١٩٦٠ وقع الإفراج عنه من طرف الرئيس الحبيب بورقيبة. وفي ١٥ أوت/أغسطس ١٩٦٠ تزوج لكنه لم ينجب أبناء. وفي يوم ٢٢ جويلية/يوليو ١٩٦٨ ورغم تفرغه للعمل الفلاحي والنأي عن السياسة ألقي عليه القبض ثانية بتهمة محاولة اغتيال بورقيبة ولم يتمّ الافراج عنه إلاّ في ١٥ جانفي ١٩٦٩. وفي ٥ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٧٦ توفّي علي الزليطني بمرض عضال جراء معاناته في السّجون الفرنسية والتونسية.

(٢٨) **الزعيم علي الزليطني - سيرة ونضال**، تقديم الأستاذ محمد عبد الكافي، تحقيق فوزيّة محمّد حفظي الزليطني، دار صامد للنشر، صفاقس، ٢٠١٣.

(٢٩) عدوان أقدمت عليه القيادة العسكرية الفرنسية بالجزائر صبيحة يوم الخميس ٨ فيفري/ فبراير ١٩٥٨ بحجّة "حقّ الملاحقة" Droit de poursuite" ضد المقاومين الجزائريّن المقيمين بالقرى التونسية والذين كانوا يشنون غارات مفاجئة على أهداف عسكرية فوق التراب الجزائري: ثكنات ومراكز جندرمة... وكان اختيار ذاك اليوم مقصودًا لكونه يوافق يوم سوق أسبوعية يقصدها جميع سكان القرى والأرياف التونسية والجزائرية على حد سواء لشراء مستلزماتهم من غذاء وملبس ودواب... وكانت حصيلة العدوان سقوط ١٣٠ قتيلاً و٤٠١ جريحًا من الجانبين التونسي والجزائري، جميعهم من المدنيّين، ١٠ قتلى من تلاميذ المدرسة الابتدائية في القرية. لمزيد التفاصيل حول العدوان انظر الكتاب الصادر عن المناضل الأستاذ الهادي البكوش (أول رئيس حكومة لنظام بن علي بين ٧ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٨٧ و٢٧ سبتمبر/أيلول ١٩٨٩) بمناسبة الذكرى الخمسين للعدوان في طبعتين فرنسية وعربية:

Hédi Baccouche, L’agression française contre Sakiet Sidi-Youssef: Les faits et les suites, ISHMNT, Université de La Manouba, 2008, 95 pages.

الهادي البكوش، **الاعتداء الفرنسي على ساقية سيدي يوسف: الوقائع والتداعيات**، تعريب أحمد العايد، محمد بلحاج، المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، منوبة تونس ٢٠٠٨، ٩٥ صفحة.

(٣٠) للتذكير كان والد زين العابدين بن علي السيّد حمدة بن علي متعاونا مع السلطات الفرنسية وتحديدًا مع أعوان الجندرمة والأمن الفرنسيّين بجهة الساحل التونسي وأفلت مرارًا من الاغتيال منذ اندلاع المقاومة المسلحة في ١٨ جانفي ١٩٥٢. وفي سنة ١٩٥٤ أقدم الوطنيّون على قتل شقيقه البشير بن علي رغم كونه لم يكن متعاونًا مع الفرنسيّين، بل قريبا من أعضاء الشعبة الدستورية بحمّام سوسة. المصدر: حوار مطوّل أجريناه مع ابن موطنه المناضل والوزير الأول الأسبق لبن علي، الأستاذ الهادي البكوش ضمن برنامج إذاعي بعنوان: "شهادات حيّة" ببيته بتونس العاصمة يوم ٠٢ سبتمر ٢٠١٥. وقد تمّ بثّه في أربع حلقات على أمواج إذاعة المنستير: الحلقة ١ بتاريخ يوم الأحد ٢٧ سبتمبر/أيلول ٢٠١٥.

(٣١) مناضل، سياسي ودبلوماسي من مواليد مدينة المهدية سنة ١٩٢٤. زاول تعليمه الابتدائي بالمدرسة الفرنسية-العربية بالمهدية والثانوي بالمدرسة الصادقية. انخرط في الثورة الجزائرية، واحتضنته الجزائر بعد استقلالها سنة ١٩٦٢، حيث تمّ تعيينه مستشارا بشركة "سوناتراك" النفطية. عُرف بمشاركاته وتنظيمه لعديد المظاهرات رفقة شباب المهدية المنخرطين في الشبيبة الدستورية وفي الكشافة التونسية للتنديد بسياسة فرنسا الاستعمارية خاصة إبّان الحرب العالمية الثانية. وبنهاية الحرب اتّهم باتعاطف مع لنازية والعمالة للألمان وحوكم من أجل ذلك. في سنة ١٩٥٥ ساند صالح بن يوسف و"الأمانة العامة" وربط علاقات متينة بالنخبة السياسية الجزائرية وفي مقدمتهم أحمد بن بلّة وهواري بومدين الذي مكّنه من شقّة جزاء خدماته للثورة الجزائرية. لكنه كان يخشاه لاجتماع المعارضين لنظامه بشقته. ألّف عدة كتب من أبرزها: مأساة أحمد بن صالح: التضليل الاشتراكي في النظام البورقيبي، دار العودة للنشر، بيروت ١٩٧١. والبديل الثوري في تونس، دار الكلمة للنشر، بيروت ١٩٧٩ الطبعة ١، ٣٤٤ صفحة. وسقوط البورقيبية، (د.ت)... وفي سنة ١٩٨٣ أصيب بسرطان الحنجرة ورغم تردده على مستشفيات باريس وجنيف للعلاج فقد توفي يوم ١٣ جويلية/يوليو ١٩٩٠ ونُقل جثمانه الى مسقط رأسه بالمهدية حيث دُفن في موكب حضره عدد كبير من رجال السياسة والثقافة من تونس وعديد الدول العربية.

(٣٢) من مواليد مدينة المنستير سنة ١٩١٥ ناضل في صفوف الحزب الحر الدستوري منذ سنة ١٩٣٨ وعرف الملاحقة والسجن كما صدر ضده حكمان بالإعدام، الأوّل غيابيًا من المحكمة العسكرية الفرنسية بتهمة التعاون مع قوات المحور إبّان الحرب العالمية الثانية والثاني من قبل محكمة القضاء العليا بتونس مطلع الاستقلال بتهمة مناصرة الزعيم صالح بن يوسف. استقر بليبيا ومصر وبالجزائر ثمّ بالأرجنتين حيث كان "سفيرا" للقضيّة الفلسطينية بأمريكا اللاتينية. توفّي ببيونس أيرس يوم ١٢ ماي/مايو ٢٠١٢ عن سنّ تناهز ٩٧ سنة ودفن في روضة الشهداء بمقبرة الزلّاج. من أهمّ مؤلفاته: "هذه فلسطين: الصهيونية عارية" (تونس ١٩٧١، ٤٤٨ صفحة).

(٣٣) من مواليد مدينة القلعة الكبرى سنة ١٩٢٨. زاول تعليمه الابتدائي بمسقط رأسه والثانوي بالمدرسة الصادقية منذ سنة ١٩٤٢ حيث تراس "الشبيبة الدستورية" بهذه المدرسة كما انخرط في الحزب الدستوري الجديد منذ شبابه. اضطلع بدور هام في المقاومة زمن الكفاح المسلّح بين ١٩٥٢ و١٩٥٤. إثر إمضاء اتفاقيات الاستقلال الداخلي في ٠٣ جوان/يونيو ١٩٥٥ وانضمّ على شقّ الأمانة العامة بقيادة صالح بن يوسف وغادر البلاد ليستقرّ بليبيا ومصر والجزائر. وفي سنة ١٩٥٦ حكم عليه غيابيا بالإعدام. ولم يدخل البلاد إلاّ بعد صدور عفو رئاسي من الرئيس بورقيبة في حقّه سنة ١٩٧٨. توفي سنة ٢٠٠٨ ودفن بمسقط رأسه بالقلعة الكبرى.

(٣٤) محمّد نبيل الشيمي، **النخبة في العالم العربي دراسة وصفيّة نقديّة**، موقع الحوار التمدّن، عدد ٣١١٣، ٠٢ سبتمبر/أيلول ٢٠١٠.

(٣٥) شهادة أحد النشطاء الحقوقيّين بمدينة المهدية ممّن حضروا موكب الدفن.

(٣٦) هذه المذكّرات في الأصل مخطوطة كان قد حرّرها الطاهر خير الدين سنة ١٩٣٥ باللّغة العربية وهي تتطابق مع سيرته الذاتية التي حرّرها باللّغة الفرنسية سنة ١٩٢١. وهي من مخلّفات المنضل الصادق الزمرلي. وكان قد عثر عليها ابنه عدنان الزّمرلي فسلّمها إلى الأستاذ حمّادي الساحلي الذي تولّى تحقيقها ونشرها تعميما للفائدة. انظر: فتحي اللّواتي، " قراءة: الوزير طاهر باشا خير الدين (١٨٧٥-١٩٣٧) مذكّرات وخواطر"، المجلّة الصادقية، سلسلة جديدة العدد ١١، أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩٨، ص ٦١.

(٣٧) يمكن تصنيف هذا الإصدار ضمن الكتب الحضارية المتّصلة بالإسلام والمشرق العربي وعلاقتهما بالغرب...، غير أنّه قد تضمّن فصلاً خصّصته الصُّحفيّة المحاورة للأستاذ الشاذلي القليبي لتجربته وذكرياته السياسية وخاصة الدبلوماسية منها، كوزير سابق لبورقيبة وكأمين عام سابق للجامعة العربية على امتداد ١٥ سنة متتالية.

(٣٨) لمزيد التفاصيل حول هذه المسألة وبعض الأمثلة الدقيقة حولها، يرجى الرجوع لدراستنا: **"كتابة المذكّرات والسّير الذاتيّة: رصد وقراءة لإصدارات السياسيّين والنقابيّين التونسيّين منذ سنة ١٩٥٦"**. أعمال مهداة إلى الأستاذ عبد الجليل التميمي، كتاب في جزئين (عربي وفرنسي)، جمع النصوص وقدّم لها الأستاذ إبراهيم السعداوي، منشورات مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية للنشر والجمعيّة التونسيّة المتوسطية للدراسات التاريخيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، تونس ٢٠١٣، ص٤٣٩-٤٧٨.

(٣٩) عدنان المنصر، **"جوانب من شخصية الدكتور الماطري من خلال مذكّراته**، المجلّة الصادقيّة "، عدد ٣، جوان/يونيو ١٩٩٦، ص ٧٦.

(٤٠) المرجع نفسه.

(٤١) انظر في الغرض دراستنا بعنوان: **"المرأة والسلطة في تونس خلال فترة الحكم البورقيبي: وسيلة بورقيبة نموذجًا"**، مداخلة بأعمال المؤتمر الخامس حول: **نهاية حكم بورقيبة والقيادات السياسيّة العربية بين الصعود والانحدار**، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، مارس ٢٠٠٥، منشورات مؤسسة التميمي ومؤسسة كونراد أديناور، تونس مارس ٢٠٠٦، ص ٣١-٦٧.

(٤٢) عدنان المنصر، **"المذكّرات الثأرية أو محاكمة الماضي: قراءة في بعض نماذج من المذكّرات السياسيّة التونسية المعاصرة"**، مجلّة روافد، مجلة المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، العدد الأول، ١٩٩٥، ص ٢٩.

(٤٣) لمزيد التفاصيل حول هذه المذكرات والسير الذاتية انظر دراستنا: عادل بن يوسف، **"كتابة المذكّرات والسّير الذاتيّة: رصد وقراءة لإصدارات السياسيّين والنقابيّين التونسيّين منذ سنة ١٩٥٦"**، ورد في أعمال مهداة إلى الأستاذ عبد الجليل التميمي، كتاب في جزين (عربي وفرنسي) سلسلة من الدراسات والمقالات بأقلام مؤرّخين من تونس وسائر أنحاء العالم، جمع النصوص وقدّم لها الأستاذ إبراهيم السعداوي، منشورات مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية للنشر والجمعيّة التونسيّة المتوسطية للدراسات التاريخيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، تونس ٢٠١٣، ص٤٣٩-٤٧٨.

(٤٤) محسن ع، "النسخة الأولى كانت بطلب من بورقيبة: صدور الجزء الرابع من كتاب **"تاريخ تونس"**، جريدة الشروق ليوم ٢٣ جوان/يونيو ٢٠١٠.

(٤٥) جماعي، **تونس عبر التاريخ**، تأليف نخبة من الأساتذة الجامعيّين بإشراف الأستاذ خليفة شاطر. ٤ أجزاء، نشر مركز الدّراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس ٢٠٠٥.

(٤٦) ما يزال بعض الزملاء من أساتذة التاريخ المعاصر بالجامعة التونسية مؤاخذين إلى اليوم نتيجة مشاركتهم في تأليف هذا الجزء الرابع الخاصّ بتاريخ "تونس التحوّل" وخضوعهم لإملاءات الأستاذ زهيّر مظفّر.

(٤٧) لمزيد التفاصيل حول هذه الممارسات انظر الكتاب الأبيض الصادر عن رئاسة الجمهورية بمناسبة الذكرى ١٣ لرحيل الزعيم بورقيبة والمتضمّن لعديد الرسائل المتبادلة بين بورقيبة وبن علي وبعض رفاق دربه وأفراد عائلته... **الكتاب الأبيض حول السنوات الأخيرة من حياة الرئيس الحبيب بورقيبة**، رئاسة الجمهورية، الدائرة الثقافية، تونس ٠٤ أفريل/أبريل ٢٠١٣، ٩١ صفحة.

(٤٨) **سامي الشريف**: من مواليد سنة ١٩٦١، أصيل جهة قابس وخرّيج الجامعة التونسية. متحصل على دكتوراه في الاقتصاد من جامعة باريس ١ (السربون).... تجمّعي خالص ومناشد مستميت ومكوّن قار وعضو باللجنة المركزية للتجمّع وعضو بلجنة التفكير القارة للتجمّع. قاد حملتيْ الرئيس بن علي في سنة ٢٠٠٤ و سنة ٢٠٠٩ وكان مرشّحا بارزا لنفس الخطة في الانتخابات الرئاسية لسنة ٢٠١٤ التي لحسن الحظ لم تتمّ بسبب سقوط النظام يوم ١٤ جانفي ٢٠١١. خلال أكثر من عقد أشرف على تأطير التجمعيّين من رؤساء شعب وجامعات مهنية وترابية... كما عمل صلب إدارة التجمع بالقصبة وبعدها بشارع محمّد الخامس كمكوّنٍ سياسي بارز صلب الأكاديمية السياسية للتجمّع المنحلّ وتخرّج على يديه العديد من كوادر الحزب الحاكم. ألّف عديد الكتب "النوفمبرية" من أبرزها كتاب "بن علي وخيار المستقبل". تمّ بعد ١٤ جانفي ٢٠١١ طرده من "معهد تمويل التنمية للمغرب العربي" إيفيد "I.FI.D" L'Institut de Financement du "Développement du Maghreb Arabe ورُفعت في وجهه العبارة الثورية الشهيرة "إرحلDégage"".

(٤٩) خصّصت اللجنة الوطنية لتقصّي الحقائق حول الفساد والرشوة حيزا هاما من تقريرها الصادر في نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠١١، لملف "الوكالة التونسية للاتصال الخارجي"، تضمّن قضايا عديدة تتعلّق بالخصوص بسوء التصرف في الموارد البشرية والفساد المالي صلب الوكالة والهدر المفرط للمال العام، كان المثقفون التونسيّون وخاصّة

الأجانب - وفي مقدمتهم الجامعيّون - من أبرز المنتفعين به. راجع التجاوزات في: **التقرير النهائي للجنة الوطنية لتقصّي الحقائق حول الفساد والرشوة**، تونس، ١١ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠١١، ٥٠٠ صفحة.

انظر النصّ الكامل للتقرير على الموقع الالكتروني التالي:

http://www.fichier-pdf.fr/2011/11/13/fichier-sans-nom-3/

(٥٠) زينب **جويلي**، بن علي نقطة سوداء في تاريخ المثقف التونسي، **تصريح لقناة صدى البلد ليوم ٢٨ فيفري/فبراير ٢٠١٢.**

(٥١) المرجع السابق.

(٥٢) شهادة الأستاذ عبد الجليل التميمي.

(٥٣) **محمّد الطّاهر** المنصوري، جزيرة قبرص في المصادر العربيّة الوسيطة **(بالفرنسية):**

Mohamed Tahar Mansouri, Chypre dans les sources arabes médiévales, Nicosie, Centre de recherche scientifique, 2001.

شهادة المرحوم الأستاذ محمّد الطاهر المنصوري.

(٥٤) لمزيد التفاصيل حول مكانة وأدوار المثقفين والجامعين منهم تحديدًا زمن حكم بن علي انظر دراستنا: عادل بن يوسف، "دور المثقّف في المجتمع: الجامعيّون زمن حكم بن علي (١٩٨٧-٢٠١١) نموذجًا"، مداخلة بندوة المعهد التحضيري للدراسات الأدبية والعلوم الانسانية بتونس بعنوان: **الثقافة والالتزام** المنعقد أيام: ١٣، ١٤ و١٥ أفريل/أبريل ٢٠١٣، منشورات أشغال الندوة، تونس ديسمبر/كانون الأوّل ٢٠١٥، ص ١١٥-١٦٥ صفحة.

(٥٥) محمّد أبو العينين، "**كيف يكتب تاريخ مصر التاريخ يبدأ حين تنتهي السياسة**"، جريدة الأهرام ليوم 25 أكتوبر/تشرين الأول ٢٠١٣.

(٥٦) المرجع السابق.



Historical Kan Periodical
ISSN: 2090 – 0449 (Online).
Peer-reviewed, open-access journal, indexed and abstracted in several international databases.

info@kanhistorique.org